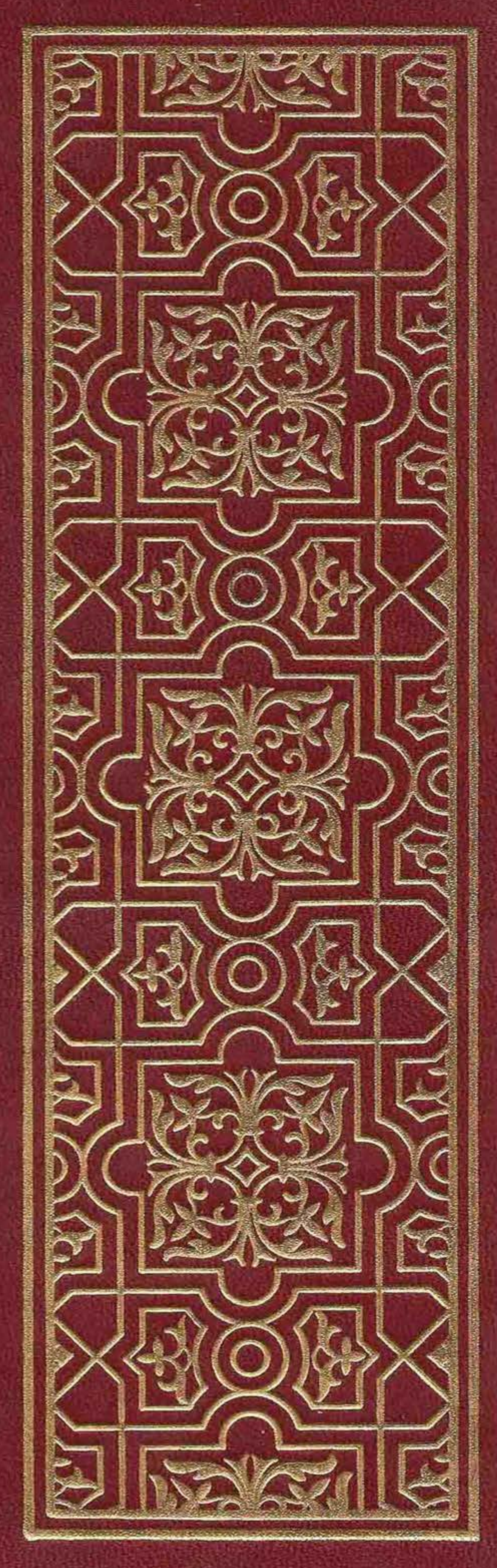
ممتاز العارف

الأحباش بين مأرب وأكسوم



منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

ممتاز العارف

الأحباش بين مأرب وأكسوم

لمحات تاريخية من العلاقات العربية الحبشية
ونشوء اثيوبيا الحديثة

منشورات المكتبة العصرية
بيروت - صيدا

رقم الايداع فى المكتبة الوطنية
بغداد ١٧٣ لسنة ١٩٧٥



المقدّمة

امضيت في القارة الافريقية زهاء ثماني سنوات بمناسبة عملي في خدمة منظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة . فجبت امصارها واصقاعها ـ من حدودها الشمالية على البحر الابيض المتوسط حتى جزيرة مدغشقر الى الجنوب الشرقي منها ، ومن الصومال على المحيط الهندي الى نايجيريا على المحيط الاطلنطي . الا انه من بين كافة اقطار هذه القارة العملاقة كانت الحبشة القطر الوحيد الذي ترك في ذاكرتي وفي أعماق نفسي احاسيس وانطباعات لا تمحى .ففي الاقطار الاخرى كان كل ما في مظاهر الحياة العامة اليومية واساليب أعمال الناس ، وفي بعض الحالات حتى معيشتهم يعكس طابع الدول الاوروبية التي استعمرتهم ، ما عدا الحبشة . فقد برزت فيها صفات ومميزات أصيلة عديدة ، مما جعلها تختلف اختلافا كليا عن بقية أقطار القارة السوداء . والى جانب ذلك فقد وجدت فيها من المتناقضات ما لم أجده في اي قطر آخر . فعلى الرغم من ماضيها الحضاري بالنسبة للشعوب الافريقية الاخرى ، وانها كانت أول دولة أفريقية وضعت قدمها في عصبة الامم كبلد مستقبل ذي كيان قديم في أوائل العشرينات من هذا القرن ، وكانت من بين الدول التي ساهمت في تأسيس هيئة الامم المتحدة سنة ١٩٤٥ في سان فرنسيسكو ، الا أن قدمها الاخرى ما زالت راسخة في ظلمات العصور الوسطى .

فالحبشة على مدى تاريخها العريق لم تقع تحت احتلال دولة اجنبية . وظلت طوال ٣٠٠٠ عام محافظة على تراثها واستقلالها ـ ما عدا فترة خمس سنوات خلال الغزو الايطالي لها ، ١٩٣٥ ـ ٤١ . فبينما كان الافريقي في وطنه وفي عقر داره يخدم الاوروبي الاجنبي ، كان هذا الاوروبي يخدم الحبشي في الحبشة . وان شعور الزائر أو السائح عند نزوله في مطار اديس ابابا لاول مرة هو غير شعوره عند نزوله في



تناناريف عاصمة جمهورية ملفاسي (جزيرة مدغشقر) ، او لاغوس في نايجيريا . ففي اديس ابابا يواجه الزائر تراثا أصيلا وطابعا اجتماعيا لأمة عريقة يلمسه في المحيط وفي اللغة التي ينطق بها المستخدمون في المطار ويكتبونها ــ وهي الامهارية ، لغة البلاد الرسمية . بينما في تناناريف يتكلمون الفرنسية ويكتبون بالفرنسية . وفي لاغوس يتكلمون الانكليزية ويكتبون بها . وحتى بعد ان حصلت البلاد الافريقية على استقلالها فقد اضطرت للاحتفاظ بلغة الدولة المستعمرة كلغة للتفاهم والتدريس والمعاملات الرسمية والتجارية . ولولا ذلك لانقطع التيار الحضاري عن هذه البلاد بسبب افتقارها الى لغة وطنية مفهومة من الجميع أو على الاقل من غالبية السكان . ومثال واحد من عشرات الامثلة على ذلك هو ساحل العاج الذي يضم حوالي ٦٠ مجموعة قبلية لا تشترك بلغة واحدة مفهومة من الجميع . فاعتماد ساحل العاج على الفرنسية كان امرا لا بد منه والوسيلة الوحيدة لضمان وحدة البلاد وتماسكها على عهد الاستقلال . (١)

والحبشة على مر الايام والعصور كان ارتباطها بالشرق وتطلعها نحوه ــ عبر البحر الاحمر ونحو البلاد الواقعة الى الشمال . فحضارتها السامية وفدت اليها من جنوب الجزيرة العربية . وعبر البحر الاحمر كانت تمر تجارتها منذ أقدم الازمنة ، وكذلك عبر وادي النيل . وبعد أن تنصرت في أوائل القرن الرابع الميلادي صارت تطلعاتها حيث محور امانيها نحو الشمال بسبب ارتباط كنيستها بالكنيسة القبطية المرقسية بالاسكندرية . وطفق الاحباش يشدون الرحال للحج الى بيت المقدس، وتكونت منهم على مر الزمان جالية حبشية مستقرة هناك . ونلاحظ أن خلال هذه الحقبة الزمنية الطويلة لم يكن للحبشة روابط مهمة ــ دينية كانت ام تجارية ام غيرها ــ مع جاراتها الافريقيات الى الجنوب ، تلك الجارات التي كانت غارقة في أعماق الوثنية والسحر . وبعد ظهور الاسلام شبهها بعضهم ب ((جزيرة مسيحية وسط بحر من الاسلام والوثنية)) . وكتب عنها بعضهم ((أنها في أفريقية لكنها ليست منها)) . فالحضارة واللغة والدين جاءت اليها من وراء البحر الاحمر ــ من المشرق العربي ، فما أصدق هذا القول ــ انها في افريقية جغرافيا ، اما روابطها الاساسية فخارج هذه القارة . فكم كنت اقف وأتأمل في مظهر البدوي وهو يرعى الابل في بلاد الادارسة في عسير (٢) ، في السواحل الملتهبة بين صبيا وجيزان وفي الشبه الذي كان يحمله لذلك الدنقالي على

1— Wax and Gold, by Donald N. Levine — page 3.

٢ ــ تقع عسير اليوم ضمن المملكة العربية السعودية .



الساحل الغربي لهذا البحر ـ في شعره المنفوش كالشمسية وقد غرس فيه عودا صغيرا أو ريشة ، تماما كما يفعل نظيره في ارض الدناقلة على الجانب الآخر وقد قلبت الشمس سمرة بشرته الى سحنة برونزيـــة داكنة .

هذه العناصر الانسانية في تاريخ الحبشة العريق وتطوراته الحديثة اضافة الى تشابك مصالح البلاد العربية الواقعة على البحر الاحمر مع مصالحها منذ فجر التاريخ هي التي استهوتني ودفعتني للكتابة عنهـا . ففيما عدا ما يتعلق بالنواحي التاريخية والجغرافية الاكاديمية والحقائق الثابتة الاخرى عن البلاد فقد دونت مشاعري وانطباعاتي الشخصية عنها وكذلك اختباراتي الاصيلة النابعة من مدى اتصالاتي بالمسؤولين والناس على مختلف الطبقات والاصعـدة . وفي السـنين الـتي عرفت خلالهـا الحبشة قمت بجولات وزيارات لمختلف أنحاء البلاد بصورة متكررة بحكم عملي . فشمل ذلك المدن الرئيسية كما شمل أقصى البقاع النائية فـي اريافها الواسعة المنعزلة . لقد شرعت بكتابة هذا الكتاب بعيد عودتي الى العراق سنة ١٩٦٩ . وكنت علـى وشـك الفراغ منه عندمـا انـدلعت اضطرابات سنة ١٩٧٤ باعلان الفرقة الثانية في الجيش الاثيوبي المرابطة في ارتيريا العصيان على الحكومة المركزية في ٢٦ شباط (فبرايـر) . فجاءت كتابة معظم الفصول في عهد ، وكتابة المقدمة ـ وهي آخر مـا كتبت ـ في عهد آخر . وبسبب هذا التطور الذي كانت له ابعاد بالغـة الاثر في الكيان الحبشي ، اضطررت الى اعادة النظر فـي بعض الفصول وحذف ما اصبح غير متناسب مع واقع الحـال او تبديـل صيغة كثير من الامور من الحاضر الى الماضي . كما وجدت ان مـن المناسب والمفيد اضافة فصول جديدة تناولت الاحداث التي وقعت بعد حركة العصيان.

ان التطورات الاخيرة في الحبشة احدثت فراغا سياسيـا مجهول العواقب في الوقت الحـاضر . وهنـا تبرز اهمية تحرك الدبلومـاسية العربية للمساهمة مساهمة ايجابية فـي ملئـه . فمنطقة البحر الاحمر تتمثل فيها مصالح متعددة الجوانب للدول العظمى ، وخاصة الولايـات المتحدة الاميركية . ومما زاد الوضع الاقليمي خطورة ، كما هو معروف، والموقف الدولي تعقيداً هو نفاذ اسرائيل قبل هذا الـى هـذه « البحيرة العربية » وسبق ارتباطها بالحبشة عسكريا وتجـاريا وثقافيا . وممـا سيضفي على هذا الموضوع اهمية أعظـم فـي المستقبـل القريب اعـادة فتح قناة السويس بوجه الملاحة الدولية . فالعرب مدعوون اكثـر من اي وقت مضى لتحديد موقفهم فيما يتعلق بأبعاد مصالحهم فـي هـذه المنطقة الحساسة بشكل محدد واضح بقدر ما يتعلق الامر بالحبشة على اساس من التفاهم الصريح التام في ضوء مرامي السيـاسـة التي اعلنهـا



رجال العهد الجديد في أديس ابابا وبوحي من مبدا التضامن الافـرو ـ اسيوي .

فالملافات السياسية التي كانت قائمة بين غالبيـة الـدول العربية واثيوبيا (الحبشة) قبل أن تقطع هذه علاقتها الدبلوماسية مـع اسرائيل في ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ لم يكن طابعهـا الثقـة الصميمية المتبادلة . والسبب في ذلك واضح هو أن الدول العربية لم تكن مرتاحـة لارتماء الحبشة بأحضان اسرائيل ومغازلتها بشكل سافر غير مكترثة برد الفعل السلبي الذي كان قد خلفه ذلك في نفوس جاراتها وغير جاراتهـا العربيات . بقي لنا ان نترقب الى أي مـدى سيطبق العسكريـون فـي اثيوبيا الشعار الذي اتخذوه رمزا وأساسا لسياستهم في الحكم ـ وهو ((اثيوبيا أولا)) . هذا هو المبدأ الـذي أعلنـه رئيس المجلس العسكري للدبلوماسيين الاجانب في أديس أبابـا فـي اعقـاب خلـع الامبراطـور هايلا سيلاسي . ان ما يهمنا من هذا الاتجاه بالدرجة الاولى هو معرفـة المكانة التي سيخصصها حكام اثيوبيا العسكريون للمصالح العربيـــة ـ الاثيوبية بالمقارنة مع المصالح الاثيوبية ـ الاسرائيلية في ضوء هذا الهدف ـ ((اثيوبيا أولا)) .

يجدر بالضباط الحاكمين أن يضعوا هذا المبدأ موضع التنفيذ فـي الاصلاحات الداخلية التي اعتزموا القيام بها . ويجدر بهم كذلك تطبيقها في ضوء الكلمة التاريخية الثمينة لزميل ورائد لهم من الـرعيل الاول ، فاه بها قبيل تنفيذ حكم الاعدام فيه على أثر فشل حركـة الانقلاب سنة ١٩٦٠ . هذه هي كلمة الجنرال منفيستو نواي (٣) قالها في دفاعه عـن نفسه أمام المحكمة العسكرية التي قضت باعدامه .

وقبل اختتام هذه المقدمة أود أن اخاطب المسيحيين مـن القـراء بصراحة تامة وقلب مفتوح بشأن ما ورد بين سطور الكتاب من نقد لبعض ما هو سوى رجال الدين الاقباط في الحبشة . فأملي أن لا يحملوا ذلك على محمل العصبية الدينية أو أن يعتبروه تحاملا موجها للمسيحية . فان ما ظهر في بعض جوانب الكتاب ما هو سوى مجرد كشف لحقيقة ثابتة ، هي ان في الحبشة ، كما في غيرها من بلدان العالـم المتخلفـة ، طبقـة كبيرة من الناس عرفت بضحالة مداركها وضيق نظرتها للمفاهيم الدينية الصحيحة ، وعاشت على المجتمع عيشة ارتزاق وتطفل باسم الدين . ان أول من كشف هـذه الحقيقة الكتاب والنقاد الاوروبيون المسيحيـــون انفسهم .

---

٣ ـ انظر الفصل الحادي والعشرين (انقلاب عقيم ـ محاكمات وانتحارات) .



ولا بد لي من توضيح نقطة مهمة اخـرى تتعلق بكتابـة الالفـاظ والكلمات الاجنبية . فمن مشاكل ذلك انتخاب الحرف الذي يناسبها في اللغة العربية دون أن تفقد ، قدر الامكان ، صحة ودقة اللفظ الاصلي . فالحرف G بالانكليزية مثلا لا يوجـد له مقابـل او نظير بالعربيـة الفصحى . غير آنه في اللهجات العامة الدارجة فهو يشبه حرف آل (ڤ) كما ينطق به العراقيون والسودانيون والليبيون وسكان صعيد مصر واهل الجزيرة العربية ما عدا العدنيين . ولذلك فقد آثرت اختيار حـرف ال (غ) بالعربية في كتابة كافة الاسماء والكلمات الحبشية التي يرد فيهـا اللفظ المشابه لحرف G الانكليزي . فعلى سبيل المثال كتبت اسـم قبائل Galla ـ غالا ، واسم البلدة المعروفة Jigjiga ـ جيغجيغا ، واسم اقليم Tigre ـ تيغره .

بغداد ١٦ آذار (مارس) ١٩٧٥ — المؤلف

الفصل الاول

البلاد وأهلها

الحاميون وبلاد كوش

ليس بين أيدينا معلومات واضحة مدونة ، لفترة ما قبل التاريخ ، عن السكان القدماء الذين عاشوا في الاجزاء التي يتكون منها الشمال الشرقي من أفريقية ــ المعروفة بالقرن الافريقي ــ والتي تحتل اثيوبيا الحديثة جزءا كبيرا منها . غير انه من الثابت ان شعوبا حامية او « كوشية » استوطنت هذه الاصقاع منذ فجر التاريخ ، وقد يكون ذلك قبل مجيء العنصر الزنجي اليها (١) . وفي نظرية اخرى ان الحاميين وفدوا على هذه الديار بموجات قوية متعاقبة فدفعوا بالزنوج أو السكان الاصليين الى الداخل فانحصرت الرقعة التي استقر بها العنصر الزنجي في جيوب معينة في المناطق الغربية والجنوبية من البلاد . ثم امتزج بمرور الايام الدم الحامي بالدم الزنجي في المناطق الملاصقة لهذه الجيوب . اما الموطن الاصلي لهؤلاء السكان او الكوشيين فما زال لغزا تاريخيا . اهم من أصل افريقي ، كما تذهب اليه مدرسة المستشرق النمساوي ليو راينيش Leo Reinisch (٢) ، أم هم المهاجرون الاول الذين جاءوا عن طريق الجزيرة العربية ، كما تتجه الانظار اليوم في ضوء المكتشفات الاثارية الحديثة .

وقد اتسعت مواطن الحاميين حتى شملت بلاد النوبة ومصر العليا. وبصورة عامة فيمكن القول بأن كافة الاراضي الواطئة ، ابتداء من مواطن قبائل البيجه في السودان حتى مصب نهر جوبا (في الصومال) على المحيط الهندي أصبحت تحت نفوذهم . وقديما عرفت هذه الرقعة الجغرافية الواسعة كلها ببلاد كوش وسكانها بالكوشيين . وهكذا جاء

1— The Abyssinians, by David Buxton — page 23.
2— Encyclopedia Britannica.



ذكرها في « العهد القديم » تحت اسم كوش . واطلق الاغريق على هـذه البلاد وشعوبها اسم « اثيوبيا » ويعني « الوجه المحروق » ـ من لفحة الشمس . وشمل ذلك قدماء المصريين وقبائل البيجه المنتشرة في شرقي السودان والاجزاء الغربية من أرتريا وقبائل بني عامر الذين يحتلون جزءا من الشريط الساحلي بجوار ميناء مصوع . والى اليوم تتكلم هذه القبائل لهجة كوشية ممزوجة بالعربية ولهجات اخرى . وامتازت عن غيرها من القبائل الحامية انها لم تمتزج بالعنصر الزنجي كثيرا فاحتفظت بأصالتها ونقاوة دمها لدرجة بعيدة كما هو واضح من ملامحها الخارجية . فتتميز باستطالة الرأس واعتدال طول القامة واستقامة الانف . أما لون البشرة فيتدرج من السمرة الممزوجة بالاصفرار الـى البني النحاسـي . وأمـا الشعر فمتجعد عادة غير أنه ليس بصـوفي الشكل والملمس ، ولا كثـا كشعر الزنوج ، ولحى رجالهم عادة خفيفة المنبت . والشفاه غليظة احيانا الا انها غير مرتدة الى الخارج كشفاه الزنوج .

اصل الاحباش

تجمع المصادر التاريخية على أن قبائل سامية من جنوب الجزيـرة العربية نزحت بموجات متعاقبة عبر البحر الاحمر وغزت المرتفعات التي يقطنها الحاميون وانبثوا بينهم وامتزجوا بهـم وبمرور الايـام ، وبحكـم تفوقهم الحضاري فرضوا أنفسهم عليهم . أمـا متى حـدث هـذا الغزو الجماعي فيصعب تحديد ميعاده ، وقد يرجع تاريـخ ذلـك الـى عصور متباعدة في أعماق التاريخ . الا أنه يبدو أن في حوالي سنة ١٠٠٠ قبـل الميلاد (٣) قامت أعداد غير قليلة من القبائل فـي الجنوب العربـي بغزو متواصل متعاقب للاجزاء الشمالية في هضبة الحبشة ـ اقليم أرتيتريا حاليا ـ كما اندفع بعضهم عبر مضيق باب المندب الى هضبة هرار فـي القسم الشرقي من المرتفعات . ومـع هـؤلاء المستوطنين الجـدد دخلت لهجاتهم السامية وحضارتهم السبئية بمـا في ذلـك الخـط السبئي ، ومهاراتهم العمرانية والزراعية .

وسرعان ما تأقلم هؤلاء الوافدون في محيطهم الجديد ونشروا الكثير من أوجه تراثهم السبئي الاصيل وزرعـوا بذور حضارتهم بين السكان الاصليين الذين لم يكونوا قد تجاوزوا طور الحياة البدائية . وامتزج الدم السامي بالدم الحامي على تعاقب الايام وأصبح هذا المزيج البشري المطعم يعرف ب « الاحباش » . وفي رواية عن مصدر الاسم أنه جاء نسبة الـى احدى القبائل اليمانية المعروفة باسم « حبشات » ومنها اشتهرت البلاد

3— Ethiopia, by Richard Greenfield — page 16.



باسم « الحبشة » أو « ابيسينيا Abyssinia » كما حرفها البرتغاليون . اذن فقد ورثت هذه البلاد الاسم من احدى القبائل النازحة ، كما ورثت أول لغة مكتوبة (لغة الجعيز Géez) من قبيلة يمانية اخرى يدعى افرادها « الاجاعز » (٤) . الا ان الاحباش يتنكرون للفظة « الحبشة والاحباش » التي تحمل معها معاني الخلط والمزج أو عدم التجانس ، زاعمين أن العرب أطلقوا هذا الاسم عليهم من قبيل الازدراء والتجني عليهم . ورجعوا الى التسمية التاريخية وهي « اثيوبيا Ethiopia ،مع أنهم في كلامهم الدارج فيما بينهم ما زالوا يطلقون على انفسهم كلمة « حبشات » .

هذا ويقترن انبثاق الحضارة السامية المنشأ فوق ربوع الهضبة بقيام مملكة اكسوم العريقة (٥) . الا ان ما يلفت النظر هو ان أقدم النقوش الحجرية والنصب التذكارية المكتشفة في اثيوبيا ، والتي يرجع تاريخ بعضها الى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد ، وهي موجودة في مواقع آثارية مثل يحا Yeha (٦) ومطره Matara ، تلقى ضوءا جديدا على الموضوع يستدل منه احتمال قيام حضارات قديمة في هذه الزاوية من القرن الافريقي ـ لعلها ازدهرت قبل حضارة أكسوم .

والشعب الحبشي الاصيل يتكون من مجموعتين رئيسيتين من سكان الهضبة الحبشية ، هما : الامهاريون (وتعني الجبلين أو سكان الجبال) والتيغريون (نسبة الى أقليم تيغره) ، وكلاهما يعتبران الوارثين المثلين لأمجاد وحضارة مملكة اكسوم المنقرضة . فالإمهاريون يتكلمون اللغة الامهارية (لغة اثيوبيا الرسمية حاليا) ويسكنون الهضبة الوسطى فيما هو اليوم أقاليم بيغا مدير وغوجام و واللو و شوا . أما التيغريون فموطنهم الهضبة الشمالية ، ويفصله نهر تيكازي عن موطن الامهاريين . والتيغريون ينطقون باللغة التيغرينية .

وعلى الرغم من انصهار الحاميين بالساميين انصهارا تاما ، الا أن جيوبا سكانية في الهضبة بقيت على حاميتها فلم تقبل بالتراث السامي الذي عم كل أجزائها ، وظلت محافظة على عنصريتها ومحتفظة بلغاتها ولهجاتها الحامية . هؤلاء هم مجموعة القبائل المعروفة باسم « أغاو Agaw وتشمل في الشمال قبائل بوغوس Bogos أو بلين Bilen في ارتيريا . والى الجنوب من ذلك ـ حول الا جزاء الشمالية من بحيرة تانا (منطقة جبال لاستا Lasta) قبيلة زاغوي Zagwe التي اغتصبت الملك من

---

٤ ـ اليمن عبر التاريخ بقلم احمد حسين شرف الدين ـ صحيفة ٧٠ .

٥ ـ نفس المصدر ـ صحيفة ٧٠ .

6— Encyclopedia Britannica.



الاحباش خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . (٧)

اثر الحضارة السامية

ذكرنا أن تاريخ الحبشة المدون بدأ حوالي السنة ١٠٠٠ قبل الميلاد وذلك عندما قامت قبائل سامية من جنوب الجزيرة العربية (اليمن) بغزوها في موجات متعاقبة واستقرت فوق هضبتها . ثم انصهرت حضارتها ومدنيتها المنقولة معها بتقاليد وعادات الاقوام الحامية الذين سبقوهم الى هذه المرتفعات . فالمستوطنون الجدد كانوا أرقى مستوى من أسلافهم على الهضبة الذين كانوا يستغلون خيراتها بطرق بدائية تكفل سد الرمق فقط ، وهم أحفاد أولئك السبئيين والحميريين الذين اشتهرت بلادهم بالزراعة المتقدمة وبناء السدود للتحكم بمياه الري والذين برعوا في فنون النحت والنقش على الحجر . والسبئيون ، اجداد هؤلاء المستوطنين الرواد ، اخضعوا بارادتهم حتى سفوح الجبال الوعرة للزراعة الثابتة المستقرة عن طريق اقامة المدرجات لحبس مياه الامطار لريها . وهم بناة سد مأرب المعروف ب « العرم » وهو من أشهر معالم الحضارات القديمة. هذه هي المؤهلات الحضارية للمستوطنين الساميين ، خلافا للحالة الاجتماعية البدوية المتخلفة التي كان عليها الحاميون .

يقول بعض المؤرخين في أسباب هجرة الساميين من جنوب الجزيرة العربية بأن الحروب الطاحنة المستمرة هي التي اجبرتهم على ترك ديارهم. بينما يعزو آخرون ذلك الى انهيار سد مأرب وتدهور الاحوال المعاشية نتيجة ذلك . أو قد يكون ضيق الرقعة الزراعية بالنسبة لعدد السكان المتزايد هو من أحد الاسباب . الا أنه ما من شك في أن بوادر هجرة كانت قد بدأت منذ لاحت عوامل الاهمال في رعاية السد وصيانة نواظمه وأقنيته حتى دب الخراب فيه تدريجا . فتضاءلت الرقعة الزراعية التي كانت تعتمد على مياهه ويبست حقول سبأ وجناتها النضرة الوافرة الخيرات . فتفرق القوم الى انحاء شتى ومنها الحبشة التي سمعوا عن خيراتها ونعيم جناتها منذ القدم .

جلب الساميون معهم الى أرض الحبشة اهم عوامل النهوض بالزراعة وتطويرها ــ ذلك هو مهارتهم في العناية بالتربة واصلاحها .ومن المستنبطات الحضارية البالغة الاثر انهم أدخلوا اليها « المحراث » (٨) الذي أحدث انقلابا في عالم الزراعة . ولم يكن عندئذ معروفا في أفريقية

---

7 — The Abyssinian, by David Buxton — page 27.
8 — The Abyssinians by David Buxton — page 36.



السوداء التي ما زالت حتى يومنا هذا تستعمل الفأس لنبش الارض للزراعة . فكان شيوع استعمال المحراث بمثابة نقطة تحول نحو الزراعة الحديثة المبنية على معرفة أعمق بخصائص التربة السطحية . وباستخدام المحراث اتسعت الرقعة الزراعية أضعافا مضاعفة عما كانت عليه بالامس فكثرت الخيرات وازدهر الانتاج .

وبالاضافة الى المهارات الزراعية والصناعية وفن النحت وغيرها من مستلزمات الحياة المتطورة فلم يتخل السبئيون المهاجرون عن تراثهم الاجتماعي وأصول عبادتهم التي اقتبس الحاميون الشيء الكثير منها . حتى أنهم صاروا يعبدون نفس الآلهة التي قدسها وعبدها السبئيون ، حسبما دلت التنقيبات الاثارية للفترة التي سبقت اعتناق الحبشة للديانة المسيحية في القرن الرابع الميلادي .

اما المؤثرات الثقافية فكانت أبقى أثرا من كل ما أدخل السبئيون من أسباب الحضارة التي ازدهرت في الجنوب العربي وقتئذ . لقد ادخلوا اللغة المكتوبة ـ لغة « الجعيز Ge-ez » بحروفها الابجدية السبئية والحميرية . وكان هذا الانجاز بمثابة أول حجر في صرح الحضارة التي ازدهرت في مملكة اكسوم فيما بعد ـ التراث الذي يفخر به الاثيوبيون اليوم . وسرعان ما أصبحت هذه اللغة اللسان الرسمي لمملكة اكسوم المندثرة وشاع استعمالها بين السكان اذ مكنتهم من تدوين معاملاتهم وحساباتهم التجارية واجراءات الدولة . وكما هو واضح فقد قدر لهذه اللغة أن يكون لها أعمق الاثر في نشوء ورسوخ حضارة جديدة في هذه الربوع . ويستدل على أهمية لغة الجعيز السامية المنشأ في دعم حضارة مملكة اكسوم من الرقم والنقوش المكتشفة حديثا في كل من يحا « Yeha » وبلدة اكسوم العاصمة القديمة . الا ان هذه اللغة ـ وهي أقدم لهجة سامية دخلت الحبشة ـ اندثرت تدريجيا بسبب تغلب اللهجات الكوشية المحلية عليها ، وبعين الوقت اضمحلال مدنية اكسوم ودولتها أمام حروب المسلمين و « اليهود السود » فيما بعد . فانحصر نطاق استعمالها ـ بفضل حروفها الابجدية ـ في كتابة الادب والوثائق والطقوس الدينية فقط . وحتى يومنا هذا تجري الطقوس الدينية في الكنيسة الحبشية بلغة الجعيز كما وتكتب بها . فللكنيسة الحبشية اذن يعود الفضل في بقاء هذه اللغة على قيد الحياة حتى الآن وان كانت بنطاقها المحدود . اما عن أصل هذه اللغة فينسبها بعضهم الى قبائل في اليمن تدعى « الاجاعز » كما أسلفنا .

استمر زحف القبائل السامية الى الحبشة على مدى أجيال متباعدة ومعها دخلت لغاتها ولهجاتها القبلية وامتزجت باللهجات المحلية . ومن هذا التداخل والانصهار برزت لغات جديدة ـ سامية المنشأ



أيضا ـ كان أكثرها شيوعا وتداولا بين السكان ثلاثة هي : ١ ـ التيغرينية Tigrinya الدارجة الاستعمال اليوم في اقليم تبفره ومرتفعات اريتريا . ٢ ـ التيغرية وهي لسان القبائل الرحل في الاراضي المنخفضة من اريتريا وقسم من القبائل المجاورة لحدود السودان وكذلك سكان جزر دهلق (دهلك) الواقعة امام ميناء مصوع ، وأغلبهم ينتمون الى مجموعة قبائل بني عامر . و ٣ ـ الامهارية وهي لغة قبائل وسكان الهضبة الوسطى وقد اصبحت اللغة الرسمية للبلاد ، وان غالبية السكان يجهلونها . وهناك لهجتان ساميتان أخريان تختصان بمحيطين ضيقين . الاولى هي « الهرارية » التي يتكلم بها سكان مدينة هرار فقط والثانية الفوراجية الشائعة الاستعمال بين قبائل الفوراج في الجزء الغربي من البلاد .

اما الادب النثري فجله كتب بلغة الجعيز أو نقل اليها من اليونانية والعربية . وأقدم اثر مدون بهذه اللغة هو المخطوط المعروف باسم « سجل الملوك » الذي يحكي تاريخ المملكة منذ اقدم عصورها المعروفة . وهذا السجل هو الذي ثبت تسلسل الملوك (باسلوب لا يقره العلم الحديث) وأسطورة ملكة سبأ حسب وجهة نظر الاحباش . الا ان مشكلة هذه اللغات تكمن في كثرة حروفها . فمثلا هناك اكثر من ٢٠٠ حرف في اللغة الامهارية ، ويزعم بعضهم انها ٢٥٠ حرفا أغلبها في الواقع مقاطع وليست حروفا ، فيقال ان بالامكان جمعها بحوالي ٣٧ حرفا جذريا . الا ان أحدا لم يحاول وضع ذلك موضع التنفيذ .

واذا ما تصفحنا الخط الحبشي اليوم لوضح امامنا اثر الخط السبيء القديم فيه وهو « الخط المسند » . وهذا هو من أبقى الآثار التي طبعتها حضارة الجنوب العربي في الحبشة . فلولا الحضارة السامية التي نقلها وجاء بها المهاجرون عبر البحر الاحمر وغرسوا بذورها في المجتمع الحامي البدائي وأهمها اللغات المكتوبة التي ساعدت في تدوين منجزات الانسان ، لظلت أثيوبيا اليوم كبقية الاقطار في افريقية السوداء ـ تنطق بلغات عديدة ولكنها غير قابلة للتدوين .

ومن طريف ما يذكر بصدد اللغات السامية المتعددة واثر لغة الجعيز فيها (اللغة الام) ان اولندروف (٩) شبه لغة الجعيز المندثرة ومشتقاتها اللغات الامهارية والتيغرينية والتيغرية باللغة اللاتينية المنقرضة في اوروبا ومشتقاتها الايطالية والاسبانية والفرنسية . وكلتا اللغتين ـ الجعيز واللاتينية ـ يقتصر استعمالهما في الطقوس الدينية في الوقت الحاضر .

---

9 — The Abyssinians, by David Buxton — page 31.



قبائل غالا

ان قبائل غالا هم كذلك شعب حامي أصلهم رحل رعاة ابل وماشية والراي المرجح عن موطنهم الاصلي هو انه كان في الاصقاع التي تكون تتضمنها جمهورية الصومال حاليا ، واضطروا للنزوح عن اراضيهم بسبب الضغط السكاني عليهم من داخل الصومال الامر الذي اضطرهم للرحيل عنها سعيا وراء الكلأ لمواشيهم . فاتجهوا صوب بلاد الحبشة ـ سهولها ومرتفعاتها . وقبائل غالا قوم محاربون أشداء ذوو بأس وعزيمة . فاقتحموا الهضبة وزحفوا عليها بأعداد مروعة في القرن السادس عشر الميلادي . ونظرا لزحفهم المخيف الجارف فلم تمنعهم قوة او يصدهم عائق نحو الوصول الى هدفهم . فانتشروا بماشيتهم ودوابهم في كل واد وسهل . وكلما استقر بهم المقام في ارض توغلوا في أخرى اكثر خصبا وأوسع مرتعا حتى اصبحت مساحات شاسعة من سهول البلاد وهضبتها الشرقية تحت تصرفهم . وكلما جاءت موجات اخرى منهم دفعت بالتي قبلها الى الامام حتى بلغوا أواسط الهضبة ـ موطن الامهاريين ـ وأصبحوا على مر الايام وهم ينافسون الامهاريين ديارهم وينازعونهم سلطانهم ، كما سنرى فيما بعد .

وترجع أسباب سهولة توغل شعب غالا الى داخل الحبشة على الرغم من وعورة مسالكها وسهولة الدفاع عن مرتفعاتها المنيعة بوجه الغزاة أمثال هؤلاء البدو الذين قضت ماشيتهم على الاخضر واليابس اثناء رحيلهم الى الضعف والانحلال اللذين استوليا على البلاد نتيجة الحروب المتواصلة بين المسلمين والاحباش التي انهكت قوى الطرفين على السواء . ولذلك تمكنت جموعهم الزاحفة من التوغل الى حيث شاؤوا دون مقاومة تذكر . ويعتقد الكثير من المطلعين على أحوال الحبشة الداخلية بأن الغاليين اصبحوا الآن من حيث العدد اكبر العناصر المكونة للشعب الاثيوبي . أما لغتهم فتعرف بـ (غالينيا Gallinya) وهي من اللهجات الحامية الاصيلة وقد أصبحت بعد انتشار هذه القبائل على نحو ما ذكرنا ، ثاني اللغات شيوعا بعد الامهارية نسبة لعدد السكان الذين ينطقون بها .

اما اليوم فقد تحول غالبيتهم من حياة البداوة ورعي الماشية الى الزراعة المستقرة فوق الهضبة واقتبسوا أساليب استثمار الارض على اساس مستديم ثابت من السكان الاصليين وارتبطوا بالارض تاركين لبني جلدتهم في السهول المحرقة حياة التنقل والترحال بحثا عن المرعى في قفار الدناقل وسفوح جبال هرار وغيرها . ومن خلال حياتهم فوق الهضبة اظهروا استعدادا منقطع النظير للانصهار بتراث وتقاليد المجتمع



الامهاري المستند الى النظام الطبقي . اذ سرعان ما درجوا في خدمة الدولة وجيشها واظهروا تفوقا في مراكز المسؤولية التي تحملوا اعباءها حتى تقلدوا المناصب الرفيعة وأصبح منهم القواد في الجيش على عهد الامبراطور منليك الثاني .

ونتيجة لتوغلهم العميق في قلب البلاد وأطرافها فقد أصبحت لهم جيوب ومناطق شبه مقفلة تقريبا في كل مكان . وأهم مواطن تجمعات هذه القبائل اليوم هي أقاليم واللو ووااليفا وشمالي اقليم كافا . ويتواجد كثير منهم في ولاية عروسي وقسم من ولاية شوا وسيدامو وهرار . وكثير منهم اعتنق الديانات السماوية الغالبة في مناطق استيطانهم . فالذين استقروا في قلب الهضبة وخاصة اقليم شوا ، فقد اعتنقوا النصرانية ، بينما أولئك الذين جاوروا المسلمين في بقية الاقاليم التي أشرنا اليها فأصبحوا على دين الاسلام — وهم الاكثرية . اما الذين يقطنون الى الجنوب من منطقة بورانا Borana فما زالوا على وثنيتهم ، تتنافس عشرات البعثات التبشيرية المسيحية على تنصيرهم .

اليهود السود —

على الرغم من الكثير مما عرف وكتب عن الحبشة والعناصر المكونة لسكانها فما زالت المعلومات عن قوم يعرفون ب « اليهود السود — Falasha » وعن حقيقة أصلهم قليلة وشحيحة ومتضاربة . وهذه الاقلية الضئيلة التي اختارت لنفسها حياة العزلة والانفراد بشكل يسترعي الانظار ، فهي قد تمركزت في أوعر وأعلى جبال الحبشة — جبال سيميان Simien الواقعة الى الشمال من بحيرة تانا . وأغرب ما في هؤلاء اليهود انهم يجهلون العبرية والتلمود حسب الروايات الشائعة . وان كتاباتهم ومخطوطاتهم الدينية هي بلغة الجعيز . اما هم انفسهم فيرجعون تاريخ أصولهم الى بني اسرائيل وينسبون أنفسهم الى ما يسمونه « بيت اسرائيل — Beta Israel » . ويدعون بعين الوقت انهم من بقايا اولئك الذين رافقوا منليك الاول ابن الملك سليمان وماكيدا ملكة سبأ في رحلته من بيت المقدس الى اكسوم بعد زيارته لابيه .

وفي التراث الحبشي قصة عن ظهور ملكة من اليهود السود تدعى يوديث Judith او Gudith ناصبت ملوك الحبشة العداء السافر واحرقت ودمرت عددا من كنائسهم سنة ٩٦٠ ميلادية ، مما دفع بأحد اباطرتهم للاتصال بملك النوبة يشكوه من جور هذه الملكة مستنجدا ومستعينا به للخلاص من شرها وخطرها على المسيحية . ومعروف أيضا ان غيرها من أبناء هذه الطائفة الغامضة من أشغلوا الحبشة



بحروب طويلة ، حتى انهم في احدى حملاتهم العسكرية على العاصمة تمكنوا من اختطاف تاج الملك واحتجازه في قلاعهم الحصينة مدة اربعين سنة . وفي احدى الروايات الحبشية ان الملكة يوديث ما كانت أصلا من اليهود السود ـ الفلاشا ـ وانما من قبيلة « اغاو Agaw » الوثنية ومن ثم اعتنقت الديانة اليهودية . والاحباش ليومنا هذا يصبون اللعنة عليها كلما جاء ذكرها .

وهناك روايات كثيرة اخرى ومتباينة عن منشأ أسلافهم وكيف وصلوا الى هذه الديار النائية . فمنها انهم ربما كانوا من المهاجرين اليهود الذين جاءوا من اليمن في عهود سحيقة وبثـــوا ديانتهم بين السكان الوثنيين . وكانت اليهودية حينذاك في أطوارها البدائية قبل التلمودية. ومنها انهم من بقايا مملكة اكسوم الذين عارضوا في انتشار النصرانية في الحبشة على اثر اعتناق العائلة المالكة لهـــذه الديانة الجديدة ثم اتخذتها الديانة الرسمية للدولة وللشعب . عندئذ فروا الى الجبـــال المرتفعة للاحتماء بحصونها حفاظا على أنفسهم ويهوديتهم .

وثمة رواية اخرى يتبناها الاحباش ويميـــلون الى الاخذ بها ، ملخصها ان هجرة أعداد متفرقة مـن اليهود مـن أوطان مختلفة لم يكن شيئا غير مألوف في تاريخ البلاد القديم والحديث . فلطالما وفد الـى الحبشة يهود هربوا من الاضطهـــاد وجور الحكام في البـــلاد التي استوطنوها . ويضربون على ذلك مثلا هجرة اليهود بعد تعرضهم للاذى أو سوء المعاملة في كل من روما والاسكندرية واسطنبول . ويذكرون كذلك قصة تعذيبهم وتشريدهم وسبيهم على يد بختنصر ملك بابل عقب احتلاله مدينة القدس في القرن السادس قبل الميلاد .

ان هجرة أقوام كثيرة الى ارض الحبشة هي في الحقيقة وقائع مسلم بها ويؤيدها التاريخ . ومن ذلك هجرة المسلميـــــن في صدر الاسلام عند تعرضهم للاذى والتعذيب في مكة . ومثال آخر من هذا القبيل هجرة بعض الارمن الى الحبشة ابان الحرب العالمية الاولى في أعقاب المذابح التي وقعت في بلادهم وخارجها .

قبائل البيجه

ان قبائل البيجه من أقدم الحاميين الذين استوطنـوا السهول ما بين البحر الاحمر ونهر النيل ، وسفوح مرتفعات اريتريا الغربية . وتوغلوا في البلاد بحثا عن الذهب والزمرد حتى وصلوا بلاد النوبة . وفي طريقهم عاثوا فسادا في القرى والمزروعات وخلفوا الرعب وراءهم بين سكان البلاد التي اجتاحوها لشدة بأسهم وقسوتهم وتأصل النزعة



البدوية فيهم . فهم قوم رعاة قبل كل شيء يلتمسون الكلأ والمرعى لمواشيهم وابلهم أينما وجدوه .

اما في الوقت الحاضر فتحتل قبائل البيجه رقعة واسعة من الارض تقع في اثيوبيا وفي السودان . ففي داخل اثيوبيا يعيش معظمهم في الشمال الغربي من اريتريا منتشرين في محيط بلدة كرن Keren واغوردات Agordat حتى حدود السودان . وفي داخل السودان يقطنون الاراضي الواقعة بين كسله وحوض نهر عطبره . وقد اقامت لهم الحكومة السودانية مشروعا زراعيا في خشم القربة يستهدف استيطانهم بالاشتراك مع قبائل النوبة التي غمرت مياه السد العالي في مصر أراضيهم في وادي حلفة .

وعند مجيء العرب الى هذه الديار – وغالبيتهم من ربيعة ومضر – صاهروهم وبذا قويت شوكة الجانبين في هذه الديار . وتعرف بعض بطون البيجه ب « الحدارب » او « حداره » وهؤلاء هاجروا الى اراضي اقليم هرار الاسلامي . ومما يجلب النظر هو ان العشائر المحيطة ببلدة هرار تطلق اسم « حداره » على سكان المدينة الاصليين . فهل يا ترى ان هؤلاء هم نفس « حداره » الذين هاجروا من مواطن البيجه واحتفظوا باسمهم . هذا ما لم اتمكن من تحقيقه خلال زياراتي القصيرة لمنطقة هرار . والمعروف عن هؤلاء القوم في مدينة هرار انهم محافظون ترتدي نساؤهم السراويل ولا يزوجون بناتهم من غير الـ « حداره » ويقول عنهم البعض انهم من أصل تركي .

رجل الغاب

يتساءل البعض عن وجود رجل الغاب أو الاقزام داخل الغابات المطرية في اقصى الجنوب . وقد ورد ذكر الاقزام ، وليس رجل الغاب المعروف في جنوب افريقية ، في مناطق متاخمة للغابات المطرية في حوض نهر الكونغو الذي يعتبر موطنا للاقزام . كتب حول هذا الموضوع كورنواليس هاريس (١٠) Cornwallis Harris وكان مبعوثا سياسيا بريطانيا الى الملك سهلا سيلاسي ملك اقليم شوا (والجد الاكبر للامبراطور هايلا سلاسي الاول) في سنة ١٨٤٤ فقال (نقلا عن عبيد من الجنوب) بأن في ما وراء حدود اقليم كافا في الجنوب ، قبائل من الاقزام تعرف باسم دوكو Doko ، وهم بشر بدائيون أقرب الى الوحوش في عاداتهم وأسلوب حياتهم ولا يتجاوز طول الواحد منهم

---

10 — Ethiopia, by Richard Greenfield page 12.



اربعة اقدام (١٢٠ سنتمترا) . يعيش هؤلاء بجماعات في أعماق غابات البامبو حيث الفيلة والجاموس الوحشي وغير ذلك . اما مساكنهم فأكواخ يقيمونها من القصب والحشائش وهم حفاة عراة .

وبعد مرور خمسين سنة على الخبر الذي كتب عنه كورنواليس هاريس عن وجود الاقزام في جنوب اثيوبيا ، زار المنطقة في أواسط الثلاثينات من هذا القرن سائح اميركي فأيد ما ذهب اليه سلفه البريطاني عن وجود الاقزام في الاراضي الواقعة الى الشمال من بحيرة ستيفاني وبحيرة رودولف . وقال عنهم انهم اطول من أقزام سائر انحاء افريقية وان لون بشرتهم اكثر سوادا . كما نسب اليهم استعمالهم النبال المسمومة .

وثمة تأييد آخر – الثالث – لصحة وجود الاقزام في اثيوبيا جاء على لسان مهندس كان يعمل في تخطيط مدرج للطائرات في الجزء الجنوب الغربي من البلاد . وهناك شاهد وعلا يخترق أرض المدرج وقد تعقبه ثلاثة أقزام عراة بسرعة متناهية حتى اختفوا في اثر الوعل داخل الغابة المجاورة . وبعد انتشار هذا الخبر قصد المنطقة جماعة من الهواة وعلى رأسهم المستر جون تفن John Tiffin الاخصائي الجغرافي في أحد معاهد اديس ابابا لاستطلاع جلية الخبر ودراسة الموضوع . الا ان حاكم المنطقة لم يأذن لهم بدخول الغابة حرصا على سلامتهم ، واكتفى بالتأييد لهم ان الاقزام موجودون في غابات الجنوب .

متحف الشعوب

وصف المؤرخ الايطالي المعروف كارلو كونتي روسيني Carlo Conti Rossini المجتمع الحبشي بعبارة بليغة مختصرة هي انه « متحف الشعوب » . غير ان هذا المتحف كان في سابق عهده محدود الآفاق ومقتصرا على قبائل وشعوب معدودة ، معروفة احتضنتها جدران هضبة الحبشة الحصينة . ولم يصبح على السعة التي هو عليها اليوم الا بعد أن ضمت اليه شعوب وأقاليم أخرى ، بما فيها الممالك الاسلامية المجاورة وذلك عن طريق التوسعات الاقليمية الحربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي وفي مستهل العقد الاول من نصفه الثاني . واتسم المجتمع الذي يتكون منه هذا « المتحف » منذ فجر تاريخه بالانقسامات الحادة والتفكك وعدم التجانس والافتقار الى الروابط والعناصر الاساسية الاخرى المقومة لمفهوم الدولة . فتباين أجناسه واختلاف أديانهم ونزعاتهم وعاداتهم ولغاتهم كان أبلغ اثرا في تعميق الهوة الاجتماعية بينهم من اختلاف طبيعة وجغرافية أقاليم البلاد . وفي اثيوبيا من اللغات ، عدا اللغات السامية الرئيسية الثلاث ،



ما لا يقل عن ثلاثين لغة ، واذا ما اعتبرناها على اساس مختلف اللهجات المحلية لبلغت مائتين .

ومن مميزات هذا « المتحف » كذلك انه غلب عليه الطابع الشرقي. وهذا ما دفع ببعض الكتاب الغربيين للاشارة الى الحبشة « بأنها في افريقية ولكنها ليست منها » . وفي هذا الوصف الدقيق الشيء الكثير من الصحة والواقع . فوجودها في افريقية ، جغرافيا ، أمر مسلم به، الا ان روابط الحبشة الحضارية والاقتصادية والاجتماعية خلال مسيرتها التاريخية الطويلة كانت دائما مع البلاد الواقعة عبر البحر الاحمر اكثر مما كانت مع جاراتها الافريقيات الى الجنوب . فمن شرقي البحر الاحمر بزغت شمس حضارتها الاولى ، وعبر هذا البحر سارت قوافل تجارتها الى العالم محملة بالتوابل والطيوب والذهب والعاج والزباد . ومن وراء البحر الاحمر غشيت هضبتها الديانات السماوية الثلاث ـ اليهودية ثم النصرانية ثم الاسلامية .



الفصل الثانى

لمحة جغرافية

ارض الحبشة وطبيعتها

ان جل بلاد الحبشة الاصلية مكون من هضبة اشبه بحصن جبلي منيع شامخ وعر المسالك والدروب ارستها الطبيعة وسط سهول قاحلة مجدبة وصحارى محرقة . اما الهضبة نفسها فتتميز بالخصب الوفير الذي قلما وجد له شبيه في العالم الا في الغرب الاوسط في الولايات المتحدة الاميركية . لجأ اليها الاحباش منذ ثلاثين قرنا من الزمن واستغلوا خيراتها ولم ينضب ما في تربتها من خصب ونعيم . اما الاراضي المنخفضة المحيطة بها فتشمل صحراء الدناقل (او صحراء عفر) المحرقة المهلكة التي تفصل بينها وبين البحر الاحمر من جهتها الشمالية الشرقية . وتمتد سهول السودان المقفرة على طول حدودها الشمالية والغربية . واما من جهة الجنوب فتحدها جمهورية كينيا بمنطقتها القاحلة الخالية من السكان المستقرين ما خلا بعض البدو الرحل . ومن جهتها الجنوبية الشرقية والشرقية فتحدها سهول الصومال ، بما فيها صحراء اوغادين Ogaden والصومال الفرنسي .

اما مدلول اسم البلاد الحالي فكان عند الاقدمين يعني رقعة من الارض اوسع بكثير من حدودها السياسية الحالية . اذ كان المقصود بها ارض السودان وبضمنها بلاد النوبة حتى القسم الجنوبي من بلاد مصر . يقول المسعودي في مروج الذهب : « ان الحبشة كانت حدودها اسوان في مصر » . ويقول : « وعلى اميال من اسوان جبال واحجار يجري النيل في وسطها . وهذه الجبال والمواضع فارقة بين مواضع سفن الحبشة في النيل وبين سفن المسلمين » . اما حدودها الشرقية فكانت تصل الى البحر الاحمر ثم يذكر خليجا يسمى « خليج البربري » ولعل ذلك منسوب الى موقع ميناء بربره على الساحل الجنوبي لخليج عدن . ويقع ميناء بربره ضمن جمهورية الصومال حاليا .



والحبشة جغرافيا تقع ضمن المنطقة الاستوائية (خط العرض ٣ ــ ١٨ درجة شمال خط الاستواء) الا انها على الرغم من ذلك وبفضل ارتفاع هضبتها عن سطح البحر (٦٠٠٠ ــ ٨٠٠٠ قدم) فتعتبر في المنطقة المعتدلة . وتمتاز البلاد باعتدال مناخها وصفاء هوائها على مدار السنة بسبب غزارة أمطارها وكثرة بحيراتها وأنهارها التي تخترق اراضيها طولا وعرضا . كما وتغطي الغابات والمراعي الطبيعية الخضراء جزءا غير يسير من سطحها الذي يبدو خلال موسم الامطار وكأنه بساط سندسي . وهي الى جانب ذلك تمتاز بمرتفعاتها واوديتها السحيقة. فسلسلة جبال سيميان مثلا ، الممتدة في الجهة الشمالية الشرقية لبحيرة تانا يتراوح ارتفاعها ما بين ١٢،٠٠٠ ــ ١٥،٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . اما أعلى قمة في الحبشة فهي قمة داشان التي يبلغ ارتفاعها ١٥،١٥٠ قدما فوق مستوى سطح البحر . وليس من غير المألوف تساقط الثلوج على بعض المرتفعات في بعض السنين . ويذكر المسنون من السكان كيف ان الثلوج كانت تغطي بعض القمم معظم ايام السنة. الا انه يبدو ان هذه الظاهرة قد تلاشت في الاعوام الاخيرة .

وهذه المميزات الطبيعية النادرة الوجود التي قلما توفرت مجتمعة لبلد واحد ، اضافة الى مناعتها الطبيعية كقلعة حصينة ، صيرت من الحبشة موطنا مثاليا للعيش لا يضاهيه موطن آخر في افريقية وخاصة من ناحية جودة مناخها الصحي وصلاح أرضها للزراعة وتربية الحيوان. وبالنظر لشموخ هضبتها فقد قارنها بعض الكتاب ببلاد « التبت » في أواسط آسيا ، وشبهها بعضهم بسويسره مع فارق واحد . اذ بينما هرب السويسريون من أعالي جبالهم الباردة الجرداء ، ذات الطبيعة القاسية ، واستقروا في الوديان الدافئة والسهول الضيقة المحدودة لتأسيس مدنيتهم وصناعتهم وممارسة الزراعة لتأمين معاشهم ، نجد الاحباش ، على النقيض من ذلك ، سلكوا مسلكا آخر . فقد هجروا السهول الساخنة الموبوءة بالملاريا والوديان الخانقة برطوبتها وعفونة هوائها وتسلقوا المرتفعات ذات الهواء العذب ، الخالية من الاوبئة والصالحة لتأسيس حضارة مبنية على الزراعة الثابتة المستقرة .

لقد لعبت عوامل التعرية عبر العصور الجيولوجية السحيقة دورها الهام في اظهار الهضبة ومرتفعاتها بشكلها الحالي . فأوديتها وأخاديدها التي نحرتها مجاري عشرات الانهر ومياه السيول صيرت منها حواجز وموانع يصعب اجتيازها بسهولة خاصة في موسم الامطار. كما قلبت عوامل التعرية بعض جبالها وروابيها الى أشكال مخروطية ذات نسق واحد كأن يدا بشرية نحتتها . وتحولت بعضها الى حصون طبيعية استغلها الاحباش في حروبهم كمواقع دفاعية ممتازة . اما قمم



بعض هذه الكتل الجبلية المخروطية فمسطحة ومستوية ، حتى انها اصبحت صالحة للزراعة ، فضمن المحتمون بها لانفسهم لقمة العيش وسلامة المكان لا يخشون وهم في مثل هذه الحصون فتك الغزاة والطامعين . وقد أطلق الاحباش اسم « أمبا Amba » على مثل هذه الاكمات المخروطية .

وفي الحبشة كثير من هذه « الامبات » التي صير منها بعض الملوك والحكام معاقل وسجونا يزجون فيها اعداءهم ومنافسيهم من الامراء أو الخطرين من زعماء القبائل الطامعين بالسلطة مدى الحياة . فاما ان يقضي الفرد منهم نحبه في كهوفها ودهاليزها الرهيبة او ان تؤول اليه الامور بطريقة ما فينزل من منفاه منتصرا ليتربع على دست الحكم . وتاريخ الحبشة حافل بقصص مروعة عن هذه المعاقل التي ما زالت أسماء بعضها تقترن بحوادث معينة عن بعض الملوك والامراء كما سنرى فيما بعد . فبعض الامراء يعتقلون في هذه السجون منذ نعومة أظفارهم في سبيل أن يأمن الملك شرهم ويقضي على احلامهم .

الواديان العظيمان

يخترق هضبة الحبشة واديان عظيمان أولهما « اباي الكبير » أو النيل الازرق . وهو واد عميق الغور صخري الجوانب شق مجراه عبر الزمن الطويل في الارض شقا حتى هبط عمقه أي مستوى مجرى الماء فيه ٤٠٠٠ قدم تحت مستوى سطح بحيرة تانا التي يخرج منها . ويمتد هذا الوادي بجرفيه الصخريين الهائلين بحذاء جبال غوجام Gojam نحو ٦٠٠ كيلومتر داخل الهضبة قبل ان يتلاشى تدريجيا ويفقد مظهره المروع عند دخول النيل الازرق سهول السودان . واما الثاني فهو وادي الشق الكبير المعروف في افريقية بـ « الوادي الشقي Rift Valley » ويخترق الهضبة من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي فيشطرها الى شطرين غير متساويين ، الغربي والشرقي ، والغربي منهما أوسع من الشرقي . اما الشطر الغربي من الهضبة فيتميز بميلان سطحه نحو الغرب . وهذه الظاهرة الطبيعية لها أهميتها الحيوية بالنسبة لمصر والسودان ، وهما البلدان المنتفعان مما يتساقط من امطار فوق هضبة الحبشة ومن آلاف الاطنان من تربتها السطحية التي يحملها النيل الازرق وروافده اليهما سنويا بلا ثمن . فلو كان ميلان سطح الهضبة باتجاه آخر لتغيرت قصة حضارة وادي النيل في مصر والسودان . اما الشطر الشرقي من الهضبة فيسميه بعض الجغرافيين بهضبة الصومال — ربما لاتصالها بالاقليم الشمالي لجمهورية الصومال (الصومال البريطاني سابقا) — ويشمل سلسلة جبال هرار،



وينحدر سطحه نحو الشرق ولذلك فتصب بعض انهـاره في المحيط الهندي ويغور بعضها في رمال الصومال أو صحراء الدناقل . ان مناخ هذا الجزء من الهضبة كذلك يمتاز بالاعتدال ونسبة عالية من الامطـار وارتفاع جباله الذي يبلغ ١٢،٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر فـي بعض الاماكن . الا أن الرياح التي تهب عليه من الجهة الشرقية منبعثـة من صحراء الدناقل والصومال الفرنسي ترفع من درجة الحرارة نهـارا وخاصة في المرتفعات السفلى من سفـوحها الشرقية حول مدينـة ديرداوه .

ذكرنا ان الوادي الشقي يقطع بلاد الحبشة من شمالها الشرقـي الى جنوبها الغربي . فيتخذ نهر عواش ، ابتداء من جنوبي العاصمة ، من الوادي مجرى له فيحفر فيه ويعمق في قعره على امتداد مجراه في اتجاه الشمال الشرقي حتى تبدو جوانبه الصخرية وكأنها نحرت نحرا. ثم يستمر في انسيابه نحو الاراضي المنخفضة حتى يبلغ مستوى هبوطه عن منبعه في الهضبة نحو ٧٠٠٠ قدم . فتتلاشى معالمه في المنـاطق الرملية فيغور في صحراء الدناقل . واما مظهر الوادي الشقي باتجاه الجنوب فيتخذ شكلا آخر بحسب طبيعة الارض . فسيول الامطـار الغزيرة المنحدرة من جانبي الشق زادت في اتساعه وغوره لدرجـة أصبح معها عرض الوادي في بعض المواقع حوالي ٨٠ كيلومترا تحف به من جانبيه الغابات الاستوائية الغنية بأخشابها . اما أبـرز معالم الوادي الشقي في جزئه السفلي داخل الحبشة فهو كثرة البحيرات المتناثرة في جوفه (١) .

منافذها الى العالم الخارجي

لم يكن للحبشة عبر تاريخها منـافذ ثابتة على البحر الاحمر او خليج عدن . بل كانت هذه المنافذ البحرية غالبا تحت سيطرة شعوب لم تكن علاقاتها بهم سلمية دائما . ولذلك كانت الحاجة الملحة للحصول على موانىء بحرية من أهم الامور الحيوية التي شغلت بال قادتها منـذ القدم . وكان لها ميناء مهم في أيام الاغريق يدعى أدوليس ، تقع آثـاره اليوم جنوبي ميناء مصوع الحالي . وبعد فقدانها السيطرة على هـذا الميناء صارت قوافلها التجارية تستخدم ميناء زيلع في خليج عـدن (على الساحل الشمالي للصومال) . ووصول قوافـل الاحباش الى البحر كان دونه الاخطار والمهالك . فقد كانت تتعرض للسلب والتقتيل على أيدي القبائل التي تعترض سبيلها وسط المفاوز والمتاهات خاصة في أيام القيظ اللافحة . وفي الحقيقة فيمكن أعتبار هذه القفار بمثابة

---

١ ـ راجع الفصل الرابع والعشرين (في اعماق اثيوبيا) .



خط دفاعي عن الهضبة بوجه الغزاة القادمين من جهة الشرق . فهي مكونة من مفاوز رملية جرداء تتخللها عروق من الاحجار البركانية ، يتوسطها منخفض عميق الغور ، على مستوى ٤٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر وفيه عدد من البحيرات الجافة المالحة . هذه المتاهة الموحشة القاسية المنظر لا يطرق أتونها غير نفر من البدو الرحل الاشداء من رعاة الابل خلال موسم الامطار . يشعر المرء بالفزع والانكماش منها من اول نظرة حتى من على مرتفع الطائرة . ويخشى وحشتها حتى هواة عبور الصحارى فلا يحنون للعودة اليها . ففي أوديتها وثناياها وبين صخورها المحرقة تنعدم الحياة ، ولا يخترق سماءها طائر . هواؤها لافح ثقيل يمر على صخورها المتقدة فينقلب الى سموم ملتهبة .

المناخ

ان التفاوت الظاهر للطبيعة الجغرافية بين مختلف اقاليم الحبشة قد أحدث اختلافا بينا في مناخ هذه الاقاليم كما سبق واشرنا ، سواء من ناحية كميات سقوط الامطار ودرجات الحرارة او الرطوبة او اتجاه الرياح ، فبينما يسقط المطر مدرارا فوق الهضبة ، يصل معدله في بعض الاحيان وفي بعض اجزائها الى ٦٠ ــ ٧٠ مللمترا في الساعة الواحدة ، يكاد ان يصبح معدوما في الاراضي الواطئة في بعض السنين، وقد ينحبس عنها لسنوات متتالية فيحدث فيها الكوارث مثلما حدث في أوائل السبعينات . وحتى فوق الهضبة نفسها فهناك تفاوت ملموس في كميات الامطار السنوية ، حيث هي اعظم في المرتفعات الغربية والجنوبية الغربية منها في بعض مرتفعات اقليمي تيغره واريتريا الواقعان في الطرف الشمالي الشرقي من البلاد .

فالجزء الغربي المرتفع من البلاد هو الذي يستقبل الرياح الموسمية بغيومها المحملة بالرطوبة فتتشبع ذلك الجزء مطرا استوائيا غزيرا ، حتى اذا ما وصلت الى تيغره واريتريا تكون قد فقدت معظم رطوبتها واصبحت سحابا خلبا لا يسمن ولا يغني من جوع في كثير من الاوقات .

ولسقوط الامطار في هذه البلاد موسمان رئيسيان معروفان خلال السنة هما : موسم الامطار الغزيرة ويحتل الفترة الواقعة ما بين اواخر شهر حزيران (يونيو) وأوائل تشرين الاول (اكتوبر) ، وموسم الامطار القصيرة او القليلة الذي يستمر عادة حوالي ٤ ــ ٦ أسابيع خلال الفترة الواقعة ما بين أواسط شهر آذار (مارس) وأوائل ايار (مايو) . الا ان هذه القاعدة او الظاهرة الطبيعية لا تستثني سقوط الامطار خارج هاتين الفترتين نهائيا . فقد تحدث زخات من المطر فوق الهضبة في فترة ما يسمى بموسم الجفاف عادة ، بكميات تضاهي ما يسقط خلال المواسم



الممطرة . وفي بعض السنين تتـــــداخل فترات المطر فيتصل الموسم الرئيسي للامطار الغزيرة بموسم الامطار القصيرة دونما انقطاع . وقد يحصل العكس من ذلك أحيانا فتعم الكوارث . ومن مميزات الايـــام المطيرة فوق الهضبة ان المطر لا يسقط باستمرارية مزعجة وانما يتوقف خلال اليوم الواحد لسويعات ثم يعود بالهطول . وخلال توقفه تشرق الشمس ــ عادة في ساعات ما بعد الظهيرة ــ فتتبدد الغيوم وتنحسر السيول والمياه المتجمعة وتجف الارض . لذلك فلا يشعر سكان الهضبة بتلك الرطوبة الخانقة التي تصاحب سقوط الامطار في المناطقالاستوائية عـــادة .

ان أجمل فصول السنة في الحبشة هو فصـل الامطار الغزيرة والفترة التي تعقبه عندما تبدو الهضبة وكأنهـا بساط سندسي يزهـو برونق ونضارة الاعشاب والحشائش البرية . وتشير الارصاد الجوية الى ان المعدل السنوي لكميات الامطـــار المتساقطة يتـــراوح ما بين ١٠٠ ــ ٢٠٠ ملليمتر في المناطق الجافة الواطئة في الشرق والجنوب الشرقي و ٢٥٠٠ ملليمتر في المرتفعات الغربية . وبين هذين الحـدين تتفاوت كميات المطر في الاقاليم المختلفة بحسب مواقعها وارتفاعها عن سطح البحر . فمعدل كميات المطر السنوية في اديس ابابا مثلا ــ وهي تمثل الهضبة الوسطى ــ ١٢٥٠ ملليمترا ، بينما في غوندار الواقعـــة شمالي بحيرة تانا فهو ١٠٠٠ ملليمتر . وفي هرار ، أي الهضبة الشرقية فهو ٩٠٠ ملليمتر . اما في اريتريا ، فلا يتجاوز المعدل السنـــــوي ٦٧ ملليمترا في ميناء عصب وما جاوره من المناطق الساحلية للبحـر الاحمر . بينما في اسمره ، عاصمة الاقليم (ارتفاعها ٧٥٠٠ قدم عن سطح البحر) فيبلغ المعدل السنوي ٥٥٠ ملليمترا . وفي أعالي الهضبة يصل المعدل الى أكثر من ١٠٠٠ ملليمتر . ولكن المطر فـي سهول اريتريا الشرقية فيسقط شتاء وليس صيفا وذلك بتأثير رياح البحر الاحمر ويقع في الفترة الواقعة ما بين تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الثـاني (يناير) . وقد يسقط قليل منه خلال تموز (يوليو) وآب (اوغسطس) .

اما الجو فوق الهضبة فكما أسلفنا ، لطيف ومعتدل وصحي على مدار السنة. اذ قلما ترتفع درجةالحرارة الى اكثر من ٢٥ ــ ٢٨ درجة مئوية في المرتفعات التي تتراوح ما بين ٤٥٠٠ ــ ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . وكتب سائح غربي مرة يصف حالة الهضبة وما يشاع عـــن مناخها اللطيف وصلاحه للسكن من الناحيتين العامة والصحية : « انها قذرة ولكنها صحية ــ Filthy but healthy » . أما في الاصقاع التي يزيد ارتفاعها عن ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر فيحدث انجمـــاد خلال الليل بين شهري تشرين الثاني (نوفمبر) ونهـــاية كانون الثاني



(يناير) . وقد لوحظ بأن ذلك يحدث عادة في أعقاب هبوب رياح جافة مصدرها شبه الجزيرة العربية . اما عن تقلبات درجات الحرارة خلال اليوم الواحد فيمكن ان يصل الفارق الى ٢٢ درجة مئوية بين اعلى مستوى في النهار واوطأ مستوى خلال الليل في الايام الصحوة المشمسة . واما حالة الجو على الشريط الساحلي الذي تتوفر فيه بعض الاراضي القابلة للزراعة على امتداد ١٦٠ كيلومترا جنوبي مصوع، فشديدة الحرارة وخاضعة لدرجة الرطوبة النسبية . وبانتهاء السهل الزراعي يبدأ المنخفض الكبير الواقع في قلب صحراء الدناقل القاحلة حيث تصل درجة الحرارة الى ٥٠ درجة مئوية وأحيانا ٥٥ في شهري تموز (يوليو) وآب (اغسطس) . ان عمق هذا المنخفض يصل الى ٤٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر ويعتبر من أوسع المنخفضات في العالم . حتى لقد وصفه بعضهم ب « سهل الملح » نظرا لكثرة بحيرات الملح في جوفه .

الثروة المائية

لقد شبهت هضبة الحبشة منذ القدم بخزان ماء ضخم اقامته الطبيعة فوق شمالي شرق افريقية . وفي الحقيقة فليس في هذا التشبيه مبالغة أو مغالاة ، وذلك بالنظر لما ينحدر من سفوح هذه الهضبة من المياه التي تجلب الخير والنعيم ليس لسكان الحبشة فحسب ، بل ولجاراتها الى الشرق والغرب والشمال . بل وربما كان انتفاع جاراتها ببركة هذه المياه اكثر من انتفاعها هي . فلولا هضبة الحبشة لما كان السودان ولما كانت مصر بل ولما كانت مدنية واديالنيل العريقة التي سقاها وغذاها النيل الازرق النابع من فيض هذا الخزان الجبلي الشامخ على مر العصور . فالحقيقة الثابتة هي ان ٨٧ بالمائة من مياه نهر النيل مصدرها النيل الازرق الخالد . والاحباش يدركون مبلغ أهمية هذا النهر كشريان للحياة بالنسبة لسكان وادي النيل في الشمال . ولذلك كم من ملوك الاحباش فيما مضى من الازمان منخامرته فكرة تحويل مجرى النيل الازرق لتجويع سكان مصر والسودان ، وذلك كلما نشبت الخلافات والحروب بين الطرفين . ووصلت الحال مرة بالامبراطور ثيودور درجة انه فكر بتسميم مياه النهر للقضاء على خصومه ابناء وادي النيل . ويظهر ان هذه الفكرة تراود كل من يسيطر على منابع النيل الازرق . فان الايطاليين خلال فترة احتلالهم للحبشة ١٩٣٥ ــ ٤١ درسوا وخططوا امكان الاستفادة من الجزء الاعظم من مياه هذا النهر لاقامة مستوطنات زراعية للايطاليين في الحبشة على غرار ما خططوا لاستثمار الجبل الاخضر في ليبيا .



اما مياه نهر النيل الابيض النابع من بحيرة فكتوريا في يوغنده فيضيع معظمها في مستنقعات في جنوب السودان تسمى The Sudd وهي مستنقعات يفقد فيها النيل الابيض حركته وحتى معالم مجراه نظرا للكتل النباتية والطحالب المتلاحمة النامية على سطح واعماق مياهها كالسدود تعرقل الملاحة في مجرى النيل اشهرا عديدة كل عام . هذا مع العلم بأن أحد روافد النيل الابيض ، وهو نهر سوبات Sobat مصدر مياهه في مرتفعات الحبشة كذلك . وبسبب ضياع مياه النيل الابيض على هذا النحو ، فلا يساهم هذا النهر الا بجزء ضئيل في تغذية شريان الحياة السوداني المصري .

وعلى الرغم من جسامة ما يفيض من المياه من الهضبة الوسطى فما زال هناك المزيد من البركة في الهضبة الشرقية التي لولاها لما اصبحت الصومال على ساحل المحيط الهندي قابلة للسكن . فالنهران انعظيمان اللذان يغذيان زراعة الصومال مصدرهما الهضبة الشرقية — وهذان النهران هما جوبا (او الجب كما يسميه العرب) والشبيلي او ويبي شيبلي .

وفي نفس اثيوبيا تبنى الآن مشاريع زراعية وصناعية عديدة اعتمادا على مياه الانهر والبحيرات والطاقات الممكن استخراجها منها .

الانهار

ان الحبشة غنية بأنهارها ، ومنها انهار اكتسبت شهرتها خارج حدود هذه البلاد ، كالنيل الازرق وعطبره وجوبا وشيبلي وغيرها ، لما لها من فضل على استمرار البقاء في البلاد الاخرى وقيام مدنيات عريقة خاصة بها . ولما كان البحث في موضوع الانهار تفصيلا ، على كثرتها ، سيبعدنا كثيرا عن هدفنا الرئيسي ، ولذلك فقد توخينا الاختصار على الانهار المهمة دون سواها .

النيل الازرق

ان هذا النهر هو أهم واعظم أنهار الحبشة . يخرج من بحيرة تانا التي ترتفع ٦٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ومن نقطة واقعة في الطرف الجنوبي الشرقي من البحيرة . ولا يبعد مخرجه سوى بضعة كيلومترات عن بلدة بحردار المنتجع السياحي الجديد . اما الاحباش فيطلقون على هذا النهر اسم اباي Abbai الكبير . وكان الاعتقاد السائد بأن بحيرة تانا هي المنبع الوحيد للنيل الازرق . غير ان بعض الرحالة اكتشفوا مستنقعا كبيرا يقال له « غيش Gish » على بعد نحو ١١٠ كيلومترات جنوبي البحيرة يتفجر منه عدد من الينابيع التي



تصب مياهها في بحيرة تانا من جهتها الجنوبية الغربية بواسطة مجرى صغير يسميه الاحباش « اباي الصغير » . فقال أهل هذا الاكتشاف بلزوم اعتبار المنبع الحقيقي للنيل الازرق هو (غيش) وليس بحيرة تانا نفسها ، على أساس ان البحيرة هي عبارة عن خزان تتجمع فيه المياه المتدفقة من هذا المستنقع .

ولكن أصحاب الرأي الاول ــ وهو ان بحيرة تانا هي المنبع ــ يبنون حجتهم على أساس وجود عدد كبير من الجداول والسيول الدائمية والوقتية تصب مياهها في البحيرة من الجبال المحيطة بها . كما وتشير الدراسات الى ان غزارة مياه هذه الجداول والسيول تفوق كميات المياه التي يحملها اباي الصغير الى البحيرة ولهذا فيعتبرون البحيرة منبع النيل الازرق . على كل حال فان التعمق في هذا الموضوع له اهمية اكاديمية فقط . اذ ليس من شك من الناحية العملية في ان النيل الازرق يبدأ مجراه كما ذكرنا من بحيرة تانا مباشرة . ولا تدل بداية انطلاقه من البحيرة ــ ومن حسن حظي ان اكون أحد الذين وقفوا على هذا الموقع ــ على انه سيصبح ذلك النهر الجبار الذي ينحر طريقه في الصخور العاتية ليشق مجراه الخالد ويصب في البحر الابيض المتوسط. وبعد مخرجه من البحيرة بحوالي ٢٥ كيلومترا تهبط مياهه فجأة فتكون شلالات تيسيسات Tisisat الشهيرة .

تتجمع مياه الشلالات بعد هبوطها الهائل في اخدود صخري عامودي الجانبين نحرته المياه بمرور آلاف السنين ثم تندفع بسرعة شديدة من خلال فجوة صخرية ضيقة ، فتبدو للناظر من أعلاها وكأنها شريط من فضة . ومن هنا يبدأ النيل الازرق (أو الاباي الكبير) مسيرته الطويلة الازلية دون عائق نحو البحر الابيض المتوسط بسرعة فائقة ويزداد عمقا كلما توغل في الانحدار عبر الهضبة حتى ينخفض منسوبه الى ٤٠٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحيرة التي نبع منها .

الا ان مجرى النهر بين نقطة انطلاقه من البحيرة وحتى دخوله الحدود السودانية يشكل قوسا كبيرا يبلغ طوله ٤٨٠ كيلومترا . فيتجه مجراه نحو الجنوب الشرقي أولا ثم غربا ثم شمالا ملتفا حول جبال غوجام Gojam .

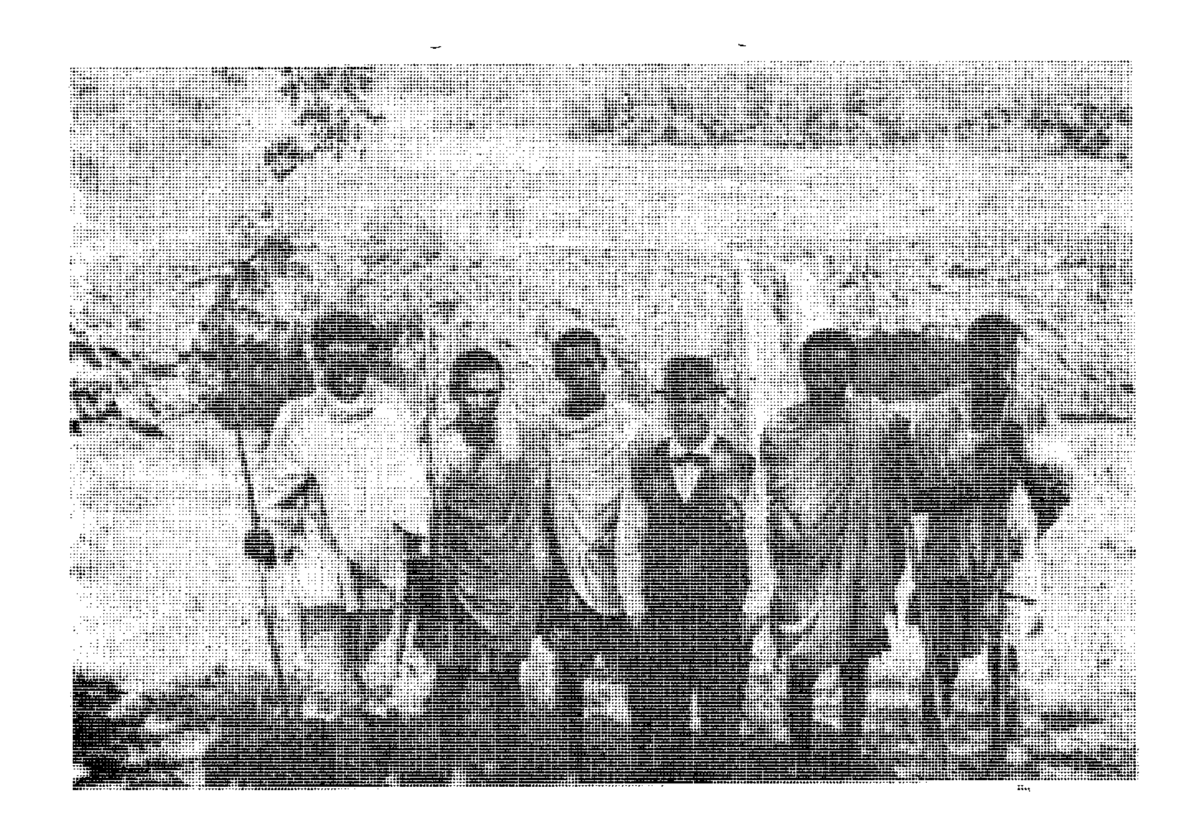
في هذه المرحلة من مجراه يخترق النهر احراجا كثيفة تجعل من الصعب اجتيازه من جانب لآخر . وتزداد وعورة مجراه كلما تقدم في مسيرته ، مكونا بواسطة واديه السحيق حاجزا طبيعيا منيعا مع اقليم شوا .

ثم ينفتح الوادي قبيل هبوطه في سهول السودان وتتضاءل الصخور التي تكون جانبي جرفيه حتى تصبح المسافة التي تفصل بين





مياه الشلالات بعد هبوطها الهائل في اخدود صخري



المؤلف وبعض الامهاريين وبدا خلفهم جانب من شلالات تيسيسات
المنــــحدرة من النيــــل الازرق



حافتيه اكثر من ٢٠ كيلومترا ، بينما لا يتجاوز عرض مجراه في قعره ثلاثين مترا أو نحو ذلك . ومنذ دخوله أرض السهول يترك وراءههديره المفزع الناتج عن ارتطام المياه بالصخور التي تعترض سبيله . وهنا في الارض المنبسطة الساكنة ينساب بهدوء وبطء وكأنه يتأمل خطاه قبل ان يبعث في هذه الرمال المحرقة حيـــاة جديدة . من هنا وفي هذه السهول تبدأ المرحلة الثانية من مراحل مسيرته ، يقطع فيها نحو ٧٠٠ كيلومتر حتى يصل الى أم درمان ليلتقي التوأمان ــ الازرق والابيض ــ فيتحدا في مجرى واحد هو النيل الخالد ــ الذي يتكفل اتمام المرحـلة الاخيرة عبر المفاوز والاراضي السودانية والمصرية حتى ينتهي بالبحر الابيض المتوسط بعد رحلة موحشة وسط هذه الفيافي والقفار ، طولها ٢٨٠٠ كيلومتر من بداية التقاء التوأمين بأم درمان حتى مصبه فيالبحر الابيض المتوسط .

ويصب بالنيل رافدان مهمان هما « رهد » الذي تتجمع مصادر مياهه بالقرب من بحيرة تانا من جهتها الشمالية الغربية و « دندر » الذي ينبع بالقرب من الحدود السودانية . وكلا الرافدين لهما أهميتهما من الناحية الزراعية بالنسبة للسودان . اما الاول فيؤمل أن ينبثق على ضفتيه مشروع جسيم للميكنة الزراعية بوشر فيـــه في السنين الاخيــرة .

ان أهمية النيل الازرق من الناحية الزراعية تستوجب اجـراء دراسات عميقة في حياة هذا النهر وتطوراته سنة بعد سنة . فحياة الانهر في تبدل مستمر والتغيرات التي تحدثها تؤثر على ما حولها من الاراضي والسكان . اما النيل الازرق فمضت مدة سكون طويلة عليـه عقب زيارة جيمس بروس له في القرن الثامن عشر . ولم يحاول أحد من المغامرين تعقيب مجراه خلال مروره بالهضبة بسبب ما يحيط بذلك من مخاطر علاوة على التعرض للامراض . لقد جاء ثري اميركي من هواة الصيد سنة ١٩٠٢ ــ يدعى W.H. Macmillan وبرفقته رجل نرويجي . وحاول الاثنان سلوك مجراه بواسطـــة الزوارق والسير بمحاذاته على البغال من ناحية السودان ومن ناحية بحيرة تانا . الا انه بعد جهود مضنية ومجازفات خطرة للغاية أوقفا مشروعهما وأسدلا عليه الستار . وطويت صفحة المغامرات فترة بانتظار بطل جديد ورائد أقدر علـى تحمـل الشدائـد والمهالـك . فجـاء دور الكولونيل (العقيـد) R.E. Cheesman الذي عين قنصلا بريطانيا في الشمال الغربي للحبشة سنة ١٩٢٥ . فلقد استطاع هذا القنصل خلال السنوات العديدة التي قضاها هناك أن يختلس شيئا من أوقات عمله للقيام بدراسة حول هذا النهر . فعقد العزم على كشف النقاب عن كثير من الحقائق الغامضة



من هذا النهر التي قال عنها حسب تعبيره : « آخر جزء لم يكتشف من افريقية » . فكلما كانت تسنح له الفرص للتهرب من واجباته المسلكية اتجه صوب النهر وسار بمحاذاته بشتى الوسائل حتى انه قطع في رحلاته المتكررة خلال هذه المدة حوالي ٨٠٠٠ كيلومتر بين بحيرة تانا وحدود السودان . فوصف النهر وصفا دقيقا وجمع معلومات قيمة عنه في كتاب خاص . وأصبح تشيزمان يعتبر من ذلك التاريخ الرجل الثقة وأول خبير جغرافي مختص بالنيل الازرق .

مرت آلاف السنين والنيل الخالد يفيض على السهول المجاورة بنعيمه وخيراته لا من الماء فحسب بل ومن أجود وأخصب التربةالسطحية التي تجرفها الامطار وتحملها الانهار منارض الحبشةلتحيي بها حقولالذرة والقطن والارز والفول . يجري النيل كل سنة بفيضه فتدور السواقي وتتجدد الحياة وتتوالى الاجيال والشعوب والدول في واديالنيل العتيد في سنار ومروي والنوبة واسوان والاقصر . واعترافا بجميله وفضله صاروا يقدسونه ويجلونه ويقيمون له المناسبات الموسمية . يقدسه أهل السهول لانه مصدر حياتهم واساس كيانهم وحضارتهم . ويقدسه اهل الهضبة لجلال مظهره وروعة واديه الذي تخشاه القبائل المجاورة وتخشى هياكل صخوره التي نحتها وأكل فيها الماء عبر العصور . وتخشاه بصورة أخص قبائل الـ « أغاو Agaw » فتنحر له القرابين لاعتقادها بأرواح شريرة تسكن في قعره .

ولما كان النيل يعتبر شريان الحياة بالنسبة لمصر فقد اولت حكوماتها المتعاقبة هذا الامر بالغ اهتمامها منذ أمد بعيد لضمان حقوقها المكتسبة حسب العرف الدولي . ونشطت في هذا المضمار في بداية القرن الحالي فعقدت اجتماعات ومؤتمرات دولية مع البلاد التي يمر النيل (الازرق والابيض) في أراضيها استهدفت تنظيم أسلوبالاستفادة من مياهه في مختلف المواسم . وانتهى الامر بالاتفاقية المعروفة باسم « اتفاقية النيل » المعقودة سنة ١٩٢٩ . ولقد ضمنت هذه الاتفاقية لمصر حصة الاسد من مياه النيل في الفترة الواقعة بين شهر كانون الثاني (يناير) وتموز (يوليو) من كل عام . كما وضمنت « لمشروعالجزيرة » في السودان المياه التي تكفيه . وقد تجدر الاشارة ما دمنا بصدد مشروع الجزيرة الى ان مساحته هي مليونان من الافدنة (حوالي ٣٦٢٠٠٠٠ دونم عراقي) وتديره هيئة وطنية سودانية متخصصة ادارة مستقلة ، ويمكن اعتباره من أضخم المشاريع الزراعية في العالم ان لم يكن اعظمها حجما .

نهر عطبره

هذا هو النهر الثاني من ناحية الاهمية بالنسبة للسودان ومصر ،



وبصورة اخص للسودان . ويغذي هـذا النهر رافدان كبيران تتجمع مياههما في مساقط مطرية متباعدة الواحدة عن الاخرى . اما الرافد الاول ، وهو الاطول ، ويسمى تاكازي Tekazze فيبدأ من الجهة الشرقية للمرتفعات الوسطى بالقرب من بحيرة اشانغـي Ashanghi وعندما يتجه غربا ، مطوقا سلسلة جبال لاستا Lasta يحفر فـي الارض مجرى غاية في العمق ثم يواصل انحداره شمالا ثم غربا ثانية حول جبال سيميان Simien . ومن هنا يتغير اسمـه الى ستيت Setit . ويبلغ طول هذا الرافد ٧٠٠ كيلومتر من بداية تكوينه حتى ملتقاه بالرافد الثاني عند اول مدخل الحـدود السودانية . وبالنظر لكثرة السيول التي تصب فيه فقد يبلغ منسوبه مستوى عاليا خـلال موسم الامطار أحيانا .

واما الرافد الثاني فهو يحمل اسم النهر نفسـه ـ أي عطبره . وهذا تتجمـع مياهه في الجبال الواقعة الى الغرب والشمال الغربي لبحيرة تانا . ويصب فيه أيضا رافدان صغيران هما غاندوا Gandua وانغريب Angareb

يجري نهر عطبره شمالا مخترقا فيافي السودان حتى يصب بنهر النيل مباشرة عند بلدة عطبره شمالي الخرطوم . وفي داخل الاراضي السودانية تقع على جانبيه أراضي شاسعة قابلة للزراعة . فاقتطعتها الحكومة السودانية لتنفيذ مشاريع للاستيطان الزراعي فيها ، واهمها مشروع خشم القربة الذي استهدف اعادة توطين سكان وادي حلفـه من اهل النوبة الذين غمرت أراضيهم مياه بحيرة ناصر نتيجة انشـاء السد العالي بمصر . كما استهدف كذلك توطين البدو الرحل من قبائل البيجه القاطنين في محافظة كسله على الحـدود الشرقية المتاخمـة لاريتريـا .

نهر سوبات

هذا هو النهر الثالث بين الهبات التي تقـدمها هضبة الحبشة لسكان وادي النيل . غير انه لا يصب في النيل الازرق كمعظم الروافد المنحدرة من الهضبة بل يفرغ مياهه في النيل الابيض جنوبي بلدة ملكال السودانية . والنهر يتكون فعلا على الحـدود الاثيوبية ـ السودانية باتحاد رافديه القادمين من الحبشة . فالرافد الاول وهو بارو Baro فتتجمع مصادر مياهه في الجبال الواقعة الى الجنوب الغربي من بحيرة تانا . واما الرافد الثاني وهو بيبور Pibor ، فينبع بالقرب من الطرف الشمالي لبحيرة رودولف التي يقع الجزء الاعظم منها داخل جمهورية كينيـا .



ومن هنا يتضح ان مياه النيــل الابيض لا تأتي كلها من بحيرة فكتوريا بجمهورية يوغنده كما هو شائع ، ولو ان هذه البحيرة تســاهم في تقديم القسط الاوفر من حجم مياهه .

نهر عواش

هذا هو النهر الاول الذي يمكن ان يقال عنه انه مهم بالنسبة للزراعة في الحبشة . فقد اقيم عليه مشروع ضخم لانتاج السكر من القصب ، حصلت على امتيازه شركة هولندية لمدة خمسين سنة . كما وقــد باشرت الحكومة بمشروع آخر للاستفادة من ميــاهه لغرض التوسع بزراعة القطن . اما مصادر مياهه فتقع في الهضبة الوسطى في ولاية شوا والى الجنوب الغربي من العاصمة اديس ابابا . وبعد انحداره بحذاء جبال الهضبة الوسطى يشكل شبه دائرة يتجه بعدها نحو الشمــال الشرقي في مجرى الوادي الشقي ثم ينتهي بصحراء الدناقل (او صحراء عفر) . لكن النهر في مرحلته الاخيرة عبر الصحراء ينفذ خلال عدد من البحيرات الضحلة المالحة حتى يغور نهائيا في بحيرة (آبي Abbe) بالقرب من حدود الصومال الفرنسي وعلى مسافة ١٥٠ كيلومترا من البحــر الاحمر . ويسجل النهر عند بلوغه نهايته ٦٩٠ كيلومترا اعتبارا مـــن منبعه في الهضبة .

نهر الشيبلي

هناك نهران ينبعان من الطرف الغربي للهضبة الشرقية وكلاهمــا ينحدران شرقا نحو جمهورية الصومال . الاول وهو ويبي شيبلي فيعتبر أطول أنهار الحبشة (١١٣٠ كيلومترا) . تتجمع مياه هذا النهر فــي منطقة عروسي Arusi جنوبي اديس ابابــا ثــم يواصل جريانه بحذاء جبال (تشرتشر Chercher) وبعدها يتجه نحو الجنوب الشرقي مستكملا بقية استيعاب حوضه من روافد صغيرة في جبال هرار . وعندهــا يدخل حدود الصومال بالقرب من قرية (فريفر Ferefer) الصومالية.

يخترق النهر داخل الصومال مساحات واسعة من الاراضي القابلة للزراعة الا انها لم تستغل بعد الاستغــلال الانتاجي الصحيح . غير ان شركة ايطالية تستثمر مساحات لا بأس بها بموجب امتياز قديم لانتاج السكر من القصب والموز والليمونيات وغيرها . ويقع هذا المشروع على مسافة ٩٠ كيلومترا شمالي العاصمة مقديشو . وقــد اقيم سد على النهر لتخزين المياه . وقد أسس المشروع بكامــــله قرب قرية تدعى (جوهر) الا انه بعد نموه واتساع الاعمـــــال فيه اصبح يعرف باسم (فيلا بروتسي Villa Bruzzi) على اسم صاحب الامتياز ومؤسس



خارطة أثيوبيا

حدود دوليه
حدود اريتريا
سكك حديديه

بورت سودان
سواكن
الخرطوم
عطبره
مدني
القلابات
غوندار
بحيرة تانا
بحردار
النيل الأزرق
كرن
أسمرا
تسني
أكوردات
اريتريا
عدوه
أكسوم
مكالى
البحر الأحمر
مصوع
عصب
جيبوتي
زيلع
بربرة
هرغيسا
عدن
خليج عدن
صنعاء
أوبوك
أديس أبابا
ديره داوه
هرار
جيجيقا
عواش
غوري
جيما
سيدامو
اقليم
صحراء أوجادين
نهر ويبي شبيلي
جمهورية الصومال
كينيا



المشروع . وبعد عهد الاستقلال أعيد الاسم القديم ــ جوهر ــ الى القرية والمنطقة . ومن الجدير بالذكر ان الموز يزرع على ضفاف هذا النهر بكثرة وكذلك البابايا Papaya لغرض التصدير وخاصة حول بلدة (افغوى Afgoy) الواقعة على مسافة ٣٠ كيلومترا الى الغرب من العاصمة .

يواصل النهر جريانه جنوبا حتى ينتهي في رمال تلك المنطقة . ويقال ان هذا النهر كان فيما مضى يصب بالمحيط الهندي قبل قيام المشاريع الزراعية للاستفادة من مياهه في كل من اثيوبيا والصومال .

نهر جوبا

اما النهر الثاني الحبشي المنشأ الذي أشرنا اليه في الفقرة السابقة فهو نهر جوبا أو كما يسميه العرب نهر الجب . ولهذا النهر روافد عديدة تصب جميعها فيه داخل مرتفعات الحبشة قبل دخوله الاراضي الصومالية . ويشكل نهر جوبا موردا من اهم الموارد الطبيعية لتحسين الاقتصاد الصومالي . ونهر جوبا من الانهار الطيعة لمشاريع الري ويمكن للاراضي الواقعة على ضفتيه استيعاب عدد لا بأس به من المشاريع الزراعية . فقد أجريت دراسات مستفيضة ــ زراعية وهايدرولوجية ــ قامت بها هيئات فنية مختلفة أوفدتها الامم المتحدة وباكستان والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ، كل على انفراد وبفترات مختلفة بين أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . وكل التقارير أوصت بالعناية والاهتمام بحوض نهر جوبا نظرا لتوفر المياه وصلاح الاراضي لاستثمارات أوسع ونجاح مشاريع الري للتوسع بزراعة القطن والمحاصيل الزيتية والفواكه وغيرها . اما اقتصاديات منطقة جوبا حاليا فتعتمد بصورة أساسية على انتاج الموز الذي كان يصدر لوقت قريب لحساب شركة ايطالية حسب اتفاق تجاري خاص منذ عهد الاحتلال الايطالي لهذه البلاد .

ويصب نهر جوبا في المحيط الهندي بجوار ميناء قسمايو في أقصى الجنوب .

الانهار في اريتريا

ان معظم أنهار اريتريا موسمية وقصيرة المدى . ولكن بالنسبة لاتجاهات انحدارها فيمكن تصنيفها الى مجموعتين ، منها ما يتجه انحداره غربا وينتهي في السودان ومنها ما يتجه شرقا فيصب في



البحر الأحمر أو ينتهي قبل وصوله ساحل البحر فيغور في رمال الصحراء .

واهم الانهار المتجهة غربا هما : ١ ـ نهر مارب و ٢ ـ نهر بركة .

١ ـ نهر مارب Mareb

يطلق على هذا النهر اسم مارب داخل الحدود الاريترية في المرتفعات ، الا انه عند دخوله السهول الغربية وفي السودان فيعرف باسم (نهر غاش Gash) وينتهي في مستنقع داخل الحدود السودانية بعيد اجتيازه بلدة كسله . اما داخل اريتريا فيروي هذا النهر مساحات لا باس بها من مزارع الموز والقطن . كما وتنمو على ضفافه بصورة طبيعية اشجار الدوم الباسقة حيث تكون غابات تمتد لمسافات بعيدة على جانبي حوض النهر . وهناك شركة ايطالية تستثمر أجود الاراضي الزراعية بموجب امتياز خاص لزراعة القطن والدخن والفول السوداني.

ان هذا النهر موسمي لا تتعدى فترة جريان المياه فيه ثلاثة شهور سنويا وطوله ٤٤٠ كيلومترا . ومن أهم المدن الواقعة على هذا النهر هي تسني Tesenei التي تبلغ نفوسها ١٥ ألف نسمة وهي قريبة جدا من الحدود السودانية .

٢ ـ نهر بركه

هذا هو النهر الثاني الذي مر ذكره في الفقرة السابقة . ومن خصائصه انه يصب في السنين الاعتيادية في السهول الغربية . واما في المواسم الغزيرة الامطار فيصب في البحر الاحمر . ويرجع سبب زيادة مياهه لكثرة روافده التي أهمها هو نهر (انسيبا Anseba) الذي يتصل بنهر بركة بجوار الحدود السودانية . اما طول نهر بركة فيبلغ ٦٣٠ كيلومترا . وكما ذكرنا سالفا فهذا النهر وروافده من الانهار الموسمية . وهذا ما يجعل الزراعة في اريتريا محدودة المجال ما لم تتم السيطرة على المياه عن طريق مشاريع الري الكبرى . اما المدينة الرئيسية الواقعة على هذا النهر فهي « أغوردات Agordat » المشهورة بزراعة الموز والدخن وتنمو حولها غابات شجر الدوم التي تدخل منتجاتها في الصناعة فتستخرج الالياف من اوراقها لصنع الاكياس والحبال . وقد اتسعت هذه الصناعة مؤخرا كما يصنع العلف المجفف للحيوانات من ثمارها والازرار من النواة .

اما الانهار التي تنحدر من الهضبة وتتجه شرقا نحو البحر الاحمر فاكثرها لا تعتبر انهاراً بمعنى الكلمة بل جداول وسيولا تجري في



بصل الامطار وتجف معظم ايام السنة . الا ان هذه الجداول والسيول على قلتها فتغذي مساحات محدودة على الشريط الساحلي من الاراضي الزراعية . وفي الامتداد الشمالي لصحراء الدناقل تجري بعض الانهر الصغيرة التي لا تلبث ان تغور في البحيرات المالحة .

الا ان بعض هذه الانهر قد يصل فعلا الى البحر الاحمر ويصب فيه ولكن ليس بصورة دائمية . وعلى سبيل المثال نذكر ثلاثة من هذه الانهر الموسمية وهي (كومايلي Komaile) و (اليغيده Aligede) و (هداس Haddas) . وقد وجهت الحكومة اهتمامها في أوائل الستينات للاستفادة من مياه هذه الانهر للاغراض الزراعية . وفعلا تم انشاء سد (زولا Zula Dam) ونواظمه على نهر هداس الواقع على بعد ٥٠ كيلومترا الى الجنوب من ميناء مصوع لارواء مساحة من الاراضي الزراعية تقدر بستة آلاف هكتار (٢٤ ألف دونم عراقي) . ويستوعب هذا السد ٢٢ مليونا من الامتار المكعبة من الماء .

البحيرات

لا تعتمد الثروة المائية في اثيوبيا على كثرة انهارها فحسب ، بل على عدد لا يستهان به من البحيرات المتناثرة في المرتفعات والمنخفضات موفرة للبلاد ، عدا حاجتها المائية للزراعة ، نفعا مزدوجا ــ صيد الاسماك والسياحة . وان جزءا من هذه البحيرات بركانية المنشأ متفاوتة الاعماق ومغلقة . ومنها ما يقع في مواقع تجمع مياه عدد من الانهر وأهم سلسلة منها هي البحيرات الواقعة في الوادي الشقي في الجنوب . اما البحيرات الاخرى ، واكبرها بحيرة تانا الشهيرة ، التي سنتطرق اليها بالبحث تفصيلا ، فما زالت عديمة الاهمية من الناحية الاستثمارية. واما البحيرات الواقعة في صحراء الدناقل فتمثل مصدرا كبيرا لاستخراج الملح . فما يستخرج منها ومن الممالح الصناعية المعتمدة على تجفيف مياه البحر يبلغ حوالي ٢٥٠٫٠٠٠ طن من الملح يصدر للخارج سنويا (٢) .

وتحتل بحيرات الوادي الشقي جوف الوادي الواسع الفسيح بشكل سلسلة غير منتظمة من الشمال نحو الجنوب ، وعددها ثمان وهي : بحيرة زواي Zwai ولاغانا lagana واباياتا Abayata وشالا Shalla وأواسا وابايا (مارغاريتا) وهي اكبر البحيرات الجنوبية ، وستيفاني Stefane وشامو Shamo . اما بحيرة رودولف فيقع طرفها الشمالي فقط في اثيوبيا ، واما معظم حجمها ففي جمهورية كينيا .

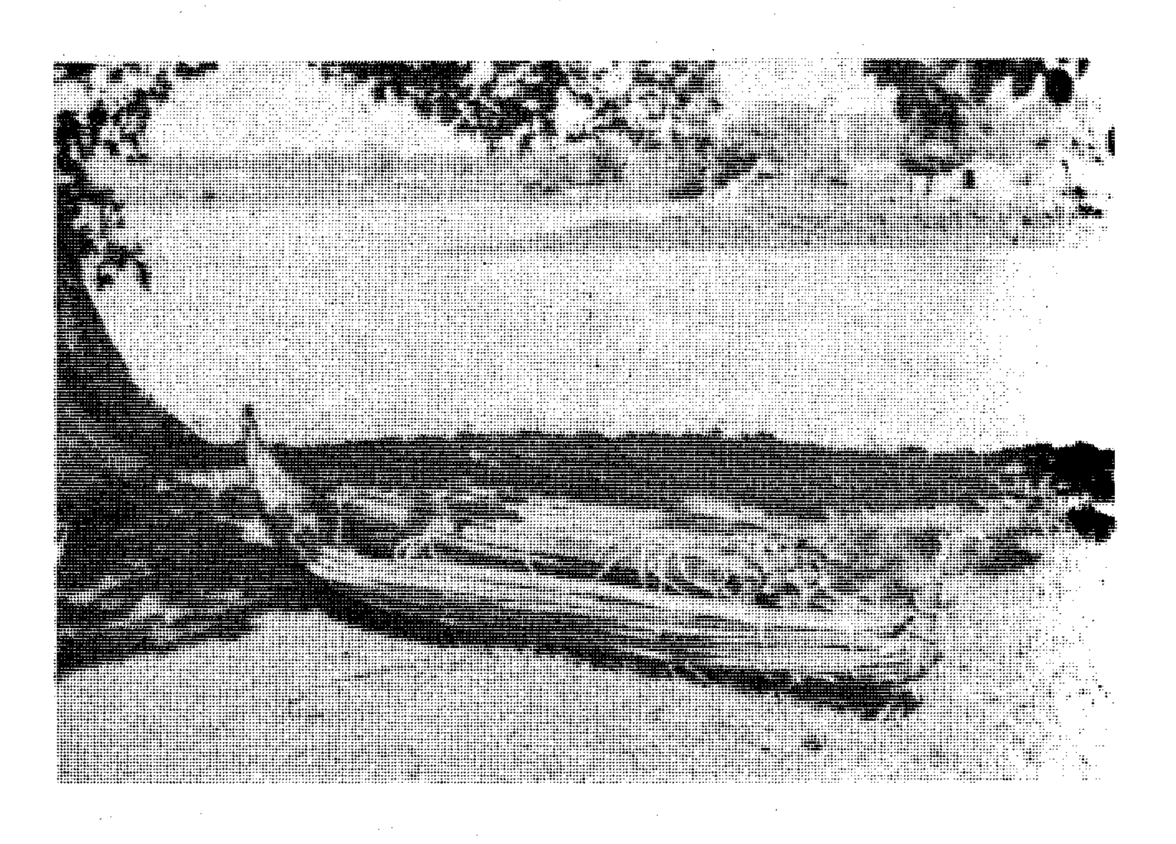
---

٢ ــ التقارير السنوية لمصلحة الكمارك الاثيوبية .





سكان الهضبة الوسطى في ثيابهم البيضاء وشمسياتهم التقليدية



بداية خروج النيل الازرق من بحيرة تانا ونموذج من زوارق البردى المستعملة للتنقل داخل البحيرة

وقد أشرنا الى هذه البحيرات بشيء من التفصيل في الفصل الرابع والعشرين تحت عنوان « بحيرات الوادي الشقي » .

بحيرة تانا

لهذه البحيرة اهمية خاصة في تاريخ الحبشة اضافة الى كونها مصدرا من أهم المصادر المائية . فقد رافقت مسيرة تاريخ البلاد عبر الاجيال المتباعدة الطويلة وعاصرت أهم أحداثه ، وشهدتها وهي تتمثل على شواطئها الثابتة . نزلت حولها أقوام وملل مختلفة ، وكانت شاهد عيان لاعظم المعارك التي دارت حولها واعنفها . وسار الملوك والرؤوس بجيوشهم الجرارة من حولها مرارا وتكرارا وهي صامتة لا تبدي حراكا. وزارها الرحالة والمغامرون الاجانب بحثا عن الحقيقة ــ عن مصادر مياه النيل الازرق التي شغلت الجغرافيين فترة من الزمن . ولذلك فقد أصبحت هذه البحيرة الخالدة نقطة دالة ومعلما بارزا من أشهر معالم اثيوبيا .

تقع بحيرة تانا في الطرف الشمال الغربي من اثيوبيا وتبلغ مساحتها زهاء ٣١٦٥ كيلومترا مربعا . وهي على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر . اما الجبال المحيطة بها فتعلوها بحوالي ٢٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ قدم . ولا تبعد مدينة غوندار ، العاصمة القديمة ، سوى حوالي ٦٠ كيلومترا عن طرفها الشمالي . اما بلدة غورغورا Gorgora وهي من مراكز التدريب التابعة للبحرية الاثيوبية فتقع على شاطىء البحيرة الشمالي مباشرة .

من الحقائق المعروفة عن بحيرة تانا هو ان عمقها لا يتجاوز ١٤ مترا (حوالي ٤٦ قدما) وان شواطئها ضحلة منبسطة ولذلك فالامطار الغزيرة مهما بلغت كمياتها فلا تزيد من عمقها كثيرا لانها تفيض على جوانبها المنبسطة فتزيد من مساحتها السطحية دون العمق .

وان كل ما حول البحيرة من طبيعة يوحي بالطابع الاستوائي ما عدا لطافة مناخها المعتدل . ولكن على الرغم من اعتدال المناخ فالشمس محرقة . ومن المناظر المألوفة للزائر الغريب مشاهدةالاحباش رجالا ونساء يحملون الشمسية اتقاء ضربة الشمس . والمحيط حول البحيرة كله رائع يخيم عليه الهدوء وسكون الطبيعة وخلوها من صخب الحياة ، في البحيرة او على اليابسة . ولاول وهلة يشعر الغريب الزائر بأنه ما زالت في هذا العالم زوايا بعيدة عن مزعجات المدنية وضجيجها. يلتفت نحو اليابسة فلا يشاهد حركة لمرور السيارات المزعجة . ثم يدير الطرف نحو مياه البحيرة الصافية من خلال اغصان الاشجار المتدلية على الساحل فلا يرى البواخر تمخر عباب مياهها مطلقة صفاراتها



المقوتة . وقد يرى عن بعد زورقا صغيرا مصنوعا من البردى قادما من احدى الجزر المتناثرة فيها وهو يتهادى على وجهها الراكد .

ان أول شيء يبعث الانشراح في نفس الزائر وهو يدنو من شاطىء البحيرة الجميلة هو منظر تلك الاشجار الضخمة الباسقة تلامس اطرافها سطح الماء من جهة والارض الزاهية بخضرتها من الجهة الاخرى . فروعها ممتدة في كل اتجاه كأنها أذرع عملاق يحاول ان يلمس كل شيء مما حوله في الفضاء الواسع . ولا تفقد هذه الاشجار العملاقة رونقها حتى عندما تتساقط اوراقها وتتعرى منها فتبدو كأنها هياكل ثابتة بأحجام واشكال مختلفة . هذه هي شجرة الـ Baobab وبلغة السودانيين (العمارة) وتعرف علميا بـ Adansonia digitata وهي شجرة افريقية اصيلة من اضخم الاشجار المعروفة اذ يبلغ قطر جذعها نحو ٣٠ قدما (٩ امتار) الا انني لم أرها بهذا الحجم على الرغم من مشاهدتي لها في اكثر من قطر واحد . ان ثمارها تشبه اليقطين وتدعى محليا (خبز القرود) . اما الاهالي فيستخرجون من أوراقها وقشرة ساقها بعض الادوية المحلية . ولعل تواجد بعض ثعابين البايثون على هذه الاشجار هو لاقتناص القرود التي تتسلق هذه الاشجار بحثا عن ثمارها . وقد يمكث الثعبان من غير حركة ممددا على أحد اغصان الشجرة ساعات بانتظار فريسته . وهذه الثعابين معروفة بضخامة اجسامها ، فقد يصل طول الواحد منها ٢٠ ــ ٢٢ قدما في هذه المناطق .

ومن الخصائص الفريدة لبحيرة تانا وجود عدد من الجزر المأهولة فيها ، والتي تزينها خضرتها العميقة الناشئة من اكتظاظ الاشجار الفارعة وما تحتها من اشجار البن البري وانواع النبات الاستوائي . ومما زاد في اهمية هذه الجزر وجود أديرة قديمة فيها يؤمها الزوار من كل مكان بواسطة الزوارق البخارية . اما بعض هذه الاديرة فيقال انها قديمة قدم المسيحية في اثيوبيا . ونشأت في بعضها تقاليد صارمة لا تسمح بزيارة النساء بل ولا يسمح حتى لاناث الحيوانات بالبقاء في الجزيرة . ولم يكن الوصول لمثل هذه الاماكن بالامر الهين لوقت قريب بسبب الصعوبات والمخاطر . فكيف بالرواد من الرحالة أمثال جيمس بروس الاسكتلندي الذي زار هذه المناطق في أواخر القرن الثامن عشر .

قصدت ذات مرة زيارة أحد الاديرة في جزيرة تدعى اوراكيدا نمهيرت مع جماعة من نزلاء (راس اوتيل) في بلدة بحردار السياحية . فاستأجرنا زورقا بخاريا اتجه بنا نحو الجزيرة . الا اننا ما كدنا نتوسط المسافة بين الشاطىء والجزيرة حتى هبت علينا عاصفة حاولنا تجنبها باللجوء الى جزيرة اقرب من الجزيرة التي قصدنا زيارتها . فأبى صاحب الزورق الاتجاه نحو الجزيرة القريبة بحجة وجود سيدتين معنا في



القافلة ، فتبين ان في الجزيرة القريبة منا دير قديم لا يسمح بنـزول النساء فخاف الملامة وغضب الرهبان عليه فاضطررنا لمواصلة السير نحو هدفنا الاول رغم العاصفة . وتدعى هذه الجزيرة التي منعنا من النزول فيها (كدانة جبرائيل Kidane Gabrael) . وبعد مسيرة استغرقت نصف ساعة اخرى وصلنا الجزيرة وزرنا ديرها (وهنا سمح للسيدتين النزول الى الارض وزيارة الدير) . وفي الطريق الى الدير يسير المرء عبر ممرات ضيقة من الادغال والاشجار المكتظة . ومراعاة لتقاليد الدير وجب علينا خلع أحذيتنا والسير حفاة في ممراته التي كانت مزينة بالرسوم لبعض القديسين ــ وفي مقدمتها صورة القديس كوركيس . اما سكان الجزيرة فكانوا بحالة يرثى لها من الفقر . وحتى الرهبان الذين كانوا حفاة أشير علينا بان نكرمهم لقاء سماحهم لنا بزيارة الدير .

ان الخطة العمرانية في البلاد حسبما يبدو تتجه لتصنيع منطقة بحردار نظرا لوفرة مياهها ووعورة أراضيها التي لا تصلح الا للرعي . وقد اقيم بالقرب من شلالات تيسيسات مركز لتوليد الكهرباء الذي يعتمد عليه معمل الغزل والنسيج القريب من بلدة بحردار . كما أسس الاتحاد السوفياتي معهدا للهندسة الكهربائية والميكانيكية في نفس البلدة على مقربة من البحيرة .



الفصل الثالث

ثلاثة آلاف سنة في ركاب التاريخ

سجل مجد الملوك

ذكر سائح بريطاني ، هو المستر ري C.F. Rey زار الحبشة في الثلاثينات من هذا القرن في كتاب أصدره بعد اتمام رحلته ــ The Real Abyssinians بأن الامبراطور هايلا سلاسي تلطف فأوعز لمؤرخ بلاطه بتزويد هذا الزائر بقائمة كاملة للملوك الذين حكموا الحبشة منذ أقدم العصور . ان هذه القائمة احتوت على ٣١٢ عاهلا ــ بضمنهم هايلا سلاسي الاول ــ يرجع تاريخ أولهم الى السنة ٤٥٣٠ قبل الميلاد. وكانت القائمة قد استخلصت من سجل ينظر اليه الاحباش كأوثق مصدر لتاريخ بلادهم ــ ذلك هو « سجل مجد الملوك Kebra Negast » . ويذهبون الى انه مترجم من وثيقة اكتشفت بين خزائن كنيسة القديسة صوفيا في أسطنبول (جامع ايا صوفيا حاليا) قبل سنة ٣٢٥ ميلادية (١) . ولكن مما يدعو الى التشكك في صحة وقائع هذا السجل وتواريخ تسلسل حكم الملوك هو انه نظم بشكله الحالي في القرن الرابع عشر الميلادي . فتقادم هذا العهد الطويل وخاوه من الآثار التي يؤبه لها وما رافق هذه الحقبة الزمنية البعيدة من سكوت تام عن بعض الفترات وغموض بعض الاحداث دفع بالمؤرخين المعاصرين الى ابداء تحفظات كثيرة ، ان لم نقل الارتياب الكلي حول صحة الروايات وتسلسل الوقائع التي جاءت فيه . ومهما يكن من أمر فلا يمكن ان يكون السجل قد خلا من الحدس والمبالغات أو التأثيرات السياسية . ولذلك فالعلم الحديث لا يقر ما جاء فيه من الاحداث (٢) ويعتبر وقائعه نسجا من الخيال .

ان الرجل الذي دون سجل الملوك بشكله المحفوظ حاليا هو

---

1 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 41.

٢ ــ المصدر نفسه .



القديس تقلا هايمنوت . والمعروف عنه حبه للاسرة السليمانية وتفانيه في سبيل اعادة الملك لها بعـــد ان اغتصبته منهـــا اسرة (زاغوي Zagwe) من قبيلة (اغاو Agaw) لفترة من الزمن . وهو في تنظيمه لهذا السجل أراد ان يضفي هالة من القدسية والشرعية عـــلى السلالة السليمانية لاثبات حقها الشرعي في حكم البلاد . فاعترافا بهذا الجميل وتقديرا للخدمة التي أسداها لهذه السلالة انهم بعد استعادتهم للعرش وهبوا الكنيسة الحبشية ثلث الاراضي العائدة للدولة . ومن هنا بدات علاقة الكنيسة بامتلاك الاراضي واستثمارها لحسابها وامتداد نفوذهـا بين السكان .

ان محور ما يدور حوله سجل الملوك هو قصـــة زيارة ملكة سبأ للملك سليمان الحكيم ـ ويشير اليها (العهد القديم) باسم ملكةالجنوب. فيفترض مقدما ان هذه الزيارة تمت في حوالي السنة ٩٧٠ قبل الميلاد. ولكن حتى هذه الفترة القريبة نسبيا من تاريـــخ الحبشة فان بعض المؤرخين يتشككون في صحتها . فيقـول الدكتور فيليب حتي وزملاؤه في كتـــابهم (تاريخ العرب المطول ـ الجزء الثاني ، صحيفة ٧٤) : « الا ان الحقائق الراهنة لا توصلنا في تاريخهم الى ما قبل القرن الاول الميلادي . وليس لدينا ما يؤبه له من الاخبار الصريحة لهذه الامة قبـل اعتناقها النصرانية على يد القس فرمنتيوس السوري قبيـــل منتصف القرن الرابع الميلادي » .

ملكة سبا وبداية التاريخ الحبشي

يبدأ التاريخ الحبشي المدون بقصة هذه الملكة أو اسطورتها الشائعة وتعرف عند الاحباش باسم محلي هو (ماكيدا Makeda) التي كـانت اكسوم الواقعة في شمال الهضبة وبالقرب من حدود اريتريا الحاليـة عاصمة ملكها . يروي سجل الملوك بصورة مفصلة كيف ان هذه الملكـة بعد سماعها بحكمة الملك سليمان ـ الملك الذي اشتهر بحكمته فغمر عدله رعيته واستقامت له الامور وانقادت له الجيوش ـ وأرادت ان تقتبس من حكمته وتختبره وتقف على مزاياه ، فقررت ان تقـــوم بزيارته . فشدت الرحال الى بيت المقدس في حوالي السنة ٩٧٠ قبل الميـلاد . وتمضي الرواية عن رحلة هذه الملكة فتصف كيف انها اصطحبت معها ، كما تتطلبه مظاهر الملك والابهة ، حاشية كبيرة من المرافقـــين والخدم وحملت معها الى الملك اغلى الهدايا وانفسها من العاج والطيوب والتوابل، كما نقلت من خزائنها الكثير من الذهب والفضة .

ويمضي السجل في وصف مطول لاستقبال الملك لها في بـلاده واكرامه وفادتها وكيف انه على الرغم من المبالغة في اكرامها واحترامها

فقد حذرها مقدما من شيء واحد ـ ذلك هو ان لا تمس بيدها أي شيء يعود له . وجعل ذلك شرطا للسماح لها بالمنام منفردة ، في مخدعها. ولكن الملك أوعز لطهاته في تلك الليلة ان يدسوا الكثير من التوابل في طعامها ، فأفاقت من نومها ظمآنة تبتغي شرب الماء . فدنت من جرة ماء وشربت منها . فعلم الملك بذلك واعتبر عملها هذا اخلالا بالشرط المتفق عليه ، فأذعنت لارادته وحملت منه ابنه غير الشرعي .

وفي طريق عودتها الى بلادها انجبت مولودا ذكرا عرف ـفيما بعد باسم (ابنا حكيم) اي ابن الحكيم . ولما انطوت الاعوام وشب وترعرع ابن الحكيم وقوي ساعده تنازلت له أمه عن العرش فأصبح ملكا وتوج باسم (منليك الاول) . ومن هنا بدأت قصة السلالة السليمانية ـ حسب الاسطورة الحبشية . ولذلك فيعتبر الاحباش ملكيتهم من اقدم الملكيات في العالم ان لم تكن اقدمها قاطبة . فاذا ما اعتبرنا ما جاء في هذه الرواية اساسا لبداية السلالة السليمانية فيكون قد مضى عليها حوالي ثلاثة آلاف سنة .

تقول الرواية الحبشية ان الملك سليمان أهدى ضيفته قبل مغادرتها بيت المقدس خاتما نقشت عليه العبارة التالية : « اذا رزقت ولدا فسلميه هذا الخاتم وابعثيه الي » . وتنفيذا لهذه الوصية ورغبة من الملكة في أن ينال ولدها بركة أبيه الحكيم ويتثقف على يده ويتعلم منه ادارة الملك وسياسة الحكم ، أرسلته الى بيت المقدس . وهناك فرح به والده ورعاه رعاية خاصة حتى اطمأن لمقدرته في ادارة الملك . واستعد ابن الحكيم للرجوع الى بلاده . الا انه قبل مغادرته بيت المقدس خامرته فكرة شيطانية وهي ان يسرق تابوت العهد الذي يحتوي على الالواح التي نقشت عليها شريعة موسى من المعبد ويحملها معه الى دياره . وفعلا نفذ الفكرة وحمل الالواح معه . ولكن سرعان ما افتضح الامر بفقدان اللوحات المسروقة ، فجهز الملك جماعة ليلحقوا بابنه ويستعيدوا منه ما سرق . وما أن أوشك الجماعة المطاردون على اللحاق بابن الحكيم وجماعته حتى انشقت الارض امام الهاربين عن نفق عميق نفذوا منه تحت البحر الاحمر آمنين حتى وصلوا اكسوم ، عاصمة ابن الحكيم بسلام .

ولم تتمكن جماعة الملك سليمان من مواصلة مطاردتها للهاربين فنجح منليك في الافلات من أيديهم . غير ان ابن الحكيم وصحبه لم يفلحوا في اخراج تابوت العهد من الممر الارضي الذي سلكوه لانهم بينما كانوا يهمون بالخروج الى وجه الارض واذا بصخرة كبيرة كانت في نهايته قد وقعت في وسطه بعد مغادرة جماعة منليك فبقي التابوت خلفهم فدفن داخل الممر ولم يقووا على اخراجه . ويدعي الاحباش ان التابوت



ما زال مدفونا بالقرب من مدينة اكسوم . ومن جملة ما يروى عن هذه الحملة ان منليك عند عودته الى بلاده كان قد اصطحب معه من بيت المقدس عددا كبيرا من اليهود يمثلون كل قبيلة من قبائل بني اسرائيل ، بلغ مجموعهم حوالي عشرة آلاف الى أثني عشر الفا .

ان اسطورة ملكة سبأ والملك سليمان تمثل جزءا هاما في التراث الحبشي مهما قال وكتب عنها النقاد . ويستطيع الزائر الى اثيوبيا اليوم شراء هذه الاسطورة بشكل صور مطبوعة على الرق او الورق ـ عادة ٢٤ ـ ٩٦ صورة ـ تروي قصة رحلة ملكة سبأ من أولها الى آخرها . حتى ان احدى الصور تظهر الملك سليمان وضيفته الملكة في فراش واحد تثبيتا للقصة وقد ادار كل منهما وجهه عن الآخر . ان الاتجاه العلمي المعاصر لا يقر هذه القصة بل يؤيد وجهة النظر العربية على ان بلقيس كانت ملكة مملكة سبأ في اليمن (٣) . كما يستدل على ذلك من الآثار وما خلفته المدنية السبئية من معالم الحضارة القائمة حتى يومنا هذا .

مملكة اكسوم والمسيحية

تشير النقوش والكتابات الاغريقية في (يحا) الواقعة الى الشمال من بلدة عدوه الى ان هذه المملكة الجبلية كانت لها تجارة مزدهره مع اليونان والمصريين القدماء . واشتهر ميناء ادوليس Adulis الواقع في خليج زولا الى الجنوب من ميناء مصوع الحالي اذ كانت تشحن اليه البضائع اليونانية والرومانية من البحر الابيض المتوسط ، مثل المصنوعات الزجاجية والاواني وغيرها مقابل ما يصدر من الطيوب والعاج وريش النعام والتوابل . ويحتمل ان يكون الذين شيدوا هذا الميناء هم التجار اليونانيون أنفسهم كما يتضح من الآثار والكتل الحجرية المنقوشة المكتشفة مؤخرا .

وقد اماط اكتشاف بعض النقوش اللثام عن حقائق اخرى . اذ دلت على ان ملوك اكسوم اخذوا يتطلعون الى توسيع آفاق ملكهم ليس بالسيطرة على ما جاورهم من البلاد فحسب بل عمدوا الى عبور البحر الاحمر على عهد الملك افيلاس Aphilas واحتلوا بعض الاجزاء من الجنوب العربي ـ موطن أسلافهم ـ وذلك سنة ٣٤٠ ميلادية . واستمر احتلالهم لها حتى سنة ٣٧٤ ، وكان هذا هو الاحتلال الاول للجنوب العربي . وتؤيد الآثار التي دونها الملك ازانه (او اذينه) في القرن الرابع الميلادي استمرار سيطرتهم على بعض اجزاء الجنوب العربي الى جانب

---

3 — Ethiopia, by Richard Greenfield page — 41.



غزوهم لمملكة مروى Meroe النوبية الى الشمال .

الا انه خلال هذه الفترة ، في حوالي السنة ٣٣٠ ميلادية وحسب رواية اخرى ٣٣٥ ، حدث تحـــول كبير في التراث الحبشي وذلك باعتناق الملك ازانه النصرانية . وبهذا التحـــول الخطير برزت عوامل وقوى جديدة أخذت تؤثر على مجرى الاحـــداث بين شطري البحر الاحمر ، وفي مملكة اكسوم نفسها . فبمرور الايام اخـــذت الروابط العنصرية تتـــلاشى بين المستوطنين الساميين الجدد وبين ديارهم الاصلية ، فيما طفقت من الناحية الثانية عـــوامل المقاومة لهذا الدين الجديد تلعب دورها في اثارة حرب شعواء على الملك ازانه . فقد اشعل اليهود السود ضرام الحرب الخفية والفتن ، وكذلك ثارت قبائل الـ (اغاو Agaw) الوثنيون الـــذين لم يرق لهم خروج الملك على تراث الماضي المجيد . وخشية ان تتوسع معارضة السكان وهياج القبـــائل اضطر الملك الى اخفاء ميوله للنصرانية مؤقتـــا ، بل الى التظاهر بنبذهـــا والتنصل عنها حتى هدأت الاحوال ، فتمكن من القضاء على خصومه ، وعندئذ اعلنها الديانة الرسمية للعائلة المالكة .

اما عن كيفية دخول النصرانية الى بلاد الحبشة ومن ادخلها فذهب الرواة مذاهب شتى . الا ان اكثر الروايات شيوعا في المصادر التاريخية هي ان أخوين سوريين كانا مسافرين ضمن جمـــاعة في البحر الاحمر فغرقت سفينتهم . واما الاخوان فنجيا وأخـذا الى الملك في اكسوم . وفي قصـــة اخرى يرويها المؤرخ الرومـــاني روفينوس Rufinus بأن ميروبيوس Meropius وهو فيلسوف من صـور قام بسفرة بحرية في البحر الاحمر للاستجمام مصطحبا معه غلامين من أقربائه . وعندما رست سفينتهم في أحد الموانىء داهمها القراصنة فاغتالوا جميع من في السفينة وقاموا بالنهب والسلب . اما الغلامان فقد نجيا من المـــوت واخذا الى الملك . ولدى وصولهما مثلا امامه فأعجب بهما فعين احدهما وهو ايديسيوس Aedesius خادما له وساقيـــه الخاص . واما الثاني واسمـــه فرومنتيوس Frumentius الذي توسم فيه الذكاء والنباهة فعينه كأحد أمنائه وناظر خزينته . وبمرور الايـــام قوي نفوذ فرومنتيوس وعلا شأنه في البلاط بحيث لما دنا اجل الملك ايلا اميدا Ella Amida ثم وافته المنيـــة نصب فرومنتيوس وصيا على العرش اذ كـــان ازانه - ابن الملك ــ ما زال صبيا غير جدير بتحمل اعبـــاء الملك . ففي هذه الفترة عمل فرومنتيوس بكل دهاء وحكمة لزرع بذور الدين الجديد بين افراد الحاشية الملكية . واخيرا تمكن من الملك ازانه الذي أعلن النصرانية دينـــا له .

وسافر فرومنتيوس الى الاسكندرية ليزف هـــذه البشرى الى بطريارك الاقباط . فما كان من الاخير الا ان عيـن فرومنتيوس مطرانا للكنيسة القبطية الحبشية . فعاد بعدها من الاسكندرية بهذه الصفة الى



مملكة اكسوم ومكث فيها حتى وافاه الاجل . وكانت هـــذه البادرة من جانب بطريارك الاسكندرية ـ اي تعيين مطران للكنيسة الحبشية ـ اول سابقة ارتبطت بموجبها الكنيسة القبطية الحبشية بالكنيسة المرقسيـة بالاسكندرية . ومنذ ذلك التاريخ أصبح بطريارك الاسكندرية هو الـذي يعين مطارنة الكنيسة الحبشية من بين الاقباط المصريين . وكان عـلى هؤلاء ان يتقبلوا التعيين مع علمهم انهم لن يعودوا الى مصر وانهم ذاهبون الى بلد لا يعرفون حتى لغته . ومضت هذه السابقة سارية المفعول عبر هذه العصور الطويلة حتى سنة ١٩٥٨ حينما أدخل تغيير جوهري على مبدأ تعيين المطارنة للكنيسة الحبشية الذي سنتناوله بالبحث في القسم الخاص بالكنيسة الحبشية .

بعد ان اعلن البلاط الحبشي النصرانية دينا رسميا له أخذ الاهالي يسيرون تدريجا عـلى دين ملوكهم . ومـا ان انقضى القرنان الرابـع والخامس حتى ازدادت النصرانية رسوخا في هذه المملكة الجبلية فيما هي خسرت ممتلكاتها في الجنوب العربي وتضاءلت سيطرتها في البحر الاحمر . ومن ناحية اخرى ازدادت روابطهـا مع العالم المسيحي فـي الخارج متانة ووثوقا . فوفد اليها الكثير من رجال الدين من بقية انحاء العالم ، ومنهم من جاءها لاجئـا بسبب خلافات عقائدية بين مختلف الطوائف فاختار هذه القلعة الحصينة ملاذا له او مسرحا لبث أفكاره . وعن طريق هؤلاء المتدينين دخلت البلاد مبادىء الرهبنـة . وسرعان ما انتشرت الاديرة في كل مكان . اما تاريخ احد الاديرة القديمة مثلا ـ وهو دير (دبرا دامو Debra Damo) فيرجع الى القرن الخامس الميلادي . وقد انشىء هذا الدير فوق كتلة صخرية صعبـة المنال . اذ تقـول الاسطورة ان مؤسس هذا الدير ارتقى لموقعه لاول مرة متشبثا ومتعلقا بذنب ثعبان كبير .

حضارة مملكة اكسوم

اذا كان لاثيوبيا ان تفاخر سائر الاقطار الافريقية جنوبي الصحراء الكبرى بماضيها وأصالة حضارتها وتراثها العريق فلها على ذلك ثلاثة شواهـد ومعالم خالدة هي :

أولا ـ حضارة مملكة اكسوم التي تحكي قصتها مسلاتها الضخمة المنقوشة ومعابدها في عاصمتها اكسوم .

ثانيا ـ كنائس لاليبيلا المنحوتة من الكتل الحجرية والتي تعتبر من عجائب الفن المعماري .

ثالثا ـ قصور مدينة غوندار وقلاعها .



هذه هي شواهد تحكي بصدق وأمانة قصة مجد لم تعرف افريقية السوداء مثيلا له .

بلغت مملكة اكسوم ذروة عزها وسلطانها في الفترة الواقعة ما بين القرنين الثاني والسابع الميلادي حيث امتد نفوذها حتى بلاد النوبة من ناحية الشمال والبحر الاحمر من ناحية الشرق وحتى الصومال على المحيط الهندي . وبامتداد نفوذها وهيمنتها على طرق المواصلات نشطت قوافلها واتسعت تجارتها الخارجية ، ومعظمها كان عن طريق ميناء ادوليس على البحر الاحمر وميناء زيلع بعدئذ على خليج عدن . ولم تكن اكسوم مجهولة عند اليونانيين القدماء ، فقد توطدت بين البلدين صلات تجارية وثيقة . كشفت عن هذه الحقيقة الرقم والكتابات الاغريقية التي اماطت اللثام عنها الدراسات الآثارية المتأخرة في موقع هذا الميناء المنقرض - ادوليس .

ولما أخذ نجم هذه المملكة العتيدة بالافول ودب سرطان الانحلال والاضمحلال في جسمها بسبب المنازعات القبلية والحروب أخذت تفقد منافذها البحرية شيئا فشيئا بعد ان تعرضت طرق القوافل للسلب والنهب . فعزلت في قلعتها الجبلية عزلة تامة كما سيجيء البحث عنه، وانقطعت اخبارها عن العالم الخارجي . وفي الحقيقة فما زال الكثير من صفحات تاريخها الاول يكتنفه الغموض وتخيم حوله الشكوك لكثرة فترات العزلة التي كانت البلاد تتعرض لها بين حين وآخر . ومما زاد الامر تعقيدا وارتباكا للباحثين ومتتبعي آثار بعض الفترات التي شكلت فجوات غامضة في تاريخ البلاد ، هو اعتماد مؤرخي الحبشة اعتمادا كليا على ما سمي بـ (سجل مجد الملوك) - وبالانكليزية : Cronicle of the Glory of Kingsالذي دون في عهد متأخر - في القرن الرابع عشر الميلادي . وجاءت أحداثه ومعلوماته متضاربة ومشوشة . وفي كثير من الحالات جاءت فترات حكم بعض الملوك غير مطابقة لتاريخ بعض الاحداث التي نسبت اليهم . ولذلك فكما أسلفنا فالعلم الحديث يعتبر هذا السجل مشوشا ومرتجلا ولا يعتمد عليه كليا .

وبغض النظر عما ورد في هذا السجل من ادعاءات ومبالغات .. قد تكون متعمدة - فان الحضارة التي أقامها الساميون فوق أرض اكسوم لا غبار عليها وان آثارها قائمة الى يومنا هذا . وقد عاشت فترة طويلة قبل التاريخ الميلادي كما تبين من الرقم والنقوش والكتابات بالخط الحميري الذي نقله الساميون الى هذه البلاد . وفي القرن الرابع والخامس بعد الميلاد غزا ملوك الحبشة اليمن وحكموها وسجلوا اخبار انتصاراتهم على المسلات التي اقاموها في اكسوم تخليدا لذلك . والى جانب المسلات فقد وجدت أخبار فتوحاتهم وأمجادهم منقوشة على



جدران القصور التي ما زالت بقاياها في اكسوم وعلى الالواح الحجرية الآثارية وقبور الملوك وأحواض المياه القريبة منها . ويغلب على الظن ان هذه المسلات يرجع تاريخ نحتها الى عهد الملك ازانه (اذينه) الذي ادخل النصرانية الى مملكته كما أسلفنا . كما وقد خلد بعض الملوك فترات حكمهم بسك بعض النقود البرونزية والفضية والذهبية .

ان مسلات اكسوم لا نظير لها في العالم لضخامة حجمها وكونها قطعة واحدة من الغرانيت . وهناك مسلات على أحجام وأبعاد مختلفة طبعا الا ان أضخمها حجما وطولا فهي ثلاث فقط . وأطول هذه المسلات العملاقة موجودة حاليا في موقعها الاصلي بين أطلال اكسوم . الا انها كانت قد هوت على الارض لسبب ما في وقت غير معروف وتناثرت أوصالها . ولكنه يستدل من ربط هذه الاوصال ببعضها ان طولها يناهز ١٠٠ قدم (٣٠ مترا) . والمسلة الثانية فما زالت قائمة في موضعها الاصلي يزورها الهواة ويبلغ ارتفاعها ٦٠ قدما . واما الثالثة فقد نقلها الايطاليون من موقعها ، وهي بحالة سليمة ، الى روما في فترة احتلالهم لاثيوبيا (١٩٣٥ ــ ٤١) ونصبوها في الميدان الواقع امام وزارة المستعمرات آنذاك .

ومن الجدير بالذكر ان الحكومة الايطالية بعد اندحارها في الحرب العالمية الثانية وفقدانها مستعمراتها الثلاث ، ورغبة منها في التعبير عن تعاونها وتأييدها لمبادىء هيئة الامم المتحدة فقد أهدت أبنية وزارة المستعمرات السابقة الى منظمة الاغذية والزراعة لتتخذها مقرا لها . والذين يزورون هذه المنظمة الدولية لا بد ان يشاهدوا المسلة الحبشية التي نقلت على عهد موسوليني . ويعلل بعض المطلعين على تاريخ اثيوبيا القديم اغتصاب الايطاليين لهذه المسلة العملاقة الرائعة النحت ونصبها أمام وزارة المستعمرات القريبة جدا من الطاق المعروف بطاق قسطنطين (الامبراطور قسطنطين) بمثابة أخذ الثأر عن عمل مماثل قديم قام به الاحباش الاكسوميون اذ اغتصبوا (وربما كان ذلك بعهد الامبراطور قسطنطين) بعض السفن الرومانية التي كانت راسية قرب ميناء ادوليس بالبحر الاحمر . ومما هو جدير بالذكر ايضا ان الحكومة الاثيوبية طالبت الحكومة الايطالية مؤخرا بلزوم اعادة المسلة التي نقلوها من موضعها الاصلي بلا مبرر . وهي تمثل معلما من أهم معالم حضارة مملكة اكسوم.

اكسوم ــ العاصمة المقدسة

اذا كانت الاقدار قد حكمت على مجد اكسوم وعظمتها بالزوال ولم يبق من تلك العاصمة العتيدة المزدهرة غير أطلال مندرسة وقرية حقيرة تحمل نفس اسمها فانها مع ذلك ما زالت تحتفظ بمكانة مرموقة في



تراث الامبراطورية . فالاثيوبيون يعتبرونها المدينة المقدسة لانبثاق الديانة المسيحية منها ـ (Holy city) . وفيها كانت تجري احتفالات تنصيب وتتويج الاباطرة ـ في كنيستها المعروفة بكنيسة القديسة مريم التي يرجع عهدها الى القرن الرابع الميلادي . ولذلك فيمكن اعتبارها أقدم كنيسة في البلاد . وبهذه الكنيسة يحتفظ بتيجان بعض الاباطرة المتأخرين وشعار الملك وبعض الصلبان الذهبية القديمةالتي تعرض في المناسبات الدينية والاعياد . وتسمى هذه الكنيسة (بيت مريم) أيضا .

لقد تعرضت كنيسة بيت مريم خلال تاريخها الى العبث والتخريب اكثر من مرة على ايدي الغزاة وأعداء الدين الجديد . ففي المرة الاولى احرقت ودمرت على يد الملكة جوديث Judith وهي من القبائلاليهودية المستوطنة في جبال سيميان الحصينة ، وكان ذلك في القرن العاشر الميلادي . فقد ثارت هذه الملكة على أسيادها الاحباش الاكسوميين فعاثت بالمدينة فسادا وكادت تدمرها تدميرا ماحقا . كما أحرقت في حملتها هذه العديد من الكنائس الاخرى الواقعة على طريق زحفها نحو اكسوم . وما زال اسم هذه الملكة يذكر باللعنة والازدراء في الاوساط الاثيوبية الى يومنا هذا .

وبعد زوال عهد الملكة جوديث أعيد بناء الكنيسة على انقاضالكنيسة المتهدمة ولكن بحجم أصغر بحيث احتوتها أسس الجدران الخارجية للكنيسة الام . ولكن شاءت الاقدار ثانية ان يكون مصير هذه الكنيسة المستحدثة الدمار والخراب ايضا بعد مرور بضعة مئات من السنين خلال الحروب التي دارت بين الاحباش والممالك الاسلامية المجاورة . فقد اكتسحت جيوش الامام أحمد بن ابراهيم الغازي معظم أقاليم الهضبة واخضعتها لسلطانه بحد السيف . وعند احتلالها العاصمة اكسوم اوقعت فيها الدمار والهلاك ولم تسلم الكنيسة من شرور الحرب واصبحت أطلالا بعد فترة ازدهار طويلة . وكان ذلك في القرن السادس عشر عندما أوشكت جيوش الامام احمد القضاء على اثيوبيا برمتها . وبعد اندحار الجيوشالاسلامية أعيد بناء الكنيسةمجددا وفينفس الموقع داخل جدران الكنيسة الثانية . حتى ان الزائر اليوم يضطر لعبور واختراق أسس حجرية لجدارين قبل ان يتمكن من الدخول الىالكنيسة الجديدة . وقد تم بناء الكنيسة الحالية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وما زالت مجموعة التيجان القديمة والصلبان المذهبة يحتفظ بها في خزائن الكنيسة القائمة حاليا .

وعلاوة على التيجان والصلبان والطبول فكنيسة القديسة مريم تحتوي على ألواح مصورة للقديسين وغيرهم . ومن التحف الموجودة



فيها صورة مرسومة باليد تمثل حواء أم البشر وهي عارية تماما انزلت عليها ستارة لتغطيتها . ولكن القسيس الذي يرافق الزائر يرفع الستارة لحظة ليمكنه من رؤية حواء ويشير اليها بقوله : ـ « هذه هي أمنا حواء وقد خلع ثوبها عنها بعد ان اكلت الثمرة الخبيثة ـ أي التفاحة » . وعلى جدران الكنيسة عدة رسوم اخرى تعكس بعض حروب الاحباش الدينية والاحداث التاريخية الاخرى . ويرى الزائر في مدخل الكنيسة الخارجي مدفعين قديمين قال عنهما القسيس القيم « انهما غنما من الاتراك العثمانيين الذين حاولوا غزو هذه البلاد من قاعدتهم العسكرية في ميناء مصوع الذي دام احتلالهم له زهاء ٣٠٠ عام » .

الا ان اكسوم تفخر اليوم بكتدرائيتها الجديدة التي بنيت مؤخرا ـ ولا تبعد كثيرا عن كنيسة القديسة مريم . وتتسع الكتدرائية لجلوس ٢٠٠٠ شخص . وقد جاءت على شكل دائري ، تعلوها قبة مطلية بالذهب تسترعي الانتباه من مسافات بعيدة . وقد صمم بناؤها بشكل جمع بين العبقرية المعمارية والبساطة . وقد انتخب لافتتاحها موعد مناسب وذلك خلال زيارة الملكة اليزابيث الثانية ملكة بريطانيا لاثيوبيا . فافتتحها الامبراطور هايلا سلاسي بحضورها باحتفال مهيب . وبذا تكون الملكة اليزابيث أول سيدة تدخل الكنيسة لان النساء غير مسموح لهن بذلك. ولكنه منذ ذلك التاريخ رفع المنع ، على النقيض من التقاليد المرعية في كنيسة القديسة مريم ، وذلك بفتح باب جانبية في الكنيسة لدخول النساء .

وعلى عكس ما هو شائع عن اندراس اكسوم فيبدو انه ما زال هناك الكثير من معالم حضارتها القديمة . ويستدل من تصريحات بعض خبراء الآثار الفرنسيين الذين كانوا ينقبون هناك ايام زيارتي لها في اواسط الستينات انه قد يكشف النقاب عن حقائق مذهلة قريبا فيما يختص بأصالة حضارة هذه المملكة وقدمها . اما الموقع الاصلي لمدينة اكسوم فيرتفع حوالي ٦٠٠٠ قدم عن سطح البحر وتقوم أطلال القصور والابنية الاخرى والمسلات على سفح جبل يمكن منه رؤية الهضبة التي تقع عليها مدينة اسمرة في اريتريا . كذلك يمكن من الموقع نفسه مشاهدة جبال عدوه التي اقترن اسمها بأهم معركة انتصر فيها الاحباش على الجيش الايطالي في أواخر القرن التاسع عشر .

ان مخطط مدينة اكسوم كان على ما يبدو قد روعي فيه اظهار المدينة بجمال هندسي رائع . فالى جانب القصور الضخمة والمعابد تظهر آثار متنزهات وقد توسطتها بركة ماء كبيرة ممتدة امام القصور يسمونها محليا « حوض ملكة سبأ » . الا ان المعالم حول البركة تدل على انها

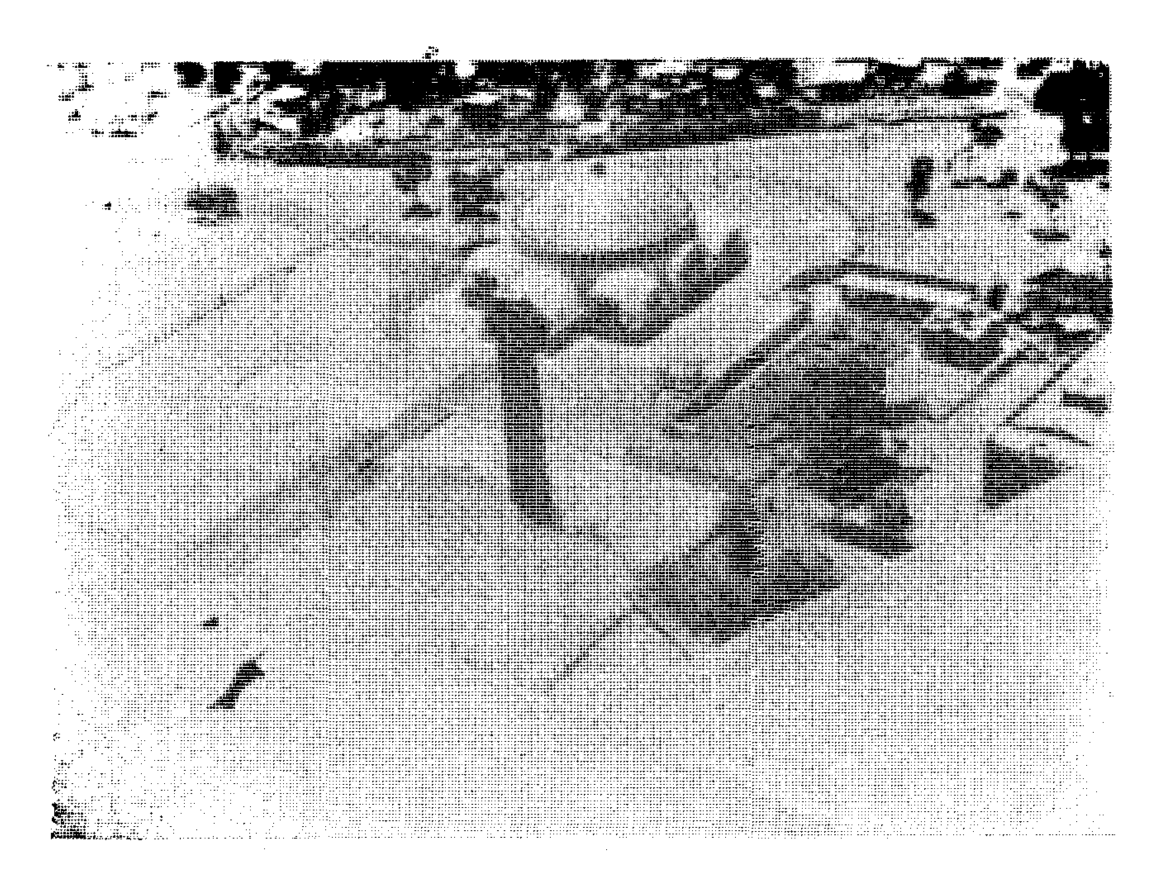


كانت جزءا من شبكة لتوزيع مياه الري للمزارع والبساتين المحيطة بالمدينة . وفي الجهة السفلى منها توجد (الجهة الغربية) بقايا اطلال برزت اسسها على وجه الارض وقد تناثرت بينها المسلات بمختلف احجامها وقد سقط معظمها على الارض بسبب الاهمال او مرور الزمان. في هذا المكان كانت البعثة الاثرية الفرنسية تجري تحرياتها في هذه البقعة وغيرها . وفي القسم الغربي ايضا يشاهد عدد من القبور الآثارية التي لم يكشف النقاب عنها بعد . ولكن هناك رواية غير مؤيدة على لسان الاهالي بأن قبر « ابن الحكيم » ــ الملك منليك الاول ــ وهو الابن غير الشرعي للملكة ماكيدا (ملكة سبأ ؟) وسليمان الحكيم ــ يقع بين تلك القبور . وفي رواية أسطورية اخرى تتردد على لسان سكان اكسوم ان قبر منليك الاول هو في قمة جبل كيليمنجارو ــ أعلى جبل في افريقية، مدفون تحت الثلوج الدائمة .

وفيما عدا الاطلال وآثار الكنائس المتهدمة والكتدرائية الجديدة الرائعة البنيان فأكسوم عبارة عن قرية حقيرة يعم اهلها البؤس والشقاء. والمتسولون يلاحقون الاجنبي في كل مكان وكأنهم ظله . واذا ما دخل مقهى لتناول المرطبات فيتزاحمون امام باب المقهى بانتظار خروجه لملاحقته مجددا. واذا ما أضيف الى هذه الحالة المزعجة حالة اخرى وهي كثرة الذباب والمصابين بشتى الامراض الجلدية ــ التي قد يكون منشأ بعضها الفقر ــ فلا يبقى أمام السائح سبيل للخلاص من هذه المناظر الانسانية المؤلمة سوى ان يسرع عائدا الى الفندق التماسا للراحة ولانتظار موعد قدوم طائرته . وفي البلدة فندق صغير لا بأس بمستواه في مثل هذه البقعة المنعزلة عن العالم ، تديره أسرة ايطالية وفيه حديقة صغيرة منسقة حسب الذوق الايطالي المعروف . هذا هو فندق تورنك .

ان ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي يعتبر من أقوى العوامل التي عجلت في انهيار مملكة اكسوم وتقلص ظلها ، ولو ان العلاقات بين المسلمين والاحباش استمرت على أحسن ما يرام في صدر الاسلام حين لجأ عدد من المسلمين الى الحبشة تخلصا من ظلم قريش لهم . لكنه بمرور الايام شملت سيطرة المسلمين كافة سواحل البحر الاحمر ونشبت الحروب بين الممالك الاسلامية والحبشة على مدى سنين طويلة. وتوسعت الفتوحات الاسلامية في شمال افريقية ، الامر الذي أدى الى اضمحلال نفوذ مملكة اكسوم وكساد تجارتها الخارجية . كما وأدى الى الحد من اتساع علاقات الحبشة الدينية والثقافية مع العالم المسيحي بسبب عزلتها التي فرضت عليها تدريجا . وكانت الحبشة منذ اعتناقها النصرانية تلقى الرعاية والعون من أوروبا المسيحية . فيقال مثلا ان



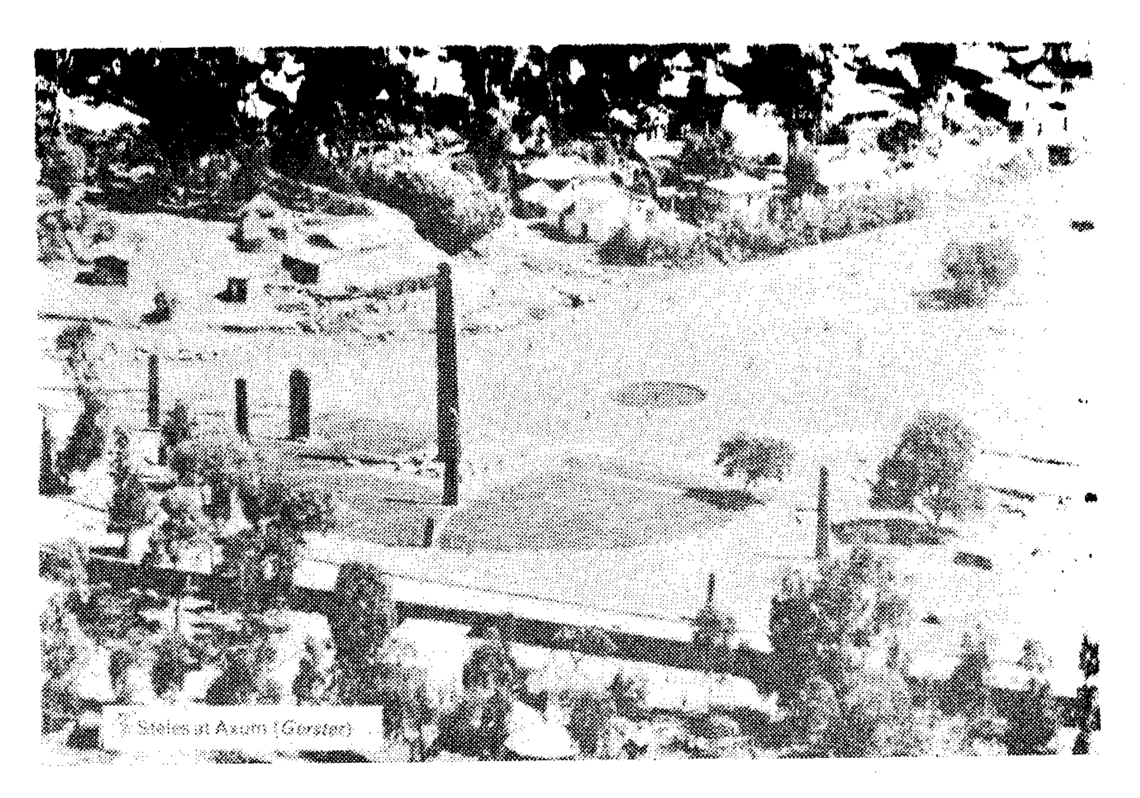


الكتدرائية الكبيره الجديده في اكسوم ذات القبة المذهبة

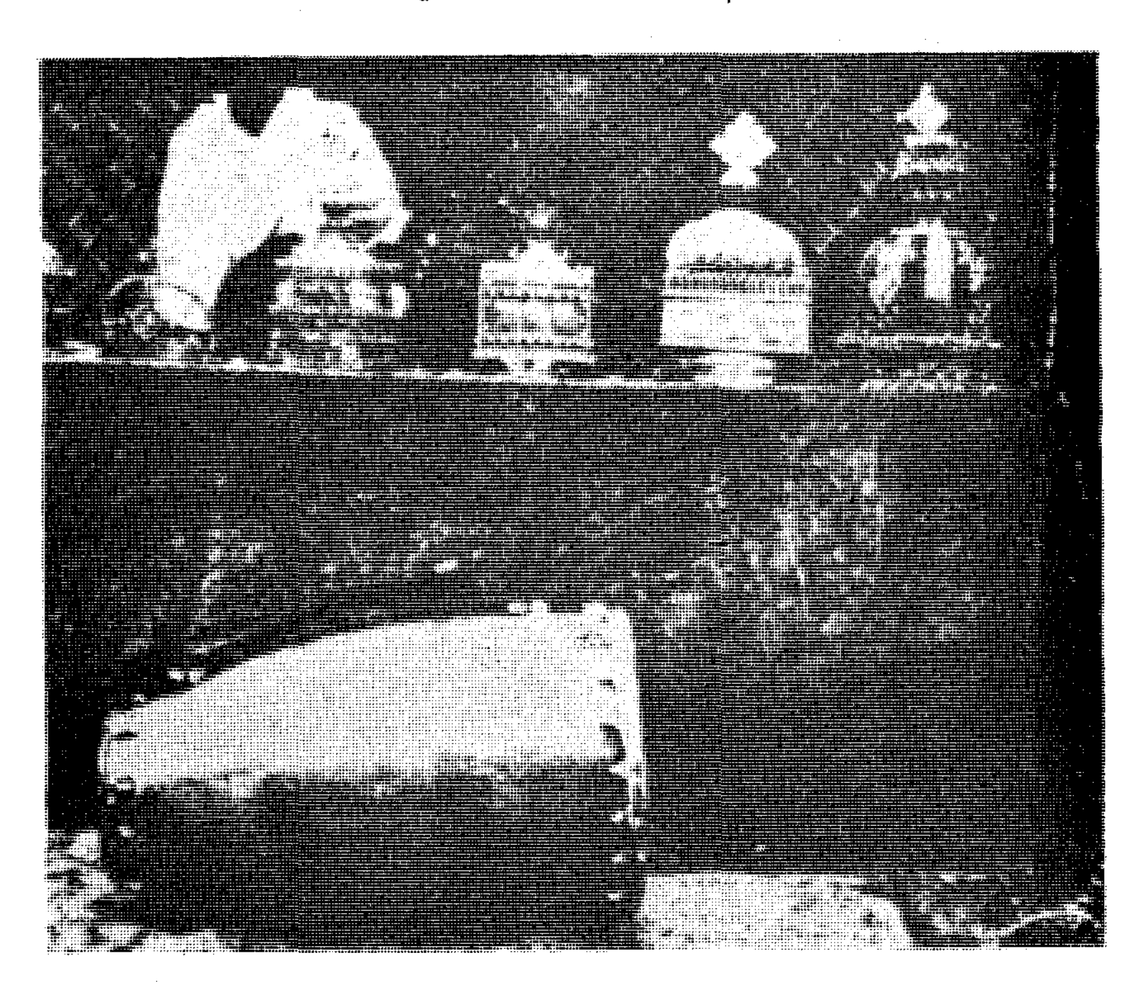


اطفال في هضبة اكسوم





جانب من بلدة اكسوم التاريخية وقد بدت في الصورة بعض مسلاتها



تيجان بعض ابـــاطرة الاحباش في الخزائن الخاصة بالكنيسة القديمة المسماة « بيت مريم » وظهر على الارض احد الطبول التي تستعمل في المناسبات الدينية



الامبراطور قسطنطين الروماني أعلن في سنة ٣٣٧ ميلادية (أي قبل وفاته بسنة) « ان رعايا مملكة اكسوم يستحقون منا رعاية مساوية للرعاية التي يلقاها الرومانيون أنفسهم » .

والحقيقة هي انه لولا الاسناد المادي والمعنوي اللذان تمتعت بهما الحبشة من الدول الاوروبية منذ اعتناقها النصرانية لما بقيت الى اليوم على نصرانيتها هذه ـ « جزيرة مسيحية وسط بحر من الاسلام » ـ ولكان مصيرها مصير المسلمين في الاندلس بعد سقوط الدولة الاموية هناك .

كنائس لاليبيلا

اذا كانت اهرام مصر وجنائن بابل المعلقة وغيرها قد عدت من عجائب الدنيا السبع ، فان في كنائس لاليبيلا من الفن وروعة المنظر وجسامة العمل المعماري ما يجعل تصنيفها ضمن هذه العجائب ممكنا بلا مغالاة . فان من جملة ما يجعل الاشياء عجيبة أو فريدة في ذاتها هو عدم وجود شبيه او نظير لها . فكنائس لاليبيلا لا نظير لها ليس من ناحية الفن المعماري والابداع الذي ظهر فيها فحسب بل في الفكرة التي أوجدتها والعزم والتصميم على الرغم من بدائية طبيعة الاحوال آنذاك في الحبشة. وأنا لا أعرف في أي بلد آخر في العالم مجموعة من الكنائس ـ احدى عشرة كنيسة نحتت كل منها على انفراد من صخرة واحدة، ودون استعمال آلة متطورة غير المعول والازميل . فنحتت الكنائس نحتا ونقرت الصخور نقرا بما في ذلك الجدران والسقوف والمنافذ والاروقة والممرات والمذابح والاعمدة بل وحتى الجدار الخارجي .

تقع كنائس لاليبيلا او (روحا) ـ وهو الاسم المحلي للموقع الاصلي ـ في جبال لاستا في قلب الوطن الامهاري الى الشرق من بحيرة تانا . وقد اختير موقع الكنائس وتم تصميم وانشاء أول كنيسة في هذه المجموعة في عهد الملك لاليبيلا الذي تأخذ الكنائس اسمها منه . وهو احد ملوك اسرة زاغوي Zagwe من قبيلة أغاو Agaw التي اغتصبت الملك من الاسرة السليمانية لفترة طويلة ـ خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . وتقديرا لهذا المجهود الديني العظيم فقد رفع الى مراتب القديسين . وقيل في حينه ان الملك استقدم لتنفيذ هذا العمل الشاق أمهر المعماريين والمختصين بالنحت والنقر على الاحجار من بيت المقدس ومصر نظرا لتخلف الاحباش في هذا المضمار . قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن سواعد الاحباش وعزائمهم وايمانهم الديني كانت عوامل مهمة في تحقيق هذه الامنية التي يشير اليها الاحباش بفخر واعتزاز . ويكاد المرء لا يصدق عينيه وهو يتأمل في اتقان النحت



وتجزئة الصخرة الواحدة الى جـــدران ومسالك وحجر وطوق بتلك الوسائل البدائية وانجاز كل ذلك باتقان ما بعده اتقان .

أما سبب اختيار هذا الموقع النائي وسط منطقة جبلية من أوعر المناطق لتشييد هذه الكنائس الجميلة فيها فيقال ان الملك لا ليبيلا رأى في منامه انه مكلف باقامة هذه الكنائس بالاسلوب والاشكال التي فرضت عليه وكما نراها الآن وفي هذا المـوقع بالذات . فلما صحـا من نومه استدعى مستشاريه وقص عليهم الحلم فأشاروا عليـه بتنفيذه حالا . فبوشر بالترتيبات المقتضية للنهوض بهذه المهمة وأحضرت المعدات اللازمة والصناع والعمال من القرى المجاورة . ولم تكن هذه الاستعدادات بالامر الصعب لان الايدي العاملة كلها كانت تجمع عن طريق السخرة . واعمال ضخمة كهذه كانت تفرض على العبيد وأسرى الحروب علاوة على العمال المحليين . هكذا شيـــدت اهرامات مصر وغيرها في تلك العصور . وتصاحب قصة تشييد هذه الكنائس اسطورة طريفة يتناقلها الخلف عن السلف في هذه الديار . وهي انه بالنظر لقدسية هذا المجهود فـان الملائكة قد ساهمت فيه وقامت بقسط وافر من الاعمال اليدوية ــ دون ان يراها أحد طبعا . وتستطرد الاسطورة في وصف ما تقوم به الملائكة ليلا ، فتقول انه عندما يرخي الليل سدوله وينصرف العمال الى منازلهم تواصل الملائكة عملها الذي أنجزته خـلال النهار ، بحيث عندما يجيء العمال في صبيحة اليوم التالي لمزاولة أعمالهم يشاهدون تقدما في البناء يوازي ثلاثة اضعاف ما أنجز في اليوم السابق .

بلغ عدد الكنـــائس ، كما أشرنا في مستهل هـــذا البحث ، احدى عشرة كنيسة تختلف الواحدة عن الاخرى في الحجم وطــراز النحت وألوان الصخور التي نحتت فيها . وجـاءت على مجموعتين : ضمت المجموعة الاولى ست كنائس والمجموعة الثانية اربعا ، بينما اقيمت كنيسة واحدة بمعزل عن الباقيات وهي كنيسة القديس جورج . ولكن بما ان اثنتين من الكنائس نحتتا من صخرة واحدة فيميل البعض الى اعتبار هاتين الكنيستين كنيسة واحدة بسبب اتصالهما فيعتبرون عدد الكنائس عشرة فقط . ولا بد من الاشارة الى ان اكبر الكنائس حجمـا واجملها هندسة هي الكنيسة المسمـاة باللغة الامهارية « مدينة عالم » اي منقذة العالم وباللغة الانكليزية يترجمونها Redeemer of the World يبلغ طول هذه الكنيسة ٣٣ مترا وعرضها ٢٣ بينما يبلغ سمك جدرانها في بعض الزوايا مترا واحدا و ٨٦ سنتمترا . وهي الى جانب هـــذه الضخامة محاطة بفناء فسيح نحت من الصخور أيضا .

اما التفريغ الزخرفي المشبك الدقيق الصنع ، فانه يشبه الى حد بعيد ما يشاهد فوق نوافذ بعض الكنائس المبنية على الطـراز القوطي



Gothic في أوروبا . وقد وصف الاب الفاريز Alvarez هذا الصنع الرائع كما يلي : « انه بلغ من الدقة والابداع المعماري بحيث أصبح يضاهي الاعمال الزخرفية الفضية المصنوعة على أيدي صاغة الفضة » . ومما يلفت النظر هو ان الابداع بلغ ذروته في الزخارف الداخلية المعقدة .

وأما المجموعة الثانية من الكنائس ـ الكنائس الاربع ـ فهي أجمل المجموعتين بنظر أغلب النقاد والمعجبين بفن النحت وخاصة من ناحية دقة النحت ودرجة الكمال التي أظهرها التزويق واللمسات النهائية للنقوش ، وفوق كل ذلك البراعة الفائقة في فصل كل كنيسة عن بقية جسم الصخرة التي كانت جزءا منها قبل عملية النحت ، بحيث لم يبق أي اتصال ظاهر بينهما سوى القاعدة الارضية التي اصبحت محاطة بخندق نشأ نتيجة الحفريات . وقد أقيمت الجسور والانفاق والمسالك للوصول الى الكنائس .

وحقا ليحار المرء وهو يتأمل ويطيل التأمل في بهاء وروعة هذه الكنائس المجهولة حتى لدى معظم المسيحيين . اذ لا فخر ان تشيد كتدرائية تحاكي ناطحات السحاب بعلوها الفارغ وعظمة أبراجها وقبابها في المجتمعات الصناعية الراقية حيث المال والعلم وأحدث الوسائل . ويغادر المرء موقع هذه الكنائس ليلحق بالطائرة وهو يكاد لا يصدق كيف ان هذه العمارة البديعة الصنع نشأت واستخلصت من الصخور الصماء الميتة التي تحيط بها . وسواء أقام بهذا العمل المبدع اثيوبيون او صناع ونحات من بيت المقدس او مصر فانه يدل على عبقرية في فن البناء النحتي . فكل خطوة كانت تتطلب تخطيطا وتصميما مسبقا . لان أي خطأ يحدث في الحفر أو النحت في جهة ما يؤثر على ما سواه في الجهات الاخرى .

المحنا بشكل عابر في احدى الفقرات السابقة الى ان كنيسة القديس جورج انشئت منفصلة عن سواها . وهذا الانفصال أضفى عليها رونقا خاصا مميزا لا ينساه الزائر اليها مدى الحياة . وهذا الامتياز ناشىء عن كونها الكنيسة الوحيدة التي نحتت على هيئة صليب مربع خارجا وداخلا . وهي الوحيدة القائمة وسط هوة فسيحة عميقة تحت مستوى الارض المحيطة بها بحيث ان القادم لزيارتها لا يستطيع رؤيتها من بعيد . واذا ما اقترب منها لا يرى سوى سقفها على شكل صليب . ثم ينحدر اليها عن طريق المسالك الحجرية الوعرة للدخول اليها . ان هذه الكنيسة بحد ذاتها تمثل أعجوبة من عجائب الدنيا وآية من آيات الفن النحتي .

كان السفر الى كنائس لاليبيلا فيما مضى ، بل لوقت قريب جدا،



من أصعب الامور تكتنفه المشقات والمتـــاعب . وكان الوصول اليها يستوجب ركوب البغال لمدة ٣ ــ ٤ ايام عبر مســـالك ودروب شاقة متعبة . هذا بالاضافة الى ما يتعرض اليه المسافر من مخاطر وحوادث السلب والنهب . أما الآن فبفضل توسع الخدمات السياحية فيالخطوط الجوية الاثيوبية فقد تذللت تلك الصعاب والمخاوف . وأصبحت الرحلة الى لاليبيلا بالطائرة نزهة ومتعة اذ يطير المرء فوق هضبة الحبشة كلها. وقد اقتصرت فترة ركوب البغال من ثلاثة أيام ــ وأحيانا اكثر ــ الـى حوالي ٣ ــ ٤ ساعات نظرا لانشاء مدرج للطائرات على مسافة اقرب الى موقع الكنائس عن ذي قبل . وفي سنة ١٩٦٩ كانت الخطوط الجويـة الاثيوبية تنظم سفرتين اسبوعيا الى لاليبلا ضمن منهاج اسفارها مـن اديس ابابا الى اسمرة .

والسفر بالطائرة بين غوندار ولاليبيلا يتيح للزائر تقـدير وعورة جبال لاستا الصعبة المسالك ، الموحشة الجرداء ، تتخللها التشققات الصخرية والاودية السحيقة ذات السفوح الجرداء المتعرية كأنها الجدران القائمة . من هنا يستطيع المرء ان يقدر مناعة طبيعة الهضبة وكيف ان الاحباش استطاعوا صيانة استقلالهم عبـر الدهـور . وبين حين وآخـر تبدو للعيان الكتل المخروطية الغريبة الشكل التي أكسبت هذه المنطقة المنيعة طابعها الخاص الذي يفسر آثار التعرية في التربة بأبسط وأوضح اسلوب . وتبدو الصخور على بعض السفوح متآكلة وكأنها مدرجات من صنع انسان . لقد استغل الحكام والملوك الاحباش قسوة الطبيعة ابشع استغلال فحولوا هذه التلول المخروطية الشكل الى معاقل وسجــون لصعوبة منالها فيزجون فيها خصومهم ومنافسيهم من الامراء مدىالحياة احيانا ــ وبالنسبة لبعض امراء العائلة المالكة فمنذ نعـومة اظفارهم .

وبين الحين والآخر يشاهد المرء من الطائرة بعض القرى وكأنهـا اكوام من احجار جمعت وألصقت في ثنايا السفوح العارية الجرداء بشكل متناثر لا تبدو عليها معالم الحياة ولا نور فيها يضيؤها في اللياليالمعتمة. وكل ما حولها يوحي بأنها ما زالت تعيش في اطـوار العصر الحجري . وفي كل مساء يتجمع بعض الرجال مصطحبين معهم اطفالهم من القرى القريبة من الكنائس يضرب بعضهم على آلاتهم الموسيقية التقليدية ذات الوتر الواحد (وهي شبيهة بالربابة عند العرب) الممل فيما ينشد آخرون بعض الاغاني ويرددون بعض الاهازيج الشعبية ابتغاء الحصول على شيء من النقود من السياح نزلاء الفندق الذي بني خصيصا لتنشيط الحركة السيـاحية .

يتأمل المرء في وجوه هؤلاء القوم وهيئاتهم والبستهم الرثة وكأنهم يحكون قصة تاريخ طويل . ولا يخـامره اي شك في انهم احفاد احفاد



اولئك الذين قامت هذه الكنائس بقوة سواعدهم وبوحي من ايمانهم القوي بدينهم . ويخيل اليه كيف ان أجداد هؤلاء كانوا يجتمعون حلقات حلقات بعد عناء يوم كامل في مقارعة الصخور الصماء ويتسامرون حول هذه الآثار قبل الف عام . وفي وقت زيارتي لهذه البقعة قبيل نهايةالستينات لم المس في المحيط ما يشير أو يوحي بأن القرن العشرين قد أطل على هذا الجزء من مرتفعات الحبشة فيما خلا الفندق السياحي ووسائل الراحة الحديثة فيه .

مجد غوندار —

غوندار هي الكنز الثالث من كنوز التراث الحبشي القديم . تلألا نجمها كعاصمة للامبراطورية وكمركز اشعاع للعلوم الدينية والفن والادب قرابة قرنين من الزمن ، لا يضاهيها في هذه المرتبة المرموقة سوى اقليم تيغره الذي انبثقت منه الحضارة السامية — حضارة اكسوم . فبين غوندار واقليم تيغره منافسات وخصومات تقليدية حول مركز الصدارة في ميدان التقدم الحضاري وزعامة البلاد سياسيا وعسكريا ودينيا . الا ان أسطورة غوندار وهيمنتها السياسية والعسكرية خلال فترة ازدهارها كعاصمة للامبراطورية لم تكن لتشمل رقعة الهضبة بأكملها بالمقارنة مع سلطان اكسوم الذي امتد الى البحر شرقا والى بلاد النوبة وأعالي مصر غربا وشمالا . فقد كانت تتخلل فترة مجدها فجوات زمنية لم يكن لملوك غوندار سيطرة تذكر خارج العاصمة نفسها خاصة بالنسبة للرؤوس (الامراء) في الاقاليم النائية .

فكلما ضعفت العاصمة وحكومتها في فترة من الفترات ازداد نفوذ حكام الاقاليم واتسعت الفجوة التي تربط بين الحكومة المركزية والولايات — وبكلمة اخرى ضعفت روابط الوحدة الوطنية ونشط الاتجاه نحو الاستقلال عن الحكومة المركزية ، حتى يتهيأ للبلاد ملك قوي جديد جبار فيعد الجيوش لغزو الاقاليم المتمردة لاعادة وحدة البلاد . ومما لا شك فيه انه لولا ارتباط الاقاليم بكنيسة واحدة لاصبحت وحدة البلاد بخير كان منذ زمن بعيد ، خاصة وان البلاد كانت هدفا للغزوات والحروب من كل جانب بعد ظهور الاسلام . فالكنيسة الحبشية لها الفضل الاول في جمع كلمة البلاد تحت راية واحدة ، هي راية الدين قبل راية الدولة . ومن هنا نشأ نفوذ الكنيسة ورجال الدين حتى طغى على نفوذ الحكومة في الواقع .

وبالمقارنة مع العواصم الحبشية الاخرى فان التاريخ لا يعرف عاصمة أغدق عليها المال والمجهود الانساني بسخاء لتحصينها وتجميلها بقدر ما اغدق على غوندار ، حتى انها أصبحت مدينة الجمال والانس



والليالي الحمراء وتجلت هذه الظواهر فيها بأجلى معنى واوسع مدى . هذا الى جانب شهرتها كمدينة ازدهر فيها تدريس العلوم الدينية والادب . وكان يفد اليها المئات من طلبة العلم من مختلف اقاليم الامهارا للدراسة في كنائسها . وعلى مر الايام اكتسبت طابع المدينة الصاخبة نسبيا وجمعت ضمن أسوارها شتى طبقات المجتمع الامهاري الذي بدأت تبرز فيه بوادر الحياة الطبقية والارستقراطية بشكل لم يظهر حتى في اديس ابابا فيما بعد .

يتملك الزائر الغريب من أول وهلة بعد نزوله من الطائرة الشعور بأنه في بلدة لا شبيه لها في بقية انحاء الحبشة . وتحكي قصة هذا الاختلاف بينها وبين المدن الاخرى معالمها الظاهرة في محيط المدينة أينما اجال الانسان طرفه . يحار الزائر عندما يلقي نظرة فاحصة على قصورها ذات الابراج العالية كأنها قصور الامراء الاوروبيين في القرون الوسطى ، واسوارها المرتفعة الحصينة وجسورها وكنائسها ذات الزخارف الاصيلة والرسوم التصويرية ، وهو يقول في نفسه : أصحيح ان هذا هو جزء من تراث الحبشة المتخلفة ؟ ثم ينظر الى بقية أرجاء المدينة وأبنيتها وأسواقها فيزداد يقينا انه امام مدينة لها أصالتها الحضارية في الفن المعماري والخط والرسم التصويري بالاضافة الى الدين والادب . وان دل هذا على شيء فانه يدل على اهتمام ملوك هذا الاقليم ورجال الدين فيه وتشجيعهم العاملين في هذه الميادين والفنون الانسانية ، هذا التشجيع الذي بلغ ذروته في القرن السادس عشر عندما لمع اسم غوندار في كل مكان عندما ارتقى الفن فيها الى ارفع مستوياته .

ولا يفوتنا ان نذكر بأن الجزويت الذين عذبهم وطردهم الملك فاسيليداس من البلاد فيما بعد ، كانت لهم اليد الطولى في ارساء دعائم الفن التصويري الذي تجلى في الرسم على الجدران والسقوف في القصور الملكية والكنائس . ولا ينكر ان رائد هذه النهضة الفنية كان الاب (بايز Paez) أحد الجزويت الاسبانيين .

تقع هذه المدينة الجميلة الخالدة على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر في قلب موطن الشعب الامهاري بالهضبة الوسطى . وهي لذلك تتمتع بمناخ لطيف معتدل على مدار السنة . وتطل على الارض المحيطة بها من على قمة صخرة بركانية مسطحة . وتحيط بالمدينة من ثلاث جهات ثلاث سلاسل شامخة من الجبال تطوقها تطويقا كاملا ما عدا الجهة الجنوبية المكشوفة التي تطل على أراض منبسطة وحقول زراعية في غاية الخصب تنتهي ببحيرة تانا . ويبعد الطرف الشمالي لهذه البحيرة حوالي ٦٠ كيلومترا عن غوندار . وفي هذه السهول الغنية الخضراء تنبت الحبوب ومختلف المحاصيل الحقلية



ومحاصيل الزيوت والفواكه ، كما تفيض خيراتها من المنتجات الحيوانية والعسل وغيرها ، ومن كرومها اجود اصناف النبيد .

ومما يزيد في جمال المدينة ان الطبيعة انعمت عليها بنهرين يخترقانها هما نهر انغراب Angarab ونهر كيها Qiha مما ساعد على ازدهار مساحات شاسعة من البساتين حول المدينة . وفي الطرف الجنوبي منها يتحد النهران في مجرى واحد يصب في البحيرة .

قصور غوندار واحياؤها

أسست غوندار على عهد الملك فاسيليداس سنة ١٦٣٥ وهو الذي اشرف على وضع تصاميمها وتخطيطها وهو صاحب فكرة تقسيمها الى اجزاء وأحياء حسب طبقات المجتمع وأصنافه ومهنه . فاختط للقصور الملكية والبلاط ناحية احاطها بأسوار عالية من الحجر ، تتخللها ١٢ بوابة اقيمت على جوانبها الحجر والمخادع للحراس . وصممت هذه البوابات على اساس أن كل واحدة منها تؤدي الى قصر معين من القصور او مركز حكومي . فيدخل الناس الى هذه القصور او مراكز الحكومة من البوابة التي توصلهم الى حيث يشاؤون .

واستمرت العمارة في هذه المدينة الجميلة حتى اصبح فيها على مدى مائة عام بعد تأسيسها عدد كبير من القصور ، شيد أغلبها على هيئة قلاع محصنة بناها الملوك والامراء بالتعاقب . أما قصر الملك فاسيليداس فما زال يعتبر أضخمها وأجملها منظرا وأبدعها طرازا . ومع انه أقدم القصور في المدينة فانه يبدو وكأنه أحدثها نظرا لاهتمام الحكومة بصيانته والعناية به بصورة مستمرة لغرض السياحة . وكان يقابل الازدياد المضطرد في عدد القصور في المدينة ازدياد مماثل في عدد الكنائس أيضا . فارتفع عددها من ٧ في ادىء الامر الى ٢١ كنيسة . وقد أضيف الى العمارة التي أخذت بالاتساع بهو للاستقبال شيده الملك داود الثالث وخصصه للاحتفالات الكبرى والرقص والحفلات الغنائية. ومن أجل ذلك كني فيما بعد ب (داود المغني) .

وعلى مقربة من القصور الملكية أفردت ناحية خاصة لتشييد قصور النبلاء ومنازلهم وحولها المساحات الفسيحة من الجنائن على طراز ما يعرف حاليا ب (الفيللات) . اما عامة الناس فخصص لهم حي اكتظت فيه بيوتهم كأي حي عمالي في الوقت الحاضر . وفي زاوية اخرى من المدينة أنشىء الحي الخاص برجال الدين وبعده مباشرة اقيم حي خصيصا لاقامة مطران الكنيسة الحبشية (ابونا) هو وحاشيته . بينما انفرد بطرف آخر من هذا الحي « راهب الامهارا » وهو بمثابة الموظف المسؤول عن الشؤون الادارية في الكنيسة . بالاضافة الى ذلك



فقد الحق بكل كنيسة من الكنائس مجمع مكون من عـــدد من المنازل والاكواخ الخاصة بقساوستها وخدمها ، يشغلونها بحسب مراتبهم .

ومن طريف ما يذكر بهذا الصدد هو ان الحي الذي يقطنه راهب الامهارا ومجمعات الكنائس اعتبرت ــ من الناحية النظرية على الاقل ــ اماكن مقدسة غير معرضة لعبث السراق كما ويرعى الغزاة مكانتها وقت الحروب فلا يدخلونها أو يمسونها بسوء . ولهـــذا السبب كان النبلاء والاغنياء يختزنون فيها ثرواتهم ويحفظـــون في خزائنها مجوهراتهم ونفائسهم الثمينة . أما المسلمون فقد خصص لهم حي يقع في أسفـــل المدينة بالقرب من نهر كيها . وكان الغونداريون ينظرون اليهم نظـــرة ازدراء ويعتبرونه مأقل شأنا من الامهارا . اما اليهود السود فلم يكونوا باوفر حظا من المسلمين في هذه المدينة المتعصبة . وقد احتكر اليهـود هنا مهنة الحدادة والصناعات المعدنيـة ، فيما انصرف المسلمون لمزاولة الاعمال التجارية لانهم منعوا من امتلاك الاراضي الزراعية .

المسلمون في غوندار

كتب الرحالة الاسكتلندي المعروف ــ جيمس بروس ــ (٤) أثنـاء زيارته لهذه المدينة سنة ١٧٦٨ ان حي المسلمـــين كان تعداده حوالي ٣٠٠٠ نسمة . وان المدينة كما شاهدها كانت مقسمة الى احياء متعددة. فلم يسكن الاهالي المسيحيون بجـــوار المسلمين . اما الدكتور بونسيه Poncet الذي زار الحبشة قبل بروس ــ في الفترة ١٦٩٨ ــ ١٦٧٠ موفـــدا من الملك لويس الرابع عشر ملك فرنســـا ، فكتب ما يلي في مذكراته : « ان الملك فاسيليداس بعـــد ان طرد الجزويت من بلاده امر المسلمين ان يسكنوا في حي خاص بهم . ويطلق المسيحيون عليهم لقب (جبرتي Geberti) أي العبيد » او الغرباء .

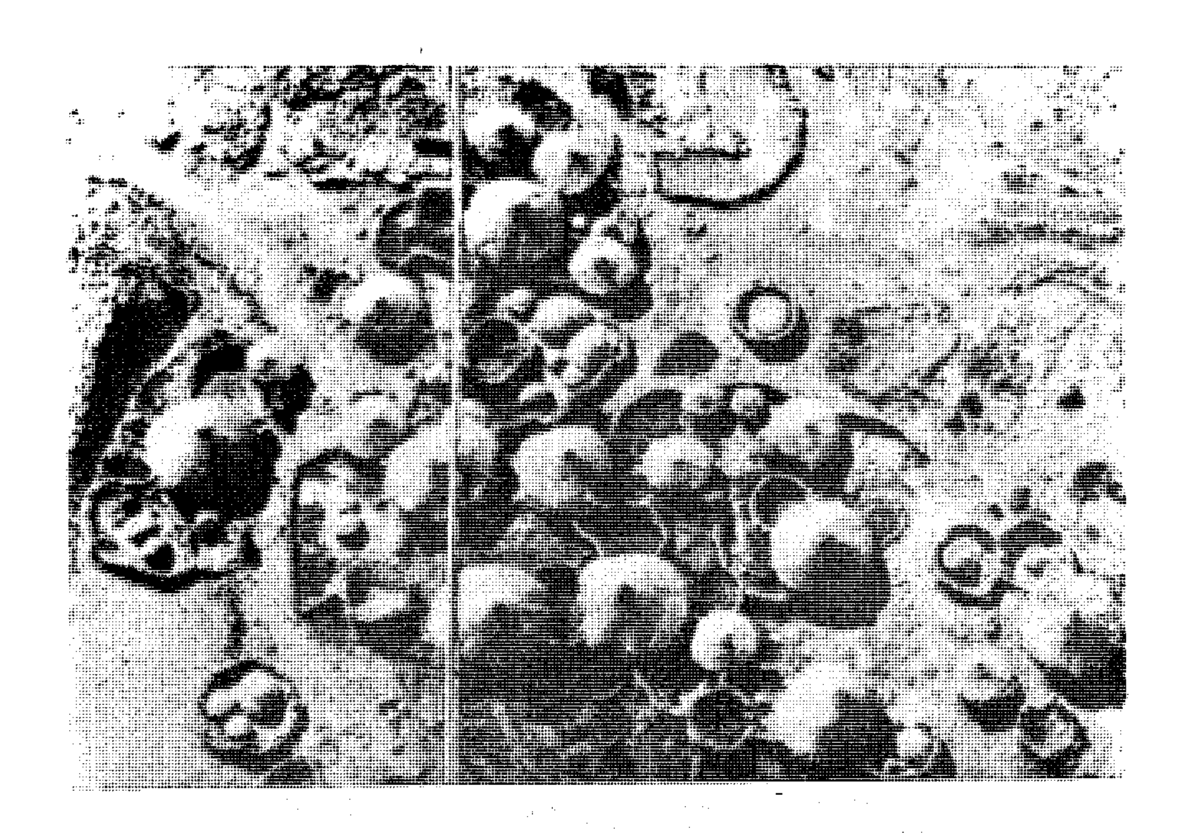
« والمسيحيون لا يأكلون اللحم المذبوح على الطريقـة الاسلامية ولا يشربون الماء من نفس الاناء الذي شرب منه المسلم الا اذا طهره القس . واسلوب التطهير هو أن يقرأ القس بعض الادعية على الاناء ثم ينفخ فيه ثلاث مرات لطرد الارواح الشريرة التي علقت به . أما اذا أراد مسيحي مصافحة مسلم فانه يمد له ــ اي للمسلم ــ يده اليسرى تعبيـرا عـن الاحتقار » .

تذكرنا هذه الظاهرة الاجتماعية السيئة المنافية لكرامة الانسان بما كان يلقاه السكان غير المسلمين في بعض المجتمعات الاسلامية ايام الحكم العثماني في الشرق الاوسط . فكان يفرض عليهم الالتزام بقيود تتعلق

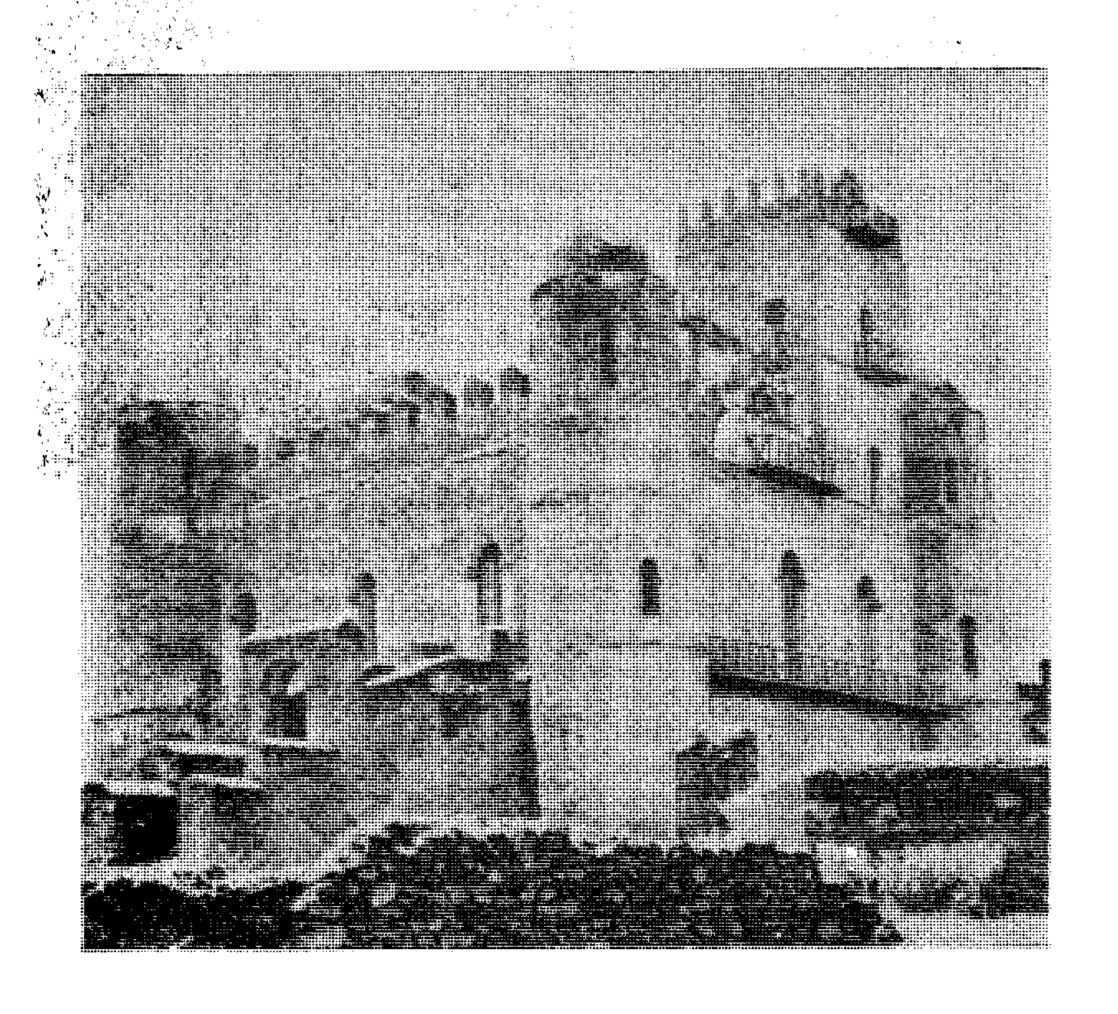
---

4 — Travels To Discover the Source of the Blue Nile — page 47. By James Bruce



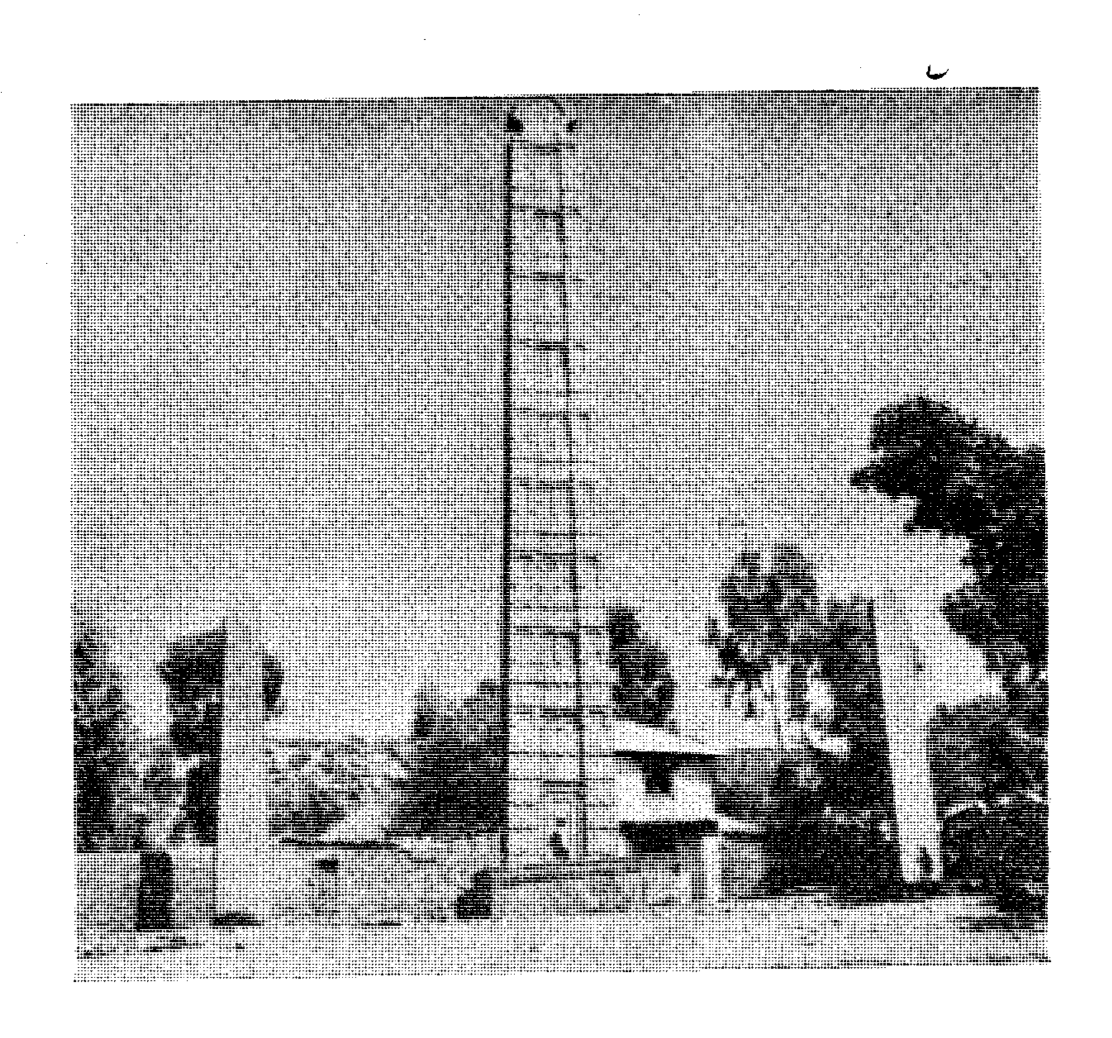


مجموعة بيوت للمزارعين الامهاريين فوق الهضبة



قصر الملك فاسيليداس





احدى المسلات الثلاث العملاقة في مدينة اكسوم

بالقيافة وغير ذلك من الامور التي ما انزل الله بها من سلطان .

حياة القصور في مذكرات الرحالة الاجانب

عاشت غوندار اكثر من غيرها من عواصم الامبراطورية القديمة حياة ترف وبذخ ومجون وسط جو سياسي مشحون بالدسائس والارهاب الفظيع والاغتيالات التي كان الملوك انفسهم بعض ضحاياها . حتى ان بعض الملوك اغتيلوا على أيدي أبنائهم . وصادف ان اغتيل احد الملوك خلال الاسابيع الاولى من وصول الرحالة جيمس بروس الى الحبشة وذلك على يد الرأس ميخائيل ، أقوى وأدهى رؤوس زمانه . وما كان يجري داخل القصور من احداث ومؤامرات في الخفاء والقصص المروعة ليذكر المرء بما كان يحدث في قصور وبلاطات دويلات اوروبا في القرون الوسطى .

فالى جانب الادب السامي والخلق الرفيع اللذين اتصفت بهما الحياة الاجتماعية الارستقراطية في غوندار ومظاهر المراسيم المحتشمة التي تنم عن نضوج وترفع الطبقة الراقية كانت تحاك امور اخرى في الخفاء بكل قسوة وبشاعة . وبلغ التنكيل والبطش في الخصوم والمعارضين ذروته في الوحشية واللاانسانية . فكم من الامراء والنبلاء وزعماء القبائل من لقي مصرعه بأبشع الاساليب في أقباء القصور ودهاليزها المظلمة . كل ذلك كان يجري في وقت كان اصحاب الامر والنهي يقارعون الخمرة بين احضان خليلاتهم في حجر مجاورة ، ويتلذذون بتناول وجبة دسمة من اللحوم النيئة على صراخ المتعذبين الذين يصارعون الموت البطيء .

كتب الكثير من الرحالة الاجانب في وصف المجتمع الحبشي في هذه الفترة الا ان الرأي العام الاوروبي اعتبر ذلك ضربا من الخيال او المبالغات التي يعتمدها بعض الرحالة لرواج مؤلفاتهم . وكتب جيمس بروس عن ذلك مفصلا وقصصا مثيرة . ولكن اوروبا ظلت قرابة عشرين عاما لا تولي كتاباته أي اهتمام . كذلك قوبلت تقارير الدكتور بونسيه الفرنسي الجنسية من قبله بنفس المشاعر .

من ابشع القصص التي رواها جيمس بروس ، وقد كتب الكثير عن هذا الموضوع ، محاكمة احد رجال الدين بتهمة الاشتراك في اشعال نار الفتنة ضد الدولة والتحريض على الثورة . جرت المحاكمة داخل احد القصور الملكية وأدين الرجل وصدر القرار باعدامه ، ونفذ فيه حكم الاعدام في الحال وهو بكامل قيافته الدينية . هكذا كانت تزهق الارواح، فلا استئناف ولا تمييز في محكمة عادلة ـ قرار يعقبه تنفيذ في نفس الموقع الذي جرت فيه المحاكمة الصورية .



يقول بروس الذي خبر حياة القصور ، ربما اكثر من غيره ، وسبر فور خفاياها ما يلي : « حالتان متناقضتان نبتتا وترعرعتا في أجواء هذه القصور في آن واحد . الحالة الاولى سمو فائق في اللطف وأساليب المعاشرة وكياسة متناهية في المجاملات والمراسيم . والحالة الثانية سقوط مفضوح في اختلاق واستنباط شتى وسائل الغدر والتعذيب اللاانساني لآتفه الاسباب » . لقد ضاقت نفس بروس ذرعا في أواخر ايامه بحياة القصور واستمرارية هذه المآسي امامه كل يوم لدرجة انه كتب في مذكراته اليومية قبيل مغادرته هذه البلاد ما معناه : (لم يشغل ذهني في الايام الاخيرة من اقامتي هنا سوى كيف انني سأستطيع التخلص والهروب من هذا البلد الظالم الملطخ بالدماء) .

لقد انغمس بعض الملوك ــ أو فلنقل اكثرهم ــ في ملذات الحياة والمجون ، لدرجة انه كان لبعضهم خليلات ومحظيات إصبحت لهن سطوة كبيرة في تمشية شؤون الدولة . وحقيقة فقد أضحت غوندار في أوج ازدهارها ورخائها مدينة انس وطرب واندفاع في الملذات بغير قيود ولا حدود . ويروى ان (اياسو العظيم) آخر ملوك غوندار بينما كان عائدا لعاصمة ملكه من بعض الحروب فوجيء بنبأ موت خليلته المفضلة ودفنها خلال غيابه . فحزن عليها حزنا عميقا دفعه الى الاعتكاف في دير في احدى جزر بحيرة تانا . فما كان من ابنه (تيكلا هايمنتوت) الا ان انتهز الفرصة للاستيلاء على السلطة فحرض بعض رهبان الدير على قتل والده . فقتلوه وعلى اثر ذلك أعلن نفسه امبراطورا . يقال ان من الاسباب التي دفعت الرهبان على اقتراف هذه الجريمة البشعة ــ والمفروض ان يكونوا هم أبعد الناس عن مثل هذه الاعمال المنكرة ــ هو اعتقادهم بأن الامبراطور كانت له ميول خفية نحو المذهب الكاثوليكي ، الامر الذي اعتبروه خروجا على ديانتهم وخيانة لا تغتفر بحق الكنيسة القبطية .

وبعد موت الامبراطور اياسو ــ أو بالاحرى قتله على هذا النحو ــ ساءت أحوال المملكة وتدهورت العلاقات بين العاصمة وملوك الاقاليم الاخرى وعمت الفوضى البلاد كلها لدرجة ان اربعة من الملوك المتاخرين الذين تعاقبوا على العرش بعد اياسو العظيم ماتوا غدرا ــ مسمومين أو مقتولين . وتؤكد الاحداث ان في بعض هذه الحالات كان لرجال الدين ضلع بحوادث الاغتيالات .

غير ان أحد الاباطرة المتأخرين ــ وهو داود الثالث ــ الذي لم يكن على وئام تام مع الكنيسة ورجالها تمكن من النجاة من مكائدهم ، وبرهن على حزمه ومبلغ تحسبه للامور بأن سارع هو في القضاء على من كان يشك باخلاصهم له قبل ان يفلحوا بتنفيذ خطة لاغتياله ويلحقوه بأسلافه . فكان بهذه الخطوة الجريئة قد طبق المثل المعروف ــ (تغدى



بهم قبل ان يتعشوا به) . ففي حركة خاطفة بارعة ، استعان على تنفيذها بالمسلمين من قبائل غالا Galla ، حشد جماعة كبيرة منهم قضت على مئات من القساوسة والرهبان . فأخمد أنفاس معارضيه وأعطى درسا بليغا لغيرهم من الخصوم ، فدانت له الامور كما أراد . وليس فيما قام بتنفيذه المسلمون من غرابة وذلك باذعانهم للملك وتلبيتهم طلبه بالنظر للمرارة الدفينة في نفوسهم من جراء المهانة التي كانوا معرضين لها في حياتهم اليومية نتيجة التعصب الديني . وهذا أمر طبيعي في البشر . وهم ايضا ، بمساندتهم للملك في هذا العمل البربري ، انما طبقوا مثلا آخر شائعا بين الناس ــ عدو عدوي صديقي .

يرى بعض النقاد ان اختيار الامبراطور فاسيليداس عاصمة ثابتة لملكه ، واستقراره فيها دون تنقل كان من العوامل التي ساعدت في استفحال روح التمرد والعمل على الاستقلال عن السلطة المركزية لدى الاقاليم والولايات النائية . ومن الناحية الثانية فحياة القصور وما صاحبها من لهو وعبث ونشوء جو مليء بالتنافس والمشاحنات الطبقية بين افراد الحاشية الملكية أشغلت رجال الدولة عن الاهتمام بالامور الحيوية . وبات الذين أبعدوا عن السلطة أو اولئك الذين لم يصلهم الدور بعد للوصول الى مراكز الحظوة والنفوذ ، يشنون حربا باردة على من في المراكز المرموقة ويذهبون الى أبعد من ذلك فيدخلون في مجال المؤامرات والاغتيالات .

فمن المسلم به ان المجتمع الاثيوبي هو في الاساس مجتمع مبني على التقاليد والعنعنات القبلية التي تتجلى فيها النزعة الانعزالية والمحافظة على التراث وعدم الخضوع لسلطة مركزية . وهذا ما كان يدعو الاباطرة الى عدم الاستقرار بعاصمة ثابتة ، والى التنقل بجيوشهم الجرارة لاستعراض عضلاتهم وابهتهم امام من تحدثه نفسه من الخصوم والمناوئين من أتباعهم برفع راية العصيان والتمرد . واذا ما وجد أحد هؤلاء في نفسه القدرة للتصدي لقوة الامبراطور ، أشهر بوجهه السيف وحاربه . فاما ان يتغلب عليه ويرده خائبا من حيث أتى ، ويعلن نفسه ملكا في ارضه ، واما ان يندحر فيجلب مأسورا مطأطىء الرأس ، حاملا حجرا ثقيلا على رأسه او كتفه دلالة المذلة والخضوع . اما ملوك غوندار فاستأثروا بحياة المدينة وترفها وعافوا الخشونة التي تتطلبها صيانة الملك فخسروه .

ليس ذلك فحسب ، بل ان صرف ثروة البلاد وامكانياتها من اجل ازدهار مدينة واحدة ، أدى الى نشوب حروب داخلية طويلة . حتى ان جيوش بعض الامراء المناهضين لسطوة غوندار زحفت نحو العاصمة وتوغلت في قلب المدينة ، وأحرقت الكثير من معالمها وقصورها ،



مسرح السياسة الداخلية على غير انتظار . وبدوره كذلك أمعن في تدمير ما سلم من عبث الجيوش التي سبقته الى هذه المدينة . وثيودور ، كما سنرى فيما بعد ، أصبح من أعاظم الرجال في أثيوبيا . وهو الذي سعى لتوحيد البلاد تحت تاج واحد ، بالقوة طبعا .

وأما من الناحية الثانية فان الحروب الخارجية قد أنهكت الجيوش واستنزفت معظم مدخرات خزائن المملكة ، وخاصة الحروب المتكررة مع أتباع الحركة المهدية في السودان الذين غزوا غوندار وأمعنوا في العبث بها ودكوا حصونها وأبرز معالمها الحضارية . وتلت ذلك حروب اخرى زادت من ويلاتها ودمارها . وشاءت الاقدار ان لا تسلم هذه المدينة الخالدة الجميلة حتى من ذيول حرب التحرير ضد الايطاليين في الحرب العالمية الثانية .

لقد أصيبت المدينة بأضرار جسيمة خاصة في معالمها الآثارية عندما أطبقت عليها الجيوش البريطانية وقوات هايلا سلاسي . وانهارت جوانب بعض القصور والجسور كما تداعت أبراج بعض القلاع بتأثير قصف المدفعية . لكن الحكومة حرصت فيما بعد على ترميم بعض القصور ذات الاهمية التاريخية الخاصة وأعادت اليها مظهرها الاول .

غوندار في القرن العشرين

ما زالت غوندار الى اليوم تعتبر عروس منطقة بحيرة تانا واكبر المدن الاثيوبية في الشمال الغربي من البلاد واجملها طبيعة . وما زال فيها شيء من سحر ماضيها تحكيه اطلال تراثها المتناثرة وسط طبيعتها الجميلة واحيائها وفنادقها ومؤسساتها الحديثة . فهي من هذه الناحية تختلف عن مثيلاتها من الاماكن التي رفعت اعلام الحضارة الحبشية القديمة . فعلى الرغم من تقلص ظلها السياسي لصالح اديس ابابا، العاصمة الجديدة ، فانها لم تفقد مكانتها التاريخية والدور الذي لعبته في الذود عن وحدة الامبراطورية .

ففي اكسوم يشعر المرء انه بين قبور الماضي السحيق والمعابد المندرسة . وأحفاد الاكسوميين يلاحقون السائح حفاة وشبه عراة من شدة الفقر لعله يجود عليهم بشيء من النقود . واكسوم نفسها اصبحت اليوم عبارة عن مدينة اموات لا غير . ولاليبيلا بقعة آثارية رائعة وسط طبيعة جبلية موحشة جرداء . فكنائسها اليوم كما كانت بالامس البعيد، خالية من المصلين ، تعصف بجوانبها الريح . فلا حياة حولها ولا بشر ، كأنه أريد لها مجرد ان تعلن وجود الصليب في هذه البقعة الوثنية . واما في غوندار فيلمس المرء الحياة في وجوه أهلها واستمراريتها في مجاري أنهارها ونضارة بساتينها ، وكأنه لم يتغير فيها شيء سوى الشيخوخة



البادية على قصورها وقلاعها ،

انتعشت الحياة الاقتصادية في غوندار خلال فترة الاحتلال الايطالي ، ١٩٣٥ ــ ٤١ . فالحركة العمرانية التي استهدفوها ، وشملت ترميم القصور القديمة وشق الطرق وتعبيدها وانشاء الجسور والابنية العامة ، أتاحت الفرصة لتشغيل الايدي العاملة وبعث الحركة التجارية وتنشيط الاستثمارات الفردية . وهذه الخطة المرسومة اجتذبت اعدادا كبيرة من الايطاليين من ارباب المصالح والمهن واستوطنوا في غوندار . وفي خلال فترة قصيرة تغيرت معالم البلاد والريف بالنظر للمجهود العمراني الجبار الذي بذله الايطاليون . ومن طريف ما يروى عن هذه الحركة العمرانية ان هايلا سلاسي ــ على اثر دخوله البلاد مع القوات البريطانية فاتحا سنة ١٩٤١ ، التفت الى من حوله وقال مازحا : « لو كنا علمنا مسبقا بكل هذه الانجازات العمرانية لما استعجلنا في العودة الى البلاد ريثما يتم الايطاليون برامجهم » .

ومن الناحية الثانية ، فلو كان حقا قد أتيح للايطاليين تنفيذ برامجهم الانمائية ، الخاصة بمنطقة غوندار وبحيرة تانا ، ولم يخسروا الحرب ، لكان في ذلك التعجيل بدمار مصر والسودان معا . فلقد ثبت بأن الايطاليين كانوا قد أعدوا مشروعا ضخما لتحويل الجزء الاكبر من مجرى النيل الازرق لارواء السهول الغربية وذلك عن طريق حفر نفق جبلي قدر طوله بخمسة وثلاثين كيلومترا لايصال المياه لتلك السهول الغنية التي اعدت كجزء من حملة لتوطين الملايين من الايطاليين في اثيوبيا . وهذه خطة كانت تستهدف حل مشكلة الانفجار السكاني في جنوب ايطاليا .

والمعروف عن غوندار انها من المدن التي لرجال الدين فيها كلمة مسموعة لحد بعيد . يستدل على ذلك من كونها تدار جزئيا من قبل مجلس مؤلف من رجال الدين ، يصدر مرسوم تعيين البارزين منهم الامبراطور نفسه . ويروي الواقفون على دخائل الامور بأن نفوذهم في الاوساط الرسمية متغلغل لدرجة انه اذا رفع مواطن شكوى الى جهة حكومية ، وكانت شكواه مؤيدة او مذيلة من أحد رجال الكنيسة ، فانها تعامل معاملة خاصة بصالحه ، والعكس بالعكس . ويبدو ان نفوذ رجال الدين في هذه المدينة بلغ حدا دفع بأحد الظرفاء المثقفين في الخارج للتصريح « بأن غوندار عبارة عن دير كبير » .



الفصل الرابع

الاحتلال الحبشي لليمن

اليهود ونصارى نجران

سبق ان ذكرنا بأن اليهود عبر تاريخهم الطويل نزحوا الى بلاد شتى في فترات مختلفة . ومن الاحداث المثبتة في تاريخهم هو هجرتهم الى اليمن حوالي سنة ٧٠ الميلادية على اثر احتلال الرومانيين لفلسطين في عهد الامبراطور تيتوس Titus وهدمهم القدس ومعبد سليمان . وبعد استيطانهم باليمن تمكنوا على مر الايام من غرس بذور الديانة اليهودية بين السكان حتى اعتنقها عدد من ملوك حمير . وكان آخر من تهود من هؤلاء الملك ذو نواس صاحب قصة الاخدود في القرآن الكريم . فقد خشي اليهود من انتشار النصرانية في عدد من مدن اليمن ومن ضمنها نجران (١) فحملوا الملك على ايذائهم لعلهم يرجعون الى دينهم . فجمعهم الملك وخيرهم بين التهود والحرق بالنار ، اذ حفر لهم اخدودا في الارض وأضرم فيه النيران وألقى فيه جميع من اصروا على البقاء على دين عيسى بن مريم . واختلفت الروايات في عدد من أحرق . فقيل انهم بلغوا عشرين ألفا . الا ان واحدا منهم نجا من الموت وأفلت من قبضة اليهود وتمكن من الفرار حتى وصل قيصر الروم يوستينوس بالقسطنطينية وكان ذلك سنة ٥٢٣ ميلادية .

فلما مثل هذا بين يدي القيصر شكا له ظلم اليهود وقص عليه المأساة التي حلت بالنصارى في نجران . وسواء أصحت هذه الرواية في وصول هذا اللاجىء الى القيصر أم لا ، فان شيوع هذا النبأ عن حرق النصارى بهذا الاسلوب الوحشي قد اثار غضب الامبراطورية البيزنطية والحبشة وأسقف أورشليم . ويقال ان الامبراطور طلب من نجاشي

---

١ ـ تقع نجران الآن في المملكة العربية السعودية .



الحبشة اعداد العدة لنصرة المسيحيين في اليمن وانقاذهم من الموت بالنظر لقرب بلاده منها وبعد القسطنطينية عنها . وكان نجاشي الحبشة آنذاك الملك كالب Kaleb ، الذي جرد حملة عسكرية كبيرة نحو اليمن سنة ٥٢٤ ميلادية . وفي رواية انه استعان بالسفن اليونانية المتواجدة في البحر الاحمر لنقل الجيش الذي عقد لواءه الى قائده ارياط . وبعد وصول الجيش الى الساحل اليمني تصدى له ذو نواس بقواته . فدارت معارك حامية بين الطرفين كان الفوز فيها لجيش ارياط . فتشتتت قوات (ذو نواس) فقرر الانتحار . فدفع بحصانه نحو البحر حتى غاص فيه وهلك . وبموت هذا الملك واستتباب الامر للاحباش طويت صفحة ملوك بني حمير في اليمن لتفتح صفحة جديدة تؤرخ احتلال الاحباش الثاني لها (٢) .

استبدال سيد أجنبي بآخر

دام احتلال الحبشة لليمن قرابة ٥٠ عاما ، ويقول المسعودي ٧٢ عاما ، عملوا خلالها على نصرة المسيحية وتثبيت أقدامها في الجنوب العربي . الا انه سرعان ما حدث انشقاق في صفوف الجيش المحتل فثار أبرهة الاشرم على قائده ارياط فقتله . واستتب الامر له بعد ذلك وحكم البلاد ثم حكمها من بعده أولاده حتى دخلها الفرس فاتحين .

قيل ان نجاشي الحبشة تملكه الغضب عندما بلغه مقتل قائده ارياط على يد أبرهة الذي استأثر بالحكم . فحلف النجاشي بالمسيح ان يعبر البحر الاحمر ويجز ناصية أبرهة ويريق دمه ويطأ تربته . فلما علم أبرهة بغضب الملك عليه قام فجز ناصيته وجعلها في وعاء من العاج . وجعل من دمه في قارورة ومن تراب اليمن في جراب وأنفذ ذلك الى النجاشي وأرسل معها هدايا ثمينة . وكتب له معتذرا ومعلنا طاعته للملك . وحلف بدين النصارى انه ما زال على ولائه له ورهن اشارته وقال له : « انفذت ناصيتي فليجزها الملك وبدمي فليرقه وبجراب من ترا باليمن فليطأه بقدميه وقد أبررت يمينه وهو على سرير ملكه » . كما كتب له انه شيد للملك كنيسة القليس التي ما شيد مثلها ملك من قبل. فلما وصل ذلك الى النجاشي استصوب رأيه واستحسن عقله وصفح عنه.

كانت أيام حكم أبرهة الاشرم مليئة بالاحداث والمنجزات لدينه . وقد خلد اسمه على جدران سد مأرب . وأراد أن يصرف العرب عن الحج الى مكة فشيد في صنعاء هذه الكنيسة (القليس) وهي كدرائية ضخمة

---

٢ ـ تاريخ العرب المطول ـ الجزء الاول ـ للدكتور فيليب حتي وزملائه ، ص ٧٩ ـ ٨٢ .



صرف في سبيلها المال والجهد حتى كمل بنيانهـــا فكتب الى النجاشي يبشره انه أقام كنيسة ما شيد مثلها من قبل . وفي رواية ان ارهة فعلا أرغم العرب على الحج اليها بدلا من الكعبـــة في مكة . والقليس ما زالت قائمة حتى يومنا هذا وتعرف حاليا بـ (غرفة القليس) . ولما لم ينجح في صرف العرب عن الحج الى الكعبة قرر غزوها وهدمها .

فحمل عليها بجيش كبير سنة ٥٧١ ميدلاية عرفت بعدئذ بعام الفيل نظرا لوجود الفيلة مع الجيش . وعام الفيل لا يحتاج الى الدليل والشرح في التاريخ الاسلامي لانه العام الذي ولد فيه محمد صلى الله عليه وسلم . ولم يكد أبرهة يصل أبواب مكة حتى أصيب بمرض عضال فقضى نحبه . وتفشى المرض بين جنده فتشتتوا شذر مذر وولوا الادبار . وعنـــدئذ تنفست قريش الصعداء لزوال هذا الخطر المداهم والعدو الجبار الذي لم تكن لتقوى على مجابهته . وفي هذا نزلت الآية الكريمة « الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيـدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » .

وفي زحفه على مكة سلك جيش أبرهة الاشرم طريق الطائف . ومن هناك اصطحب دليلا اسمه (ابو رغال) ليرشدهم الى سبل مكة . الا ان هذا الدليل ـ أي ابو رغال ـ هلك في الطريق قبـــل ان يصل اصحاب الفيل اليها فدفن في موقع يقال له (المغمس) . فرجـم قبره بعد ذلك وأخذت العرب تتمثل به كما يقول جرير في الفرزدق :

اذا مات الفرزدق فارجموه　　　كما ترمون قبر ابي رغال

لقد عانى احتلال الحبشة لليمن مصاعب جمة نظرا لعدم رضـوخ القبائل اليمنية للاحتلال الاجنبي الذي لم يألفوه . فكانت القبائل تشن حروبا مستمرة على معسكرات أبرهة . حتى أن ذكر هـــذه الثورات المستعرة ضد حكم الاحباش ورد في النص الذي نقشه أبرهة باسمه في سد مأرب . ومما جاء في هذا النص انه ـ أي أبرهـــة ـ بعد فراغه من القضاء على بعض المتمردين والثائرين على حكمه ، اذ بلغه خبر حـدوث تصدع في بناء السد . فقصـــــد مأرب بنفسه . وبعد أن صلى فـي بيعتهـا شرع بتجهيز ما يلزم من المواد والعمال لاصلاح الخلل سنة ٥٤٣ ميلادية . وبعد أن أتم اصلاح السد جاءته الوفود مهنئة من كل حـدب وصوب ومباركة له في اعادة السد الى حالته الاولى .

ويذكر التاريخ انه على الرغم من نجـاح أبرهة في اخماد الثورات القبلية التي قامت بوجهه فقد ظل رجل واحد لم يغمد سيفه ولم يتمكن ابرهة منه . ذلك هو سيف بن ذي يزن وهو من سلالة ملوك حمير . وقد التجأ اخيرا الى الفرس مستنجدا بهم وطلب من كسرى انو شروان الذي قصده بالذات فاستجاب لطلبه وأمده بجيش بقيادة (وهرز) فقاتل الى



جانب القبائل الثائرة فدحر الاحباش وأجلاهم عن اليمن سنة ٥٧٥ ميلادية وخلال هذه الفترة كان الفرس قد سيطروا على اجزاء كبيرة من البلاد العربية واصبحوا اسياد بلاد حمير وعدن ومخا وحتى بعض الموانىء على الساحل الافريقي . الا ان اليمن من حيث النتيجة لم تظفر بالاستقلال الحقيقي الذي كانت تنشده عندما استعان سيف بن ذي يزن بالفرس . بل أصبحت البلاد تحكم حكما مزدوجا كانت مسؤولية سيف بن ذي يزن فيه صورية اسمية اكثر مما هي مسؤولية حكم ذاتي مستقل بالمعنى الصحيح . فكان الفرس يتدخلون بكل صغيرة وكبيرة .

عندئذ أدرك سيف بن ذي يزن وصحبه انهم أصبحوا فعلا وبحكم الواقع تابعين للفرس . وكما ذكر فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب) : « فقد ابدلوا سيدا أجنبيا بآخر » .

وفي رواية اخرى ان سيف بن ذي يزن قصد امبراطور الروم مستنجدا قبل ذهابه الى ملك الفرس . الا ان القيصر لم يكرم وفادته وأعاده الى بلاده خائبا بدعوى انهم قوم يهود والحبشة نصرانية على دينه. عندئذ مضى الى ملك الفرس كسرى انو شروان . ويقال أيضا ان سيف بن ذي يزن لم يطلب النجدة من الروم أو الفرس أيام حكم أبرهة وانما في ايام حكم ابنه مسروق الذي خلف أخاه يكسوم أو (أكسوم) وذلك لما اشتدت وطأته على اليمن وعم أذاه الناس وزاد على ابيه واخيه يكسوم . فأنجده كسرى وأنفذ معه جيشا قويا بقيادة (وهرز) . وقيل ان سيف بن ذي يزن مات وخلفه ابنه (معد يكرب) او (معدي كرب) وانتصروا على الاحباش بعد قتل مسروق بن أبرهة . فتوج معد يكرب بن سيف بن ذي يزن فجاءته العرب مهنئة برجوع الملك اليه . وكان من بين زعماء العرب وأشرافهم الذين وفدوا عليه عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف من أعيان قريش وغيرهم . فدخلوا عليه وهو في قصر غمدان بمدينة صنعاء .

فتكلم الخطباء وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم فقال (٣) : « ان الله جل جلاله قد أحلك ايها الملك محلا رفيعا ، صعبا ، منيعا ، شامخا ، باذخا ، وانبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه في اكرم معدن وأطيب موطن ، فأنت ابيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي تخصب به ، وأنت أيها الملك ذروة العرب الذي تنقاد له ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي تلتجىء اليه العباد، سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ولن يهلك من أنت خلفه . أيها الملك ، نحن أهل حرم الله وسدنة

---

٣ ــ نقلا عن المسعودي (مروج الذهب) ، صحيفة ٨٣ ــ ٨٤ من الجزء الثاني .



بيته ، أشخصنا اليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا. ونحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة » .

فقال له الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ فأجابه : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . فقال الملك : ابن أختنا ؟ قال : نعم . فقال الملك : ادنوه مني . فأدني ثم أقبل عليه وعلى الوفد فقال لهم : مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ومستناخا سهلا . وأكرمهم حتى عادوا لبلادهم .

ظهور الاسلام

لم يكن الحجاز مجهولا لدى الاحباش ولا الحبشة بعيدة الصلة عن مكة وسكانها قبل ظهور الاسلام . فطرق التجارة الرئيسية بين الحبشة والعالم الخارجي التي احتكرها السبئيون والحميريون كانت تأتي عبر البحر الاحمر الى اليمن فتمر بمكة متجهة الى الشمال ومن هناك الى البحر الابيض المتوسط . وبسبب التجارة نشأت علاقات قوية بين السكان على امتداد خطوط المواصلات . وشهد التاريخ وجود جالية حبشية بمكة ــ قد تكون نصرانية ــ منذ عهود بعيدة ترعى مصالح التجار وتتكفل حاجات القوافل يدعى أفرادها (الاحابيش) . وربما كان بلال الحبشي ــ أول مؤذن في الاسلام ــ عبدا زنجيا من هذه الجالية . وما الآيات القرآنية التي نزلت في وصف البحر وعواصفه الا تعبيرا عن الحالة في البحر الاحمر الذي يحكي الصلة التجارية الوثيقة بين ساحليه الحجازي والحبشي .

ولما جاء النبي برسالته وصار المسلمون الاوائل يتعرضون للاذى وشتى أنواع الاضطهاد من قريش ، عندئذ نصحهم وأوصاهم بالهجرة الى الحبشة تخلصا (٤) من التعذيب الذي كانوا يلقونه من بني قومهم . وتكرر المصادر التاريخية اشارة النبي للحبشة بقوله : « فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ... » . ولعل الرسول عليه السلام اختار الحبشة دون سواها لما عرفه عن ملكها الذي جهز الجيوش لنصرة المظلومين من نصارى اليمن . وباشتداد الضغط على المسلمين لم ير بعضهم مندوحة عن الهجرة . وحول هذا الموضوع اختلف الرواة في عدد المهاجرين وعدد الهجرات التي تمت ومن كان بينهم من اصحاب رسول الله . ان الدخول في تفاصيل ذلك خارج عن أهداف هذا الكتاب . الا انه يروى عن هجرة حدثت سنة ٦١٥ ميلادية ــ وهي تقابل السنة الخامسة للرسالة ــ على عهد النجاشي أرمحة الذي أكرم وفادة أول فوج من هؤلاء المهاجرين . ويقال انه كان بينهم جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي .

ويحكي الرواة بأن قريشا أغاظها نجاة هؤلاء القوم والتجاؤهم لبلاد

---

٤ ــ تاريخ العرب المطول للدكتور فيليب حتي ــ الجزء الاول ، صحيفة ١٥٨ .

الحبشة . فأرسلوا وفدا يمثلهم لدى بلاط النجاشي ارمحة ، قيل انه كان من بينهم عمرو بن العاص ، ليطلبوا منه اعـادة هؤلاء الخارجين على تقاليد قومهم الناكرين لآلهتهم وآلهة آبائهم الاولين . فلما مثل الوفد امام النجاشي وعرض عليه الامر شارحا له استياء قريش التي تربطها به اواصر مردها العلاقات التجارية ، من خروج هؤلاء المهاجرين على تقاليد الجاهلية ، استدعى هذا النفر الذي نزح عن الحجـاز وسألهم عن هذا الدين الذي اتبعوه وخالفوا بني قومهم وعشيرتهم من أجله . فرد عليه جعفر ابن ابي طالب بالكلمات التالية (٥) :

« أيها الملك ـ لقد كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الى الجـوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا في ذلك حتى بعث الله الينا رسـولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا الى الله لنوحده ونعبـده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه الحجارة والاوثان . وأمرنا بصـدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحـارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مـال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيـام فصدقناه وآمنا به واتبعناه » .

فلما سمع النجاشي هذا الدفاع تأثر وتعاطف مع المهاجرين واعتذر لوفد قريش عن تسليمهم لعلمه بما يضمره لهم قومهم من سوء المعـاملة بل وسوء المصير . وكان لموقف النجاشي هذا من التسامح وكرم الضيافة رد فعل حسن في أوساط المسلمين وفي نفس الرسـول عليه السلام اذ جاء برهانا على صحـة ما تنبأ به من توفر الامـان والطمأنينة في هذا المهجر .

الا ان بعض المؤرخين يشككون في صحة ما ورد على لسان جعفر ابن أبي طالب على أساس ان الصيام لم يشرع الا بعد الهجرة الى المدينة المنورة أي بعد هجرة المسلمين الى الحبشة . ولذلك فبعضهم يعتبر هذه القصة موضوعة من أساسها . ومن ناحية اخرى فقـد ورد في بعض المصادر ان الذين قصدوا الحبشة لم يكونوا مهاجرين بل كانوا على هيئة وفد حمل كتابا من رسول الله الى النجاشي يدعوه فيـه الى الاسلام . ولكن مهما تعددت الروايات أو تضاربت فيبـدو ان من غير المستبعد حدوث الهجرة للخلاص من الظلم والذل والارهاب الذي خيم على معشر قريش ابان دعوة الرسول . ومثل هذا حدث ويحدث في كافة الظروف والحالات المماثلة حينما يتعرض المصلحون والابرياء للاذى على أيدي ابناء جلدتهم ، خاصـة السفهاء منهم والرعاع . فيجدون في الهرب ملاذا

---

٥ ـ تاريخ العرب المطول للدكتور فيليب حتي ـ الجزء الأول ، صحيفة ١٦٧ .



وضمانا لحرياتهم وصونا لارواحهم ،

وروي فيما بعد ان النبي اظهر تأثرا بالغا لدى سمـــــاعه بموت النجاشي سنة ٦٣٠ ميلادية وعبر عن حزنه بكلمات طيبـــة . وقد يكون هذا الموقف المشرف الذي أظهره النجاشي للمسلمين من جملة الاسباب التي لم تجعل المسلمين في صدر الاسـلام يفكرون بالجهــاد بالنسبة للحبشة ، مع انهم خرجوا مجاهدين في مشارق الارض ومغاربها . وهذا أيضا يذكرنا بحديث منســوب الى النبي (ان صح) تناقلتــه المصادر التاريخية وخاصة الاجنبية وهو : « اتركوا الاحباش ما تركوكم » .

استمرت الصلات الطيبة بين الاحباش والمسلمين فترة طويلة لـم يحدث خلالها ما يحول صفاء العلاقات الى نزاع سوى تلك الحملةالبحرية التي جهزها الخليفة عمر بن الخطاب لتأديب القراصنـــة الاحباش في البحر الاحمر سنة ٦٤٠ ميلادية . الا انها لم تفلح امام الاسطولالحبشي فقفلت راجعة . وفي رواية اخرى ان قراصنة الاحباش هاجموا جـدة في السنة ٨٣ للهجرة وامعنوا فيها سلبـــا وتخريبا ، الامر الذي أثار الرعب حتى في نفوس سكان مكة . ولما كان استفحال أمر هؤلاءالقراصنة في البحر الاحمر معناه القضاء على تجارة الحجاز فقرر المسلمون وضع حد لهذا الموقف الخطير فجهزوا حملة قويــــة تمكنت من تمزيق شمل القراصنة وحتى من احتلال جزر دهلق او (دهلك) الواقعة امام خليـج ميناء مصوع على الساحل الغربي من البحر الاحمر . وبهذه الخطوة أقام المسلمون أول راس جسر على الساحل الآخر ، الامر الذي ساعد عـلى احتلال مواقع بحرية اخرى مهدت الطريق امام انتشار الاسلام عن طريق التوسع التجاري في شرق افريقية فيما بعد .

يمكن اعتبار القرن السابع الميلادي الذي ظهر فيه الاسلام وانتشرت رسالته بداية تحول بعيد المدى في تاريخ ومصير مملكة اكسومالحبشية وفي مجرى الاحداث على شطري البحر الاحمر . فقد اخذ نجمها بالافول وشأنها بالتضاؤل حتى انطوت على نفسها كما سنرى في عزلة عن العـالم دامت قرابة ألف عام . لقد ظهر الاسلام في وقت رأى العالم فيه تداعي امبراطوريتين أنهكتهما حروب استمرت اكثر من مائة عام تقريبا ـ ونعني الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية . اما بيزنطية فقد كانت قبل بزوغ شمس الاسلام تعتبر نفسها بمثابة الوصي على الحبشـــــة المسيحية وهذا مما شد في ازرها على بعــدها النائي عن مراكز القوى المسيحية . وقد توطدت العلاقات بينهما عن طريق البعـوث السياسية والدينية التي جرى تبادلها بين الطرفين على الرغم مناختلافمذاهبهما. هذا وتجدر الاشارة الى ان بيزنطية لم تقر المــذهب اليعقوبي (مذهب الكنيسة الحبشية) وقد وصل بها التطرف حدا انها لم تتردد فيالايقاع بمعتنقي هذا المذهب ان هم جاهروا به داخل بيزنطية



الا ان بيزنطية بعد انشغالها بحروب الاسلام لم تعد تأبه بالحبشة التي بدورها أوصدت ابواب علاقاتها الخارجية وقامت بالانسحاب التدريجي الى داخل مرتفعاتها في قلب الهضبة حفاظا منها على دينها وتراثها حتى ولم يعد العالم يعرف موقع الحبشة خاصة بعد تدمير الميناء الرئيسي لتجارتها (ميناء ادوليس) ومراكزها الساحلية . وتضاءلت رقعة حكمها وسطوتها حتى ولم تعد تشمل الهضبة كلها بل تقلصت ضمن حدود اكثر المرتفعات حصانة ومناعة مخافة الغزو الخارجي . اما الاسلام فا فع بحدوده كما أسلفنا خارج الحجاز فدخل اليمن بعد ان أسلم (باذان) عامل الفرس هناك . ثم احتلت جيوش المسلمين سورية سنة ٦٣٦ ومصر سنة ٦٤٠ ميلادية .



الفصل الخامس

عزلة الحبشة

دام العصر الذهبي الـــذي عاشته مملكة اكسوم الجبليـــة زهاء سبعمائة عام ، أعقبتها بعد ذلك أحداث خارجية وداخلية انتهت بعزلتها عن العالم الخارجي عزلة تامة امتدت الى ما يقرب من ألف سنة . وكانت هذه الحقبة الزمنية الطويلة التي قضتها منطوية على نفسها فترة مظلمة عاشتها وهي تتخبط بمشاكل وأحداث دموية بين قبائلها وملوك أقاليمها أرجعتها القهقرى . وكادت خلافاتها الداخلية والتهديدات العسكرية من الخارج ان تعصف بكيانها من أساسه وتعيدها الى حالة متخلفة من الفوضى القبلية . ولقد بلغت بها العزلة درجة لم يعد العالم الخارجي يسمع عن اخبارها شيئا ، وكادت تنسى ربما حتى جغرافيا لولا النزر القليل من المعلومات التي وردت عنها في مذكرات الرحالة والمكتشفين الاجانب ومن كتابات بعض رجال البعثات التبشيرية المسيحية مــن الجزويت . وفي خضم هذا البحر العميق من النسيان اندثرت معالم تلك الحضارة التي ما زالت تحكي قصتها وتعكس امجادها بقايا المعـــابد والابنيـــة العامة والمسلات العملاقة والرقم الحجرية المتناثرة في اكسوم ويحا والمواقـــع الساحلية الاخرى .

اما علاقاتها الخارجية ــ التجارية بالدرجة الاولى ــ فقد اضمحلت وطغى عليها الكساد . ولم تبق للبلاد صلة تذكر الا مع الكنيسة القبطية المرقسية في الاسكندرية . فقد كانت هـــذه الكنيسة هي التي تعين المطـارنة للكنيسة الحبشيـــة ، كما أسلفنـــا ، من بين أبرز الرهبان المصريين . وكتب المؤرخ الانكليزي غيبون (١) Gibbon في وصف فترة السبات الطويلة التي مرت بها هذه البلاد وعزلتها عن العالم بقوله : « بعد أن طوقت الحبشة من كل جانب من قبل أعداء دينها ، دخلت في طـور

---

1 — The Abyssinians, by David Buxton — page 43.



سبات عميق دام قرابة الف عام ، نسيت خـــلالها العالم الذي نسيها بدوره » . والحبشة لم تدخل في هذه الحالة من العزلة طواعية ، وانما فرضت عليها نتيجة ظروف سياسية واجتماعية قــاهرة نذكر فيما يلي اهمها وابعدها اثرا .

١ ـ زحف قبائل البيجة الوثنية ـ

كان للزحف الكاسح الذي قامت به هذه القبـــائل البدوية شبه البربرية على سهول الحبشة ووهادها الاثر الكبير في اضعـــاف شوكة مملكة اكسوم . فقد جرفت أمام زحفها كل معالم المدنية واستولت على ممتلكات الاهالي بحيث شمل اذاها الاخضر واليابس وتوغلت داخل البلاد حتى ساحل البحر الاحمر ولم تبق لمملكة اكسوم سيطرة عــلى الاطراف النائية من ممتلكاتها الواسعة . جاءت هذه القبائل الجائعة من بلاد النوبة ووادي النيل في طلب المرعى والكلأ لاغنامها وحيواناتها . ولكنها بالنظر لضخامة القوافل التي وفدت على هيئة موجات متعاقبة أذهلت السكـــان الآمنين وعاثت بالارض فسادا وأوقعت أفــــدح الاضرار بالمحصولات الزراعية وممتلكات القرويين . ولا عجب في ذلك اذ لم يكن لهؤلاء البدو الرحل عهد بفردوس كهذه من قبل . ولم يألفوا النظام الزراعي المستقر والحياة الحضرية التي كان عليها سكان البلاد الاصليون .

جاءت هذه الفزوات غير المتوقعة مفزعــة للاحباش المستكنين في مزارعهم ومساكنهم الثابتة وجاءت كصدمة بالغة الاثر عكرت صفو نعيمهم الهادىء . فاضطروا للتراجع أمام هـــذا الغزو المخيف الى داخل البلاد والاعتصام بالهضبة الحصينة لضمان سلامتهم وحياتهم وأموالهم . وكلما اتسعت رقعة الارض التي احتلها الفزاة كلما اندفع الاهلون بدورهم نحو المرتفعات وانزووا في أشد المواقع الجبلية وعورة وأبعــدها منالا حفاظا على كيانهم الوطني وتراثهم الديني المهدد بهذا التيار الوثني الجائر .

ومعلوم ان علاقات تجارية متينة الصلة ، خاصـــة تجارة الذهب والطيوب والتوابل والعاج كانت قائمة منذ عهـــد بعيد بين هذه المملكة والسبئيين والحميريين في جنوب الجزيرة العربية والحجاز . ومن أهم طرق التجارة بين اوروبا والحبشة ما كانت تمر بالحجاز ومنها عبر شبه جزيرة سيناء الى البحر الابيض المتوسط . الا انه لا يمكـــن على وجه التحديد تثبيت الزمان الذي بدأت خلاله الصلات الوثيقة بين سكان ساحلي البحر الاحمر ـ العربي والحبشي . ولكن الامر الثابت هو ان كل القرى والموانىء الواقعة على طرق القوافل التجارية ـ البرية منها والبحرية ـ كانت تزدحم ، خاصة في مـــواسم الاتجار ، باليمنيين والمصريين واليونانيين واليهود وغيرهم من الملل .



فلما داهمت قبائل البيجة المتوحشة حضارة البلاد وعبثت باقتصادياتها الراسخة القائمة على الزراعة والتجارة على نحو ما ذكرنا ، عمت الفوضى البلاد ودب الفزع في النفوس واختل توازن قوى الدفاع ازاء عدو متوحش غادر . ولما فقدت الحكومة هيبتها امام هذه القبائل وتقلص نفوذها فقد الامن في سبل القوافل وأصيبت الحياة التجارية بالشلل . فرحل الاجانب عن المراكز التجارية والموانىء خوفا على حياتهم واموالهم . وبرحيل التجار الاجانب أصيبت البلاد بنكسة فظيعة وتوقفت حركة التصدير والبيع والشراء وعم الكساد في الاسواق وتعطلت الايدي العاملة وتفشى داء الفقر بين الناس وسيطر الرعاع وقطاع الطرق على الحياة العامة وفقد المجتمع قيمه ومقاييسه الانسانية النبيلة .

وفي حوالي هذه الفترة بالذات او بعدها بقليل روعت البلاد بخطر آخر جاءها من الناحية الشرقية . فقد لاحت في الافق بوادر زحف متجه نحو الهضبة من قبائل عفر وساهو في صحراء الدناقل . والخطر من هؤلاء لا يقل عن الخطر الذي كان مصدره قبائل البيجه . فكلا الخصمين بربري عنيد لا يرحم وديدن كل منهما السلب والنهب والتخريب . وفي فترة قصيرة تمكنت هذه القبائل من السيطرة سيطرة تامة على صحراء الدناقل والسفوح الجبلية القريبة منها . وبشيوع الفوضى في هذه الناحية الحيوية من الحبشة قضي نهائيا على عنصر الامان في طرق القوافل التجارية التي كانت توصل البضائع الى ساحل البحر الاحمر.

وسرعان ما تحولت القرى المزدهرة الى خرائب وأنقاض والمزارع الى أراضي قاحلة لفقدان من يرعى الزراعة فيها . ولما زال مفهوم الدولة من هذه الناحية ايضا من الامبراطورية العتيدة وانقطعت صلتها بالعالم نهائيا دخلت عزلتها المعروفة في معاقلها فوق الهضبة مكتفية بالتمسك بأهداب الدين والمحافظة على تراث اكسوم خوفا عليه من الضياع . ورجوع السكان الى هذه الحالة من الخذلان قد أحدث رد فعل مذهل بين القبائل التي لم يكن ايمانها قويا بالنصرانية . فعادت الى نزعتها الوثنية، وخاصة تلك القبائل التي وقعت تحت سيطرة الغزاة . وفي مقدمة الامثلة على ذلك ارتداد قبائل (أغاو Agaw) الواسعة النفوذ في الهضبة اذ كانت في طليعة القبائل التي ارتدت عن المسيحية وصارت تتنازع على السلطة والجاه مع الحكام المسيحيين .

٢ ـ ظهور الاسلام

يرى بعض المؤرخين بأن ظهور الاسلام لم يكن من العوامل التي أدت الى عزلة الحبشة وتقبلها حالة الانطواء على نفسها قرونا طويلة فحسب ، بل أقواها وأبلغها اثرا . وقد يكون الاجدر بنا ان نقول « من اقوى العوامل » تجنبا من الوقوع في مجال المغالاة في الامور . فما من شك



بان الاسلام لعب دورا مهما في احداث هذه المنطقة وتقرير مصير شعوبها ورسم معالمها الجغرافية في فترة قصيرة جدا .

والحقيقة التي لا غبار عليها هي ان بوادر الاتجاه نحو العزلة اخذت تتجلى بشكل تدريجي خفي قبيل ظهور الاسلام . أو بكلمة اخرى على اثر اندحار جيوش الاحباش في اليمن أمام الجيش الفارسي الذي جاء لنصرة سيف بن ذي يزن . ولم تمض فترة طويلة على ذلك حتى بزغ فجر الاسلام وأخذت خيوط نوره تبدد ظلمات الوثنية في الجزيرة العربية وعبر البحر الاحمر والساحل الشرقي للقارة الافريقية جنوبي خليج عدن .

أما في الحبشة نفسها فنشط النفوذ الاسلامي بشكل سلمي هادىء عن طريق التجار في الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلادي . وكانت الحبشة خلال هذه الفترة مضطربة الاحوال لا تعرف خلاصا لمشاكلها الداخلية وحروبها المزمنة مع قبائل (أغاو Agaw) الوثنية التي ما فتئت تعارض انتشار المسيحية بين صفوفها . واستمرت في معارضتها خاصة بعد ان وفدت الى البلاد فيما بعد البعثات التبشيرية من البرتغال واسبانيا وغيرها . اما الاسلام فلم ينتشر عن طريق التبشير المنظم كما كانت تفعل الارساليات الاوروبية . وللتجار المسلمين يعود الفضل في انتشاره وغرز بذوره في القارة السوداء . ان ازدهار التجارة في هذه المنطقة ساعد كثيرا على توسع بعض المدن وجعل منها مراكز تجارية مهمة . والى هذه المراكز كان يتردد التجار المسلمون بحكم عملهم . ففي طليعة المدن الاولى التي انبثقت ونمت كانت المراكز الساحلية التي انقلبت الى موانىء مهمة فيما بعد . ومن هذه الموانىء الستراتيجية شق التجار المسلمون طريقهم الى داخل البلاد ومجاهلها . وفي مقدمتها مدن رائدة ذات تاريخ حافل ترعرعت وصار لها شأن يذكر اهمها سواكن على البحر الاحمر (وتبعد حوالي ٣٠ كيلومترا عن بورت سودان) وجزر دهلق (أو دهلك) في أريتريا وزيلع وبربرة ومقديشو وميركا وبرافا في الصومال وموماسا Mombasa في كينيا حاليا وزنجبار .

وبينما كانت المسيحية تتقدم وتنشر ظلها ببطء بين سكان المرتفعات كان الاسلام يسير بخطى سريعة على الساحل وفي السهول المجاورة . وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها ملوك الحبشة وخاصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر لصد تيار الوثنيين من الاتجاه نحو معسكر الاسلام واعتناق الدين الجديد فلم يفلحوا . ولهذه الظاهرة ــ أي ظاهرة الاتجاه نحو الاسلام ــ أسباب قوية اساسية هي ان الدين الجديد بشر المنضوين تحت لوائه بالاخوة الدينية بغض النظر عن المركز الاجتماعي أو اللون او العنصر ــ كما جاء في الآية الكريمة (انما المؤمنون اخوة) فيما كان الاحباش سكان الهضبة ، وخاصة الامهاريون ، ينظرون



الى قبائل السهول الوثنية نظرة ازدراء واحتقار ويشعرون بالترفعمنهم . ولذلك فكان الوثنيون يفضلون اعتناق دين يحميهم من غطرسة الامهاريين المسيحيين وشعورهم بالتعالي ومعاملتهم معاملة الحيوان . فوجدوا في الاسلام ضالتهم حيث لا حواجز طبقية ولا قيود ولا تفرقة بين القبائل .

وكانت جزر دهلق من أولى الممتلكات التي فقـدتها الحبشة على الساحل الافريقي بعد هزيمتها من اليمن على ايدي الفرس . واستقلت تحت راية أسرة مسلمة من أصل حبشي . واستقـلال دهلق يمثل اول محط قدم لقوى الاسلام على الساحل الافريقي . وسرعا نما انسلخ ميناء زيلع في خليج عدن عن الحبشة . وبارتفـاع المد الاسلامي في المنطقة نشأت وترعرعت عدة امارات وسلطنات وممالك اسلامية صغيرة وكبيرة امتدت الى ساحل افريقية الشرقي على المحيط الهندي فيما هو جمهورية الصامال حاليا .

سلطنات اسلامية

اما في الداخل فزحف الاسلام حتى على المرتفعات حيث توطـدت اركان مملكة اسلامية قدر لها ان تلعب دورا هاما في تاريخ الحبشة . تلك هي مملكة ايفات او (اوفات) التي امتد سلطانها من السهـول الى الهضبة وجاورت القسم الشرقي من اقليم شوا الذي يعتبر قلبالحبشة ومعقل الشعب الامهاري . وقـد امتدت هذه السلطنات الـى منطقة البحيراتالواقعة في الواديالشقي المعروف بالانكليزية بـ Rift Valley والى أقصى الغرب تقع سلطنة « هدية » التي اشتملت على مسـاحـة واسعة كان اكثر رعاياها من الوثنيين الا انهم سرعان ما صاروا على دين ملوكهم . اما الى الجنوب من مملكة (ايفات) وفي الحنية الغربية لنهـر عواش او (حواش) تقع مملكة « فتجار » محتلة الطرف النهائي للمنطقة الجنوبية الشرقية لاقليم شوا . الا انه من المسلم به هو ان مملكة «ايفات» كانت أقوى واعظم هذه الممالك الثلاث التي كانت الحبشة تحسب لهـا حسابها دائما كمصدر قوة لا تسهل مجـابهته . ومن اجـل ذلك فقد اتسعت سطوة ايفات حتى بلغت ميناء زيلع على الساحل بما في ذلكطرق القوافل التي كانت تربط داخل البلاد بالبحر .

ومما يلاحظ انه ما أن حل القرن الثالث عشر الميلادي حتى كـان كل رعايا ايفات قد اعتنقوا الاسلام . ولا بد من الاشارة هنا الى ان هذه المملكة قد اشتملت على امارتين هما امارة « عدل » وكان مقرها زيلع ، وامارة « مورا » في اقليم شوا نفسه . وعلى الصعيد الواقعي فان هـذه المملكات الثلاثة ايفات وهدية وفتجار ــ كانت تمثل راس جسر فـي التوسعات الاسلامية نحو داخل الحبشة .

اما القسم الجنوبي من الحبشة فلم يكن ليخلو من بعض السلطنات



الاسلامية . ففي اقليم سيدامو ـ اي الى الجنوب من مملكة فتجار ـ قامت سلطنة « دوارو » التي اشتهرت برجالها الاشداء في الحروب كما اشتهرت بقدرتها على تجهيز قوة مقاتلة تعادل تقريبا ما تستطيع ايفات تجهيزه . وهناك سلطنتان صغيرتان تقعـان بين دوارو وهدية وهما « شرخة » و « اربابني » او « عربابني » . ثم هناك في أقصى الجنوب قامت سلطنة «بالي » المتاخمة للمناطق القاصيـة التي لم يدخلها دين او نظام سوى نظام الغاب والسحرة .

ـ واخيرا وليس آخرا لا بد لنا من ان نتناول بالبحث سلطنة من اعظم السلطنات والمركز الوحيد الذي يعتبر ينبـوع الاشراق الاسلامي ومصدر قوته لعدة قرون ، تلك هي سلطنـة « هرار » الشامخة فوق الهضبة الشرقية . وهرار هي مدينة من أقـدم المدن في تلك المنطقة . لا يعرف تاريخ تأسيسها على وجه التحديد الا ان شهرتها طغت عـلى ما حولها من بلاد لاحتضانتها ورعايتها للاسلام منذ أدواره الاولى ، حتى أصبحت بحق مركز قوته العسكرية . ويذهب البعض الى انها تكونت في بدايتها كقلعة تحصنت فيها حملة عسكرية ساميـة من الشمال ثم نمت وتوسعت لوقوعها على طريق القوافل . بينما يرى البعض الآخر انالعرب هم اللذين بنوها في القرن السابع ، ولكن في هـذا آراء متضاربة في المصادر التي يعول عليها . وتحتفظ هرار الى يومنـا هذا بلغة خاصة ـ سامية الاصل ـ يتكلمها سكان المدينة فقط تعرف بلغة هرار . وتعرف محليا كذلك بلغة (هداره) .

الاسلام في مصر

ان دخول الاسلام بلاد مصر سنة ٦٤٠ ميلادية زاد من احكام الطوق حول الحبشة وقلب وضع سكانها الاقباط رأسا عـلى عقب . وبعد أن استتب الامر للاسلام في الشمال الافريقي واضحت مصر قاعدة من أهم قواعده تحولت من دولة مسيحية تحكمها أقلية مسلمة الى دولة مسلمة أصبح الاقباط فيها أقلية على مر الايام خاصة بعد أن اعتنق الكثير منهم الاسلام دينا . الا ان أقباط مصر لم ينقرضوا بسبب زوال السلطـة والسيادة من أيديهم ، بل هم بقوا على دين آبائهم يمارسون شعائره فيظل الاسلام وذلك على عكس الحال في بلاد النـوبة وبعض أجزاء السودان حيث أبدت بقايا الممالك المسيحية مقاومة عنيفة بوجه الزحفالاسلامي، حتى القرن الخامس عشر الميلادي . ولكنها في آخر المطـاف انقرضت تدريجا وحل محلها الاسلام .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن هـذه الفترة ـ فترة التغلغـل الاسلامي ـ شهدت هجرة عدد غير قليل من العوائل القبطيـة الى ارض الحبشة مخافة ان يجبروا على تغيير دينهم . وما دمنا بصدد الهجرة من



مصر فقد يكون من المفيد الاشارة الى ان هجرة اخرى للاقباط المصريين حدثت على عهد الخليفة الفاطمي ـ الحاكم بأمر اللـه ـ (٩٩٦ ـ ١٠٢١ ميلادية) . الذي شاع عنه انـــه عذب المسيحيين واليهود واضطهدهم أيام حكمه . وما من شك في ان الحبشـــــة أفادت من نزوح الاقباط المصريين الى بلادها . فقد جلبوا معهم مهاراتهم المهنية والزراعية وأصول حرفهم وصناعتهم وبصورة أخص الفن المعماري والنقش عـــلى الحجر والنحت وغير ذلك من الامور التي شيدت مدنية مصر منذ اقدم عهودها. ولا بد ان كان بين المهاجرين عدد من أهل الفكر والعلمـاء ورجال الدين وهم أصحاب مدنية عريقة موروثة . فساهموا مساهمـــة ايجابية في انعاش الزراعة والصناعة وتطوير أساليب البناء وادخال الزخرفة خاصة في الكنائس . وحتما كانت لهم اليد الطـــولى في دعم الحركة الادبية والدينية في وطنهم الجديد ـ الحبشة .

لا بأس ا نعود ثانية الى سيرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي قيل عنه انه هو الذي سبب هجرة الاقباط الثانية التي أشرنا اليها. ولا يخفى ان حملة مركزة شنها عليه مؤرخو اوروبا وغيرهم بسبب موقفه من المسيحيين واضطهاده لهم بل وقتله بعضهم . ولكن يجب ان لا يعزب عن بالنا ان مؤرخي تلك الفترة بالـــذات كادوا يجمعون عـــلى غموض شخصيته وتحكم صفات شاذة فـــي نفسيته . وقـــد انعكس ذلـك كله على تصرفاته الرسمية والشخصيـــة معا . وفي تاريخ تلك الفترة الشواهد الكثيرة على انه عذب من المسلمين الابرياء وزهق أرواحهم اكثر مما عذب وقتل مـــن المسيحيين واليهود وقد عرفـــه الناس حاكما قاسيا يضرب لمجرد الشك ، وصل عدد ضحاياه حدا جاوز المعقول من كل الملل والاديان . وفي ايامه خيم الرعب والفزع عـــلى رعايـــاه القاصي منهم والداني ، ولم ينج من بطشه أحد .

ان سياسته غير المستقرة خلال ايام حكمه المديدة حيرت الافكـار لما جمعت من متناقضات . فعلى الرغم من تحليه ببعض الصفات الطيبـة الانسانية التي اجمع عليها المؤرخون فكانت تطغى عليـــه احيانا نزعـات شاذة وسلوك متجبر . والى جانب جوده وكثرة عطاياه للادباء واهل العلم والمعوزين من الرعية فكان لا يرحم بعضهم لهفوات بسيطة وكان يحاسبهم حسابا عسيرا . اما من الناحية الاخرى فلا ينكر عليه زهده بالمال وتعففه في اموال الرعية وشعوره الانساني احيانا . فقـــد اعتق فـــي احـدى المناسبات كافة العبيد عنده . وباختصار فيمكن القـول بان ايام الحاكم بأمر الله كانت اغرب فترة عرفت في كل التاريخ الفاطمي بمصر .

أما ما أسند اليه من تعذيب الذميين ـ واستشهد بعض المؤرخين بالمعاملة التي لقيها وزيره المسيحي فهد بن ابراهيم ـ فليس من الصواب تعليل ذلك بالتعصب الديني ضد المسيحيين في حـــالة ملك أو حاكم



يتصف بالصفات التي شرحناها والتي اجمع عليها مؤرخو زمانه . فلولا ثقة الخليفة به واعتماده عليه لما اسند اليه ذلك المنصب المرموق . وكيف اذن يمكن الربط بين التعصب المزعوم واسناد منصب رفيع لاحد الذميين؟ فيبدو ان محاولة تفسير أسباب حجب الخليفة ثقته بوزيره المسيحي وسجنه بالتعصب الديني انما هي محاولة لتغطية تقصير الوزير في استغلال نفوذه لمصلحته الشخصية . فالحاكم بأمر الله قتل من المسلمين العدد الكبير لمجرد الشبهة والشك في ولائهم له . كما وعامل بعضهم بأقسى وسائل الغدر والتنكيل . ثم فلنتبصر ، ألم يقتل هذه الخليفة اثنين من أوصيائه الثلاثة ، وهما برجوان الصقلبي والحسن بن عمار الكتامي ؟

لقد جاء في احدى الروايات المنقولة عن مصادر الكنيسة القبطية بالاسكندرية في تعليل كيفية اختفاء الحاكم بأمر الله في أواخر أيامه انه قد تنصر وظهر بعد اختفائه مترهبا في بعض الاديرة الصحراوية . فان صحت هذه الرواية فكيف يمكن اذن ادانته بالتعصب ضد المسيحية . ومهما يكن من أمر فان الايام الاخيرة لهذا الخليفة قد تميزت بكثير من الاحداث والتصرفات المتناقضة . وليس هذا هو المجال لسردها . بل لا بد من الاشارة الى ما تناقلته الروايات عن ادعائه الالوهية . وليس بخاف انه وصل مرتبة التقديس عند الطائفة الدرزية التي تعتبره الامام المنتظر أو « قائم الزمان » .

ان وجود رعايا مسلمين في الحبشة المسيحية ورعايا أقباط في مصر الاسلامية قد أوجد في كلا البلدين وضعا حساسا فريدا كانت معالجته تستدعي منتهى الحكمة والكياسة الدبلوماسية . فقد خلق هذا الوضع نوعا من التعاطف الديني بين حكام مصر ومسلمي الحبشة ، وشعورا مماثلا بين ملوك الحبشة وأقباط مصر . أو بتعبير أقرب الى الواقع كان كل من حكام هذين البلدين يشعر بمسؤولية أدبية لحماية مصالح أبناء دينه في البلد الآخر . وكثيرا ما كانت الخلافات حول بعض الامور أو التوتر في جو العلاقات السياسية بين البلدين أو بين حكام مصر والكنيسة المرقسية بالاسكندرية تنعكس مباشرة على طبيعة المعاملة التي يلقاها الاقباط في مصر والمسلمون في الحبشة على أيدي حكامهم . وظل هؤلاء الرعايا ينعمون تارة بالمعاملة الحسنة من قبل حكامهم أو يعرضون لافظع الاهانات والتنكيل تارة اخرى حسب سير العلاقات بين حكام البلدين .

ويبدو ان ليس من الطبيعي بل ولا من المعقول ان يرتجى الولاء الصادق من امثال هؤلاء الرعايا ولا الاخلاص نحو أسيادهم الحكام . وان بدا منهم ذلك فلغاية في نفس يعقوب . وفي مثل هذه الاحوال فحتى ولاؤهم لبلدهم يكون مشوبا لانه لم يكفل لهم الحياة الكريمة ولا القدر



المعقول من الضمان للعيش بأمان وحرية ومساواة .

وكثيرا ما كان ينعكس الخلاف بين حكام البلدين مثلا على تعيين المطارنة للكنيسة الحبشية . فمعلوم ان هؤلاء كانوا يعينون من ابرز الرهبان المصريين ، تختارهم كنيسة الاسكندرية . لكنه احيانا كانت تمر فترات طويلة والكنيسة الحبشية تفتقر الى مطران يرعى شؤونها الدينية بسبب رفض السلطات المصرية المصادقة على ايفاد المطران المرشح . وقد حدث ذلك اكثر من مرة ، كانت احداها أيام الخليفة الحاكم بأمر الله نظرا لسوء العلاقات بينه وبين بطريارك الاقباط في مصر .

وحدث مرة ان شحت مياه النيل واصبحت الحالة تهدد بمجاعة ماحقة بسبب اقامة بعض السدود في مجاري روافد النيل الازرق داخل الحبشة ــ وكان ذلك خلال حكم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله . فطلب الخليفة الى بطريارك الاسكندرية استخدام نفوذه لدى السلطات الحبشية لرفع أسباب الاذى ومنع حدوث كارثة محققة . فرفعت بعض السدود في أعالي النيل مما أدى الى ارتفاع مستوى مياه النهر عشرة أقدام في يوم واحد وزالت المشكلة .

وفي مناسبة اخرى يقال ان وزير الخليفة في مصر شاء استخدام نفوذه الشخصي مع مطران مصري عين حديثا للعمل في الحبشة . فأوصاه خيرا بالمسلمين هناك وناشده بالسماح لهم ببناء المساجد . فلم يتردد المطران الجديد من تلبية طلب الوزير المصري بعد وصوله الى الحبشة . الا ان جزاء المطران عن عمله الانساني كان غضب الملك عليه وسجنه . وكان نصيب المساجد التهديم والتخريب . وعلى هذا المنوال ظلت العلاقات بين الحبشة والممالك الاسلامية تتسم أحيانا بروح التعاون والتساهل الديني وأحيانا تأخذ شكلا آخر طابعه الجفاء والعداء السافر. وعلى سبيل المثال نذكر انه في ايام الحكم المماليكي في مصر ــ وعلى عهد السلطان الناصر بن محمد قلاوون بالذات ــ فقد اشتكى الاقباط من سوء المعاملة وتدمير بعض الكنائس . فما كان من ملك الحبشة (٢) الا وأرسل وفدا الى القاهرة يطالب السلطان باعادة بناء الكنائس ومعاملة الاقباط بالحسنى . وهدد بتحويل مجرى النيل الازرق وتجويع مصر كما هدد بمعاملة المسلمين من رعاياه بالمثل .

وعلى النقيض مما لاقاه المسلمون وغير المسلمين من سوء المعاملة والتنكيل والتقتيل ايام الحاكم بأمر الله الفاطمي ، يلاحظ المتتبع لتاريخ الدول الاسلامية امثلة رائعة في التسامح وحسن المعاملة لغير المسلمين. فعلى عهد السلطان صلاح الدين الايوبي مثلا يتجلى مثل من أروع الامثلة للكرم والعفو عند المقدرة ، وذلك بعد أن سقطت بيده بيت المقدس

---

٢ ــ كان ملك الحبشة آنذاك عمدا سيون .



وانقذها من الصليبيين سنة ١١٨٧ ميلادية . فقد سمح للمسيحيين الشاميين واليونانيين بالبقاء في المدينة كرعايا للدولة . اما بالنسبة للافرنج ففرض عليهم فدية معينة لقاء خروجهم من المدينة . الا انه بالغ في اكرام البطريارك اذ سمح له بمغادرة المدينة ومعه كل اموال الكنائس وخزائنها . كما شمل بكرم اخلاقه ملكة بيت المقدس التي هي الاخرى سمح لها بمغادرة المدينة مع حاشيتها وأموالها ومتاعها .

ويكفي للدلالة على شهامة هذا السلطان ونبله في معاملة الاعداء والاسرى ان ننقل فقرات من كتاب للمؤرخ الانكليزي رنسمان Runciman وهو أحد مؤرخي فترة الحروب الصليبية اذ قال في كتابه ــ تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثاني ــ عند بحثه عن سقوط بيت المقدس وعن موقف صلاح الدين وجيشه من سكان المدينة :

« كان المنتصرون معقولين وانسانيين ، فبينما خاض الافرنج عند استيلائهم على المدينة قبل ثمانية وثمانين عاما في دماء ضحاياهم نجد في هذه المرة انه ما من بناء وما من انسان أصابه أذى . وتنفيذا لاوامر صلاح الدين انبث الحراس يخفرون الطرق والابواب ويمنعون أي اعتداء قد يصيب المسيحيين » (٣) .

وقال في نفس الصحيفة : ــ

« وتقدم نساء الافرنج اللائي افتدين أنفسهن الى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن وسألنه باسترحام أين يستطعن الذهاب فقد قتل أزواجهن أو آباؤهن أو وقعوا في الاسر . فكان جواب صلاح الدين ان وعدهن بأن يطلق سراح كل زوج أسير . أما الارامل واليتامى فقد أعطى كلا منهم منحة تتناسب مع مكانتهم من حر ماله . لقد كان عطفه وعفوه مباينا مباينة واضحة لافعال المسيحيين الغزاة في الحملة الصليبية الاولى » (٤) .

نعود الآن الى مصر لنتبين موقف صلاح الدين من أقباط الحبشة . انه لم يكن أقل تسامحا ولا أدنى كرما من موقفه مع الصليبيين . يقول تريمنغهام (٥) في كتابه بالانكليزية ــ الاسلام في اثيوبيا ــ نقلا عن مصدر يوناني ان صلاح الدين بعد أن تم له احتلال بيت المقدس ، استجاب لرجاء من ملك الحبشة (وكان من ملوك قبيلة أغاو Agaw) بالحفاظ على معبد اكتشاف الصليب في كنيسة المهد في بيت لحم للاحباش . فكان لهم ما أرادوا ولم يمسهم أحد بسوء . ومنذ ذلك العهد والاحباش ينعمون

---

٣ ــ هذه ترجمة منقولة من كتاب تاريخ مصر الاسلامية للدكتور جمال الدين الشيال الجزء الثاني ص ٧٣ ــ ٧٥ .

٤ ــ المصدر نفسه . صحيفة ٧٥ .

5 — Islam in Ethiopia, by S. Trimingham — page 56.



كما هو معروف بحرية دينية كاملة في كافة عهود الدول الاسلامية التي سيطرت على بيت المقدس . والدير الحبشي المعروف هنـــاك ب « دير السلطان » يحكي قصة التســـــامح الاسلامي وحرية الاديان للجميع . والدير انما سمي بهذا الاسم نسبة الى السلطـــان صلاح الدين الايوبي تخليدا لتسامحه .

٣ ـ قبائل (أغاو ـ Agaw) تغتصب الحكم

لما بدأ الضعف ينخر في صميم هـــذه المملكة الجبلية وأخذ ظل شوكتها بالتقلص تدريجا ، نشطت الحزازات القبلية ودسائس الطامعين في الحكم والمتعطشين الى السلطة حتى أصبح نفوذ الملك وسلطانه فـي بعض الاحوال لا يتجاوزان أسوار قلعته . وفي خضم هذا الصراع الخفي حينا والعلني أحايين اخرى وثبت الى الحـــكم أسرة معروفـة باسم (زاغوي Zagwe) المنتمية الى قبيلة (أغاو Agaw) ، احدى أقـوى قبائـــل الهضبة العريقة التي عرفت باعتزازها بوثنيتهـــا ومقاومتها للنصرانية أجيالا عديدة . كما خاضت حروبا شرسة مع الاسرةالسليمانية لتعزيز مكانتها بين القبائل . وهذه هي المرة الاولى التي تمكنت فيهـــا قبيلة من خارج الاسرة السليمانية من ازاحة العائلة المالكة الشرعية عن عرش البلاد والتربع مكانها على دست الحكم . حدث ذلك سنة ١١٣٧ ميلادية . واحتفظت هذه الاسرة الجديدة بالعرش وهيمنت على البـلاد قرابة مائة وخمسين سنة . وخلال هذه الفترة ظهر منهم ملوك احتلوا الصدارة في التاريخ الحبشي لما قاموا به من جلائل الاعمال وما خلفوه وراءهم من آثار عمرانية ما زالت قائمة .

وباغتصاب الحكم من السلالة السليمانية على هـــذا النحو تبدأ مرحلة تحول في القوى السياسية التقليدية . اذ بهذا الانقلاب المباغت انتقلت السلطة والهيمنـــة على شؤون البلاد من الاحبـــاش العريقين بالنصرانية ، المنصهرين بالحضارة السامية ، الوارثين الاصليين لتراث مملكة اكسوم المقدسة الى قبيلة اغاو التي عرفت بمناوأتها لهذا التراث كما كانت معروفة بحداثة عهدها بالنصرانية . وكانت مصالح الكنيســة القبطية قد ارتبطت منذ القدم بمصالح ملوك السلالة السليمانية ـ فقد كانوا حماتها ـ بأوثق الروابط ، ورعوها وصانوا حرمتها بحد السيف . وهي بدورها أضفت عليهم هالة من القدسية بسبب انحدارهم من الملك سليمان . ولذلك فقد تلكأت بالاعتراف بشرعية الاسرة الجديدة المغتصبة وبمنحها بركتها وتأييدها في بادىء الامر . والكنيسة القبطيـة كما هو معروف تتمتع بنفوذ عميق بين الاهالي والحكام على السواء . ولكن هذا التوتر الذي ساد العلاقات بين الاغويين والكنيسة فترة طويلة جلب على



البلاد نكسة في الصميم كانت هي في غنى عنها في ظروفها العصيبة .

واستمرت العلاقات بين الكنيسة وملوك اسرة زاغوي تتدهور من سيء الى اسوأ بمرور الايام حتى انعكس ذلك على العلاقات بين هؤلاء الملوك وبطرياركية الكنيسة القبطية بالاسكندرية . فقد عزم اول ملوك هذه الاسرة الجديدة على تنحية المطران (ابونا ميخائيل) عن رئاسة الكنيسة متذرعا بكبر سنه ـ والواقع هو بسبب معارضته لحكم الاغويين ـ فارسل الى بطريارك الاسكندرية (٦) وفدا يطلب منه ان يعين مطرانا لكي يخلف (ابونا ميخائيل) . فرفض البطريارك الطلب لمخالفته النظام الكنائسي الذي لا يجيز تعيين مطران جديد ما دام الاول على قيد الحياة . فلما احيط الملك علما بموقف البطريارك تملكه الغضب فاعاد الكرة عن طريق وزير الخليفة بالقاهرة هذه المرة ، اذ آنس فيه النفوذ والسيطرة على شؤون البلاد ورجا منه ممارسة الضغط على البطريارك لحمله على عزل المطران واستبداله بغيره . فلما اصر البطريارك على موقفه المتعند للمرة الثانية عمد الوزير الى سجنه ارضاء لملك الحبشة .

فلما لم يتمكن الملوك الجدد من النيل من نفوذ الكنيسة ، نهجوا على سياسة افضل وهي التفاهم ، فعادت الكنيسة الى مساندة العرش وبدات مرحلة ثقة متبادلة بين الطرفين . حتى ان بعض ملوك هذه الاسرة ، بعد اطمئنانهم لمساندة الكنيسة لهم اخذوا بدورهم يغدقون الاموال على الكنيسة ويقتطعون الاراضي الزراعية لها كما كان يفعل الملوك الاولون من قبلهم . وذهبوا الى ابعد من ذلك فراحوا يشيدون الكنائس في القرى والاديرة في الارياف . لقد عرف عن ايطاليا انها بلد الكنائس والاديرة . ولكن الحبشة لمن يعرفها لا تقل شأنا عن ايطاليا في هذا المضمار . فالكنائس يشاهدها الانسان في كل قرية او مجموعة سكنية . وصوامع الرهبان يجدها الزائر في كل منعطف جبلي تقريبا .

ولقد بالغ بعض ملوك هذه الاسرة في العطف والانعام على الكنيسة لدرجة اوصلتهم الى مراتب القديسين امثال الملك لالبيلا الذي اقترن اسمه الى اليوم بالكنائس المنحوتة داخل الجبال ـ كنائس لالبيلا .

٤ ـ المسيحية والاسلام في صراع تاريخي

بحلول القرن الثالث عشر اخذت الممالك الاسلامية النامية تنافس الاحباش في عقر دارهم ـ في الهضبة وتضيق عليهم الخناق بحكم توسعهم الجارف الذي استمر على حدته وضراوته حتى القرن السادس عشر . وقاوم ملوك الاحباش هذا التوسع بكل قوة وشراسة ودافعوا عن البلاد دفاعا مستميتا . كيف لا وقد اصبح تغلغل هذه الممالك المعادية في

---

٦ ـ البطريارك حنا ـ (١١٤٨ ـ ١١٦٧) .



هضبتهم يقض مضاجعهم ويقلقهم وخاصة اندفاع الغزاة نحو قلب الهضبة وتركيزهم الضغط على القسم الجنوبي من اقليم شوا - اي منطقتي بالي Bale وعروسي Arusi . وهنا استحكم دفاع الاحباش وازدادوا ثباتا ، بل واخذوا زمام المبادأة احيانا ، وخاصة عندما ارتقى العرش الملك زرع يعقوب . ولكن المسلمين كانوا يختارون الاوقات لهجماتهم عندما يكون الاحباش في اشد حالات الضعف والوهن - ايام الصيام الطويلة .

ارتقى زرع يعقوب العرش سنة ١٤٣٤ وكان شابا طائشا قضى معظم ايامه في اللهو ومعاقرة الخمرة والابتعاد عن المسؤولية . فعمت الفوضى في اوائل ايام حكمه . فلقد كان هذا الشاب سجينا طوال الفترة التي سبقت تنصيبه ملكا . وكانت كما اشرنا سابقا عادة زج الامراء في السجون والمعاقل الجبلية من الامور المألوفة عند الاحباش . فلما جيء به من معتقله وولى زمام الحكم بصورة غير متوقعة ذعر واصيب بخيبة امل كبيرة . فلم يحسن الالمام بشؤون البلاد واوضاعها ومشاكلها . ولم يدر بخلده ان هذه المملكة كانت ترزح تحت شتى الازمات والثورات القبلية الى جانب حروبها مع الاعداء . والانكى من ذلك انه جابه الكنيسة وهي تتخبط في الدسائس والحزازات الشخصية داخل صفوفها .

الا ان هذا الملك الشاب برهن بعد فترة قصيرة على انه من احنك الرجال في الملمات والمحن . وفي عهده توقف الزحف الاسلامي في المرتفعات . وليس ذلك فحسب بل تمكنت القوات الحبشية من استرجاع اجزاء كثيرة كان المسلمون قد اخضعوها لسلطانهم . عندئذ استعادت الحبشة قسطا وافرا من هيبتها ونفوذها بين القبائل والاصقاع النائية ، بل وبدأت تتململ لاكتساح الممالك الاسلامية التي باتت تهدد الهضبة . وصار الملك زرع يعقوب يسعى سعيا حثيثا لتوحيد صفوف الاحباش في مختلف الاقاليم . وكان النجاح حليفه في مجهوده هذا . ولذلك سجل تاريخ الحبشة اسمه بين اعاظم رجالها وحماة تراثها الذين دافعوا عن البلاد وصانوا المسيحية في فترة من اصعب فترات مجابهتهم مع الاسلام .

وبحلول القرن الخامس عشر اخذ الخطر يتفاقم من جديد والاحباش لا حول لهم ولا قوة لصد تيار الاسلام العارم الذي اخذت تتدفق عليه النجدات من كل مكان باسم الدين . وكان اقوى التيارات الغازية في هذه المرحلة هو ذلك التيار الذي اندفع من مملكة (او امارة) عدل التي اندمجت فيما بعد بمملكة ايفات واصبحتا قوة لا تقهر . غير ان عقلاء الاحباش لم يجدوا بدا من مهادنة المسلمين عن طريق التفاوض حقنا للدماء . ومن الذين استجابوا لهذه الفكرة الامبراطورة هيلينا . وهيلينا هذه كانت ابنة زعيم قبيلة مسلم ، من القبائل القاطنة على الحدود



جنوبي اقليم شوا . ولكنها لما وصلت الى سن الشيخوخة زهدت في الحكم واكتفت بان تكون وصية على احد الملوك في صباه وهو الملك ليبنا دينقل Lebna Denghel في اوائل القرن السادس عشر . وكانت ابان عزها وعظمتها هي التي اوصت باستعمال القوة مع خصومها. واستنجدت بالبرتغاليين الذين كانوا المنافسين الوحيدين للاتراك في البحر الاحمر وقتئذ . ولبى البرتغاليون النداء الا ان القوة الرمزية التي سيروها وصلت متأخرة ، كما سيجيء ذكره فيما بعد .

الا ان احداث التاريخ اثبتت ان الاحباش كانوا على صلة تامة ببعض الدول الاوروبية . حتى ان اتصالاتها انطوت على الدخول معها في مواثيق وعهود ضمنت نصرة الاوروبيين لها عند الحاجة . من هذه الدول كانت البرتغال واسبانيا والبابوية في روما . ومما هو ثابت ايضا ان الحبشة اوفدت ممثلين عنها لحضور مؤتمر فلورنسا بايطاليا (١٤٣٩ ـ ١٤٤١) الذي استهدف توحيد كلمة المسيحيين في اوروبا وتناسي الخلافات بين الكنيسة الغربية في روما والكنيسة الشرقية في القسطنطينية لمواجهة الخطر الاسلامي الذي بات يهدد اوروبا على ايدي الاتراك العثمانيين .

من هذا نخرج بحقيقة جلية هي ان الحبشة دخلت الان في صراع سافر مع الاسلام ، شجعت على اذكاء جذوته الحروب الصليبية التي خلفت وراءها تعصبا دينيا نتجت عنه كوارث محزنة لا حدود لاهوالها فيما بعد في كافة اقطار الشرق الاوسط . فلم يكن الهدف من هذه الحروب التي جردتها اوروبا احتلال بيت المقدس فحسب بل الهدف الرئيسي منها كان يتوخى سحق الممالك الاسلامية في اسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر ، بل وحتى الحجاز عن طريق التعاون مع الحبشة . الا ان الحبشة لم تتمكن من المساهمة في هذه الحروب كما كان متوقعا . فقد افترضت ستراتيجيتها ان تتقدم وتطبق على هذه البلاد من الجنوب فتحتل مصر بمعاونة مملكة النوبة . ولكن منعها عن مشاركتها بالحرب انشغالها بمشاكلها الداخلية ومناوشاتها مع جيوش المسلمين الصاعدة من حولها والتي شكلت خطرا مباشرا لمصالحها .

الامام احمد بن ابراهيم

كاد الربع الاول من القرن السادس عشر يوشك ان ينتهي والاحباش لم يسيطروا سوى على المرتفعات من بلادهم فقط . الا انه بحلول سنة ١٥٢٨ اصبحت حتى المرتفعات مهددة بالغزو تحت الضغط العسكري الشامل من مملكة عدل ـ ايفات التي اعدت العدة لحرب حاسمة . وفي هذه السنة بدت طلائع العاصفة تتجمع حول العلاقات الحبشية الاسلامية وسرعان ما حشد المسلمون الجيوش التي ضمت الكثير من المتطوعين من



قبائل الدناقلة وعفروساهو والصوماليين باسم الجهاد . وبعين الوقت فقد أمدهم الاتراك العثمانيون بالاسلحة الحديثة . ومعلوم ان الاتراك في هذه المرحلة اخذوا يبسطون سيطرتهم على اليمن ومضيق باب المندب وعلى سواحل البحر الاحمر بعد تأسيسهم اسطولا يستند على قاعدة ميناء زيلع في خليج عدن .

وانطلقت هذه القوات المجاهدة من معقلها الرئيسي في مدينة هرار بقيادة امير البلاد الامام احمد بن ابراهيم الملقب بالغازي (٧) . كان الهدف الرئيسي للحملة هو احراز نصر كاسح يشمل الحبشة بأسرها ، اذ كانت يومئذ في اشد حالات اضطرابها ووهنها بسبب تزايد الاضطرابات القبلية في الداخل وتصاعد غارات المسلمين من الخارج . فهزم الامبراطور ليبنا دينفل سنة ١٥٢٩ واخذ يتنقل من ملجأ لآخر وقوات الغازي تطارده وتضيق عليه الخناق . واستمرت بزحفها حتى سقطت بيدها (داوارو) واقليم شوا سنة ١٥٣١ . ثم تداعت بعدها اقاليم (امهارا) و (لاستا) سنة ١٥٣٣ . وبنفس الفترة استسلمت (بالي) و (هدية) و (غوراج) و (سيدامو) في الجنوب .

اما جناح الغازي الذي اتجه شمالا فاحتل سنة ١٥٣٤ اقليم (تيغره) الوعر المسالك على الرغم من مجابهته مقاومة عنيفة من القبائل التيغرية المحاربة الشرسة وتكبده خسائر مادية وبشرية بالغة . غير ان هذا الجناح استطاع الوصول الى الساحل . ومن الناحية الشمالية الغربية توغل داخل الاراضي المنخفضة وحقق تماسا مع سلطان (مزاغة) المسلم في منطقة ناكا (كسلة) بالسودان .

اما احتلال الجناح الشمالي للاقليمين (بيغامدير) و (غوجام) في الشمال الغربي فلم يصادف اية مقاومة تذكر . وبذا تم للغازي احتلال الحبشة بأكملها تقريبا . وعند ذلك نقل مقر قيادته الى موقع بالقرب من بحيرة تانا في الشمال الغربي من الهضبة . ولو قدّر لهذه الحملة العسكرية الخاطفة استثمار النصر بوجه كامل لكان بذلك نهاية الحبشة.

تحتل هذه الحرب المباغتة الشاملة زاوية مهمة في التاريخ الحبشي لانها استهدفت تقويض كيان الحبشة وضربها بالصميم . وكانت ضربة موجعة شملت آلامها واهوالها ليس خطوط النار فحسب بل والمؤخرة ايضا . فكان من عادة الجيوش المنتصرة في تلك العصور ان توقع الخراب والدمار في القرى والمزارع وكانت مؤخرة الجيوش المنتصرة هي التي تستأثر بهذه الاعمال البربرية وتعبث وتنهب كما تشاء . ومن شدة اهوال هذه الحرب واليأس الذي استولى على السكان فقد اعلن الكثير

---

٧ ـ احمد بن ابراهيم الملقب بالغازي (١٥٠٦ ـ ١٥٤٣) ويلقبه الاحباش (غران ـ) اي الاشول وهو امير ايفات وعدل .



منهم اسلامهم ابتغاء النجاة بارواحهم ، ولـو ان اخرين منهم آثروا الموت وهم على دينهم .

مضت عدة سنوات بعد ان كتب النصر لجيوش المسلمين وقد بـدا وكأن الامور آلت للامام احمد وانه اصبح سيد الموقف فـوق الهضبة ، لا ينازعه فيها منازع وقد دانت له بالولاء كافة القبائل تقريبـا . ومن الناحية العملية فيمكن القول دونما مغالاة بان الامام احمد قد قضى على مقاومة خصمه عسكريا ـ هكذا كان يبدو ظاهرا وفي واقع الحال .

الا ان الامام احمد كقائد عسكري غلبت عليـه نشوة النصر فارتكب خطأ فظيعا بتسريحه قوات المتطوعين وبعض كتائب فرسانه واعادته الـى الاتراك بعض الاسلحة والمدافع التـي جهزوا حملته بهـا . فلما شعر الاحباش بالتخفيف الذي طرأ على قوات المسلمين اخـذوا يلمون شعث جيوشهم المنهزمة وتوحيد الصفوف مجددا . ومن ناحية اخرى استأنفوا الاتصال بالدول الاوروبية سرا لنجدتهم مـن عدو مشترك وكان تجاوب القبائل الحبشية بصدد توحيد الصفوف مجددا تجاوبا سريعـا وايجابيا لمحو اثار الخسائر التي منوا بها . ومما ساعد على احياء روح الوحدة بين الاحباش هو ان خصمهم اصبح جاثما في قلب بلادهم وان ضياع مملكتهم العتيدة قد اصبح على قاب قوسين او ادنى . فاخذوا يعدون العدة فـي الخفاء لاستئناف القتال بعد وصول النجدات من الخارج دون ان يشعر الامام احمد بما كانوا يبيتون له خلف خطوط المواجهة . وفي الوقت ذاته توافدت رسلهم الى البلاد الاوروبية مستصرخين الضمير العالمـي لنصرة الدولة المسيحية الوحيدة في افريقيا التـي كانت « محاطة ببحر مـن المسلمين والقبائل الوثنية » .

عودة السيادة الي الاحباش

لما كانت البرتغال اقرب دولة اوروبية باستطاعتها انقـاذ الحبشة عسكريا نظرا لقوتها الحربية ولكونها اصبحت سيدة البحار عهدئذ ، فلم تتردد في تلبية النداء فجهزت قـوة قـدرت بحوالي اربعمائة وخمسين فارسا انزلتهم في ميناء مصوع سنة ١٥٤١ بامرة القـائد كريستوفورو دي غاما (٨) . عندئذ تضافرت قبائل اقليم شوا من جهة الجنوب واقليم تيغره وتوابعه من الشمال يساندها الفرسان البرتغاليون بعد ان اجمعت المعسكرات الثلاثة على خطة واحدة مبيتة . وتحركت القوات بوقت واحد وداهمت عساكر الامام احمد على حين غفلة واطبقت عليهم بحزم وعناد. فلم يعد بامكان الامام جمع شتات عساكره التي تفرقت في ارجاء مملكته

---

٨ ـ هذا القائد هو ابن الرحالة والمكتشف البرتغالي الشهير فاسكو دي غاما .



المترامية الاطراف. وبناء على امتداد طرق مواصلاته الطويلة فقد استحال على قواعد تموينه ايصال الامدادات اللازمة في الظرف المناسب ، خاصة المساعدات التركية من قواعدها على البحر الاحمر .

ولكن على الرغم من كل الظروف المعاكسة وضخامة القوات الحبشية والبرتغالية التي باغتته هذه المرة فقد صمد الامام وثبتت قواته بوجه الجيوش المهاجمة التي كانت تخوض حرب حياة او ممات . الا ان المنية عاجلته فاستشهد في ساحة الوغي بالقرب من بحيرة تانا عام ١٥٤٢ . فسجل هذا التاريخ نهاية سلطانه في الهضبة العتيدة وتفرقت جموعه واتباعه وعادت السيادة الى الاحباش . وبمقتل الامام احمد تنفست الحبشة الصعداء اذ تخلصت من خصم بطل جبار . واعتبرت هذا اليوم من ابهج ايامها الوطنية الخالدة الذي دخل في سجل مفاخرها وانتصاراتها ضد الغزاة . واليوم تدرس مواقع هذه الحرب في التاريخ الاثيوبي العام . ولا يوجد طفل بلغ مرحلة الادراك لا يعرف اسم احمد ابراهيم (الذي يلقبه الاحباش احمد غران) . ولو قدر للقارىء ان يسأل اي طالب مدرسة ابتدائية عن ابرز اعداء اثيوبيا لاجاب في الحال : العدو رقم ١ هو احمد غران ورقم ٢ الملكة جوديث التي اشتهرت باحراقها الكنائس .

وحروب الامام احمد هي من المعالم العملاقة في التاريخ الحبشي . فهي الى جانب اكتسابها صفة الحروب الواسعة المدوخة فأنها في الوقت ذاته تعكس صلابة المقاتلين الاحباش وقوة عزيمتهم وقابلياتهم الحربية التي برهنت على جدارتها لا في الحروب السابقة فحسب بل في الحروب المتأخرة كما سنرى فيما بعد . ولولا صفات الاحباش هذه لكانت خاتمة اثيوبيا على ايدي جيوش الامام احمد ابراهيم الغازي .

اما عن مصير الفرسان البرتغاليين ، فتفيد الروايات الحبشية انه بعد ان وضعت الحرب اوزارها فان عددا منهم قد رجعوا الى ديارهم . واما الباقون فقد وضعهم الاحباش موضع تقدير واكبار يليق بالابطال المنقذين وقد تزوجوا من اكرم سيدات الطبقة الرفيعة بالبلاد وانصهروا تدريجا بتقاليدها .

اما المسلمون ، فبعد الكارثة التي حلت بجيوشهم ودمرتها ، فقد تجمعت بقايا قوات فرسانهم مجددا في مدينة هرار — وهي من قواعدهم الحربية الرئيسية — ملتفين حول ارملة الامام بعد ان عقدوا العزم على القيام بجولة ثانية لاستعادة مجد هذه المملكة الفتية . وانتخبوا نور ابن الوزيد مجاهد — وهو ابن اخت الامام احمد — اميرا عليهم سنة ١٥٥١ ميلادية . فاخذ الامير الجديد على عاتقه اعادة تنظيم القوات المحاربة واعداد التجهيزات والمؤن اللازمة للمجابهة القادمة ، وجعل هدفه الرئيسي اعادة احتلال الجزء الشرقي من اقليم شوا الذي ازدهرت على



ربوعه مملكة ايفات . الا انه قبل ان يتورط باية معركة جديدة مع العدو اعد العدة لتحصين مدينة هرار التـــي كانت مكشوفة ومعرضة للغارات الخارجية . فبنى سورا حصينا حولها ما زالت اثاره قائمة حتى اليوم . وقد نقشت فوق بواباته الآيات القرآنية الكريمة . وجرت العادة ان تطلى جدران السور باللون الابيض الناصع . وما زال سكان هرار عـــلى هذه العادة الى الان . فيبدو السور ناصعا للقادم الى المدينة من مسافة بعيدة وهو نقطتها الدالة بين الاحراج الكثيفة المحيطة بها .

تهيأ الامير نور للحرب وجرت اولى المناوشات بينه وبين الاحباش فكانت فاشلة ولصالحهم . حتى انهم تمكنوا من الاغارة على هرار ونهبها وقتل الكثيرين من الاهالي ، بعد ان ابيحت لجنودهم الذين عاثـوا فيها فسادا . الا ان الامير اعاد الكرة فحمل على الاحباش حمـــلة مستميت بكل قواه ولم يغمد سيفه حتى قتـــل الملـك غلوديوس Geladewos وحمل راسه الى ارملة خاله (الامام احمد) سنة ١٥٥٩ . وكان قد اشيع في وقت سابق انها قد اوعدته بالزواج منه ان هو استطاع ارجاع ملـك خاله الضائع في اقليم شوا والمرتفعات الاخرى . لكـن الظروف لـم تكن مؤاتية لتحقيق هذا الحلم . فقد قويت شوكة القوات الحبشية ونظمـوا صفوفهم استعدادا للدفاع عن الهضبة بأي ثمن .

ولذلك فقد كانت الانتصارات التي حققها ضد الاحباش مبدئيا كلها موضعية ولم تحقق هدفا عسكريا . ولا غرو فقد انهكت الحروب الطويلة هذه المملكة المحدودة الموارد واستنزفت كافة مدخرات خزائنها . والحق يقال فقد افل نجمها بعد فقدان قائدها وحامـــي حماها ـ الامام احمد ابراهيم الغازي .

اما الامير نور فقد توفي اثر اصابته بالطاعون سنة ١٥٦٧ وخلفـه احد عبيده المتنفذين المدعو عثمان الذي بدوره اتخـــذ لقب امير لنفسه فخاصمته القبائل وبقايا القوات المسلحة . وكانت هـــذه بداية مرحلة طغت عليها الفوضى والمنازعات القبلية حول الامرة والزعامة . ومن هنـا انفصمت عرى وحدتهم التي حققت لهم الانتصارات والامجاد فيما سبق. وعثمان هذا خاض عدة معارك مع الاحباش ، اخرها كانت معركـة جرت سنة ١٥٧٧ على نهر ويبي Webi فهزم فيها وأسر ثم اعدم مـع البقية الباقية من اعيان المسلمين في هرار .

وبعد النكسة العسكرية التي حلت بهرار على النحو الذي شهدناه اخذت قبائل غالا Galla الرحل الاشداء يشنون غارات عـلى الاحباش والمسلمين على السواء . وقد سبق ان ذكرنا في فصل سابق غزو هـذه القبائل للحبشة في القرن السادس عشر . وهذا مـا دفع بالامام محمد ـ وهو احد افراد عائلة الامام احمد ـ الى نقل مقر سلطنته الـــى واحة عوسة Ausa في صحراء الدناقل المحرقة ، تاركـــا رئاسة مدينة هرار



الى اخيه سنة ١٥٧٧ ولقبه بالوزير. الا ان الامامة لم تكن بمنجاة من القبائل المغيرة حتى في مقرها الجديد وسط صحراء اشبه بجهنم . وتوالت النكبات عليها من القبائل المحيطة بها فاضمحلت وعفا اثرها بعد مقتل الامام محمد سنة ١٥٨٣ .

وفي هذه الفترة هاجمت بعض القبائل الصومالية ميناء زيلع وعبثت به نهبا وسلبا . ومنذ سنة ١٦٣٠ اصبح ميناء زيلع تحت حماية شرفاء (مخا) في اليمن .

وهكذا انتهى تاريخ اعظم واقوى دولة اسلامية قامت في شمالي شرق افريقية. عرفت في بادىء الامر بمملكة ايفات وكان مقرها في الجزء الشرقي من اقليم شوا ثم اندمجت مع مملكة (او امارة) عدل التي كان مقرها في زيلع ، واخيرا في هرار قبل ان تطمس معالمها في صحراء الدناقل ولم يعد احد يسمع عن افراد اسرة الامام بعد سنة ١٦٧٢ .

٥ ـ مشاكل الكنيسة والارساليات التبشيرية

من الامور المهمة التي شغلت بال الاحباش فترة غير قصيرة من الزمن وهم يواجهون تحديات الغزاة لاحتلال بلادهم ، مشاكل الكنيسة المتعددة . فمنها ما كان داخليا ومنها ما كان ناشئا عن ارتباط كنيستهم ببطرياركية الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ومنها ما كان يتعلق مباشرة بمجيء الارساليات التبشيرية واهدافها ونواياها التي كان يتشكك فيها الاحباش .

ففي الوقت الذي ازداد فيه خطر الاسلام على حدود الحبشة وقويت شوكة المسلمين ورفرفت راياتهم على الساحل الافريقي وتناثرت ممالكهم حول الهضبة بل وفي عقر دارها ، كانت الكنيسة الحبشية تتخبط وسط صراع ومشاكل كهنوتية داخلية من ناحية ، ومع نصيرتهم وحامية حماهم الكنيسة القبطية المرقسية بالاسكندرية من ناحية اخرى . فقد كانت تمر فترات طويلة احيانا والحبشة ليس فيها مطران يرأس كنيستها . فكانت النتيجة ان تتكدس الاعمال وما له مساس بتمشية امور الناس الدينية والمادية وكان ذلك بدوره يؤدي الى اضطراب العلاقات بين مختلف المراتب الاكليروسية في اداء واجباتهم الكنسية .

يحكى ان وفدا كنائسيا قدم من الحبشة الى الاسكندرية ايام البطريارك جبرائيل الثاني طالبا المزيد من المطارنة لكي لا تتوقف امور الناس الدينية . الا ان موقف كنيسة الاسكندرية من هذا الطلب لم يكن مشجعا بل كان طابع التردد والمماطلة غالبا عليه . فيبدو ان موقف الاسكندرية هذا كان سببه خشيتها من ان يؤدي تزايد عدد المطارنة في الحبشة يوما الى انفصالها عنها واستقلالها بامورها وهي تريد ان تبقي الحبشة تابعا من اتباعها . الا ان الاحباش فطنوا الى ذلك واخذوا يظهرون



استياءهم علنا لتاخير الاسكندرية امورهم الحيوية لاسباب اعتبرها الاحباش تافهة . واعتبروا هذه السياسة تدخلا مشينا بامورهم الحيوية الى ابعد الحدود . وكثيرا ما فكروا في فك ارتباطهم بالاسكندرية واستقلالهم عنها . وفعلا جرت محاولة في القرن العاشر استهدفت فك الارتباط الا ان اختلافات داخل الكنيسة الحبشية حالت دون ذلك . ولكن بذرة الانفصال قد بذرت على كل حال . والاهم هو ان الكنيسة الحبشية لم تطو الصفحة عن الموضوع ـ موضوع خلافها مع الاسكندرية ـ بصورة نهائية بل انها وجهت عتابا وتقريعا لبطريارك الاسكندرية عن طريق ملك النوبة ضمنته شكواها المرة من اهمال كنيسة الاسكندرية مصالح الاحباش الدينية .

ثم جاءت النكسة الكبرى عندما حاول المبشرون الجزويت تحويل المملكة عن المذهب الارثوذكسي القبطي الى المذهب الكاثوليكي الروماني . وبداية القصة هي ان الحبشة استنجدت بالدول المسيحية لمساعدتها في صد الخطر الاسلامي الزاحف . الا ان المساعدات العسكرية تعطلت وسبقتها الى الميدان بعثات تبشيرية ، الغرض الظاهر منها هو تعميم الثقافة العامة وتحسين الصحة ورفع المستوى الاجتماعي والاخلاقي وفق مبادىء الدين المسيحي . اما الحقيقة المبطنة فهي التبشير بكل قواهم للمذهب الكاثوليكي . غير ان اقوى البعثات تنظيما وابلغها اثرا كانت تلك البعثة التي تزعمها (الاب بايز Perdo Paez) الذي مكث في الحبشة قرابة عشرين سنة ، قام خلالها بتشييد عدد من الكنائس وقصور الملوك والابنية العامة والحمامات .

وفي سنة ١٦٠٣ استطاع المبشرون من اقناع الملك (دنغل Denghel نبذ مذهبه الارثوذكسي وقبول المذهب الكاثوليكي . لكن معارضة صاخبة قامت على الفور بوجهه على ايدي النبلاء فنحى عن العرش . ثم اعقبت هذه الحادثة محاولة اخرى افظع من الاولى . فقد تمكن الاب (الفونسو ميندز Alphonso Mendez) الذي خلف الاب بايز سنة ١٦٢٦ من التأثير كليا على الملك (سوزنيوس Susneyos) (١٦٠٧ ـ ١٦٣٢) لا بقبول المذهب الكاثوليكي فحسب بل باصدار تشريع استهدف جعل المذهب الكاثوليكي المذهب الرسمي للدولة ـ وبطبيعة الحال الكنيسة الحبشية ايضا . وهنا ثارت ثائرة الكنيسة القبطية ورجال الدين والرعاع والنبلاء على السواء بوجه هذا الخطر الداهم . وتبعتها اضطرابات سفكت فيها دماء غزيرة . فلم يجد الملك ازاء هذه الثورة العارمة مندوحة عن التخلي عن العرش لولده (فاسيليداس Fasilidas ١٦٣٢ ـ ١٦٦٧) واعتبروه خائنا لدينه ووطنه .

وقد عرف عن الاب منذ اندفاعه العاطفي وتهوره في تصريف الامور دون روية وتعقل . فقد غرر بالملك واقترح عليه أصدار تشريع



عاجل لاحداث تغييرات جذرية في اصول الدين وطقوسه المرعية . الا ان الثورة التي قامت بوجهه احبطت كل محاولات الاب مندز الفاشلة . امـا التشريع المقترح فكان يرمي الى اجراء ما يلي :

١ ـ اعادة النظر في تعيين جميع القساوسة الموجودين في خدمة الكنيسة ـ وهذا يعني غربلتهم تحت اشراف الاب مندز .
٢ ـ اجراء تعميد جديد لكافة السكان المسيحيين ـ على اساس ان تعميدهم السابق كان باطلا او كأنهم كانوا وثنيين .
٣ ـ تنقيح واعادة كتابة القداس الكنائسي .
٤ ـ منع اجراء عملية الختان للذكور .

لقد اعتبر الاحباش الاجراءات المقترحة فـي التشريـع المرفوض خروجا على تقاليدهم الدينية الموروثة وطعنة في صميم التراث الحبشي. فلم يقبلوا بها وظلت حبرا على ورق ولطخة عـار بوجه اخوانهم المبشرين بالدين .

على اثر ارتقاء الملك فاسيليداس العرش اخذ يعمل لتصفية قضية المبشرين والتخلص منهم على اساس استئصال الداء من جذوره . لذلك فقد اصدر امرا فوريا بطرد كافة الاباء الجزويت من البلاد ونسخ كافـة التشريعات التي اصدرها والده الملك المعزول . ثـم اعلن رسميا رجوع المذهب الارثوذكسي اليعقوبي الى الكنيسة . وبهـذه العملية السريعة خفف من غلواء السكان ومن رد الفعل السيء لمحاولـة المبشرين فرض مذهب جديد عليهم بدلا من مذهب ابائهم الاولين . واكثر مـا حـز فـي نفوس الناس هو انهم اولوا المبشرين ثقتهم التامـة وفتحوا لهم قلوبهم على اساس اخوّتهم الدينية التي دفعتهم من وراء البحـار وتجشمـوا الصعاب وركبوا الاخطار لنصرتهم ضد اعـداء دينهم ـ المسلمين . واذا بالامر ينجلي عن رغبة لتحقيق هدف اخر ليس الا ـ هـو سحق التراث القبطي الذي ضحى الاحباش في سبيله الغالي والنفيس وخاضوا غمـار حروب لم تجف دماء الابرياء من ضحاياها بعد .

وبعد حوادث الاباء الجزويت صار الاحباش ينظرون لكـل اوروبي بعين الريبة والاحتقار . بل والانكى من ذلك انها غرست في نفوسهم عقدة نفسية حيث صاروا يعللون اسباب كل بلية او كارثة تقع في البلاد ، مهما كان مصدرها او طبيعتها ، على انها مـن صنع الـ (فرنج) اي الافرنج او الاوروبيين .

اما الاب مندز فبعد مغادرته الحبشة توجه الـى الهند ومـن هناك كتب الى ملك اسبانيا ينبئه بما حل بالارساليات التبشيرية مـن كوارث والتعذيب والمهانة التي لحقت بهم اثر طردهم مـن البلاد بالاضافة الى مقتل الكثيرين منهم على ايدي الاحباش . وينصح الملـك بنفس الرسالة بان السبيل الوحيد الذي يراه لاخضاع الحبشة وضمان تحويـل سكانها الى الكاثوليكية الرومانية هو الاحتلال العسكري لها .



استعطاف الدول الاسلامية

لم يكتف الملك فاسيليداس بابعاد المبشرين عن بلاده بل ظل يلاحقهم ويطاردهم خشية عودتهم عن طريق الاعيبهم ودسائسهم . فمضى يراقبهم في كل مكان وخاصة البرتغاليين منهم . فقد تحالف مع باشوات ــ حكام ــ سواكن في السودان ومصوع في اريتريا ــ المسلمين ــ واتفق معهم سنة ١٦٤٨ بان يقتلوا ، او على الاقل ان يبعدوا اي قس كاثوليكي يحاول دخول الحبشة عن طريق بلادهم . وقد سبق له وقام باجراء مماثل سنة ١٦٤٢ مع امام اليمن المؤيد بالله ومع خلفه المتوكل على الله سنة ١٦٤٧ حينما بعث اليهما بسفرائه ينشد التضامن معهما ، مستنجدا بهما لسحق اعدائه الجزويت وسد كل الطرق والسبل بوجوههم لكي يحول بينهم وبين العودة الى الحبشة . وقد ظلت اثار هذه الصدمة الكبرى مخيمة على مشاعر الاحباش فترة طويلة من الزمن ، اوصدت الحبشة نتيجة ذلك ابوابها بوجه الغرباء قرابة مائة وخمسين عاما حتى دخلها المغامر والمكتشف الاسكتلندي المعروف جيمس بروس James Bruce سنة ١٧٦٩ .

وفي خضم هذه الاحداث الرهيبة والمشاحنات بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة الحبشة من جانب ، وبين الجزويت والاحباش من جانب آخر ، ناهيك عما كان يجري داخل الكنيسة الحبشية بين الاكليروس الاقباط انفسهم من مجادلات لاهوتية ومنازعات عقائدية غير مجدية ، نشطت كرد فعل للمشادات المذهبية مع الجزويت حول مبادئهم ، كان الاسلام ينتشر بهدوء واضطراد دونما تبشير بين القبائل الوثنية . واتسع انتشاره لدرجة ان مانوئيل دالمادا Manoel D'Almeida الذي عاش بالحبشة من سنة ١٦٢٤ الى سنة ١٦٣٣ قال ان المسلمين في ايامه انتشروا في كافة ارجاء الامبراطورية وانهم كانوا يشكلون ثلث السكان (٩) .

ويلاحظ ان قبائل غالا Galla الوثنية اقبلت على اعتناق الاسلام بشكل اذهل الكنيسة الحبشية والمكتشفين الاوروبيين . وقد يكون من اهم اسباب ذلك بساطته وملاءمته لاحوالهم الاجتماعية التي لم يغير فيها شيئا . وهناك عامل نفساني له اهميته ووزنه هو ان هذا الدين الجديد آخى بينهم بغض النظر عن الجنس او اللون . وفوق ذلك فقد اعتبروه مناوئا لدين اللامهاريين الذين يمقتونهم بسبب ان هؤلاء ــ اي الامهاريين ــ يعتبرون انفسهم الاسياد ومن سواهم اقل منهم شأنا ويعاملونهم معاملة السيد لعبده ــ والمثل يقول : عدو عدوي صديقي .

9 — Islam in Ethiopia, by J.S. Trimingham — page 101.



٦ ـ زحف قبائل غالا ـ

ان انهماك البلاد بحروبها المتواصلة مع الامام احمد بن ابراهيم علاوة على الغارات الداخلية بين الامراء الاحباش بعضهم على بعض طمعا في السلطة والزعامة قد اضعف الجانبين الحبشي والاسلامي ، واستنزف مواردهما المادية والبشرية واوصلهما الى حافة الدمار والافلاس . وفيما كانت بلاد الطرفين ترزح تحت طائل الكوارث المتعاقبة وتعاني الامرين من توقف شريان الحياة ـ التجارة مع مدن الساحل ، واذا بها تتعرض من جديد لرجة اجتماعية عنيفة تمثلت بزحف منقطع النظير قامت به قبائل اورومو Oromo الرحل الاشداء المعروفون في الوقت الحاضر باسم قبائل غالا Galla .

لقد هجر هؤلاء البدو مواطنهم الى حيث المراعي المستديمة والعشب الوفير فوق الهضبة . وتسللوا الى المرتفعات على هيئة جماعات صغيرة بادىء ذي بدء . ولكن سرعان ما انقلب هذا التسلل البطيء المتقطع الى ما يشبه الغزو الجماعي المنظم بموجات متعاقبة ، مكونة من كتل بشرية ضخمة تجر وراءها مالها وحلالها كأنها هجرت اوطانها الى غير رجعة . فعاثت في الارض فسادا في مسيرتها الطويلة وأكلت مواشيها الاخضر واليابس ولم يعقها او يعترض سبيلها عارض بفضل اعدادها المخيفة ونزعتها القتالية . وامام هذا الخطر الداهم لم يقو على التصدي لهم لا المسلمون ولا الاحباش ، بل صبروا على مضض حتى وصلت البقية الباقية من مؤخرتهم الى اخصب المراعي واوفرها غذاء .

يعلل المتعقبون لهجرة هؤلاء البدو السبب في رحيلهم الجماعي في مطلع القرن السادس عشر ، كما اشرنا سابقا ، بتوسع وانتشار القبائل الصومالية في طلب الكلأ لمواشيهم في حوضي النهرين جوبا وشيبلي حيث كانت ، حسبما يظهر ، مواطن قبائل غالا . فدفعهم هذا الضغط السكاني من صحراء (اوغادن Ogaden) واقليم بنادر الصومالي الى غزو الحبشة ـ الارض الواسعة بنعيمها وخيراتها ومياهها . وبعد استفحال امرهم غزوا واحتلوا بالي ومملكة (داوارو) و (فتجار) في الفترة الواقعة بين ١٥٤٥ و ١٥٤٧ . وحطت جموع الغالا رحالها في بالي طلبا للراحة في تلك الاصقاع الغنية بمياهها ومراعيها حتى اذا ما استعادت قواها توجهت نحو مدينة هرار سنة ١٥٦٧ ، اي في فترة افول نجمها . وبعد غزوات مركزة ومتلاحقة صيرتها خرابا .

ولم تنجح محاولات الامير نور لصد هجماتهم البربرية . فكلما ردهم على اعقابهم يوما عادوا عليه بهجوم اقوى في اليوم التالي . واستمروا بزحفهم حتى قيل انهم غطوا ثلث مساحة الحبشة بحلول عام ١٥٦٣ اي قبل هجومهم على هرار . وبعد استيلاء قبائل غالا على البلاد بهذه الاعداد الهائلة فقد تغيرت نسبة سكانها حتما . ولم يعد الامهاريون



والتيغريون يمثلون الغالبية العظمى للسكان . على ان الامهاريين استمروا في سيطرتهم التقليدية على البلاد الى اليوم . فشعب غالا اصبح الان في كل ناحية من نواحي البلاد وله سطوة لا يستهان بها على الرغم من ان افخاذا من هذه القبائل ما زالت على وثنيتها تحيي حياتها البدائية الاولى في جيوب معينة وحتى بين المدن .

ولو اراد الباحث استعراض الكوارث التي حلت بالحبشة عبر تاريخها الطويل فسيجد اكيدا ان اكثرها وابلغها اثرا في المجتمع الحبشي هي تلك التي وقعت خلال القرن السادس عشر . ففاتحة ويلاتها عصفت من الشرق ودفعت بجيوش الامام احمد بن ابراهيم ومكنته من اكتساح البلاد كلها تقريبا . ثم اعقب ذلك غزو قبائل غالا الذي اوقع خسارة بالبلاد قد لا تقل عن خسارتها في الحروب من ناحية استيلائهم على المحاصيل الزراعية واحتلال اخصب المراعي وسيطرتها على ثلث مساحة البلاد . والكارثة العظمى التي استهدفت القضاء على التراث الحبشي ـ الديني والاجتماعي ـ تمثلت في قصة المبشرين الجزويت التي تطرقنا اليها قبل هذا . واخيرا جاءت المفاجأة المروعة من الاتراك العثمانيين باستيلائهم على ميناء مصوع وقطع صلة الحبشة بالبحر والعالم الخارجي .

الفصل السادس

بداية التنافس الاجنبي

١ ـ احتكاك بين الاتراك والبرتغاليين

بعد القضاء على حكم الامام احمد بن ابراهيم وجد الاحباش انه ما زال هناك الكثير من المتاعب امامهم ، موروثة من سنين خلت ، تتطلب المزيد من التضامن وتوحيد الصفوف من اجل التغلب عليها . فما ان توسط القرن السادس عشر حتى اخذت الامور تتعقد من جديد بوجه الدولة والمحن السياسية تتعاقب بشكل اخطار خارجية اخذت تهدد سلامة البلاد ، من شمالها ومن جنوبها . فمن الشمال داهمهم الاتراك العثمانيون . ومن الجنوب اغارت عليهم قبائل غالا المتعطشة للحصول على قسط وافر من خيرات الهضبة المتمثلة بالخصب ووفرة المراعي المستديمة .

اصبح الاتراك الان عنصرا جديدا في المنطقة بعد ان ثبتوا اقدامهم ووجودهم في البحر الاحمر عن طريق سيطرتهم على سواحل الجزيرة العربية المطلة عليه ، بين سنة ١٥١٢ ـ ١٥١٩ . وباتوا يتحينون الفرص لنيل موضع قدم على الجانب الآخر من البحر الاحمر يتخذونه رأس جسر للوثوب منه الى القارة السوداء . وفعلا تمكنوا سنة ١٥٥٧ من تجهيز حملة عسكرية لاحتلال مصوع . فاحتلوه بقيادة الباشا التركي اوز دمير . وباحتلالهم هذا الميناء المهم قبضوا وسيطروا على شريان التجارة الخارجية للحبشة . وراح الباشا ، استثمارا لهذا النصر ، يتوغل في داخل البلاد عبر الشريط الساحلي الى المرتفعات تدريجا وهدفه الهضبة نفسها . فوصل الى دباروا Dabarwa واسس قلعة فيها ثم حاصر الدير في ديبرا دامو Debra Damo الى الجنوب من موقع مدينة اسمرة الحالي . فدخله وذبح رهبانه ودنس حرمة الدير المقدس .

ولما شاع الخبر بين القبائل التيغرية عما ارتكبه الاتراك من فظائع واعمال وحشية هاجوا وهبوا عن بكرة ابيهم ـ وهم المشهورون بتعصبهم للدين ـ دفاعا عن هذه البقعة . واستطاعوا بعد قتال مستميت رد

المعتدين على اعقابهم . ان دير ديبرا دامو هذا يقع على قمة جبل في غاية الوعورة ، ويحيط به من الجدران الصخرية العالية ما لم يتمكن من اقتحامه حتى الامام احمد بن ابراهيم عندما كان في قمة مجده العسكري . وهذا الدير المقدس تم تشييده وتوسيعه بين القرن السادس والحادي عشر .

ان احتلال الاتراك لميناء مصوع وحده لم يضمن لهم السيادة الكاملة على الموقف ولو انهم تمتعوا بقدر من السيطرة البحرية في المنطقة . فهناك البرتغاليون الذين جاءوا عن طريق رأس الرجاء الصالح وملأت سفنهم البحار وامتد نفوذهم حتى الهند . واصبحت لهم اليد العليا في شرقي افريقية ومدخل الخليج العربي في مضيق هرمز . كما وقد اخضعوا ميناء مقديشو الصومالي بعد قصفه بالمدافع الحديثة سنة ١٤٩٩ بالاضافة الى استيلائهم على ميناء زيلع في خليج عدن ونهبه وحرقه . وبعد ان استتب لهم الامر احتلوا جزيرة سوقطرة الواقعة بالقرب من رأس القرن الافريقي ـ رأس غاردافوى ـ خارج خليج عدن وذلك سنة ١٥٠٧ . ومن هنا بدأ الصراع بين القوتين الصاعدتين ـ الاتراك والبرتغاليين . فبينما اصبح الاتراك قوة عالمية في البر ، مهابة الجانب ، كان البرتغاليون سباقين باحتلالهم مراكز ستراتيجية هامة في الهند وفي مضيق هرمز وغيرها .

وبالنظر لاحتلال البرتغاليين المراكز المهمة الحساسة التي ذكرناها فقد ضمنوا السيطرة على طرق المواصلات البحرية بين اوروبا والشرق . وقد تجدر الاشارة الى انهم تمكنوا من قواعدهم العسكرية في الهند تجهيز الحملة المؤلفة من ٤٥٠ فارسا لنجدة الاحباش في حربهم مع الامام احمد بن ابراهيم وانزلوها في ميناء مصوع . وبالنظر لاحتلال البرتغاليين هذه القلاع العديدة على طرق المواصلات فقد فاتت على الاتراك الفرصة ليصبحوا قوة بحرية بوجه منافسيهم . ولو رجعنا بالتاريخ الى الوراء قليلا لوجدنا بان الاتراك ارتكبوا خطأ فظيعا في توقفهم بفتوحاتهم في الشمال الافريقي عند ابواب المغرب ولم يمضوا لاحتلاله . ولو كانوا قد فعلوا ذلك وثبتوا اقدامهم على ساحل المحيط الاطلنطي لسدوا الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح بوجه البرتغاليين ولاصبحوا وحدهم اسياد البحار بين افريقية الشرقية والهند والبلاد العربية .

واخيرا استطاع الملك سارشا دينفل ابن الملك ميناس في سنة ١٥٧٨ بعد القضاء على الممالك الاسلامية وهرار ، الواحدة تلو الاخرى ، التخلص من خطر الاتراك وتمكن من ازاحة شبحهم من المرتفعات الى الابد . فقد تمكنت قواته وقبائله من هزم جيوش الباشا التركي حاكم مصوع وعساكر حليفه الحبشي الملقب ب (ملك البحر ـ Bahar Negus) وقتلهما . فبعد هذا النصر الساحق على الساحل ادار وجهه



نحو الهضبة لاخذ ثار قديم . فتوجه الى قلعة دابا روا التي أسسها الاتراك في المرتفعات فاستولى بقواته عليها وهدم مسجدها انتقاما لكارثة الدير في ديبرا دامو الآمنة حيث قتل الباشا رهبانه . ولقد اثبت الملك الشاب سارشا انه من اعظم ملوك الاحباش شجاعة وحكمة في الحرب وفي السلم .

٢ ـ المصريون وطموح محمد علي باشا

بعد ان استتب الامر لمحمد علي باشا في مصر ووطد اقدامه في وادي النيل دفعه طموحه الواسع وبعد نظره لتحقيق امبراطورية قوية واسعة الارجاء . ودفعه اجتهاده السياسي الى ان الخطوة الاولى في هذا السبيل لضمان تحقيق هدفه هو التخلص من السيطرة التركية ، بعد ان حسب للعواقب حسابها . اما الخطوة الثانية فتكمن في تعزيز وتدريب جيشه وتسليحه باحدث المعدات الحربية . وهذا الامر يحتاج الى المال . ولم يجد سبيلا لمضاعفة موارده وتوفير المال لتقوية جيشه الا عن طريق التوسع الاقليمي نحو الجنوب بحملة عسكرية . وعلى الرغم من تقديره للمصاعب التي تكتنف التورط بمثل هذه الحملة الجريئة للوصول الى مصادر الثروة في اقصى الجنوب فقد استقر رأيه على تنفيذ مخططه في تسيير الحملة . ولمحمد علي باشا خبرة واسعة في حروب الصحراء والمهالك التي تتعرض لها الجيوش في الاراضي القاحلة الجدباء . فقد حصل عليها من الحجاز وحروب الوهابيين . وهو مدرك تمام الادراك ان بينه وبين هدفه البعيد مسيرة ٣٠٠٠ كيلو متر كلها صحاري ومفاوز مهلكة كم ابادت من قوافل عن بكرة ابيها .

وضع نصب عينيه ما قيل سابقا ـ « لا بد من صنعا وان طال السفر » .

ان محمد علي رجل حرب لا يهاب الموت والملمات ولو كان غيره الذي تكبد تلك الخسائر الجسيمة في الجزيرة العربية لما فكر مطلقا بمثل هذه الحملة التي اعتزم تجهيزها الى الجنوب . ومعلوم ان محمد علي في اول حملة عسكرية وجهها الى البلاد العربية سنة ١٨١١ فقد الكثير من جنوده وبلغت ضحاياه حدا لا يوصف علاوة على الخسارة المادية التي انهكت خزائنه . ولذلك انصرف بكليته الان الى مصادر النيل ثانية للتعويض عما خسره خلال حروب دامت سبع سنوات . وان ما زاد في اغرائه للحصول على الثروات الهائلة من اقصى الجنوب ما قراه في كتب ومذكرات بعض المغامرين والمكتشفين الذين زاروا مملكة سنار ومملكة الفنج في جنوب السودان والقصص المثيرة الخيالية عن ثرواتها المطمورة التي لا حصر لها وعن منابع الذهب الغنية في فازو غلي على حدود الحبشة وما وراءها . وقد تأثر خاصة في ما رواه المكتشف الفرنسي الدكتور بونسيه Poncet



الذي زار تلك الاصقاع في القرن السابع عشر (١٦٩٨ ـ ١٦٩٩) .

حقا لقد كان لمملكة سنار تجارة واسعة مزدهرة مع الهند منذ اواخر القرن السابع عشر عن طريق ميناء سواكن . (وسواكن اليوم هي بلدة عديمة الاهمية جنوبي بورت سودان) واهم البضائع التي كانت تصدرها سنار هي الذهب والعاج واللبان والزباد (١) .

وامر مهم اخر استحوذ على بنات افكار محمد علي هو حصوله على العبيد للاستفادة منهم في جيشه وخدماته الخاصة . وهو يعرف امانتهم وبسالتهم في الحروب ولذلك وضع نصب عينيه الاستعاضة بهم تدريجا عن جيشه المكون من مزيج من الشعوب ـ الالبانيين والمغاربة والبدو والاتراك ـ الذي يستنزف خزائنه . وكان يشعر في اعماق نفسه بضرورة ايجاد متنفس لطاقات ضباطه وجنوده الالبانيين الشرسين الذين ازدحمت بهم القلعة واخذت تؤثر فيهم نعومة الحياة والترف وليالي القاهرة . فصار التسابق فيما بين اولئك الفرسان المغاوير ليس في ساحات الوغي والاعمال البطولية وانما في مجال الحصول على المزيد من الجاه والمال والحظوة . ناهيك عن المجتمع المصري الذي اخذ يضيق ذرعا بسلوك وتصرفات هؤلاء الدخلاء وخاصة الالبانيين منهم الذين كانوا ينظرون الى الشعب وكأنهم اسياده .

ولم يكن سلوك الالبانيين وغيرهم بخاف على رجل دولة مثل محمد علي . فكان لا بد لهذه الحملة ان تتحقق لكي يضرب بها عصفورين بحجر واحد ـ المكاسب التي يتوقعها وابعاد جيش عرمرم عن القاهرة في حملة محفوفة بالمخاطر والمهالك . ولا غرو فان محمد علي رجل حنكته التجارب والايام ، فارتأى في فكره الثاقب ان يحتاط للامر قبل وقوعه. فقد يكون بين البارزين من ضباطه الاحداث محمد علي آخر يثور بوجهه ويعلن عصيانه عليه كما فعل هو مع اسياده الاتراك في اسطمبول . واغتبط الجنود والضباط بهذه الحملة نظرا لما تحمله معها من آمال جسام في الكسب عن طريق النهب والسلب من البلاد التي سيمرون بها .

وبحلول عام ١٨٢٠ نضجت فكرة حملة الجنوب في رأس زعيم مصر ، فاخذ يعد العدة لتجهيزها بقيادة ابنه الثالث اسماعيل باشا . وفي خلال تلك السنة انجزت الترتيبات لتحرك الحملة نحو جنوب السودان وحدود الحبشة . ورسمت الخطة لهذه الحملة العسكرية على اساس تحقيق هدفين اثنين ـ اولا الحصول على اكبر كمية من الذهب ، وثانيا جمع ٤٠ الفا من العبيد وارسالهم الى القاهرة .

تحركت الحملة المؤلفة من ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ رجل بقيادة اسماعيل

---

١ ـ الزباد هي افرازات حيوانية تستخدم في صناعة العطور سيأتي البحث عنها في الفصل الخاص بالموارد الطبيعية .



باشا (٢) ووجهتها الاولى اسوان ثم وادي حلفة . وبعد عشرة اشهر حطت رحالها في سنار على النيل الازرق حيث لحق بـه اخوه ابراهيم باشا . ومن هذه النقطة انطلقت الحملة برتلين نحو الجنوب سار كل رتل منها على احدى ضفتي هذا النهر بقيادة احـد الاخوين . ومضت تشق طريقها في مجاهل جنوب السودان وادغالـه المليئة بالحشرات والثعابين والامراض الاستوائية . ولا بد من القول ان الامور بين اسماعيل وضباطه خلال الاشهر التي انقضت لم تمش بصفاء وسلام . فقد كان القائد شابا قوي الشخصية كثير الاعتداد بنفسه ، يكثر مـن المجادلات والمخاصمات مع مستشاريه وهيئة اركانه وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره. ولعل مرد ذلك انه هو ابن محمد علي باشا ـ ابن « عزيز مصر » . وعلى الرغم من هذه المتاعب استمرت المسيرة الطويلة الشاقة والهدف المرسوم امامها : الذهب والعبيد .

وبعد جهد جهيد والخسائر في الانفس نتيجة الاعياء والمناخ وسوء التغذية بلغت الحملة فازوغلي ـ هدفها المنشود . وهنـا لم يعد النيل الازرق ذلك النهر الهادىء المنساب بين شاطئيه الرمليين بحركته البطيئة التي تكاد لا تلمس ، بل اختفى فجأة داخل الوادي السحيق فـي مضيق جبلي طوله مئات الكيلو مترات لا يرى له اثر مـن كثرة الاشجار الكثة سوى هدير مياهه وهي ترتطم بالصخور التي تعترض مجراه . هذه هي فازوغلي . ولكن اين الذهب . فيا لخيبة الامـل عندما اتضح ان الذهب اختفى كما اختفى الاهالي والتجار الذين يتعاملون به . ولجأوا الى الاماكن التي اعتادوا اللجوء اليها في حالات تعرضهم لخطـر داهم . فكيف بهم وقد داهمهم جيش متعطش للنهب والسلب بقوة السلاح . ومهما يكن من امر فان اسماعيل لم يتمكن من الحصول على الكمية المنشودة من الذهب. وجرت العادة هنا ان يختزنه الناس داخل قصب ريش نـوع من النسور الكبيرة الحجم . وهذه الطريقة على بدائيتها فانها تحافظ على محتوياتها. ويستعمل الريش المحشو بالذهب عوضا عن النقود في التعامل التجاري. واما عن الهدف الثاني ـ وهو العبيد ـ فلم يغنموا باكثر مـن ٣٠ الفا منهم ، معظمهم من النساء والاطفال . وصل نصفهم الى القاهرة والنصف الاخر تخلف في الطريق نتيجة الاعياء وسوء المعاملة والمرض في مسيرتهم بين مواطن اختطافهم والقاهرة .

هنا في فازوغلي توقفت الحملة مرغمة امام جبال الحبشة الشامخة وقد انهكها المسير عـلى الاقدام واوحشتها الغربة واستولى عـلى مشاعر افرادها الذهول لمشاهدة هذه الكتل الجبلية العملاقة التي تحدت كـل الغزاة في تاريخها الطويل وتحدت اسماعيل فاوقفته مذهولا هو ورجاله

2 — The Blue Nile, by Alan Moorehead — pages 173-185.



الذين لم تألف عيون اهل السهول منهم هـــذه المناظر المخيفة . وحتى النيل الهادىء الوديع الذي ساروا علـــى شاطئيه اشهرا طويلة تغيرت طبيعته كطبيعة الجبال التي انحدر منها . وهناك على الجانب الاخر من النيل الازرق حيث رتل الجزء الثاني من الحملة كان ابراهيم باشا يشكو وطأة المرض الذي الم به . والجدير بالذكر هو انـه اوعد طبيبه الايطالي « ريتشي Ricci » بمكافأة قدرها عشرة آلاف دولار ان هو اوصله سالما الى القاهرة بأسرع وقت ممكن .

وكان لابراهيم ما اراد فقد تمكن هذا النطاسي الايطالي من الوفاء بوعده بعد ستة وثلاثين يوما واستلم المبلغ بكامله من سيده . وقفل اخوه اسماعيل راجعا مع الحملة بعد فشلها فـي تحقيق اهدافها نحو سنار ثانية ، تاركا وراءه الجبال الصامدة خلف فازوغلي . صحيح ان الحملة لم تبلغ غايتها المنشودة ـ وهي الذهب والعبيد ـ لكنها حققت امرين في غاية الاهمية بالنسبة لمحمد علي باشا . الاولى هو بسط سيطرة المصريين على السودان لاول مرة . والثاني التخلص من القسم الاكبر مـن الجنود الذين كانوا في الحملة وذلك بابقائهم في السودان كمفارز للحدود وقوات لحفظ الامن بأمرة العشرات مـن الضباط والباشوات . وبهـذه الطريقة البارعة تخلص محمد علي من احتمالات قيـام بعض العسكريين بوجهه للاطاحة بحكمه . كما ضمن عدم الصرف على هؤلاء العساكر مـن خزانته الخاصة بعد ذلك اليوم .

لقد تعجل ابراهيم بالعودة الى مصر بسبب المرض . ولكـن اخـاه اسماعيل فقد آثر التوقف قليلا في بلدة شندي لتوفير قسط من الراحة لجنوده . واما بالنسبة له فلجباية ما لم يتيسر لـــه جبايته من الذهب وغيره من النفائس الثمينة عندما كان في طريقه الـــى فازوغلي وحدود الحبشة . وبعد استراحة قليلة في مقره جاءته وفود البلدة مهنئة بسلامة العودة . وكان من بينهم الشيخ نمر (٣) احد ابـرز زعماء المنطقة . ولكن ما ان دخل القاعة وسلم على اسماعيل حتى باغته بطلب غريب وقع عليه كالصاعقة . فقد طلب من الشيخ نمر تسليمه ٣٠ الف دولار نقدا وستة آلاف من العبيد خلال ٤٨ ساعة . لقـد وردت هـذه الارقام مختلفة باختلاف الروايات . ولكن مهما يكن من امر فلا بد أنها جاءت بشكل لـم يقو الشيخ نمر على تلبيته . ولما رد عليه هـذا الشيخ الوقور بكل هدوء وادب باستحالة اجابة طلبه كاملا وبهذه الفترة القصيرة ، غضب اسماعيل وقام من مكانه وفاجأ الشيخ بضربة علـى وجهه بغليونه الخشبي الطويل واهانه امام الحاضرين من قومه .

---

٣ ـ الشيخ نمر هو زعيم قبيلة الجعليين ومقامه بين قومه مقام ملك . وهذه القبيلة هي اوفر القبائل عزة وشرف محتد فهي تدعي انتسابها الى العباس عم النبي (ص) .
The Blue Nile, by Allan Moorehead, pages 185 — 86



أما الشيخ نمر فلم يتحمل هذه الاهانة من شاب طائش فامتشق حسامه وهم بضرب عنق اسماعيل . الا ان حاشية اسماعيل وحراسه من المماليك سارعوا الى نجدة سيدهم واوقفوا نمرا عند حده واخرجوه من المجلس . وشهدت تلك الليلة وليمة عشاء اقيمت في مقر قيادة الباشا . واستمر القوم في معاقرة الخمرة والراقصات بينهم الى وقت متأخر . ولكن الشيخ نمر لم يسكت على هذه الاهانة . فما ان شعر هو وجمع من اصحابه بان الخمرة قد دبت في رؤوس الحاضرين حتى اقتحموا البيت واضرموا فيه النيران من كل جانب واختفوا عن الانظار فلما سارع رجال اسماعيل من الخارج لاخماد النار فاجأتهم جماعة نمر من مخابئها واعملت فيهم السيف حتى قتل معظمهم فلم يتمكن من في داخل البيت من الافلات من النار حتى مات اغلبهم ومنهم اسماعيل نفسه .

لم يهن على محمد علي مصرع ولده بهذا الشكل المشين كما لم يهن عليه تحمل الاهانة البالغة التي لحقت بسمعته كقائد من اعظم قواد زمانه على ايدي اناس يعتبرهم من الصعاليك بالنسبة اليه . فقرر لدى سماعه بالخبر ان يثأر لولده بأعنف صورة . ولذلك كتب الى صهره محمد بك الدفتر دار الذي كان بمهمة جباية في مناطق درفور وكوردفان يأمره بالقيام بحملة انتقامية تشمل جميع القرى والمزارع الواقعة على ضفتي النيل بين شندي وسنار وحرقها ونهبها ومعاملة سكانها بمنتهىالقسوة . فانصاع محمد بك للامر ونفذ رغبات سيده حرفيا .

وتقول بعض الروايات ان الذين قتلوا من السودانيين خلال هذه الحملة الانتقامية قدر عددهم بخمسين الفا . الا ان هذه الرواية تبدو اقرب الى الخيال منها الى الواقع . على اي حال فقد وقعت خسائر جسيمة في المال والرجال في السودان في اعقاب تلك الفتنة الرعناء .

اما الشيخ نمر فحاصره الجنود في داره غير انه تمكن من الافلات رغم الحصار الذي طوق داره ومنازل قبيلته . فهرب الى الحبشة لاجئا فيها . وبعد هذه الحملة الارهابية تمكن محمد علي من اخضاع السودان والحاقه بمصر سنة ١٨٢٣ . ومات الشيخ نمر في المنفى وخلفه على زعامة جماعته ابنه الذي بدوره آثر المقام في الحبشة على الرجوع لبلاده فيعيش ذليلا تحت حكم اذناب محمد علي وجلاوزته .

في هذه الفترة كان ثيودور امبراطورا على الحبشة ولم تكن العلاقات بينه وبين مصر على وئام . وبطبيعة الحال كان يتحين الفرص لضربها واضعاف مركزها في السودان . ولم ير فرصة اثمن من ظروف وجود ابن الشيخ نمر لاجئا عنده . فتحالف معه سنة ١٨٦٠ ومده بالمال والرجال والسلاح ليشن غارات انتقامية متلاحقة على المصريين من معاقله



الجبلية . وبهذا الاسلوب المعجز نشر الرعب والفزع بين حاميات الحدود السودانية سنين طويلة .

٣ ـ محمد علي يهدد الحبشة مباشرة

لم يكتف محمد علي باحتلال السودان ، هذا القطر الغني بالخيرات الزراعية ، الذي يعتبر متمما لمصر ومتكاملا معها من ناحية الوحـــدة الطبيعية الاقليمية ، بل راح يشبع طموحـه لتحقيق رغبة متمكنة مـــن نفسه للسيطرة على الحبشة ومياههـا لضمان ازدهـار مصر والسودان معا . قد تكون اسباب اصرار محمد علي في السيطرة على الحبشة مـــا سبق ان صدر من عدد من ملوكها من تهديد لتحويل ميـاه النيل الازرق وتجويع مصر والسودان والقضاء على حضارة وادي النيل . ومحمد علي بعين الوقت يقدر اهمية البحر الاحمر له للوصول الى كنوز شرقي افريقية والهند . وقد جمع ثروة هائلة عن طريق حكمـه الاستبدادي لا عهد لمصر بمثلها من قبل الا في العهد الفاطمي . فمكنته هذه الثورة من تنفيــذ مخططه التوسعي ، ولكن حملته العسكرية الاولى على بـلاد النوبة ومملكة الفنج في سنار استنزفت جانبا عظيما من ميزانيته .

وفي سنة ١٨٣٠ وضع الحجر الاساسي لمدينة الخرطوم على ملتقى النيلين الازرق والابيض . وبعد ان تم له توحيد وادي النيـل كما اسلفنا وجه انظاره بصورة جدية نحو الحبشة . والحبشة بدورها لم تكن غافلة عن نوايا محمد علي . فقد اخذت الشكوك تخامرها منذ قيامه بتعيين ابنه ابراهيم باشا واليا على الحجـاز والحبشة سنـة ١٨١٨ واعتبرت هـذا الاجراء بمثابة تهديد موجه لها .

ان عزم محمد علي على غزو الحبشة لم يكن سرا مكتوما . فقد سبق له ان فاتح المستر سولت Sault القنصل البريطاني العام فـي القاهـرة بالموضوع . واوضح القنصل العام لـــه موقف حكومته ازاء تبنيه هـذه السياسة العدوانية التي ينوي الباشا السير بهـــا وافهمـه ان الدول الكبرى سوف لا تقف مكتوفة الايدي حيال تهديده استقلال قطر افريقي حافظ على نصرانيته عبر العصور . لكن محمد علي لم يأبـه لهذا التلميح الذي انطوى على تهديد مباشر له . بل مضى فـــي عزمـه فقاد الحملة العسكرية بنفسه سنة ١٨٣٨ عـــلى النيل الازرق باتجـاه الحبشة رغم اعتلال صحته ، وقد ناهز السبعين من عمره .

وكانت هناك دلائل ــ حسب بعض الروايات ــ تشير الـــى انـه سبقت الحملة العسكرية اتصالات خفية مع بعض الزعماء المسلمين مـــن قبائل غالا القاطنة على الحـــدود وان تواطؤا حصل بين زعمـاء المسلمين والمبعوثين المصريين للتمهيد لهذا الغزو ولضمان مؤازرتهم مسبقا . وخلال المناوشات الاولى التي جرت بين المصريين والاحباش نهبت بعض قـــرى



الحدود واحرق قسم منها كما دمر عدد من الكنائس . الا ان الاحباش سرعان ما ردوا على الضربة بشدة فاندحر جيش محمد علي . وبعد هذه النكسة طويت فكرة الفتوحات ووضعت على الرف حتى جاء عهد الخديوي اسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ .

على انه لا ينكر بان نفوذ المصريين وسلطانهم من ناحية السودان الشرقية ، اي من ناحية كسلة ــ البلدة السودانية الواقعة على حدود اريتريا ــ قد امتد فعلا الى الاراضي المجاورة داخل اريتريا حيث تقطن قبائل بني عامر الاراضي الواطئة والذين قبلوا بالسيادة المصرية . وفي سنة ١٨٤٠ اسس احمد باشا بلدة كسلة التي اشرنا اليها قبل قليل . ومن قاعدة كسلة التي اعتبرها المصريون نقطة انطلاق لهم صاروا يشنون غاراتهم المتلاحقة على قبائل باين Bilen المسيحية المستوطنة في سهول بلدة كرن Keren الخصبة .

٤ ــ الخديوي اسماعيل في الميدان

في خضم التنافس الدولي على البحر الاحمر تولى الخديوي اسماعيل باشا حكم مصر (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) فبعثت احلام التوسعات الاقليمية من جديد ــ الاحلام التي بدأ بها محمد علي . وللتمهيد لذلك وكخطوة اولى حصل الخديوي على اذن من الباب العالي (مجلس الوزراء) في اسطنبول لتجديد ايجار مينائي سواكن ومصوع لكي ينفذ منهما الى صحراء الدناقل وساحل الصومال . ثم اشترى ميناء زيلع واحتل بربرة القريبة منه . كل هذه الخطط مضى الخديوي بتنفيذها بعزم وتصميم اذ قرر ان تدلو مصر بدلوها مع باقي الدول الاوروبية الكبرى لاستثمار كنوز هذا الساحل ــ ساحل افريقية الشرقية التي بلغت شهرة كنوزها الطبيعية وخيراتها حد الخيال في تلك الايام .

وفي سنة ١٨٦٩ افتتح قناة السويس بوجه الملاحة الدولية فاحتدم التنافس الذي اعطى البحر الاحمر اهمية كبرى كممر مائي بين الشرق والغرب . ليس ذلك فحسب بل ان افتتاح قناة السويس قد انهى عزلة الحبشة الى الابد . ولكنه بعين الوقت عرضها اكثر من ذي قبل لمطامع الدول الاستعمارية ، ومصر من ضمنها . اذ ما ان حلت سنة ١٨٧٢ حتى كان ساحل البحر الاحمر الغربي بأكمله في قبضة المصريين . ولما حل عام ١٨٧٥ وجد مصر وقد طوقت الحبشة من الشمال والشرق والغرب ، واحتلت مدينة هرار كما سيجيء ذكره .

وبعد ان تم احكام الطوق حول الحبشة ، وصارت لمصر صولة في الميدان . جاء دور المجابهة الفعلية والنفوذ الى الداخل . الا ان فكرة الغزو عن طريق السودان قد استبعدت هذه المرة نظرا لما يرافق ذلك من مشاكل المواصلات والمهالك وضآلة الاحتمال في النجاح . فاتجهت



الانظار الى البحر الاحمر لتنفيذ خطة الغزو منه . ومما شجع مصر على ذلك دراسة تقارير حملة الجنرال نابيير Napier التي وجهها الانكليز سنة ١٨٦٨ من خليج زولا Zula جنوبي مصوع لتأديب الامبراطور تيودوروس . فقرر مستشارو الخديوي العسكريون بالشروع بالغزو من البحر الاحمر نظرا للسهولة وخاصة فالقوات المصرية قد اصبحت ذات شأن في هذا البحر . ومعروف عن الخديوي اسماعيل انه كان يستخدم في جيشه عددا من الضباط والمستشارين الاجانب . فمنهم الفرنسيون والامريكيون والسويسريون وغيرهم . وكانت الحكومة المصرية قد اختارت احد كبار الضباط السويسريين ليكون حاكما على مصوع واسمه مونتسينغر Muntzinger . فقرر هذا حال توليه منصبه المباشرة بتحصين البلدة لانها كانت مكشوفة من جهاتها الاربع . وبعدئذ توجه بقواته نحو المرتفعات فوجه اول ضربة للداخل فاحتل بلدة كرن وما جاورها في هضبة اريتريا .

اما في الجهات الاخرى من ميدان القتال فكانت الجيوش المصرية قد سيطرت على الساحل الشمالي للصومال بحلول سنة ١٨٧٠ ـ من ميناء زيلع في خليج عدن حتى رأس القرن الافريقي ـ رأس غاردافوي Gardafui . وعند وصول انباء هذه الانتصارات الى هرار ، وكانت ساعتئذ تعاني من مشاكل داخلية عديدة ، اوفد اهلها الرسل وكتبوا الى الخديوي اسماعيل يستحثونه على انقاذهم من الوضع الداخلي المرتبك الذي اصبحوا فيه . فاوعز الخديوي الى القوة المصرية التي احتلت زيلع وبربرة على الساحل بقيادة رؤوف باشا بالتوجه الى هرار لاسعاف اهلها . فاخترقت قوات الباشا الصحراء الملتهبة بين الساحل ومرتفعات الحبشة وتسلقت جبالها فبلغت مدينة هرار واحتلتها سنة ١٨٧٥ .

بلا ريب ان المصالح الاوروبية في مصر هي التي حالت دون اعتراض الدول الكبرى على قيامها باحتلال بعض اجزاء الحبشة كما سبق للقنصل البريطاني وهدد في حينه . وفي سبيل تحاشي تعكير جو العلاقات بينها وبين الخديوي غضت النظر عن حادث احتلال هرار واطلقت يد مصر في الحبشة . وقد يكون لذلك سبب اخر ـ وهو اقرب الى الواقع ـ هو علمهم باستحالة تمكن الجيوش المصرية من التوغل داخل الهضبة الحبشية لفترة طويلة . وعلى كل حال فان انتصارات الجيش المصري في المناطق الساحلية لا يمكن ان يعزي كليا الى تفوقه وقدرته العسكرية . فيجب ان لا ننسى ونحن بهذه المرحلة بأن الامبراطور تيودورس نتيجة حروبه المتواصلة واعماله الطائشة طيلة فترة حكمه قد جعل من البلاد مجموعة قبائل متناحرة ، متخاصمة فيما بينها . وصير من ممالكها الصغيرة امارات مجزءة ومتفرقة الكلمة بحيث لا يمكن لبلد بهذه الحال الصمود امام اية قوة عسكرية غازية . حتى ان الانحلال العام في اكثر انحاء الحبشة بلغ درجة اضحت معها الاقطاعيات الزراعية التي يسيطر عليها

النبلاء لا ترتبط بالولاء التقليدي لحكومة مركزية وانما للكنيسة فقط .

ومهما يكن من امر فان انتصارات الجيش المصري المتواصلة وبلوغه مدينة هرار قد اعادت الفزع والخوف مجددا الى نفوس الاحباش . ولاح امامهم شبح الحروب الماضية مع الاسلام الذي هدد تراثهم بالزوال ، فاجمعوا على توحيد الصفوف قبل فوات الاوان . وكانت الظروف قد هيات للبلاد زعيما ومحاربا فذا بشخص الامبراطور يوحنا الرابع ملك اقليم تيفرة الذي وحد كلمة التيغريين وجمع حول لوائه القبائل الاخرى. حتى ان منليك ملك اقليم شوا الذي كان يعتبر خصما لدودا ليوحنا ، وكان حتى فترة متأخرة يحبك المؤامرات مع مونتسينغر حاكم مصوع ضد يوحنا ، قد تناسى خصوماته الماضية واوعد بالتعاون والمساعدة عند الحاجة لوقف الزحف المصري . ويقال ان كلمة الاحباش لم يسبق لها ان اجتمعت في اي دور من ادوار تاريخهم كما اجتمعت وتوحدت تحت هذه الظروف وناصرت بطلا وطنيا واحدا اوكلت اليه تحرير البلاد من المغتصبين .

وكانت انباء انتصارات المصريين تترى فتبلغ مسامع الامبراطور يوحنا فيزداد حماسا ويضاعف من استعداداته ترقبا لليوم الذي سيلاقي فيه جيوش خصمه . وازفت ساعة الصفر ، ونزل يوحنا بعساكره الميدان ، فما لبث ميزان القوى ان بدأ يميل لصالح الاحباش . فمن مجموع الجيوش المصرية الثلاثة التي توجهت لاحتلال هرار لم يصل الى هذه المدينة المضطربة ويستقر فيها غير جيش رؤوف باشا الذي تحرك من ميناء زيلع سالكا طريق صحراء الدناقل . اما الجيشان الاخران فلم يتمكنا من بلوغ الهدف . كان احدهما بقيادة مونتسينغر السويسري وقد جاء من تاجورة (٤) وابيد عن بكرة ابيه في صحراء الدناقل ولم ينج منه احد . اما الذي اباده واوقع فيه هذه الكارثة فهو سلطان واحة عوسة المسلم الذي كان حليفا للامبراطور . واما الجيش الثالث الذي قدم من مصوع فكان اكبر الجيوش الثلاثة من حيث حجم قوته الضاربة فقد مني بخسائر فادحة وكان على وشك ان يباد هو الاخر على يد القبائل التيغرية بزعامة الامبراطور يوحنا . وبهذا الانتصار الشامل عمت البشائر جميع انحاء الحبشة ، فجاءت القبائل من كل حدب وصوب مهنئة الامبراطور ومعلنة ولاءها له وانضمامها تحت رايته ، شأنها بذلك شأن كل المجتمعات القبلية ، تميل حيث تميل القوة والسلطة والنفع المادي .

اما في الجانب المصري فكان لانباء هزيمة جيوشهم وقع سيء في نفس الخديوي والمصريين عامة . فقد كانت تراودهم احلام بتأسيس امبراطورية لا تقف عند حدود فيبسطون جناح نفوذهم على كافة شعوب

---

٤ ـ تاجوره هو موقع في خليج تاجورة بالقرب من ميناء جيبوتي في الصومال الفرنسي .

شرقي افريقية . ولكنهم مع ذلك قابلوا هـذه النكسات العسكرية برباطة جاش وحزم فجهزوا الجيوش لاعادة الكرة على يوحنا الرابع . وفي سنة ١٨٧٦ شنوا حربا انتقامية على جبهة واسعة . لكنهم لـم يستطيعـوا زحزحة الجبهة الحبشية التي ثبتت في مواقعها بكـل بسالة . فقـد اشترك يوحنا نفسه بالحرب وجال وصال في ميدان المعركة تتبعه الالوف المؤلفة المدفوعة بروح الدفاع عن الدين وكأنهم أعدوا حربا صليبية ضـد المسلمين ذلك لان رجال الدين الاحباش كانت لهم اليد الطولى في تأليب القبائل ضد المصريين ومن أسموهم بأعداء دينهم . كما لعبوا دورا هامـا في جمع المتطوعين والمؤن والذخائر لجبهة القتال .

ودارت الدائرة ثانية على المصريين ومنوا بهزيمة اخرى تكبدوا من جرائها خسائر مادية وبشرية لا تقدر . كما خسر المصريون كـل مواقعهم ما عدا بلدة كرن في هضبة اريتريا . وفي هذه الظروف حدث ما هو ليس في الحسبان . فعلى أثر ظهور الحركة المهديـة فـي السودان تراجـع المصريون من كافة ممتلكاتهم في شرقي أفريقية والحبشة . وعـلى هـذا فتكون فترة توسعات المصريين قد دامت حوالي عشر سنوات ، انسحبوا بعدها حتى من السودان .

وقد يكون من المفيد أن نلمح باشارة عابرة الى أن الامبراطور يوحنا الرابع بسبب تعاونه مع حملة نابيير البريطانية ــ التي سيأتي البحث عنها تفصيلا ــ فقد تركت له بعد انسحابها من البلاد كميات هائلة من الاسلحة والذخائر الحربية التي أعانته في حروبه الداخلية لقمـع الفتن ولأخضاع القبائل المناوئة له وفي حربه مع المصريين .

ويذهب بعض المؤرخين الى ان الانكليز تركوا وراءهم المدافع والمؤن الحربية لتقوية يوحنا ضد الاتراك والمصريين ــ وهـذا تعليل لا يستبعده منطق الاحداث . ولكن من طريف ما يذكر عن هذه الحرب هو أنه لما أعاد الامبراطور الاسرى المصريين الى مقر قيادتهم ،حملهم رسالة الى الخديوي اسماعيل جاء فيها ما معناه :ــ « هؤلاء هم جنودك يا اسماعيل . فـاذا كنت ترغب في المزيد من الخصيان لحريمك فابعث لي ببقية جيشك » .

على اثر انسحاب ا لمصريين من هرار نصب الضباط الانكليز الذين اشرفوا على عملية اخلاء المدينة أميرا عليها اسمه عبد الله . وبقيت بعـد ذلك محافظة على استقلالها رغم الضعف الذي أصابها وسوء أحوالهـا . ولكن لما تم تنصيب منليك امبراطورا على الحبشة بعد مقتل يوحنا الرابع على أيدي رجال المهدي في السودان ، عزم على فتح هرار بالقوة وضمها الى ممتلكاته . فكتب الى الامير يـذكره بلزوم دفـع الضرائب المستحقة عليه شارحا له أن هرار كانت خلال اربعمائة سنة من ملحقات امبراطورية الحبشة . وكأن منليك أراد بهذه الرسالة استفزاز الامير . وفي الواقع كانت الرسالة اقرب الى التهديد منها الى رسالـة عـادية حـول دفـع



الضرائب . فما كان من الامير الا ان رفضها وابلغ منليك انه لا يخضع الا للسلطان العثماني .

وهنا اكفهر جو العلاقات بين الطرفين ـ وهذا ما كان منليك يتوخاه ـ فكرر بالحاح الطلب السابق وبلهجة أشد . أما جواب الامير فكان تحديا صريحا للامبراطور اذ بعث اليه برداء اسلامي مع عمامة وسجادة للصلاة وكتب له يقول : « عندما تكون مسلما فسوف ابايعك بالرئاسة » . عندها غضب منليك غضبا شديدا فبعث للامير برسالة قال فيها : « أنا قادم الى هرار لاستبدال المسجد بكنيسة فانتظرني » . وفي سنة ١٨٨٧ جهز حملة عسكرية لاحتلال هرار بحجة تأديب الامير عن تهمة تعرضه لقافلة تجارية للايطاليين حلفائه . وكانت هذه خاتمة سلطنة هرار الاسلامية .

يعتبر الاحباش مدينة هرار وملحقاتها أعظم قلعة مناوئة لدينهم وتراثهم . فكان هدفهم وحلمهم عبر الاجيال تحطيمها والقضاء عليها . فلما تم النصر للامبراطور منليك الذي كان أول ملك حبشي يخضع هرار بالقوة ، استشار المقربين منه من رجال حاشيته عمن يليق بحكم هذه الولاية المعادية . وأخيرا قر رأيه على أحد نبلاء اقليم شوا ـ وهو من أقربائه ـ هو الرأس ماكونين Ras Makonnen (والد الامبراطور هايلا سلاسي الاول) . والزائر لمدينة هرار اليوم يلاحظ تمثال رجل عسكري ممتطيا جوادا قائما خارج سور المدينة . هذا هو الرأس ماكونين . وما نصب التمثال هنا الا ليذكر أهل هرار بالتفوق الحبشي العسكري واذلالا لمعنوياتهم . على أي حال فقد خرجت الحبشة من جميع محنها منتصرة في آخر المطاف . ولم يتمكن الاسلام من بسط نفوذه السياسي والعسكري في هذه الربوع . الا أن انتشاره عم جميع البلاد ، في الهضبة والسهول على السواء . وظلت هرار على الرغم من اخضاعها عسكريا مركز اشعاع ديني لم يخفت نوره حتى هذا اليوم .

اعادة توزيع القوى

على اثر اندحار مصر العسكري امام جيوش يوحنا الرابع اقتسمت أملاكها في السودان كل من انكلتره وفرنسا وايطاليا والحبشة وحتى بلجيكا ، وذلك في الفترة الواقعة ما بين ١٨٨٢ ـ ١٨٩٢ .

فكانت نتيجة اقتسام المغانم أن اقتطعت ايطاليا جزءا من السودان الشرقي وضمته الى الشريط الساحلي وكونت مستعمرة اريتريا . وهذه التسمية مأخوذة من اسم البحر الاحمر اليونانية : ماري اريثرايم Mare Erythraeum وعلى ساحل المحيط الهندي أقامت مستعمرة الصومالي الايطالي .



واما الحبشة فقد كان نصيبها هرار التي تعتبر بالنسبة لها غنيمة كبرى . وعند باب المندب اسس الفرنسيون مستعمرتهم المعروفة بالصومال الفرنسي . واهم مركز حضري في هذه المستعمرة هو ميناء جيبوتي الشهير .

أما بالنسبة للبريطانيين فأقاموا محمية الصومال البريطاني على امتداد الساحل الجنوبي لخليج عدن وجعلوا عاصمته هرغيزه Hargeisa ذات المناخ الجميل . كما فاز أيضا البريطانيون والملك ليوبولد ملك بلجيكا ببعض أجزاء مديرية (محافظة) خط الاستواء Equatoria المترامية الاطراف بجنوب السودان . فضمَّ ملك البلجيك حصته من المكاسب الى مستعمرته الكونغو البلجيكية في اواسط افريقية . واما البريطانيون فقد اسسوا مما اقتطعوه من السودان مستعمرة جديدة هي مستعمرة يوغندا (جمهورية يوغندا المستقلة حاليا) .



الفصل السابع

الدول الاوروبية في الميدان

١ ـ بداية الاستعمار

أسلفنا سابقا بأن الحبشة بعيد طردها الارساليات التبشيرية البرتغالية من بلادها ، أوصدت حدودها بوجه الاجانب حوالي مائة وخمسين سنة ، أي حتى مجيء الرحالة الاسكتلندي المشهور جيمس بروس James Bruce سنة ١٧٦٩ . مكث فيها بروس حوالي ثلاث سنوات أي حتى عام ١٧٧٢ تمكن خلالها من تكوين شعبية له لا يمكن وصفها بكلمات قليلة . فقد امتزج مع أبسط أفراد الشعب واكثر النبلاء ارستقراطية . ومهد السبيل للدخول لبلاط الملك عن طريق صداقته برجال الحاشية والمرافقين والمتنفذين . وبعد مغادرته البلاد مضت فترة طويلة اخرى ـ حوالي اكثر من ٦٠ سنة ـ قبل ان يطرق بابها مكتشفون آخرون ـ وكان المكتشفون هذه المرة فرنسيين حلوا بالبلاد سنة ١٨٣٥ .

وهذه هي الفترة التي بدأت الانظار خلالها تتجه بصورة مركزة نحو الحبشة في محاولات للنفوذ اليها وكسر طوق عزلتها والحصول على مراكز ستراتيجية بحرية وبرية .

وكانت بريطانيا أول قطر اقتحم نطاق العزلة ، فوقعت مع الحبشة معاهدة صداقة سنة ١٨٤١ أيام حكم الملك سهلا سيلاسي Sahla Selassie ملك « مملكة اقليم شوا ومملكة ايفات وقبائل غالا » ـ هكذا كان لقب الملك في تلك الايام . ثم جاء دور فرنسا ، وكانت الدولة الثانية التي تقدمت لخطب ودها ، فأرسلت مبعوثا خاصا هو المسيو روش هاريكور Rochet Haricourt الذي وقع معاهدة صداقة كذلك نيابة عن الملك لويس فيليب سنة ١٨٤٣ . وبهذه البداية البسيطة شرع اخطبوط الاستعمار ينشر أذرعه نحو شرقي افريقية كما سنرى .



ويلاحظ أن هذه الدول الكبرى دخلت القـــارة وكأنها في سباق موقوت للحصول على المزيد من المكاسب الاقليمية والموانىء على السواحل. وكل منها تتربص للاخرى وتراقب حركـات الدبلوماسيين والمكتشفين بكل حذر ويقظة في سبيل الاستئثار بحصـــة الاسد في مضمار هذا التسابق المحموم . ومن خلال الاحداث التي يتنـــاولها هذا الفصل المختصر حاولت رسم صورة للمعالم العريضة للمنطقـــة التي شملتها الاحداث والتطورات السياسية في الفترة الواقعة ضمن الجزء الاخير من النصف الاول وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في البلاد والاقاليم الواقعة بين قناة السويس وبلدة قسمايو في أقصى جنـوب الصومـــال .

الانكليز

من المعلوم ان الانكليز احتلوا عدن سنة ١٨٣٩ وبذا كسبوا موقعـا من اهم المواقع الستراتيجية على طريق الهند . وبعد ذلك بسنة واحدة اي في ١٨٤٠ اشتروا جزيرة في مدخل خليج تاجوره (وهو جزء مـن خليج عدن) اسمها جزيرة موشى وذلك مقابل عشرة اكياس من الرز . ومن هنا بدأ نفوذهم يتغلغل في الجنـــوب العربي وامتـــد نحو شرقي افريقية . ولكنهم في سنة ١٨٨٤ احتلوا مينائي زيلع وبربرة والحقوهما بمحمية الصومال البريطاني وهي المحمية التي بقيت تحت حكمهم حتى حصلت على استقلالهـــا سنـــة ١٩٦٠ بقرار مـــن الامـــم المتحدة . واندمجت بجمهوريـــة واحـــدة مـــع الصومـــال الايطالي الواقع الـــى الجنوب . وباحتلال مينائي زيلع وبربرة أغلق منفذان من المنافذ البحرية التي كانت عن طريقها توصل الحبشة تجارتها الى اوروبا .

الفرنسيون

في سنة ١٨٣٩ ــ وهذه هي نفس السنة التي احتل فيها الانكليز عدن ــ دخلت البحر الاحمر باخرة فرنسية بهدف معـــين وهو السعي لشراء قطعة أرض ساحلية في أي مكان في تلك المنطقة . فوقع الاختيار على قرية عيد Edd التي اشتروها من رؤساء قبائل الدناقل مع مساحة صغيرة من الارض بجـوارها بمبلغ ٢٠٠٠ دولار) ألفي دولار (. الا ان الصفقة لم تتم لاسباب غامضة يعللها بعضهم الى احتمال عدم تصـديق الشراء من قبل الحكومة الفرنسية . ومن جملة الغموض الذي صـاحب هذه الصفقة هو ان الذين عقدوها وانهوا عملية الشراء حولوا حقـــوق ملكية الارض باسم القنصل الفرنسي في مصـــوع . ثم عاد القنصل وحول حقـــوق الملكية الى مشروع آخر . وهكذا طويت صفحة هذا الموضـــوع .

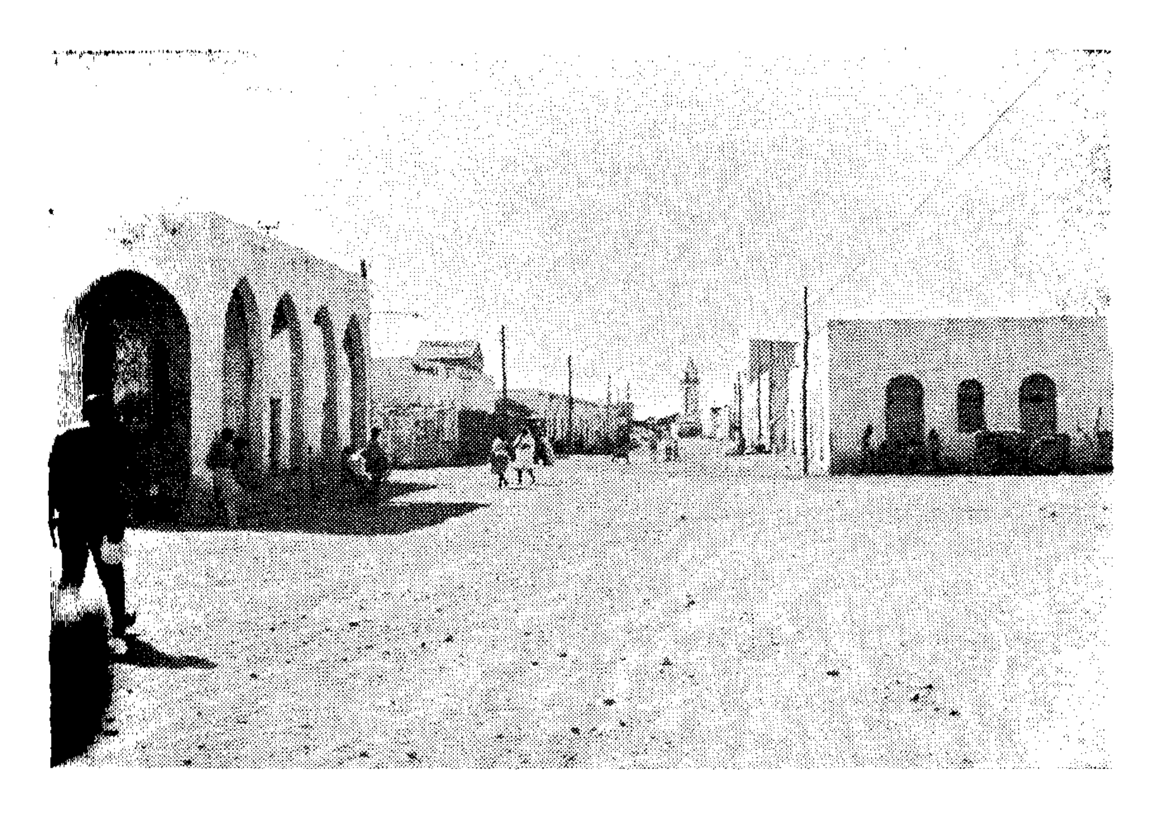


ثم عادت فرنسا الى الميدان بمحاولة جديدة حققت فيها نجاحا هائلا اغضب الانكليز . اذ لم يرق لهم ظهور منافس لهم بعين المنطقة . فهذه القفزة من جانب فرنسا لم تحقق لها موضع قدم على الساحل الافريقي فحسب بل ثبتت أقدامها في مركز ستراتيجي بالغ الاهمية ، أقام في حينه الامبراطورية البريطانية واقعدها - مركز في مضيق باب المندب . فقد تمكن القنصل الفرنسي في عدن من اقنـاع زعماء الدناقل لبيع ميناء اوبوك Obok الواقع على الساحل الشمالي من خليج تاجورة مع الاراضي المحيطة به الى الحكومة الفرنسية بمبلغ قدره عشرة آلاف دولار أو ما يساوي ٥٠ ألف فرنك فرنسي . ونجحت المحاولة وتمت الصفقة سنة ١٨٦٢ فيما كانت قناة السويس ما زالت بدور الحفر والانشاء . وكانت فرنسا تتحرى عن موقع بحري في هذه المنطقة لتزويد البواخر بالفحم .

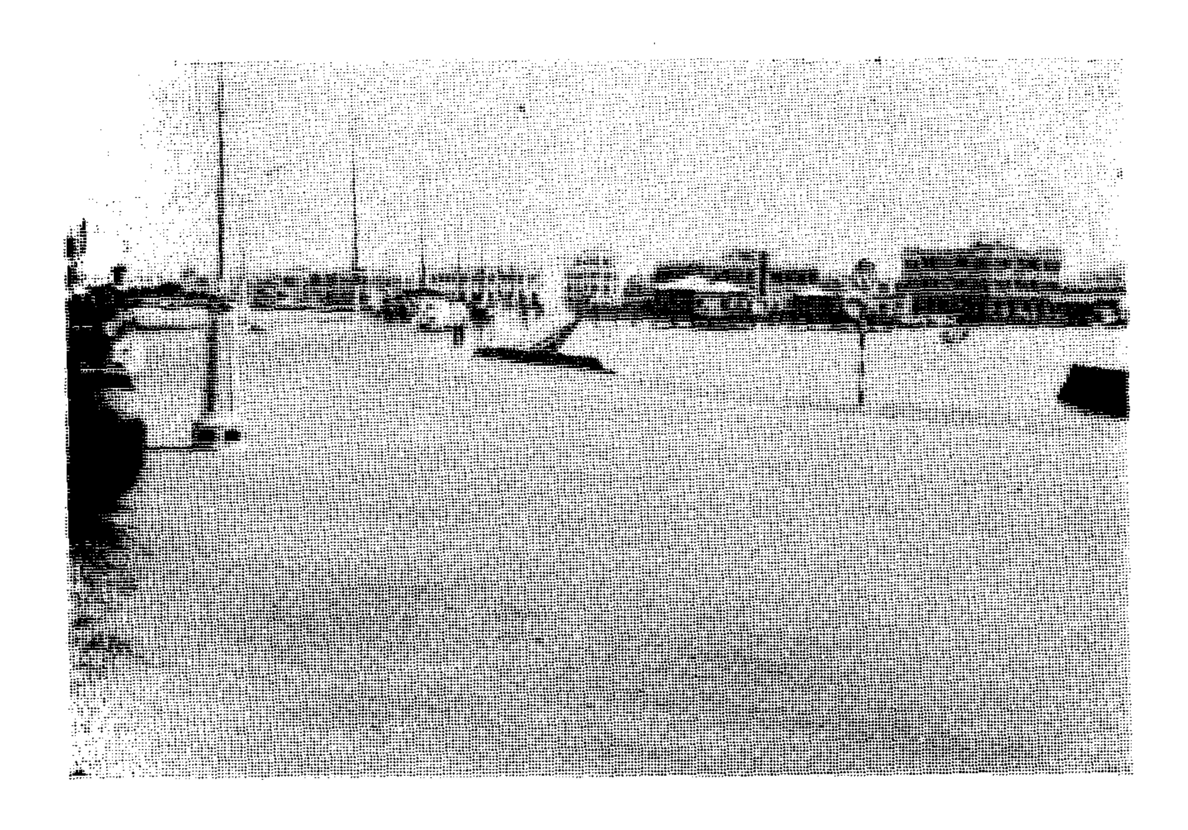
لم تمض فترة طويلة على اجراء هذه الصفقة حتى ظهر بأن الاراضي المجاورة الى أوبوك لا تصلح للمواصلات مع داخل البلاد (والمقصود بداخل البلاد هنا الحبشة طبعا) . أو بتعبير آخر فان ميناء اوبوك لم يخدم الهدف ولا بد من معالجة الموقف من جديد . وأخيرا تغلب الفرنسيون على هذه العقبة بشكل أفضل من عملية الشراء الاولى . فعلى الرغم من وجود معاهدة سابقة ترجع الى سنة ١٨٤٠ ، أبرمت بين سلطان تاجورة وشركة الهند الشرقية (البريطانية) لا تسمح للسلطان بالدخول في أي اتفاق مع أية دولة اخرى دون الرجوع الى حكومة عدن ، فقد تمكنت فرنسا من التفاهم معه سنة ١٨٨٤ ثم في سنة ١٨٨٥ على تأسيس مستعمرة حول خليج تاجورة أطلق عليها فيما بعد اسم « الصومال الفرنسي » بموجب معاهدة خاصة أصبح (أي سلطان تاجوره) بمقتضاها تحت الحماية الفرنسية منذ ذلك التاريخ .

وبالنظر لصعوبة المواصلات البرية بين اووك والداخل فقد نقلت القاعدة الفرنسية من ذلك الموقع الى جيبوتي سنة ١٨٩٢ وأصبحت مقرا للحكومة ايضا . ولما اعتلى الامبراطور منليك الثاني عرش الحبشة عقدت معه اتفاقية لمد خط للسكة الحديدية يربط عاصمة الحبشة اديس ابابا بميناء جيبوتي الجديد . اما فرنسا فكان هدفها من تأسيس مستعمرة في خليج تاجورة ومد خط للقطار من الساحل الى اديس ابابا واضحا للمراقبين السياسيين ومعلوما ، هو أولا الحصول على مركز ستراتيجي على طريق الهند ، وثانيا محاولة ايصال خط القطار تدريجا من اديس ابابا الى مستعمرتها « الكونغو برازافيل » في اواسط افريقية ، وليس كمحطة لتزويد البواخر بالفحم فحسب كما جاء بالاهداف المرئية .





حي المسلمين في عصب وقد بدت المنارة في نهاية الشارع



جانب من العمارات التجارية في ميناء مصوع



الايطاليون

بينما كان الانكليز والفرنسيون منهمكين في تثبيت مراكزهم حول باب المندب كان الايطاليون يخططـــون باتجاه آخر على المدى البعيد ـ يستهدف الحبشة نفسها . فركزوا نشاطهم بادىء ذي بدء حول ميناء عصب الذي لم يكن في الحقيقة ميناء بالمعنى الصحيح بل مركزا للسفن المحلية وصيد الاسماك . ففي السنة التي افتتحت فيها قناة الســويس ـ ١٨٦٩ ـ جاء قس ايطالي يدعى الاب سابيتو Sapeto واشترى ميناء عصب نيابة عن شركة روباتينو الايطالية للملاحة

Rubatino Shipping Company

وكانت الحبشة في هذه الفترة تعاني من أشد حالات الضعف والانهيـار الاجتماعي والاقتصادي ، علاوة على الاضطرابات الداخلية . ولذلك فقد ازداد نشاط الايطاليين في هذه الظروف . وتمت صفقـة الشراء دون صعوبة من زعيم المنطقة وهو السلطان ابراهيم . فأصبح بعد ان باع هذا الميناء يلقب بـ (بائع عصب) ولا يزال قصر هذا السلطان خارج المدينـة يسكنه بعض أحفاده وقد تهدم بعضه خلال الحرب العالمية الثانية .

وما أن حل عام ١٨٨٥ حتى أعلن الايطاليون ان ميناء مصوع اصبح مستعمرة ايطالية ، بعد أن احتلوه بصـــورة مباغتة من المصريين الذين كانوا قد استأجروه سنة ١٨٦٨ من الاتراك .

ولم يكتف الايطاليون بهذا القدر من المكاسب بعد حصول الانكليز والفرنسيين على حصة الاسد من خلال هذا التنافس للنفوذ الى افريقية. فلما احتل الانكليز الساحل الجنوبي لخليج عدن بكامـله تقريبا وأقاموا هناك محميـــــة الصومال البريطاني ، سارع الايطاليون فاحتلوا بقية الساحل الافريقي على هذا الخليج اعتبارا من بندر زياده فجنوبا عـلى المحيط الهندي حتى تجاوزوا مينـــــاء قسمايو بقليل : فدخل ضمن الاراضي التي احتلوها حوض نهر جوبا (أو نهر الجب) ومصبه قـرب ميناء قسمايو . الا ان الاحتلال الايطالي لهـــــذه البلاد لم يتم بالسرعة الخاطفة كما توقعوا . اذ لم يكن من السهل اكتساحها بالنظر للمقاومة الشديدة والتضحيات البطولية التي أبدتها القبائل الصومالية الشديدة المراس . فأمتدت عملية احتلال الصومال من سنة ١٨٨٨ حتى سنـة ١٩٠٥ عندما استتب لهم الامر وأخضعوا القبائل المناوئة لهم بقوة السلاح واطلق على البلاد اسم « الصومال الايطالي » .

٢ ـ ذيول الحركة المهدية في السودان

على اثر انتشار الحركة المهدية في السودان أصبح موقف الانكليز وبقية الاجانب وبضمنهم المصريين هناك حرجا جـــدا . فالثورة المهدية انبثقت نتيجة ما حل بالبلاد من فساد الادارة المدنية وتسيب الامـــور والتفسخ وسوء الاحوال المعاشية منذ ان احتـــل المصريون السودان .

ولذلك فالموظفون المصريون والاجانب الآخرون المنتشرون في المدن والقرى المتناثرة في هذا القطر الواسع ، والمفارز المصرية ونقاط حرس الحدود باتوا جميعا مهددين بالهلاك . ولم يتمكن الانكليز ازاء هذه الحركةالجارفة من تلافي الوضع الناشيء بمفردهم من أجل سحب الاجانب وتجمعات الجيش المصري من الاماكن النائية من الاراضي الحبشية المتاخمة لحدود السودان .

والانكليز كانوا منذ احتـــلالهم لمصر سنة ١٨٨٢ ، مدركين سوء الاحوال في السودان وأن خطر الحركة المهدية يتفاقم ويتأزم وانهم لــن يستطيعوا مجابهته دون مساعدة خارجيـــة . فلذلـــك قـــرروا الاتصال بالامبراطور يوحنا الرابع ليتدخل بجيشه لانقاذ المـــوقف في المناطق المتاخمة للحبشة والتي كانت ما زالت تحت الحكم المصري . وبموجب الاتفاقية التي عقدوها معه في ٣ حزيران (يونيو) ١٨٨٤ حصل الامبراطور عـــلى ضمان انسحاب المفارز المصرية من كافة الاراضي الحبشية التي كـــانت تحت احتلالهم والتخلي عن كافة تجهيزاتهم ومعداتهم الحربية ومخازن مؤنهم في منطقة بوغوس Bogos الى السلطات الحبشية مقـــابل ضمان عدم تعرض المفارز المصرية لاي اعتداء أو أذى عند انسحابهم من الاراضي الحبشية . الا ان الانكليز لم يوافقوا على طلبات الامبراطور المتكررة باعادة سيادته على ميناء مصوع . لكنهم عوضا عن ذلك تعهدوا له بحرية المرور للتجارة الحبشية تحت حمايتهم في هذا الميناء .

وكان الامبراطور قد أوفد من جانبه الراس علوله Ras Alula لتنفيذ الاتفاقية المعقودة بينه وبين الانكليز واستلام المواقع التي ستنسحب منها المفارز المصرية في الشمال الغربي من البلاد . الا ان هذه العمليـــة لم تتم بصفاء وحسب الشروط المتفق عليها ومن اجل ذلك تكبد الاحباش بعض الخسائر . واختمرت الفكرة عنـــــدهم انهم لم يربحوا من هذه الاتفاقية وربما راحوا ضحية خدعة انكليزية . والانكى من ذلك انه بعد مرور أقل من عام واحد على تنفيذ الاتفاقية التي ضمن الانكليز بموجبها حماية التجارة الحبشية خلال مرورها بميناء مصوع دخـــل الايطاليون هذا الميناء في ٣ شباط (فبراير) ١٨٨٥ فاتحين ولم تثمـــر احتجاجات الامبراطور على ذلك . وسرعان ما احتل الايطاليون مواقع اخرى عـــلى الساحل . وبذا أصيبت تجارة الحبشة الخارجية بنكسة جديدة . وكما يقول المثل : « المصائب لا تأتي فرادا » .

ففيما كان الامبراطور يتلقى الضربات من الايطاليين واذا بجيـــوش المهدي تهاجم تجمعات حبشية في موقع يقال له (القلابات) . فأسرع يوحنا لخوض المعركة بنفسه فجرح فيها جرحا بليغـــا أودى بحياته . وبوفاة يوحنا الرابع عادت الاحوال الى الاضطراب وخيم الغموض عـــلى الجو السياسي قبل تولي منليك ، ملك اقليم شوا ، عرش البلاد بصفـــة



الامبراطور منليك الثاني .

وفي خضم هـــذا الجو المشحون بالقلق على مستقبـــل البلاد ومصيرها انتهزت ايطاليا الفرصة فاحتلت اريتريا بكاملها سنة ١٨٩٠ واعلنتها مستعمرة ايطالية .

٣ ـ الموقف يتغير مع ايطاليا

وخلال فترة انشغال الاحباش بوفاة امبراطور وتنصيب آخر خلفا له لم تفت الايطاليين هذه الفرصة الذهبية للانطلاق بكل قواهم للتوغـل عمقا داخل الهضبة لتوسيع رقعة الاراضي المحتلة التي أصبحت تحت هيمنتهم . فاحتلوا اقليم تيغره بكامله . وكان هذا الاقليم مركز الثقـل في السياسة الداخلية لانه مسقط رأس الامبراطور يوحنا الرابع وقاعدة حكومته . فلما تولى منليك الثاني العرش نقل عاصمة البلاد الى اقليمه شوا ، فانعكست الآية بالنسبة لاقليم تيغره وأسدل الستار عليه . وبعد أن ثبت الايطاليون أقدامهم في مرتفعات تيغره سهل عليهم التقدم بحرية في تلك الاصقاع فاحتلوا أسمرة الواقعة على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم عن سطح البحر . وكان ذلك سنة ١٨٨٩ . وبعد أن استتب لهم الامر فيها نقلوا قاعدة عملياتهم وادارتهم من مصوع اليها حيث المناخ المعتدل اللطيف . وبعد حوالي ثماني سنوات من احتـــلالها ، أي في سنة ١٨٩٧ قرروا وضعها تحت ادارة أول حاكم مدني هو السنيور مارتيني F. Martini وهنا بذل الايطاليون جهودا حثيثة لتخطيط المــدينة وتجميلها وجعلها صالحة لسكن الاوروبيين .

الا ان استمرار الايطاليين بتوسعهم الاقليمي على هذا النحو أقلـق الامبراطور الجديد وأقض مضاجـــع رجال حكـــومته . فارتأوا بعد مشاورات طويلة ان مصلحة البـــلاد التي أنهكتها الحروب وضعضعت اقتصادياتها وفرقت فيما بين أقاليمها وممالكها ، تحتم مهادنة الايطاليين والدخول معهم في علاقات جديدة تحدد بموجب اتفاقية يوافق عليهـا الطرفان . وفعلا تم التوصل الى هذا الهدف وأبرمت اتفاقيـة سميت باسم الموقع الذي أبرمت فيه وهو قرية اوشيالي Uccialli (١) واصبحت منذ ذلك الحين تعرف باسم اتفاقية اوشيالي التي وقعت في سنة ١٨٨٩ .

ولكنه سرعان ما نشأ سوء تفاهم عميق بين الطرفين حـول تفسير المادة ١٧ من الاتفاقية . فقد عللها الايطاليون انها تعني وضع اثيوبيا تحت الحماية الايطالية فيما فسرها الاحباش على نقيض ذلك ورفضوا التفسير

---

١ ـ هذه هي الطريقة الايطالية لكتابة هذا الاسم
اما بالانكليزية فتظهر بالشكل التالي ـ Wuchali



الايطالي رفضا باتا لمغايرته روح الاتفاقية وأهدافها من الاساس . فلما اصر الاحباش على موقفهم بكل عزم واباء قرر الايطاليون اللجوء للقوة وتحكيم السيف بدل المنطق . وهذا هو أسلوب القوي غالبا . وبات واضحا للطرفين بأن لا مناص من القتال فأخذوا بالاستعداد لذلك . اما الايطاليون فكانوا واثقين من ان النصر سيكون حليفهم نظرا لموقف الاحباش الضعيف المزعزع ، وانهم سيقضون على منليك ، الامبراطور الجديد المغرور ، وجيشه فيواصلون زحفهم لاحتلال الهضبة كلها . الا ان الرياح تجري أحيانا بما لا تشتهي السفن .

وقعت الحرب بين الطرفين وكان أولها مناوشات طفيفة ما لبثت أن انقلبت الى حرب ضروس . ففاجأ الاحباش الايطاليين بهجوم قوي مركز استماتوا فيه ، غير مبالين بالتضحيات التي قدموها حتى كتب لهم النصر المحقق على عدو يفوقهم عددا وعدة وتدريبا . وكانت المعركة قد وقعت في موقع يقال له « عدوه Adwa » في سنة ١٨٩٦ . اما الايطاليون فقد منوا بخسائر لا تقدر وقد أبيد جيشهم تقريبا وقتل عدد كبير من الضباط والجنرالات . وظلت ذكرى موقعة عدوه لطخة عار في جبين التاريخ الحربي الايطالي .

وقد علم الاحباش خصمهم درسا بليغا في الايمان والتضحية والبسالة . ومنذ ذلك التاريخ احتلت معركة عدوه أبرز وأنصع صفحة في سجل انتصارات الجيوش الحبشية ، وتدرس في المدارس ويشار اليها بفخر واعتزاز . ومن الناحية الواقعية فقد قضت هذه المعركة على اماني الايطاليين في الحبشة . وبات تفكيرهم بالتورط في مجازفة كهذه ضربا من الخيال – على الاقل لفترة الاربعين سنة التي تلتها . ويذكر القارىء ان ايطاليا تحت الحكم الفاشيستي عادت الكرة فاحتلت الحبشة سنة ١٩٣٥ ثم دحرت على أيدي الحلفاء في الحرب العالمية الثانية كما سيجيء بحثه فيما بعد .

٤ – موقف روسيا القيصرية

لم يكن الروس بغافلين عما كانت تبذله الدول الاوروبية من جهود للسيطرة على افريقية وللحصول على مكاسب اقليمية . وروسيا كما هو معروف تتطلع منذ أمد بعيد للوصول الى المياه الدافئة . فبالنسبة للحبشة فأمرهم سهل معها . فأخذوا يتقربون منها ويتوددون اليها عن طريق وتر حساس هو صلاتهما الدينية الوثيقة . فكلا الكنيستين الروسية والحبشية على المذهب الارثوذكسي . وهذه احسن وثيقة مرور للروس . وتمكنوا عن طريق صحفي روسي لبق هو المسيو ليونتيف Leontieff ، من دعوة جماعة من الاحباش لزيارة روسيا ، على نحو ما تفعل الدول في الوقت الحاضر . وتم ذلك فعلا ، لكنه لم تتبع هذه



البادرة زيارات أخرى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حيث بات الروس والدول الاوروبية الاخرى يتنافسون في تقديم العون الفني وغيره للدول النامية ومن ضمنه الزيارات التدريبية كما تسمى .

وحتى أواسط الخمسينات من هذا القرن لم يكن الروس تمثيل سياسي في كافة الاقطار الواقعة بين القاهرة وجنوبي افريقية سوى الحبشة . فكان كل النشاط الروسي في افريقية يمر عن طريق سفارتهم في اديس ابابا . اما في الستينات فتضاعف النشاط الروسي وبعثاتهم السياسية والفنية وأخذ يزاحم الدول الاوروبية والولايات المتحدة في بذل المزيد من المساعدات الفنية وغيرها لعدد كبير من الاقطار الحديثة العهد بالاستقلال . فخلال ذلك العقد (عقد الستينات) إعلن استقلال ١٨ قطرا، منها ١٧ قطرا افريقيا هي : النايجر وتشاد وجمهورية افريقية الوسطى ، والصومال وملغاسي (جزيرة مدغشقر) والكونغو ليوبولدفيل (زائيري حاليا) والكونغو برازافيل وغابون والكاميرون ونايجيريا وداهومي وتوغو وساحل العاج والسنغال وموريتانيا ومالي وفولتا العليا . اما القطر الثامن عشر فهو جمهورية جزيرة قبرص . والسؤال الذي كان يطرح نفسه أحيانا هو كيف كانت الامدادات العسكرية تصل الى قبائل (ماو ماو) في كينيا ــ عن طريق اديس ابابا ؟

ومنذ سنة ١٨٩٦ كانت تتوافد الى الحبشة بعثات طبية روسية لمساعدتها في السيطرة على ومكافحة الاوبئة المتوطنة المتفشية بين السكان وذلك على هيئة وحدات من الصليب الاحمر الروسي . اما حاليا فقد اسس في اديس ابابا مستشفى فيه المعدات الحديثة الكافية وعدد من الاطباء وان كان لا يضاهي في نطاق خدماته المستشفى السويدي مثلا .

٥ ــ اليابان تنشد التوسع

كانت اليابان آخر غريم جاء يخطب ود اثيوبيا بعد ان فتحت ابوابها للتجارة العالمية بعد الحرب الكونية الاولى . ومما دفع اليابانيين على مغازلة هذا القطر الافريقي توفر المواد الخام فيه لصناعاتها المتطورة وايجاد أسواق لمنتجاتها الرخيصة . وكانت بعثة يابانية تجارية قد زارت اثيوبيا سنة ١٩٣٢ ــ ٣٣ ، على وشك ان تعقد صفقة مربحة خيالية مع الامبراطور لولا تضافر جهود الانكليز والفرنسيين والايطاليين لاحباطها . فقد وجدت هذه الدول الثلاث في توغل اليابانيين في هذه البلاد تهديدا مباشرا لمصالحهم ليس في اثيوبيا فحسب بل في شرقي افريقية . ولذلك أوعزت لسفرائها بالعمل على خنق الصفقة اليابانية في مهدها مهما كلف الثمن . فتكللت مساعي السفراء بالنجاح ، وعادت



البعثة اليابانية الى بلادها خالية الوفاض (٢) .

وقد علم ان البعثة اليابانية كانت قد اقنعت الامبراطور وحصلت منه على امتياز لاستغلال ١،٦٦٠،٠٠٠ فدان من الاراضي ، اي ما يقرب من ٤ ملايين دونم عراقي ، في زراعة القطن . كما حصلت على امتياز آخر باحتكار زراعة خشخاش الافيون . فلا عجب اذن ان تثور ثائرة الانكليز ضد هذا المشروع الـذي اعتبروه منافسا لمشروع الجزيرة بالسودان الذي كان في بداية تكوينه يصارع عقبات التأسيس ومشاكل مالية متنوعة .

وكانت اليابان تستهدف من وراء هـذا المشروع الضخم ايجاد متنفس للانفجار السكاني وتشجيع الفلاح الياباني على الهجرة الى هـذه البلاد باعتبارها ما زالت بكرا في خاماتها وامكانياتها وأقرب قطر لها في شرقي افريقية . وكانت حكومة اليابان عـلى وشك الشروع بتأسيس مكتب للهجرة الى اثيوبيا بعد أن أوصدت الولايات المتحدة ابوابها بوجـه اليابانيين . وقبل هذا كان التجار ووكلاء الشركـات اليابانية قـد ذللوا الصعاب امام البضائع التي تنتجها مصانعهم وتوغلوا في مجاهل اثيوبيا بحثا عن الاسواق لها .

---

2 — The Abyssinians, by C.F. Rey — page 232.



الفصل الثامن

الرحالة الاجانب

الجهود الاولى

قبل أن تمتد يد الاستعمار الى افريقية في اواسط القرن التاسع عشر توافد عليها عدد غير قليل من المغامرين الشجعان وهواة الاكتشافات من مختلف الملل والجنسيات . وراحوا يجوبون العالم المجهول غير هيابين بما تخفيه لهم الاقدار وراء ادغالها الكثة وقبائلها المتوحشة . قصدهـا بعضهم لمجرد اشباع رغبة شخصية يدفعها طمـوح أصيل للاستزادة بالمعرفة وكشف اسرار المجهول . وقصدها بعضهم للاتجـار بالعبيد . وجاءها آخرون للتبشير بالمسيحيـة . وضحى الكثير منهم بحياته . وعشرات منهم ضاعوا وتفرقوا ولم يعد أحد يسمع عنهم شيئا فطويت أسماؤهم بصفحات النسيان . ولا شك ان كثيرين منهم فتكت بهم القبائل طمعا بما كانوا يحملون من مال . اما الامراض والحشرات والحيوانـات المفترسة فقد اخذت نصيبها منهم ثمنا لمغامراتهم البطولية .

كم منهم من دخل الصحراء الكبرى ولم ينفذ من الجانب الآخر . وكم هو عدد الذين تسلقوا جبل كيليمنجارو ولم يعودوا من القمة او لاقوا حتفهم قبل بلوغها . ناهيك عن عدد الذين فقـدوا حياتهم محاولين اكتشاف منابـع النيل الازرق والنيل الابيض والزامبيسي والنايجر وغيرها ، علاوة على من راحوا ضحايا الغابات المطريـة في قلب القارة الآهلة بالقبائل من آكلي لحوم البشر . فقصة الرحالة الاوروبيين الـى افريقية قصة طويلة لا تتسع لها أهداف هذا الكتاب . ولذلك فسنقتصر على ذكر بعض الامثلة البارزة لبعض الرحالة الذين دونوا مذكراتهم فـي الحبشة وذلك تحاشيا لضياع الوقت .

ان ما جعل للحبشة مكانة فريدة في عالم السياحة والمغامرة هـو تاريخها القديم علاوة على ما هو متوفر فيها من المباهج التي تجتـذب المغامرين من السياح . وقد كتب عنها الرواد الاوائل من القصص المثيرة



عن غرائب عادات اهلها وشعوبها ما جعلها قبلة للرحالة وللامذة التاريخ القديم . فشبه بعضهم جبالها ومناظرها الطبيعية بسويسرة في اوروبا بينما قارنها آخرون ببلاد التيبت في آسيا . واما من الناحية التاريخية فقد نشأت أسطورة في اوروبا في القرون الوسطى عن وجود ملك مسيحي جبار يحكم امبراطورية واسعة النفوذ وافرة الخيرات زاخرة في كنوزها قد تكون في الصين او في افريقية . وقد اطلقوا على هذا الملك اسم (بريستر جون Prester John) أو القديس يوحنا ، ومنذ ذلك الوقت اقترن هذا الاسم الخيالي بامبراطور الحبشة .

وقد اوفدت البرتغال الرسل للبحث عن هذا الملك ومدى عظمته من اجل اتخاذه حليفا ليساعدها في بث الديانة المسيحية . وكانت الرحلة الى الحبشة حتى نهاية القرن الماضي محفوفة بأسوأ الاخطار والمهالك . وكثير من الذين دخلوها لم يعودوا ولم يسمع احد عنهم شيئا . اما الذين رافقهم الحظ السعيد وتمكنوا من الرجوع الى عالم السلامة ودونوا مشاهداتهم فقد ظهر فيها الكثير من التباين والمتناقضات ومنهم من أطلق لخياله العنان في تصوير الامور على غير حقيقتها او بشكل مبالغ فيه فجاءت مذكرات ومدونات بعضهم اقرب الى الاساطير منها الى الواقع . ومع ذلك فالحبشة في القرون الوسطى لم تكن مجهولة في بلاطات الدول الكبرى . فكثير من اخبارها وردت عن طريق الحجاج المسيحيين الذين كانوا يزورون بيت المقدس . ومعلوم ان جالية حبشية استقرت في بيت المقدس وبيت لحم منذ عهد بعيد ولها بيعتها وديرها المشهور هناك . فكانت هذه الجالية في الحقيقة بمثابة همزة الوصل بين الحبشة وملوك اوروبا . وعن طريقها تعرف الحجاج المسيحيون بهذا البلد المسيحي الافريقي .

يصعب تحديد اسم او جنسية أول اوروبي مغامر اقتحم اسوار الحبشة لان التاريخ صامت في هذا المجال . ولكن تحدثت بعض المصادر عن فنان ايطالي رسام جاء من البندقية (فينيسيا) ربما عن طريق بيت المقدس في زمن مبكر يغلب على الظن انه كان حوالي منتصف القرن الخامس عشر او بعيد ذلك . وهناك اشارة الى رحال جاء سنة ١٤٧٨ واسمه فرانسيسكو دي برانكا ليوني Francisco de Branca Leone . لقد اثار مجيئه دهشة واعجابا نظرا للفن الذي تميزت به الواح الرسوم التي انتجها او النقوش التي صنعها على الجدران وعرضها وخاصة لوحة جميلة كبيرة تمثل العذراء مريم وهي تحمل المسيح الطفل على ذراعها . فاعجب بها الملك اشد العجب وأمر بوضعها هي وغيرها من الرسوم التي نالت استحسانه في كنيسته الخاصة .

الا ان هذه الحظوة التي نالها هذا الايطالي من الملك وحاشيته



اغضبت رجال الكنيسة لانهم لم يرضوا على اللوحة التي ظهر فيهـا المسيح محمولا على ذراع العذراء الايسر وقالوا للملك باحتجاج : «الم تر كيف ان هذا (الفرنجي) أظهر المسيح على الذراع الايسر للعذراء بينما كان يجب ان يحمل على الذراع الايمن ، كما تقتضيه تقاليد كنيستنا » . وطلبوا من الملك حرق الصورة وازهاق روح الفنان الايطالي جزاء له على عدم احترام شعائر الكنيسة القبطية . غير ان الملك لم يأبه لاحتجاجاتهم وما أثاروه من معارضة فقد كان منهمكا بحرب داخلية أقضت مضجعه.

لكنه ما من شك في ان الروايات تكاد تجمع على ان أول من دون شيئا يؤبه له عن الحبشة ويعتمد عليه هم الآباء الجزويت في يومياتهم التي ظهرت في كتبهم فيما بعد . فقد كان هؤلاء على مستوى عال من الثقافة والخبرة وسعة الاطلاع . وكانوا مغامرين شجعانا لاقصى حدود التصور . فطافوا في طول البلاد وعرضها طلبا للمعرفـة ولتحقيق رسالتهم الدينية قبل كل شيء . فعاشوا بين القبائل المتوحشة وخالطوها وتعلموا لغاتها وعاداتها . والبرتغاليون الذين جابوا سواحل البحـار حول افريقية سعيا في الوصول الى الهند كانوا السباقين في ايفاد بعثة تبشيرية من الجزويت برئاسة رجـل محنك هو الاب ف. الفاريز F. Alvarez . فحطت هذه البعثة رحالها في مصوع سنة ١٥٢٠ ومكثت في البلاد قرابة ست سنوات انتجت خلالها عددا من المؤلفات القيمة ، نسقها وكتبها رئيس البعثة الاب الفاريز . بعد هذا بعشرين عاما اشتدت وطأة المسلمين على الحبشة فوصلتها نجدة عسكرية برتغالية كان قوامها ٤٠٠ ــ ٤٥٠ فارسا نزلت في مصوع سنة ١٥٤٠ .

ثم أعقبت ذلك بعثات تبشيرية اخرى كانت ابرزها واكثرها فعالية تلك التي جاءت بزعامة الاب بايز Pedro Paez الذي أحدث وجوده في الحبشة ضجة كبرى لمحاولته احلال المذهب الكاثوليكي محـل المذهب الارثوذكسي وهو مذهب البلاد منذ اعتنقت النصرانية ، كما شرحنا ذلك سابقا . فكان صدى هذه المحاولة الطائشة من جانب الاب بايز شيئـا ادى الى طرد المبشرين والاوروبيين كافة من البلاد سنة ١٦٣٣ وملاحقتهم للاقتصاص منهم . وعلى اثر ذلك أغلقت الحبشة حدودها بوجه الاجانب زهاء ١٥٠ عاما ودخلت في عزلة تامة كما سبقت الاشارة الى ذلك .

جيمس بروس الرحالة الاسكوتلندي James Bruce

بعد هذه العزلة الطويلة التي أعقبت طرد المبشرين الجزويت جـاء دور مكتشف ومغامر من طراز آخر يختلف عن رجال الدين هو جيمس بروس الذي وصل الحبشة سنة ١٧٦٩ وغادرها بعد ثلاث سنوات اي سنة ١٧٧٢ . ولقد لمع اسمه بشكل طغى على من سواه من الذين شدوا الرحال الى هذه البلاد . عرف بروس بلباقته وكياسة اخـلاقه وغزارة



علمه اضافة الى براعته في الرماية والفروسية . وبهذه الصفات التي قلما اجتمعت بشخص واحد استطاع ان ينفذ الى اعماق المجتمع الحبشي . بل وبالنظر لقوة شخصيته دخل القصور الملكية واصبح من أقرب المقربين للعائلة المالكة . وبالنظر لالمامه بمعالجة بعض الامراض فقد أصبح بمثابة الطبيب الخاص بها وبرجال الحاشية الملكية والبارزين من رجال الدولة . وفي فترة قصيرة تكونت له شخصية مرموقة في المجتمع الحبشي وأصبح موضع تقدير الخاص والعام .

ولم تكن معلومات بروس ومعرفته الواسعة ولا شخصيته القوية الجذابة ولا فروسيته هي وحدها التي ضمنت له العيش الرغيد والاحترام الكامل من قبل الاحباش طيلة فترة اقامته . لان الاحباش لم ينسوا حقدهم ومقتهم للاوروبيين . فما فتئوا يستجوبون بروس عن حقيقة دينه والكنيسة التي ينتمي اليها . وكان بروس يدرك اسباب استفهامهم والحاحهم في التعرف على حقيقة معتقده . فهو لذلك ما انفك يكيل الذم للكاثوليك مؤكدا لهم المرة تلو الاخرى بأنه على مذهب الكنيسة الانكليزية التي هي بدورها في صراع مزمن مع المذهب الكاثوليكي . فهذه التأكيدات والاعترافات هي التي زادت من اطمئنانهم اليه والثقة بصدق نواياه فقبلوا استضافته برحابة صدر بعد ان بدد شكوكهم نحوه وقلب تخوفهم منه الى اطمئنان ومودة .

ولما عاد بروس الى لندن بعد مكوثه ثلاث سنوات في الحبشة وجد ان سمعته واخبار رحلاته المثيرة قد سبقته الى الجرائد والمجلات . فكتبت عنه جريدة لندنية في حينه ما معناه : « لقد عاد الى الوطن من رحلة افريقية ملؤها المجازفات وغرائب الاحداث شخص يدعى المستر بروس الذي قضى ثلاث سنوات في البلاط الحبشي وكان يفطر كل صباح على لحم البقر النيء مع وصيفات الشرف في القصر الملكي » (١) .

دخل بروس الحبشة عن طريق ميناء مصوع وغادرها عن طريق مملكة الفنج في سنار بجنوب السودان . وقد يكون من المفيد تنوير القارىء عن الاستعدادات التي اتخذها بروس قبل اقدامه على الرحلة . فلقد عرج على القاهرة اول الامر قادما اليها من الجزائر سنة ١٧٦٨ بلباس عربي لكي يتزود بالمعلومات عن الطرق والقبائل وما شاكل ذلك ويحصل ايضا على بعض التوصيات لمن يهمهم الامر عبر الطريق وفي الحبشة نفسها . وكانت مصر آنذاك تحت حكم المماليك . وباسلوبه الخاص تمكن بروس من الوصول الى رئيسهم وكبيرهم علي بك الذي سرعان ما اعجب به واستأنس لسماع مشروع رحلته وما ينوي القيام به

---

1 — Travels To Discover the Sources of the Nile, by James Bruce — page 11



في محاولة لاكتشاف منابع نهر النيل الازرق . وقد دهش علي بك لنوعية وتشكيلة الآلات والمعدات الفنية التي سيحملها معه لاجراء دراساته . ولما كان علي بك نفسه مولعا بالتنجيم فقد وجد في بروس خير جليس وانيس له لبراعته في هذا العلم .

فلما حل وقت رحيل بروس من القاهرة زوده علي بك بثلاث رسائل مهمة من قبيل التوصية ـ واحدة الى شريف مكة وواحدة الى نائب ميناء مصوع (حاكم مصوع نيابة عن الملك) والثالثة الى ملك الفنج في سنار . كما حصل بدوره ايضا على توصيات خطية مماثلة من كبير وزرائه الى مختلف الشيوخ والموظفين المصريين . ولم ينس ان يظفر بتوصيات من بطريارك الكنيسة اليونانية بالاسكندرية للرعايا اليونانيين المنتشرة جالياتهم في كل مكان .

شد بروس الرحال فاتجه بطريق النيل الى اسوان لاجراء بعض الدراسات الاثارية ومنها عاد الى قنا حيث رافق قافلة متجهة الى ميناء قصير على البحر الاحمر . ومن هناك عبر البحر الى طور في شبه جزيرة سيناء ثم جنوبا على الساحل العربي مارا بينبع فرابغ فميناء جدة . وهنا استقر به المقام فترة من الوقت ليعد العدة للمرحلة الاخيرة من السفر الى الحبشة . وصادف ان كان في جدة ساعتئذ مؤسسة تضم بعض التجار الانكليز الذين رحبوا بمقدمه وساعدوه ما استطاعوا . كما ان الرسالة التي حملها الى شرنف مكة من علي بك في مصر اتت ثمرتها المرجوة فحظي بعطف كبير من الشريف .

ومن حسن حظ بروس ايضا اكتشافه بان اكثر وزراء الشريف نفوذا وجاها كان رجلا حبشي الاصل يدعى (مثقال اغا) . ولم يكتف مثقال اغا بتزويد بروس بالتوصيات الخطية اللازمة الى نائب مصوع وغيره بل اوفد بمعيته واحدا من اخلص خدمه المقربين وممن يعتمد عليهم في مثل هذه المهمات . وبعد انجاز الترتيبات النهائية للسفر ابحر بروس فوصل ميناء مصوع يوم ١٩ ايلول (سبتمبر) سنة ١٧٦٩ .

وصلت سفينة بروس الميناء قبيل الغروب . وتحسبا من احتمال ما قد يستغرقه النزول الى البر من وقت طويل وتعرضه لمزعجات الشكليات في الميناء وبعين الوقت تفاديا لما قد يصيبه من سوء خلال الليل في بلد غريب فتنهب امواله قبل ان يتاح له المجال لمقابلة «النائب» فقد آثر قضاء تلك الليلة على ظهر السفينة .

لمحات من المجتمع الحبشي في القرن الثامن عشر
وردت في مذكرات جيمس بروس (٢)

المستر جيمس بروس هو الان في مصوع في طريقه الى مرتفعات

---

2. Travels To Discover The Sources of The Nile, By James Bruce.



الحبشة ، والزمن هو النصف الثاني مـــن القرن الثامن عشر . وكانت حالة البلاد الداخلية سيئة تجتاز فترة مـــن فترات الفليـــان السياسي وفقدان الامن بسبب حرب أهلية استمرت قرابة تسعين عاما بين رؤساء وملوك مختلف الاقاليم . وكانت آخر صفحة من هـــذه المأساة المدمرة تدور حول مقتل ملك اغتيل خلال الاسابيع الثـــلاثة الاولى من وصول بروس الى مصوع . ان للعائلة المالكة مكانة رفيعة في المجتمع الحبشي تصل لدرجة التقديس احتراما لانحدارها من سلالة سليمان الحكيم . الا انه حدث في اكثر من مناسبـــة واحدة أن تجـــاهل الشعب هذه الاعتبارات فعامل الملوك معاملة تنطوي على التأديب والعقاب الصـــارم كما حدث للملوك الذين حاولوا تحويل الكنيسة عن المذهب الارثوذكسي او كما حصل مؤخرا فاغتيل الملك بسبب المنافسات المحلية . وقد ادى مقتل الملك الى شيوع الفوضى في البلاد وأكل القـــوي الضعيف ونشط قطاع الطرق فتدهورت الحركة التجـــارية بين داخـــل البلاد والمدن الساحلية . فلقي مرور بروس بمصوع والبـــلاد تسيطر على سمائها سحابة مشحونة بالازمات ترحيبا حارا من نائب مصوع لانه اعتبرهـــا فرصة ذهبية لابتزاز اموال هذا السائح الغريب بابقـــائه في مصـــوع فترة أطول على أساس الانتظار ريثما تنقشـــع غيوم الاضطرابات ويعود الامن الى حالته الاعتيـــادية . فكان كلما زاره بروس مستحثا ايـــاه لمساعدته في ترتيب أمور السفر أظهر له قلقه وتخوفه من قطاع الطرق المسيطرين على الاماكن الخطرة على طول المسافة بين مصوع والعاصمة . ومرت الايام تلو الايام والقصة ذاتها تتكرر وتعاد على بروس حتى ضاق ذرعا وأخذ الشك يدب الى نفسه عن حسن نوايا هذا الرجل . وبروس منذ اللحظة الاولى لمقابلته له توسم الشرر في عينيه ولم ترتح له نفسه قط . وبرهنت الايام بعدئذ لبروس ان تفرسه في هذا الرجل كان في محله . فقد وضح له مما وصله من أنباء عن طريق خصوم النائب انهذا الرجل المجرد عن الانسانية كان مصمما على الغدر به للاستحواذ عـــلى ما معه من مال وهدايا نفيسة كان يحملها للملوك ، على الرغم من رسائل التوصية المهمة التي حملها له من شريف مكة وعلي بك كبير المماليك في مصر ومثقال آغا .

ومما زاد بروس يقينا عن نوايا النائب الخبيثة مراجعته للموقف في ذهنه منذ المقابلة الاولى في بيت النائب . فقـــد أوصى هذا خدمه بتقديم القهوة الى بروس قبل غيرها . وهذا بمقتضى عادات وتقاليـــد اهل هذه المنطقة لا يدل على كرم الضيافة ولا يعكس الترحاب الحـــار بالضيف . ولو انهم قدموا له اللحوم والشراب أولا لدل ذلك على التكريم والترحيب وعلى ان الطريق امام الضيف أمين ومفتوح . الا ان هـــذه المقدمات والاساليب الدنيئة التي اتبعها النائب في خداع ضيفه ، لم تثن بروس عن عزمه وتصميمه على مواصلة السفر ، وهو ذلك البطل الفارس

الذي لا يهاب المخاطر ويملك من قـــوة الجسم والسلاح ما يزيد ثقته بنفسه امام هذا الصعلوك الغدار .

وفي اليوم الثاني أراد بروس ان يستعرض عضلاته امام النـــائب كاشارة على عزمه على السفر مهما حاول هذا ان يثنيـه عنه . فامتطى صهوة جواده أمام النائب وحشد كبير من أهل المدينة وقدم لهم تظاهرة حية في الفروسية ورماية الاهداف المتحركة من على صهـوة جواده . وقد أذهل الحاضرين بشجاعته وقوة عضلاته وأغضب النائب لمشاهدته هذه البراعة الفائقة في استعمال السلاح الحديث . على كل حال فقبل مغادرته مصوع قدم بروس هدية مناسبة للنائب الذي كان يساومه قبل ليلة للاستئثار بأغلى الهدايا التي حملها في حقائبه .

وبعد أسابيع من الاسفار المتعبة الطويلة التي طـالما تعرض خلالها للهلاك هو ورجاله على أيدي قطاع الطرق لولا ضخـــامة قافلته وقوة السلاح الذي معها ، وصل بروس الى العاصمة في ١٥ شباط (فبراير) ١٧٧٠ وكانت آنذاك في غوندار شمـــالي بحيرة تانا . فاستقبله الملك بمنتهى التحفظ باديء ذي بدء حتى كشف عن نفســـه وأبرز وسائل التوصية التي حملها من جهات عديدة . ولا عجب ان يقابله الملك بتحفظ وموقف أقرب الى عدم الاكتراث لان قصص الآباء الجزويت المروعة التي أدت الى تخوفهم من الاجانب لما تزل عالقة في اذهان الاحباش رغم مرور الزمان . ومن جملة من قابل بروس في العاصمـة هو الرأس ميخائيل حاكم اقليم تيغره الذي كان في الواقع رجل الساعة في الحبشة . فقد كان أقوى حكام زمانه وأكثرهم غدرا وشرا . واليـــه نسب مقتل الملك مؤخرا ابان وصول بروس . وعنـــدما يضعف شأن الملك في الحبشة ويتقلص ظل سلطانه يبرز الى الميدان حـــكام الولايات امثال الرأس ميخائيل الذي أصبح مهاب الجانب مسموع الكلمة .

وعندما تتردى الاحوال الداخلية الى هذه الدرجة ينشيء حكـام الولايات جيوشهم الخاصة ـ كما فعـــل الرأس ميخائيل . فتعيش عساكرهم عيشة ارتزاق وتطفل على سكان الارياف والمزارعين فيجبون الضرائب لحساب الحاكم الذي يستأثر عـــادة بحصة الاسد لنفسه ويرسل شيئا رمزيا للملك . هكذا كانت ظروف الحبشة الداخلية اثناء زيارة بروس لها . وفي تلك الفترة بلغ بروس نبأ اعتزام الرأس ميخائيل تجريد حملة يقودها بنفسه لمحـــاربة أحد خصومه من الرؤوس وهو الحاكم فاسيل Fasil ، وانه خلال مسيرته سيمر ببحيرة تانا ـ من جزئها الاسفل . وهذه هي البقعة التي يحـــاول بروس الوصول اليها بأول فرصة للتحقق من مصدر النيل الازرق . فاستأذن الرأس ميخائيل لمرافقة الحملة حتى منابع النيل الازرق ، اذ كانت هذه فرصة ذهبيـة بالنسبة له من ناحية السلامة والامان .

الا ان جيش ميخائيل بعد مسيـــرة قصيرة حول اتجـاه سيره



بسبب ارتفاع مستوى المياه في النهر فخابت آمال بروس وقفل راجعا الى غوندار بعد فشل أول محاولة له للوصول الى هدفه المنشود . ومما يلاحظ ان شعبية بروس كانت تزداد تألقا يوما بعد يوم بين الناس ـ قادتهم وعامتهم على السواء . فقد صنع المعجزات بين أفراد هذا الشعب المتخلف بمعالجته بعض المرضى المزمنين . وكان قد جلب معه كميات وافية من العلاجات والعقاقير لسابق علمه بانتشار أنواع الامراض المتوطنة والعاهات الناجمة عن فتك الديدان والحشرات الضارة . فكان أينما حل وجد جموعا من المرضى بانتظاره وكأنه نبي أرسله الله اليهم من السماء . وتوافدت عليه النسوة يحملن أطفالهن والشيوخ العاجزون وكلهم يرتجون منه الاسعاف والدواء . وبذلك عظم احترام الناس له وسمت مكانته بينهم .

عادات بربرية

بعد فترة وجيزة من اقامته في غوندار عاد لبروس اشتياقه للسفر وشد الرحال الى البحيرة ومنابع النيل الازرق . فساعده في هذه المهمة هذه المرة الرأس فاسيل Fasil . فذلل له عقبات السفر وهيأ الادلاء والحراس لمرافقته . وكان الرأس فاسيل من أبرز المناوئين للراس ميخائيل قبل اعلانه التحالف مع الملك مؤخرا . فاستدعى له سبعة من رؤساء قبائل غالا الذين ستمر قافلة بروس من مواطنهم وأمرهم بحضوره ، أي بحضور بروس ، بمرافقته وحمايته من أي أذى او سوء اثناء الرحلة . ثم التفت الى بروس على مشهد من هؤلاء الرؤساء وخاطبه قائلا : « اعلم ان هؤلاء الرجال الاشداء أصبحوا الآن اخوانك . فلا تخشاهم بعد الآن ، مع انني أعلم علم اليقين انهم في الظروف الاعتيادية الاخرى يسلكون مع اي فرنجي (أي اجنبي) سلوك أبخس السراق وقطاع الطرق » . « وهم سيرافقونك الى منابع النيل الازرق حتى تنتهي مهمتك وتعود . واعلم كذلك انه بحسب تقاليدهم وعاداتهم عندما يستضيفون شخصيات مرموقة مثلك في بيوتهم فانهم سيعتبرونك واحدا منهم ، وعندئذ باستطاعتك مضاجعة أخواتهم وبناتهم وغيرهن من نسائهم دونما خجل أو خوف . ولا تظنن ان في عادات قبائل غالا قيودا أو اعتبارات اجتماعية أصعب مما عندنا نحن الامهاريين سكان الهضبة » . قال ذلك والرؤساء السبعة يستمعون ويؤيدون اقواله باشارات من رؤوسهم (٣) .

---

3 — Travels To Discover the Source of the Nile by James Bruce page 111.



قلع عيون الاعداء

قال الرأس فاسيل في سياق حديثه مع رؤساء قبائل غالا مخاطبا بروس : « ان هؤلاء الرؤساء يذكرونك ويذكرون باعتزاز بالغ كرم اخلاقك وفضلك عليهم وانسانيتك النبيلة بعد حادثة قلع عيون ٤٨ رجلا من أقربائهم وتركهم هائمين بالطرقات ليلا فريسة للضباع بناء على أوامر الرأس ميخائيل » . وهنا يروي بروس القصة الكاملة لهذه العملية الوحشية ومصير هؤلاء التعساء الذين ليسوا أول أو آخر من تعرض لمثل هذه المظالم البربرية . فبعد تنفيذ هذه العملية القاسية في هؤلاء على أيدي جلاوزة الرأس ميخائيل استطاع بروس انقاذ حياة ثلاث من الضحايا البائسين الذين اقتلعت عيونهم وذلك بادخالهم الى بيته وايوائهم ومعالجتهم حتى شفوا . فلولاه لكان مصيرهم مصير زملائهم الذين لم يجرؤ أحد على اسعافهم خوفا من الرأس ميخائيل ، فتركوا في الطرقات وشأنهم حتى افترستهم الضباع ليلا .

وكانت عادة قلع العيون ، ينفذها المنتصر في خصمه ، من الامور المألوفة في تاريخ الحبشة . وكانت العملية تجري امام حشد من الناس بين صيحات وآهات نساء الضحايا وأولادهم وأقربائهم ، فيما كان المنتصر ـ حسب العادة المتبعة ـ يتوسط الجميع ليرى العملية تجري بحضوره ليشفي غليله . ولهذا السبب ، يقول بروس ، كانت القرى والمدن عرضة لهجمات الضباع والحيوانات الكاسرة الاخرى ليلا اذ تغشى الطرقات بحثا عن الجثث البشرية المتناثرة في الشوارع . ويروي انه كاد يجن ويفقد رشده في أوائل أيامه عندما كان يرى الجثث البشرية او أوصالا منها متقطعة ومرمية هنا وهناك نتيجة سحل ونهش الحيوانات لها .

ويقول انه كثيرا ما كانت كلابه تخرج من البيت ليلا فتعود وهي تحمل جمجمة آدمية أو ساقا مهشمة لتلتهمها في فناء الدار بمأمن من الضباع أو منافسة الكلاب الاخرى . ويذكر ان على المرء اذا خرج ليلا من داره ان يحترس ويستعد لاستعمال سلاحه بأية لحظة ، فقد تداهمه الضباع وهو في غفلة منها . ولذلك جرت العادة بين الناس أن لا يخرجوا فرادا بل جماعات جماعات حفظا على أرواحهم .

اللحوم النيئة في الليالي الحمراء

عرف عن الاحباش منذ أقدم العهود تلذذهم بأكل اللحوم النيئة ، وخاصة لحوم البقر ـ وربما لكثرتها عندهم . وفي الاعياد والمناسبات الكبيرة تنصب الموائد الطويلة استعدادا لهذه الوليمة التي لا تشتمل على أي نوع آخر من الطعام سوى اللحوم النيئة . فتجلب أطباق كبيرة ملأى بقطع اللحوم المختلفة الاحجام بعظامها وشحمها ودمها وتوضع امام



المدعوين لينهالوا عليها دونما حاجة الى سكين أو ما شابه الا نادرا وذلك لتقطيع الاجزاء الكبيرة . ويفضل عندهم اكل اللحم النيء طازجا اي بعد ذبح البهيمة مباشرة . وكثيرا ما يؤتى باللحوم وكأنها تنبض حياة وحركة والدم يسيل من جوانبها . ومن عاداتهم ايضا استعمال كميات كبيرة من التوابل الحادة . اما عن الخمرة وكميات النبيذ التي تحتسى بهـــذه المناسبات فحدث عنها ولا حرج .

وبعد هذه المقدمة الوجيزة عن أكل اللحـوم النيئة فلنترك المستر بروس يصف لنا كشاهد عيان ليلة حمراء في غوندار قوامها اللحم النيء والخمرة والنساء .

يقول بروس في يومياته (٤) بوصف وليمـة حضرها بنفسه : اما هذا النوع من الولائم فما اكثره في الحبشة ــ في المدينة او الريف ، في القصور أو الاكواخ ، أو بكلمة اخرى حيثمـا اتفق ان يجتمع نفر من الاصدقاء والاحباء من كلا الجنسين لتناول عشائهم في ساعة متأخرة من الليل ، فينصبون مائدة مناسبة لعددهم من الشراب ، يضعون حولها المصاطب (ولم تكن الموائد ولا المصاطب معروفة في الحبشة قبل مجـيء البرتغاليين) ثم يأتون بثور أو بقرة يربطونها في باب الحجرة أو الكـوخ ويشدون وثاقها . فيتقدم منها اثنان او اكثر من المشتركين في الوليمة يتولون اقتطاع اللحم من جسم البهيمة وهي حية منتصبة على قوائمهـا الاربع . فيبدأ الدم يسيل منها نتيجة الجروح البليغة التي أحدثوها في جسمها وهي تملأ الفضاء خوارا من شدة الالم . وتؤخذ قطع اللحم الى الجالسين والجالسات وهم يعاقرون الخمرة ويأكلون . واللحم يؤكـل ملفوفا بأقراص من الخبز المصنوع من نـوع من الحبوب يدعى « تيف Teff » بالامهارية .

وكلما شح اللحم من المائدة خرج نفر آخر لاقتطاع المزيد منه مـن جسم هذه البهيمة المسكينة . وتتكرر هذه العملية مرات عـديدة حتى تغدو البهيمة هيكلا عظميا تقريبا . وهي قبل ان تصل الى هذه المرحلة تكون قد فارقت الحياة وهوت على الارض . واقتضت التقاليد ان تكون من مهمات النساء الحاضرات في مثل هـذه المناسبات اطعام الرجال بأيديهن . وطريقة ذلك هي ان يجلس كل رجـل بين امرأتين تتناوبان اطعامه . فتبدأ الاولى بتناول شريحة من اللحم تقطعها الى شرائح أصغر وأدق ، تضعها على كسرة من الخبز ثم تلف الكسرة لفتين أو ثلاث لفـات تكوّن منها لقمة كبيرة تتناسب مع نهم الرجل فتدفعها الى فمه ليبدأ هو صراعه مع اللقمة السمينة حتى يجيء دور الجليسة الثانية فتعيد نفس العملية وهكذا دواليك .

---

٤ ــ المصدر نفسه ــ صحيفة ٧٩ ــ ٨١ .



وبعد أن تمتلىء البطون وتكـــون الخمرة قد لعبت في رؤوس الحاضرين من كلا الجنسين يبدأ فصل جـديد من مسرحية السهرة . وتتوقف لغة الكلام وتتولى الامر لغة العيـــون بين أي جليس واحدى جليستيه . فهنا تنتفي الحاجة الى المواعيد وآمال اللقـــاء البعيد او الانتظار . فينسحبان عن المصطبــة ليفترشا أرض الحجرة دون مبالاة أو خجل اذا ما استمع الآخرون أصوات الفرام وهما يتبادلانها فيما يرفع أقرب شخصين اليهما رداء لحجب منظر الخليلين المتعانقين . حتى اذا ما أشبعا رغبتيهما غراما مفضوحا رخيصا عادا الى مقعـديهما . عندئذ يشرب الحاضرون نخبهما دونما تعليق أو تلميح من أحد ، وكأن شيئـا لم يحدث . وقد يكون المشتركون في هذا الفصل من المسرحية كثيرين . ولكل مجتمع عاداته ومفاهيمه في الاخـلاق ، والقرن الثامن عشر غير القرن العشرين .

وسائل الزينة عند بعض القبائل (٥)

من أغرب القصص التي رواها بروس عن المجتمع الحبشي فيالقرن الثامن عشر ما يتعلق بوسائل الزينة عند الرجال في بعض المناسبات . وهنا يروي قصة واقعية لرئيس قبيلة من قبائل غالا في المنطقة الشرقية اذ جاء يحيي الملك بمناسبة عودته الى عاصمة ملكه . ويدعى هذا الرئيس غوانغول .

وصل موكب هذا الزعيم العاصمة وهو مؤلف من اربعين خيـالا و ٥٠٠ من المشاة الحفاة . أما زعيم القبيلة غوانغول فقد امتطى ظهر بقرة صغيرة الحجم لدرجة ان قدميه كادتا تلامسان الارض ، طويلة القرنين تمشيا مع العرف السائد في مواطن هذه القبيلة . وقد حمل موكبه بعض الهدايا النفيسة للملك وعددا كبيرا من القرون الفريدة بضخامتها التـي تصلح لحفظ نبيذ الملك خلال رحلاته . ووفقا للعادات الدارجة فيقبيلته فقد استعمل قطعا من مصارين البقر لضفر خصل شعره ونسجه بشكل وبطريقة لم يعد من الممكن معها التمييز بين خصـل شعره والمصارين . ثم أضاف الى هذه الزينة بأن جعل عددا من المصارين تتدلى فوقصدره ومنكبيه . وعلاوة على ما توج به رأسه على نحو ما ذكرنا فقد وضع لفتين أو أكثر من المصارين حول عنقه وضعف هذا العدد حول وسطه .

وقد ارتدى ثوبا قصيرا لم يغط حتى ركبتيـــه وقد شبع الرداء بالزبد السائل . ويبدو ان عادة تنقيع الرداء تقريبـــا بالزبد السائل هو للدلالة على توفر الخيرات في بلادهم ، حتى اصبح كل جسده من قمة

---

٥ ـ المصدر نفسه ـ صحيفة ١٨٨ ـ ١٩٠ .

راسه الى اخمص قدميه يقطر مزيجـــا من الزبد السائل ومحتويات المعلقـــات .

بهذه القيافة العجيبـــة وفد غوانغول للسلام على الملك وتهنئته بسلامة العودة . فوقف الموكب في باب الخيمـــة الملكية بانتظار الاذن بالدخول . اما الملك فكان قد تربع عـــلى كرسي فخم من العاج المغطى بالافرشة والوسائد الحريرية القرمزية اللون . كان النهـــار شديد الحر وكانت روائح هذه الزيوت والشحوم تنبعث مـــع النسيم الى الداخل فتفسد رائحته . وما ان وقع بصر الملك على منظر الزائر العظيم عن بعد وهو بهذا الزي البشع المضحك حتى انطلق بقهقهة دوت في أرجاءالخيمة الواسعة وانسحب من مكانه الى زاوية اخرى . وبعد هنيهة وصل الاذن للزائر بالدخول فترجل عن البقرة ودخل الخيمة . فلما شاهد كرســـي العاج خاليا ظنه انه قد أعدّ له . فتوجه اليه رأسا واحتله فلطخ فراشه ووسائده بالسوائل المنبعثة من ثيابه ووسائل زينته . ولكن سرعان ما اقبل الخدم عليه . وبين الصيحات والرفسات واللكمـات أخرجوه من الخيمة لعلمهم ان عقوبة الجلوس على كرسي الملك هي الاعدام .

الا ان غوانغول لم يصب بأذى لانه زائر وغريب عن تقاليد البـلاط الملكي . لكنه بعد هذه الحادثة صار رجال الحاشية يقلبون وجه الكرسي قليلا نحو الارض للدلالة على غياب الملك . وصارت هذه سابقـة مشت عليها الاجيال المتعاقبة .



الفصل التاسع

الرقيق والاقطاع

شريعة موسى

عرف الاحباش الجبليون الاسترقاق ومارسوه منذ عرفت الحبشة. وامعنوا في استعباد الضعفاء من شعبهم وسكان الاقاليم والبلاد التي وقعت تحت سيطرتهم أجيالا طويلة متباعدة ، حتى اصبحت هذه الظاهرة جزءا راسخا من طابع حياتهم وتكوينهم الاجتماعي . او بكلمة اخرى اكثر دقة ، فقد وجد الشعب الحبشي نفسه بمرور الايام منقسما الى طبقتين واضحتي المعالم ـ طبقة حاكمة رفيعة وطبقة مستعبدة وضيعة . ان نظرة فاحصة عميقة الى قلب المجتمع الحبشي تظهر بجلاء انه يكاد لا يخلو بيت أو أسرة من وجود عبد واحد فيها على الاقل مهما بلغت حالة الفقر فيها شدة .

تروى قصة طريفة بهذا الصدد وقعت في السفارة البريطانية (١) في اديس ابابا . ففي العشرينات من هذا القرن اتفقت السفارتان البريطانية والفرنسية على العمل لمحق ظاهرة العبودية البشرية في محيط سفارتيهما على الاقل . فقامت السفارة البريطانية بابلاغ كافة موظفيها المحليين والمستخدمين من الاحباش بلزوم الاقلاع عن امتلاك العبيد انهم ارادوا الاستمرار في خدمة السفارة . ونظرا للمعلومات الموثوق بها المتوفرة لدى السفارة عن كل من يعمل عندهم فقد استدعي احد الفراشين وطلب اليه أن يعتق العبدين الموجودين في داره . فانكر وجودهما في بادىء الامر ثم اعترف بهما على انهما ملك لزوجته . ولما رفضت زوجته اعتاق العبدين حسب طلب السفارة ، طلقها زوجها وأبرز وثيقة الطلاق للمسؤولين لكي يحتفظ بوظيفته في خدمة السفارة .

---

1 — The Real Abyssinia, by C. F. Rey — page 164 — 65



والاحباش انفسهم حسب تراثهم الموروث يؤمنون بوجود طبقتين في المجتمع . الاولى هي طبقة النبلاء والثانية هي طبقة رجال الدين الذين يطلقون عليهم اسم (كاهينات) بالامهارية أي الكهنوت . وتأييدا لايمانهم بتكوين المجتمع على هذا النحو فيحسبون ان خصب الارض وقابليتها الانتاجية يتحققان بفضل النبلاء . وان ازدهار الكنيسة يتم على ايدي رجال الدين . وبسبب هذا المعتقد اصبح وجود هاتين الطبقتين في المجتمع من الضروريات لحياة صالحة سعيدة . اما نظرتهم الى الملك ، فكما أسلفنا ، انهم يعتقدون انه يحكم بتفويض سماوي ولذلك فهم يرون ان وجوده على رأس البلاد هو حالة لازمة لاستتباب النظام والامن فيها .

وقد كانت الحبشة حتى أواخر الثلث الاول من هذا القرن تعتبر من مواطن الرقيق الرئيسية ، فتصدر العبيد لاسواق الرقيق في اليمن والبلاد العربية الاخرى وغيرها ، بينما الاتفاقية المعقودة بين انكلترة والامبراطور يوحنا الرابع سنة ١٨٨٤ الزمت الحبشة بمسؤولية مكافحة هذ التجارة وبفرض عقوبات صارمة على تجار الرقيق . ثم عادت ثانية واكدت تعهداتها السابقة والتزاماتها للدول الغربية حول قمع الاسترقاق بشتى أشكاله ودرجاته ـ سواء في التجارة الخارجية او تسخير المستعبدين في الداخل ـ وذلك عندما قبلت عضوا في عصبة الامم عام ١٩٢٣ .

لا ينكر على اي حال بأن جهودا محدودة بذلت في فترات مختلفة لوقف او تحديد الاتجار بالارواح البشرية عن طريق البيع والشراء . وفعلا طرأ انكماش خلال الثلاثين سنة المنصرمة على هذا النشاط غير المشروع وهذه الظاهرة المنافية لكرامة الانسان . الا ان هناك ظاهرة اخرى تتمثل بالعبودية المحلية المزمنة المفروضة على طبقة معينة من الشعب . فهذه لم تنشأ عن طريق البيع والشراء بأسواق الرقيق . وانما حكمت الاقدار ان تعيش بعض الالوف المؤلفة من السكان في خدمة اسيادها ـ الامهاريين ـ مدى الحياة ، سواء أكان في بيوتهم او اقطاعياتهم الزراعية او على نحو آخر . وهي لا تحصل الا على ما يكفي لسد رمقها في الحياة فقط . وهذا هو في الواقع رق وراثي مزمن . فمن هذا الصنف من العبيد فقط ، ادعى الايطاليون عند احتلالهم للحبشة على عهد موسوليني سنة ١٩٣٥ انهم أعتقوا ما لا يقل عن ٤٢٠ الف نسمة منهم في مدى سنوات معدودة على أصابع اليد .

اما تجارة الرقيق عبر البحر الاحمر فقد أصابها الكساد وتقلصت بشكل ملحوظ منذ فترة من الزمن . وأسباب ذلك لا ترجع للتشريعات الحبشية ضد تجارة الرقيق وانما لعاملين اجتماعيين مهمين : الاول ـ هبوط الطلب لشراء العبيد في البلاد العربية بسبب تطور الحالة



الاجتماعية والاقتصادية فيها . والثاني ـ تناقص عدد السكان في المناطق التي كانت معرضة لغارات تجار الرقيق الاجرامية . أو بكلمة اخرى فقد خلت تلك المناطق المنكودة الحظ من السكان ولم يبق فيهـــا بشر لكي يباع ويشترى .

يعلل بعضهم انتشار الرق والعبـــودية في الحبشة الى نظامها الاجتماعي الذي بني على أساس الاقطاع والطبقية . ويذهب البعض الى أبعد من ذلك فيرجع سبب كثرة العبيد او المستعبدين الى توالي حروب الحبشة مع المسلمين والوثنيين خلال الاجيال السابقة ووقوع اعـــداد هائلة من الاسرى والسبايا من هؤلاء بأيـــدي الاحباش . وقد اعتبروا الاسرى كتعويض لهم عن انتصاراتهم الحربية . أو بكلمة اخرى فهؤلاء هم حصيلة تضحياتهم في سبيل المحافظة على بلادهم ونصرانيتهم . ويقول السكان الاصليون ايضا في تبرير هذا الموقف الشائن انهم انما يطبقون شريعة موسى (٢) الذي اوصى بني‌اسرائيل باستخدام اسراهم كالعبيد. وبما انهم ـ اي الاحباش سكان الهضبة ـ كانوا على دين موسى قبـــل اعتناقهم النصرانية فهم انما ينفذون تعـــاليم دينهم الاول . وهذا هو ما يفسر وجود العبيد حتى عند أفقر الناس وأقلهم شأنا كما لاحظنا في حادث السفارة البريطانية .

الامبراطور منليك الثاني نخاس اول

من اجل بيان ما تقوم به الحبشة لمحاربة الاسترقاق منـــذ عهـــد بعيد يذكر المسؤولون فيهم بشيء من الافتخار مرسوما صدر على عهـــد منليك‌الثاني في أوائل هذا القرن يحرم الاتجار بالرقيق . الا ان هـــذا المرسوم لم يمح الاسترقاق . ويرى البعض ان منليك نفسه ـ وهذا هو الواقع ـ مسؤول اكثر من غيره ممن حكموا البلاد في العهد الحديث عن ارتفاع عدد العبيد في أيامه ، وان لم يكن ذلك عن طريق المتاجرة . فقد حول الملايين من البشر من سكان الممالك الاسلامية المجاورة التي أخضعها الى حكمه الى عبيد ما زال معظمهم حتى اليوم يرزح تحت عبودية ظالمة، بعد ان سحل ملوك تلك البلاد بالتراب (٣) .

يروي رجل فرنسي رافق منليك في احدى حمـلاته العسكرية كيف انه اقتسم الغنــــائم مع أفراد جيشه المنتصر . فيقول ان حصة الامبراطور وحده كانت ١٨٠٠ عبد و ١٨ ألف راس من البقر . وهنـــاك بعض الاصقاع التي أغار عليها منليك وغزاها بجيوشه قد أقفرت وخلت من السكان بسبب نهب واختطاف النساء والصغار الابرياء لبيعهم عبيدا

2 — The Real Abyssinia, by C. F. Rey — pages 162 - 63, 166 - 67
3 — Wax and Gold, by D. N. Levine — page 4.



او استعبادهم مدى الحياة في الاقطاعيات الزراعية . واستمرت الحال على هذا المنوال بل وازدادت سوءا في فترة الفوضى التي عمت البلاد خلال سني مرضه سنة ١٩٠٨ .

كتب المستر ري الذي زار الحبشة في الثلاثينات ان (ابونا) أي بطريارك الكنيسة الحبشية هو من اكبر مالكي العبيد بين الاقطاعيين (٤) . ومن المعلوم أيضا انه حتى القساوسة لهم من يخدمهم من العبيد . ولذلك فليس من باب المغالاة أو التحامل اذا قيل بأن أكبر موطن للعبيد والاستعباد في العالم هو الحبشة .

عبيد بلا ثمن

يقال ان هايلا سلاسي الاول منذ ان كان وصيا على العرش رأى بأن اصلاح الحال يكمن في تبديل جذري لنظام الادارة والجيش في الاقاليم . وهذا يعني تغيير أسلوب تعويضهم عن خدماتهم للدولة وذلك بجعلهم موظفين تابعين للحكومة المركزية ويستلمون رواتب شهرية منها. وهذا يشمل الحكام ونوابهم والموظفين ورجال الجيش والشرطة . فالنظام السابق الذي ألفته الحبشة ولم تعرف غيره عبر تاريخها هو النظام الاقطاعي المطلق الذي افترض ان حكام الاقاليم وأجهزة ادارتهم وجيشهم يضمنون مواردهم بأنفسهم وذلك مما يجبون من ضرائب ورسوم في مناطق حكمهم . فلم تكن هناك رواتب شهرية لهؤلاء المحسوبين على الحكومة . فحاكم الاقليم نفسه هو الذي يحدد حصة الحكومة – او بالاحرى حصة الملك – من الواردات السنوية ، بحسب قوة الملك ومدى نفوذه وسيطرته على الاقاليم . ولكن غالبا ما تكون حصة الحكومة مبلغا رمزيا فقط .

وبعد ان يفرز الحاكم حصة الاسد لنفسه مما يجبى من الواردات نيابة عنه ، بواسطة وكلائه ، يخصص ما تبقى منها لمرؤوسيه وجنده . وتحسب حصص هؤلاء بشكل طريف جدا حسب أهمية وظائفهم وواجباتهم او تسلسلهم المسلكي في الجيش او الشرطة . فاذا ما بلغت حصة معاون الحاكم او نائبه ما يوازي الانتاج السنوي لحوالي ٢٠٠ – ٣٠٠ فلاح مثلا ، فتحدد حصة ما بعده في المرتبة بما يوازي انتاج ١٥٠ – ٢٠٠ فلاح . وهكذا تتضاءل النسب تدريجيا حتى تصل الى حصة الجندي العادي التي قد توازي انتاج ٢ – ٣ من الفلاحين . واذا ما ترجمت هذه المفاهيم الى ناحية التطبيق العملي فمعناه ان على هؤلاء الفلاحين – اثنين او ثلاثة حسب واقع الحال – تأمين احتياجات هذا الجندي من طعام واحطاب وغيرها على مدار السنة . وما تبقى من

---

4 — The Real Abyssinia, by C. F. Rey — page 164.



الانتاج فللفلاح ، وقد لا يبقى شيء أحيانا فيلجأ المنتج المسكين الى التسول .

وناهيك عن المظالم وأعمال السخرة في كل مكان والتجاوز على حقوق الفلاح خلال السنة وعند تقسيم الحاصلات . هذا هو شكل صارخ من العبودية التي لم تأت عن طريق البيع والشراء . وهذا لا يعني ان بعض الحكام الجشعين لا يمارسون في سوق النخاسين الاتجار بالارواح البشرية وراء مكاسب لا انسانية ، وخاصة في الاقاليم النائية. اما اذا تقاعس الفلاح عن الوفاء بالتزاماته فيقاضى امام المحاكم . وفي هذه الحالة يكون حكم القاضي الى جانب الحاكم في تسع حالات من كل عشر . الا انه لا ينكر ان هذا الوضع قد تطور وتحسن قليلا الى جانب الفلاح عما كان عليه من قبل ، بعد ان اصبح الموظفون يقبضون رواتبهم من الحكومة . ولكن في بلاد كالحبشة مثقلة بترسبات الماضي السحيق فما زالت أساليب الاقطاع تمارس نفس الادوار السابقة في بعض الاحيان ولو بدرجة أخف . فلا يمكن لهذا التخلف الراسخ ان تنقشع غيومه بين عشية وضحاها .

لقد شرعت قوانين في الفترة الواقعة بين ١٩٢٤ و ١٩٤٢ استهدفت القضاء على الرقيق ، الا ان تنفيذ التشريعات في الحبشة أمر صعب . والمشكلة هي مشكلة الشعب الامهاري ذاته الذي يعتبر نفسه سيد الشعوب التي تتكون منها الامبراطورية . والمشكلة تكمن كذلك في رجعية عقلية الحكام السابقين والقواد القدامى . فلما انتصر منليك على المماليك المجاورة أقطع أراضيها لجيشه ـ ضباطه وجنوده ـ وللكنيسة الحبشية بنسبة الثلث لكل فئة وأبقى ثلثها فقط لسكانها الاصليين . ومن هنا نشأت حياة العبودية . فالمغلوبون على أمرهم لم يفقدوا ممتلكاتهم وأوطانهم فحسب وانما أصبحوا عبيداً ، بعضهم في خدمة القادة والجند والبعض الآخر في خدمة الكنيسة . فيزرعون لهم الاراضي التي أصبحت من نصيبهم ويحصدون حاصلاتها ويتعهدونها بشتى الخدمات طوال أيام السنة . فكأنما أقطع منليك هذه الاراضي المغتصبة لعساكره وللكنيسة بمن فيها من أصحابها الشرعيين . فلم يسمح لهم بمغادرتها وذلك في سبيل ضمان خدمة الارض بطريقة شبه مجانية . وهكذا انتقلت العبودية وراثيا من الاب الى الابن ومن الابن الى الحفيد .

اما اقليم كافا الواقع الى الجنوب الغربي من البلاد فوقف موقفا باسلا متعنتا بوجه منليك سنين عديدة . الا ان هذا الملك الجبار جهز عليه حملة عنيفة كاسحة يقال انها قضت على ثلثي السكان قبل ان يتمكن من احتلالها وتحويل سكانها الاحرار عبيدا يباعون ويشترون . وعلى اثر غزو اقليم كافا نشطت تجارة الرقيق حتى اشتهرت بلدة « ماجي Maji » كسوق من أسواق بيع العبيد في الجنوب الغربي . وسوق

« ماجي » هي التي كالت تغذي مراكز تجميع العبيد في منطقة سيدامو الجنوبية وكذلك يوغنده وأواسط افريقية . وفي اثيوبيا أقاليم ما زال الدائن فيها يقيد المدين له بسلسلة من حديد يجره بها ويصحبه معه اينما سار وحيثما استقر لضمان عدم هروبه حتى يفي الدين . وخلال هذه الفترة فهو يسخره بشتى انواع الخدمات الخاصة دون اجر ، سواء في بيته أم مزرعته .

سفير اميركي زنجي الاصل

ومن القصص التي تروى للدلالة على شعور الاحباش بالترفع عن بقية الشعوب الافريقية حكاية واقعية (٥) كادت أن تنتهي بسوء تفاهم وتوتر في العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة واثيوبيا . فذات مرة كانت الولايات المتحدة على وشك أن ترشح سفيرا لها في اثيوبيا زنجي الاصل . فلما بلغ هذا النبأ المسؤولين في وزارة الخارجية الاثيوبية عدوه اهانة لهم . فألمحوا للاميركيين من طرف خفي بأن صاحب الجلالة لن يستقبل سفيرا أميركيا من أصل زنجي . فالاحباش الاصليون من سكان الهضبة ــ والطبقة الامهارية الحاكمة بالذات ــ هم قوم مغرورون شديدو الاعتزاز بنسبهم ويعتبرون أنفسهم من البيض على الرغم من لون بشرتهم المائل الى السواد . وهم ينظرون الى « السود » ، زنوجا كانوا أم غير زنوج ، نظرة السيد الى عبده .

سوق العبيد في شندي

شندي هي قرية صحراوية حقيرة المظهر ، يكاد يكون لا نبت فيها ولا زرع على الرغم من موقعها على النيل . بيوتها من الطين وتهب عليها الرمال اللافحة من كل جانب فتصير الحياة فيها جحيما ارضيا لا يطاق . حتى ان موقعها الجغرافي لا يعرفه الا نفر من الباحثين والمنقبين والرحالة . زارها الرحالة السويسري بركهارت Burechadt سنة ١٨١٤ وقدر نفوسها آنذاك بعشرين ألف نسمة (٦) . وعدا بركهارت مر بها آخرون أيضا ومن جنسيات مختلفة كان أبرزهم الرحالة الاسكوتلندي جيمس بروس الذي كانت له قصص مثيرة في سنار وفي شندي في طريق عودته من الحبشة . ويدعي الاحباش ان مملكة مروى القديمة كانت من توابع دولتهم ، ومن مروى حكم فراعنتهم وملكاتهم وادي النيل حتى الدلتا (٧) .

---

5 — Inside Africa, by John Gunther — Page 250.
6 — The Blue Nile, by Alan Moorehead, pages 154 — 166.
7 — The Blue Nile, by Alan Moorehead, page 159.



ولكن هذه البقعة الخراب التي ليس في ظاهرها ما يوحي باهميتها قد عاشت أحداثا كبيرة في التاريخ واقترن اسمها بوقائع مثيرة في فترات مختلفة . الا ان أبرز ميزة لها وجودها على مفترق هام لطرق المواصلات الصحراوية وكونها محط رحال القوافل التجارية . وهذه الميزة بالذات هي التي جعلت اسمها يقترن بأفظع المآسي البشرية ، اذ أصبحت على مر الايام مركزا من أوسع المراكز التي يساق الانسان اليها مقيدا بالاغلال يباع ويشترى كما تباع وتشترى البهائم او السلع .

هذه هي شندي اكبر واثبت اسواق النخاسين . لقد شهدت في خلال تاريخها الاسود المشين بيع الالوف المؤلفة من الانفس البشرية البريئة ، معظمهم من الاحداث المخطوفين من أحضان امهاتهم او مع امهاتهم . يؤتى بهم كالاغنام من مختلف أنحاء الحبشة عبر بلدة غوندار شمالي بحيرة تانا ثم عن طريق (متمه) الى هذه البؤرة الفاسدة . تقع شندي على النيل في صحراء (أو جزيرة) مروى وسط السودان . يطوقها النيل من الغرب ونهر عطبرة من الشرق . ويلتقي فيها تجار الرقيق من كل الجنسيات ومن كل حدب وصوب .

ومن شندي تتحرك القوافل محملة بالبضائع عبر الصحراء الى البحر الاحمر شرقا قاصدة البلاد العربية والشرق الاقصى . وتتوجه قوافل اخرى نحو أواسط افريقية فتسلك طرق الواحات الرملية الشاقة ، واحة بعد واحة ، حتى تصل الى بحيرة (تشاد Chad) ثم منها الى تمبكتو . اما القوافل المتجهة الى مصر فتسلك طريق النيل شمالا ، ومن مصر الى موانىء البحر الابيض المتوسط .

وفي أسواقها يجد التاجر كل شيء يبتغي – في تلك الدكاكين الخشبية المرصوفة رصفا في خطوط متوازية ثلاثة وسط ساحة في القرية . يعرض فيها اصحابها بضاعتهم نهارا وينقلونها معهم الى بيوتهم ليلا لتكون في مأمن من السراق . اما معروضات أصحاب الدكاكين فتشتمل على كل متطلبات الانسان في ذلك الزمان . ففيها القطن والعاج والملح والذهب من الحبشة وسلع اخرى مثل خشب الصندل والتوابل وغيرها من الهند . وتأتيها المصنوعات الزجاجية وأفخر القلادات النسائية والورق الممتاز من البندقية وجنوه في ايطاليا . كما يأتيها الصابون والاواني الخزفية ومختلف الاقمشة من مصر . كل ذلك الى جانب أنواع أخرى من مختلف البلدان مثل الطيوب والعطور والكحل والادوية والسيوف والسروج وغيرها . ومن اهم القوافل التي تمر بشندي هي قوافل الحجاج بطريقهم الى مكة قادمين من أواسط افريقية ومن نايجيريا وغيرها على الساحل الغربي .

كان حجم تجارة الرقيق في أوائل القرن التاسع عشر في شندي



يقدر بحوالي ٥٠٠٠ نسمة (٨) سنويا مجلوبين من شتى القبائل في أعالي النيل والحبشة . غير ان النخاسين كانوا يفضلون الاحباش منهم . يقول الرحالة بركهارت السويسري ان الرغبة في السوق كانت نحو الحبشيات بصورة خاصة . وكن يجلبن أفضل الاسعار في البيع لجمالهن ودماثة أخلاقهن ولوفائهن بالحب لمن يشتريهن . ينقل العبيد بعد شرائهم شرقا الى البحر الاحمر حيث يشحنون من ميناء سواكن في السودان الى مصر أو البلاد العربية . وقد ينقل بعضهم عن طريق النيل الى الاسكندرية ومنها الى تركية . وحدث ولا حرج عن عدد المرات التي يباع العبد خلالها وهو في الطريق . وكلما اقتربت القافلة من الساحل كلما ارتفع السعر .

كانت أسعار شراء العبيد أيام زيارة بركهارت لشندي حوالي ١٥ دولارا للذكر و ٢٥ للانثى . وان اكثر المعروضين للبيع لم تتجاوز أعمارهم الخمس عشرة سنة . ومن الامور التي كانت مألوفة بقاء العبد عند سيده الجديد ثلاثة أيام تحت التجربة وله ان يعيده لصاحبه الاول خلال هذه الفترة . كما لم يكن من غير المألوف مضاجعة المشتري لمن يتملك من اناث العبيد . والمعروف ان قليلا منهن من يصلن الى الساحل وهن محافظات على عفافهن .

لقد صاحب نمو تجارة الرقيق في شندي هبوط في المستوى الاخلاقي في ذلك المحيط وانعدام القيم الانسانية الاساسية . فكانت هذه القرية التي ليس فيها ما يجتذب الناس اليها سوى وجود طبقة وضيعة من النساء اللائي لم ترج بضاعتهن في سوق النخاسين فتخلفن عن القافلة واخترن المقام في هذا المحيط السافل . فانضممن الى بؤرة الدعارة يترقبن وصول قوافل التجار لعل الحظ يسعفهن .

ولذلك انتشر في البلدة تعاطي الخمور وألوان المفاسد بين الاهالي. فبعد أن يرخي الليل سدوله على البلدة الصحراوية المقفرة تنشط الجوانب السيئة من الغرائز الحيوانية في الانسان عند السكان وعابري السبيل وخاصة بسبب توفر عناصرها بشكل مبتذل . وكان وصول القوافل ولو في وقت متأخر من الليل يعتبر من المناسبات البهيجة التي يترقبها كل من في البلدة وكل حسب نفعه ومصلحته . فعندما كانت تلوح في الافق البعيد طلائع القافلة القادمة يهرع اليها الاهالي مرحبين بمقدم المسافرين ، عارضين عليهم الخدمات المطلوبة حتى تحط رحالها في المكان المعد للقوافل . واكثر طرق القوافل المعرضة للخطر هي متاهة مروى القفراء التي قد يستغرق عبورها أسابيع او اكثر احيانا . على كل حال ففي خلال الساعة الاولى من وصول القافلة يرتفع في الفضاء ضجيج ولغط يبدد سكون الليل ان كانت القافلة قد وصلت بعد الغروب.

---

8 — The Blue Nile, by Alan Moorehead, page 160.



وما هي الا لحظات بعد ذلك واذا بتلك الجموع من المسافرين والمستقبلين قد تبخرت واختفت عن الانظار ، ويكون كل من القادمين قد لقي أهله أو أولاده أو مضيفته أو خليلته . فلا فنادق في شندي ولا مطاعم . فلا بد للغريب ان يجد من يقوم بخدمته ويوفر له طعامه ومنامه خلال فترة اقامته ريثما يحين موعد سفر قافلته .

هكذا كان يسير دولاب الحياة في هذا المنعزل الصحراوي . فلولا القوافل لما كانت هناك شندي . ولكنها عاشت أيامها تستقبل قافلة وتودع اخرى في هذا المفترق الخطير الذي لم يعرف تاريخ المنطقة مركز حركة صحراوية اكثر وأوسع منه نشاطا .

اما التجارة بالخصيان فلم تكن نشطة ، اذ كتب بركهارت بأن المعدل السنوي لما كان يصدر منهم الى القاهرة لم يتجاوز ١٥٠ خصيا (٩) . وأما عن العملية نفسها فقد وصف وحشية طبيعتها والآلام التي ترافقها .

قيل ان محمد علي باشا أراد أيام حكمه في القاهرة ارسال هدية للسلطان في اسطنبول مكونة من ٢٠٠ خصي ، فلم يتقدم احد لاجراء هذه العملية لهؤلاء الضحايا ، من بين كافة المتضلعين بممارستها في السابق نظرا لقساوة المشهد . وأخيرا اهتدى المسؤولون الى اثنين من قساوسة الاقباط في أسيوط اشتهرا بقابليتهما لاجراء مثل هذه العملية اللاانسانية . ويقدر عدد الضحايا في مثل هذه الحالات بنحو ٢ بالمائة في احسن الاحوال .

---

9 — The Blue Nile, by Alan Moorehead, page 161.



الفصل العاشر

الاديان في اثيوبيا

هل ان اثيوبيا بلد مسيحي ؟

ان البت في سؤال كهذا ــ هل ان اثيوبيا بلد مسيحي حقا ــ الى جانب الافتقار التام لاي نوع من المعلومات الاحصائية والحقائق التي يركن اليها ــ في الحقيقة مسؤولية علمية ، ولو ان الراي السائد لدى الكثير هو ان اثيوبيا تتمتع بأغلبية مسيحية كبيرة على الاقل . ففي اثيوبيا لم يجر حتى الآن اي شكل ، مهما كان بسيطا ، من التعداد السكاني لكي يصبح بالامكان ابداء رأي ، ايجابيا كان أم سلبيا . فكل ما هو بين ايدينا من المعلومات عن سكان هذا البلد الواسع المتعدد الشعوب والملل والديانات مصدره الرحالة الاجانب وبعض المستشرقين والمراقبين . وواضح ان المعلومات المستقاة من هذه المصادر لا تخلو من كثير من التباين والتضارب ، جاءت حسب انطباعات وميول شخصية وفي كثير من الحالات اتسمت بطابع المبالغة أو العصبية الدينية .

ولا ينكر ايضا ان عددا كبيرا من المطلعين على أحوال اثيوبيا عن كثب لا يقرون بل ويعارضون في اعتبارها بلدا غالبية سكانه تتكون من المسيحيين الاقباط . واول من عبر عن هذه المعارضة بصراحة وثقة هو جون غنثر John Gunther (1) الكاتب الاميركي الذي قال : « ان الادعاء بأن اثيوبيا بلد مسيحي أصبح الآن بحاجة الى اعادة نظر » . وسيظل هذا السؤال موضوع جدل وتشكك عميقين حتى تنجلي الحقائق الناصعة عن طريق دفع الشك باليقين ــ أو بكلمة اخرى عن طريق احصاء سكاني يوثق به . فاثيوبيا كانت بدايتها وثنية يقدس اهلها النجوم والشمس والقمر ، ثم عبدت آلهة السبئيين والحميريين بعد غزو هؤلاء للهضبة واستيطانهم فيها ، ثم دخلتها شريعة موسى ، ثم تنصرت ثم

---

1 — Inside Africa, by John Gunther, page 249.



دخلها الاسلام فاسلمت . وما زال فيها جيوب تسكنها قبائل غالا على وثنيتها . ولكن بمرور الايام تكونت التكتلات البشرية الدينية . فتحصن في الهضبة الاقباط المسيحيون وكونوا أغلبية هناك . بينما ظهرت التجمعات الاسلامية وشكلت أغلبية واضحة في مناطق اخرى مثل السهول الشرقية وهرار واريتريا والقسم الجنوبي الغربي مثل اقليم كافا وغيرها من الجيوب الاخرى .

أما قبائل غالا فكلها كانت وثنية عندما زحفت على البلاد في القرن السادس عشر . ولكن الذين استوطنوا الهضبة تنصروا بينما الذين جاوروا المناطق الاسلامية ـ وهم الاغلبية ـ فاعتنقوا الاسلام . وأما الباقون فظلوا على وثنيتهم . وهناك أقلية من اليهود السود يقدر عددهم بستين ألف نسمة يسكنون مرتفعات جبال سيميان .

ويبدو ان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ترسيخ الفكرة بأن اثيوبيا هي مسيحية ، تلك الدعاية التي انتشرت في اوروبا عن تنصر هذا الشعب الافريقي الذي كان على الوثنية وعلى دين موسى . وثمة عامل آخر قد يكمن وراء هذا الاعتقاد هو ان اثيوبيا تستنجد بالدول الاوروبية وتستصرخ الضمير المسيحي العالمي كلما تعرضت لغزو جيوش الممالك الاسلامية المحيطة بها . وأخيرا فعندما زحفت عليها قبائل غالا بأفواجها المخيفة استغاثت وأعلنت بأنها أصبحت « القطر المسيحي الوحيد في افريقية الذي يحيط به بحر من الاسلام والوثنية » أو كما يعبر عنها آخرون : « ان اثيوبيا جزيرة مسيحية في بحر من الاسلام والوثنية » . الا انه في السنين الاخيرة ظهرت تقديرات متعددة لبعض من حاولوا دراسة الموضوع أشارت الى ان الاقباط هم أقل من نصف السكان وان المسلمين وأفراد قبائل غالا غير المسيحيين يشكلون اكثر من نصف المجموع .

آراء المستشرقين والكتاب

ان نظرة فاحصة لاهم المصادر التي تناولت موضوع الاديان في اثيوبيا لا تؤيد ما ذهب اليه البعض بأن الاقباط يشكلون أغلبية سكان البلاد . وفيما يلي سنتناول بايجاز بعض ما جاء في هذه المصادر . فمن بين اعلام الباحثين الذين درسوا انتشار الاسلام ـ ليس في شرقي افريقية فحسب بل في غربيها أيضا ـ هو المستر سبنسر ترتمينغهام Spencer Trimingham . فبعد دراسات مطولة ـ وعلى الرغم من عدم وجود احصاءات حول الموضوع ـ خلص الى رأي قاطع هو ان المسيحيين لا يشكلون اكثرية السكان (٢) . ويؤيد بأن المسلمين ليسوا بالاقلية وان

---

2 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham, pages 15 — 31.



اعدادهم بتزايد رغم الجهود الحثيثة التي تبذلها الارساليات التبشيرية لتوجيه الوثنيين اتجاها غير اسلامي . وبالنظر لمشاهداتي الشخصية ووقوفي على احوال السكان في كثير من المناطق فأنا أميل الى الاعتقاد بأن المسلمين والمسيحيين ربما كانوا متقاربين من حيث نسبة كل منهما للمجموع . ولكن كما سبق ونوهت فان كل الآراء حول هذا الموضوع ما هي الا انطباعات قد لا تكون مبنية على أساس متين . وبعين الوقت فسوف لا تكون هذه الدراسة كاملة ما لم تتعزز بالارقام الاحصائية السكانية التي يركن اليها ، واذا كان هذا بعيد المنال حاليا ، فلا بد على الاقل من الاخذ بنظر الإعتبار آراء وتخمينات كافة من عالجوا هذا الموضوع الهام من الباحثين ، من قريب أو بعيد .

لقد توصل تريمنغهام نتيجة دراسته لموضوع الديانات السائدة في اثيوبيا والصومال المجاورة لها الى الجدول التالي الذي يوضح توزيع الاديان بالنسبة للسكان بشكل تقديري(٣) . الا ان الملمين بطبيعة حياةسكان اثيوبيا قد يجدون ثغرة يمكنهم من خلالها توجيه طعنة بالنسبة للارقام المتعلقة بالمسلمين والوثنيين . فمعلوم ان اكثر هؤلاء هم رعاة أغنام يصعب تقدير أعدادهم على نحو ما جاء في الجدول . بينما قد تكون الارقام المتعلقة بالمسيحيين ـ وهم يمارسون حياة زراعية مستقرة ـ أقرب الى الواقع . فمن غير المستبعد أن تكون الارقام المتعلقة برعاةالابل والاغنام أقل من حقيقتها . فمهما يكن من أمر فان الجدول بعمومياته لا يظهر المسلمين أقلية بين السكان . ان الجدول المذكور هو تقديري كما ذكرنا وكما يظهر من طبيعة الاعداد الواردة فيه . الا ان ما يجلب النظر هو الرقم الخاص بالوثنيين في اقليم هرار . فيبدو وكأنه جرى نتيجة احصاء دقيق في حين ان هؤلاء قوم رحل لا يستقرون على حال . فكيف توصل تريمنغهام الى هذا الرقم الدقيق .

يذكر تريمنغهام في كتابه ان الاقباط ينحصر انتشارهم المكثف في الهضبة الجبلية أو الحبشة الاصلية Abyssinia وهي تمثل معقل المسيحية الاول ، وأقاليمها الرئيسية هي تيغره وغوجام وامهارا وشوا . أما الاسلام فقد انتشر في المناطق المجاورة للبلاد الاسلامية الاخرى أي حول الهضبة وفي السهول ، ولو ان جيوبا اسلامية عديدة قد تركزت بنفس الهضبة ـ ويمثلها الجدول المار الذكر ب ٣٠٠،٠٠٠ نسمة . اما مسلمو الهضبة فجلهم يمتهنون التجارة والحرف الاخرى اذ لم تسمح لهم الحكومة بتملك الاراضي هناك . اما في الشمال فكافة القبائل التي تقطن الاراضي المنخفضة في اريتريا وساحل البحر الاحمر هي مسلمة

---

3 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham, page 15.



جـــدول تقـديري للسكان (٣)

١٩٥٢

البـــلاد	مسيحيون	مسلمون	يهـــود	وثنيون	المجموع
اريـتريا	٣٩٠,٠٠٠	٣٥٩,٠٠٠	...	١٦,٥٠٠	٧٦٥,٥٠٠
اثيوبيـا					
الحبشـه	٢,٩٠٠,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠	...	٣,٢٦٠,٠٠٠
غالا — سيدامو	٢٠٠,٠٠٠	٥٠٠,٠٠٠	...	٨٠٠,٠٠٠	١,٥٠٠,٠٠٠
اقلـيم هـرار	٣٠٦,١٧٠	٧٨٠,٠٠٠	...	٤٣١,٦٦٣	١,٥١٧,٨٣٣
(نـكاليا ـ الدناقل)	....	٥٠,٠٠٠			٥٠,٠٠٠
الشمال الغـربي	....	٧٥,٠٠٠	...	٨٠,٠٠٠	١٥٥,٠٠٠
الجنوب الغربي	٥٠,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	...	٤٠٠,٠٠٠	٤٩٠,٠٠٠
صوماليـا					
الصومال الايطالي	٢٠٠	٧٥٠,٠٠٠	...	١٠,٠٠٠	٧٦٠,٢٠٠
الصومال البريطاني	....	٣٤٥,٠٠٠	...	...	٣٤٥,٠٠٠
الصومال الفرنسي	....	٤٦,٣٩١	...	...	٤٦,٣٩١
	٣,٨٤٦,٣٧٠	٢,٢٤٥,٣٩١	٦٠,٠٠٠	١,٧٣٨,١٦٣	٨,٨٨٩,٩٢٤

3. Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham, page 15



ما عدا اقليات صغيرة من المسيحيين والوثنيين ، وأقلية من قبائل بلين، كما توجد اقلية مسلمة على الساحل الجنوبي الغربي لبحيرة تانا تمتهن الصيـــد .

اما أقصى الغرب فمعرض للتأثيرات الاسلامية من ناحية السودان حيث أصبحت معظم قبائل غالا على الدين الاسلامي . وفي الجنوب حيث يستقر السواد الاعظم من الوثنيين ، فقد جرفهم التيار الاسلامي دونما تبشير . وهذه منطقة شاسعة مترامية الاطراف تمتد من جنوب العاصمة في منطقة عروسي باتجاه نهر عواش وتنتهي بهرار . وتشمـــل كذلك مواطن قبائل غوراج وغوري . اما هرار نفسها فهي معقل اسلامي منذ القدم . ويقول تريمنغهام في كتابه المشار اليه سابقا « ان نصف قبائـل غالا في اقليم عروسي واقليم بالي هم اسلام » . وبالاضافة الـى هرار فهناك مركز اشعاع اسلامي مهم آخر هو « جيما Jimma » حاضرة اقليم كافا ، أشهر اقليم في انتاج البن في اثيوبيا .

ان البحث في موضوع الاديان في اثيوبيا تفصيلا ليس من اهداف هذا الكتاب . ولكن كما ألمحنا فلا بد من الاشـــارة ولو بشكل عابر الى بعض ما كتبه النقاد والرحالة فيه. فالكاتب ارنست لوثر Ernest Luther يذكر في هذا الموضوع ما مضمونه : هو ان الاحبـــاش الاصليين وارثي تراث مملكة اكسوم الجبلية لا يشكلون سوى ثلث السكان في اثيوبيـا أو أكثر بقليل بعد ان تنصر بعض افراد قبائل غالا عـــلى اثر استيطانهم بالهضبة بعد الزحف العام عليها (٤) . كما وقـــد ذكر المهندس الاستاذ فتحي غيث (٥) بأن بين يديه تقريرا هـــاما « جاء على لسان حكومة الحبشة عندما بدأت تطالب باستقـــلال الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المرقسية في الاسكندرية . فمن أهم الاسباب التي أوردتهـا واعتمدت عليها (١٩٣٠) هي ان أقباط مصر هم أقلية لا يتجاوز عددهم عن مليون وعشر المليون نسمة . بينما يبلغ عـــدد مسيحيي الحبشـــة مليونان و ٦٠٠ ألف نسمة من مجموع سكان الحبشة البالغ ستة ملايين نسمة (٦) وهذا هو اعتراف من الحبشة نفسها بأن نسبة المسيحيين لمجموع السكان هي ٤٠ بالمائة فقط » .

وكتب مانويل دالمايدا Manel D'Almeida الذي عاش بالحبشة من ١٦٢١ حتى ١٦٣٣ شيئا في مذكراته عن انتشار الاسلام فأشار الى انه انتشر في كل مكان واصبح يشكـــل ثلث السكان . وطبيعي ان هذا الانتشار لم يتوقف عند حد خلال القرون الثلاثة الماضيـــة ، بل العكس

---

4 — Ethiopia Tody, by Ernest Luther, page 25.

٥ ـ الاسلام والحبشة عبر التاريخ ـ بقلم المهندس فتحي غيث ، صحيفة ٣٤٦ .

6 — Middle East in War, by George Kirk — page 277.



هو الصحيح . وقد يكون من الطريف أن نرجع قليلا الى موضوع اعادة اثيوبيا فتح ابوابها للارساليات التبشيرية بعد ان طـــردتهم شر طردة بل ذهبت الى اكثر من ذلك فتحـــالفت مع اليمن وغيرها من الدول الاسلامية كما أسلفنا من اجل التنكيل بهم وتعذيبهم ومنعهم من الرجوع الى الحبشة . وفـــي سنة ١٦٣٨ طردت الارساليات البروتستانتية ، وعذب الامبراطور ثيودور رجالها وزجهم في سجونه الرهيبة ولم يسمح لهم بالعودة الى أوطانهم مبالغة منه في زيادة آلامهم . ولما اعتلى يوحنـــا الرابع العرش من بعده نهج على منوال سلفه ولم يبق اثرا للارســـاليات التبشيرية الجزويتية .

فيا ترى ما هو اذن السبب في اعـــادة فتح الابواب بوجه هذه الارساليات بعد التعذيب والمآسي التي حلت بهم على ايدي الاحباش ؟ السبب هو ان الحبشة وجدت نفسها مضطرة للاستعانة بالارساليـــات الاجنبية لتنصير البقية الباقية من قبائل غالا التي ظلت محافظة عـلى وثنيتها قبل أن تنجرف في التيار الاسلامي . ولنستمع الى ما كتبــه المستر ري C. F. Rey (٧) : « الا انني لا أرى اي نجاح حققته اي من هذه الارساليات التبشيرية . بل على نقيض ذلك فهناك من الادلة ما يشير (ويؤيدني بهـذا الكتاب الفرنسيون والاميركيون والسويديون) الى ان الاسلام يتقدم بتيار قوي وينتشر ، كما ينتشر في سائر انحاء افريقية ، ليس بين الوثنيين فحسب ، بل وحتى بين أفراد قبائل غالا المتنصرين » .

من الوثنية الى اليهودية

يروي التاريخ الحبشي انه قبل لقاء ملكـــة سبأ (الملكة ماكيدا) بالملك سليمان الذي يفترض انه تم في حوالي السنة ١٠٠٠ قبل الميلاد، كانت الوثنية سائدة في ربوع الهضبة . الا ان وثنيتهم لم تتخـذ مـن الاصنام آلهة يعبدونها وانما كانوا يؤلهون ، كما أشرنا الى ذلك ، النجوم والشمس والنور .

وتستطرد الرواية الى ان ملكة سبأ وولدها (ابن الحكيم الـــذي اصبح فيما بعد منليك الاول) هما اللذان أدخلا ديانة بني اسرائيل الـى هضبة الحبشة مع من رافقهما من حاشية جاءت معهم من اورشليم .

ونتيجة لتهود الحبشة وانتشار هـــذه الديانة السماوية فيها فقد تأثرت ثقافتها العامة بها . ففيها عناصر عبرية أصيلة تمركزت خاصة في طقوسها الدينية حتى بعد اعتناقها النصرانية . ومما زاد في رســوخ العنصر العبري في الثقافة والحياة العامة هو توافد هجرات يهـــودية

---

7 — The Real Abyssinia, by C. F. Rey, pages 184 — 85.



مديدة عبر العصور واستقرارها في الهضبة . وقد جـاء معظم هؤلاء اليهود الى هذه المعاقل الآمنة تخلصا من الاضطهاد الذي تعرضوا له في القسطنطينية والاسكندرية وروما . وكما هو معروف فان اكبر الهجرات التي وفدت اليها قبل المسيحية كانت من بيت المقدس لدى احتلالها من قبل الملك البابلي بختنصر في القرن السادس قبل الميلاد ، تخلصا من الاسر والسبي الى بابل .

وفي بعض الروايات ـ وهـذه تفتقر الى دليل علمي ـ ان قبيلة (فلاشا Falesha) أو اليهود السود التي تقطن جبال سيميان هي من بقايا اولئك المهاجرين . وان اثر التقاليد والتعاليم النابعة من التوراة ما زالت قائمة في الطقوس الدينية في الكنيسة الحبشية حتى يومنا هذا . على كل حال فدخول اليهودية الى الحبشة كان ايذانا بتصدع صرح الوثنية في افريقية .

وتجري في الوقت الحاضر تنقيبات آثارية يؤمل أن تلقي ضوءا جديدا على عمق ومنشأ الحضارة السامية في هذه الربوع . وتقوم بهذه الاعمال بعثات أجنبية الى جانب جماعات اثيوبية . وقد يتبين من المكتشفات الجديدة ان عمر الحضارة السامية في الحبشة هو أقدم مما كان معروفا حتى الآن . وقد اكتشفت فعلا آثار على غاية من الاهمية بصدد فترة نزوح الساميين اليها قد تساعد على تفهم أدق للعلاقات التي كانت سائدة بين شعوب شطري البحر الاحمر في عصور ما قبل التاريخ الاولى . ومن دراسة بعض المعابد القديمة أصبح واضحا ان الاحباش عبدوا حتى الآلهة التي كان يعبدها أهل اليمن . وبلدة يحا Yeha (٨) تمثل في الوقت الحاضر كنزا غنيا حافلا بالمواد الآثارية التي قد تكشف النقاب عن كثير من الحقائق المجهولة . وهذه هي قرية صغيرة واقعة الى الشمال الشرقي من بلدة « عدوه » التي اشتهرت بانتصار الاحباش على الايطاليين .

وفي يحا اكتشفت البعثة الالمانية سنة ١٩٠٦ بقايا معبد من أهم المعابد ضخامة شيد على الطراز المعماري السائد في جنوب الجزيرة العربية . ويميل العلماء الى الاعتقاد بأن هذا المعبد لا بد ان اشرف على بنائه معماريون ماهرون استقدموا من اليمن ان لم يكن عمال يمانيون انفسهم هم الذين قاموا بانشائه . ويشغل المعبد مساحة ٨٠ × ١٢٠ مترا مربعا يغلب على الظن انه اسس في حوالي القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد . كما واكتشفت بعثة اثيوبية معبدا يعتقد انه أقدم من المعبد المكتشف في يحا . ويقع هذا المعبد الى الجنوب الشرقي من العاصمة

---

8 — The Abyssinians, by David Buxton, page 36.



المقـــدسة اكسوم في موقـــع يقال لـــه « هاوولتي ميـــلازو » Haoulti - Melazo (٩) . وسيكون بمثابة فتح جديد بالنسبة لفجر التاريخ الحبشي لو تم اكتشاف اسس حضارة هنا قامت قبل حضارة مملكة اكسوم . ولا ننسى ان يحا ، ولو انها الآن لا تعدو عن كونها قرية ذات اهمية ثانوية ، غير انها كانت مركز اشعاع للحضارة الحبشية قبل قيام اكسوم .

الحبشة تتنصر

ظلت الحبشة زهاء اربعة عشر قرنا من الزمن على اليهودية حتى دخلها دين عيسى بن مريم في أوائـــل القرن الرابع الميلادي ــ حوالي سنة ٣٣٠ ، حسب القصة التي رويناها سابقا ، على عهد الملك ازآنـــه (اذينه) . وظل الدين الجديد يلقى معارضة عنيقة من السكان اثارهـــا بوجهه اليهود الذين وقفوا منه موقفا عدائيا حتى ثبتت أصوله في الهضبة في آخر المطاف ونما عوده .

الا ان هناك رواية اخرى تلقى مساندة اكثر من الاحبـــاش انفسهم وهي ان النصرانية دخلت بلادهم سنة ٣٤ ميلادية أي قبل التاريخ المتعارف عليه بثلاثة قرون . ولعل المؤمنين من اتباع هذه المدرسة يهدفون الى مد التراث المسيحي في هذه البلاد الى ٣٠٠ سنة اخرى . ولكن على اية حال سواء رجحت كفة الراي الاول أو الثاني فان الحبشة تعتبر من أقدم البلاد المسيحية في العالم .

وعلى الرغم من الحروب التي نشبت بين الممالك الاسلامية والحبشة فان سلاطين المسلمين امثال صلاح الدين الايوبي منحوا المسيحية حقوقا وامتيازات ما زالت ممثلة في كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم . ومعروف ان أول من منح الكنيسة حقوقها الدينية الكاملـة فـي العهـد الاسلامي هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٦٣٧ ميلادية.

---

9 — The Abyssinians, by David Buxton, pages 86 — 89.



الفصل الحادي عشر

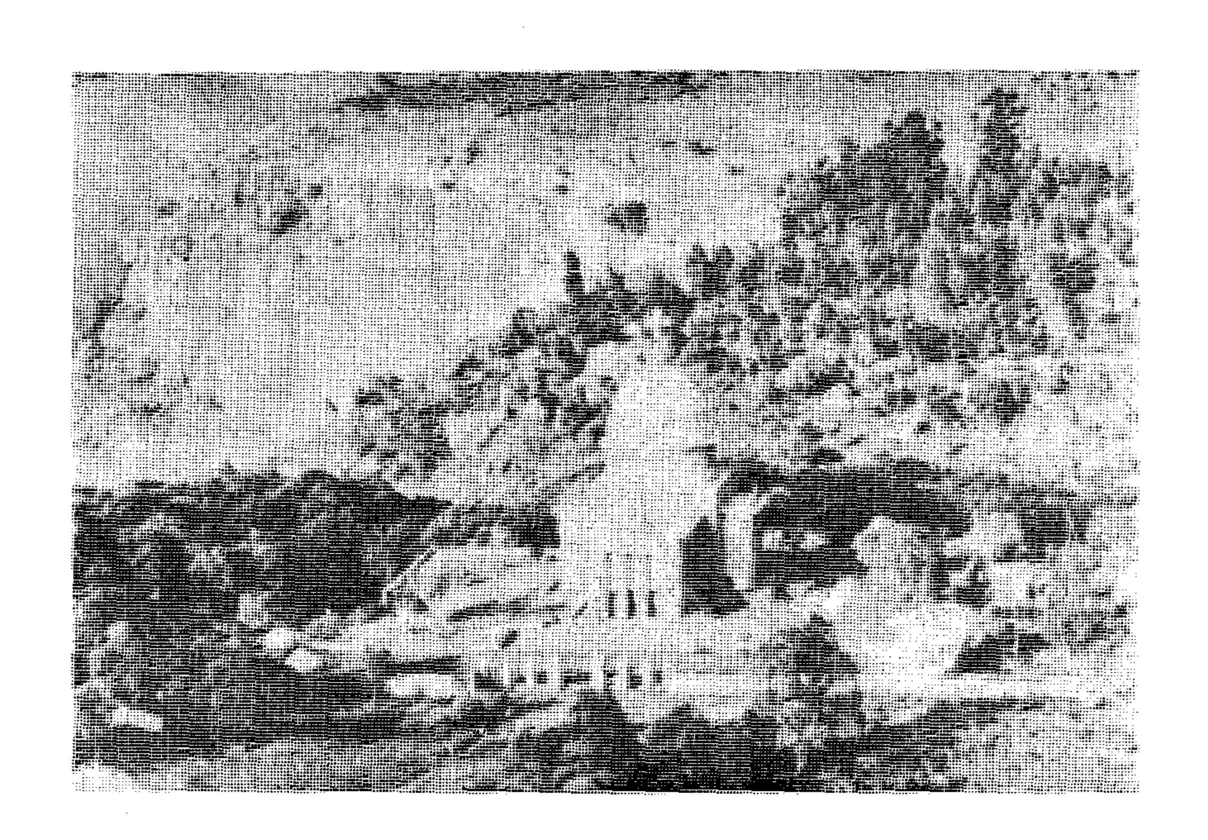
الكنيسة الحبشية

نبذة تاريخية

الكنيسة البقطية الحبشية هي احدى مجموعات الكنائس الشرقية وهي ارثوذكسية تتبع المذهب اليعقوبي . ومن صفاتها الالتزام بالعهد القديم (التوراة) بشكل أعمق مما تلتزم به الكنائس الاخرى . فالاحباش أصلا اقباط كأقباط مصر . ومن أبرز صفات الاحباش سكان الهضبة الاصليين نزعتهم الدينية الاصيلة وايمانهم الراسخ وتمسكهم بشعائر العهدين القديم والجديد . فمنذ اكثر من ١٦٠٠ سنة والكنيسة القبطية ترفع شعائر المسيحية فوق هضبتها الشامخة ، فيما كانت بقية شعوب افريقية غارقة في بحر من الوثنية والجهالة والسحر . ويمكن القول دونما تردد بأن المركز المرموق الذي تحتله الكنيسة في المجتمع الحبشي قلما كان له شبيه في بلد آخر في العالم المسيحي . ومما زاد من مكانتها المقدسة في قلوبهم اعلان أباطرة الاحباش انفسهم حماتها . ومن هنا نشأ لقب الامبراطور « المصطفى من الاله » .

فرجال الدين يتمتعون بنفوذ قوي بين كافة السكان في أمورهم الدينية والدنيوية . وقد شاهدت بنفسي عامة الشعب يقبلون يد القس ثم يهبطون الى الارض لتقبيل قدميه . والحبشي من عادته عدم الاقدام على أمر ما ، مهما صغر شأن ذلك الامر ، سواء كان في عمله أم في حياته الخاصة دون الرجوع الى القس للاهتداء بمشورته . واذا ما مر أحدهم من أمام الكنيسة فلا بد أن يرفع قبعته على الاقل اجلالا وتكريما لمقامها. وقد يسجد ليقبل الارض ثم يمضي في سبيله . أما اذا مر من أمام الكنيسة وهو راكب فلا بد له ان يترجل ليقبل ارضها ولا يعود ثانية لركوب دابته حتى يكون قد تجاوز حدودها . فعلى مر الايام أصبحت الكنيسة عنوان مجد الحبشي ورمز عزته . أو قل هي والمجد والعزة





الدير التاريخي ديبرا ليبانوس يشرف على وادي النيل الازرق
في قلب الهضبة

عبارة عن كلمات مترادفة في قاموس معتقدات الاحباش . وقد ينعكس هذا الاعتزاز والتمجيد للكنيسة بمظهر القساوسة في بعض المهرجانات الدينية وهم يطوفون أمامها ومن حولها مسلحين بالبنادق والحراب تعبيرا عن تعلقهم بها وتفانيهم من أجل اعلاء شأنها والذود عنها .

ظلت الكنيسة الحبشية طيلة العصور المنصرمة تابعة للكنيسة المرقسية بالاسكندرية . وقد يكون من المفيد التلميح هنا بأن هذه التبعية نشأت منذ عين بطريارك الاسكندرية أول مطران للحبشة بشخص فرومانتيوس بعد تنصرها . فلما مات فرومانتيوس كتب الملك الى البطريارك يرجوه فيه تعيين خلف للمطران الراحل نظرا لافتقار الحبشة لرجل مؤهل من بين رجال الدين الاحباش لاشغال هذا المنصب الخطير، خاصة والبلاد حديثة عهد بالنصرانية .

وهكذا درجت التقاليد على هذا المنوال حتى استقلت الكنيسة الحبشية عن الكنيسة الام ـ كنيسة الاسكندرية ـ في عام ١٩٥٨ . وكانت التقاليد المرعية أيضا تستوجب اختيار المطران الجديد من بين ابرز الرهبان المصريين من أحد الاديرة الصحراوية في مصر . وقبول المرشح منصبه الجديد يعني النهاية لعلاقته الدنيوية بوطنه الاصلي ـ مصر ـ الذي لن يعود اليه .

اما مسألة استقلال الكنيسة الحبشية عن الكنيسة الام فلم تكن وليدة الساعة بل نتيجة محاولات متعددة وفي فترات مختلفة . الا ان هذه المحاولات لم تصب نجاحا الا في عهد الامبراطور هايلا سلاسي . كما وان هذه الرغبة الى الاستقلال ليست الوحيدة في بابها . بل ان دولا عديدة اخرى سبقت الحبشة اليها وجعلت كنيستها كنيسة وطنية في اوروبا مثلا . فبنمو الروح القومية عند الاحباش منذ اوائل هذا القرن ، بل وحتى في عهد أسبق ، بدأت فكرة استقلال الكنيسة بشؤونها تختمر في رؤوس المسؤولين ، وذلك لاعطاء حد للتبعية لكنيسة تفصلها عنها آلاف الكيلومترات ، ولكن الاهم من ذلك هو للتخلص من تدخل حكام مصر المسلمين في تعيين مطارنتهم .

فعندما توفي المطران أبونا كيرلوس سنة ١٩٤٩ رفض الامبراطور قبول ترشيح مطران من مصر وصرح بأن زعامة الكنيسة الحبشية يجب ان تكون بيد أهلها لا أجنبية . وبعد مفاوضات معقدة مع البابوية في الاسكندرية توصل الطرفان الى اعتبار الكنيسة الحبشية مستقلة بشؤونها . وعلى هذا الاساس وجب ان يكون (ابونا ـ اي المطران) حبشيا يرشحه الامبراطور بناء على توصية من المجلس الديني الحبشي ويصادق على تعيينه بطريارك الاسكندرية .

الا انه بعد ان تمت هذه الخطوة من الاتفاق وتم تعيين المطران الحبشي الجديد قرر المجلس الديني الحبشي رفع درجة المطران الى



رتبة البطريارك . وعندئذ اصبح (ابونا) بطرياركا فاستقلت الكنيسة الحبشية استقلالا تاما عن مصر . وازداد نتيجة هذه التطورات عدد المطارنة حتى اصبح مطران واحد لكل من الاقاليم (المحافظات) الثلاثة عشر في البلاد بعد ان كان مطران واحد لكل الحبشة . ولا بد من الاشارة هنا الى ان هذه التغييرات الجوهرية التي طرأت على العلاقات بين الكنيستين لم تخل من ظهور موجة من الاستياء والاحتجاجات من بعض رجال الدين الذين عز عليهم فك هذا الارتباط الوثيق الذي نشأ مع نشوء النصرانية في الحبشة .

ومن ناحية اخرى فيبدو ان الكنيسة الحبشية في الآونة الاخيرة اخذت توسع من آفاق اهتمامها وارتباطاتها بالمجتمع الافريقي على اساس ان لها رسالة في هذه القارة مبعثها الدين الذي رفعت مشعله من على راسيات جبالها ليضيء ما وراء حدودها وينشر السلام والنور في معاقل الوثنية .

نفوذ الكنيسة

تتمتع الكنيسة الحبشية بنفوذ واسع مؤثر هو أقرب الى النفوذ الذي كان للكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى . فهي أشبه بحكومة داخل حكومة ، تتدخل في اكثر شؤون البلاد السياسية وغير السياسية. أما مصدر نفوذها فمتعدد الجوانب ، نما وثبتت جذوره في المجتمع مع الزمن . فصلاتها المتينة بالملكية مبنية على مصالحهما المشتركة وتمثل اولى عوامل هذا النفوذ . ولا يقل عن ذلك درجة سطوتها وتأثيرها في الفرد الحبشي المتمسك بأصول دينه لحد التطرف . ومن عوامل نفوذها مواردها التي لا حصر لها من اقطاعياتها الزراعية والضرائب الاخرى والرسوم التي تفرضها على الافراد . أما هيمنتها على التعليم حتى وقت قريب فهيأ لها مجالا خصبا لتوجيه أفكار المجتمع الحبشي التوجيه الديني المتعصب المحدود وخاصة في الارياف . كل هذه العوامل مجتمعة جعلت من الكنيسة قوة لا تقل شأنا عن قوة الدولة نفسها .

كانت النصرانية دين البلاط الملكي قبل ان تكون دين الجماهير . ولذلك فمنذ البداية أعلن الملوك حمايتهم للكنيسة ورعوها بأنفسهم . فازاء ذلك وبدافع من المصالح المتبادلة ساندت الكنيسة ملوك البلاد وشرعية حكمهم مساندة متناهية ، وذلك بالربط بين انحدار الملوك من السلالة السليمانية والعقيدة الراسخة في نفوس الناس بأن الملوك يحكمون رعيتهم بتفويض سماوي . وبمرور الايام ازدادت هذه الصلة والمصالح المتبادلة بين الملوك والكنيسة متانة ومساندة . ولكن في مجتمع يسوده الجهل والتخلف والتعصب الديني كالحبشة فقد امتدت جذور



هذا النفوذ الى اعماق طبقات الشعب . فاصبحت لها صـــولة عملاقة لا تنافس .. وفي بعض الحالات جاوزت صولة الملوك .

وفي تاريخ البلاد امثلة عديدة لاحداث قلبت الكنيسة فيها ظهر المجن للملوك اما لخروجهم على تقاليدها أو لمحاولتهم الانتقاص من شوكتها. فقد عزلت الملك زا دينغل عن العرش سنة ١٦٠٣ ــ ١٦٠٤ . كما اقصت الملك سو سنيوس (١٦٠٧ ــ ١٦٣٢) عن العرش ايضا عندما حاول نبذ المذهب القبطي لصالح المــــذهب الكاثوليكي الروماني بتأثير مـــن الجزويت البرتغاليين . حتى ان من أسباب خـــذلان الامبراطور ثيودور الثاني سياسيا (١٨٥٥ ــ ١٨٦٨) ، ذلك الملك الجبـــار ، وخروج الكثير من الاقاليم والقبائل عن طاعته كان موقف الكنيسة نفسها مذ شعرت انـــه بدا يتصدى لمحاربة رجالها والحد من نفوذهم .

ومن أبرز الامثلة على قوة نفـــوذها وسلطانها الدور الحاسم الذي لعبته في تنحية الامبراطور ليج اياسو سنة ١٩١٧ عن العرش ومطاردته وسجنه بل وربما قتله بسبب ميوله نحو الاسلام أو التعاطف مع المسلمين . وقد تكون حتى الاشاعات التي راجت عـــن اعتناقه الاسلام موضوعة مـــن اختلاق الكنيسة لابعاده عن العرش . وقيل في حينه أن الدول الغربية مارست ضغطا سياسيا قويا لمحاربته بسبب ميوله نحو الاتراك والالمان خلال الحرب العالمية الاولى . ولكن الكنيسة بدورها هي التي حفزت هذه الدول ان تقف موقفا معاديا للامبراطور المخلوع وساعـــدت في مطاردته لتسهيل القاء القبض عليه .

ويجب أن لا يعزب عن البال أيضا دورها الفعال في احباط الانقلاب العسكري الذي وقع في سنة ١٩٦٠ عندما كان هايلا سلاسي في زيارة رسمية للبرازيل . فبيانها الذي أصدرته في تأييد الامبراطور كان من أهم العوامل التي أوقعت الخلافات بين وحدات الجيش فأدت الى رجحـــان كفة القوات الموالية للامبراطور على القوات المعادية له . فرجع الى بلاده والى عرشه كالقائد المنتصر .

ان الكنيسة تدرك بأن دوام نفوذها مضمون ببقاء الامور والاوضاع الداخلية في البلاد على ما هي عليه . ولذلك فهي تعارض كل تغيير يهدف الى تطوير المجتمع وتنميته اقتصاديا وثقـــافيا واجتماعيا مهمـــا اختلفت نواحي هذا التطور عن طبيعة المسؤوليات الاساسية للكنيسة . فمثلا ان الحبشة بحاجة لتنمية مواردها الطبيعيـــــة وتحسين الزراعة لزيادة الانتاج . ولكن لما جاءت الحكومة بمشاريع زراعيـــــة تستهدف زيادة المساحة المزروعة بأشجار البن وجهت الكنيسة على هذا المشروع حملة دعائية عنيفة مركزة ، وحجتها في ذلك ان هذه الزيادة مدعاة لبث عادات اسلامية خبيثة ــ على اساس ان شرب القهوة هو من العادات الاسلامية



التي يجب محاربتها ـ مستغلة بذلك سذاجة الفرد الحبشي .

اما الشعور السائد بين الطبقة المثقفة هو ان الكنيسة اصبحت حجر عثرة في سبيل التقدم الاقتصادي والاجتماعي في البلاد . ومن هنا أخذت تلوح امارات تحول عن الارتباط التقليدي بالكنيسة القبطية . ونظرا لنشاط الارساليات التبشيرية في البلاد حاليا فقد أخذ قسم من الشباب المثقف ينهج نهج المذاهب الاخرى ـ وعلى الاخص البروتستانتية منها بسبب قلة قيودها وبسبب تحررها من الجمود الديني الذي اصبح يشكو الشباب منه . يقول بعض الشباب المتعلم ، تعليقا على الجمود الفكري عند رجال الدين الاقباط ، ان قسما منهم ذهبوا الى هؤلاء يستلهمون النصح والهداية منهم في تقويم المعوج من السلوك الاجتماعي، فكان جواب رجال الدين : « ان أحسن الارشاد هو الصيام » . كان الشباب المثقف يقصد بتقويم المعوج في السلوك الاجتماعي تحقيق المساواة بين ابناء الشعب الواحد بغض النظر عن الاديان ، وكذلك السعي لرفع العبودية الزراعية والسخرة التي تمارسها الكنيسة في اقطاعياتها الزراعية ، فيما يصر رجال الدين على « ان أحسن الارشاد هو الصيام » .

وحاول الامبراطور هايلا سلاسي نفسه التخفيف من الجمود الفكري المتسلط على رجال الدين وذلك بأن تسمح الكنيسة للنساء بمرافقة الرجال في الدخول الى الكنائس كما هي الحال في الغرب فعارضوا في ذلك معارضة عنيدة . ومن الامثلة التي يذكرها الاوروبيون في يومياتهم ان أجنبيا اراد ذات مرة زيارة ضريح احد القديسين فلم يسمح له بذلك بحجة انه مبتلى بعادات اسلامية وهي التدخين وشرب القهوة .

الرهبنة ورجال الدين

الكنيسة الحبشية غنية جدا ولذلك فهي تبذل بسخاء على بناء الاديرة الضخمة الواسعة والكنائس في كل قرية ، وبين الوديان وفي قمم الجبال وسفوحها . واذا كانت ايطاليا تنعت ببلد الكنائس ، فالحبشة موطن الآلاف منها كذلك . اذ المعروف ان في الحبشة حوالي ١٥ الف بيعة ودير (١) ، يرجع تاريخ بعضها الى القرن الخامس ، مثل دير « ديبرا دامو » الشهير . ويتبع الكنائس والاديرة حوالي عشرة آلاف مدرسة (٢) دينية حسب تقارير ١٩٦٥ يأوي اليها الطلاب الفقراء فيضافون الى الجيش الجرار من رجال الدين الذين تعيلهم الكنيسة .

---

1 — Ethiopia — Press Department, Addis Ababa, page 19.

٢ ـ المصدر نفسه ـ صحيفة ٢٠ .



ان النزعة الدينية لسكان الهضبة وموارد الكنيسة الضخمة هما عاملان مهمان شجعا على بناء الاديرة والبيع والمدارس التابعة لها . ولقد قدر بعض الخبراء عدد رجال الدين ــ من درجة شماس فما فوق ــ ومن يعيلونهم بحوالي عشر سكان البلاد . وأما بالنسبة لعدد القساوسة فالمعروف ان هناك قسا واحدا بين كل خمسة أفراد من الذكور . فلا عجب اذن أن ينعت ألبعض اثيوبيا ب « بلد القساوسة » .

ومن غرائب الرهبنة هنا هي حرية الرهبان . فالراهب غير مقيد بنظام داخلي للدير ولا ملتزم باداء واجبات معينة ــ دينية او خدمات اخرى ــ داخل الدير كما هو مألوف في العالم ــ أوروبا أو الشرق أو غيرهما . الراهب في أثيوبيا حر في تصرفاته . يدخل الى الدير ويخرج منه متى شاء . قد يسكن فيه يوما ويتركه أياما . وقد يسكن بجواره تحت ظل شجرة أو في العراء اذا رغب . وقد يتنسك ويعيش فترة طويلة بعيدا عن الدير يقتات على الاعشاب والحشائش البرية . وقد يحضر الصلاة في الدير أو لا يحضرها .

وتزخر البلاد بألوف مؤلفة من أصناف هؤلاء الرهبان ، يعيشون عالة على موارد خزينة الكنيسة ، بينما خارج أثيوبيا فالمعروف عن الرهبان انهم أولو بأس وعزيمة يفلحون الارض ويخدمون البساتين والكروم فيحصلون على رغيفهم اليومي بعرق جبينهم . أو بكلمة اخرى فهم فئة دينية منتجة تضيف الى موارد الكنيسة ــ لا تستنزفها كما يعيش رهبان الاحباش . ومن هنا نشأت فكرة استرقاق الشعوب غير المسيحية لكي تعمل في اقطاعيات الكنيسة وتفلح أراضيها .

موارد الكنيسة

لا تعيش الكنيسة الحبشية على الهبات والصدقات وما تجود به أيادي المحسنين مثل كثير من كنائس العالم . فمواردها لا حصر لها ولا حدود تقريبا . فان ما تحصل عليه من أملاكها الخاصة واقطاعياتها الزراعية يجعلها في وضع مالي ممتاز . وقد تكون اغنى كنائس العالم بعد بابوية روما . فالكنيسة تمتلك حسب تقدير الخبراء المطلعين نحو ثلث أراضي الدولة في بعض الاقاليم . وفي أقاليم اخرى فهي تمتلك عشر مجموع الاراضي القابلة للزراعة . فهذا ملك واسع بالنسبة لمساحة اثيوبيا . وكما هو معروف فان كافة ايراداتها لا تخضع لاي نوع من الضرائب التي تفرضها الدولة على الشعب (٣) . وهذا طبعا اضافة الى موارد اخرى تأتيها من عامة الناس بشكل ضرائب أو رسوم عن بعض ما تقوم به الكنيسة للشعب من خدمات .

---

3 — Ethiopia, Press Department, Addis Ababa, page 68.



فمثلا من الامور التي تفرضها الكنيسة على السكان ــ وتلبي هذه الامور بكل طاعة واحترام ــ هي ان يخصص رئيس كل عائلة كمية عينية من الحبوب ومواد اخرى سنويا ، حسب امكاناته المادية ، الى الكنيسة تجبى بواسطة جباة تابعين لها . اما اذا كان رب البيت المكلف من الذين يعملون في الاراضي الزراعية التابعة للكنيسة ، فتنتقل حصتها تلقائيا الى بيت أقرب القساوسة منه . الى جانب ذلك فهناك مدخولات غير منظورة ، طفيفة بمفرداتها ، وافرة بمجموعها ، تتجمع عن طريق السياحة وزيارة الكنائس وبشكل غرامات تفرض على الافراد عن اهمال او تقصير في اداء الفرائض الدينية .

ويبدو ان مرسوما امبراطوريا صدر في السنين الاخيرة أخضعت الكنيسة بموجبه لدفع الضريبة التي كانت معفاة منها . ولكن من ناحية أخرى فالضريبة المستوفاة (اذا كان هذا قد طبق عمليا) لا تدخل في حسابات ضرائب الدولة بل تدخل صندوقا خاصا في خزانة الدولة يصرف منه للشؤون الادارية للكنيسة ــ وكأنه لم يحصل أي تغيير للحد من الاعفاء .

فرائض وطقوس

لعل أهم المظاهر الدينية التي تعكس اثرها على الحياة اليومية بين السكان هو الصيام الذي يعتبر من أقدس الفرائض الاساسية ، اذ يدوم حوالي ١٥٠ يوما من مجموع أيام السنة الواحدة . والصيام عند الاحباش معناه الامتناع عن تناول اللحوم والبيض والزبد والحليب . ويراعى المنع بكل دقة وامانة . ويمارس الصيام بشكل لا يقبل التسامح حتى مع الاطفال الذين بلغوا السابعة من العمر . وفي بعض الاحيان تسبق الاعياد فترات طويلة من الصيام . فعيد الفصح مثلا تسبقه فترة صيام تدوم خمسين يوما بكاملها . وعدا ذلك فالصيام يفرض في كل يوم اربعاء وجمعة من كل اسبوع على مدار السنة . ونظرا لكثرة مناسبات الصيام في الحياة اليومية للفرد الحبشي فقد أصبح شيئا مألوفا عند السكان وكاد يكون عادة من عاداتهم .

ومن طقوسهم المرعية تعميد الذكور في اليوم الاربعين بعد الولادة. واما بالنسبة للاناث ففي اليوم الثمانين . اما عن قيام رئيس كل أسرة أو بيت بتخصيص كمية من الحبوب تناسب موارده الى الكنيسة سنويا، فذلك يعتبر من الواجبات المهمة التي قد تأتي بمنزلة الفرائض ، وانها ليست من الامور الاختيارية . وهناك بعض التقاليد الاخرى الموروثة عن اليهودية وتعاليم العهد القديم مثل عملية الختان للذكور في اليوم الرابع بعد الولادة . واحترام يوم السبت هو المظهر الآخر الذي يمثل



تراثا قبطيا ماخوذا عن اليهودية . وغني عن القول ان الاقباط المتمسكين باهداب الدين يستنكرون أكـــل لحم الخنزير ولا يعنون بتربية هـــذا الحيوان . وقد يجد الاوروبي صعوبة في الحصول على لحم الخنزير في المطاعم عادة .

أما أعيادهم الدينية والوطنيـــة فكثيرة . الا ان اهمها ثلاثة هي : أولا ـ عيد الفصح الذي تسبقه فترة صيام طويلة كما اسلفنا ، وثانيا ـ عيد الصليب المعروف بالامهارية باسم « ماسكال Maskal » ، وثالثا ـ عيد راس السنة القبطية . وقد تناولنا موضوع الاعياد عند الاقباط في الفصل الخامس والعشرين بشكل اكثر تفصلا .



الفصل الثاني عشر

طغيان ثيودور (١٨٥٥ ـ ٦٨)

نشاته

نحن الآن في منتصف القرن التاسع عشر واوروبا تتأهب للوثوب الى افريقيا . واثيوبيا تنتابها حالة مفزعة من البلبلة السياسية والتفكك الاجتماعي ، والفوضى ضاربة أطنابها في كافة ارجاء الامبراطورية المجزأة الى ممالك وأقاليم يحكمها ملوك ورؤوس يتطاحنون فيما بينهم للحصول على مكاسب شخصية . فصارت البلاد تتطلع الى منقذ ، جريء ينتشلها من هذا التدهور المزري ويوصل سفينتها الى شاطىء السلامة. في هذا الوقت بالذات بدأ النفوذ الاسلامي يبسط ظله من جديد على المنطقة ، الامر الذي زاد من قلق الاحباش وخوفهم على مصير وحدتهم الوطنية . فالتهديدات أخذت تتوالى من الداخل والخارج . وأصبح السودان بنظر الاثيوبيين مصدر خطر عظيم يتهدد أمن البلاد واستقرارها، بينما من الداخل أخذ الاسلام يثبت أقدامه بين قبائل غالا بزعامة الرأس علي (واسمه الكامل طلاّق علي) الذي أخذت شهرته تقضّ مضاجع الاحباش .

واخيرا ظهر المنقذ المنتظر من بين الصفوف الخلفية . وبين عشية وضحاها امسك بزمام الامور وأصبح سيد الموقف في طول البلاد وعرضها . ذلك هو الشاب الثائر ـ كاسا Cassa ـ الذي قدّر له ان يصبح في بحر سنوات معدودة امبراطورا من اعظم اباطرة اثيوبيا . نشأ هذا الشاب في مقاطعة كوارا Quara على الحدود الغربية وكان والده زعيم قبيلة صغيرة ، وافاه الاجل وكاسا لما يزل صبيا . فأدخل الى أحد الاديرة لتحصيل العلم . ولكن سرعان ما هرب من الدير . اما والدته فكانت معدمة الحال اضطرت من اجل العيش أن تجلس في الشارع



لتبيع كوسو ـ Koso (١) . وبعد خروجه من الدير قرر ان يدخل معترك الحياة ، وهو عصامي لا يدور في خلده شيء سوى الحرب ضد الاسلام كأحد الفرسان الصليبيين . فرجع كاسا الى موطنه ليراس عصابة للنهب والسلب .

ومع انه كان يعتبر نفسه من العناصر الوطنية التواقة الى الاصلاحات الداخلية ، فلم ير في عمله هذا ما يخل بسمعته وشرفه . فالقرصنة وقطع الطرق كانت قديما وحديثا تعتبر من الاعمال البطولية. وكان شأنه في ذلك شأن كثير من الرجال الاشداء الذين يفتقرون لمورد رزق يعتمدون عليه . فلما داهمت الجيوش المصرية أرض اثيوبيا قاد رجاله الى النصر في صدام وقع له غربي النيل بالقرب من قرية متمه Metemma . ومن هنا بدأ نجمه يتألق والتف حوله الرجال . وسرعان ما قوي ساعده فأخذ يتحدى المتنفذين من الرؤوس في غوندار والاقاليم المجاورة .

ولما اخذ كاسا يرتقي سلم المجد في السنين التالية أصبح أعداؤه وخاصة طبقة النبلاء يتهامسون فيما بينهم ويرسمون علامات الاستفهام عن أصله ـ ويقصدون بذلك والدته بائعة الكوسو طبعا . وربما كانت هذه العقدة النفسية عنده من أسباب شذوذه في كثير من مواقفه وميله للانتقام من الطبقات العليا في المجتمع الاثيوبي .

من طريف ما يروى عن أيام صباه انه كان ينادي وهو في مقتبل العمر بضرورة الاصلاحات الداخلية والقضاء على المفاسد لضمان وحدة البلاد ووقوفها كتلة واحدة ازاء خطر التهديدات الخارجية . في تلك الفترة من حياته التقى به احد الاوروبيين العاملين في بلاط الملك في غوندار ، فدهش هذا الرجل لفرط ذكائه ومواهبه وقوة شخصيته . فتوسم فيه الرجولة الفذة والقابلية للقيادة . فكتب عنه في مذكراته : انه يتوقع له مستقبلا حافلا بالاحداث الجسام . ويرى انه لا بد وان سيصبح يوما ما ذا شأن عظيم . وفعلا صدقت نبوءته . اذ علا شأن كاسا وعظمت منزلته . وهو بلا شك فارس شجاع يجمع بين البطش والغدر في معاملة الاعداء ، ونبل الاخلاق وكرم النفس في مقابلة الضعفاء .

لم يحل عام ١٨٥٣ حتى شعر كاسا في نفسه القدرة على منازلة اكبر الرؤوس في اقاليم غوجام وبيغمدير وتيغره وشوا . فتحداهم وسار نحوهم بجيشه واخضعهم جميعا الواحد بعد الآخر . ومن ضمن الرؤوس الذين حمل عليهم الراس علي . الا انه لم يقو على الصمود امام هذا الزعيم القوي ، فتراجع وانسحب لان الرأس علي كان في أيام عزه

---

١ ـ كوسو هو نوع من النبات يستخلص منه دواء لمكافحة الدودة الشريطية المنتشرة في اثيوبيا نتيجة تناولهم اللحوم النيئة .



وعظمته وقد تمكن من الوصول الى حاكمية غوندار . اما ملك اقليم شوا فتقهقر امام قوة كاسا الهائلة ثم مات بعدئذ من شدة تأثره . فخضع هذا الاقليم ـ اي اقليم شوا ـ لهذا القائد الشاب . فأخذ كاسا ابن ملك شوا ـ منليك ـ أسيرا الى قلعة ماغدالا Magdala وكان عمره آنئذ أحد عشر عاما . ومكث هذا الصبي في الاسر عشرة أعوام قبل تمكنه من الهرب من تلك القلعة ليعود الى شوا ويعلن نفسه ملكا على عرش أبيه .

ولما بلغت أنباء انتصارات كاسا مسامع الامبراطورة (منين Menin) خشيت امتداد نفوذه الى ملكها . فجهزت له جيشا «لتأديبه» كما قالت . الا ان كاسا دحر جيشها واكتسحه من أمامه . فزاد ذلك من حنقها وباتت تتحين له الفرص للايقاع به . ودارت الايام دورتها وعادت الجيوش المصرية الى مهاجمة اثيوبيا ودحرت جيوشها وكسبت منها مغانم كثيرة . وكانت عساكر كاسا بين الجماعات المندحرة . واصيب كاسا نفسه ببعض الجراح . ولما وصلت أنباء اندحار كاسا امام المصريين الى الامبراطورة فرحت واستبشرت لاندحار خصمها العنيد . وهنا ارادت اهانته فبعثت اليه بقطعة من لحم البقر مع رسالة مفادها « ان الصعاليك من أمثال كاسا لا يستحقون بقرة كاملة » .

كان كاسا طريح الفراش ينتظر ان يبلى من جروحه عندما بلغته هذه الاهانة . فسكت على مضض ، الا انه في قرارة نفسه عزم على الانتقام لنفسه بأول فرصة . ومما زاد في غضبه أن أحد قواد الامبراطورة صرح بأنه سيسحق كاسا ابن بائعة الكوسو ويحضره صاغرا امام الامبراطورة ليركع تحت عرشها . ولكن الرياح تجري أحيانا بما لا تشتهي السفن . فقد تحدى كاسا هذا القائد وتوجه اليه بقوة جبارة حتى هزم جيشه شر هزيمة وأسره . وعند أسره قدم له طعاما ولكن بدون نبيذ . اذ أجبره ان يتجرع عددا من كؤوس دواء الكوسو كبديل للنبيذ .

كاسا يعلن نفسه امبراطورا

بعد أن دانت لكاسا الاقاليم المجاورة له حول أنظاره نحو اقليم تيغره . فقاد جيشه اليه فاحتله دونما صعوبة . وبذا تم له توحيد كافة أقاليم الهضبة الحبشية . فأعلن نفسه في اليوم الخامس من شباط (فبراير) ١٨٥٥ امبراطورا على اثيوبيا تحت اسم ثيودور الثاني (ثيودوروس باللغة الامهارية) . ونقل العاصمة من غوندار الى قلعة ماغدالا Magdala في المرتفعات الشرقية . غير انه في الحقيقة لم يستقر فيها بل آثر التجوال المستمر متنقلا من اقليم الى آخر لكي لا يفقد السيطرة الكاملة عليها . فكانت تنقلاته تشمل كل حاشية بلاطه وديوانه وجنده ، تصحبهم عائلاتهم وأولادهم وماشيتهم . فعاصمته والحالة هذه كانت عبارة عن مخيم كبير يضم حوالي عشرين ألف خيمة . فاذا زحفوا



فكأنما بلدة بأكملها تزحف . ولا تلحق مؤخرتها بمقدمتها الا بعد عشرات الساعات .

أما السبب في اختياره اسم ثيودور فيرجع الى اسطورة حبشية قديمة شاعت بين السكان منذ القدم ، ومفادها أن سيظهر يوما ما ملك اسمه ثيودور له من القوة والسلطان ما يمكنه من جمع كلمة البلاد وتوحيدها ودحر المسلمين واستعادة بيت المقدس . ولذلك فان عامة الناس يجلون ثيودور ويذكرون اسمه دوما بالتعظيم الى اليوم . كانت وحدة البلاد حلما من أحلام شبابه فحققها . وبعد أن وفق لذلك رسم لنفسه خطة استهدفت الاضطلاع باصلاحات اجتماعية جذرية . فمن المشاريع التي كان ينوي انجازها تخصيص رواتب ثابتة للجند وانشاء شبكة من طرق المواصلات وتوفير الاسلحة الحديثة لجيشه والمدافع والغاء المتاجرة بالرقيق وتحريم تعدد الزوجات وغيرها . ونظرة فاحصة الى المشاريع المذكورة التي كان يعتزم القيام بها تعكس بعد نظر كاسا وتفهمه لمشاكل البلاد وأسباب تأخرها .

وفي اطار السياسة الداخلية أعلن عن ثلاثة أهداف وجه عنايته لتحقيقها :

أولا ـ محاربة الاقطاعيين أصحاب الاراضي المتنفذين والحد من شوكتهم .

ثانيا ـ القضاء على قوة قبائل غالا الحربية (وهي القبائل التي سببت له المتاعب في بدء حياته السياسية) والعمل على تنصيرهم هم واليهود السود بالقوة .

ثالثا ـ تنصير المسلمين الآخرين أو طردهم من البلاد . وأعلن للملأ ان كلمتي « المسيحية » و « أثيوبيا » يجب اعتبارهما كلمتين مترادفتين ـ لمعنى واحد .

هذه أهداف أثبتت الايام استحالة تحقيقها ، خاصة الاولى منها ، في مدى حياة شخص واحد وفي بلد متخلف كل التخلف كأثيوبيا . فلكي يقلم أظافر الاقطاعيين عمد الى تجزئة الاقطاعيات الكبيرة الى وحدات أصغر مساحة . ونصب على كل منها حاكما من رجاله . ولكن سرعان ما نشبت المتاعب بسبب تأثر مصالح النبلاء . فأخذ هؤلاء يحاربونه في الخفاء وعرقلوا كافة مساعيه الرامية الى الاصلاح بشتى الوسائل .

وبرهنت الايام على ان المباشرة بتطبيق الاصلاح كان في الواقع بمثابة بداية صراع انقلب الى فوضى عامة ومذابح وتقتيل بالجملة . وكانت حصيلة مشروعاته التي لم يحسن التحضير اليها ولم يحسب نتائجها ان قضى بقية أيام حكمه في حروب محلية استفحل أمرها في كل مكان . وخرج على طاعته الكثير من الحكام ومال عنه حتى أقرب الناس اليه . ومن الناحية الثانية فقد أغاظ موقفه المتعصب للدين



قبائل غالا المسلمة فصعدوا معارضتهم له الى اشتباكات دموية واعلنوا العصيان التام . الا ان ثيودور ليس من اولئك الرجال الذين يتراجعون أمام الاحداث . فكان كلما ثار عليه زعيم قبيلة وجه اليه قوة او توجه اليه بنفسه للقضاء عليه وسحق مقاومته .

اما في أواخر أيام حكمه فكان يزهق أرواح معارضيه بالمئات . فتحول من انسان جاء بأهداف سامية لاصلاح البلاد وتوحيدها الى جزار سلط سيفه على رقاب العباد بلا رحمة . فلم يسلم من بطشه حتى أعوانه الذي صار يفتك بهم بمحض الشك . وبلغت حالته النفسية حدا فقد معه كل صفات التوازن العقلي والكياسة . حتى ان الانكليز شبهوه آنذاك ب « كلب مسعور انطلق من قيوده » . وصوره بعضهم كما لو ان روح ايفان الرهيب ـ أحد طغاة الروس القدماء ـ تجسدت في شخص افريقي .

ان الكنيسة لم تناصره ولم تشد أزره لحل خلافاته مع حكام الاقاليم والقبائل لانه لم يكن على وئام معها . وكان دائما يتشبث بتقليص أعداد رجال الدين . وبلغ به الجنون في سنة ١٨٥٦ الى زج البطريارك كيرلوس الرابع رئيس الكنيسة المرقسية بالاسكندرية في السجن عند زيارته لاثيوبيا . وقصة هذه الزيارة هي ان العلاقات بين الخديوي سعيد وثيودور قد تدهورت وساءت . فقرر الخديوي تكليف البطريارك بالسفر الى اثيوبيا شخصيا للتوسط بحل النزاع وسوء التفاهم بينهما . فاضطر البطريارك تحت هذه الظروف لشد الرحال وتجشم صعاب السفر في تلك الايام الى اثيوبيا .

ولكن لما علم ثيودور بهذا النبأ غضب واسف ان يستخدم اكبر شخصية دينية قبطية كرسول لملك مسلم . فما ان وصل موكب البطريارك الاراضي الاثيوبية حتى فوجيء بنبأ غضب الامبراطور عليه لتنازله بقبول القيام بمثل هذه المهمة الوضيعة . وعندما حضر لمقابلة ثيودور لم يلق منه الحفاوة اللائقة بمقامه ومركزه الديني واودع السجن مع حاشيته بعد أيام معدودة من وصوله . ولم يسمح له بالعودة الى مصر الا في العام التالي . ولم تنجح كل المحاولات التي بذلها مطران الكنيسة الحبشية (أبونا سلامة) لحمل الامبراطور على تغيير موقفه من البطريارك . فان ثيودور كان أساسا يبغض المطران لموقفه السابق معه حين تردد في تتويجه . فكيف ينسى له ذلك الموقف المعادي .

مرت السنون وثيودور يزداد تعقيدا في سلوكه بسبب وضاعة محتده ويتصور كل الناس تغمزه وتتهامس في غيابه عن أصله وامه بائعة الكوسو . وكان يعاقب بلا رحمة كل من يشتبه به انه تطرق لبحث نسبه. وذات مرة سجن أحد المبشرين الجزويت هنري شتيرن Henry stern الالماني بسبب ما قيل انه كتب عن أمه ، وأمر بتعذيبه داخل سجنه .



لقد أزدادت حساسيته لهذه الناحية المؤلمة من حياته وجعلته يتهور في تصريف أموره ويبتعد عن جادة العقل والصواب .

قيل ان بعض الفنيين الاوروبيين الذين استقدمهم من الخارج للعمل عنده كانوا يصنعون له مدفع هاون ، طلبهم ذات يوم للمثول بين يديه . فلما اكتمل نصابهم خاطبهم قائلا : « أنا أعلم ان أوروبا تنظر الي باحتقار بسبب انحداري من أسرة ريفية غير معروفة . وانني لست الوارث الشرعي للعرش . الا ان أحقيتي به واضحة يمكن تتبعها من ابراهيم الى داود وسليمان . ومن هذا الى الامبراطور فاسيليداس ومن هذا لي. أقول ذلك لاطلاعكم على حقيقة الامر لكي لا يخدعكم قول قائل (ان من حسبتموه ملكا ما هو الا رجل عصابة) . وأنا أعلم علم اليقين ان الله تعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء بارادته الربانية » .

لقد حاول ثيودور أن يفتح باب اثيوبيا على مصراعيه لتطويرها واخراجها من عزلتها . فاستعان بعدد من الفنيين الاجانب . كما أفاد من استشارة بعض البعثات الخاصة التي أوفدتها بعض الدول مثل فرنسا وانكلترة . فانتعشت وتوسعت العلاقات التجارية والثقافية والعسكرية بين بلاده وهذه الدول . وان حركة الاصلاحات التي نادى بها وازمع على القيام بتحقيقها يمكن اعتبارها في الحقيقة بداية لمرحلة جديدة استهدفت التخلص من التخلف المخيم على البلاد والدخول الى مدنية العصر الحديث . غير ان ثيودور كان محاطا بحاشية من الجهلاء ، وقد افتقر الى عدد من المستشارين الوطنيين من ذوي الدراية والكفاءة العالية لمساعدته في رسم الخطط المدروسة ونبذ الافكار والمشاريع المرتجلة . فمشكلة ثيودور كانت في الحقيقة مأساة معقدة . فقد اتصف بقابليات ذهنية واسعة وحادة ، وكان فكره متجولا بعيدا عن الجمود الا انه كان غير متزن وغير مستقر في تصرفاته . وهذه الظاهرة استفحلت في نفسه في أواخر أيامه . فكان من ناحية واحدة يفتقر افتقارا كليا الى مستشارين وطنيين ذوي خبرة وكفاءة . ومن الناحية الثانية لم تكن له ثقة بالاوروبيين ولم يطمئن لمشورتهم وكان كثير التشكك في اخلاصهم في أعمالهم ، وشديد الحذر في ارتباطاته والتزاماته معهم .

كتب عنه القنصل الفرنسي مرة المسيو ليجين Le Jean « انه شجاع ، قوي الشكيمة وداهية . ولقد تمكن من تلقين قبائل غالا درسا بليغا في القوة والبطش عندما حاولت الوقوف في سبيل توسعاته الاقليمية . كما وقف موقف المتحدي مع المسلمين حتى انه كتب الى موسى باشا في الخرطوم مطالبا بالقسم الاعظم من السودان وتسليم شندي والخرطوم » . وقال عنه انه غير غافل عن الاطماع التوسعية



للاوروبيين والمصريين . ونقل عن ثيودو قوله :

« أنا لا أجهل المناورات الاوروبية التي تسبق قيامهم باحتلال بلد شرقي يرغبون في ضمه الى ممتلكاتهم . فانهم يرسلون أولا البعثات التبشيرية باسم الدين ، ثم القناصل بدعوى حماية مصالح رعاياهم المبشرين . وبعد أن يثبت القناصل أقدامهم في ذلك البلد تصل مفارز الجند تباعا بحجة حماية القنصليات . لن يستطيع الاوروبيون الاستهزاء بي كما يفعلون مع راجات الهنود . انني أفضل حل قضاياي مع هؤلاء الجند (يقصد حراس القنصليات) عسكريا وبأقصر طريق » .

كان ثيودور اذا غضب أو تأثر من خطأ ارتكبه أحد الدبلوماسيين لا يتردد في اهانته بشتى السبل . فيحكى ان القنصل الفرنسي المسيو ليجين ارتكب عدة أخطاء تتنافى مع العرف الدبلوماسي ولم يفلت من العقاب عن أخطائه . يقال انه قصد البلاط الملكي ذات مرة راكبا على ظهر حمار . فاعتبر هذا الفعل اهانة كبرى للامبراطور . وفي المرة الثانية أراد مقابلة الامبراطور . ولما طلب اليه الانتظار قليلا بدأ الامتعاض على وجهه ولم يخف غضبه حين قال لاحد رجال البلاط انه يرتدي البزة الرسمية لملك فرنسا ولا يجوز أن يطلب اليه الانتظار وهو بهذه القيافة . فلما نقل الخبر الى الامبراطور ثارت ثائرته وصاح بحاشيته غاضبا أن « خذوه الى السجن وهو في بزة ملك فرنسا » .

الا انه أخرجه من السجن بعد أيام وأمر بترحيله من البلاد .

ثيودور وبريطانيا

منذ وقت غير قريب وبريطانيا تسعى لتثبيت نفوذها على سواحل البحر الاحمر واثيوبيا . فقد سبق لها أن مهدت السبيل لتحقيق هذه الامنية فبعثت الرسل والفنيين ليكونوا في خدمة اثيوبيا ومساعدتها في ادخال وسائل النهضة الحديثة وذلك بالاضافة الى البعثات التبشيرية والرحالة والمكتشفين . فقد جاب هؤلاء المغامرون هضبتها منذ أبعد الازمان

فلما أعلن ثيودور نفسه امبراطورا على البلاد كلها حانت لبريطانيا فرصة ذهبية تمكنها من توثيق روابطها معه عن طريق تعيين قنصل لها هناك . وفي هذه الفترة بالذات كان في اثيوبيا رجلان بريطانيان يعملان لحسابهما محليا ، وهما المستر بلودين W. G. Plowden والمهندس بيل Bell . وبالنظر لمكانة المستر بلودين في المجتمع والبلاط الملكي ، ودالته الشخصية على الامبراطور ، فقد وقع اختيار وزارة الخارجية البريطانية عليه ليمثلها هناك كأول قنصل بريطاني . أما الثاني ـ المهندس بيل ـ فكان في خدمة الامبراطور فعلا بصفة كبير امناء القصر الملكي .



غير ان الصدف شاءت أن يقتل بلودين بعد فترة قصيرة من تعيينه قنصلا ، خلال احدى جولاته في البلاد ، الامر الذي تأثر له ثيودور . فقرر معاقبة المعتدين وتأديبهم ، وبعين الوقت ليظهر شعوره الطيب نحو بريطانيا . فسار الى محل الحادث على رأس قوة كبيرة ، قيل انه اعمل السيف بالمعتدين حتى قتل منهم نحو ألفين ، فـكانت مجزرة رهيبة اقشعرت لها الابدان . ومن غريب المصادفات ان المهندس بيل قتل ايضا في تلك المجزرة عندما سارع بنفسه لانقاذ الامبراطور من موقف حرج كاد ان يودي بحياته . وهكذا دشنت بريطانيا عهدها الجديد مع اثيوبيا بخسارة أثنين من رعاياها وبمجزرة بشرية راح ضحيتها أعداد هائلة من الاحباش الابرياء .

وعلى أثر وفاة بلودين عينت وزارة الخارجية البريطانية المستر C. C. Cameron كاميرون الذي كان في خدمة حكومة الهند خلفا له . ووصل كاميرون الى غوندار سنة ١٨٦٢ . وبهذه المناسبة بعثت الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا هدية الى الامبراطور ثيودور هي عبارة عن مسدسين ثمينين نقشت على كل منهما العبارة التالية : « هدية الى ثيودور امبراطور الحبشة Abyssinia من فكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وايرلنده تقديرا لعطفه على خادمها بلودين سنة ١٨٦١ » . فحمل المستر كاميرون القنصل الجديد الهدية مع أوراق اعتماده وقدمها للامبراطور . ونظرا لحنكته السياسية ولباقته فقد تمكن كاميرون منذ البداية من توطيد صلات صداقة متينة مع جلالته . الا انه نتيجة خطأ فظيع تتحمل مسؤوليته وزارة الخارجية البريطانية وحدها ، فلم تدم هذه العلاقة الطيبة بين البلدين ولا بين الامبراطور وكاميرون . بل على العكس من ذلك فقد انقلبت الى سوء تفاهم عميق دفعت ثمنه الخزانة البريطانية غاليا وراح ضحيته الامبراطور ثيودور نفسه كما سنرى من الاحداث التالية .

وجد القنصل البريطاني الجديد الظروف مؤاتية للمضي في جعل العلاقات بين البلدين أقوى وأمتن . وبالنظر للحفاوة البالغة التي استقبله الامبراطور بها فقد اقترح عليه ارسال مبعوثين عنه الى بريطانيا لعقد ميثاق صداقة وتعاون مع الملكة فكتوريا . فاستحسن الامبراطور الفكرة، الا انه كمقدمة لهذه الخطوة كتب للملكة فكتوريا رسالة ودية سلمها للمستر كاميرون عبر فيها عما يجيش بخاطره من آمال وتطلعات للعلاقات الطيبة بين البلدين . وضمن الرسالة أشياء أخرى حتى عما يشكو منه من شعبه وممن هم حوله. وباختصار فقد عكست هذه الرسالة شخصية زعيم افريقي وهو يخاطب اعظم ملكة في العالم آنذاك . هذه رسالة طريفة وفريدة في بابها في تاريخ العلاقات البريطانية الاثيوبية . ولذلك فقد وجدت ان من المناسب ترجمتها الى العربية لاطلاع القارىء الكريم



عليها . وكانت قد نقلت اصلاً من الامهارية الى الانكليزية :

« باسم الآب والابن والروح القدس . الاله الواحد في الثالوث . من ملك الملوك ، المختار من الله ، ثيودور ملك اثيوبيا الى صاحبة الجلالة فكتوريا ملكة انكلترة » .

« أرجو أن تكوني يا صاحبة الجلالة بصحة تامة . لما أنا فبخير بفضل الله تعالى . لقد سلط الباري عز وجل الاتراك وقبائل غالا علينا وسلم البلاد اليهم لان آبائي اغفلوا ذكره تعالى وعبادته . ولكنه خلقني من العدم ورفع شأني وأولاني الحكم لكي أعيد بناء هذه الامبراطورية . اذ وهبني القوة ومكنني من الاضطلاع بالمسؤولية التي تحملها آبائي من قبل . فبالقوة التي منحني اياها تغلبت على قبائل غالا. اما الاتراك الذين رفضوا طلبي اليهم بمغادرة ارض أجدادي فقد عقدت العزم على مجابهتهم بالقوة » .

« ان أخبار جلالتك كانت تصل اليّ عن طريق المستر بلودين وكبير أمنائي المستر بيل اللذين نوراني عن وجود ملكة مسيحية عظيمة الشأن تضمر الود لكافة المسيحيين . وعرضا عليّ توسطهما لتثبيت صداقة متينة العرى بيننا . فسرني ذلك لاعتقادي بأنني وجدت من يبادلني التفاهم والنوايا الحسنة » .

« لقد أراد أعدائي اغاظتي بقتلهم أصدقائي (يشير الى بلودين وبيل) ولكن الموت حق ومقدر على كل رجل . وانني بمعونة الله تمكنت من ابادتهم ولم يفلت منهم أحد . وعلى الرغم من كونهم جميعا من عشيرتي فقد قاصصتهم اكراما للصداقة التي تربط بيننا بفضل الله . انني اذ لم أتمكن من إيفاد الرسل اليكم أيام محنتي فما ذلك الا بسبب سيطرة أعدائي الاتراك على ساحل البحر . لقد وصل قنصلكم المستر كاميرون حاملا رسالتكم والهدايا المعبرة عن صداقتكم . وحين أقدم لكم شكري أعرب بعين الوقت عن سروري لانباء رفاهيتكم وتأييدكم لي بالمودة » .

« أخشى لو اني أوفدت سفرائي لكم وبعثت بعض الهدايا مع القنصل كاميرون ان يعترض سبيلهم الاتراك ثم يعتقلونهم . ولذلك أرجو اتخاذ الاجراءات المقتضية لتأمين سلامة مرور هؤلاء الرسل والمحافظة عليهم عبر اسفارهم . كما اني آمل أن أستلم الرد على رسالتي هذه بواسطة القنصل كاميرون الذي أرجوه بدوره مساعدة رسلي في الوصول الى



أنكلترا . انظري ظلم الاسلام للمسيحيين » .

(انتهت رسالة ثيودور) .

الا انه ما أن استقر المستر كاميرون لمزاولة اعماله كقنصل جديد لبريطانيا في اثيوبيا حتى جاءته تعليمات خاصة من وزارة الخارجية البريطانية للتوجه الى « كسله » بالسودان للقيام بمهمة تتعلق بأمور شتى ، ومن ضمنها التحقيق في تجارة الرقيق هناك ودراسة امكان تأسيس مشروع لزراعة القطن في تلك المنطقة . وقد تجدر الاشارة الى ان الدافع المباشر للتفكير بزراعة القطن في السودان هو ارتفاع اسعار هذا المحصول الى اربعة أضعاف سعره الاعتيادي بناء على توقف تصديره من الولايات المتحدة الاميركية بسبب الحرب الاهلية فيها .

سافر كاميرون الى السودان فيما ظن ثيودور انه قصد انكلترة لتسليم رسالته الى الملكة فكتوريا . غير ان الاسابيع بعد الاسابيع انطوت واعقبتها الاشهر وكاميرون لم يعد ولم يسمع عنه أحد خبرا . عندئذ بدأ ثيودور يرتاب في أمر سفره وغيابه هذه الفترة الطويلة . وأخيرا توصل الى الخبر الصحيح واتضح له ان كاميرون قد ذهب الى السودان ــ الى بلاد أعدائه . فأخذ يتشكك بنوايا بريطانيا . واعتبر سفر كاميرون الى هناك بمثابة التواطؤ مع الاتراك والمصريين لغزو بلاده . ومما زاد في الطين بلة ان وزارة الخارجية البريطانية ارتكبت تلك الغلطة الفظيعة بعدم الرد على رسالته كما يقتضيه العرف الدبلوماسي . وقد اكتشف فيما بعد ان أحد موظفي وزارة الخارجية البريطانية أطلع على الرسالة وباهمال منه لم يعرها الاهمية اللازمة فأهملها دون اطلاع الوزير عليها . هذا هو التقصير . ومن هنا بدأ سوء التفاهم يتعاظم بين البلدين . فلولا اهمال هذا الموظف لكانت العلاقات قد سارت باتجاه آخر .

وكان ثيودور يغلي غضبا يوما بعد يوم لعدم استلام الرد على رسالته من ناحية ، ومن الناحية الاخرى لعدم رجوع كاميرون الى مقر عمله في اثيوبيا . وذهب الى أبعد من حالة الغضب . فقد اعتبر عدم الرد على رسالته دليلا واضحا آخر يؤيد مخاوفه السابقة في احتمال وجود علاقة بين سفر كاميرون وتدبير عمل عدائي ضد اثيوبيا . فأخذ يعد العدة لما قد يحدث من مفاجآت على الحدود . أما في داخل اثيوبيا فقد اصدر اوامره بسجن كافة أعضاء البعثات التبشيرية في غوندار وحجزهم مع عوائلهم كرهائن . ولما عاد كاميرون بعد غياب طويل ــ سنة ١٨٦٤ ، اي بعد غياب سنتين ــ زجه في السجن هو الآخر . ومن هنا بدأت قصة النزاع الطويل مع بريطانيا .

لم تمض فترة طويلة على رجوع كاميرون الى أثيوبيا حتى وصلها بريطاني آخر اسمه المستر كيرانز Kerans الذي عين حديثا ليعمل



بصفة مساعد له أو نائب قنصل . ويظهر أن الاخبار عن سجن كاميرون بعد عودته الى اثيوبيا وكذلك جماعة المبشرين لم تكن قد تسربت الى الخارج بعد . فألحق كيرانز برئيسه وأودع هو الآخر في السجن .

وتسربت اخبار سجن كاميرون القنصل البريطاني ومساعده وجماعة الاوروبيين والمبشرين لاول مرة الى عدن في نيسان (ابريل) سنة ١٨٦٤ . كما علم ان كاميرون قد تعرض للاهانة والتعذيب . وكان الممثل السياسي البريطاني في عدن آنذاك الكولونيل ميرويذر Merewether الذي عرف بكفاءته ودهائه . فما ان بلغ الخبر مسامعه حتى أجرى اتصالات عاجلة مع لندن شارحا الوضع في اثيوبيا وحالة السجناء ومطالبا بالحاح أن ترد وزارة الخارجية على رسالة الامبراطور التي مضى عليها عامان دون جواب .

وبعين الفترة نشرت جريدة التايمس اللندنية خبرا فيل ان القنصل البريطاني كاميرون تمكن من ارساله سرا من سجنه يقول فيه : « لا يوجد أمل باخلاء سبيلي ما لم تجب رسالة صاحب الجلالة » ، ويقصد بذلك طبعا رسالة الامبراطور .

حينئذ أفاقت وزارة الخارجية البريطانية من سباتها فقررت اجابة الرسالة . ونظرا لتطور الظروف بغير صالحها فقد تحاشت استعمال العبارات الشديدة أو التلميح بالتهديد خشية تعرض السجناء الى التعذيب أو الموت . فان الآمر الناهي في اثيوبيا « انما هو افريقي شبه متمدن » — هكذا قال عنه الانكليز . وقد بات ثيودور يشك بتصرفات البريطانيين بعد ان فقد الثقة فيهم . والمعروف ان الاوروبيين المحتجزين يمثلون جنسيات مختلفة . فمنهم الانكليزي والفرنسي والسويسري والالماني وزوجات بعضهم الاثيوبيات .

واخيرا أخذت الرسالة الجوابية الى ثيودور شكلها النهائي بعد التمحيص والتهذيب ، ووقعتها الملكة فكتوريا في قصر بالمورال في ٢٦ أيار (مايو) ١٨٦٤ . ففي المقدمة شكرته على تمنياته الطيبة لها . وقدمت له التهنئة لتمكنه من توطيد أركان ملكه وتثبيت سلطانه في اثيوبيا وأوعدت باستقبال بعثة سياسية منه الى انكلترة . وأما في القسم الخاص باطلاق سراح المعتقلين فكتبت له :

> « بلغنا مؤخرا ان جلالتكم لم تعودوا تشملون خادمنا بعطفكم . اننا نأمل ان تكون هذه الاخبار عارية عن الصحة ، اختلقها بعض العناصر التي تصطاد في الماء العكر التي لا تضمر حسن النية تجاهكم . فهي لا ترتاح الا ان ترى شعورنا الطيب قد تحول عنكم . ونرى ان خير دليل تستطيعون تقديمه لاظهار حقيقة احساسكم نحونا ولضمان



استمرار صداقتنا وحسن نوايانا هو قيامكم باطلاق سراح خادمنا كاميرون واي من الاوروبيين الراغبين في مغـادرة بلادكم وشمولهم بالحماية اللازمة للوصول الى أوطانهم » .

هرمز رسام (الموصلي)

من أغرب المصادفات في هـذه المرحـلة من العلاقات البريطانية الاثيوبية ان يكون الشخص الذي وقع عليه الاختيار لحمل رسالة الملكة فكتوريا الى الامبراطور ثيودور من أصل عراقي . ذلك هو هرمز رسام من عائلة رسام المسيحية المعروفة في مدينة الموصل .

كان هرمز في مقتبل شبابه عندما كان المستر لايارد Layard الخبير بالآثار القديمة ينقب عن الآثار في العراق ـ ربما حول مدينـة الموصل ـ فاتصل به هرمز وعمل معه فترة من الزمن ثم رحل الى جامعة اوكسفورد للدراسة ، اكتسب الجنسية البريطانية بعدها . الا انه قبل حصوله على الجنسية البريطانيـة اشتغل بمعيـة المستر مير ويذر Merewether الممثل السياسي البريطاني في عـدن . ويعلل البعض سبب اختيار هرمز رسام لهذه المهمة الحساسة ، مع انه لم يكن بريطاني الجنسية ساعتئذ ، هو ان الحكومة البريطانية اهتمت كثيرا في اختيار رجل يتصف بقدر واف من الذكاء وقابلية المراوغة الشرقية لكـي يتفهم نفسية ثيودور والتفاوض معه بنجاح . ولم يكن هرمز لينقصه شيء من تلك المؤهلات . بل برهنت الايام على انه كان يتمتع بكفاءة عالية وكثيـر من المرونة وبعد النظر .

بعد اتمام الشكليات المقتضية في تعيين هرمز رسام كمفـاوض بريطاني يحمل رسالة خاصة من الملكة فكتـوريا الى الامبراطور ثيودور عينت الحكومة مساعدين اثنين لمرافقته في هذه السفرة الشاقة الطويلة المحفوفة بالمخاطر ـ أحدهما طبيب اسمه هنري بلانك Henry Blanc والثاني ضابط في الجيش في بومبي هو المستر بريدو Prideaux

وفي تموز (يوليو) ١٨٦٤ أقلت هرمز رسام وحاشيته سفينـة حربية من عدن الى مصوع ـ المنفذ الرئيسي لاثيوبيا على البحر الاحمر . وكان هذا الميناء يومئذ تحت السيطرة المصرية .

ومن مصوع كتب هرمز رسالة الى ثيودور يعلمه انه يحمل اليـه رسالة خاصة من الملكة فكتوريا ويستأذنه الدخول الى البلاد لتسليمها اليه . وكان اسم ثيودور في تلك الربوع الساحلية يومذاك يبعث الرعب والفزع في قلوب الناس . فكانوا يخشون بأسه وظلمه على الرغم من بعد المسافة بين الساحل وغوندار . ولقد بلغ خوف الناس من شره انهـم كانوا يعتقدون انه يسمع كل كلمة تقال ضده . ولهذا السبب لم يتيسر لهرمز الحصول بسهولة على عدد من السعاة المؤهلين لركوب المخـاطر



ليستخدمهم في قافلته نحو غوأندار لتسليم الرسالة . وأخيرا وفق لذلك بعد اغراء بعضهم بالمال الكافي . ومكث في مصوع بانتظار الاشارة بدخول البلاد .

وهنا في مصوع طال الانتظار. ولما حل شهر تشرين الاول (اكتوبر) ، وكان قد مضى على وصوله ثلاثة أشهر ، ولم يصله اي جواب على رسالته الاولى ، أردفها برسالة ثانية اعقبها انتظار أشهر أخرى . فأعقب ذلك برسالة ثالثة وانتظر . وطال الانتظار حتى شهر آب (اغسطس) سنة ١٨٦٥ ـ اي اكثر من سنة كاملة على وجوده في مصوع . في تلك الاثناء وصلت أنباء من داخل البلاد مفادها ان كاميرون قد رفعت عنه السلاسل التي كان مكبلا بها في سجنه . وقبيل وصول هذه الانباء كان كاميرون قد كتب الى هرمز يعلمه بأن عدد الاوروبيين المسجونين يتراوح بين عشرين وثلاثين شخصا مع عوائلهم .

فقسم من المبشرين أمثال المستر فلاد Flad وزوجته يقيمون مع ثيودور في مخيم الميدان بالقرب من بحيرة تانا . بينما هو (أي كاميرون) وبعض المبشرين الآخرين أمثال روزنتال Rosenthal وشتيرن Stern فقد أودعوا السجن في قلعة ماغدالا Magdala وجميعهم مكبلون بالحديد . ثم كتب كاميرون رسالة أخرى الى هرمز رسام يسأله استعمال العنف بدل الرقة والمجاملة مع ثيودو في رسائله المقبلة عسى أن يلين . الا انه بعين الوقت كان يحذره من المجيء فيكون نصيبه السجن المحقق ، وعندئذ يقوى جانب ثيودور في المساومة لاطلاق حرية السجناء .

وأخيرا وصل الرد من ثيودور ـ والرد جله ملامة وانتقاد لاذع موجه للقنصل البريطاني . الا انه في آخر الرسالة دعاه للحضور لمقابلته . وحذره من سلوك الطريق المار باقليم تيغره الثائر ونصحه بالتعريج على بلدة متمه Metemma قرب حدود السودان الى الجنوب من «كسله» . وبعين الوقت طلب اليه ارسال اشارة عند وصوله الى هذا الموقع ـ أي متمه ـ لكي يبعث له بحرس خاص يرافقه من هناك . غير ان طريق متمه لا يخلو من الصعوبات خاصة خلال موسم الامطار ، اذ تنتشر الاوبئة والامراض . فلذلك كتب الى ثيودور مستأذنا اياه الانتظار حتى شهر تشرين الاول (اكتوبر) ريثما ينتهي موسم الامطار وتتحسن الحالة الجوية .

وفي الحقيقة اراد رسام بهذا الاقتراح الاستفادة من الوقت للتوجه الى القاهرة لاجراء اتصالات تلغرافية مع لندن بشأن مهمته وكذلك لشراء الهدايا النفيسة للامبراطور . فتوجه الى القاهرة واشترى ما اراد من اسواقها من الاواني الزجاجية والثريات والشمعدانات



والمشروبات غير المتوفرة في اي بلد آخر في المنطقة ، ومجموعة متنوعة من اللوازم الاخرى . ثم عاد الى مصوع ليبدأ الرحلة الطويلة التي تنتظره الى قلب الهضبة الحبشية حيث ستقطع قافلته مسافة تقدر بحوالي ٩٠٠ كيلومتر لبلوغها الهدف .

غادر الركب ميناء مصوع يوم ١٦ تشرين الاول سالكا طريقا بحذاء المرتفعات عبر الصحراء السودانية المحرقة في فترة انتشرت فيها الكوليرا وعمت الاصقاع جميعها . ولكن قبيل مغادرة الركب مصوع وصلت رسالة او معلومات تفيد بأن كاميرون وبقية الاوروبيين قد زيد من اغلالهم الحديدية بدلا من الافراج عنهم كما كان متوقعا أو على الاقل التخفيف منها . ان حراجة الموقف في الداخل قد دفعت رسام على الاسراع في الخطى . فبلغ بلدة متمه داخل الحدود الاثيوبية في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) وهي البلدة التي سيقضي فيها بعض الوقت انتظارا لوصول الاشارة من الامبراطور والحرس الذي سيرافقه . فمكث في متمه حتى ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) حين جاء الرد على كتابه يبلغه بأن الحرس الخاص لحمايته هو الآن في طريقه اليه .

وترك الركب البريطاني متمه فقابل فوج الحراسة المكون من ١٤٠٠ رجل رافقوه حتى بلغ هدفه . وهناك على مقربة من منبع النيل الازرق ظهرت ملامح المخيم الامبراطوري المكون من آلاف الخيم والاكواخ . ومن هذا المخيم تقدم وفد رسمي لتحية الوفد البريطاني واستقباله . وقدم لهرمز رسام بغلة حسب العادة الجارية ليمتطيها عند دخوله المخيم . وفي هذه المرحلة توقف الوفد البريطاني قليلا لكي يرتدي البزات الرسمية قبل مقابلة الامبراطور . فلبس هرمز رسام بدلته السياسية الزرقاء فيما لبس مرافقاه بزاتهم العسكرية الخاصة بالمراسيم ، والتي تتميز بالسترة القرمزية التقليدية .

وذكر رسام في مذكراته التي نشرها فيما بعد ان الوفد الذي حضر لاستقباله عند بلوغه المخيم اخذ يكبر ويزداد عددا كلما اقترب الوفد البريطاني من مقر الامبراطور حتى اصبح يقدر بعشرة آلاف شخص تقريبا عندما أصبح على مقربة من ديوان جلالته . واخيرا ترجل الوفد فدخل الخيمة الكبيرة الحمراء التي أعدت خصيصا لهذه المناسبة بعد انتظار طويل ممل دام ثمانية عشر شهرا .

بداية الصراع مع ثيودور

تصدر ثيودور الخيمة الكبيرة الحمراء عندما أدخل هرمز رسام ورفيقاه ببزاتهم الرسمية وأوسمتهم البراقة . وبعد تقديم رسالة الملكة فكتوريا اليه ــ وقد مضى الآن على كتابتها سنة ونصف السنة ــ شن الامبراطور حملة عنيفة مركزة من النقد والتقريع ضد القنصل



البريطاني . كما اغمز في المبشرين الاجانب وعاب سلوكهم وشكا من جهالة شعبه وأطماع ملوك الاقاليم وكيف انه جاء ليصلح البلاد وليخلق من شعبه المتخلف أمة عصرية . وشرح كيف انه كان يحدوه أمل بتوجيه كافة طاقاته نحو الاصلاح واذا به يباغت بالثورات والعصيان في كل مكان فيضطر لمحاربة الثائرين وقمع الفتن التي استفحل امرها بين القبائل ، الامر الذي صرفه عن تنفيذ خططه الاعمارية والاصلاحية التي نادى بها عند مجيئه للحكم .

ففي المقابلة الاولى لم يفسح المجال لرسام للكلام مطلقا . فكان دوره في هذه الجلسة الافتتاحية دور المنصت الصاغي . اما في الجلسة الثانية التي عقدت بينهما في اليوم التالي فاغتنم رسام الفرصة لاخذ زمام المبادأة بيده وقدم للامبراطور الهدايا الغالية التي كان لها وقع حسن في نفسه . فالتفت الى رسام وابلغه بأن الاوامر قد صدرت للافراج عن المعتقلين في قلعة ماغدالا . كما سلمه رسالة جوابية الى الملكة فكتوريا عبر فيها عن نفسه ب « الاثيوبي الجاهل » وسألها الصفح والنصح لا المعاتبة والملامة . ويستطيع القارىء لرسالته ان يستشف من خلال سطورها مبلغ الارتباك النفسي الذي كان يعانيه الامبراطور . وقد جاشت نفسه بعواطف كما تجيش خواطر الصبي الحائر المتورط بمشاكل لا يعرف للخلاص منها سبيلا .

ثم حل اليوم الثالث وبحلوله انفتحت صفحة جديدة بقرار الامبراطور لنقل العاصمة المتجولة الى مقاطعة داموت Damot لمعاقبة بعض القبائل الثائرة على ان يرافقه الوفد البريطاني مسافة قصيرة ثم يفترق عنه الى جهة اخرى يحط رحاله فيها فيما يستمر الركب الامبراطوري في مسيرته نحو هدفه في الجنوب. وانتقال العاصمة المتجولة ايام ثيودور معناه رحيل حوالي تسعين ألف نسمة ـ رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا يجرون معهم في رحيلهم اليومي كل اسباب الحياة بما في ذلك دوابهم وماشيتهم في موكب طويل لا حدود له يملأ الرحب ويغطيها حتى يستقر في آخر النهار للاستراحة . وفي كل يوم من ايام الرحيل تنصب وترفع حوالي ٢٠ الف خيمة بينما تنتشر خلال المسيرة فصائل خاصة من الجند تمشط القرى الواقعة على جانبي الطريق تمشيطا دقيقا بحثا عن الاطعمة والمؤن الغذائية لهذا الجيش الجرار من حاشية الامبراطور واتباعه وعساكره والاسرى والمحتجزين .

اما البريطانيون ، فبعد انفصال ركبهم عن موكب الامبراطور اتجهوا نحو الموقع المخصص لاقامتهم . فركبوا قوارب البردى (قصب الماء) قاصدين قرية كوراتا Korata الواقعة في الجهة الجنوبية الشرقية من بحيرة تانا على مقربة من مخرج النيل الازرق من البحيرة . واستقروا



هناك مترقبين وصول المعتقلين . الا انه بعيد حلولهم في هـــذا المكان توفرت لديهم تفصيلات جديدة عن عدد المعتقلين وجنسياتهم . اذ تبين ان عددهم هو ٣٠ من الكبار مع زوجاتهم الاثيوبيات و ٢٣ طفلا . الا ان قسما من هؤلاء ــ وهم الفنيون الالمان ــ لم يكونوا حقيقة بين المعتقليـــن وانما كانوا أحرارا في خدمة الامبراطور داخل مخيمه . ولم يرغبوا في العودة مع بقية الاوروبيين .

مضت أسابيع على هذا النحو من الانتظار والتطلع والاستفســـار ولم يصل أحد من المعتقلين فأخذ القلق يتسرب الى نفس رسام وتخامره الشكوك عن مصير الاوروبيين ، على الرغم من السيل المتدفق من الهدايا الفريدة والرسائل الودية التي كان ثيودور يغمره بهـــا يوميا تقريبا ، والتأكيدات التي يلقاها منه عن قرب وصول المعتقلين . فبعث له مرة شبلين اثنين اصطادهما بنفسه قرب البحيرة . وفي مناسبـــة اخرى اتحفه بثعبانين من ثعابين البايثون الكثيرة الانتشار في هذه المنطقـــة وقد يصل طول الثعبان الواحد ستة أمتار وأكثر أحيـانا . الا ان هرمز رسام بدأ يفطن لمكر ثيودور وأساليب غدره . وبات يتشكك بجســـن نواياه والصداقة التي يتظاهر بها . لقد أيقن الآن بأن ثيودور رجل خطر جدا لا يؤمن له جانب ، وقد يقلب لاصدقائه ومحبيه ظهر المجن بأيـــة لحظة ولمجرد الشك باخلاصهم لـــه ، على الرغم مما يبدو منه مـــن حـلو اللسان ودماثة المعشر .

لقد ضاع الرجاء وخابت الآمال بعد أن مر أكثر من شهر على توقع وصول المعتقلين ولم يصلوا . وفي ذات يوم بدأت طـلائع بعضهم تبشر بالوصول تباعا . وكان القنصل البريطاني كاميرون آخر من وصل من هؤلاء المساكين . وكان قد غلب عليه التعب من السفر الطويل وبدا عليه الهزال وتدهورت صحته من ألم التعذيب وثقل القيود الحديدية فـــي ساقيه خلال عامين كاملين .

وكان رسام شديد الحذر ، ففي استقباله للمستر كاميرون عامله معاملة رسمية خالية من العواطف ومظاهر الابتهاج بســـلامة الوصول خشية اغضاب الامبراطور الذي كان يعتبر القنصل من ألد خصومـــه السياسيين . وأخيرا صدقت هواجس رسام ومخاوفه من هذا الثعلب الماكر . فقد أخذ يلعب دوره الحقيقي الآن بشكل سافر . فبعيد وصول المعتقلين دخل على رسام وفد امبراطوري حاملا اليه رسالة من ثيودور تتضمن طلبا بوجوب قيامه بمحاكمـــة القنصل كاميرون والجماعـة الاوروبيين وفق قائمة طويلة من الاتهامات التي ما أنزل الله بها مـــن سلطـــان .

وفي بداية الامر كان الجميع قد استبشروا بمجيء الوفد ظنا منهم



انه يحمل رسالة تتضمن الافراج عنهم . ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . فجاءت هذه الاشارة بمثابة نذير سوء من جديد يحدق بمستقبل العلاقات بين الطرفين . فقرروا الاستسلام لرغبات هذا المارق المجنون طالما انهم في قبضته . وبناء على ذلك وامتثالا لاوامر الامبراطور فقد عقد رسام جلسة عمومية في خيمته قرأ فيها الاتهامات الموجهة لكل منهم علنا . ثم كتب للامبراطور يعلمه بأن جميع المعتقلين قد اعترفوا بالتقصير وهم الآن ينشدون الصفح منه .

وخلال هذه الفترة بالذات وردت اشارة اخرى من الامبراطور فيها استدعاء لرسام ومرافقيه بلانك وبريدو للسلام عليه قبل سفرهم . فركبوا قوارب البردى عبر البحيرة حتى وصلوا مخيم الامبراطور في الموقع المسمى (زاغي ـ) من جهتها الجنوبية ، فرحين وهم غير مصدقين انهم في طريقهم الى النجاة من هذا الطاغية . وهناك استقبلوا بكل حفاوة واكرام . غير ان رسام كتب في مذكراته فيما بعد انه قد تملكه شعور من عدم الارتياح منذ اللحظة الاولى بعد وصول الوفد الى ديوان الامبراطور . فقد وجدوه غاصا بزعماء القبائل على خلاف العادة ، كأن في الامر شيئا مستورا على وشك الوقوع . وعلم في اليوم التالي ان الامبراطور كان قد استدعى الزعماء للتشاور معهم والاستئناس بآرائهم حول ما يجب عمله بشأن مستقبل المعتقلين الاوروبيين .

فبينما كان الزعماء قاطبة ميالين لاخلاء سبيلهم بقي ثيودور وحده مترددا في اتخاذ القرار الحاسم . ولذلك أعيد رسام ورفيقاه الى مقرهم عبر البحيرة في اليوم الثاني . عندئذ نفد صبر رسام ازاء تصرفات هذا الظالم المراوغ ولكن ما الحيلة (وخصمي حاكمي) وعلاقتهم معه اصبحت بين مد وجزر تتغير بالساعات بل واللحظات . لا يعرف هو ـ اي ثيودور ـ ان يصل الى قرار ولا يجرؤ احد من حاشيته التوصية صراحة بمعاملة هؤلاء الاجانب بالحسنى فيزجه في السجن ويتهمه بالخيانة العظمى التي قد تنتهي بقطع رقبته أو حذفه الى الوادي السحيق من على صخرة ماغدالا ، كما كان يحلو له ان يفعل ببعض خصومه أحيانا .

اعتقال رسام وسجنه

أخيرا وفي أوائل نيسان (ابريل) سنة ١٨٦٦ استحوذت على مشاعر ثيودور ساعة رحمانية فقرر اخلاء سبيل المعتقلين وامر بترحيلهم عن طريق غوندار . أما رسام ورفيقاه فقد طلب اليهم الحضور ثانية للديوان لتوديع الامبراطور ثم اللحاق بجماعتهم الاوروبيين . وفي يوم الجمعة المصادف ١٣ نيسان تحرك ركبان من قرية كوراتا ، باتجاهين



متعاكسين ، الاول ـ وفيه الاوروبيون ـ وقد اتجهوا نحو غوندار في طريقهم الى خارج البلاد . والثاني ـ ويضم الوفد البريطاني ـ ووجهته المخيم الامبراطوري للاستئذان بالسفر والسلام على ثيودور .

وتكررت قصة ركوب قوارب البردى عبر البحيرة والنزول منها في الشاطىء المقابل ، الا ان أحدا من رجال الديوان لم يكن حاضرا لاستقبالهم وذلك على خلاف المألوف . فارتسمت علامة استفهام كبيرة في اذهان أعضاء الوفد عما سيواجهون في آخر لقاء لهم مع الامبراطور . ولكنهم علموا وهم في طريقهم الى الديوان ، ان ثيودور قد امضى الايام الثلاثة الاخيرة بحالة سكر شديد . ولما دخلوا خيمة الاستقبال لم يجدوه فيها . بل وجدوا نفرا من زعماء القبائل جالسين ولم يبدوا أي اكتراث بمقدمهم . فما أن توسطوا الخيمة الكبيرة الحمراء حتى انقضّ على رسام ثلاثة من الجنود وأمسكوا بذراعيه وكبلوه ، فيما هاجم جنود آخرون مرافقيه وعاملوهما معاملة خشنة . ثم تحولت الخيمة من قاعة استقبال الى ساحة للمحاكمة .

عندئذ قرئت الاتهامات الموجهة الى رسام . ومما جاء فيها انه سمح للاوروبيين بالرحيل دون مصالحة مع الامبراطور . وانه كان يمرر رسائله الى خارج البلاد دون علم منه ، وغيرها من الاتهامات الواهية . اما رسام الذي حاول الدفاع عن نفسه فكان يقاطع كلما تفوه بكلمة لرد التهم الموجهة اليه . وفجأة بعث ثيودور رسولا يعتذر من رسام عما صدر من اهانة نحوه (وهو ما زال في قفص الاتهام) فيما جاء رسول آخر ليعلمه بأن الاوروبيين الذين سبق وسمح لهم بمغادرة البلاد قد اعيدوا من منتصف الطريق وهم الآن على وشك الوصول الى الديوان الامبراطوري . ثم اقتيد رسام وزميلاه الى خيمة مجاورة قضوا فيها ليلتهم تحت الحراسة .

وصل ركب الاوروبيين ـ القنصل كاميرون والجماعة الذين رافقوه ـ الى الديوان الامبراطوري في ١٥ نيسان (ابريل) . وفي اليوم التالي لوصولهم بدأت محاكمتهم في ساحة مكشوفة تحت أشعة شمس الهضبة المحرقة بحضور قرابة الف شخص من الاثيوبيين يتوسطهم ثيودور بنفسه . ولما أدخل رسام لاجراء محاكمته أجلسه الى جانبه وراح يبادله العواطف والمودة كأن شيئا لم يطرأ على جو العلاقات بينهما . الا ان رسام بقي صامتا كاظما غيظه .

وبعد انتهاء هذه المحاكمة الصورية أعيد الجميع الى سجنهم داخل المخيم لتعاد مهزلة محاكمتهم في اليوم التالي . وجاء اليوم الثاني ورفعت الستارة ليعلن ثيودور بأن أحد المبشرين وهو الاب فلاد Flad سيوفد الى لندن حاملا رسالة خاصة الى الملكة فكتوريا . وهنا استدعى سكرتيره وأملى عليه الرسالة . ومن أغرب ما جاء فيها ان القنصل



كاميرون والآخرين سيفرج عنهم . واما رسام فسيبقى محتجزا . ثم أعقبها برسالة ثانية تضمنت طلبا بايفاد جماعة من البريطانيين الماهرين في أعمال الصناعة والفن ليساعدوا في تطوير بلاده وتدريب الاثيوبيين على المهارات الحديثة وصيانة الآلات والادوات .

وطلب من الاب فلاد السفر الى لندن حاملا هذه الرسائل الى الملكة فكتوريا وحده دون اصطحاب زوجته . اما رسام والآخرون فأعيدوا جميعا الى معتقلهم داخل المخيم . وعـاد ثيودور الى سابق عادته في شمول رسام وجماعته بألطافه ورعايته وارسال الهدايا لهم . وفي الجانب الآخر من المخيم نفسه تتعالى صرخات المظلومين من المساجين الاثيوبيين تحت اقسى أنواع التعذيب اللاانساني . ولم يعد خافيا بعد الآن ان احدا من الاوروبيين لن يخلى سبيله حتى يعود الاب فلاد بجواب شاف من الملكة فكتوريا .

في هـذه الفترة من السنة ـ حزيران (يونيو) ـ أي بحلول موسم الامطار انتشر وباء الكوليرا فنقـل ثيودور عاصمته المتنقلة الى الداخل هربا من هذا الداء الفتاك ، وأمر بنقل المساجين الى بلدة ديبرا تابور Debra Tabor حيث أودعوا في زنزانات مظلمة . وفيما هم في هذه الحالة المؤلمة اذ زارهم ثيودور وبيده ابريق من شراب التيج (وهو النبيد المصنوع من عسل النحل) ليشرب « نخب صحتهم » . وكانت هذه آخر مرة التقى خلالها رسام بثيودور ولم يره بعدها لمدة سنة وتسعة شهور . واختفى الجميع في سجنهـم الرهيب كرهائن يعدون الايام والاشهر منتظرين ما يخفيه لهم القدر من مهازل جديدة على مسرح ثيودور .

اما القس فلاد فوصل الى لندن وسلم الرسالة الى الحكومـة شارحا لهم حالة المساجين وحراجة الموقف مع هذا الطاغية المتجبر . الا ان الحكومة البريطانية كانت في تلك الفترة بشغل شـاغل عن قضية طفيفة كهذه بالنسبة الى الحرب التي نشبت بين النمسا وبروسيا من ناحية والضائقة المالية التي استحوذت على البـلاد من ناحية اخرى . ناهيك عن مرض خطير تفشى بين البقر وعمّ كل جهات القطر . ولكنه على الرغم من ذلك كله فكانت هناك أصوات قوية ارتفعت في كل مكـان مطالبة الحكومة بشدة واصرار بانقـاذ هيبتهـا المتداعية فـي افريقيـا وسمعتها كدولة قوية في العالم بعد أن سجن قنصلها كاميرون ومبعوثها الخاص رسام ، الامر الذي جعلها تعيد النظر في موقفها .

اما بالنسبة لمطالب ثيودور فقد هيأت الحكومة جماعة من العمال الماهرين يمثلون مختلف الحرف والصنائع لايفادهم مع القس فلاد الـى اثيوبيا . كما اعدت بعض الهدايا للامبراطور نفسه . وعلاوة على ذلـك زودوا فلاد برسالة موقعة من الملكة فكتوريا صدرت عن قصر بالمورال في ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٦ وقد روعي في صياغتها منتهى الحذر .



فالى جانب عبارات الود والتمنيات الطيبة كانت بين الاسطر عبارات مبطنة بالملامة والعتاب وتلميح بالتقريع . مثال ذلك : « لقد ارسلنا لك عددا من الفنيين البريطانيين للعمل في خدمة بلادك والمساهمة في تطويرها . ولكننا في الحقيقة تملكتنا الدهشة والحيرة ازاء بعض ما صدر منك من اعمال لا نستطيع التوفيق بينها . فبينما تظهر لنا كل معاني الصداقة والتقرب تقوم من الناحية الثانية بزج قنصلنا كاميرون ومندوبنا الخاص رسام في السجون » .

ثم تستطرد الرسالة لتلفت نظره الى « ان السفراء والمندوبين الخاصين لهم مكانة محترمة وحقوق مصانة حسب العرف الدبلوماسي بين الامم المتحضرة ولذلك نرجو المبادرة باطلاق سراح المعتقلين لتثبت للعالم المتمدن انك تقدر مكانتك بين ملوك العالم » .

حمل القس فلاد رسالة الملكة فكتوريا واصطحب معه العمال الفنيين البريطانيين وغادر بريطانيا في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٦ فوصل ميناء مصوع في كانون الاول (ديسمبر) من نفس السنة . وحسب التعليمات التي أعطيت له قبل مغادرته انكلترة فقد أبقى الهدايا والعمال البريطانيين في مصوع على ان تشحن هذه مع العمال بعد وصول المعتقلين سالمين الى مصوع . الا ان ثيودور فطن الى هذه المساومة ــ وهو ذلك الثعلب الماكر . فكتب الى رسام في سجنه يشكر الملكة فكتوريا على لطفها البالغ وعطفها عليه طالبا منه التوسط بنقل العمال والهدايا اليه عن طريق متمه لكي يخلي هو بدوره سبيل السجناء بعد وصول العمال . فازداد موقف رسام بهذا حراجة من جديد . وقد يتعرض السجناء لما قد لا تحمد عقباه لو ان الحكومة البريطانية رفضت ارسال العمال أولا .

اما الحكومة البريطانية ــ وقد ضاقت ذرعا من التعامل مع شخص بعقلية وأخلاق ثيودور ــ فقد اتخذت موقفا حازما فسحبت العمال والهدايا الى بريطانيا . وتوقفت اجراءاتها عند هذا الحد. فقد استنفدت كل السبل الدبلوماسية للتصرف بشكل معقول مع هذا الرجل المراوغ المتقلب وقررت بصورة مؤقتة تأجيل البت في حل هذه الازمة في الوقت الحاضر وتركها للظروف . فالمشكلة الاثيوبية أصبحت من الامور المستعصية بوجود ثيودور على رأس الحكم . ومن الناحية الثانية فقد وجدت بريطانيا بأن التهديد بفرض العقوبات على ثيودور امر خطر قد يعرض ارواح المعتقلين الغدر . وبعين الوقت فقد استبعدت فكرة غزو اثيوبيا عسكريا من قائمة الحلول الممكنة .



نعود ثانية الى السجناء في ديبرا تابور فنجد ان ثيودور قد اصدر اوامره بنقلهم في صيف ١٨٦٦ الى قلعة ماغدالا ــ تلك الصخرة الحصينة المنقطعة عن العالم كليا . وبحلول ربيع سنة ١٨٦٧ اصبح تعذيب بعض المساجين جزءا من نمط حياتهم اليوميـــة . فزيد من قيود القنصل كاميرون ، وكبل رسام ورفيقاه بالحديد لاول مرة . كما أدخل السجن صموئيل السكرتير الخاص لثيودور ، وهــو اثيوبي . فهل يـا ترى كان اعتقال صموئيل عقوبة حقيقية أم تدبيرا أريد به التجسس على المعتقلين الاوروبيين . لم يفصح التاريخ عن هذا اللغز بعد .

وقلعة ماغدالا هذه حصن طبيعي لا مثيل له . فهي شامخـة تطل على نهر باسيلو وهي من بقايا بركان هامد . لها قمة مستوية طـــول سطحها ١٢٠٠ متر وعرضه ٨٠٠ متر وترتفع حوالي ٣٠٠ متر عن سطح الهضبة المحيطة بها وتبدو من كل أطرافها كجدار صلد نحت نحتا . فلا يمكن الصعود اليها الا من ممر واحد خطر المسلك وقد سد من أسفله ببوابة ضخمة لا تقهر . وكما سنرى فقـــد تقلصت وتضاءلت رقعة الامبراطورية الاثيوبية ضمن حدود هذه القلعة فقط .

وبنقل الاوروبيين كافة من سجن ديبرا تابور الى هذه القلعـــة الصخرية يكون الفصل الاخير من تمثيلية ثيودور مع رسام والقنصل البريطاني قد انتهى . فقبع الجميع في الاكواخ التي أعدت لاقامتهم مـع الحرية الكافية للتجول في محيط الاكــواخ فقط . اما رسام وهو ذلك الشرقي المؤمن بالقضاء والقدر فقد سلم أمره الى خالقــه وراح يقضي الوقت بزراعة الخضر والاوراد في الساحة المجاورة لكوخه . لكنه كـان بعين الوقت يتراسل مـع المستر ميرويذر الوكيـل السياسي البريطاني في عدن بانتظام . وبناء على أوامر ثيودور فالسلطات المحلية في القلعة قد وفرت كل ما يلزم لتأمين راحة المعتقلين بما في ذلك المأكل والمشرب الفـــاخر .

وفي الوقت نفسه كانت تزور المعتقل بفترات منتظمـــة سيدات المجتمع من أسر النبلاء في المنطقة متفقدات أحوال السجناء ومعبرات عن عواطفهن ومشاعرهن الودية نحوهم . الى جانب ذلك فقد كان المجلس الذي يحكم الموقع ــ وهو مكون من أحد عشر زعيما قبليا ــ كثير التعاطف مع هؤلاء الغرباء ويبالغ في اكرامهم في كل مناسبة ولدرجة انه عـرض على الرجال منهم تهيئـة بعض الخليلات لهـم للخدمة والعناية . ولـولا خوف الزعماء من بطش ثيودور وغدره لسمحـــوا لهم حتى بالفرار من السجن .

اما البلاد فقد ازدادت حالتها سوءا واستمر العصيان بين القبائل



المناوئة واستفحل امر الثورات واتسع نطاقها ضد ثيودور في اواخر عام ١٨٦٦ واوائل ١٨٦٧ . وبدت اثيوبيا وكانها بركان يغلي ويدفع بحممه الجهنمية في كل جانب . فقد قام بوجه ثيودور معظم زعماء القبائل وخاصة قبائل غالا المسلمة المحيطة بالقلعة . وحتى جيشه المخلص له بدأ يتضاءل عدده في بداية عام ١٨٦٧ . وهرب منه مئات الضباط والوف الجنود والتحقوا بخصومه المتربصين له لينقضوا عليه باول فرصة . وبلغ به الجنون حدا دفعه الى حرق غوندار تلك العاصمة الجميلة ذات القصور والقلاع التي احتفظت بفخامتها الى اليوم. ولم يعبأ لو انه أحرق اثيوبيا بأكملها لانزال العقوبات ببعض من وقفوا في وجهه هناك . فأحرق الابرياء منهم ودفن بعضهم وهم أحياء .

وبلغ الاستياء من استمرار ثيودور في طيشه وحكمه الفردي حدا ان ثلاثة من أهم الاقاليم الكبيرة – وهي تيفره وغوجام وشوا – قد رفضت الانصياع اليه والرضوخ لادارته . ففي اقليم تيفره أعلن زعيمه كاساي Kasai (الذي أصبح فيما بعد الامبراطور يوحنا الرابع) استقلال ذلك الاقليم عن حكم ثيودور . وسار في اثره منليك ، ملك اقليم شوا (الذي ارتقى عرش اثيوبيا فيما بعد بصفة الامبراطور منليك الثاني) في اعلان عصيانه على الحكومة المركزية .

وهكذا فقد ثيودور تأييد الملوك والزعماء الاشداء وخسر سيطرته وقبضته على البلاد . واخيرا تراجع الى قلعة ماغدالا ونقل جميع حاشيته ورجال دولته وزوجاته وخزانته اليها . وعادت الامبراطورية الى حالتها السابقة من التفكك والتجزئة والفوضى . والتاريخ يعيد نفسه .



الفصل الثالث عشر

حملة نابيير

لغة السيف

تمادى ثيودور في طيشه على الرغم من النكسات التي اصيب بها في الداخل . اذ بدا وكأنه لم يصح بعد من نشوة النصر الذي حققه على خصومه في أوائل عهده . فتعاظمت الخطوب في وجهه حتى اصبح أخيرا امام جبهتين ــ داخلية وخارجية ــ خسر كليهما في آن واحد وقضتا على حكمه بشكل نهائي . فبالاضافة الى موقفه الضعيف المتخاذل الذي أوصله اليه غروره وعدم استقراره الفكري ، وجعله يلتجىء الى تلك القلعة المقفلة فقد لازمته نوبة نفسية أفقدته الثقة بكل من حوله من الرجال بل وحتى من نفسه . هذا فيما يتعلق بوضعه الداخلي .

وأما من الناحية الخارجية فقد خسر عطف بريطانيا عليه بعد أن وضح انها قررت أخيرا انقاذ سمعتها في افريقيا والشرق الادنى . وقد وصلت التباشير الى رسام من عدن عن قرب حل الازمة وذلك بتصميم بريطانيا على تخليص المعتقلين من أيدي هذا الطاغية المتجبر . فقد وجهت له رسالة حاسمة في شدة لهجتها بحيث لا تقبل الاخذ والرد فجاءت بمثابة انذار نهائي لاطلاق سراح المعتقلين فورا .

فلما لم يجب ثيودور على الرسالة (الانذار) أصدرت الحكومة أوامرها الى وزارة الحربية لتتولى التعامل معه بلغة السيف بعد أن فشلت الدبلوماسية . وقد لقي هذا القرار التاريخي ترحيبا بالغا من قبل الراي العام البريطاني ، خاصة وكانت بريطانيا في العهد الفكتوري قد بلغت أوج عظمتها .

الا ان بعض المحافل السياسية عارضت مبدأ اللجوء الى استخدام القوة بسبب ما قد يترتب على ذلك من عواقب وخيمة في بلد منيع الجوانب قاسي الطبيعة ولم يخضع للسيطرة الاجنبية عبر تاريخه



الطويل . وحجج المعارضة هذه لم تخل من اسباب وجيهة استندت الى حقائق جغرافية وتاريخية ناصعة . فوعورة المسالك وعدم توفر الطرق الصالحة والجسور عبر الوديان وشموخ حصون الهضبة الحبشية وتفشي الامراض المتوطنة التي قد تفتك بالجيش الزاحف وانتشار الوحوش الكاسرة والثعابين السامة الى غير ذلك من العوامل التي حالت دون وقوع الحبشة لقمة سائغة امام الجيوش الغازية منذ ابعد الازمان.

لا شك ان بعض الغزاة نفذوا الى اثيوبيا ووضعوا أقدامهم على تربتها حقا في فترات مختلفة . الا انهم لم يقووا على اخضاعها او احتلالها طويلا . فالبرتغاليون نزلوا برها واستحكموا في سواحلها وكذلك الاتراك العثمانيون بعدهم مكثوا فترة أطول – في القرن السادس عشر . وكم شن الاسلام عليها حروبا متقطعة واجتاحوا القسم الاكبر من اقاليمها ، إلا ان كافة هؤلاء الغزاة تراجعوا بمرور الزمن دون ان ينالوا من هذه الصخرة الصامدة شيئا . والتجربة التي أقدمت عليها بريطانيا، وان كانت قد نجحت ، كما سنرى ، الا انها كلفت دافع الضريبة البريطاني تسعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية في ذلك الزمان – هذا من الناحية المادية فقط .

الحملة العسكرية – ١٨٦٨

لم يعد خافيا على الاحباش بعد هذه المرحلة من توتر العلاقات السياسية مع بريطانيا ، ان البلاد مقبلة على كارثة محققة . فان الحرب التي اعتزمت بريطانيا ان تخوضها ضد ثيودور لم تقترن اجراءاتها الاولية بأي شكل من التكتم والسرية . فقد ناقشتها الصحافة الانكليزية وبحثت القضية بأكملها في البرلمان ، وبعد ان اخذ القرار شكله النهائي كلفت حكومة الهند بتحمل مسؤولية العمليات العسكرية نظرا لقربها من البحر الاحمر – ولم يكن قناة السويس قد افتتح آنذاك . واختير لقيادة الحملة العسكرية على الحبشة جندي من خيرة جنود الامبراطورية البريطانية – ذلك هو الفيلد مارشال اللورد روبرت نابيير (١) .

لقد جردت الدول الاوروبية عشرات الحملات العسكرية في توسعاتها الاستعمارية في أفريقيا وغيرها . ولكن التاريخ الحربي الحديث لا يذكر حالة واحدة تشابه حملة نابيير من حيث دقة التنظيم والبذخ المتناهي في تجهيزاتها وجسامة المجهود الذي لا يتناسب مع الهدف الذي جردت هذه الحملة من أجله . فلم تكن هناك حرب أساسا. ولم يكن وراء تنظيم الحملة العسكرية هدف توسعي لاحتلال جزء من مملكة ثيودور أو كلها كحملة نابليون بونابارت على مصر مثلا سنة ١٧٩٨ ، او

---

١ – تمثال نابيير منصوب في لندن Queen's Gate في الوقت الحاضر .
Robert Napier



غزو محمد علي باشا للسودان . فكل ما أنفق من ملايين الجنيهات وكل الجهود الفكرية ومتاعب السنين الطويلة في الاعداد والتحضير لهـا وسوق عشرات الآلاف من المحاربين وغير المحاربين والحيوانات وقطع مسافة آلاف الاميال برا وبحرا في أوعر الطرق والمسالك الجبلية وعبر مواطن أوحش وأشرس القبائل المعادية ــ كل ذلك في سبيل الاعداد لمناوشات طفيفة بالسيوف والرماح والبنادق لم تدم اكثر من ثلاث ساعات ، قفل بعدها الجيش البريطاني راجعا . وقد عبثت القبائل بمؤخرته فنهبت وسلبت الكثير من مؤنه وتجهيزاته كما تعبث الكلاب بمؤخرات القوافل المارة بالقرى والارياف عادة .

فكما كان يبدو ان كل ما استهدفته الامبراطورية البريطانية من هذا الاجراء هو دعم كبريائها وسمعتها كدولة لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها في عصر الملكة فكتوريا الذهبي، ولمجرد معاقبة زعيم افريقي تحدى عظمتها وسجن قنصلها . ولا ننس ان بريطانيا وحدها هي المسؤولة عن الاسباب التي أدت الى تردي العلاقات بينها وبين ثيودور باهمالها الرد على رسالته . ولو كان في ساعة من ساعات جنونه قد أمر بقتل كافة المعتقلين ، فماذا تكون بريطانيا قد جنت من هذه الحملة ؟ ان هرمز رسام يتحمل نصيبا كبيرا من الملامة لاتخاذه موقفا متساهلا متخاذلا اكثر مما يجب مع ثيودور . فلو كان الاختيار قد وقع على شخص من عيار ميرويذر ممن مارسوا المسؤولية سنين طويلة فلربما كانت المفاوضات قد اتجهت اتجاها آخر بصالح الطرفين .

لقد استدعت طبيعة الحملة انجاز دراسات أولية كثيرة في مختلف الميادين التي لها مساس بهذه المهمة . ولقد تشكلت عدة فرق قامت كل منها بدراسات خاصة بطبيعة البلاد وسكانها وجرت استطلاعات مفصلة موضعيا قبل المرحلة التنفيذية للحملة . وباكورة الاعمال الاستطلاعية بدأت بدراسة مذكرات وتقارير الرحالة والعلماء الاجانب الذين زاروا الحبشة منذ أقدم الازمان . وقد قامت بهذه الناحية من المهمة جماعة من خيرة المطلعين على الاحوال الافريقية من رواد وكتاب وباحثين ، عكفوا على جمع أهم المعلومات التي تحتاج اليها القيادة العسكرية . وفي الوقت ذاته ترأس دائرة الاستخبارات الكولونيل ميرويذر الوكيل السياسي في عدن . فطاف في بلاد الساحل واختلط بالقبائل ووقف على ميولها واتجاهاتها واحتياجاتها من دولارات ماريا تيريزا (٢) .

---

٢ ــ ظلت الدولارات الفضية المسكوكة في النمسا الى وقت قريب العملة الوحيدة المفضلة او المستعملة في شرقي افريقية والجنوب العربي والحبشة .



ومن جملة من ساهموا في الدراسات وجمع المعلومات تحت ادارة ميرويذر عدد كبير من العلماء والمكتشفين كان من بينهم الميجر غرانت Grant الذي رافق جون سبيك John Speke في اكتشاف منبع النيل الابيض ، ومن المبشرين الذين عملوا سنين طويلة في افريقيا جوهان كراف Johan Kraff أول اوروبي شاهد الثلوج على قمة جبل كينيا . ولم تخل جماعة ميرويذر من بعض المغامرين العسكريين السابقين امثال الكابتن سبيدي Speedy وويرنر مونسينغر Werner Munzinger السويسري الذي كان حاكما من قبل خديوي مصر على مصوع والذي كان يعرف ثيودور حق المعرفة ويجيد اللغتين العربية والامهارية . وبالاضافة الى هذا الفريق أوفد المتحف البريطاني ممثلا عنه وهو ريتشارد هولمز Richard Holmes بدراسة المعالم الآثارية والتوصية بما قد يمكن نقله الى بريطانيا من منحوتات ثمينة ومخطوطات قيمة . كما ألحق بالحملة عالمان آخران أحدهما جغرافي والثاني عالم بالحيوانات Zodogist . ولم يغب عن بال بعض الدول ارسال مراقبين عسكريين عنها لمرافقة الحملة .

مما لا ينكر ان الثورة الصناعية التي حدثت في اوروبا في القرن التاسع عشر كان لها أبلغ الاثر على صناعة الحرب وتطوير الاسلحة وغيرها . فالتلغراف والبواخر والقطارات مثلا لم تكن معروفة ايام حملة نابليون على مصر . فأبعاد العمليات العسكرية وعنصر السرعة في حركة الجيوش والشحن وانتظام المخابرات وسرعتها الفائقة وتطور المدافع من حيث قوتها ومداها ، كلها أضافت أبعادا جديدة الى فن المعركة لم تكن موجودة من قبل . وبقدر ما أضافت من كفاءات جديدة زادت في تعقيد التقديرات والحسابات وذلك بالنظر لدخول عناصر جديدة في اطار القوات المحاربة تسمى « العناصر المساعدة » .

واخيرا ، في سنة ١٨٦٧ ، انتهت الدراسات الاولية وقدم نابيير كشفه الاول بالتقديرات اللازمة للحرب التي بلغت ٩ ملايين من الجنيهات الانكليزية . وقدر عدد القوات المحاربة بـ ١٣ ألف جندي ـ منهم ٤٠٠٠ من الاوروبيين و ٩٠٠٠ من المتطوعين المحليين وغيرهم من عبر البحار . كما قدر عدد الحيوانات اللازمة للركوب والحمل بـ ٥٥ الف من البغال والخيول . ومن الامور الغريبة في هذه الحملة انها شملت ٤٤ فيلا من الفيلة الهندية المدربة على حمل الاثقال وذلك لاستخدامها في حمل المدافع الثقيلة . اما تجهيزات الحملة فكانت من الوفرة والجودة بدرجة جعلت بعض النقاد يشيرون اليها كأنها حملة ترفيهية وليست حملة عسكرية .

فمن ناحية الطعام روعي اختلاف الاديان والمعتقدات والميول لمختلف أنواع اللحوم . وأعدت آلاف الاطنان من الخضروات المكبوسة

والمجففة والحليب المجفف وحوالي ٥٠ الف طن من لحوم الغنم والبقر والخنزير . واحتوت مخازن الحملة على أنواع المشروبات الكحولية ومنها ٣٠ ألف غالون من خمور الرم .

عاد الكولونيل مير ويذر الى عدن بعد الانتهاء من جولتهالاستطلاعية الاولى في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦٧ . وقد وقع اختياره على موقع يقال له (زولا Zula) في خليج أنزلي Annsley حوالي ٤٥ كيلومترا الى الجنوب من مصوع (وزولا هي موطن قديم مهجور لجالية يونانية كان يعرف سابقا باسم ميناء ادوليس Adulis) ليكون نقطة الانزال. ويظهر ان من جملة الاسباب غير الستراتيجية التي جعلت ميرويذر يفضل هذا الموقع على غيره كونه واقعا تحت السيطرة المصرية وبذلك ضمن عدم معارضة المصريين طالما ان الحملة العسكرية تستهدف اعداءهم التقليديين ـ الاحباش . فشرع في تشييد الارصفة اللازمة وبناءالثكنات والمخيمات المؤقتة للعمال والجنود العابرين وفرق الهندسة وكذلك مد خط للسكة الحديدية يمتد ٣٠ كيلومترا بمحاذاة الساحل مع عدد من القاطرات . وأقيم فنر في مدخل الميناء ومخازن ومستودعات كما نصب جهازان لتحلية مياه البحر . وبوشر كذلك بمد أسلاك التلغراف لمئات الاميال لتأمين الاتصال بين جبهة القتال والقاعدة على الساحل . ثم جاء دور النقل البحري فتم التعاقد مع بعض الشركات لاستئجار حوالي ٢٥٠ سفينة شراعية وبخارية لنقل الجنود وشحن المؤن والحيوانات .

واخيرا برزت مشكلة جديدة وهي نوع العملة اللازمة للحملة . فالنقد المتداول في الحبشة آنذاك (واليمن كذلك) هو الدولار الفضي النمساوي المسكوك منذ عام ١٧٨٠ . وليس ذلك فحسب ، بل الدولار المفضل عند الناس في البيع والشراء هو الذي يحمل الصورة النصفية لامبراطورة النمسا ماريا تيريزا ذات الصدر المكشوف البارز بشكل مفرط . ولما لم تتمكن السلطات البريطانية من الحصول على الكميات الكافية من هذا الدولار من أسواق فيينا ومرسيليا والقاهرة اضطرت لعقد صفقة خاصة مع الحكومة النمساوية لسك مقدار نصف مليوندولار حسب هذه المواصفات لاستخدامها لملافات حاجات الحملة في الحبشة .

وصلت أولى طلائع الحملة العسكرية الى زولا في منتصف تشرين الاول ١٨٦٧ ومعظمهم من المهندسين لتشييد الميناء والمخازن وبعض الثكنات . وسرعان ما انتهى انشاء أول رصيف لرسو البواخر وانزال الرجال والمؤن . وفي خلال فترة لم تتجاوز الشهرين انبثقت من هذه البقعة المهجورة الجرداء مدينة عامرة تعج بآلاف الرجال ، يتكلمون مختلف الالسن ، من هنود وعجم ومصريين وأحباش وغيرهم . وقد شيدت فيها المستشفيات وأجهزة تحلية مياه البحر .



اما الطليعة من المهندسين ورجال المخابرات برئاسة الكولونيل مير ويلدر فقد وصلوا في تقدمهم داخل البلاد الى بلدة سينافي Senafe حوالي ٦٥ كيلومترا عن الساحل . وكانت مهمة الفرق الهندسية بصورة اولية توسيع الطرق وازالة الصخور منها لتسهيل مرور عربات المدافع والفيلة . وفي هذه البقعة التي هي في بداية المرتفعات اختلف الطقس تماما واعتدل الهواء وتبدلت المجموعات النباتية .

فهنا تمثلت غابات المنطقة بأشجار اليوفوربيا (٣) والعرعر (٤) وانواع الاكاسيا مع وفرة المياه وانخفاض الحرارة الى درجة الانجماد ليلا احيانا . وهنا انتعش الانسان والحيوان معا بعد الخلاص من جحيم الساحل ورطوبته الخانقة . وجعل الكولونيل ميرويلدر من هذه المنطقة مقرا مؤقتا لاعماله فكان على اتصال دائم بالزعماء المناوئين لثيودور وخاصة الرأس كاساي أقوى رجال اقليم تيغره الذي سيمر الرتل البريطاني عبر أراضيه . ومن بلدة سينافي بعث ميرويلدر بيان القائد نابيير الى ثيودور ، وهذا نصه : ـ

« الى ثيودور ملك الحبشة »

« لقد أمرتني جلالة ملكة انكلترة أن أطلب اليك بأن تطلق حالا سراح السجناء المعتقلين خطأ من قبل جلالتك وتضمن وصولهم سالمين الى المخيم البريطاني » .

« كما أمرتني أن أقتحم بلادك على رأس قوة عسكرية لتنفيذ ما طلبت اليك تنفيذه بحالة عدم استجابتك لطلبي . وأرجو ان تعلم ان ما من شيء سيوقف تقدمي حتى يتم تنفيذ ما نحن بصدده » .

« اعلم ان ليس لملكتي أي رغبة لاحتلال بلادك ولا لقلب نظام حكمك ، ولو ان من غير المستبعد حدوث بعض ذلك نتيجة للاعمال العدوانية » .

« ان تحاشي هذا الخطر ممكن اذا سلم جلالتك المسجونين في الحال . اما في حالة عدم تسليمهم لي سالمين او اذا استمرت معاملتهم بغير الحسنى او اذا تعرضوا لاضرار جسمانية فستتحمل جلالتك شخصيا مسؤولية ذلك . وعندئذ سوف لا يبقى مجال للنظر في العفو عما حدث » .

التوقيع ر. نابيير L. General
القائد العام R. Napier
لجيش بومباي

---

٣ ـ Euphorabia Candilabra المعروفة بالعربية بشجرة الزقوم .
٤ Junipers



وبنفس الفترة اذيع بيان ثان من نابيير موجه الى الشعب الأثيوبي فيما يلي نصه : ـ

« الى الحكام والزعماء ورجال الدين على مختلف مراتبهم والشعب الحبشي »

« غير خاف عليكم ان ثيودور ملك الحبشة قد سجن القنصل البريطاني كاميرون والمبعوث الخاص رسام وكثيرا غيرهم مخالفا بذلك القوانين المرعية في الامم المتحضرة . ولما كانت كافة الجهود والمحاولات السلمية والودية معه لاطلاق سراحهم لم تثمر فقد أمرتني ملكتي بتحقيق ذلك بقوة السلاح » .

« نحن سوف نكافىء كافة الذين يتعاطفون مع المعتقلين او يساهمون في تحريرهم . أما من يحاول ايذاءهم فسيكون نصيبه العقاب الصارم » .

« أعلموا يا أهالي الحبشة ان ملكة بريطانيا لا تضمر سوى الشعور الطيب والمودة الخالصة نحوكم . وليس لها نوايا ضد مصلحة بلادكم او حريتكم عندما سيحين الوقت لمرور الجيش البريطاني عبر اراضيكم . أما مؤسساتكم الدينية وممتلكاتكم وأرواحكم فستصان بكل تأكيد . ولن يتعرض السكان المسالمون لاي شكل من أشكال التعدي من قبل الجند . واؤكد لكم ان الجيش سيدفع ثمن كل ما سيحتاج اليه من مؤن وخدمات » .

« اعلموا ان الهدف الوحيد للحملة العسكرية البريطانية المرسلة الى الحبشة هو تحرير خدام جلالتها وغيرهم ممن أودعوا السجون من غير حق . وسوف تنسحب القوة العسكرية حالما يتحقق هذا الهدف . وليس في النية احتلال أي جزء من الارض الحبشية بصورة دائمة ولا التدخل بشؤون حكومتها » .

وما أن قارب عام ١٨٦٧ على نهايته حتى أصبحت زولا مدينة عسكرية زاخرة بالحركة والحياة وأفاد الاهلون كثيرا من البيع والشراء . أما القوة المقاتلة فوصلت كلها واتجهت نحو المرتفعات .

وفي ٢ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٨ وصل الجنرال نابيير من بومباي مع هيئة أركانه على البارجة أوكتافيا Octavia وسط المراسيم العسكرية المألوفة . فمكث في زولا حوالي ثلاثة أسابيع للوقوف على حالة القاعدة واستعداداتها وتفقد نواقصها . وخلال ذلك تدارس مع كبار ضباطه لاقرار تفاصيل الخطة النهائية لمجابهة ثيودور وتوجيه القوة الضاربة للقتال . وانتخب صفوة مكونة من خمسة آلاف جندي لتشق



طريقها في المرحلة النهائية لاقتحام قلعة ماغدالا الحصينة واحتلالها . وقد وزعت القوات الباقية لحراسة طرق المواصلات بين الجبهة والقاعدة على الساحل .

وفي ٢٥ كانون الثاني (يناير) توجه نابيير الى المرتفعات ليلتحق بالقوة الرئيسية للاشراف على العمليات العسكرية . وكانت الطليعة قد وصلت الى سينافي كما ذكرنا .

لعب الكولونيل ميرويذر وقلم مخابراته دوره الحيوي الحساس في الطليعة في جمع المعلومات وتوثيق العلاقات مع القبائل والتمهيد مع زعمائها لكل ما له مساس بتحرك الوحدات العسكرية وسلامتها والعمل على استمالتهم بشتى الوسائل المغرية واعطائهم الضمانات الكفيلة بالمحافظة على كيانهم وحرية أفرادهم وممتلكاتهم . ومن الناحية الثانية ــ وهي الاهم في مثل هذه الحالات ــ الاغداق عليهم بالهدايا العينية والنقدية ــ دولارات ماريا تيريزا الفضية .

أما أرتال الجيش الزاحفة نحو المرتفعات فلم تلق على طول خطوط المواصلات مقاومة ما الا في حالات بسيطة شاذة . بل على العكس ، فقد كان مرور هذه الارتال والقوافل شيئا لم يألفه الاهالي . وكان منظرها يسترعي الانظار . فاهتم سكان القرى المجاورة للطريق بالتطلع الى هذا المتحف المتجول من البشر وهم يرتدون مختلف الازياء والالوان . ويشاهدون أصناف العساكر من المدفعية والمشاة والخيالة والنقالة . وكما تباينت الالبسة والازياء والالوان كان الاختلاف واضحا في الاجناس البشرية التي تكونت منها هذه الحملة التي لم تر مثلها الهضبة من قبل . فمن بريطانيين وايرلنديين وهندوس الى مسلمين وسيخ وعرب وأعاجم ومصريين وأحباش ، وكلهم بأزيائهم الوطنية التقليدية كأنما أراد نابيير بعدم توحيد قيافتهم أن يظهر اتساع الرقعة البشرية التي تسيطر عليها بريطانيا العظمى في عهد الملكة فكتوريا الذهبي .

وعلى الاصول القديم لم يخل الجيش من الجوقة الموسيقية التقليدية باللباس الانيق البراق الخاص بها . وفي المؤخرة سارت وحدات الاحتياط والامتعة والخزانة المليئة بالدولارات الفضية لشراء الطعام وعلف الحيوان ولمآرب أخرى . وكان منظر الفيلة الهندية المدربة فريدا ومدهشا وهي تتهادى بكبريائها وعدم اكتراثها لما حولها وبالمدافع الثقيلة المحملة على ظهورها .

لقد كان مرور هذه الارتال من الجنود المحاربين وهذه المواكب المتعاقبة مجرد مناسبة للتفرج والتعجب بالنسبة للرجل الحبشي العادي وللنسوة والاطفال . بينما الشيوخ منهم والعقلاء فكانت المرارة تحز في نفوسهم ليقينهم ان هذه العساكر الجرارة انما جاءت لكسر شوكة الهضبة الحبشية العتيدة التي تحدت جميع الغزاة والطامعين في سالف الايام .



كانت اخبار هذه المسيرة الطويلة وتحركاتها تصل الى ثيودور تباعا عن طريق عيونه وأعوانه ، والى رسام عن طريق ميرويذر . ومما يفخر له تاريخ هذه الحملة العسكرية انه لم يحصل أي تعد أو نهب او سلب من جانب أفراد الجيش البريطاني للقرى الواقعة على الطريق ، وذلك على عكس ما يحدث في مثل هذه الحالات عادة . وكان المستر هولمز ممثل المتحف البريطاني يتوقف عند كل دير أو بيعة للاطلاع على معالمها التاريخية والتعرف عليها من خلال آثارها ومخطوطاتها .

مرت الايام والحملة الجبارة تشق طريقها على الرغم من وعورة الارض وخطورة مسالك منعطفاتها وقساوة الاحوال الجوية احيانا . ولم يكن هناك أي سبب لتذمر أفراد الجيش نظرا لتوفر كافة أسباب الراحة والبذخ والترف الذي تميزت به الحملة . فقد بلغ من بذخها ان كان مقابل كل جندي محارب ٥ ــ ٦ رجال غير محاربين . وكان لكل ضابط خادمان ــ واحد لخدمته الشخصية والثاني لجواده . هذا بالاضافة الى خدم المطابخ والمطاعم والكناسين والحراس وغيرهم .

كتب أحد مراسلي الصحف المرافقين للحملة يصف مظاهر الصرف والبذخ غير المقيد يقول : ان وليمة العشاء التي كانت تقام كل ليلة في خيمة الاستقبال المعدة للجنرال نابيير لا تختلف في أبهتها ومظهرها والرسميات المرعية فيها عن مثيلاتها في قصور او فنادق الدرجة الاولى في أوروبا . وهذا لا يقارن بحملة نابليون على مصر اذ كان كل رجل من رجال تلك الحملة محاربا ويحمل طعامه وشرابه في حقيبته الظهرية بالاضافة الى سلاحه وتجهيزاته الحربية .

كاساي ــ ((عدو عدوي صديقي))

كان كاساي Kasai زعيم اقليم تيغره الذي تمر بأراضيه الجيوش البريطانية من ألد أعداء ثيودور . ومن اجل ذلك وجد الكولونيل ميرويذر مبتغاه في هذه الشخصية ، وهو من اكبر نبلاء هذا الاقليم ، فكسبه الى الجانب البريطاني . وكانت على أية حال مصلحة الجانبين تفرض تقاربهما تمشيا مع المبدأ القائل ــ عدو عدوي صديقي . فلما وصلت طلائع الجيش البريطاني بالقرب من معسكر كاساي اجتمع به وأطلعه على الاهداف الحقيقية لهذه الحملة وحسَّن له فكرة الاجتماع بالجنرال نابيير عند مروره بالمنطقة . وهكذا تم اللقاء بين قائدين عظيمين قرب بلدة انتالو Antalo في شباط (فبراير) ١٨٦٨ تحت مظلة (شمسية) كبيرة حمراء . تقدم أولا كاساي نحو المعسكر البريطاني يحيط به نحو أربعة آلاف من فرسانه وكان ملتفا بجلد أسد فيما تقدم الجنرال نابيير لاستقباله وهو على ظهر فيل يحف به حرسه الخاص مرتدين بزاتهم الجميلة المزركشة وسترهم القرمزية الحمراء .



فلما اطلق الحرس النار من بنادقهم تحيـــة للضيف الكبير جفل كاساي ، ولعله ظن ان في الامر خدعة بريطانية لولا ان مترجمه تلافـى الامر وافهمه مغزى هذه الطلقات في المراسيم العسكرية . وقدم نابيير في هذا اللقاء جوادا عربيا لضيفه وبندقية نادرة وبعض الهدايا الاخرى. واكد الجنرال في خلال الزيارة لضيفـــه الزعيم الحبشي حسن نوايا بريطانيا ازاء بلاده وان الجيش لا هدف له سوى اطلاق سراح المعتقلين الاوروبيين .

ثم طلب كاساي من نابيير زيارة المعسكر الحبشي فلبى هذا الطلب. وهنا اطلع الجنرال على الاستعدادات العسكرية وشاهد عرضا فروسيا رائعا ثم تناول على مائدة الزعيم كاساي طعاما من الكاري الذي يكثر من تناوله الاحباش ، وصبت كؤوس التيج ـ النبيذ المصنوع من عســل النحل ـ المحفوظ في قرون نوع من البقر المشهور بقرونه الطويـلة . وقد قام بخدمة الضيوف حسناوات حبشيات . وقبل مغادرة الضيف البريطاني ألبس رداء مصنوعا من جلد الاسود كذلك الذي كان يرتديـه كاساي . وقلد سيفا ثمينا كما سلم درعا ورمحا واقتيد اليه بغل رمادي اللون ليركبه عند عودته للمعسكر البريطاني .

وفي لحظة الوداع أكد الزعيم كاساي مساندته للحملة البريطانية في القضاء على عدوهم المشترك ثيودور . الا ان الجيش البريطاني المجهز بأحدث الاسلحة الفتاكة لـم يضع في حسابه الاعتماد عـلى قوة الزعماء المحليين . غير ان الاستعدادات الحربيـــة والتجهيزات التي وجدها البريطانيون في جيش كاساي جعلتهم يدركون بأن جيش ثيودور لا بد ان يكون على نفس المستوى على الاقل باعتباره ذلك الجيش الذي أخضع لسيادته كافة أقاليم البلاد ومن ضمنها اقليم تيغره .

شبح نابيير يقترب من القلعة

في ٥ نيسان (ابريل) اقتربت مقـــدمة الجيش البريطاني من القلعة . وعلى السفوح لاحت خيام ثيودور . والقلعة نفسها مكونة مـن ثلاث قمم مسطحة ترتفع حوالي ٣٠٠ متر عن مستوى الهضبة المحيطة بها . ولا يمكن النفوذ الى القمم الا عن سبيل ممر واحد . وانحدار جدار القلعة من كافة الجهات هائل ، درجة ميلانه حوالي ٤٥ درجة بحيـث يصعب تسلقه . هنا توقف زحف الجيش قليلا للراحة والاستعداد للوثبة الاخيرة . وكانت فترة عصيبة امام القادة لانتقاء ألفين من خيرة المحاربين الاشداء المجربين في عمليات الهجوم المباغت لاقتحام الاستحكامات عند مدخل الممر الرئيسي للقلعة واحتلالها بمساندة المدفعية من الخلف . اما كتائب الفرسان فقد احتلت مواقعها استعدادا للهجوم والمطاردة حيـن يجيء دورها . وقد سبق وتم الاتفاق مع قبائل غالا المعـادية لثيودور



لتطويق كافة المنافذ المحيطة بالقلعة لمنع هروب ثيودور وأعوانه . ومن هذه البقعة بعث نابيير بانذاره الاخير الى ثيودور ، هذا هو نصه :

« بأمر ملكة انكلترة انا قادم بجيشي الى قلعة ماغدالا لانقاذ المبعوث رسام والدكتور بلانك والملازم بريدو والاوروبيين الآخرين من قبضة جلالتك . اني لارجو من جلالتك ان ترسلهم الى معسكري عندما تكون المسافة بيننا قريبة لضمان وصولهم بأمان » .

وفي الوقت ذاته استعد الرتل المتقدم لصعود القامة . وفي يوم ٩ نيسان (اريل) وهو يوم (جمعة الآلام) عبر الرتل نهر باسيليو وبدات العملية الجريئة بتسلق ذلك المنحدر الصخري المهلك بكل همة وبسالة .

اما بقية الوحدات الخلفية فكانت تخفف من أثقالها كلما توغلت في المرتفعات حتى انها عندما بلغت بحيرة (اشانغي Ashangi) الواقعة على ارتفاع ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر تركت وراءها حتى خيامها وصارت تنام بالعراء . كما ان كميات الطعام وأنواعه خفضت لادنى حد ممكن .

وكلما اقترب الجيش من هدفه كلما ازداد قلق المعتقلين حول مصيرهم خشية ان يغدر بهم هذا السفاك الظالم . والآن وقد مضى على القنصل كاميرون اربع سنوات وهو في السجن مع بقية افراد القنصلية البريطانية . ومنذ سنتين وهم مكبلون بالاغلال . ولكن الامر الذي حير المعتقلين هو المعاملة الخاصة التي كان يلقاها العمال الالمان من ثيودور . فبعضهم عللها بحاجته الى مهاراتهم الفنية ، وآخرون ذهبوا الى ان الالمان كانت لهم مواقف جريئة مع ثيودور وكانوا دائما يظهرون قوة شخصيتهم امامه ولا يتخاذلون امام عجرفته كما كان يفعل رسام . وانتقد المراقبون موقف رسام الذي اتصف بالميوعة وقالوا عنه انه لم يقف ولا مرة موقفا صارما امام ثيودور كممثل لاعظم دولة في العالم . وذهب بعضهم الى أبعد من ذلك فوصفوه كالكلب بين يدي سيده ، تارة يربت على ظهره ويداعبه ، وتارة يرفسه بقدمه ويطرده .

خسرت كل الحبشة الا هذه الصخرة

لم يكن ثيودور بغافل عن سرعة تقدم الجيش البريطاني بعدده وعدده المذهلة . ولم يجهل في قرارة نفسه تفوق ذلك الجيش عليه بكل شيء . ناهيك عن الكنوز والدولارات النمساوية التي كانت ترزح تحت اثقالها حيوانات النقل . الا انه لم يفقد الايمان والثقة ببطولة فرسانه وقابليتهم الحربية . وكان شديد الاعتماد على مناعة حصونه ومسالكها التي سدت بأضخم الاحجار . وقد سبق له ان مهد الطريق وأصلحه لسحب مدافعه السبعة فوق المنحدر الهائل الميلان ـ ٤٥ درجة ـ ومدفع الهاون الخارق الضخامة والوزن الذي صنعه له عماله الالمان . وجاء



هذا المدفع على هيئة جرس كنيسة كبير زنته ٧ اطنان تقريبا ، وقيل ٧٠ طنا ، تعاون على سحبه على عربة مدفع حوالي ٥٠٠ رجل ، خطوة خطوة .

ووزع ثيودور رجاله حول الاماكن الرئيسية المسيطرة على مسالك الصعود المحتملة ـ عدا الممر الرئيسي ـ استعدادا للانقضاض على طليعة الجيش البريطاني التي ستحاول اقتحام القلعة وازاحة العوائق الصخرية . أما ثيودور فمكث تلك الليلة في معسكره في أسفل القلعة . ولوحظ انه حتى في مثل هذه الظروف لم يهمل المراسلة مع رسام ـ صديقه ـ ومبادلته عبارات الود والمشاعر الطيبة . ويجب ألا يتبادر الى الاذهان ان ثيودور انما كان يعمل ذلك ـ اي المراسلة مع رسام ـ تملقا ليشفع له عند نابيير اذا انتصر . بل كان الامر على العكس من ذلك تماما . فانه كان قوي الايمان بتفوق موقفه على موقف نابيير بل وكان يأمل انه سيقضي على حملة نابيير عن بكرة أبيها . وكان قد بنى ستراتيجيته على هذا الاساس . وكان حسابه وتقديراته مبنية على ان قواته ستنقض على قوات نابيير عندما تكون قد توسطت المرتفعات وتفتك بها كالنسور الكاسرة .

وفي الوقت الذي كانت فيه عمليات الاستحكامات قائمة على قدم وساق في مدخل الممر الرئيسي للقلعة ، كانت جماعات ثيودور وأتباعه وسجناؤه ما زالت تتوافد عليها وتتسلقها لتحتل أماكنها المعدة لها في القمم . وكان السجناء الاثيوبيون مربوطين بأوثق السلاسل يدا بيد مكونين بمسيرتهم رتلا يبدو وكأنه لا نهاية له . كما وصلت زوجات ثيودور مع خزائنه الخاصة . اما السجناء الاثيوبيون فمعظمهم لقي حتفه حال وصوله القمة حذفا من فوق الصخرة الى الوادي السحيق تحتها تخلصا من اعالتهم .

وعلى الرغم من هذه الظروف الحرجة والقلق الذي كان يقض مضاجع الاوروبيين فأن رسائل ميرويذر الى رسام لم تنقطع . وفي آخر رسالة كان قد زف له البشارة بأن الجيش على وشك الوصول لانقاذهم جميعا وسأله التحلي بمزيد من الصبر والشجاعة وضبط النفس ازاء هياج ثيودور الجنوني ونوباته الهستيرية . فقد عاد ثانية الى السكر المتواصل والعربدة الفارغة لانه في تلك اللحظات كان دائما يصب جام غضبه على بقايا السجناء الاحباش المساكين . وكانت صرخاتهم وأناتهم تسمع طوال الليل منبعثة من معتقلاتهم من اثر التعذيب .

وفي يوم ٨ نيسان (ابريل) بدأ ثيودور يفقد اتزانه كليا ، خاصة بعد تشتت الكثير من أعوانه وأتباعه . فأصبح كالطائش يركب جواده ساعة فيجوب به القلعة ، وأخرى يخلد الى زاوية يحتسي الخمرة فيعود للخروج قاصدا الكنيسة للتعبد وطلب المغفرة من الباري عز وجل عن



الدماء البريئة التي أراقها . ولما خيم الليل انصرف بكليته الى السكر ثم ذهب ثانية الى الكنيسة يسأل ربه الرحمة والغفران ، وهكذا قضى ليلته . وعندما لاحت تباشير الصباح وصل الى علم رسام اقتراب الجيش البريطاني من نهر باسيليو تحت القلعة وبدأوا عبوره فعلا حفاة. وحاول رسام الاتصال بثيودور في محاولة لاقناعه بالكتابة الى نابيير لايقاف العمليات الحربية والدخول في مفاوضات للصلح . الا ان ثيودور كان بحالة غضب عنيفة واعياء تام . وبكل تعنت وكبرياء رفض اقتراح رسام ، مخاطبا اياه انه « يستنكف مفاوضة رجل عسكري مرسل من قبل امرأة » ــ يقصد الملكة فكتوريا .

وبعد فترة وجيزة ، فيما كان الاوروبيون الذين أمر ثيودور باطلاق سراحهم يهمون بمغادرة القلعة ، اذ وصل رسول من الجنرال نابيير حاملا بيده الانذار النهائي الى ثيودور بالتسليم . الا ان هذا رفض استلام الانذار كما رفض مقابلة الرسول وحمّل رساما مسؤولية دم هذا الرسول لو قتل . فلذلك أوعز اليه بالرجوع . وصعد الى القلعة للتحصن فيها هو وشرذمة من أقرب المقربين اليه وأمر الباقين بمغادرتها على عجل . وفي صباح اليوم الثاني أجال الطرف بمن حوله وفاه بعبارته التاريخية : « لقد خسرت كل الحبشة الا هذه الصخرة » .

نهاية ثيودور

في ليلة التاسع من نيسان (ابريل) تجمعت القوة البريطانية المهيأة للهجوم عبر النهر وهي بانتظار اشارة النور الاخضر تعد الدقائق واللحظات . وما أن بزغ فجر يوم الجمعة ــ العاشر من نيسان ــ وهو جمعة الآلام في بداية عيد الفصح عند المسيحيين ، حتى أصدر نابيير الامر بالهجوم . فتقدمت القوات الامامية برتلين سلك كل منهما اتجاها مستقلا هدفهما القلعة . بينما ربض ثيودور مع حوالي سبعة آلاف من عساكره وفرسانه ، مستعينا بالعمال الالمان لتشغيل مدافعه السبعة ومدفع الهاون العملاق .

فما ان اشرف الانكليز على صعود المرتفع حتى انقض عليهم الفرسان الاحباش بكل ما لديهم من أسلحة بدائية ــ سيوفهم وحرابهم وبنادقهم مرددين أهازيجهم الشعبية الحماسية . فردهم الانكليز على أعقابهم ، اذ أمطروهم بوابل من نيران أسلحتهم الحديثة الفتاكة ، وخسر الاحباش ما لا يقل عن ٧٠٠ قتيل في الجولة الاولى . الا ان هذه الخسائر في الارواح لم تثن المقاتلين الاحباش عن عزمهم وتصميمهم على مواصلة الحرب . فأعادوا الكرة ثانية وثالثة حتى خيم الظلام على أرض المعركة . وكان أنين جرحاهم يسمع طوال الليل في المعسكر البريطاني ، اذ بقي القتلى والجرحى في أرض المعركة تلك الليلة في العراء تنهش أجسادهم



الضباع . اما ثيودور الذي قضى ليلته بحالة من الهياج العصبي العنيف فقد بعث برسالة الى رسام حوالي منتصف الليل ، فحواها ما يلي :

« كيف قضيت نهارك يا رسام . أما أنا فبخير والحمد لله . انك تعلم انني باعتباري ملكا لم يسعني السماح للاجنبي باقتحام بلادي ومحاربتي فيها دون ان ابادره بالهجوم أولا . وهذا ما حصل فعلا . الا ان قواتي اندحرت امام رجالكم الذين كنت أحسبهم نساء . لقد قاتل جنودكم قتال الابطال . وحيال هذا الموقف لا اجدني قادرا على مجابهتكم بعد الآن . ومن أجل ذلك أدعوك للتوسط في الوصول الى المصالحة بيننا » .

وكان قد حمل هذه الرسالة الى رسام كل من القس فلاد وأحد العمال الالمان . فاقترح رسام على اثر ذلك ان يبادر ثيودور بارسال وفد في الصباح الباكر (١١ نيسان) لمقابلة الجنرال نابيير حول الموضوع ، على ان يضم الوفد بين أعضائه القس فلاد نفسه والملازم بريدو (مرافق رسام) .

توجه الوفد نحو المعسكر البريطاني شاهرا راية بيضاء . فلما تبينه الحرس وتعرف على الملازم بريدو بقيافته العسكرية أدخل في الحال الى خيمة القيادة تمهيدا لمقابلة الجنرال . فعرض الوفد الامر الذي كلف به على الجنرال نابيير الذي بدوره حمل الوفد الرسالة الجوابية التالية الى ثيودور . الا انه قبل مغادرة الوفد أرض المعسكر البريطاني عمد الانكليز الى عملية « غسل دماغ » غير مباشرة أو توجيه تهديد مبطن للامبراطور وذلك عن طريق اطلاع اعضاء الوفد ، وخاصة صهر ثيودور ، على مظاهر قوة الاسلحة البريطانية ومدافع الميدان والوحدات المساندة للقوات الامامية . وأفهم الوفد بصراحة بأن ما دار من مناوشات في اليوم السابق وسقط على اثره مئات الضحايا من الاحباش المقاتلين وزعمائهم، لم يكن سوى مظاهرة أولية لم تشترك فيها كل القطعات المقاتلة التي تنتظر دورها ، ولا الاسلحة الحديثة الفتاكة . فما جرى في ذلك اليوم كان عبارة عن عملية استطلاع لا غير . استلم الوفد الرسالة وعاد الى المعسكر الحبشي . وفيما يلي ترجمتها :

« لقد خاض جيش جلالتكم المعركة بكل بسالة ، ولو انكم لم تتمكنوا من الثبات أمام القوات البريطانية المتفوقة عليكم بكل شيء . وازاء هذا الوضع فانني لشديد الرغبة لوضع حد لسفك الدماء . لذلك فان وافق جلالتكم على الاستسلام لملكة بريطانيا وأوصلتم جميع المعتقلين الاوروبيين الى المعسكر البريطاني سالمين في نفس هذا اليوم فانني



اتعهد لكم بمعاملة مشرفة لكم شخصيا ولكل فرد من افراد اسرتكم » .

(انتهت رسالة نابيير)

فما أن عاد الوفد المفاوض الى معسكر الاحباش وكشف النقاب عن محتوى الرسالة حتى ثارت ثائرة تيودور من جديد . وأخذ يتفوه بعبارات تنم عن امتعاض وهياج نفسي : « ماذا يقصد نابيير بالمعاملة المشرفة ؟ » . « هل يقصد الانكليز اعتباري اسير حرب أم ماذا ؟ » . هل سيساعدونني على رد اعتباري بمساهمتهم وأياي في القضاء على خصومي الثائرين ؟ » « وهل حقا يقصد الانكليز رعاية أفراد عائلتي من بعدي رغم كثرتهم ؟ » . كل هذه الاسئلة والملاحظات كان يرددها دون مخاطبة أحد . وكان بحالة عصبية وانفعال نفسي لا يوصف . تارة يصرخ واخرى يصول ويجول في الخيمة كالاسد الهصور . ولما هدأ هنيهة بادره بعض زعماء القبائل باقتراح لمواصلة القتال مع الانكليز . ولكنه لم يوافقهم على اقتراحهم وكان يرد عليهم بأسلوبه الخشن اللاذع : « أنتم تقاتلون الانكليز ؟ هل تعلمون يا حمقى كفاءة الجندي الانكليزي في القتال بفضل أسلحته وتجهيزاته وتدريبه ؟ » . ثم عاد الى هدوئه واستدعى سكرتيره الخاص واملى عليه الرسالة الجوابية التالية الى الجنرال نابيير :

« في بلدي جماهير غفيرة كنت أعطف عليها وأطعمها. فمن بين هؤلاء نساء لهن من يحميهن ويرعاهن ، ونساء أصبحن ارامل بالامس وليس لهن وال ولا معين . وهناك أناس مسنون من غير ذرية ترعاهم وتشد ازرهم في شيخوختهم . فأرجو أن لا تنسوا رعاية هؤلاء المساكين وقد وهبكم الله المقدرة والقوة على مساعدتهم » .

« أسأل الله أن ينعم على شعبي ببركته وخيراته مقابل العذاب والشر الذي لقيه على يدي . كنت قد عقدت العزم على غزو العالم كله بارادة الله . ولو اني خبت دون بلوغ مبتغاي لآثرت الموت . فانني منذ نعومة أظفاري لم تجرؤ يد رجل ان تعلو على يدي . وكنت دائما احرص على رفع معنويات أفراد جيشي وأحاول منع نفوذ اليأس والتذبذب الى نفوسهم . وان كنت لم أساهم في تشجيعهم في الليلة الماضية فما ذلك الا بسبب الظلام الذي خيم على أرض المعركة مبكرا » .

« لقد أمضى جنودكم ليلتهم الماضية بفرح وحبور ، سكرى من نشوة الانتصار . فأسأله تعالى أن يريكم نفس المصير الذي كنت أنا فيه . لقد كانت امنيتي في الحياة



بعد أن سحقت مقاومة خصومي وتغلبت عليهم ، ان اقـود جيشي نحو بيت المقدس لتحريرها من الاتراك وطردهم منها. فان المحارب البطل هو الذي يستطيع أن يهز أقوى الرجال بين ذراعيه هزا كما تداعب الام طفلها بين يديها وترقصه فينشأ غير هياب بمقـارعة الرجال ان وقع هو بين أيديهم » .

ثيودور يحاول الانتحار

بعيد مغادرة الوفد لايصال الرسالـة الى نابيير أحضر ثيودور مستشاريه والبارزين من زعماء القبائل للتـداول معهم حول الموقف خاصة فيما يتعلق بمصير المعتقلين الاوروبيين . فكان رأي الاكثريـة منهم قتل الاوروبيين والتخلص منهم في الحال . الا ان ثيودور في هذه المرة عارضهم مخافة عواقب القضية ورد الفعل العالمي ، وجيش نابيير على الابواب . فاعتزم في قرارة نفسه اخلاء سبيل كافة الاسرى . ومن أجل ذلك استدعى رساما ليبلغه هذا القرار ولكي يستعدوا للرحيل الى المعسكر البريطاني . وكان ثيودور حتى تلك اللحظة هـادئا منبسط السريرة . الا انه سرعان ما انقلبت هذه الحالة الى نوبة عصبية حـادة كأن الشيطان وسوس له فكرة جهنمية جديدة . فمد يده الى بندقيتـه محاولا الانتحار لولا وجود أحد خاصته بالقرب منه فاختطفها من يديه . ولكن فيما كانت البندقية تتجاذبها الايدي واذا برصاصة تنطلق منهـا محدثة خدشا في اذن ثيودور تسبب بنزف بسيط . فارتمى على الارض للاستراحة . عندئذ خيم على الجميع صمت عميق ولم ينبس أحـد ببنت شفة ، مترقبين ماذا سيعقب هـذه اللحظة الصامتة ــ فهـل هـو صمت وهدوء ريثما يتوقف النزف أم الهدوء الذي يسبق العاصفة ؟

وكان قد غلب على ظن الحاضرين انه بعد الانزعاج الذي سببه لـه الخدش في أذنه فانه سوف لن يطلق سراح المعتقلين ان لم يأمر بقتلهم وهو بهذه الحالة النفسية المتضرمة .

وبعد هذه الحادثة بفترة وجيزة دخل رسام الـديوان ، وبعد ان استقر في مقعده أبلغه ثيودور بقراره النهائي باطلاق سراحهم جميعـا. وكانت الشمس في تلك اللحظة قد مالت الى الاصيل . فسأله رأيه ان كان هو ورفاقه يفضلون الذهاب الى المعسكر في هذه الساعة المتأخـرة أم يود تأجيل ذلك حتى الصباح . فكان جواب رسام دبلوماسيا كمادته، بأن ساعة الرحيل مرهونة باشارة من الامبراطور . عندئذ أذن له وودعه. فاتجه رسام نحو المعسكر البريطاني ولحق به الآخرون الذين كانوا دائما على أهبة الاستعداد للرحيل . فكان وصولهم للجانب البريطاني وقـت الغسق . فاستقبلوا استقبالا حارا وأمضوا سهرتهم تلك الليلة فـي خيمة نابيير .

هدية عيد الفصح من ثيودور

ان المتتبع لتصرفات ثيودور الشخصية ، منذ بداية حكمه حتى نهايته ، سواء كان مع الاثيوبيين أو مع غيرهم ، من مستشارين ومقربين على السواء ، ليدرك مبلغ الشذوذ الذي لازمه طيلة أيام حكمه ، وعمق الجهالة المحيطة به وعدم تقيده بما قد يبذل له من نصح أو توجيه .

فبعد كل الاساءات التي صدرت منه نحو الاوروبيين وتعريض حياتهم للمهالك والاخطار وتعذيبهم في سجونهم ، وبعد كل النعوت التهكمية التي كان يلصقها بالجنرال نابيير ، نجده يوم ١٢ نيسان ـ يوم عيد الفصح ـ يكتب له انه أرسل له هدية بمناسبة هذا العيد مكونة من ألف رأس من البقر و ٥٠٠ رأس من الغنم لاطعام الجيش . ولكن نابيير رفضها في الحال وطلب ارجاعها . لان قبولها ، حسب العرف الحبشي ، معناه الاعتراف بوجود حالة من السلم ـ وهي غير موجودة . ورفضها كذلك لان الجيش البريطاني ليس بحاجة لمن يطعمه.

بعد رفض نابيير لهدية ثيودور تضاعفت شكوكه عندئذ بحسن نوايا الانكليز بل ورسخ في ذهنه انه لا بد ان يكون هناك امر مبيت ضده حيكت خيوطه من قبل نابيير وميرويذر وكاساي . وصار يفكر بمختلف الاحتمالات التي قد تؤدي الى تغيير السياسة البريطانية فتبقي هذا الجيش في البلاد ولا تسحبه . وخشية أن يقع في الاسر هو ورجاله فقد قرر الهرب من القلعة والرجوع الى موطنه الاصلي قرب بحيرة تانا هو وحوالي ٢٠٠٠ من المحاربين للابتعاد عن نقطة الخطر والشرك الذي يحتمل ان يكون قد نصبه له هؤلاء الثلاثة . وفي بحيرة تانا سيكون في مأمن من كافة أعدائه وستكون خطوط مواصلاتهم طويلة ومعرضة للخطر. وهناك ـ أي في منطقة بحيرة تانا ـ سيكون امامه مجال اوسع للمناورات الحربية ولايقاع أفدح الخسائر بالانكليز بسبب طول خطوط مواصلاتهم.

غير انه فوجىء بالحصار الشامل الذي ضربته حوله قبائل غالا بالاتفاق مع الجنرال نابيير واعتمادا على دولارات ماريا تيريزا في خزائنه والتي كانت سلاح الكولونيل ميرويذر الممثل السياسي البريطاني في معاملاته مع القبائل . فعاد ولجأ الى القلعة مغلوبا على أمره . وفي تلك الليلة التي فشلت فيها عملية الهروب من نطاق الحصار المضروب على القلعة ، احتدمت المشاحنات بين ثيودو وبين بعض الرؤساء الذين قرعوه ووجهوا اليه اللوم لاول مرة عن سوء تصرفاته . وكذلك بحث في الليلة نفسها موضوع الاستسلام للانكليز أو عدمه . وازاء تمادي تحدي ثيودور لهؤلاء الزعماء وتجاهلهم في القرارات التي يصدرها قرروا فيما بينهم اعتقاله فيما لو استمر بسياسته التعسفية والغدر الفردي الذي كان يمارسه ضد معارضيه في الرأي .

اخيرا أخذ الامر يقترب من نهايته ويكتسب شكله الحاسم وذلك



بقرار نابيير أنزال ضربته بالعدو في صبيحة يوم ١٣ نيسان (أبريل) . فبينما نزل ثيودور من منحدر القلعة مع نفر من رجاله لتفقد البوابة الرئيسية للمسلك الوحيد المؤدي الى داخل هذا الحصن المنيع ولسد ثغرات المر المجاورة بالحجارة واذا به يفاجأ وجها لوجه بكوكبة من الفرسان الانكليز تقترب من البوابة ولكن دون ان تبدو منهم حركة استفزازية ضده . الا انه امتطى صهوة جواده وراح يصرخ فيهم متفاخرا بشجاعته مناديا لهم بمنازلته بصورة فردية ، غير ان احدا منهم لم يأبه له . ولكن ثيودور استمر بخيلائه فأخذ يطلق الرصاص من بندقيته في الفضاء . وأما كوكبة الفرسان فانصرفت باتجاه آخر ، اذ كانت على ما يبدو تقوم بواجب خاص لا علاقة له بالبوابة . وفي حوالي الظهيرة من ذلك النهار شرعت المدفعية البريطانية توجه قصفا مركزا نحو البوابة ، فسقطت احدى القذائف بالقرب من ثيودور فاحتمى بدرعه وابتعد عن البوابة التي أصبحت هدف المدفعية التي على ما يبدو تبتغي أن تدكها دكا .

وفي خلال الفترة التي كانت تقصف فيها القلعة بلغ مسامع نابيير ان ثيودور قد أفلت وهرب أو حاول الهرب . فأعلن في الحال لقبائل غالا المجاورة انه سيدفع مكافأة نقدية قدرها ٥٠ ألف دولار لمن يستطيع القبض عليه حيا أم ميتا . وقد سبق أن سدت كافة منافذ القلعة الخارجية منذ الصباح الباكر بواسطة وحدات من الجيش كاجراء احتياطي لضمان عدم افلاته من قبضة البريطانيين . كما صدرت الاوامر لثلاثة آلاف جندي تساندهم المدفعية باقتحام القلعة . وفي حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر وصلت طليعة المشاة الى البوابة . وكان الجو ساعتئذ عاصفا ممطرا أدى الى اعاقة سير العملية العسكرية بعض الشيء . أما القوة الحبشية المرابطة في استحكامات القلعة فلم تقو على المقاومة طويلا امام الضغط البريطاني الجريء فانهارت تلك الجبهة الصغيرة وسقطت البوابة بيد الانكليز . وبسقوطها سهل التوغل الى داخل القلعة .

ولما واصلت مقدمة القوة البريطانية زحفها نحو خط الاستحكامات الثاني داخل القلعة لم تصادف مقاومة تذكر فاحتلتها . عندئذ انقلبت المعركة الى هزيمة أعقبها توافد الاهالي على المعسكر البريطاني ينشدون الحماية والاطمئنان على أرواحهم . وقام المشاة الذين احتلوا البوابة برفع العلم البريطاني عليها . وظهر من المعلومات المدونة في السجلات الحربية ان خسائر الانكليز لم تتجاوز ١٥ جريحا فقط .



عندما ارتقى الجنود البريطانيون الى سطح القلعة شاهدوا عن طريق الصدفة ، فيما كانوا يطاردون الهاربين ، جثة رجل ميت بجوار صخرة . الا ان أحدا منهم لم يكن ليهتم في تلك اللحظة الحاسمة بجثة ملقاة على الارض . ولكن تبين فيما بعد ان هذه الجثة هي جثة الامبراطور ثيودور الثاني . فقد علم بعدئذ انه لما هاجم البريطانيون باب القلعة ولم يبق له أمل بالمقاومة ، أمر أصحابه بالفرار تخلصا من جحيم الانكليز وملاحقتهم لهم . أما هو فصوب فوهة مسدسه نحو فمه وأطلق النار . وكان هذا هو أحد المسدسين اللذين أهدتهما له الملكة فكتوريا وحملهما اليه القنصل البريطاني المستر كاميرون . وبعد اكتشاف الجثة استدعي رسام لتشخيصها فكانت هي جثة ثيودور ملك ملوك الحبشة. ولما تعرف عليها الجنود انهالوا عليها يقتطعون أوصالا من ثيابه الزاهية للذكرى .

أما رسام فوقف امام الجثة صامتا ـ جثة صديقه الراحل ، مستعرضا ذكرياته المؤلمة الطويلة معه وما مر بهم من أحداث مروعة . وتذكر كذلك كلام ثيودور له يوما :

« سيجي يوم يا رسام تراني فيه جثة هامدة امامك . وقد تلعنني في أعماق نفسك وأنت تتأملني وتتفحصني بنظراتك ، وقد تقول عني (ان هذا الرجل الشرير لا يستحق أن يدفن في مقابر البشر . بل يجب أن تلقى جثته فوق الارض لتتعفن) . ولكن ثقتي بكرم اخلاقك عظيمة يا رسام » .

سارع بعد ذلك رسام وكلف الجند بنقل الجثة الى المخيم الذي كان يقيم فيه الاوروبيون ايام اعتقالهم وحافظوا عليها لليوم التالي ريثما تنجز الترتيبات الخاصة للدفن حسب المراسيم اللائقة بامبراطور . وتم ذلك في كنيسة قلعة ماغدالا على أيدي القساوسة الاقباط . ويذكر رسام في مذكراته كآبة المنظر الاخير للامبراطور عندما ووري عليه التراب في جو حزين لم يخل من الشعور بعظمة هذا الرجل الذي كان حوله في هذه اللحظة بعض الرجال مما يدل على ان هذا الطاغية لم يعدم ولاء وتقدير بعض رعاياه على الاقل .

أعقبت مراسيم الدفن حالة من الفوضى والاعتداءات الفوغائية ، شملت جميع أنحاء القلعة وانتهت بأعمال وحشية من السلب والنهب والتقتيل . وهاجم الرعاع قصر الامبراطور وخزانته ، واستولوا على محتوياتها وعبثوا بأثمن التحف والرياش والاثاث . كما سرقوا المجوهرات وتيجان الملوك القدماء المرصعة بالاحجار الكريمة وكؤوسا مصنوعة من الذهب والفضة بالاضافة الى بعض التيجان الدينية للاساقفة والهدايا النادرة المهداة من ملوك الدول الاجنبية عبر تاريخ الحبشة الطويل .



الا ان هذه الاعمال البربرية توقفت في الحال بوصول القائد نابيير على رأس ثلة من الجيش لاستثمار النصر بدخول القلعة دخول الفاتحين فيما كانت فرقة موسيقى الجيش تعزف أنغام النشيد الانكليزي التقليدي للفاتحين (٥) « ها هو البطل الفازي قادم » . وعند دخوله القلعة أطلق سراح جميع المسجونين الاحباش الذين كان البعض منهم مكبلا بأثقل الاغلال منذ سنين عديدة . وأجليت القلعة من الغرباء والقبائل التي قصدتها من أجل النهب والسلب . ونصبت ملكة غالية حاكمة على القلعة .

لقد بذلت السلطات البريطانية عناية خاصة بعائلة ثيودور التي أوصلوها بأمان الى المعسكر البريطاني . وكانت مكونة من زوجته الجميلة (تيرو وارك Tiru Wark) وابنها (علمايوه Alemayo) وعدد من النساء بضمنهن محظيته (أيتامانيو Itamanyo) . واتخذت الترتيبات الكفيلة بايصال الحاشية والنساء الى مواطنهن ما عدا زوجة ثيودور التي قالت انه لطالما اراد في حياته تعليم ولده في انكلترة . وهي كانت مستعدة لمرافقته الى هناك للاشراف على تربيته .

الا ان الحظ لم يسعدها لتحقيق هذه الامنية الغالية في حياتها . اذ أصابتها وعكة شديدة أثناء السفر لم تشف منها ففارقت الحياة . اما ابنها علمايو فسافر مع الحملة البريطانية الى انكلترة للتعليم على ظهر الباخرة التي أقلت الجنرال نابيير . وهناك ادخل احدى المدارس الخاصة بالنبلاء في بلدة رغبي Rugby . ولم يمض عليه زمن في هذه البلدة حتى لحق بوالدته . فمات وهو في التاسعة عشرة من عمره قبل أن يتم دراسته ودفن في كنيسة القديس جورج بمدينة وندسور قرب لندن .

هل عقدت بريطانيا اتفاقا سريا مع كاساي ؟

ينطبق المثل المعروف الشائع ــ تمخض الجبل فولد فأرا ــ تمام الانطباق على الحملة العسكرية البريطانية بقيادة الجنرال نابيير الى الحبشة . لقد حققت الحملة العملاقة التي جاءت من وراء البحار وقطعت آلاف الاميال بتنظيماتها العسكرية والمدنية المنقطعة النظير وهيئات خبرائها وعلمائها وفرق مخابراتها وتوابعها ، هدفها المنشود ــ باستيلائها على قلعة جبلية وانتحار حاكمها وانتهى كل شيء . وعلى اثر هذا النصر المبين الذي لم يكلف الخزانة البريطانية سوى ٩ ملايين من الجنيهات الانكليزية و ١٥ جريحا ــ قد يكون معظمهم من رعايا غير

---

٥ ــ النشيد التقليدي الذي يعزف للفاتحين : ــ
Here The Conquering Hero Comes



بريطانيين ـ صعد القائد الى القلعة ليمر من أمام الجوقة الموسيقية وهي تعزف له أنغام « الابطال الفاتحين » . ثم عاد الى انكلترة واستقبلته لندن استقبال الابطال وزينت الملكة فكتوريا صدره بأرفع الاوسمة والنياشين وانعمت عليه بلقب اللوردية .

ولكن للمتفرج البعيد ان يسأل ، هل كانت هناك حرب وجبهات قتال ، وتضحيات وأسرى وعمليات تتناسب وجسامة الحملة التي اشغلت الصحافة والرأي العام العالمي ؟ برأي الكثيرين ، كلا . وبعد ان تحقق هذا النصر ادار القائد وجه جيشه الى الخلف ثم ركز كل اهتمامه للعودة الى الساحل بأقصر وقت والجلاء عن البلاد دون الاكتراث بما سيحل فيها من ويلات الانقسامات وتطاحن الزعماء . فعلى ما يبدو كانت رغبة بريطانيا الاصيلة هي ان ترى على دست الحكم رجلا يقدر مصالحها الاقليمية بقدر ما يتأمل منها من مساعدات . والاهم من ذلك ان يضمن لها مرتبة « الدولة المفضلة » من ناحية علاقاتها السياسية والتجارية بالنسبة للدول الاخرى . وهذا على ما يبدو حصل بالتفاهم التام مع كاساي زعيم اقليم تيغره .

فان بريطانيا وان كانت في تلك الفترة حليفة الاتراك العثمانيين ، الا انها كانت شاعرة بعين الوقت ان توسع سلطان الامبراطورية العثمانية ورسوخ اقدامها في المنطقة يتعارض ومصلحتها . بالاضافة الى ذلك فهذا معناه تثبيت دعائم الدين الاسلامي على سواحل افريقية الشرقية. وكانت الحركة المهدية في السودان تقض مضاجع مخططي السياسة التوسعية البريطانية ، وتهدد احلامهم في جعل السودان « تكساس ثانية » في انتاج القطن لتغذية صناعة النسيج الانكليزية . وهي لذلك لم تجد زعيما أثيوبيا متفهما لمصالح بريطانيا في المنطقة وجعل اثيوبيا منطقة نفوذ لها أفضل من الزعيم كاساي الذي نال حصة الاسد من دولارات ماريا تيريزا الفضية ، وكل الاسلحة الثقيلة والخفيفة والتجهيزات العسكرية النادرة التي استغنى له عنها الجنرال نابيير لدى انسحابه من البلاد .

وعن طريق هذه المساندة المادية صيَّر الانكليز من كاساي زعيما قويا مهاب الجانب لا ينافس . الا انه يجب ان يحسب الحساب للشاب منليك ، ملك اقليم شوا الذي كان قد استقل في اقليمه اثر هروبه من سجن ثيودور بعد قضاء عشر سنوات فيه . فمنليك ، مثل كاساي ، هو أحد ثلاثة أقطاب يتنافسون على السلطة . اما ثالثهم فهو زعيم اقليم غوجام . ولكن مما لا ريب فيه فان كاساي وحده اصبح سيد الميدان بعد صفقة الاسلحة البريطانية التي لا يملك الزعيمان الآخران مثيلها لا كما ولا نوعا . وقبل اغلاق صحيفة المساعدات العسكرية لكاساي قد تجدر الاشارة الى ان الجنرال نابيير قد وافق كذلك على اعارة خدمات



بعض ضباط الصف الانكليز لتدريب جيش كاساي على استعمال الاسلحة وصيانتها وادامتها . حتى يقال ان جنديا بريطانيا برتبة عريف تمكن عن طريق التدرج في مراتب الجيش الحبشي من الوصول الى ارفع المناصب فأصبح جنرالا . واخيرا أسر على ايدي القوات المصرية في مصوع ومات هناك .

تم تسليم الاسلحة والذخيرة الحربية الى كاساي في بلدة سينافي. ويبدو من غير المعقول ان لا يكون للكولونيل ميرويذر دور هام ، ان لم يكن الدور الرئيسي في كتابة فصول رواية الحملة البريطانية وهو الذي حصر الزعامة الحبشية بشخص كاساي الذي كانت تربطه به معرفة سابقة من خلال تجوال فرق الاستطلاع في قسم المخارات الذي كان باشراف الكولونيل ميرويذر . وليس غريبا أبدا ولا بعيدا عن الواقع اعتبار الاجتماع التاريخي بين كاساي والجنرال نابيير بمثابة تتويج غير رسمي لكاساي ملكا على اثيوبيا بعد القضاء على ثيوور . وكانت العملية منذ بدايتها حتى نهايتها أغلى حفلة تتويج مستور عرفها التاريخ .

انسحب الجيش البريطاني من اثيوبيا وقد ترك قلعة ماغدالا انقاضا واكواما من الرماد بعد الحرائق المتواصلة التي التهمت اكواخها وبيوتها على أيدي القبائل . ولم ينج من هذه التخريبات سوى الكنيسة التي دفن فيها ثيودور . ومما يؤسف له هو انه حتى الاوروبيين الذين كانوا معتقلين هرعوا الى القلعة للاشتراك في كسب المغانم مع بقية الاهالي . واستمر استعار الحرائق فترة طويلة ودخانها يشاهد من مسافات بعيدة بالنظر لارتفاع القلعة . وبعد الانتهاء من جمع المكاسب حملت لكثرتها على ١٥ فيلا من فيلة الجيش واخذت للمعسكر البريطاني لاقتسامها . فعرضت في اليوم الثاني وبيعت بطريقة المزايدة العلنية . فكان ممثل المتحف البريطاني المرافق للحملة اكثر المتنافسين حظا . فقد اشترى للمتحف البريطاني ما لا يقل عن ٩٠٠ مجلد من المخطوطات والكتب وكمية من القطع الآثارية .

وصل الجنرال نابيير ومؤخرة جيشه الى زولا على البحر الاحمر يوم ٢ حيزران (يونيو) ١٨٦٩ . وبعد فترة تم خلالها الاشراف على نقل المؤن والمعدات حتى أسلاك وأعمدة التلغراف وقضبان السكة الحديدية واجهزة تحلية المياه وغيرها ، توجه في ١٠ حزيران الى انكلترة عبر قناة السويس على الباخرة (فيروزة Feroze) ليستقبل في لندن استقبال الابطال الفاتحين وليحصل على لقب اللوردية ، وسمي لورد ماغدالا Lord Magdale على اسم القلعة الحبشية التي فتحها .

الا انه لا يسع المرء المتتبع لمجرى الاحداث الاخيرة ، وهو يمر على خبر اعادة شحن اسلاك واعمدة التلغراف وقضبان السكة الحديدية



وملحقاتها وغيرها من وسائل الخدمات المدنية ، دون ان يرسم علامة استفهام كبيرة عن اسباب عدم ابقاء هذه الوسائل المدنية المفيدة كحجر أساس لارساء قواعد العلاقات الانكليزية الاثيوبية عليها وبعين الوقت كنواة لتعميم معالم النهضة الحديثة في هذه البلاد المتأخرة . ولو تم ذلك لكان خير اثبات لصداقة الانكليز لهذا الشعب الذي يغارون عليه من توسع النفوذ التركي الاسلامي . وكان بالامكان ابقاء عدد من الهنود وغيرهم للاشراف على تشغيل هذه الوسائل الفنية وادامتها وتدريب الاحباش على استعمالها بمرور الايام .

وللهنود اياد بيضاء على ارساء قواعد الحضارة العصرية في مستعمرات بريطانيا في شرقي افريقية ــ في كينيا ويوغندا وطنجنيقا (تانزانيا حاليا) . فقد رافق مئات الهنود الحملات العسكرية البريطانية بل الآلاف منهم الى تلك البلاد وغيرها وعملوا بمختلف الحرف والصناعة وحتى التجارة . فكان وجودهم مفيدا لتدريب الاهالي في مختلف ميادين النشاط الانساني . ولمن كثيرا منهم ساهموا في النهضة التعليمية فكان منهم المدرسون الذين بذلوا جهودا صادقة في نشر العلم والمعرفة في تلك الاصقاع .

نقول ان الانكليز لم يبقوا هذه الوسائل المدنية المفيدة في حين انهم خلفوا وراءهم كافة وسائل الدمار وابادة العنصر البشري والتخريب المتمثلة بمختلف اصناف الاسلحة الفتاكة التي أوعزت وزارة الحربية البريطانية الى قائدها نابيير بتسليمها كهدية لحليفهم كاساي لتمكينه من تثبيت ملكه وسلطانه بوجه منافسيه .



الفصل الرابع عشر

يوحنا الرابع
امبراطور توجه الانكليز (١٨٧٢ - ٧٩

تيغره تستعيد العرش

اتجهت الانظار بعد موت ثيودور الى ثلاثة اقطاب كان لا بد لزعامة البلاد ان تخلص لاحدهم ـ بالقوة طبعا . وهؤلاء الثلاثة هم : كاساي زعيم اقليم تيغره وحليف الانكليز ، وواغشم غوبازي Wagshum Gobaze ملك لاستا في غوجام الذي سار بجيشه نحو بحيرة تانا واغتصب العرش لفترة قصيرة ، ومنليك ملك اقليم شوا . ولكن كاساي ، بفضل الانكليز ، ملك السلاح والمال . ومن ملك ذلك خضعت له الرقاب وضمن لنفسه السيادة . اما عاهل لاستا فقد تحاشى التورط بصدام مكشوف مع كاساي الذي تألق نجمه وابتسمت له الايام . فلم يبق من يخشاه كاساي الا منليك ، ذلك الشاب المملوء طموحا والمعتد بحسبه ونسبه ، الذي اعتلى عرش شوا خلفا لوالده الراحل ، بعد هروبه من سجن ثيودور . فبدأ بين هذين القطبين صراع خفي لنيل لقب « ملك الملوك » .

اما سكان اقليم شوا فكانوا يصرون على المناداة بمنليك ملكا للملوك بوحي من ايمانهم الراسخ بأرجحيته لتولي الامبراطورية بفضل انحداره من الملك سليمان ، وبأن يظل الملك محصورا بهذه الاسرة دون سواها . ويعتقدون بأن كلا من ثيودور وكاساي يعتبران مغتصبين لهذا اللقب ، ولو ان كاساي نفسه ينحدر من اسرة ملكية اقليمية . ففي سنة ١٨٧٢ ، وبعد ان قضى كاساي على خصومه ودانت له البلاد اعلن نفسه امبراطورا على اثيوبيا تحت اسم يوحنا الرابع . وتوج باحتفال مهيب في العاصمة القديمة المقدسة ـ اكسوم .

اما حالة البلاد الداخلية فاستمرت على سوئها لطغيان القبائل وتنكرها لاية سلطة حكومية واستحوذ على الناس الشعور بفقدان



الطمأنينة والامان . فقد كان يؤمل من الانكليز التريث قليلا قبل الانسحاب من البلاد ريثما يثبتون قدرا كافيا من السلطة المركزية للمحافظة على الامن . ولكنهم خيبوا الآمال بعد ان صرفوا الجهود الجبارة والاموال الطائلة من أجل احتلال قلعة جبلية وتحرير حفنة من الاوروبيين . وقفل جيش نابيير راجعا فأضاع برجوعه فرصة سانحة لترسيخ دعائم السلام والامن في الداخل وتمهيد الطريق لصداقة أمتن بين الشعبين الاثيوبي والبريطاني . وكان بالامكان انجاز ذلك لو انهم أبقوا وراءهم قوة رمزية فقط لفترة من الوقت . غير انه يبدو انهم اكتفوا بالضمانات التي قدمها لهم كاساي بشأن مصالح بريطانيا ، وليكن بعدي الطوفان .

يوحنا ومنليك

لقد دوخت الثورات الداخلية الامبراطور يوحنا الرابع على الرغم من القوة الحربية التي وضعها الانكليز بين يديه لتثبيت سلطانه وتأمين مصالحهم . ولما أيقن ان القوة وحدها سوف لا تضمن له بقاءه في الحكم طويلا فقد لجأ لتحقيق هدفه عن طريق الاحلاف بينه وبين الزعماء الآخرين . وكان منليك ـ ملك شوا ـ من ابرز الملوك الذين كان يحسب لهم حسابهم ، خاصة وان هذا الملك الشاب استطاع منذ عهد ثيودور تثبيت مركزه مع قبائل غالا الشديدة البأس في الحروب ، القاطنة الى الجنوب من شوا . وتجاه تزايد قوة منليك وشعبيته في أواسط الهضبة لم يجد يوحنا مندوحة من عقد تحالف سري معه تعهد منليك بموجبه مساندة يوحنا والاعتراف به امبراطورا على كل اثيوبيا على ان يتولى هو ـ أي منليك ـ العرش بعد وفاة يوحنا . واختتم هذا الاتفاق بالمصاهرة وذلك بزواج ابن يوحنا من زاوديتو بنت منليك .

هناك قصة طريفة تروى عن كيفية حدوث هذا الاتفاق بين خصمين لدودين . فقد اشتهر منليك بالدهاء والحنكة السياسية في حياته ومعاملاته ، بينما عرف يوحنا بتمسكه بالدين وزهده وقضاء اوقاته بالاستمتاع بأحاديث الرهبان والنساك الذين كان يقدرهم ويحترمهم لدرجة التقديس . فاستغل منليك هذه الميزة في خصمه لدرء خطر المجابهة معه عن طريق تدبير احتيال عليه . فاستدعى احد رجاله ممن عرفوا بالذكاء واللباقة وفصاحة اللسان وطلب اليه أن يتزيا بزي راهب ويقصد ديوان يوحنا كزائر . واتفقا على استغلال ضعف يوحنا ازاء رجال الدين لتحويله عن التفكير في شن حرب ضد منليك .

فلما دخل الراهب ـ أو بالاحرى المترهب ـ على يوحنا ، رحب به كثيرا واعجب بأحاديثه وسعة اطلاعه . وفيما هما في ذلك سأل يوحنا ضيفه فيما اذا كان سيكتب له النصر على منليك لو دخل في حرب ضده . فرد الراهب على هذا السؤال بالايجاب وقال له : « أما النصر



فمحقق لك ولكن دخولك الجنة بعد ذلك غير مضمون » . فعدل يوحنا عن محاربة منليك وقرر ان يتوصل الى شكل من المصالحة معه ، فكان الاتفاق الذي أشرنا اليه في الفقرة السابقة .

الامبراطور المحارب

لقب يوحنا الرابع بالامبراطور المحارب نظرا لكثرة الحروب التي خاضها . فكان يتقدم جيشه لتشجيعه ورفع روح المعنوية فيه . الا ان اكثر ما تميز به تمسكه بالدين والعبادة وزهده في حياته الخاصة . لكنه الى جانب ذلك اشتهر بعصبيته الدينية وكرهه الشديد للاديان الاخرى وحتى للمسيحيين الذين على غير المذهب اليعقوبي . وقد نوه عن هذه الصفة فيه غالبية من كتبوا عنه من الغربيين . وعزوا حالة الركود والجمود وتفكك البلاد وانقسامها الى عصبيته الدينية . فقد بدأ منذ أول عهده بطرد الارساليات التبشيرية من اثيوبيا . ثم عقد مجلسا كنائسيا بعد حملته على شوا في ١٨٧٨ في موقع شمالي مدينة ديسي Dessie اتخذ فيه قرارات على غاية من الخطورة في تصديع وحدة البلاد . فمن جملة ما جاء فيها تعميد كافة موظفي الدولة في الكنيسة القبطية خلال فترة ثلاثة شهور والا فقدوا وظائفهم . والاخطر من ذلك ايمانه بان وحدة البلاد تتوقف على وحدة الدين والعقيدة . ولذلك ــ حسب رأيه ــ فيجب ان تكون اثيوبيا كلها على دين ومذهب واحد . ومنطلقا من هذا المبدأ فقد فرض قرار المجلس بأن على كافة المسيحيين غير اليعاقبة والمسلمين واليهود والوثنيين وقبائل غالا الانتماء الى الكنيسة القبطية . وقد حددت فترات زمنية معينة لكل من هذه الفئات لكي تعلن انتسابها الى الكنيسة رسميا . فمثلا منح المسيحيون غير اليعاقبة مهلة سنتين والمسلمون ثلاث سنوات والوثنيون خمس سنوات .

علاوة على ذلك فقد اصدر يوحنا مرسوما يلزم المسلمين ببناء الكنائس داخل احيائهم ودفع الاعشار الى قساوسة الكنيسة سنويا كما يدفعها الاقباط . ومن المعروف الثابت انه ارغم اثنين من ابرز واقوى زعماء قبائل غالا المسلمة المعروفة باسم (واللو غالا Wallo Galla) وهما الامام محمد علي في الشمال والامام ابا واتا (١) في الجنوب على التنصر قسرا . فاضطر الاول ان ينتحل اسم ميخائيل والثاني هايلا ماريام . وازاء هذا التعسف هجر معظم المسلمين ديارهم في الهضبة ونزحوا الى لسهول او الاصقاع البعيدة التي يحتلها الوثنيون في الجنوب حيث نفوذ الحكومة هناك صوري فقط .

---

1 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham, page 122.



يقول الكاردينال مسيح Massaja (٢) الذي زار البلاد خلال تلك الفترة ان المسلمين الذين بقوا في مواطنهم تظاهروا بالتنصر ودفعوا الزكاة الى الكنيسة . الا انه يذكر انه كان يرى بعضهم خارجا من الكنيسة ومتجها نحو المسجد يتوسل البركة والدعاء من أحد الائمة ورجال الدين تكفيرا عما بدأ منهم من دخول الكنيسة . الا ان الغريب المضحك في هذه المراسيم التي استهدفت تنصير المسلمين انها شملت الرجال دون النساء . فكان تأثير المرسوم بمرور الايام معدوما لان الام هي التي تغرس في نفس طفلها العقيدة والاخلاق وعلاقته بالآخرين وبمحيطه . ولذلك بقي الدين راسخا لم تستطع القوة زعزعته . غير انه يقال ان بحلول سنة ١٨٨٠ بلغ مجموع من تنصر من المسلمين ٥٠ ألفا ، ومن الوثنيين ٢٠ ألفا ، ومن قبائل غالا نصف مليون . ولكن هذه ارقام لا يعول عليها في محيط كالحبشة في القرن التاسع عشر .

من جملة النقد الموجه للفترة التي حكم بها يوحنا الرابع اكراه غير الاقباط على تغيير دينهم . وهذا ما وسع شقة الخلاف بين المسلمين وقبائل غالا من جهة والاقباط من جهة اخرى . وكانت ثمرة هذا التعصب الاعمى من جانب يوحنا انقساما عميق الجذور بين أبناء الوطن الواحد ما زالت تدفع ثمنه اثيوبيا الحديثة .

يذكرنا تعصب يوحنا في قضية الدين بما قاله عنه الجنرال غوردن الانكليزي الذي حكم السودان ، اذ يصفه بالعبارات التالية :

> « من الغريب أن هناك صفات عديدة تجمع بيني وبين يوحنا الرابع . فهو مثلي متدين وشديد التعصب وله رسالة في الحياة يحرص على ادائها وهي تنصير كافة المسلمين » (٣) .

ان مجريات الاحداث في الفترة الاخيرة من حكم يوحنا الرابع أثبتت عقم تفكير هذا الامبراطور وخطل سياسته في محاولته اخضاع رعيته لدين واحد . فانتشار راية الاسلام في كافة الاصقاع المحيطة بالحبشة كانت بمثابة دعم معنوي بعيد الاثر للمسلمين الاحباش ، الامر الذي دفع الامبراطور للتخفيف من غلوائه وتعصبه . يضاف الى ذلك تألق نجم الخديوي أسماعيل في تلك الفترة وتطلعه للتوسعات الاقليمية التي لم تستثن الحبشة . فافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ غير الوضع السياسي في البحر الاحمر تماما ، بل وستراتيجية المنطقة بأكملها . فما أن حلت سنة ١٨٧٢ حتى امتدت سيطرة مصر على كل الساحل الغربي للبحر الاحمر . ومن جهة السودان احتلت قواتها المناطق الغربية من اريتريا ودخلت مدينة كرن Keren . وطبيعي ان مصالح الدول

---

2 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham, page 123.
3 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham — page 122.



الغربية في القناة كممر مائي دولي وفي مصر ذاتها هي التي املت عليها أن تغض النظر عن تحركاتها التوسعية ، ومن طرف خفي اطلقت يدهـا حرة بالنسبة لمصالحها في اثيوبيا . وعلى هذا الاساس وضع مونسنفر السويسري الجنسية الذي عينه الخديوي حاكما على مصوع ، خططه للنفوذ الى داخل اثيوبيا لحساب مصر ، مستغلا الانقسامات الداخلية فيها والحروب الدينية المستعرة .

ولكن رغم الانقسامات الظاهرة فان يوحنا كان اكثر حذرا ويقظة من سلفه ثيودور . فلم يسمح لعامل الضعف والانحلال ان ينخر في جسم البلاد للدرجة التي كان يتوقعها الاجانب . ومن ناحية أخرى فقد بذل مجهودا عظيما لتقوية جيشه وتحسين تجهيزاته ، الامر الذي مكنه من الانتصار على المصريين في ثلاثة مواقع مشهورة ، قضى في احدى المرات على الجيش المصري قضاء تاما ، وقتل في الموقعة قائد الجيش نفسه مونسنفر السويسري .

ولكن بحلول عام ١٨٧٥ طوقت القوات المصرية اثيوبيا من كل جانب واصبحت سلطنة هرار الاسلامية تحت نفوذها . فاستعادت هذه السلطنة ، ولو لفترة قصيرة ، مجدها السالف كمركز اشعاع ديني . ولم تدم نشوة النصر طويلا للمصريين . فبفضل تفوق الاسلحةالانكليزية التي ملكها يوحنا ، كان له القول الفصل في النهاية في كافة الحروب تقريبا .

ففي الحرب التي دارت بين الطرفين بالقرب من بلدة غوره Gura كاد الاحباش ان يبيدوا القوات المصرية ابادة تامة . وقصة يوحنا التهكمية مع الخديوي اسماعيل مشهورة ذكرناها في فصل آخر . فعندما اعاد يوحنا الاسرى المصريين بعد انتهاء المعركة الى معسكرهم زودهم برسالة معنونة الى الخديوي شخصيا هذا نصها : ـ « هؤلاء هم جنودك يا اسماعيل أعيدوا لك . فان كنت ما زلت بحاجة الى عدد اكبر من الخصيان لحريمك فابعث لي ببقية جيشك » .

خطر من الغرب ـ الحركة المهدية

لم يكد يوحنا يتنفس الصعداء لتلاشي خطر الخديوي اسماعيل وانحسار سلطانه حتى لاح في الافق خطر آخر أبلغ منه اثرا ومدى ـ خطر من الغرب تميز بتعصب ديني لا يختلف عن تعصب يوحنا نفسه. وحاربه بنفس السلاح العقائدي . ففي الفترة الاخيرة بدأ السودانيون يشعرون وكأنهم فقدوا كيانهم الذاتي نتيجة الانحلال السياسي . وأصبح الوضع ينذر بخطر انفجار قد يأتي من أية ناحية من أرجائه الواسعة . فقد ضاق الاهالي ذرعا بسوء الادارة العامة واتساع نطاق تجارة الرقيق على حساب هدر الكرامة الانسانية ، الامر الذي أفسد الوضع الاجتماعي



والخلقي . وكانت المسؤولة عن هذه الاعمال الوضيعة عصابات من التجار الجشعين لهم تنظيم ووكلاء وفروع في كافة انحـــاء القطر بزعامة زبير باشــــا .

وسئم السودانيون الاحتلال المصري ونفوذ الجنرال غوردن ، فقامت ثورة دينية في سنة ١٨٨١ بزعامــــــة محمد احمد بن عبد الله الملقب بالمهدي ، اقضّت مضاجع الاحباش والانكليز والفرنسيين معا . فالتف الناس حول المهدي افرادا وجماعات بدافع من الايمان والعقيدة الراسخة. فاتسعت الحركة حتى شملت كل الديار وأطلق أتباعها على أنفسهم لقب « الانصار » . ساندها الضعفاء والفقراء أمـــلا في تحسن احوالهم المعاشية . وساندها التجار ــ وجلهم من تجـــار الرقيق ــ لان الحركة استهدفت القضاء على السيطرة الاجنبية . وهذا معناه من الناحيـــة العملية القضاء على الجنرال غوردن الذي كان يعتبر الد خصم لهـــذه التجارة المربحة .

ولما لم يكن للمصريين القدرة العسكرية الكافية اصد المهديين وقطع دابر الحركة تدخل الانكليز عندئذ . ومن هنا بدأ احتلالهم لمصر . الا ان الحركة المهدية انتشرت بسرعة فوق حدود التصـــــور انتشار النار في الهشيم . فقرر الانكليز سنة ١٨٨٣ ترك السودان لانهم باحتلالهم مصر في السنة التي قبلها على اثر ثورة عرابي باشا لم يعودوا قادرين عـــلى ادارة البلدين المضطربين بثورات داخلية ، وبخـــاصة بعد أن سقطت مديرية قضارف الواقعة على حدود اثيوبيا بيد المهديين سنة ١٨٨٤ .

عندئذ وجد الانكليز ان لا مناص من الرجوع الى حليفهم الامبراطور يوحنا . فأوفدوا اليه الاميرال هيويت Hewitt في ٣ حزيران (يونيو) ١٨٨٤ لمفاوضته في هذا الامر الحرج وامور اخرى . فعقد الطرفـــان اتفاقيتين ، الاولى تتعلق بمحاربة تجارة الرقيق عن طريق مضاعفة عدد مراكز المراقبة ، والثانية سياسية وقد التزمت اثيوبيا بموجبها بالتعاون مع الانكليز للوقوف بوجه الخطر المشترك ــ الحركة المهدية ــ ومساعدة الحاميات المصرية المحاصرة بالانسحاب الى خارج المناطق التـــي سيطر عليها المهديون .

ومقابل هذه المساعدات من جانب الاثيوبيين للانكليز فقد تعهـــدوا ليوحنا بعدم تدخلهم أو ممانعتهم لاستعادته المنـــاطق الشمالية القريبة من بلاده التي كانت قد وقعت تحت سيطرة الدراويش التابعين للمهدي. وهذه المناطق هي كرن Keren وبيلين Bilen وحتى اريتريا التـــي سيطر عليها المصريون . وكان خوف الانكليز والاثيوبيين مشتركا مـــن احتمال سقوط « كسله » في شرقي السودان بأيدي المهديين ، فينفتح الطريق امامهم مباشرة للبحر الاحمر . ولكن المهديين تمكنوا بعدئذ مـــن احتلال « كسله » مباشرة بعد سقوط الخرطوم بأيـــديهم سنة ١٨٨٥



ـ تلك السنة التي قتـــــلوا فيها الجنرال غوردن في قصره المطل على النيل الازرق .

مرت سنتان والمنطقة تغلي غليان المرجل وكل من الطرفين المتنازعين ـ المهديين والاحباش ـ يستعد من جانبه لجولة جديدة . ولما وقعـت الحرب بينهما سنة ١٨٨٧ في بلدة متمه أوقع الاحباش بالمهديين خسائر كبيرة وضربوهم ضربة قاصمة . وكان الخليفة يعتبر « متمه » اهم معقل يجب المحافظة عليه بأي ثمن . ففي الثالث من حزيران (يونيو) من نفس العام حشد الخليفة قوات لا حصر لها وساندها بامـــدادات احتياطية اخرى سلاحها الايمان والعقيدة بالحركة الجديدة ، بقيادة (ابو غنجه) وزكي تومال . فاكتسحوا القـــوات الحبشية امامهم دون صعوبة . وواصلوا زحفهم حتى دخلوا مع الاحباش في معركة ثانية قرب بـــلدة داخل اثيوبيا . وهـــذه البلدة تقع حوالي Debra Sina ديبره سينا ٥٠ كيلومترا شمالي غوندار التي دخلوهــــا ايضا وأوقعوا فيها خسائر مادية جسيمة واحرقوا بعض قصورها وكنائسها وقتلوا الكثير ممـــن في داخلهـــا (٤) .

فاضطر يوحنا ان يستنجد بمنليك ، خاصـــة بعد أن وصل الى علمه بأن عددا غير قليل من اقربائه وقعوا اسرى بأيدي المهديين . لقـد بلغت خسائر الاحباش في هذه المنطقة الواقعة فـي أقصى الغرب حدا كبيرا لدرجة دفع ببعض قواد يوحنا الى الاعتقاد بأن الاتفاقية المعقودة مع الانكليز لم تخدم مصالح اثيوبيا وانما خدعوا بها من قبل حلفائهم . ومـن الناحية الثانية فقد كان باستطاعة منليك ، ملك شوا ، ارسال النجدات الفورية لانقاذ الموقف ودحر المهـــديين ، وتخليص الاحباش من هـذه الكارثة . غير ان هذا تباطأ في الاستجابة لطلب يوحنا وذلك لكي يضعف جيشه ويخذله . فمنليك كان بنفس الفترة يتفاوض سرا مع الايطاليين ضد يوحنا ليساعدوه في تنصيب نفسه امبراطورا مقابل بعض تنازلات تعهد بها لهم على الساحل وفي اريتريا .

مقتل الامبراطور يوحنا الرابع

بعد الهزيمة الكاملة التي مني بها جيش يوحنا امام دراويش المهدي قرر اللجوء لاستخدام اساليب المراوغة والخداع فتظاهر انه يريد الوصول الى مصالحة نهائية مع المهديين حقنا للدماء . فأوفد جماعة الى ام درمان سنة ١٨٨٨ للتفاوض بشأن ذلك وعقد اتفاقية صداقـــة بين الطرفين . ولكن الهدف الاساسي الخفي وراء بعثة يوحنا الى ام درمان كان لجس النبض وتقييم قوات المهديين واستعداداتهم الحربية . الا ان المهديين

4 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham — page 124.



وقفوا موقفا بمنتهى الصلابة فاشترطوا اعتناق يوحنا الدين الاسلامي كأساس لقبول مبدأ التفاوض . فعاد الوفد الى اثيوبيا بخفي حنين . ولكن هذا الخبر اغضب يوحنا غضبا عظيما واعتبره اهانة لا يجب السكوت عنها . فعقد العزم على المضي في الحرب معهم للقضاء عليهم ومن ثم التوجه بكل قواه للتفرغ للحرب مع خصومه الايطاليين الواقفين له بالمرصاد مع حليفهم منليك ، خصمه التقليدي . فسار يوحنا على رأس جيش كبير مزود بأنواع الاسلحة التي خلفها له الانكليز وهدفه شن حرب خاطفة على المهديين للقضاء عليهم . الا انه جرح بموقع القلابات Galabat بذراعه وعانى من جرح آخر بمعدته . فحمله أتباعه وولوا الادبار (٥) . فتعقبهم الدراويش حتى تمكنوا من اختطاف الامبراطور الجريح وقطعوا جسده الى شطرين لسهولة حمله . وفي رواية اخرى اكتفوا بقطع رأسه وأخذه مع سيفه الى الخليفة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٩ .

لقد كان بامكان الدراويش ملاحقة عدوهم المنكسر لاستثمار النصر ، الا ان الخليفة غير خطته الحربية بعد أن أتعبته الحروب واستنزفت موارده . فقرر توجيه اهتمامه نحو مصر التي لا يشكل غزوها عقبات أمام رجال مدربين على حروب الصحارى .

وعلى اثر انسحاب قوات الدراويش من الحدود تنفست اثيوبيا الصعداء ، خاصة بعد كارثتها بفقدانها الامبراطور . والمهديون ايضا تكبدوا خسائر هائلة في الرجال اكثر من الاموال خلال حروب دامت اربع سنوات . الا ان الخطر الحقيقي قد زال عن اثيوبيا بعد ان أعاد الانكليز احتلال السودان بأكمله عقب انتصارهم في معركة النهر بأمدرمان سنة ١٨٩٨ بواسطة جيش مؤلف من المصريين بذلوا جهودا كبيرة في تدريبه . وزال عن اثيوبيا خطر الاسلام من ناحية الغرب نهائيا بعد وفاة الخليفة في السنة التي تلتها .

صدام مع الانكليز

لنرجع عقارب الساعة قليلا الى الوراء لكي نستعرض تطور الاحداث بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ . فبتزايد احتكاك وتشابك مصالح الدول العظمى في البحر الاحمر وشرقي افريقية على اثر افتتاح هذا الممر المائي الخطير ازدادت العلاقات سوءا بين الامبراطور يوحنا والايطاليين الذين ثبتوا أقدامهم على سواحل اريتريا برضاء الانكليز . فهؤلاء ـ أي الانكليز ـ لم يكونوا يخشون الوجود الايطالي في المنطقة بقدر ما كانوا يحاذرون من الوجود الفرنسي في خليج عدن عن طريق قاعدتهم في جيبوتي المسيطرة على مضيق باب المندب . ولما كان الايطاليون

---

5 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham — page 125.



يتحاشون تعميق سوء التفاهم بينهم وبين الامبراطور رغبة منهم في حل المشاكل المستعصية معه بالطرق السلمية فقد كلفوا الانكليز بمبادرة الوساطة بين الطرفين قبل تفاقم الحالة واللجوء الى السلاح . وقبل الانكليز بأخذ هذه المهمة على عاتقهم فعهدوا الامر لوفد ترأسه السير جيرالد بورتال Sir Gerald Portal ، الذي بدأ مهمته قبل ان يتورط يوحنا بالمعركة مع الدراويش التي لقي فيها مصرعه في موقعة القلابات الشهيرة .

أما الوفد الاثيوبي لهذه المباحثات فكان بزعامة الرأس علوله أحد أعاظم الشخصيات السياسية والقادة العسكريين الذين ساهموا في تثبيت سلطان يوحنا في البلاد . وعند افتتاح المفاوضات عرض الجانب الانكليزي وجهة نظره في الخلاف الناشيء بين الاحباش والايطاليين . وعرض بعض المقترحات التي تتلخص في ان من مصلحة اثيوبيا التنازل للايطاليين عن بعض الاراضي المتنازع عليها . الا ان الرأس علوله رفض المقترحات الانكليزية رفضا قاطعا واعتبرها خيانة للصداقة القائمة بين بلديهما واهانة لكرامة اثيوبيا وسمعتها الدولية . ثم وجه الملاحظة التالية للسير جيرالد : « اننا نوافق على التنازل للايطاليين عن بعض ممتلكاتنا كما اقترحتم اذا هم سمحوا لي أن أصبح حاكما على روما » .

ولما وقف الامبراطور على ما آلت اليه المفاوضات بعث برسالة عتاب الى الملكة فكتوريا جاء فيها ما يلي (٦) :

« كيف تقترحين تسليم بلادي التي وهبني اياها عيسى المسيح الى الايطاليين ؟ ان طلبك هذا لجائر وظالم. فاذا كنت حقا تبتغين استمرار حالة طيبة من السلام بيني وبينهم فيجب أن يتم ذلك وهم في بلادهم وأنا في بلادي . أما الآن ففرسان كلا الطرفين شاهرون سيوفهم وهم على أهبة الاستعداد على صهوات جيادهم بانتظار الاشارة للقتال » .

« أما جنودي الذين يقدر عددهم بقدر عدد ذرات الرمال فمتربصون لاعدائهم وحرابهم بأيديهم . ان الايطاليين لا ينشدون سوى الحرب ولكن قدرة المسيح لعظيمة وبجانبنا . فليعمل الايطاليون ما يحلو لهم . فأنا لست من اولئك الذين يخفون أنفسهم في الجحور . وسأظل على أتم استعداد ما حييت » .

اما على الصعيد الوطني الداخلي فان يوحنا كامبراطور لم يحقق اي تقدم ملموس في تطوير البلاد او تحسين اوضاع شعبه المتخلف .

---

6 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 93.



فقد امضى سني حكمه كلها تقريبا في صراع دائم في الداخل والخارج . فخاض حروبا عديدة مع المهديين والمصريين والايطاليين ومن اجل ذلك سمي بالامبراطور المحارب .

وكانت فترة حكم يوحنا من أصعب الفترات التاريخية التي مرت بها اثيوبيا . فقد بلغ التنافس الدولي ذروته في الربع الاخير من القرن التاسع عشر بين الاوروبيين للحصول على المستعمرات والمواد الخام لصناعاتهم الحديثة وضمان كسب الاسواق لتصريف بضائعهم بعد الانقلاب المثير الذي أحدثه فتح قناة السويس وظهور بلدان جديدة على امتداد خطوط المواصلات التجارية لم تكن لها أهمية تذكر في عالم الملاحة فيما سبق .

فهذا التطور الفجائي الذي قلب البحر الاحمر الى شريان رئيسي للمواصلات بين الشرق والغرب عرض اثيوبيا لمؤثرات ستراتيجية جديدة فللت من اهمية منعتها الجبلية وقابليتها لصد المصالح الاجنبية بفضل موقعها الحصين . وأثبتت الاسلحة الحديثة التي استخدمها الجنرال نابيير ضد ثيودور بأن الفروسية والشجاعة الفردية التي تحلى بها سكان الهضبة لم تعد عنصراً أساسيا في تقرير مصير الحروب . كما حدث نفس الشيء في حملة نابليون على مصر حيث تلاشت بطولة المماليك واستماتتهم في القتال امام المعدات الحربية الحديثة . في كلا الحربين ـ حرب نابليون والمماليك أمام الاهرام ، وحرب نابيير امام قلعة ماغدالا مع فرسان ثيودور ـ كان الكلام الفصل للاسلحة الحديثة وليس للفارس وسيفه .

وسنرى في الفصل القادم كيف ان اثيوبيا اضطرت للخروج من عزلتها ودنت من مفترق الطريق بين الماضي والحاضر وفتحت صفحة جديدة في علاقاتها الخارجية ولم تعد بعد الأن تلك القلعة الافريقية الموصدة الابواب فوق هضبة شامخة . الا ان يوحنا في أواخر أيامه فطن للخطر الحقيقي الذي يتهدد بلاده وافريقية بأسرها ـ انه التوسع الاستعماري وليس خطر انتشار الدين الاسلامي . فبدأ يخفف من ضغطه وحملاته على الاسلام وكتب الى الخليفة المهدي في السودان يسأله الدخول في عهد جديد من العلاقات تسوده روح الصداقة وحسن الجوار بدلا من الكراهية واراقة دماء الابرياء . ومما جاء في رسالته ما يلي :

« دعنا نتوقف عن اراقة دماء الابرياء المساكين لغير غاية شريفة وليتحد شعبانا ضد خصومنا المشتركين ـ الاوروبيين . ان هم حاربوني وغزوا بلادي فسوف لن يدخروا وسعا في الفتك بك أيضا . ولذلك فأرى من مصلحة بلدينا ان نتحد ونحاربهم سوية للقضاء عليهم » .



الفصل الخامس عشر

الامبراطور منليك الثاني (١٨٨٩-١٩١٣)

عهد جديد

عندما توفي الامبراطور يوحنا الرابع سنة ١٨٨٩ كان منليك (واسمه الحقيقي ساهلا ماريام) ملك اقليم شوا أقوى وأبرز المرشحين لكسب لقب « ملك الملوك » . فقد قبض على زمام الحكم في اقليمه ٢٤ سنة متواصلة منذ أعلن نفسه ملك ذلك الاقليم سنة ١٨٦٥ . ولذلك فلم يتردد لحظة واحدة بعد وفاة يوحنا في اعلان نفسه امبراطورا تحت اسم منليك الثاني . وكان عندئذ في الخامسة والاربعين من عمره . الا انه لم يجر تنصيبه امبراطورا باحتفال رسمي في العاصمة المقدسة ـ اكسوم ـ كبقية الاباطرة . ولذلك ففي خلال حياته لم يعترف بشرعية ملكه الكثير من نبلاء اقليم تيفره حيث العاصمة المقدسة . وقد يكون ذلك نابعا من المنافسة التقليدية بين اقليمي تيفره وشوا .

والارجح هو ان منليك تحاشى اجراء مراسيم تنصيبه امبراطورا في اكسوم خشية معارضة رؤوس اقليم تيفره ، وخاصة حذرا من دسائس الراس منغاشا Mengasha ابن يوحنا الذي كان يطمع بالعرش لنفسه . واكسوم تقع في قلب بلاد خصومه التقليديين وبعيدة عن مصدر قوته ونفوذه . فنقل مقر الملك من تيفره الى شوا واسس عاصمته الحديثة في اديس ابابا (معناها بالامهارية الوردة الجديدة) . وقبل اختيار موقعها رسميا كعاصمة سبق له أن مهد لذلك بتوزيع الكثير من اراضي هذه الديار على رجاله وقواده وكبار الشخصيات منذ سنة ١٨٨٦ ، اي قبل اعتلائه العرش بثلاث سنوات . ولم يخصص لنفسه اية قطعة من الارض ، ولا لاحد من أفراد أسرته لانه كان دائما يتفوه بعبارة « ان اثيوبيا هي كلها أرضي » .



من المعروف عن منليك ، بعكس أسلافه ، أنه لم يشغل نفسه بالحروب كثيرا ، نظرا لوسعة نفوذه بين زعماء القبائل والرؤوس . فقد تربع على عرش الاقليم زهاء ربع قرن من الزمن . ولم يكن له سوى منافس واحد يخشاه في شوا ، ذلك هو ابن عمه الذي قضى عليه وتخلص منه بأبشع أسلوب اجرامي . فقد قتله بطريقة كانت معروفة بالحبشة منذ القدم ، وهي ان يقمط الضحية المسكين بلفافات من القماش منقوعة بالشمع السائل المذاب . وهو لـذلك وجد متسعا من الوقت للانصراف لبعض الاعمال العمرانية وادخال بعض الاصلاحات . لقد ساعده في ذلك عاملان مهمان هما :

١ ـ تحالفه منذ البداية مع قبائل غالا الذين شدوا ازره ووطدوا له سلطانه على البلاد نظرا لكثرة أعدادهم وشدة بأسهم كمحاربين من الطراز الاول . وقد قرب الكثير من زعمائهم ومنحهم امتيازات لا عهد لهم بها في السابق . فساعد ذلك على تهدئة خواطرهم واستقرارهم . فعندما غزت هذه القبائل هضبة الحبشة في القرن السادس عشر كان امتزاج الامهاريين بهم في بادىء الامر بطيئا أو معدوما بسبب غطرسة الامهاريين واعتقادهم بتفوقهم على ما سواهم من الشعوب . لكنه بمرور الايام أخذ هذا الاعتقاد والشعور بالتعالي والصد عن الاختلاط بقبائل غالا يتضاءل تدريجيا ، وصارت الحواجز والفوارق الاجتماعية تذوب أمام مصالحهم المتبادلة ، وخاصة بعد أن تنصَّر آلاف من الغاليين وأصبحت لغتهم الغالينية شائعة ومفهومة بين معظم سكان الهضبة .

ونتيجة لهذا الاختلاط وخاصة عن طريق التزاوج وامتزاج الدم فقد خفت كما أشرنا الفروقات الطبقية بين الشعبين . فكان ذلك بداية لمرحلة تحول اجتماعي مهم ، هو انتقال طبيعة المنافسات والحروب من المستوى القبلي الى منافسات واحتكاكات على المستوى الاقليمي . حتى وقد أصبح معظم جيش منليك مكونا من أفراد القبائل الغالية ـ الذ خصومه بالامس .

٢ ـ اعتماده في ادارة شؤون الدولة على شخصيتين هما الراس ماكونين (وهو من أقربائه ووالد الامبراطور هايلا سلاسي) والراس ميخائيل . وكلاهما من أشجع الفرسان وأبرزهم في ساحات الوغى ومن ادهى السياسيين ، خاصة الرأس ماكونين . فقد لعب هذا الزعيم الوطني دورا هاما في توجيه السياسة الخارجية وفي وضع الاسس لاتفاقية اوتشيالي (١) مع الايطاليين سنة ١٨٨٩ . وماكونين هو الذي

---

١ ـ اتفاقية اوتشيالي يكتبها الايطاليون Ucciali بينما يكتبها الانكليز



قاد الجيش الى أقليم تيغره لاخضاع العصيان الثاني الذي قام به الرأس منفاشا (ابن الامبراطور السابق يوحنا) سنة ١٨٩٩ . فسحقه وجاء بمنفاشا أسيرا الى منليك واضعا حجرا ثقيلا على رأسه اشارة الخضوع حسب التقاليد الحبشية القديمة .

انفتاح نحو المدنية الغربية

عرف عن منليك انه دبلوماسي محنك وسياسي من الطراز الرفيع، اعترف له بهذه الخصال السفراء الاجانب لدى بلاطه . وبدهائه وحسن تصرفاته استمال الدول العظمى وكسب ثقتها واستطاع الحصول منها على كميات وفيرة من الاسلحة لجيشه . وبتفتح ذهنيته وبعد نظره وجه اثيوبيا وجهة عصرية حديثة فتوافدت على بلاده الرسل والبعثات التجارية ووكلاء مختلف الصناعات ـ والكل يخطب ود ليلى . ولكن ميل ليلى كان ـ حسب ما برهنت الايام ـ نحو فرنسا أكثر من غيرها ، ولو ان الامبراطور بثاقب بصره ودرايته السياسية لم يتردد في قبول المشورة والمساعدة من أي مصدر كان .

فعلى عهد منليك صارت بوادر المدنية الحديثة تجد طريقها نحو المرتفعات المنعزلة وتهد حصون هضبتها الموصدة بوجه العالم الخارجي . فدخل التلفون والتلغراف الى مجاهل الهضبة . وعلى أيامه امتد أول خط للسكة الحديدية بين العاصمة اديس ابابا وميناء جيبوتي الفرنسي في خليج عدن . ومنليك هو الذي استحدث الوزارات في حكومته وغرس نواة التعليم . وبزمانه ادخلت الوسائل والاسعافات الصحية والتلقيح ضد مرض الجدري . ومن أهم المظاهر الحديثة في اثيوبيا كلها التي تذكر الانسان بمنليك هي غابات وأحراج شجر الكافور (يوكالبتوس) الذي أدخل الى البلاد على زمانه ـ وقيل ان القنصل الفرنسي هو الذي سعى بادخال بذوره من اوستراليا . واليوم يعتبر هذا الشجر من اهم الحاصلات النقدية . وانتشرت هذه الاشجار في المدن والارياف لدرجة تكاد تكون الطابع المميز للبلاد حاليا .

لقد اتسمت فترة حكم منليك بالتوسعات الاقليمية حتى ان مساحة اثيوبيا غدت ضعف ما كانت عليه قبل توليه الحكم (٢) . فحقق بتوسعاته هذه ما كان حلما يراود اذهان ثيودور ويوحنا الرابع . هناك أصقاع بعيدة اضيفت عن طريق الاغتصاب والقوة والارهاب والحروب . وجل هذه الاصقاع كانت ممالك وامارات اسلامية صغيرة محاددة لهضبة الحبشة. كما ضمت مساحات شاسعة من مواطن الوثنيين في المناطق الغربية والجنوبية . لقد مر ذكر حروب منليك واستيلائه على الاراضي الاسلامية

---

2 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 96.



المجاورة في الفصل الذي بحث في الحروب التي قامت بين الطرفين .
ولكن مما تجدر الاشارة اليه هنا هو ان منليك ركز جل اهتمامه في اخضاع منطقتين اسلاميتين مهمتين كانتا تعتبران من اقوى المعاقل الاسلامية ـ هما هرار الواقعة في الهضبة الشرقية وجيما عاصمة اقليم كافا في الجنوب الغربي (٣) .

ولعل أهم وأعظم المشاريع العمرانية الحديثة المنسوبة الى منليك، والتي في الحقيقة تعتبر انقلابا جذريا في تطوير شؤون البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، ادخاله السكة الحديدية لتحسين المواصلات عن طريق ميناء جيبوتي الفرنسي والقضاء على عزلتها الجغرافية . الا ان هذا المشروع كان موضع نقاش وجدل عميقين أثارهما مستشارو الامبراطور وكذلك الامبراطورة (تايتو Taitu) زوجته . وعارضوا في تنفيذه معارضة شديدة سببها المخاوف من تثبيت الاستعمار الغربي أقدامه في اثيوبيا عن طريق أمثال هذه المشاريع وتعريض استقلال البلاد الى الخطر . ومنليك نفسه لم يكن أقل تشككا من مستشاريه وزوجته . ولم يستبعد بدوره هو ايضا احتمالات تثبيت الاستعمار الغربي أقدامه في أراضيه . ولكن رغبته وحرصه على اخراج بلاده من ظلمة التخلف والجهل في هذا العصر الصناعي جعلاه يرجح كفة المضي في تنفيذ المشروع وتفضيله على الابقاء على حالة الجمود والتخلف اللذين يخيمان على المجتمع الحبشي . وأخيرا اقتنع حتى مستشاروا منليك بوجهة نظره بناء على المنافع الاقتصادية التي ستجنيها البلاد من ارتباطها بطرق المواصلات البحرية الرئيسية العالمية وتصريف بضائعها وحاصلاتها الزراعية التي كانت تباع بأبخس الاثمان في الاسواق المحلية ، مثل البن والجلود والصمغ وغيرها .

وأخيرا أعطى الامتياز لشركة فرنسية لمد خط حديدي بين جيبوتي واديس ابابا طوله ٧٨٤ كيلومترا . أما بالنسبة للفرنسيين فكانت أهدافهم المخفية ترمي الى أبعد من أهداف المشروع الظاهرية التي استهدفت تنشيط التجارة في المنطقة . ففي الحقيقة ان بقية تصاميم هذا المشروع كانت ترمي الى تمديد الخط الى ما وراء اديس ابابا ـ الى مستعمرات فرنسا في افريقية الوسطى والكونغو . وبذا كانت ترمي لاحباط أحلام الانكليز في السيطرة على شريط من الارض الافريقية يمتد من مصر الى مدينة الكاب في جنوب افريقية (٤) . لقد تعثر العمل في هذا المشروع

---

3 — Ethiopia, by Richard Greenfield — pages 99 — 102.
Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham — pages 125 — 130.
Wax and Gold, by Donald N. Levine — pages 4, 175.
The Abyssinias, by David Buxton — pages 56, 58.
4 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 125.

كثيرا بسبب العقبات الجسيمة التي اعترضت سبيله في كافة مراحله الاولية . فقد تعرضت المواد الانشائية للنهب والسلب في صحراء الدناقل وما جاورها على أيدي قبائل عيسى وعفر والدناقل . ومع ان الامتياز قد أعطي في سنة ١٨٩٧ فان الخط لم يصل الى اديس ابابا الا في سنة ١٩١٨ .

في هذه الفترة بالذات امتد نفوذ بريطانيا الى أعالي النيل بعد احتلالها السودان فأسست مستعمرة يوغنده . ولما كانت حدود اثيوبيا الغربية غير مثبتة ولا معروفة في بعض الجهات فقد بذل منليك جهودا حثيثة متواصلة استمرت من سنة ١٨٩٧ حتى سنة ١٩٠٨ توصل خلالها الى عقد عدة اتفاقيات مع بريطانيا تم بموجبها تثبيت الحدود الغربية . واعتبر هذا المجهود الكبير مكسبا عظيما لحماية الاستقلال الاثيوبي . وعلى ضوء هذه الاتفاقيات اعترفت الدول الاوروبية بحدود اثيوبيا .

وبالنظر لمصالح بريطانيا في مصر والسودان آنذاك فقد تم التفاهم بموجب اتفاقية خاصة حول انتفاع هذين البلدين من مياه النيل . وفي الاتفاقية المعقودة مع الانكليز تعهد الامبراطور منليك بعدم اقامة اية حواجز على نهر النيل الازرق دون موافقة الحكومة البريطانية . وما زالت هذه الاتفاقيات المتعلقة بالحقوق المائية قائمة الى اليوم . وقد طرأ عليها تعديلات كثيرة لصالح مصر والسودان ، وتشرف على تنفيذ بنودها هيئة ثابتة تمثل مصر والسودان واثيوبيا ويوغندا تجتمع بشكل دوري لحل ما قد ينشأ من مشاكل بين البلدان المعنية .

وعلى الصعيد الداخلي فقد تكون أجرأ خطوة قام منليك بتنفيذها لاصلاح الجهاز الاداري هي تجريد ملوك الاقاليم والرؤوس من صلاحياتهم الواسعة والقابهم الموروثة . فقد كان هؤلاء الملوك والرؤوس شبه مستقلين عن السلطة المركزية . وان استمرار هذه الحالة طوال الاجيال المتعاقبة ادى الى تجزئة البلاد وانقسامها والامعان في تثبيت الحواجز الاجتماعية بينها . اما منليك فبعزم وتصميم استطاع تحويل الممالك والامارات الى ولايات (محافظات) جعل عليها حكاما ينقلون من محافظة الى اخرى كما ينقل اي موظف آخر في الدولة . وبهذا الاقدام الجريء قضى لدرجة ما على المنافسات والحروب بين الاقاليم وحصر السلطة بيد الحكومة المركزية ـ نظريا على الاكثر .

تفاهم وخلاف بين اللصوص

عندما شرعت الشركة الفرنسية بالاعمال الاولية لمد الخط الحديدي وكدست المواد الانشائية والاجهزة اللازمة بوغتت بفقدان نسبة كبيرة منها وتلف بعضها ، واصبحت على وشك ان تعلن توقفها عن العمل لكثرة ما أصابها من أضرار مادية . وكثير من الاضرار تسببها اهمال المستخدمين



المحليين واعطاؤهم المجال لابناء القبائل لسرقة المواد ، الامر الذي أدى الى زيادة التكاليف بشكل لم يحسب له حساب . حتى واوشكت الشركة ان تعلن افلاسها لولا تدخل بعض المولين البريطانيين في لندن الذين اسندوا الشركة فصار للانكليز حصة دسمة في المشروع لدرجة انهم سيطروا عليه تقريبا . وهنا هاج الرأي العام الفرنسي ، وبضغط من الصحافة تدخلت الحكومة الفرنسية التي كانت على أبواب انتخابات جديدة فاشترت معظم الحصص التي استولى عليها الانكليز . واصبح المشروع من الناحية الواقعية تابعا للحكومة الفرنسية لحد ما .

اما الانكليز فكانت تخامرهم فكرة لم تتحقق نظرا لتبدل الظروف السريع ، وهذه الخطة كانت ترمي الى انشاء فرع من الخط الرئيسي للسكة الحديدية ليصل الى أحد الموانىء في الصومال البريطاني المجاور للصومال الفرنسي . ولكن لما عاد الفرنسيون للسيطرة على المشروع من جديد وانتزعوه من أيدي رجال المال الانكليز تحركت السياسة البريطانية من طرف خفي فأوعزت لسفيرها في اديس أبابا بالقيام بمناورة دبلوماسية للرد على هذه الصفعة التي تلقاها رجال المال البريطانيون والتي انتهت بخروجهم من مغامرتهم مع الفرنسيين بخفي حنين . فاتصل السفير البريطاني بالامبراطور منليك – وكان ذلك سنة ١٩٠٢ – ونقل اليه الخبر بأن المشروع الفرنسي للسكة الحديدية لم يعد مشروعا تجاريا كما كان يعلم الجميع خطأ . فقد أخفقت الشركة صاحبة الامتياز لتضعضع مركزها المالي ، وبات المشروع الآن في طريقه للتملك من قبل الحكومة الفرنسية .

وهنا ثارت ثائرة منليك لهذا الخبر المفزع – وسجلت هذه المناورة البارعة فوزا لدبلوماسية السفير البريطاني – وخشي ان يؤول الامر الى ما يشبه الاحتلال . واستبشع منليك خطط الفرنسيين للنيل من استقلال بلاده – تحت تأثير الغضب – خلف ستار المشاريع التجارية . واعتبر هذا الاجراء ضربا من الاستعمار المقنع . وكانت نتيجة هذه الخلافات بين الشركات والمولين والحكومات ومخاوف منليك ورجاله ان توقف العمل في هذا المشروع الحيوي زمنا طويلا . وجمدت الشركة صاحبة الامتياز الاول وحلت محلها شركة ثانية أخذت على عاتقها مواصلة العمل . ولكن الفوضى الناشئة عن الخلافات أخرت الاعمال بحيث لم يصل الخط الحديدي الى اديس ابابا قبل عام ١٩١٨ ، أي بانتهاء الحرب العالمية الاولى ، كما أوضحنا في مستهل هذا البحث .

وهكذا وضحت ستراتيجية المنطقة بالنسبة لكل من الدول العظمى حسب متطلبات سياساتها التوسعية . ومهما بلغ من حذر منليك ومستشاريه وزوجته الذكية فقد مضى اللصوص في خططهم المرسومة مسبقا وتفاهموا بلغتهم الخاصة التي لم يتقنها منليك بدهائه . وبعد ان



فرغوا من ذلك جاءوا اليه ، وكان قد بلغ به الكبر وخانته قواه ، واحاطوه علما بأن اتفاقية عقدت سنة ١٩٠٦ بين كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا، اعترفت باستقلال اثيوبيا كاملا . الا ان كلا من هذه الـدول احتفظت بحقها بالتدخل لحماية رعاياها في حالة حدوث تطورات وأزمات داخلية ـ وكان المطلعون يتوقعون انهيار اثيوبيا كليا بعد وفاة منليك » ولذلك فقد احتاطت الدول العظمى للامر مقدما . كما أيدت الاتفاقية عزم هذه الدول على عدم التدخل بشؤون اثيوبيا الداخليـة . غير انها ـ اي الاتفاقية ـ احتوت من ناحية اخرى على تلميحات واشارات الى احتمال احداث مناطق نفوذ لهذه الدول .

وكانت مناطق النفوذ ستحدد حسب مصالح هذه الدول والتفاهم فيما بينها . فمثلا بريطانيا يهمها موضوع المياه من النيل الازرق ولذلك فمنطقة نفوذها كانت ستنحصر في حدود بحيرة تانا وحوض النيـل الازرق وروافده الرئيسية . أما بالنسبة لفرنسا فمنطقة نفوذها معروفة وهي الاراضي التي يمر بها خط السكة الحديدية بين جيبوتي واديس ابابا . واما أيطاليا فكانت تحلم دائما بالسيطرة على شريط من الارض يربط اريتريا بالصومال الايطالي لسهولة الاتصال بيـن مستعمرتيها . وتأثر منليك تأثرا بالغا من هذه التطورات التي هـددت فعلا استقـلال بلاده . فلم يرد على هذه الدول الا بعد فترة غير قصيرة . وفي رده الى كل منها كتب ما يلي :

« أحطنا علمـا بالترتيبات التي اتفقت عليها الدول الثلاث . وفي الوقت الذي نشكرهم فيه على ابلاغنا بنواياهم باحترام وصيانة استقلال حكومتنا نود ان يكون معلوما لديهم ان هذه الترتيبات سوف لن تؤثر على او تقيد ما نعتبـره ضمن سيادتنا وحقوقنا المشروعة » .

خصام مع الايطاليين

في فترة الانتقال التي أعقبت وفاة الامبراطور يوحنا الرابع انتهز الايطاليون الفرصة (وهم حلفاء منليك بالامس) لتوسيع رقعة سيطرتهم في البلاد . فنقلوا قاعدة أعمالهم من مينـاء مصوع ـ ذلك الجحيم الارضي ـ الى بلدة اسمرة ذات المناخ المعتدل والهواء العذب ـ ارتفاعها ٧٥٠٠ قدم عن سطح البحر ـ وباشروا باعمارها حتى أصبحت في الوقت الحاضر من أجمل المدن الافريقية تنسيقا . اما منليك فسكت عن هـذا الاعتداء على مضض ، وربما انه تقصد تحاشي الصدام معهم في أول عهده بالامبراطورية ، خشية العواقب . الا انه ازداد وثوقا وقناعة بأن قـد اصبح من غير المجدي خداع النفس بصداقة مدسوسة ظاهرية كاذبة .



ولم يعد يعول بعد على العلاقات القديمة التي جمعته واياهم مصالحهما المشتركة ضد يوحنا . وبالوقت ذاته وجد ان من الحزم تدارك الامور وتحديد موقفه منهم بأقرب فرصة بموجب اتفاقية تعين وتعرّف مصالح الطرفين . وفعلا تمكن في سنة ١٨٨٩ من عقد اتفاقيـة اوتشيالي ، وبموجبها اعترفت اثيوبيا بعائدية مصوع وبعض الاراضي الواطئـة الى الايطاليين .

غير انه سرعان ما نشب خلاف عنيف بين الطرفين حول تفسير المادة ١٧ من الاتفاقية . فقد فسرها الايطاليون انها تعني وضع اثيوبيا تحت الحماية الايطالية (٥) فاستفز هذا التفسير مشاعر منليك وقادته وزعماء البلاد الآخرين ، وأيقنوا انها مناورة ايطالية تستهدف سوءا . فبالنسبة للنسخة المكتوبة باللغة الامهارية تعني هذه المادة « ان اثيوبيا ستتمكن بمساعدة ايطاليا من الاتصال بملوك اوروبا ودولها » . ولم يكن هناك نص خاص يفرض على اثيوبيا عدم الاتصال بملوك اوروبا فيما يتعلق بمصالحها ، بدليل ان منليك خاطب الملكة فكتوريا برسالة مباشرة بعد التوقيع على الاتفاقية .

ومما زاد في تشكك الاثيوبيين من الايطاليين ان الحكومة الاثيوبية احتاجت الى المال بعيد التوقيع على الاتفاقية ، وفاتحت ايطاليا بذلك ، غير ان هذه وافقت على اقراض اثيوبيا مبلغ اربعة ملايين ليرة ايطاليـة بعد ان وضعت اليد على واردات الكمارك في هرار كضمان لسداد القرض .

ان دهاء منليك علمه كيف يكون يقظا وحذرا في التزاماته الدولية ومواثيقه وارتباطاته معالاوروبيين. كما انه بحزمه جمع حولهمستشارين من خيرة رجال البلاد . فبعد اتفاقه مع الانكليز على الحدود الجغرافية لبلاده ، وبناء على تزايد المنافسـة بين الدول الاوروبية في سبيل الحصول على المستعمرات والامتيازات في افريقيـة في أواخر القرن التاسع عشر ، وجه رسالته المشهورة سنة ١٨٩١ الى اكبر خمس دول في اوروبا في زمانـه ، هي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وروسيا ، وهذا نصها (٦) :

« رغبة منا في اطلاع أصدقائنا ملوك اوروبا علىحدود اثيوبيا فقد وجهنا اليهم هذه الرسالة .
هذه هي حدود اثيوبيا :

---

5 — Ethiopia, by Richard Greenfield — pages 166 — 117

٦ ـ النسخة الانكليزية مترجمة عن الامهارية مباشرة وهي محفوظة في مكتب السجلات العمومية في لندن ـ وثائق وزارة الخارجية ١/٣٢ .



يبدأ خط الحدود من نقطـــة ارفالي Arfali الايطالية الواقعة عـلى البحر الاحمر ويسير غربـا باتجاه سهل غيغرا Gegra مارا بالمواقع التالية : Mahio Gura, Digsa, Halai حتى Adibaro

ثم من هذه النقطة الى ملتقى نهر مارب Mareb بنهر اراتد

ومن هذه النقطة يسير الخط جنوبا حتى ملتقى نهر عطبره بنهر ستيت Setit حيث تقع بلدة تومات Tomat

ثم من تومات تمتد الحدود لتضم مقاطعة قضارف حتى كوركاج Korkaj على النيل الازرق . ومن هذه النقطة حتى مصب نهر سوبات Sobat بالنيل الابيض . ومن هنـا يستمر خط الحدود مع مجرى نهر سوبات فيشكل حـدا يضم مواطن قبائل اربوري Arbore وغالا حتى يصل الى بحيرة سامبورو Samburu .

اما من الناحية الشرقية فتقع ضمن حدودنا مواطـن قبائل غالا وبورانا Borana وأصقاع عروسي Arusi حتى الحد الفاصل مع الصوماليين كما وتدخل ضمن الحدود مقاطعة اوغادين Ogaden .

ومن الجهة الشمالية فيحتضن خط الحدود مواطـن قبائل حبر اواس Habr Awaz وغدابورسي Gadabursi وقبائل عيسى الصومالية حتى يصل الى امبوس Ambos

ومن امبوس يمتد الخط ليشمل بحيرة اسال Assal وهي مقاطعة محمد انفاري (وهو من رجالنا القدامى) ثـم يتاخم ساحل البحر حتى يتصل بأرفالي .

ففي الوقت الذي أوضحت فيه معالم حدودنا كما هي حاليا فقد عقدت العزم اذا ما عوفيت وأمد الله في عمـري على استعادة الحدود القديمة وممتلكاتنا حتى الخرطـــوم ولغاية بحيرة نيانزا بما في ذلك مواطن قبائل غالا .

لقد طوى التاريخ اربعة عشر قرنا من الـزمن وأرض اثيوبيا المسيحية محاطة ببحر من الوثنية . اما اذا جـاءت الدول العظمى من وراء البحار بقصـــد غزو افريقية بغية اقتسامها فيما بينها فليس في نيتي الوقوف موقف المتفرج تجاه ذلك . انني أستمد العون من العلي القدير لحمايــة بلادي وأسأله تعالى ان يحرسها ويوسع من رقعتها كما حماها



وحرسها في غابر الازمان وان يصد عنها مطامع الغزاة من الدول العظمى كي لا تقع فريسة الاقتسام .

كانت حدود اثيوبيا في سالف عصرها تمتد حتى البحر . ولكن ضعفنا وعدم مساندة الدول المسيحية لنا أفقدانا ساحل البحر الذي اضحى الآن في قبضة المسلمين.

اننا لا نفكر حاليا باستخدام القوة لاستعادة الساحل المغتصب . الا ان املنا عظيم بأن قوة المسيحية برعاية الباري عز وجل الكفيلة باعادة حدودنا لنا او بعض المواقع الساحلية على أي حال .

كتب في اديس ابابا في ١٤ مازير سنة ١٨٨٣ (بالتقويم الاثيوبي) المصادف ١٠ نيسان (ابريل) سنة ١٨٩١ » .

لقد كان لهذه الرسالة صداها في المحافل الاوروبية . فهي أول صوت سمع لزعيم افريقي بهذه اللهجة المتقدة (النصف الاخير من الرسالة) المشحونة عزما وتصميما ، خاصة تلك العبارة التحذيرية الصريحة ـ « اما اذا جاءت الدول العظمى من وراء البحار بقصد غزو افريقية بغية اقتسامها فيما بينها فليس في نيتي الوقوف موقف المتفرج تجاه ذلك » .

الا ان موقف الكنيسة القبطية معه في تلك الفترة لم يكن مشجعا. ففي الوقت الذي حصل فيه منليك على تأييد محلي منقطع النظير بصدد سياسته الخارجية حتى من الكثيرين من خصومه الذين عاهدوه بالوقوف الى جانبه صفا واحدا بوجه التهديدات الايطالية التوسعية ، كانت الكنيسة بطيئة التجاوب معه او حتى غير مكترثة تقريبا في تقبل مبدأ محاربة الايطاليين بسبب وحدة الدين . فالجمود الفكري الذي تميز به رجال الدين لم يفتح اذهانهم لتصور الخطر المحدق باستقلال البلاد حسب مرامي الاستعماريين المسيحيين .

معركة عدوه

تمادى الايطاليون في غيهم وبتحرشهم واستفزازهم للاثيوبيين وذلك عن طريق احتلال مزيد من الاراضي لتوسيع نطاق مكاسبهم قبل ان تقوى شوكة منليك في ارجاء الامبراطورية . فأمر الجنرال باراتييري Baratieri القوات الايطالية باحتلال عاصمة الشمال المقدسة اكسوم . فكان لذلك الغزو رد فعل سيء لدى الاحباش خاصة مواطني اقليم تيغره أنفسهم . ومضت القوات الايطالية في زحفها فاحتلت اديغرات Adigrat ثم عدوه وأخيرا استولت على مكالي Makalle عاصمة اقليم تيغره . فتم لهم بذلك اخضاع الاقليم كله تقريبا .

اما الجانب الاثيوبي فقد أعد عدته لمواجهة هذا التحدي ، فحشد الجيوش تمهيدا لمقارعة القوات الايطالية المحتلة . وتوجه منليك بنفسه



الى الشمال للاشراف على العمليات الحربية يصحبه اربعة او خمسة من الرؤوس (الامراء) الذين رافقوه في حروبه السابقة وشهدت لهم الايام بالتحلي بالجندية الاصيلة . والتقى الجيشـــان في موقع يقال لـه « عدوه » (٧) في اليوم الاول من آذار (مارس) ١٨٩٦ . وكان الجيش الايطالي قد دخل المعركة بثلاثة ارتال كل واحد منها بقيـادة جنرال . الا ان الاحباش استبسلوا واستماتوا فيساحة الوغى فسحقوا القـوات الايطالية لدرجة تقارب الابادة في معركة تعتبر من اكبر ما دار من معارك في كل القارة الافريقية .

يروى ان الاحباش مهدوا للنصر الذي أحرزوه بخدعة حربيـــة طريفة دبرها ورسم خطتها الرأس عاوله احد كبار قادة منليك . ولولا هذه الخدعة لما حل ما حل بالجيش الايطالي من نكبة على الرغم من قوة تجهيزاته وأسلحته الفتاكة ، وما كان ليلقى ذلك المصير المزري . فقـد صادف اليوم الاول من آذار (مارس) يوم زيارة القديسة مريم فـــي اكسوم ، وهي من أهم وأقدس الزيارات التي يتفـــاءل بها الاحباش . وتمكن الرأس علوله من اشاعة خبر كاذب بين الايطاليين مفاده انالجيش الاثيوبي سيكون في أضعف حالاته في ذلك اليوم لان معظم أفراده سوف لا يحاربون بل سيشدون الرحال الى اكسوم لوفاء هذه الزيارة .

فاستهان الايطاليون بالقوات الاثيوبية علىانها ستكون غير مستكملة العدد والعدة . فما ان بادر الايطاليون بهجومهم على الجبهة الرئيسيـة حتى داهمهم الاحباش من مخابئهم الجبلية بأعداد هائلة والتفوا منحول القوات الايطالية وضربوا حصاراً عليها وأعماوا فيها السيف على حيـن غفلة منها . وسرعان ما وقعت البلبلة فيمن تبقى في صفوف الايطاليين وأحرز الاحباش في هذه المعركة انتصارا كاسحا لم تقم للايطاليين بعده قائمة . وفي هذه المعركة فقد الجنرالات الثلاثة ارواحهم لشدة وضراوة الهجوم الاثيوبي . اما الجند فخرّوا صرعى بالآلاف بسيوف الفرسان. ولا يتحدث التاريخ الاثيوبي الحديث عن نصر بموقعة حربية باعتـــزاز اكثر من معركة « عدوه » . والى جانب تمجيد بطولات هذه المعركة كان هناك اناس اشتركوا فيها وعاشوا احداثها وخاضوا وحشية مذابحها ، بقوا أحياء لوقت قريب ، يذكرونها بمرارة ويأسفون لان آلاف المسيحيين من كلا الجانبين قتلوا بعضهم بعضا .

واذا كانت هناك كلمة ختامية حول النتائج البعيدة المدى لمعركـــة « عدوه » ، فمما لا ينكر انها تعتبر الحدث الذي ثبت اسم اثيوبيا عـلى خارطة العالم . وعلى اثر ذلك اعترفت بها الدول كقـوة سياسية ذات

---

7 — The Real Abyssinia, by C. F. Rey — page 151.
Ethiopia, by Richard Greenfield — pages 122 — 124.



كيان لا يقهر . واثيوبيا هي اول قطر افريقي يدحر دولة اوروبية معظمة جاءت لغزوه .

نهاية منليك

أخذت صحة الامبراطور فيأواخر أيامه تعتل وتتدهور ، وعلى وجه التقريب بمستهل عام ١٩٠٧ بسبب متاعبه الكثيرة التي أشغلته منذ نعومة اظفاره ، وكذلك بالنظر للجهود المتواصلة التي بذلها في سبيل تطوير بلاده ، ناهيك عن الحروب المنهكة التي خاض غمارها منذ توليه عرش اقليم شوا سنة ١٨٦٥ . اما المشاكل السياسية ، الداخلية منها والخارجية ، فقد أوهنت قواه ونشاطه . فلما اوشك عام ١٩٠٧ على الانتهاء وهو لما يزل طريح الفراش وحالته الصحية تزداد سوءا ، بل وتنذر بالخطر ، دعا اليه وزراءه وكلفهم بتحمل بعض مسؤولياتهوممارسة صلاحياته اللازمة لتصريف شؤون الدولة لكي يخلد هو الى الراحة . واستمرت حالته بالتدهور حتى أصيب بشلل تام تقريبا سنة ١٩٠٨ . وظل طريح الفراش وهو شبه ميت من ١٩٠٨ حتى ١٩١٣ عندما فارق الحياة . فجاءت اصابة منليك بهذا الداء العضال انتكاسة وخيمة لآمال البلاد في التقدم والازدهار على عهد هذا الامبراطور الفذ . وعندما استمر مرضه اخذت الاحوال الداخلية تسوء ايضا وتلبدت السحب الكثيفة في سماء السياسة الخارجية . ولم يكن احد ليعرف كيف ان البلاد ستخرج من هذا المأزق الحرج ، فيما وقفت دول اوروبا ترقب الاحداث باهتمام زائد .

وكان المطلعون على احوال اثيوبيا قد تنبأوا باحتمال تفجر الوضع عن انقسامات داخلية خطيرة ترجع بالبلاد الى حالة مخيفة من الفوضى والتردي . وعلى صعيد الدوائر الخاصة في بلاط الامبراطور بدأت المكائد والدسائس تعمل عملها في خلق التكتلات داخل البلاط وبين أفراد العائلة المالكة والنبلاء المتنفذين ، وفي مقدمة الجميع الامبراطورة تايتو Taitu زوجة منليك ذات النفوذ الواسع . ومعلوم ان الامبراطورة لم تنجب ذرية لمنليك .

وهنا برزت المشكلة الحقيقية ـ من سيخلف منليك بعد وفاته ؟ اما منليك نفسه فقد تردد بالاعتراف بابنته زاوديتو Zauditu لتخلفه على العرش بسبب امها التي لم تكن من النبلاء بل كانت ابنة رجل عادي من قبائل (واللو غالا Wallo Galla) المسلمة . فأشار عليه القساوسة بالعودة بذاكرته الىالماضيالبعيد فلعله يتذكر مولودا او مولودة من علاقات نسائية سابقة . عندئذ تبين ان كان له ابنة في اقليم هرار اسمها شوا ريفا مات زوجها الاول دون ذرية وكان زوجها الثاني الرأس ميخائيل الزعيم القوي المتنفذ . ولا بد من الاشارة الخاطفة هنا بأن



الراس ميخائيل كان في الحقيقة « الامام محمد علي » الذي اجبره يوحنا الرابع على التنصر كما أسلفنا في موضوع سابق . وكانت قد انجبت منه ولدا اسمه ليج اياسو .

فلما لم يجد منليك أقرب من ليج اياسو (ومعنى الاسم بالامهارية قلب يسوع) تحت هذه الظروف من يخلفه على عرش اثيوبيا ، لذلك جمع رجال الدين والنبلاء ليعلن لهم قراره باسناد ولاية العهد الى حفيده (من احدى بناته) ــ ليج اياسو البالغ من العمر اثني عشر عاما . واوصى بأن يكون هذا الصبي تحت رعاية الاساقفة والرؤوس حتى يبلغ اشده . كما عين مقدما قائده القديم المخلص الجنرال تاساما Tassama (٨) وصيا على العرش . الا ان هذا القرار بتعيين تاساما وصيا على العرش قد اغضب الامبراطورة تايتو التي كانت نفسها تصبو لان تصبح هي الوصية لهذا المركز الحساس . وكانت هي وعدد آخر من النبلاء لم يرق لهم ترشيح ليج اياسو للعرش بسبب انحداره من اب (الراس ميخائيل) كان في الاصل مسلما ،والولد أيضا نشأ في بيئة مسلمة تقريبا في هرار . ومن المعروف ايضا ان قرار منليك هذا جاء عندما اشتد المرض به ولكن قبيل أن يفقد قابليته على النطق .

دسائس حول فراش الموت

كانت الامبراطورة تايتو أبرز شخصية بين أفراد العائلة المالكة ذكاء وقابلية . وكان لها من قوة الشخصية وسداد الرأي ما جعلها تتدخل في كل صغيرة وكبيرة في شؤون البلاد السياسية وغيرها . فلما شعرت بخيبة الامل نتيجة تعيين الجنرال تاساما وصيا على العرش ــ المركز الذي كانت تتأمل أن تظفر به ــ وانها ستفقد الكثير من سطوتها ونفوذها السابقين في الفراغ الذي حصل اثر تعيين وصي غيرها على العرش ، لجأت الى استخدام قابلياتها وطاقاتها في الدس وحبك المؤامرات . وغدت المحور الرئيسي الذي تنبثق منه النزاعات والخلافات على الحكم داخل البلاط وخارجه . وقد يكون من المفيد الاشارة الى انها ايام مجدها ونفوذها كانت قد عينت معظم ذوي قرباها في اعلى المناصب في الديوان الملكي وخارجه . كما زوجت زواديتو ابنة الامبراطور لابن اخيها . وبهذه الاساليب صارت كلمتها مسموعة في كل مكان ولا يرد لها طلب .

كانت تايتو شخصية خطرة للغاية ازاء خصومها ، ولذلك كان يهابها الجميع . وكانت امرأة ضخمة الجسم أقرب في شكلها الى الرجال منها الى الجنس الناعم . وتتصل بنسبها الى العائلة المالكة القديمة في غوندار

8 — The Real Abyssinia, by C. F. Rey — page 218.



ولذلك لم تكن على وئام تام مع نبلاء شوا . تزوجت خلال حياتها سبع مرات قبل اقترانها بمنليك الذي أصبح الزوج الثامن . وعندما كانت في عصمة زوجها الثالث ـ وكان من أغنى وأقوى الارستقراطيين الشماليين ـ حاولت قلب نظام حكم الامبراطور يوحنا الرابع ، اذ أقنعت زوجها بتدبير ثورة داخلية ضده ولكن مساعيها باءت بالفشل. وانكشفت مكيدتها فاضطرت للهروب لكي تسلم من القصاص . فاختفت عن الانظار زمنا عن طريق زواجها من جندي عادي (الزوج الرابع) عاشت معه عيشة بساطة وكفاف تخلصا من عاقبة مؤامراتها . وسرعان ما تركت زوجها عند تبدل الظروف لتتزوج من رجل آخر أعلى منه شأنا وأحسن حالا ، حتى انتهى بها المطاف لتصبح سيدة اثيوبيا الاولى في قصر منليك الثاني .

ان صفحات تاريخ اثيوبيا الحديث لتشهد ما جلبته هذه المخلوقة من ويلات ونكد لكثير من البشر ، ومن أزمات ومشاكل أضرت بالبلاد خاصة بعد اعتلال صحة زوجها الامبراطور وحتى بعد وفاته . وكان بينها وبين ليج اياسو ولي العهد نفور شديد بسبب نسبه كما ذكرنا . ولما بلغ السيل الزبا بسبب الكوارث التي جاءت نتيجة لسوء تصرفاتها ، عندئذ تدخل النبلاء البارزون بالامر لوقفها عند الحد المعقول وذلك باعلان تأييدهم المطلق للوصي الجنرال تاساما . غير ان المنية لم تمهله طويلا حتى أدركته فتوفي سنة ١٩١١ لسوء طالع ولي العهد . فتأزم الوضع الداخلي لافتقار البلاد الى رجل يمسك بزمام الامور ، والامبراطور ما زال حيا يصارع الموت وهو بلا حياة . عندئذ اجتمع الوزراء فقرروا ان يتسلم ولي العهد مسؤولية الحكم ، اذ بلغ الآن السادس عشرة من عمره .

مضت الايام ولم يهدأ بال الامبراطورة تايتو . فدأبت تعمل لنقل الملك من اقليم شوا الى سابق عهده في الشمال ـ الى قصور غوندار . فتنبه لذلك نبلاء شوا الذين استفزتهم محاولاتها الاخيرة ، وخاصة كان من بينهم الرأس تفاري (الذي أصبح بعدئذ الامبراطور هايلا سلاسي الاول) ابن الرأس ماكونين الحاكم العام السابق لاقليم هرار وأحد قادة منليك المبرزين . فالرأس تفاري أعلن اتصال نسبه بالسلالة السليمانية اثباتا لأحقيته بالملك . ومن طرف خفي فقد أثارت الكنيسة الحبشية المخاوف والشكوك من اعتلاء ليج اياسو العرش بسبب نسبه . فقد اشاعت بأن هذا الشاب قد ربي وترعرع تحت تأثير أقربائه المسلمين . وكما ذكرنا فان والده الرأس ميخائيل ذا النفوذ الواسع كان مسلما وتنصّر تخلصا من اضطهاد يوحنا الرابع للمسلمين . وبهذا لعبت الكنيسة دورا خطيرا في تأليب القلوب ضد الامبراطور المرشح ، واتخذت



موقف الشك من انتماء ليج اياسو لدين البلاد الرسمي ، الامر الـذي جلب على البلاد ويلات استمرت سنين طويلة كما سنرى .

وازاء هذا الموقف من الكنيسة وبعض نبلاء شوا فقد وقف الراس ميخائيل الى جانب ولده ليج اياسو للمحافظة على حقوقه وضمان ارتقائه العرش . ومن أجل تقوية جبهته ومركزه فقـد دخل في أحلاف قبلية جديدة استهدف من ورائها احـداث تحالف قوي بين قبائـل غالا والمسلمين . فخطب ود قبائل ياجو Yajju وتقرب من المسلمين فـي شرقي اثيوبيا ـ هرار وما جـاورها ـ ولكن جهوده لم تكلل جميعها بالنجـاح بسبب معارضة ماكونين له ، وهو صاحب النفـوذ القوي في هرار .

الا ان هذه المعارضة زالت بوفاة ماكونين . ومما زاد في تألق نجم الرأس ميخائيل وفاة الوصي عـلى العرش ، الجنرال تاساما ، سنة ١٩١١ . ثم جاءت اللحظة الحاسمة بوفاة منليك نفسه سنة ١٩١٣ حيث وضع الامبراطور الشاب ليج اياسو كل المنـاطق الشرقية تحت حكم والده عن طريق تعيينه ملكا على اقليمي واللو Wallo وتيفره . وفي سنة ١٩١٤ أدخـل اقليمي غوجام Gojam وبيغمدير Begemdir ضمن سلطان والده ايضا فأصبح أقوى شخصية بعد الامبراطور .



الفصل السادس عشر

ليج اياسو (١٩١٣-١٩١٦)
الملقب بالامبراطور المسلم

لا يذكر التاريخ الاثيوبي في كافة أدواره ، القديمة منها والحديثة ، قصة عن امبراطور من أباطرتها أو ملك من ملوك أقاليمهـا رافق ظروف ترشيحه وتنصيبه سوء الطالع والغموض السياسي بقدر ما تمثـل في تنصيب وخلع الامبراطور الشاب ليج اياسو (أو ليج ياسو) . فهو قبل كل شيء لا يحسد لانه جاء خلفا لرجل مثل منليك ، قلما يذكر تاريـخ هذه الامة صنوا له . فكان يعتبر من ادهى وأعظم ساسة اثيوبيا وهو باني مجدها الحديث . فالفراغ الكبير الذي أحدثه فقدان منليك كان يجب سده برجل آخر من نفس مستواه قدر ما أمكن ، لمنع حدوث نكسـة سياسية كالتي حصلت بسبب اسناد العرش لصبي قاصر غير مجرب رسمت منذ اللحظة الاولى بعد توليه هالة من الشبهات والمخاوف لشتى الاسباب ، وحبكت في طريـق مسيرته شبـــاك الاطماع والدسائس والحزازات الاقليمية والدينية .

وأخيرا نحي عن العرش وسط ظروف ما زال الغمـوض يحيط بعض جوانبها الى اليوم .

عود الى الخصومات الدينية

قدمنا ان نبلاء شوا ، تساندهم الكنيسة الحبشية ، لم يرتاحـوا لنبأ اعتلاء ليج اياسو العرش بعد وفاة منليك سنة ١٩١٣ وذلك مخافة ان يجره نسبه الاسلامي القديم الى محاباة الاسلام واعادة انتشار ظـله ونفوذه الى سابق عهده . الا ان أحدا لم يجرؤ على التصدي للامبراطور منليك والاعتراض على قراره في حينه نظرا لما كان يتمتع به هذا الرجل من قوة الشخصية والحزم . أو لعل نبلاء شوا وجدوا في ترشيح غلام



قاصر للتربع على العرش فرصة مؤاتية لنيل مطامعهم الشخصية فسكتوا منتظرين ساعة أجل ذلك الشيخ الممدد على فراش الموت . وقد بات واضحا ان كفاح هذا الشاب سيكون مريرا وشاقا بعد ان دخل في صراع مكشوف مع أقوى قاعدتين في صرح التراث الحبشي ـ النبلاء الاقطاعيون الجبابرة والكنيسة الحبشية .

وطفقت الاشاعات الموجهة تحاك وتذاع بين الناس عن سوء سلوك الامبراطور الجديد وتصرفاته الصبيانية تارة وعن اصابته بالعته والجنون تارة اخرى . وكذلك تضاربت الآراء واختلفت الاشاعات عن مدى ميوله نحو الاسلام أو ربما اعتناقه له كما ذهبت اليه بعض المصادر . وبلغت التقولات درجة من البعد عن الواقع والمعقول حتى دخلت حدود القصص الخيالية . فطمست الحقيقة في مثل هذا الجو وضاع الواقع . فقد جاء في بعض الروايات انه لفرط اتجاه ليج اياسو نحو الاسلام فقد كلف الفقهاء المسلمين لدراسة نسبه فأثبتوا اتصاله بالرسول (1) ولعل مرد هذه الحكاية ما هو معروف عن الاسرة المالكة في قبائل واللو غالا Wallo Galla المسلمة التي كان يتزعمها والد ليج اياسو (الامام محمد علي) التي تدعي انحدارها من أصل عربي . فهذه القبائل تزعم بأن جدهم الاول قدم من ايران وان أسلافهم كانوا يحملون لقب « الشريف » . ولعل هذا اللقب هو المفتاح الذي توصل بواسطته الفقهاء ـ ان صحت الرواية ـ الى ربط نسبهم بالرسول . هذه واحدة من عشرات القصص والاشاعات التي ملأت المجتمع الاثيوبي بغية تأليب قلوب الناس على الامبراطور .

قد تكون هذه الاشاعة ـ وكثير غيرها ـ صحيحة وقد تكون ملفقة وموضوعة ، ولكن هناك حقيقتان ثابتتان لا يمكن انكارهما بصدد سلوك ليج اياسو في حياته العامة خلال هذه الفترة . أولاهما هي انه فعلا أظهر تعاطفا وميلا نحو الاسلام منذ البداية . وقد ثبت ذلك من تشجيعه لبناء بعض المساجد في هرار ـ مركز التجمع الاسلامي القديم . والحقيقة الثانية هي انه طيلة أيام حكمه ، وحتى بعد خلعه عن العرش ، لم يتنكر للكنيسة لا من قريب ولا من بعيد . وبرأينا فتشجيع بناء المساجد أمر لا يمكن مؤاخذته عليه او اعتباره تنصلا عن دينه . وقد تكون هذه المساجد هي بعض ما دمر منليك في حملاته السابقة فاستأذنه أهل هرار باعادة بنائها بمناسبة وجوده في تلك المدينة . ولكن على ما يبدو فان الكنيسة أزعجها اقدامه على هذا العطف نحو أهل هرار فزادت من ملابسات القضية .

---

1 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 138.



حكم يخنق في المهد

أشرنا فيما سبق الى ان قصة تنصيب ليج أياسو وتنحيته عن العرش مرت في سماء السياسة كالبرق الخاطف ، لعب في تنفيذ أدوارها أبطال كثيرون . كما قد ذكرت أسباب كثيرة ومتضاربة في تفسير هبوب عاصفة المعارضة لارتقاء هذا الامبراطور عرش البلاد . ولكن العاصفة لم تتناول شخص الامبراطور فحسب بل جرت البلاد الى حروب داخلية وانقسامات أقليمية ودينية مؤسفة أوشكت أن تقضي على كيانها من أساسه . فالامبراطورة تايتو وحزبها استغلت الظروف لتضرب على وتر اعادة الملكية الى الشمال ، يخالفها في ذلك الرأس تفاري ومؤيدوه . بينما من الناحية الثانية بذلت الكنيسة والبعثات الدبلوماسية للدول العظمى نشاطا محموما في سبيل القضاء على حكم ليج اياسو في مهده . وعلى كل حال فمهما تعددت الاسباب وتفرعت الروايات والاجتهادات فبالامكان حصرها جميعا في أربعة أسباب رئيسية هي :

اولا — وقوف الكنيسة ضده بسبب تخوفها من نسبه الاول . وقد جاهرت في ارتيابها من صحة تنصر والده الرأس ميخائيل (الامام محمد علي قبل التنصر) واعتبرت قبوله النصرانية دينا انما سببه الخوف على حياته وعدم رغبته في فقدان مركزه الاجتماعي والسياسي المرموق . كما اتخذت من تقربه لافراد عشيرة واللو غالا المسلمة اشارة لعزمه على اذكاء الروح الاسلامية والرجوع الى الحروب التي أشعلها من قبله الامام احمد بن ابراهيم الغازي .

سبق وأشرنا في الفصل الخاص بالكنيسة الى نفوذها الواسع كيف انها عزلت أثنين من الاباطرة لميولهما نحو المذهب الكاثوليكي ، وهما زا دينغل Za Dengel وسوسنيوس Susneyos وكلاهما حكم في أوائل القرن السابع عشر . وقد مارست نفس القوة والنفوذ باقصائها ليج اياسو عن العرش . ويذكر انها خاصمت الامبراطور ثيودور ذلك الطاغية الجبار لعدم خضوعه لها كغيره من الاباطرة . وغضب الكنيسة كان من أقوى الاسباب التي أفقدته شعبيته .

ثانيا — وقوف الدول الاوروبية العظمى موقفا صلبا ضده لتقربه من الالمان والاتراك العثمانيين (٢) واعتبرت ذلك — وخاصة بريطانيا — تهديدا لمصالحها في شرق افريقية ومنطقة البحر الاحمر وعملت اقصى ما في وسعها على تقويض دعائم حكمه . اما تقرب الالمان الى الامبراطور ليج اياسو فله أسباب وجيهة بالنسبة لمصالحهم . لان المانيا كانت الدولة

---

2 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham — page 130.
Inside Africa, by John Gunther — page 263.



الاوروبية الوحيدة قبل الحرب العالمية الاولى التي لم يكن لديها سوى مستعمرة واحدة وهي طنجنيقا (تانزانيا حاليا) . فمن البديهي ان ينتهز الالمان هذه الفرصة النادرة للحصول على موطىء قدم آخر أو على الاقل منطقة نفوذ في اثيوبيا . ومن أجل ذلك دخلت في مفاوضات معه (أي مع ليج اياسو) لارسال الخبراء والاسلحة ، الامر الذي اقض مضاجع الدول الاخرى (الحلفاء) . ويعتبر هذا العامل حقيقة اهم العوامل التي أطاحت بالامبراطور الشاب . وتواترت الاخبار ـ نظرا لنشاط الحملة الدعائية الانكليزية ضد الامبراطور ـ وذكر بعض الكتاب والمراقبين ظهور الكولونيل لورنس T. E. Lawrence في اثيوبيا باعتباره خبيرا بأمور الدعاية والدس . ومعلوم ان لورنس هذا لمع اسمه في احداث ثورة الشريف حسين في الحجاز ضد الاتراك ابان الحرب العالمية الاولى .

ثالثا ـ تكتل نبلاء اقليم شوا وتجهيزهم الجيوش التي زحفت على العاصمة واحتلتها ، سعيا وراء ابقاء الملكية محصورة فيهم ـ في اقليم شوا .

رابعا ـ ارتقاء ليج اياسو عرش البلاد وهو قاصر لم يقو على مجابهة المكائد والدسائس التي عصفت بوجهه . ومما زاد الطين بلة اظهاره ميوله للاسلام بشكل سافر خال من الدبلوماسية الحكيمة . فساعد بذلك خصومه على محاربته بأسلحة عديدة وبوقت مبكر .

أخيرا اضطر الامبراطور الجديد ازاء تكتلات نبلاء شوا والكنيسة ضده للبحث عن المساعدات الحربية من قبائل والده وحلفائهم في الشمال الغربي ، وكذلك من القبائل الشرقية في منطقة هرار . وفي هرار والدناقل تزوج ببنات بعض الزعماء المسلمين لتوثيق روابطه معهم عن طريق المصاهرة . ثم تزوج ابنة (ابا جعفر) (٣) سلطان مملكة جيما في الجنوب الغربي من البلاد . بعد ذلك زار منطقة اوغادين Ogaden وبلدة جيفجيفا بالقرب من الحدود الصومالية . وقرر ان يجهز جيشا يسير به شمالا عبر صحراء الدناقل ومن هناك يزحف بالاتفاق مع جيوش والده نحو اديس ابابا .

الزحف على العاصمة وخلع الامبراطور

بعد ان أتم نبلاء شوا استعداداتهم الحربية زحفوا على العاصمة وكانت الكنيسة على علم مسبق بذلك . ولما اكتمل نصاب النبلاء والزعماء في اديس ابابا عقدوا مؤتمرا وطنيا دعوا لحضوره مطران الكنيسة الحبشية (أبونا ماتيوس) بحثوا خلاله حالة الشعب بعد خروج الامبراطور عن دين البلاد الرسمي وتحالفه مع الاعداء بل واعتناقه

---

3 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham — page 130.

دينهم . وطلبوا منه ان يجعلهم في حل من يمين الولاء له . كما طلبوا منه اصدار الفتوى بحرمانه من الانتساب للكنيسة القبطية الحبشية . وفيما يلي ما كتبوه للمطران :

« برىء رقابنا من الولاء للامبراطور لاننا لن نخضع للاسلام . ولا يمكننا تسليم بلادنا للاجنبي عن طريق الاساليب الخبيثة التي يمارسها ليج اياسو ويقود مملكتنا الى الدمار » (٤) .

وفي ٢٧ ايلول (سبتمبر) ١٩١٦ صدر القرار بخلع الامبراطور . واعلن ابونا ـ اي المطران ـ تنصيب الاميرة زاوديتو ابنة منليك الثاني امبراطورة على اثيوبيا ، على ان يكون الرأس تفاري (بعدئذ الامبراطور هايلا سلاسي الاول) ابن الرأس ماكونين وصيا على العرش ووليا للعهد. وتم تتويج زاوديتو امبراطورة في كنيسة القديس جورج في اديس ابابا في ١١ شباط (فبراير) ١٩١٧ . والامبراطورة الجديدة لم تكن من ذوي الميول السياسية ، كما ولم تتميز بالذهن النابه المتوقد . فقد تفرغت في سني حياتها الاخيرة بكليتها للعبادة والصيام وزيارة الاديرة . وكانت تجد في ذلك متعة وارتياحا نفسيا اكثر مما تجد في مناقشة الوزراء في شؤون الدولة . ولذلك اختير لها ثعلب ماكر للوصاية وهو الرأس تفاري.

وتمهيدا لخلع الامبراطور فقد استغل أعداؤه غيابه في المنطقة الشرقية فصعدوا حملة الدعاية ضده . فبذلت سفارات الحلفاء والكنيسة جهودا وأموالا سخية لترويج الدعاية المضرة بين ابناء الشعب ضد هذا الامبراطور المنكود الحظ . وهنا كان للرهبان والقساوسة دور مهم في الارياف . فقد أشاعوا بين مختلف الطبقات ان ليج اياسو أهدى القنصلية التركية في اديس ابابا علما عليه الهلال وشهادة « أن لا اله الا الله » وهذا بالاضافة الى العشرات من هذه الاعلام التي وزعها على مشايخ القبائل الاسلامية (٥) . ثم وزعت الكنيسة والسفارات المذكورة آلاف الصور التي اظهروا فيها ليج اياسو ، وهي تحمل عبارات مسندة اليه بأنه ضد المسيح . كما أظهروه في بعضها في مظاهر قبيحة منافية للاخلاق طبعت في مطبعة صغيرة يملكها ارمني اسمه ليون . وقد تجدر الاشارة هنا الى وجود جالية أرمنية كبيرة في اديس ابابا نزحت الى اثيوبيا واستوطنت فيها على اثر المذابح الارمنية في تركيا قبيل الحرب العالمية الاولى. وهذه الجالية تتعاطى التجارة وصياغة الذهب والفضة بصورة رئيسية .

ليج اياسو بعد خلعه

لقد بلغ قلق الاوساط المسؤولة والهيئات الدبلوماسية من وجود

---

٤ ـ نفس المصدر ـ صحيفة ١٣١ .

٥ ـ نفس المصدر ـ صحيفة ١٣١ .



الامبراطور المخلوع في محيط اسلامي في المناطق الشرقية ، وتسيب أمور الدولة واضطراب احوالها درجة أصبح يخشى معها افلات زمام الامور نهائيا . فقامت عندئذ البعثات الدبلوماسية في اديس ابابا بتحذير المسؤولين في العاصمة من مغبة استمرار التسيب وعدم الاستقرار فترة أطول . وعلى اثر هذا التحذير الذي كان بمثابة احتجاج من اعضاء السلك الدبلوماسي الاجنبي على فقدان شبح الحكومة التي يمثلون بلادهم فيها تقرر ارسال وفد كنائسي الى ليج اياسو في مقره في هرار لكي يلفت نظره الى خطورة عواقب السياسة الدينية التي ينتهجها فلعله يرعوي . ولكنه ردهم على أعقابهم خائبين دون التوصل الى نتيجة معه . ثم التقى بأسقف هرار وبعض القساوسة وأقسم لهم الايمان انه باق على مسيحيته ولم يتغير لا قلبا ولا قالبا على الرغم مما أذيع ضده من الدعاية المغرضة المسمومة ، وبغض النظر عن العلاقات الطيبة التي تربطه بالعالم الاسلامي .

فلم يمض زمن طويل على اجتماعه برجال الدين هؤلاء حتى بلغه عن زحف قوات معادية قادمة من اقليم شوا جندها بعض زعماء الاقليم وانها رابطت خارج مدينة هرار استعدادا لغزوها . فروع ليج اياسو لهذا النبأ . وكان الراس تفاري ، أحد أركان حركة التمرد البارزين ، قد طير برقية من اديس ابابا الى حاكم هرار يوم ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩١٦ أي بعد يوم واحد من خلع الامبراطور ، يأمره فيها بالقاء القبض على ليج اياسو وسجنه (٦) . الا ان هذه البرقية وجدت طريقها اليه قبل الحاكم بواسطة موظف البريد المسؤول . ولما أطلع ليج اياسو على مضمونها تملكه الغضب لبلوغ الامر الى هذا الحد . فلما جاءه الحاكم لتنفيذ ما أمر به قام اليه — وكان ليج اياسو معروفا بضخامة جسمه وقوة عضلاته — ورماه ارضا . وبعد أن أهانه بأقسى الالفاظ دفع به الى السجن . وفي الوقت ذاته بعث قوة من عساكره لملاقاة الجيش الزاحف والتصدي له . غير انها لم تتمكن من صده وباءت محاولاتها لوقف زحفه بالفشل .

فلما ادرك ليج اياسو انه على غير استعداد للدخول في حرب مع القوات الغازية بما كان بين يديه من المحاربين المتطوعين ، استدعى زعماء القبائل التي هرعت لنجدته ونصحهم بالعودة لديارهم لاعداد قواتهم المحاربة بشكل أفضل والوقوف على أهبة الاستعداد انتظارا لاشارة منه . اما هو فغادر المدينة بمفرده ممتطيا صهوة جواده ومتسلحا برمحه ، ثم تبعه نفر من خاصته ومؤيديه لا يتجاوز عددهم المائة . فلما بلغ باب السور حياه الحرس بالطريقة التقليدية المتبعة وهي الانبطاح على الارض . ولما اصبح الركب خارج السور مر بمفرزة من القوات المعادية ، استلقى

---

6 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 139.



أفرادها على الارض اجلالا للامبراطور السابق . وبعد بضع ساعات من مغادرته للمدينة دخلتها القوات المعادية فعبثت فيها واشاعت الرعب بين الاهالي بعد أن أعملت السيف بالكثير منهم .

اما زعماء شوا فقد ازدادوا حيرة وقلقـــا من توغل الامبراطور المخلوع داخل المناطق الاسلامية . ولم يكونوا بغافلين عن التحشدات التي تقوم بها القبائل الموالية لابيـــه الرأس ميخائيل ، ولا عن عزمه بالزحف بقواته والقبائل المتحالفة معه نحو العاصمة . وباتوا يخشون رزوح البلاد تحت طائلة الحروب الداخلية التي ستجلب معها الدمار المحتم . وقـد ناشده بعضهم بشأن استخدام مختلف الوسائل لاقناع ولده بالاستسلام خدمة للمصلحة العامة . الا ان الملك العجوز لم يأبه لذلك اذ خشي ان يكون في الامر مكيدة . وقلما خلت علاقات زعماء اثيوبيا بعضهم ببعض من المكائد والغدر . وكان لكل بعثة دبلوماسية أصدقاؤها من بين الزعماء ـ وهي الحال السائدة في كل البلاد والظروف . فانتهز الفرصـة بعض الذين لهم دالة على السفارة الفرنسية وطلبوا منها ان تمدهم بالســلاح استعدادا لمجابهة الرأس ميخائيل . فاستمهلتهم بعض الوقت ريثمـا تجري الاتصالات اللازمة .

تايتو تعد المصيدة للرأس ميخائيل

وبينما الجميع ينتظرون اشارة من السفارة الفرنسية عن وصول الاسلحة ، وفيما تمر الايام بصالح الرأس ميخائيل وهو يعد قواتـه للزحف على العاصمة ، جاءتهم الامبراطورة السابقة تايتو ـ ارمـلة منليك ـ التي تتخذ من الدس واثارة الفتن هواية لها ـ بفكرة جهنمية لخداع الرأس ميخائيل قبل أن يتم اعداد جيوشه . والفكرة هي ان يرسل له خطاب ينبئونه فيه ان ليج اياسو وقع أسيرا وهو الآن في قبضـة قوات اقليم شوا . وقالت لهم انه عند سماعـه بهذا النبأ المفـزع فسيستعجل بالزحف على العاصمة قبل اكتمال عدته الحربية وعندئذ ستتغلب عليه قوات شوا . وهذا هو ما حصل فعلا . فعندما زحف على العاصمة على غير استعداد كامل ـ تحت تأثير الغضب ـ على الرغم من تحذير ولده اليه من خطر الوقوع في شرك الاعداء ، وعلى الرغم ممـا عرف عنه هو من دهاء وحزم ، ندم ولكن لات ساعة مندم .

فلما بلغ الرأس ميخائيل الموقع الذي رابطت فيـه قوات شوا للدفاع عن العاصمة ، لم يلبث بعد مناوشات طفيفة ان وجد نفسه مطوقا من كافة الجهات ، فوقع في الاسر مع كبار مساعديه واعوانه . واقتيدوا الى العاصمة مكبلين بالاغلال ـ لا فاتحين . وكان وصوله العاصمة يوم ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ . الا انه قبيل المجابهة مع قوات شوا تمكن من انقاذ زوجة ولده وابنها ـ وهي اميرة من الدناقل ـ بأن ارسلها



الى مكان امين في احدى القرى الموالية له . وبعد هذه الكارثة التي حلت بأبيه لم يبق للامبراطور المخلوع امل بالنجاة ، وكان في طريقه للالتحاق مع قواته بوالده . فأوقف مسيرته وتحول بمفرده باتجاه آخر ، قاصدا مدينة اكسوم للاحتماء عند صديق قديم . الا ان هذا اشار عليه بمفادرتها . فنزل الى صحراء الدناقل المحرقة حيث قضى مددا من السنين في متاهاتها متجولا هائما على وجهه خشية الوقوع في ايدي أعدائه .

اما زوجته الاميرة الدنقالية فقيل انها وابنها احتميا لدى السلطات الفرنسية في جيبوتي . واما الملك الرأس ميخائيل فسجن في جزيرة في بحيرة زواي احدى بحيرات الوادي الشقي في الجنوب ، حوالي ٢٤٠ كيلومترا عن العاصمة ، ثم نقل الى هوليتا غربي العاصمة فمات هناك سنة ١٩١٨ . ومن قبيل المصادفة فالامبراطورة تايتو هي نفسها ماتت في نفس السنة في بيتها حيث كانت تقيم اقامة جبرية لقيامها بآخر محاولة فاشلة للوصول الى مركز السلطة .

انقلاب الرأس تفاري على زاوديتو

ذكرنا في ما مر ان الامبراطورة زاوديتو لم تكن ميالة للسياسة او الحكم . وكانت شؤون الدولة تتعب مزاجها المنصرف للتعبد والصيام والزهد في الحياة . وبعكس ذلك كان الرأس تفاري المتعطش للامرة والسيطرة . فقد أخذ منذ اللحظة الاولى يتحين الفرص لاكتساب المزيد من الصلاحيات والسلطة في داخل البلاط وخارجه ولفرض سيطرته على الاقاليم ، الامر الذي أدى الى نشوب الخلاف بينه وبينها على الرغم من عزوفها عن أمور الدولة المتعبة . فصارت تتهمه بالتسرع للاستيلاء على الحكم وهو من جانبه يتهمها بالرجعية . وكثرت تذمرات الاقاليم من تدخله المباشر في شؤونها ، اذ صار ينتزع السلطة من زعمائها تدريجا ، الواحد بعد الآخر .

وبلغ تذمر الزعماء حدا أن تجمع بعضهم في قصر الامبراطورة ، وبعد ان اقسموا لها يمين الولاء وعدوا بالوقوف الى جانبها لكي يساعدوها في التخلص منه ، واتفقوا على مباغتته بانقلاب عسكري لابعاده عن الحكم . ولكن الثعلب الماكر تغدى بهم قبل ان يتعشوا به . فقد كان مطلعا بواسطة عيونه وجواسيسه على كافة ما يجري داخل البلاط والقصور الملكية . فما أن علم باتفاق الزعماء على الاطاحة به حتى فاجأهم هو بانقلاب عسكري مذهل غيّر سير الاحداث كلها في اثيوبيا وأوصله الى القمة . فقد هاجم الحرس الملكي بواسطة القوات التي جاء بها من هرار ـ وهي منطقة نفوذ ابيه . فأصبح كل شيء في قبضته وتحت

سيطرته (٧) .

اما الامبراطورة فذهلت لما حدث بهذه السرعة الخاطفة . واذعنت حالا لمطالبه التي كان أولها ان تعترف به ملكا على اقليم شوا . فانعقد مجلس من النبلاء ورجال الدين وعلى رأسهم مطران اثيوبيا ، فنصب الراس تفاري ملكا واصبح يلقب بـ (النجاشي – وبالامهارية Negus) ومنحته الامبراطورة صلاحيات واسعة لتصريف امور الدولة . ووضعت التاج بيديها على راسه في ٧ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢٨ . ولم يبق لها من سلطة سوى الاسم . فانقطعت عن الظهور حتى في المناسبات ، وماتت بعد ذلك بسنتين – في ٣٠ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٠ .

وبموت زاوديتو انفتح طريق المجد واسعا امام النجاشي فأصبح ملك الملوك من غير منافس ولا منازع . وتوج رسميا في اليوم الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٠ ، وعندئذ اتخذ لنفسه لقب الامبراطور هايلا سلاسي الاول . وقد راجت اشاعات كثيرة عن اسباب وفاة زاوديتو لم تستبعد بعضها احتمال موتها مسمومة .

مطاردة ليج اياسو وسجنه

ما انفك الرأس تفاري منذ توليه وصاية العرش وولاية العهد يبحث عن الامبراطور المخلوع ويتعقب آثاره بغية الانتقام منه والقضاء عليه . حتى انه كلف السلطات البريطانية في عدن باعارته عددا من الطيارات العسكرية لقصف قلعة ماغدالا التي وصلت اخبار منها عن احتمائه بها مع بعض انصاره . غير ان البريطانيين لم يستجيبوا لطلباته. عندئذ بعث بجيش لضرب حصار حول القلعة بغية القبض عليه . وكان ذلك في أواسط عام ١٩١٧ . لكنه قبيل انتهاء ذلك العام تمكن الجيش المحاصر من دحر قوات ليج اياسو المدافعة عن القلعة ، حتى اقتحموها واحتلوها . الا انه تمكن من الافلات من ايدي المهاجمين .

وظل ليج اياسو يتنقل من مكان الى آخر في المناطق العديدة التي بقيت على ولائها له سنين طويلة ، وخاصة الشمالية منها وصحراء الدناقل . ولبث على هذا المنوال تسمع اخبار تنقلاته هنا وهناك فتقض مضاجع الحكومة لما كان يصاحب تنقلاته من ثورات وعصيان . فلم تهدأ الحال حتى قبض عليه أحد نبلاء الشمال الموالين للحكومة سنة ١٩٢١ وبعثه مخفورا الى الامبراطورة زاوديتو . بعد ذلك أرسل مكبلا بسلاسل

---

7 — Islam in Ethiopia, by J. S. Trimingham — pages 135 — 36.



ذهبية الى سجنه في امبو (٨) الواقعة على بعد ١٢٠ كيلومترا غربي العاصمة ، وهي بلدة جميلة سياحية تشتهر بحماماتها المعدنية في الوقت الحاضر . ومن أمبو نقل الى فيشه الواقعة شمالي العاصمة على الطريق المؤدي الى وادي النيل الازرق .

لم يصب ليج اياسو بعد اعتقاله بأذى لان الامبراطور منليك الثاني كان قد أصدر تشريعا حرم فيه معاقبة أمراء العائلة المالكة بالموت . وكان يعامل خلال فترة سجنه معاملة انسانية طيبة . اما السلاسل الذهبية فلها قصة طريفة لا بد من ذكرها . فمن التقاليد التي ورثها الاحباش منذ القدم هي ان الملوك اذا وقعوا اسرى او اذا سجنوا فيكبلون بسلاسل مصنوعة من الذهب اكراما لهم . وهذه السلاسل ذاتها كان قد امر بصنعها ملك جيما في اقليم كافا ليكبل بها الامبراطور منليك الثاني عندما ساق هذا جيوشه لاحتلال هذه المملكة الصغيرة . غير ان جيوش منليك اكتسحت أمامها كل مقاومة فاستعملت السلاسل لتكبيل ملك جيما نفسه بها .

قضى ليج اياسو فترة غير قليلة في السجن ـ من سنة ١٩٢١ حتى شهر ايار (مايو) ١٩٣٢ . وأخيرا تمكن بمساعدة الراس هايلو Ras Haillu من الهرب متنكرا بزي امرأة (٩) . غير ان نسيم الحرية الذي تنسمه لم يدم طويلا ـ أياما معدودة . فقد سارعت الحكومة ووجهت قواتها نحو الاماكن التي يشتبه ان يكون قد لجأ اليها . وبعد أن اصطدمت بأعوانه وهزمتهم ، سدت عليه كافة المنافذ للنجاة فألقت القبض عليه مختفيا في أحد الكهوف الجبلية . واقتيد ليسجن من جديد ـ في اقليم هرار ـ غير ان السلاسل هذه المرة لم تكن ذهبية . وهذا التغيير له مغزاه بالنسبة لمصيره في الايام القادمة .

قصص غامضة حول مقتل ليج اياسو

أشار معظم الرواة الذين عالجوا موضوع مصير ليج اياسو بعد أن ألقي القبض عليه على نحو ما ذكرنا الى انه أبعد هذه المرة الى اقليم هرار وسجن في موقع يقال له غاراميولاتا Garamulata بالقرب من دير لا يبعد كثيرا عن ديره داوه ـ أهم مدينة على خط السكة الحديدية بين جيبوتي وأديس ابابا . وروى بعض الرحالة الاجانب انهم

---

٨ ـ وجدير بالملاحظة ان اسم بلدة امبو قد استبدل في السنين الاخيرة باسم Hagera Hiwot

8 — The Real Abyssinia, by C. F. Rey — page 218.
Ethiopia, by Richard Greenfield — page 151 — 153.
9 — Ethiopa, by Richard Greenfield — pages 177 — 178.



شاهدوا الامبراطور المخلوع وقد سجن داخل قفص كبير تحت حراسة مشددة خشية اقتراب العملاء والجواسيس منه . على ان نفرا من الكتاب والمطلعين ينفون حكاية القفص على انها موضوعة . فيذكر احدهم مشاهدته لمبنى اشبه بالحصن مكون خارجه من ثلاثة جدران متراكزة في نفس الموقع الذي ذكر وجود القفص فيه . في حين تمضي روايات اخرى الى ان السلطات أعدت فيما بعد مسكنا مستقلا أنشأته داخل الدير نقلته اليه قبيل وفاته وجعلت سجانه أسقف الدير نفسه ـ وكان هذا مقربا من الامبراطور .

واكثر ما كانت السلطات تخشى الايطاليين والمسلمين لعلمها بالمبالغ الجسيمة التي كان الايطاليون ينفقونها كرشاوى في سبيل اختطاف ليج اياسو من سجنه . حتى قيل انهم رشوا حاكم هرار نفسه . وهذا ما قد يفسر غضب الحكومة عليه فجأة واختفاءه . وهذا الاجراء بحد ذاته قد يلقي ضوءا على صحة ما شاع بين الناس عن نشاط الايطاليين لتخليص الامبراطور من سجنه بكل الوسائل الممكنة . حتى ان ليج اياسو نفسه اصبح قلقا على حياته لانه كان مدركا ان الحكومة المركزية لن تبقيه حيا في حالة ازدياد الوضع تأزما مع الايطاليين .

ولم يعد خافيا آنذاك ما كانت ايطاليا تعده وراء الستار تحت حكم موسوليني لغزو اثيوبيا يوما ما . وكانت خطتها ترمي الى انقاذ ليج اياسو من سجنه واعادة تنصيبه امبراطورا بعد احتلالها اثيوبيا . ولو انها ـ أي ايطاليا ـ كانت قد قدمت ميعاد غزوها قليلا لكان مجرى التاريخ في أثيوبيا قد تغير ولخرج ليج اياسو من سجنه منتصرا على خصومه ، على الرغم من اندحار ايطاليا في الحرب العالمية الثانية .

بلغ التوتر بين السكان في المناطق الشرقية والحكومة اقصاه . وكانت قبائل الدناقل تشن غاراتها على الدير الذي سجن فيه ليجاياسو بين حين وآخر ، الامر الذي حدا بالسلطات الى مضاعفة الرقابة على السجن واحاطة كل ما يتعلق بحياة هذا الانسان السجين بهالة من السرية والكتمان ، ولا سيما بعد اكتشافها نوايا الايطاليين في محاولة الاستفادة من نفوذه لاشعال نار الثورة بوجه الحكومة .

فلما توارى كليا وراء جدران سجنه داخل الدير واحتجبت اخباره عن العالم ، لم يعد أحد يسمع عنه شيئا الا لما حملت اسلاك التلغراف نبأ وفاته في سجنه سنة ١٩٣٥ . ولم يثبت تاريخ الوفاة بالضبط . فمن قائل في تموز (يوليو) وآخر في تشرين الثاني (نوفمبر) . اما عن اسباب وفاته فدارت اشاعات لا حصر لها وكلها متباينة ومتضاربة ، ولعلها كانت اكثر غموضا من تاريخ الوفاة . والشيء الوحيد الذي علم عن يقين فيما بعد هو نقل جثته الى اديس ابابا ـ ربما للتحقق من صحة النبأ .

ففي الوقت الذي أعلن فيه الطبيب الرسمي ان سبب الوفاة كان



مرض التيفوئيد كان للناس آراء خاصة اخرى . منها انـه مات مسموما ومنها انه قتل برصاص هايلا سلاسي . وهذه الرواية الاخيرة نقلت عن لسان احد خدم ليج اياسو المخلصين ، وكان له من العمر عند وفاتـه ٣٧ عاما . قال هذا الخادم :

« سمع ليج اياسو ذات ليلة صوت سيارة دخلتالدير فقلق وسألني عمن قد يكون فيها . لانه خشي قدوم شخص معين يحتمل ان يكون مجيئه ليلا للبطش به . فقلت له انما هو اسقف الدير . ولكن بعد برهة وجيزة سمـــع صوت سيارة اخرى تبين ان كان فيها راكبان ما لبثا ان نزلا مـن السيارة حتى اتجها نحو غرفة السجين وأخذا يحدقان فيها من خلال ثقبين في بابها . ولما شعر بهما ليج اياسو ورآهما على هذه الحال اقترب من أحد الثقبين فبصق على أحدهما من خلال الثقب . الا انه سرعان ما امتدت فوهتا بندقيتين اخترقتا الثقبين . حينئذ شعر بقرب أجله . فتراجع الـى نافذة الغرفة وأمسك بقضبانها الحديدية بيديه عندما أطلق عليه الرجلان عيارين ناريين فخرّ على اثرهما صريعا عـلى ارض الغرفة التي اهتزت جوانبها لضخامة جسمه وثقـل بدنـــه » .

اما زوجته ، الاميرة الدنقالية ، فكانت تعيش مع ابنها فيالصومال الفرنسي . ولما بلغها نبأ وفاة زوجها هرع اليها أتباعها وأعلنوا مبايعتهم لابنها خليفة لوالده وأسموه منليك الثالث . وهذا هو الابن الذي دبرت اثيوبيا اختطافه سنة ١٩٣٤ ولم تفلح مساعيها . الا انه في سنيالحرب مـعالايطاليين اختفى بصورة غامضـــــة . ومن غير المستبعد ان تكون السلطات الاثيوبية قد تمكنت من اختطافه وقتله . ولهذا الولد اخـوة آخرون خلفهم ليج اياسو . أما الابن الاكبر فقـــد أودع السجون في الجنوب فترة طويلة وتمكن من الهرب واللجوء الى كينيا . وهناك اعترف به الاثيوبيون الهاربون الى كينيا وبزعامته . غير ان الانكليز لم يمكنوه من تولي الزعامة اذ زجوه في السجون . وقيل كذلك انه مات مسموما.

وهناك قصص اخرى عن بقية ذرية ليج اياسو . فيحكى عن اثنين من اولاده كانا يعيشان عيشة بؤس فيسيدامو وجيما كالرهائن . احدهما سجن سجنا طويلا لم يسمع عنه بعد ذلك .

ان كثيرا من هذه المعلومات عن سجن ليج اياسو ومقتله وتشريـد اولاده ــ ظهرت للراي العام بعد الانقلاب الفاشل للاطاحة بالامبراطـور هايلا سلاسي سنة ١٩٦٠ . ومنـــذ ذلك الحين ، وخاصة في الفتـرة ١٩٦١ ــ ٦٢ وزعت منشورات سرية في اثيوبيا عن المؤامرات ضد ليـج اياسو والغدر به . ويوما ما ستظهر حقائق عن مصير هذا الامبراطـور اكثر وضوحا وتفصيلا وتفضح أسرارا لم تكن معروفة حتى الآن .

الفصل السابع عشر

الامبراطور هايلا سلاسي الاول (×)

١٩٣٠ ــ ١٩٧٤

ملك على حقيقته

الامبراطور هايلا سلاسي هو اكبر ملوك الارض سنا في الوقت الحاضر وأقدمهم حكما وأبعدهم نفوذا في شعبه وحكومته . لقد حكم بلاده اكثر من ٥٨ سنة ـ فترة خيالية لا يضاهيه فيها عبر التاريخ المعروف كله سوى لويس الرابع عشر ملك فرنسا الذي حكم ٥٤ سنة والملكة فكتوريا ملكة بريطانيا العظمى التي حكمت ٦٤ عاما . له جسم نحيف صغير ووجه في الايام الاخيرة كثرت وبرزت تجاعيده . غير ان كل من يراه من زائريه يحكم بأن الدهاء والمكر والذكاء المتوقد وعدم الرحمة تكمن في أعماق هذه الشخصية الهزيلة الدافئة المنظر . انه كما يبدو من تاريخ أسرته سليل أقدم عائلة مالكة عرفها التاريخ . اما كلمة امبراطور فهي غربية وغريبة على لسان البلاد . وان ما يقابلها باللغة الامهارية فهو (ملك الملوك Negus Negust) وكما هو عند الايرانيين (شاهنشاه) .

اسمه الحقيقي هو تفاري وأبوه الرأس ماكونين الذي كان حاكما عاما على هرار حيث ولد تفاري في ٢٣ تموز (يوليو) ١٨٩٢ . ومن هنا نبع نفوذه في هذا الاقليم غير الامهاري . حصل على لقب (راس) أي امير ، منذ نعومة أظفاره وعين حاكما في سن مبكرة . وقبض على زمام السلطة في البلاد سنة ١٩١٦ عندما كان عمره ٢٤ سنة ، عن طريق اختياره وصيا على العرش ووليا للعهد ايام حكم الامبراطورة زاوديتو. وكان يعرف يومئذ ب (الراس تفاري) . ولما كان في منصبه هذا قاد

× كتب هذا الفصل قبل خلعه عن العرش في ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ ـ راجع الفصل ٢٨ .



انقلابا عسكريا ضد الامبراطورة سنة ١٩٢٨ انتزع لنفسه نتيجة نجاحه لقب (ملك Negus) على اقليم شوا . ولما توفيت زاوديتو سنة ١٩٣٠ ارتقى العرش واتخذ لنفسه لقب الامبراطور هايلا سلاسي الاول . اما لقبه الرسمي الكامل فهو (هايلا سلاسي الاول ، أسد قبيلة يهوذا القاهر ، منتخب الرب ، ملك الملوك وامبراطور اثيوبيا) . ولكن طلاب الجامعة الثائرين يسخرون من أسطورة نسبه المزعوم الى ملكة سبأ وسليمان الحكيم وينعتونه : (هايلا سلاسي .... آخر نغل في سلسلة أحفاد الملك سليمان) (١) .

لقد حكم اثيوبيا حكما فرديا مطلقا ، قضى النصف الاول من فترة حكمه في قمع الثورات وعصيان الرؤوس . ولم تهدأ الاحوال الداخلية على عهده حتى سنة ١٩٤١ حينما أعادته القوات البريطانية الى عرشه ابان الحرب العالمية الثانية . كان للرأس تفاري عندما تربع على عرش اثيوبيا عدد من المنافسين ادعوا انهم أولى بالحكم منه . ولكن ثمة عوامل عديدة لعبت أدوارا خفية على مسرح السياسة الداخلية فساعدت على رجحان كفته ، وأهمها أربعة : ١ ـ نفوذ الكنيسة المؤيدة له ، ٢ ـ نسبه المتصل بالسلالة السليمانية وقرابته من الامبراطور السابق منليك الثاني ، ٣ ـ ولاء جناح قوي من أجنحة الجيش له ، و ٤ ـ شخصيته وشجاعته .

لقد أصدر أول دستور للبلاد سنة ١٩٣١ . فصار لها برلمان مكون من مجلسين ـ مجلس للنواب ومجلس للشيوخ . الا انه في عرف الامبراطور ، لا الدستور ولا البرلمان ولا الوزارة هي من الامور التي لا تستطيع كلمته أن تعلو عليها .

يكاد يكون هناك اجماع في الرأي بين اغلب المراقبين والمحللين المطلعين على احوال اثيوبيا الاجتماعية والاقتصادية والدينية في ان الهيمنة الشخصية لهذا الامبراطور هي التي أبقت على تماسك أجزاء البلاد واستقرارها ووحدتها لحد الآن . وان النقد الموجه اليه بسبب بطء التقدم الاقتصادي واستمرار التخلف الاجتماعي وتفسخ جهاز الدولة فيعزوه هؤلاء النقاد الى فساد وغباء حاشية الامبراطور ومستشاريه . هذا صحيح وفيه الشيء الكثير من الصحة والواقع . ولكن لا يعقل ان رجلا بدهاء وحنكة هايلا سلاسي يمكن ان ينقاد كليا لخاصته لهذه الدرجة ، وهو المعروف عنه انه ذلك الرجل المهيمن المسيطر على كل شيء في الدولة .

---

1 — Herald Tribune — Paris, 30 August 1971, page 6 — « Hail Selassie — The great — great — great grand bastard of King Solomon. »



كما ولا يستطيع مؤيدو الامبراطور انكار حقيقـــة واحدة هي ان هايلا سلاسي جاء الى الحكم وهو متعطش ليملأ بلاده خيرا وعدلا ومدنية عن طريق رفع المستوى المعاشي للسكان . وقد ملأ الدنيا في أول عهده بتصريحاته التي قابلها الشعب بمنتهى الارتياح والابتهاج وخاصة ما يتعلق بتحديد نفوذ النبلاء والاقطاعيين الكبار . حتى اذا ما قضى على هـؤلاء وقلص ظل نفوذهم وانفرد بالسلطة ، سحق النبلاء والشعب معا .

يعتبر هايلا سلاسي من اكثر الناس ثراء في العالم ، وكــذلك العائلة المالكة . والى وقت قريب جدا ــ الى اواخر الخمسينات ــ كـان يصعب التمييز بين مالية الدولة ومالية الامبراطور . ويقال انه كثيـرا ما كان ينفق الامبراطور على المشاريع العامة من ماليته الخاصة . وللعائلة المالكة وله شخصيا مساهمات جسيمة في عدد من المشاريع التجاريـة التي تدر عليهم أرباحا وفيرة . فمثلا كان الامبراطور الى وقت غير بعيد يمتلك المطبعة الوحيدة في البلاد . بيد ان المورد الخيالي الذي يدخـل الخزانة الخاصة هو ما يأتي من مناجم الذهب . الا انه يجب التنويـه بأن انتـــاج الذهب فـي اثيوبيا لا يقـاس بما تنتجـه جنوب افريقيـا او روسيا او حتى غانا . فالاحصاءات الرسميـــة لسنة ١٩٦٨ ــ ٦٩ اشارت الى ان انتاج الذهب لتلك السنة كان ١٢٢٣ كيلوغراما . ومعلوم ان تحسينات جديدة بدأت تدخل على هذه الصناعة . ومعلوم ايضا ان ثلث انتاج الذهب يتحول الى الخزينة الخاصـــة للامبراطور حسب التقاليد المرعية .

أشرنا في الفقرات السابقة الى ان الحكومة شرعت اول دستـور للبلاد سنة ١٩٣١ ثم عدل سنة ١٩٥٥ . الا ان هذا لم يغير من حـالة الحكم التقليدي شيئا . ولم تكسب اثيوبيا من الديمقراطية سوى المظهر الخارجي الذي يخفي تحته المركزية الفظيعة والاستبداد والحكم الفردي المطلق . فالدستور حبر على ورق والبرلمان لا يستطيع زحزحة الوزراء ولا الوزراء يملكون الصلاحيات اللازمة لتسيير شؤون وزاراتهم حسب مقتضيات المصلحة العامة . يبدأ الامبراطور عمله في الصباح كأي موظف آخر . فيستقبل وزراءه بشكل دوري كل يوم لاصدار التعليمات اليهـم فيما يختص بشؤون وزاراتهم . والمعروف عنـــه انه لا يعرف الملل ولا يخبو له نشاط .

وللامبراطور شخصية محترمة لها قدسية تقليدية بين افـــراد شعبه نابعة من نسبه ومركزه الديني باعتباره حامي الكنيسة . فـــاذا ما مرت سيارته الرولز رويز الخضراء في شوارع العاصمة وجدت الناس يترامون بأنفسهم في وضع انبطاح كامل على الارض باسطين ايديهم الى الامام وقبعاتهم مرفوعة عن رؤوسهم . فلا ينهضون حتى يكـون الركب



الامبراطوري قد مر من امامهم باكمله .

شهدت ذات يوم تحية الانبطاح على الارض تعبيرا عن التبجيل والتعظيم لعاهل البلاد بمحض الصدفة وأنا بصحبة ممثل منظمة الاغذية والزراعة الدولية في اثيوبيا في طريقنا الى مكتبه . اذ أوقف سيارته فجأة وطلب الي الخروج منها قائلا : « انزل من السيارة ــ الامبراطور » . وعندما ترجلنا همس بأذني ان اراقب تصرفات المارة . فما ان لاحت السيارة الفخمة تحيط بها الدراجات النارية حتى اخذ الناس يتزاحمون انبطاحا على الارض ما عدا فئة قليلة ــ ولعلهم كانوا من الشبان المتطورين ــ فاكتفوا بانحناءة بسيطة كما فعلنا انا وزميلي .

نشأتـــه

لقد نشأ تفاري وترعرع في هرار ، مسقط راسه . واكتسب قسطا وافرا من الدهاء وفنون السياسة ومعاشرة الناس عن ابيه الذي كان يعتبر من اكفأ جنرالات الامبراطور منليك الثاني ، كما كان موضع ثقته . ونال قسطا من ثقافته على أيدي المبشرين الفرنسيين . فتأثر بهذه الثقافة منذ نعومة أظفاره . ولذلك فهو يجيد الفرنسية اجادة تامة ، ولو انه في المناسبات الرسمية لا يحيد عن الامهارية فيتوسط بينه وبين زائريه مترجمه الخاص . وكما أشرنا سابقا ، فانه ينحدر من السلالة السليمانية من ناحيتي الاب والام . الا ان جدته لامه لم تكن من النبلاء بل من قبيلة الفوراج .

بيد ان المجتمع الاثيوبي ما زال يردد حكايات تهمس همسا عن فضيحة تتعلق بمولده (٢) . فيقال انه ولد بعد عشرة شهور من سفر والده الراس ماكونين بمهمة سياسية خاصة في أوروبا . فتدخلت الكنيسة لستر هذه الفضيحة ، الا انها زادت الطين بلة باصدارها تفسيرا خاصا لما حدث ، لم تستصوبه حتى عقول السذج من الناس . فجاء العذر ــ كما يقال ــ أقبح من الذنب . فقد اعتبرت الكنيسة هذا الحدث بمثابة معجزة أطلقت عليها عبارة (معجزة تأخير الولادة) كأن الله سبحانه وتعالى ــ على زعم الكنيسة ــ أراد ان يمكن هذا الوالد العظيم من رؤية ابنه ساعة الولادة فكافأه بتأجيل يوم الولادة حتى عودته من الخارج .

هناك حكايات وأقاويل اخرى يدعي مؤيدو هايلا ساسي انها من صنع أعدائه . غير انها وقصصا أخرى ظهرت في المنشورات السرية التي وزعت في أديس ابابا بعيد الانقلاب الفاشل سنة ١٩٦٠ .

---

2 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 148.



تقلد الراس تفاري وظائف رفيعة المقـــام وهو لما يزل شابا بحاجة الى المزيد من الخبرات ومعرفة شؤون الناس . ولكن جرت العادة أن يتقلد أبناء النبلاء مناصب ذات مسؤوليات خطيرة على الرغم من حداثة أعمارهم . فمثلا تسلم هو حاكمية اقليم سيدامو في الجنوب ولم يكـن قد تجاوز السابع عشرة من عمره . وفي سنة ١٩١١ نقل من الجنوب الى حاكمية اقليم هرار ــ وهو المنصب الذي شغله من قبلـه ابوه . غير ان الراس تفاري كان ذا شخصية لامعة وتميز منذ صباه بالذكاء والحـزم وقوة الشخصية . فساعدت هذه المزايا والمؤهلات على نضوج عقـــله ومداركه بصورة مبكرة . ولذلك فقد سبر غور الامور وتحمل المسؤولية بصورة اعتيادية .

ومن خلال خدماته وخبرته في الاقاليم تفتحت ذهنيته ولمست مبلغ التخلف الذي تعاني منه بلاده . وبدأ ادراكه يتسع لهضم اسباب التخلف والمشاكل الاساسية التي تكمن وراء ذلك . فصارت تختمر فـي نفسه أفكار اصلاحية بعيدة العمق تستهدف اقتلاع الداء في موطنه واجتثاث بذور الفساد في معاقلها . من هذه الافكار الاصلاحية مثلا كان موضوع تسجيل الاراضي كخطوة مهمة في سبيل تحسين الضرائب وتطبيقه على أساس مقبول . ومن الامور الاخرى التـي رسم الخطط لمعالجتها تجارة الرقيق ، ورفع مستوى الادارة ونشر التعليم العام في الاقاليم ، وغيرها .

ثم جاء عام ١٩١٦ واذا بهحافل بالاحداث الجسام . في ذلك العام اراد الامبراطور ليج اياسو نقل الراس تفاري الى حــاكمية اقليم آخر . فاستدعاه الى العاصمة للمداولة ولتبليغه بقرار النقل . ولكن الاقـدار شاءت غير ما شاء الامبراطور . فقد خلع ليج اياسو عن العرش لتحتـله الاميرة زاوديتو ولينصب الراس تفاري وصيا عليها ووليا للعهد .

ولما دار الزمان دورته وانطوت الاعـــوام والسنون وتبوأ الوصي وولي العهد نفسه عرش اثيوبيا ، توارت الافكار الاصلاحية وراء كواليس السياسة الداخلية وفتر الحماس في ذهن ذلك الشاب ــ راس تفاري ــ واستمر الداء العضال ينخر في جسم الامبراطورية الهرم الهزيل واستمر الانتظار لفتى آخر من فتيان اثيوبيا لكي يبعث الروح مجـددا في الآمال الاصلاحية التي داعبت الراس تفاري في عهد صباه .

الراس تفاري في طريقه الى القمة

عندما تم خلع الامبراطـــور ليج اياسو سنـة ١٩١٦ ، ونودي بالاميرة زاوديتو ، تلك المرأة العجوز ابنة منليك الثاني ، امبراطـورة على اثيوبيا ، نصب الى جانبها الراس تفاري وصيا على العرش ووليا للعهد كما قدمنا . ومن هنا انفتح طريق المجد واسعا امام هذا الشاب الطموح . فاستغل ذكاءه ودهاءه وشجاعته للسيطرة على الموقف السياسي من وراء



الستار منذ اللحظـــــة الاولى . وسرعان ما اكتشفت زاوديتو شراهته وتعطشه لكسب المزيد من النفـــوذ والامرة داخل البلاط وخارجه . فتدبرت الامر بأن احتفظت بالسيطرة على الشؤون الداخلية وأوكلت اليه بتصريف شؤون السياسة الخارجية . وسارت الامور بهدوء نسبي بعض الوقت ـ ظاهرا على الاقل ـ بين الطرفــين دون أن يحصل بينهما اي تماس أو احتكاك من جراء هذا الحكم المزدوج .

الا ان الايام اثبتت للامبراطورة بأن طموح هذا الشاب لا يقف عند حدود . فعقدت العزم على اقصائه من مركز الوصاية الحساس وعمدت على تنفيذ ذلك بموجب خطة دبرتها بمعاونة عدد من نبـــلاء اقليم شوا الاقوياء ، الذين بدورهم لم يكونوا مرتاحين لتصرفاته معهم . فقد لمسوا من خلالها انه كان يستهدف تقليم أظافرهم والحد من سلطانهم ليخلو له الجو السياسي فيصبح سيد البلاد . غير ان الراس تفاري كان ملما بكل ما يحدث وما يحاك في أوساط البلاط من مؤامرات ودسائس ، وذلك عن طريق عيونه وأعوانه .

فما كان منه الا ان قام هو بانقـــلاب عسكري مفـــاجىء (٣) . فباغت الامبراطورة وأعوانها وأذهلهم بسرعة مناوراته . فانتزع ما كـان يصبو اليه بالقوة . فطلب اليها الاعتراف به ـ اضافــــة الى الوصاية وولاية العهـد ـ ملكا (نجاشي Negus) على اقليم شوا . فاستجابت لطلبه ووضعت تاج الملكية بيديها على رأسه سنة ١٩٢٨ باحتفال كبيـر حضره النبلاء والقادة العسكريون ورجـــال السلك الدبلوماسي . وبات النجاشي رجل الساعة في اثيوبيا دون منازع .

غير ان ثمة أمرا واحدا ظل يشغل بال النجاشي ويقلقه ، ذلك هو استمرار تغلغل النفوذ الايطالي في اثيوبيا ومنطقة القرن الافريقي بصورة عامة . فعمد بأساليب شتى لاستمالة الرؤوس الذين كان يخشى ممالأتهم للايطاليين سعيا منه لسد منـــافذ الضعف والتغلغل الداخلي عليهم . وعالج الامر على الصعيد الدولي عن طريق سعيه الحثيث المتواصل فأدخل بلاده في حظيرة عصبة الامم . وفي هذه الندوة الـدولية وقف خطيبا يندد بالاعمال الاستفزازية التي يمارسها الايطاليون . وكان ظهـوره في جنيف كأول رئيس دولة افريقي يشق طريقه الى مسرح السياسةالعالمية حدثا زوقت اخباره بشتى غرائب القصص من التاريخ الحبشي. وتناولته الصحافة الاوروبية باهتمام الى جانب قدر من التحفظ والغرابة لدخول بلد افريقي في فخ بورصة المضاربات السياسية الاوروبية المخيفة ، في الوقت الذي تفصل بين بلاده وبين أوروبا مرحلة حضارية لا تقـل عن ثلاثمائة سنة . الا ان النجاشي لم يعبأ بهذه الفوارق ، على الرغم مــن

3 — Ethiopia, by Richard Greenfield pages 158 — 61.



شعوره بها ، بل راح ينتهز كل فرصة خلال مكوثه في اوروبا مستصرخا الضمير الانساني في درء الخطر الايطالي المتصاعد عن بلاده .

ولكن لا يخفى ان ايطاليا دخلت الحرب العالمية الاولى الى جانب الحلفاء . وكانت تأمل أن تظفر بنصيب ولو ضئيل من المغانم بعد ان وضعت الحرب أوزارها . بينما جاءت النتيجة على غير المراد . اذ استأثرت كل من انكلترة وفرنسا بما وقع في قبضتيهما من المستعمرات والبلدان التابعة لالمانيا والدولة العثمانية . ثم جاءت معاهدة فرساي سنة ١٩١٩ مخيبة لامالها وامانيها تماما . ولما كانت مستعمراتها الافريقية ــ ليبيا وصوماليا واريتريا ــ كلها بلادا فقيرة في مواردها الطبيعية ، وجل مساحاتها عبارة عن صحارى قاحلة فلم يبق أمامها من منفذ ومتنفس لايجاد حل لمشكلة الملايين من سكانها الذين ضاقت بهم رقعة ايطاليا سوى هضبة الحبشة الخضراء الغنية . فركزت أطماعها على هذه البقعةمن الارض البكر قبل ان تؤول الى غيرها من الدول .

لم يبق للامبراطورة زاوديتو بعد أن زودت الراس تفاري بأوسع الصلاحيات وأنعمت عليه بلقب النجاشي شيء من سلطان الملك الا الاسم . وأصبحت بحالة شبه انعزالية لا حول لها ولا قوة ، لا سيما بعد اخفاقها في محاولتها اقصاءه عن مركز السلطة وافتضاح نواياها تجاهه . فقضت ايامها الاخيرة تحت وطأة اليأس والاكتئاب حتى انها لم تعد لتهتم بالشؤون العامة . فوجدت ضالتها في التقرب الى الله عن طريق الصلاة والصيام ومجاورة الكنائس والاديرة حتى فارقت الحياة سنة ١٩٣٠ .

فنودي بالنجاشي امبراطورا وتوج باحتفال مهيب في كتيدرائية القديس جورج في اديس ابابا في نفس السنة .

تقول الاسطورة الحبشية بأن السلالة السليمانية بدات عام ٩٨٠ قبل ميلاد المسيح ــ اعتبارا من ميلاد منليك الاول (ابن الحكيم) الذي انجبته الملكة ماكيدا للملك سليمان الحكيم . وتربع من بعده اولاده واحفاده على العرش من غير انقطاع في التسلسل ما عدا الفترة الواقعة بين سنة ٩٢٧ ــ ١٢٧٠ ميلادية (أي ٣٤٣ سنة) حين اغتصبت العرش جماعة من اسرة زاغوي Zagwe من قبيلة اغاو Agaw . فالامبراطور هايلا سلاسي هو العاهل الخامس والعشرين بعد المائتين في تسلسل الملوك اعتبارا من منليك الاول أو السادس والستين اعتبارا من تاريخ استعادة العرش من مغتصبيه الاغاويين سنة ١٢٧٠ ميلادية .

تتويجه

كانت احتفالات ومراسيم تتويج الامبراطور الجديد حدثا تاريخيا لم تشهد من قبل مثله افريقية . فلبست العاصمة حلة من الزينة ومظاهر



البهجة . وغطت الحواجز الخشبية التي اقيمت على جانبي بعض الطرق معالم تأخرها العمراني المتمثل بأبنيتها القديمة المتهدمة وأحياء (اكواخ) سكن الفقراء لحجبها عن الزوار الاجانب . كما عبدت بعض الطرق الرئيسية ونورت ساحات المدينة بالمصابيح الكهربائية ـ قسم منها لاول مرة ، وظهرت الشرطة بقيافة جديدة موحدة. أما الشحاذون ـ وما اكثرهم في اديس ابابا ـ فقد احتجزوا طيلة أيام الاحتفالات ولم يسمح لهم بالتسكع في الشوارع وازعاج الزوار .

واكتظت اديس ابابا بالمدعوين من مختلف أقطار العالم . وفي العاصمة ترددت اشاعات ان الحكومة اضطرت لتأجيل احتفالات التتويج حتى اليوم الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) بسبب عجز مالي في ميزانية الدولة (٤) . ومن الغرائب والمتناقضات ان تقدم الدولة المفلسة على شراء عربة باهظة الثمن من الحكومة الالمانية كان قيصر المانيا يستخدمها في المناسبات الرسمية . ليس هذا فحسب ، بل ان شراء هذه المركبة اضطر الحكومة الى انفاق مبالغ اضافية لتغيير مظهرها الخارجي وذلك بطبع صورة التاج الامبراطوري وأسد يهوذا وغيرها من الشعارات التقليدية عليها ، وأعدت خصيصا للامبراطور بمناسبة حفلات التتويج .

وما زالت هناك نفقات باهظة اخرى ـ من ذيول مناسبة التتويج . فقد اوصت الحكومة احدى الشركات المتخصصة في لندن بصنع عشرين تاجا من الطراز المعد لاستعمال الامراء وبعض النبلاء في مثل هذه المناسبات . وكان لون قطيفة التيجان الخاصة بولي العهد والاميرات ازرق ملكيا Royal Blue ، وأحمر قرمزيا للنبلاء . واختتمت الاحتفالات بتوزيع نقود ذهبية تذكارية خاصة بهذه المناسبة لعدد محدود من المدعوين . بينما سكان المنازل المتهدمة والاكواخ الذين حجبت بيوتهم عن الانظار فكان نصيبهم آلاف الصور التي التقطها الزوار على الرغم من وجود الحواجز الخشبية ، ونشرت في الصحف والمجلات العالمية . أما الحواجز فما زالت تقام في العاصمة الى اليوم في كل مناسبة مهمة أو زيارة شخصية رفيعة المقام .

ان صفقة شراء المركبة الامبراطورية وما تبعها من نفقات اضافية مع موضوع الحواجز الخشبية فيما كانت البلاد تجتاز أزمة مالية حادة لم تفلت من تعليقات الصحافة العالمية ونقدها . وتعقيبا على أحداث مثل هذه كتب معلق اميركي مرة بأن هايلا سلاسي في زيارته الرسمية لجمهورية تانزانيا سنة ١٩٦٤ دعي لوضع الحجر الاساسي لهدم احد الاحياء الفقيرة واقامة حي جديد عصري على نفس الموقع في دار السلام

---

4 — Ethiopia, by Richard Greenfield, page 165.



ـ أمر لم يحققه هو يوما لاثيوبيا ، بل اكتفى بتغطية هذه الاحياء بالحواجز لحجبها عن الانظار .

العائلة المالكة

في ٣٠ تموز (يوليو) ١٩١١ عقد زواج الراس تفاري على وازيرو مينان Woizero Menen حفيدة الملك ميخائيل ملك اقليم واللو Wallo (٥) وخلال حياتهم الزوجية انجبت له ستة أطفال ، بقي منهم حتى ١٩٥٧ أربعة أحياء . وفي تلك السنة مات الابن الثاني بحادث سيارة فبقي منهم ثلاثة ـ ولدان اثنان وبنت . اما الابن الاكبر فهو اصفا وصن Asfa Wosen (٦) ولي العهد الذي اشترك أو أجبر على الاشتراك في الانقلاب العسكري الفاشل سنة ١٩٦٠ . ومنذ ذلك الحين اشتد الفتور في العلاقات بين الامبراطور وولي العهد . ولهذا الفتور في الواقع جذور تمتد الى ما قبل الانقلاب المذكور ـ الى مولد أصفا وصن الذي صاحبته غمزات وتقولات كثيرة حول الشبه الكثير بينه وبين الامبراطور المخلوع ليج أياسو (٧) فيقال ان ليج أياسو كان يسكن في هرار عندما كانت العائلة المالكة أيضا تسكن هناك لفترة من الزمن . والمقربون من العائلة المالكة يؤيد بعضهم نفور الاب من ابنه وعدم محبته له منذ طفولته .

والمعروف عن الامبراطورة انها كانت أكبر من الامبراطور سنا واكثر منه ثراء . ولعل جزءاً من ثروتها أتاها من شائعة رعايتها لبنات السبيل . فقد حدث حادث قبل وفاتها يلقي ضوءا على صحة هذه الشائعة . ذلك ان امانة العاصمة شددت الخناق على هذه الطبقة سنة ١٩٦٢ فقررت زيادة الضريبة على تعاطيهن تجارة رخيصة مبتذلة . فهددن برفع شكواهن الى الامبراطورة . وساعتئذ أسدل الستار على موضوع الزيادة مخافة غضب جلالتها .

لقد اشتهر عن هايلا سلاسي انه رب أسرة مثالي . فهو داخل مسكنه ينزع عن نفسه كل ما يذكره بأنه امبراطور . ويجرد نفسه من كل صفاته الرسمية ليصبح ذلك الاب الحنون اللين المعشر . يستمتع ببهجة الحياة العائلية الخالية من التكاليف والقيود . فتراه يداعب أولاده ويلاعب أحفاده . يستيقظ من نومه الساعة السادسة صباحا فيشرب شيئا من عصير الفواكه في مخدعه . وبعد الصلاة في كنيسة القصر يتناول

---

5 — Ethiopia, Press Department, Addis Ababa - 1958, pages 3-7.

٦ ـ ولد الامير اصفا وصن في ٣١ ـ ٧ ـ ١٩١٦ ـ نفس المصدر .

7 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 151.



يتناول فطور الصباح مع الامبراطورة . وهذا بالنسبة له هو وجبة الطعام الرئيسية خلال اليوم . ولذلك يقدم الى الفطور بشهية مفتوحة. وبعد ذلك يخلد لمراجعة الصحف والمجلات في المكتبة .

يبدأ عمله اليومي الساعة التاسعة صباحا بمقابلة رئيس الوزراء ثم الوزراء والزوار . وفي بعض الايام يترأس مجلس التاج الذي يضم في عضويته أمراء العائلة المالكة وبعض الوزراء وكبار الشخصيات . اما فترة ما بعد الظهيرة فيقضيها عادة في زيارة المرضى في المستشفيات وتفقد انحاء العاصمة او مواساة من اصيبوا بنكبة او كارثة . اما فرصة نهاية الاسبوع فلا يدعها تمر دون ان يزور الريف للرياضة والصيد . الا انه في الغالب يتردد على ديبره زيت (بشوفتو) الواقعة على بعد حوالي ٤٥ كيلومترا جنوبي العاصمة . وتعتبر هذه البلدة الصغيرة منتجعا سياحيا بسبب قربه من بحيرة بركانية جميلة . وله قصر ريفي يطل عليها . ويشرف على البحيرة كذلك فندق سياحي يجتذب اليه عددا من الاجانب من أجل التزلج على مياه البحيرة الراكدة .

صراع بين الماضي والحاضر

عقدت آمال جسام على ارتقاء الامبراطور هايلا سلاسي العرش كبداية لمرحلة تحول اجتماعي وسياسي خطط له سلفه الامبراطور منليك الثاني دون ان يكمله . ويعتبر منليك بحق واضع الحجر الاساسي للنهضة الحديثة في البلاد ، غير ان المنية عاجلته قبل ان تتحقق ثمرات مجهوداته كلها . كانت اثيوبيا منذ فجر تاريخها الاول عبارة عن ممالك صغيرة وامارات تتحد تارة وتنشق عن بعضها تارة اخرى . فجاء منليك الثاني وسعى لدمج اجزائها المتفرقة – عدا ما ضمه اليها من أصقاع جديدة اخضعها بحد السيف . فلما آلت الامور الى هايلا سلاسي سار على نفس المنوال وجعل تحقيق هذه الامنية هدفه الاسمى . ومضى يذلل العقبات لنيله على أساس تقسيم البلاد الى اقاليم او ولايات (محافظات) بدلا من ممالك متنافرة ومتخاصمة . ولم يكن هايلا سلاسي لينقصه الحزم والعزم وقابلية التنفيذ والدهاء الموروث – تلك الصفات الاساسية التي امتاز بها – لتحمل أعباء وتحديات هذه المرحلة .

الا ان هايلا سلاسي أمضى السنين العشر الاولى من أيام حكمه في قمع الثورات التي قامت بوجهه ، وفي السعي لتأمين درجة مقبولة من الاستقرار الداخلي . فقد بدأ صراع مرير بين عناصر التجدد الناشئة الضعيفة وقوى الرجعية والتخلف الجبارة المتمثلة في اقطاع القرون الوسطى – تلك تدفع عجلة البلاد خطوة الى الامام فتعيدها الثانية على اعقابها خطوات الى الوراء . وهكذا استمر النزاع وتصادم المصالح



المتباينة ، وما زال منذ ستين عاما تقريبا وحتى يومنا هـــذا . وأدرك الامبراطور الجديد عندئذ ان حسابات التنفيذ لا يمكن ان تطابق حسابات التخطيط ، خاصة في بلاد اثقلت كاهلها ترسبات الماضي السحيق . غير ان أعنف التحديات التي ناهضت بداية حكم هايلا سلاسي جاءت مـــن عملاقين في المجتمع الاثيوبي ـ الاقطاع والكنيسة الحبشية .

صراع خفي بين الكنيسة والامبراطور

ان الكنيسة الحبشية تقف ضد اي تطور في المجتمع الاثيـــوبي لاعتقادها بأن ذلك يؤدي الى تفسخه . ومن الناحية الثانية فهي تعارض التطور لان في ذلك ضياعا لنفوذها الراسخ رسوخ الجبـــال بين طبقات الشعب . وكم من ملك خلعت وكم من معارض اسقطت عنه بركةالكنيسة وآخرهم ليج اياسو . فلما جاهر هايلا سلاسي بمشاريعـــه الاصلاحية الجديدة نظرت اليها بعين الريبة والتشكك . واشق العقبـــات التـــي اصطدم بها هذا الامبراطور عند اعلانه قراره بجعل التعليم العام مـــن مسؤوليات الدولة الاساسيـــة ، تسيره وفق النظم العصرية ، هـــي الكنيسة . فقد جندت كل قواها المتمثلة بذلك الجيش العرمرم مـــن الرهبان والقساوسة لشن حملة قاسية ضد المدارس الحكومية التـــي زعمت انها تلقن الجيل الصاعد أمورا منافية للدين والاخلاق .

لم تنحصر معارضة الكنيسة بموضوع التعلـــيم العام من الناحية المعنوية فقط . فقد ثارت ثائرة معلمي مدارس الكنيسة احتجاجا عـــلى الرواتب التي خصصت لمعلمي المدارس الحكومية . فالراتب الشهـــري للقس المعلم لا يتجاوز ١٥ دولارا اثيوبيا (٦ دولارات اميركية) فيمـــا يتقاضى المعلم المدرب في المدارس الحكومية راتبا شهريا قدره ١٥٠ دولارا اثيوبيا ــ اي عشرة أضعاف ما يستلمه القس . وبعين الوقت فلا يمكن ايجاد حل وسط لترضية القساوسة لان هؤلاء هم شبه أميين يتعـــذر مساواتهم بالآخرين .

ولم تتوقف معارضة الكنيسة عند هذا الحد فحسب بل تنـــاولت حتى الجريدة الاسبوعية التي بدات الحكومة باصدارها ــ وهي الجريدة الوحيدة في اثيوبيا في ذلك العهد . فأعلن القساوسة مقاطعتهم لها ، ومنع دخولها الكنائس والاديرة والمؤسسات الدينية الاخرى . ومن طريف ما يذكر ان خبرا نشر في هذه الجريدة بعد فترة طويلة من صدورها ، مفاده ان قساوسة كنيسة معينة في أحد الاقاليم قرروا رفع المقاطعـــة عن الجريدة وسمحوا بقراءتها بانتظام . نشر هذا الخبر وكأنه حدث هام .

ثم عاد هايلا سلاسي بمناورة جديدة لخطب ود الكنيسة ، اذ لـــم يسمح له دهاؤه ان يقطع شعرة معاوية . فراح يسعى لتحقيق أمنيـــة



وطنية قديمة هي استقلال الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المرقسية بالاسكندرية . فاذا تحقق ذلك فسيكون انتصارا للكنيسة الحبشية . الا ان لهايلا سلاسي فيها مآرب أخرى ـ امتدادا لنفوذه على الكنيسة . وبعد جهود حثيثة ومداولات متواصلة استمرت من سنة ١٩٢٩ حتى سنة ١٩٥٨ ـ أي حوالي ٢٩ سنة ـ بين اديس ابابا والاسكندرية توصل الطرفان خلالها الى اتفاق حصلت بموجبه الكنيسة الحبشية على استقلالها بشؤونها الادارية . وكانت أولى ثمرات الاستقلال انتخاب بطريارك حبشي الاصل والجنسية لاول مرة في التاريخ منذ دخلت النصرانية هضبة الحبشة في القرن الرابع الميلادي . وأصبحت الكنيسة الحبشية بموجب هذا الحدث التاريخي الهام ذات كيان خاص بها لا يجمعها بكنيسة الاقباط المصريين سوى وحدة العقيدة ـ وكلاهما على المذهب الارثوذكسي اليعقوبي .

وكان هذا الحدث الهام بمثابة نقطة تحول خطير ليس بالنسبة للكنيسة فحسب وانما للامبراطور كذلك . فقد ضرب بمجهوداته هذه عصفورين بحجر واحد . لان الدستور نص على ان تعيين رؤساء الاساقفة والاساقفة منوط بالامبراطور . فاستقلال الكنيسة استحدث له سلطة جديدة كان حكام مصر المسلمون قد مارسوها على مدى أجيال وعصور متباعدة بصورة غير مباشرة عن طريق نفوذهم السياسي على بطريارك الاقباط في الاسكندرية .

وثمة أحكام أخرى في الدستور استهدفت الحد من السلطات الزمنية لرؤساء الدين ، منها الغاء اعفاءات الكنيسة من دفع ضريبة الارض وابطال ممارستها جباية مختلف أنواع الرسوم والغرامات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، كانت تثقل كاهل الفرد المسيحي .

الا ان أهم الصلاحيات التي سحبت من الكنيسة هي سلطتها لفرض غرامات عينية ونقدية على عامة الناس عن اهمالهم مراعاة بعض الواجبات الدينية كعدم تطبيق كافة مستلزمات الصيام او العمل يوم السبت او عدم دفع الرسوم المستحقة للكنيسة في مواعيدها وما أشبه ذلك . كانت هذه السلطة الموروثة بمثابة سلاح ماض يدر على الكنيسة اموالا طائلة تؤخذ من المساكين باسم الدين . على ان سلب الكنيسة من هذه السلطات لا يعني تعريتها من كل نفوذها التقليدي او انها فقدت منزلتها الرفيعة المقدسة . فهي على الرغم من ذلك لم تفقد من هيمنتها على حياة الفرد العادي شيئا . وما فتيء مقامها السامي المحور الرئيسي للحياة اليومية للعائلة تقريبا . فلا يقدم انسان ، وخاصة في القرى والارياف ، على اتيان عمل ما دون الرجوع الى القس لاستشارته واكتساب مرضاته والتبرك بموعظته . وقد شاهدت بنفسي بعض العامة يسجدون أمام



القس لتقبيل قدميه بعد يديه . ولا يخفى ان الكنيسة ما زالت تمتلك ما لا يقل عن ثلث مساحات الاراضي القابلة للزراعة في بعض الاقاليم . وعلى كل حال فلها حصص كبيرة من الاقطاعيات الزراعية في كافة اقاليم اثيوبيا بدون استثناء .

اخضاع النبلاء

بعد تصفية الحساب مع الكنيسة انصرف الامبراطور لمعالجة مشكلة من أعقد المشاكل التي اعترضت سبيله في أوائل أيام حكمه ـ تلك هي مشكلة النبلاء الاقطاعيين أو بتعبير اكثر انطباقا على واقع الحال مشكلة الانعتاق من الماضي . ف (الماضي) بالنسبة لاثيوبيا و (الاقطاع) كلمتان تؤديان نفس المعنى والغرض . فلقد أيقن عاهل اثيوبيا منذ البداية بأنه لن يتمكن من احراز أي تقدم في البلاد دون تحقيق درجة مقبولة من الاستقرار الداخلي . وهذا بدوره متوقف على تحطيم معاقل النبلاء والاقطاعيين ودك حصونهم . فلكل من هذه الحصون والقلاع العتيدة صفحة خاصة في تاريخ البلاد الحربي تحكي جانبا من جوانبه المظلمة الجائرة التي يعارض هؤلاء النبلاء ادخال نور الحرية والمدنية اليها .

ان مقارعة الواقع كلف الامبراطور عقدا كاملا من السنين أمضاها في اخماد الثورات التي تزعمها المتنفذون من القواد العسكريين القدماء وملاك الاقاليم ورؤوسها . فلقد رفض عمالقة الاقطاع بعناد وشراسة الانصياع الى نداء الحكومة المركزية بالانضواء تحت لواء واحد للامبراطورية لانهم وجدوا فيه نهاية سلطانهم ومجدهم .

ان هايلا سلاسي كان مدركا ومقدرا لما ستجابهه مشاريعه الاصلاحية من العثرات أمام تحديات هؤلاء الجبابرة . فان كانت الكنيسة قد ثارت بوجهه بشكل سلمي فان هؤلاء يخاطبونه بلغة السيف ويحاربونه بجيوش شرسة ومتحصنة وراء قلاع منيعة وحواجز طبيعية لا تقهر لوعورة دروبها ومسالكها . فان بعض النبلاء تفصلهم عن العاصمة مسيرة ٣٠ ـ ٤٠ يوما من الايام الاعتيادية ، وفي موسم الامطار ثلاثة شهور . وينضوي تحت لواء كل واحد منهم عشرات من زعماء القبائل المرتبطين معهم بمواثيق وأحلاف حسب العرف والتقاليد . انهم يعيشون في عالم غير عالم حكومة اديس ابابا .

اما أعنف خصوم هايلا سلاسي فكانوا في اقليمي تيفره وغوجام في الشمال وسيدامو في الجنوب . ومن طريف ما يروى عن تحديات هؤلاء للامبراطور انه استدعى يوما الزعيم بالتشا Balcha رئيس اقليم سيدامو للمداولة معه في بعض الشؤون . الا ان هذا الزعيم لم يرضخ لهذا الطلب بل تحداه وأجاب الرسول بما يلي : « ان كان سيدك



الامبراطور يبتغي مقابلتي فليات الى سيدامو ويدركني » .

الا ان هايلا سلاسي عالج الموقف بتعقل وحكمة . وكان سلوكه معهم يعتمد على الصبر والمراوغة ، والاهم من ذلك ، محالفة الايام ، متربصا سنوح الفرص الملائمة لضربهم على انفراد . أو بكلمة اخرى فقد أبقى على شعرة معاوية بينه وبينهم ــ أرخاها ان شدوا ، وشدها ان أرخوا . واستمرت مجابهته لهذه المتاعب حتى بعد تتويجه امبراطورا سنة ١٩٣٠ . وفي الواقع يمكن القول ان الامور لم تستتب له تماما الا بعد عودة الحكم الوطني للبلاد سنة ١٩٤١ ، أي على اثر انتهاء الاحتلال الايطالي بمساعدة قوات الانقاذ البريطانية التي ساهمت مساهمة فعالة باعادة عرشه اليه .

فاستغل الامبراطور وجود القوات الاجنبية في البلاد لتوجيه ضربة قاصمة الى خصومه ومناوئيه في الاقاليم وتقليم أظافر النبلاء وتجريدهم من سلطانهم الى الابد ، خاصة اولئك الذين تعاونوا مع الايطاليين في فترة احتلالهم للبلاد . فكلما نشأت ظروف ملائمة للقضاء على احدهم استغلها وسارع بتعيين حاكم جديد من خاصته وممن هم موضع ثقته ، وأمده بالجيش اللازم لاخضاع ذلك الاقليم . اما اليوم ففي اثيوبيا نبلاء واقطاعيون ، ولكن نبلاء واقطاعيون بلا جيوش ولا قلاع . وفي كل من الاقاليم الثلاثة عشر حاكم عام مهيمن على الادارة والامن معين من قبل الامبراطور ومسؤول امامه عن طريق وزير الداخلية .

اصلاح جهاز الدولة

ان مما ساعد على استمرار حالة العزلة الاقليمية في البلاد هو الافتقار لشبكة واسعة من طرق المواصلات تتناسب والحواجز الطبيعية التي كونتها جغرافيتها . وهذه الحالة بلا شك هي احدى العوامل التي لعبت دورا في تعميق هوة الخلافات القبلية والاقليمية عبر التاريخ . ومن حسن حظ البلاد ان الايطاليين خلال فترة احتلالهم أقاموا شبكة قوامها عدة آلاف من الكيلومترات من طرق المواصلات الرئيسية لاستخدامها مبدئيا لاغراضهم العسكرية . الا ان حكومة هايلا سلاسي جاءت فوسعت الشبكة ــ وان لم يكن بالقدر المطلوب ــ خدمة للتجارة ونقل الحاصلات الزراعية ، وكذلك ــ وهذا هو البيت القصيد ربما ــ ايصال القوات العسكرية الى حيث تريد الحكومة ، وفي الوقت المناسب .

كانت السنون التي قضاها هايلا سلاسي في المنفى قد علمته دروسا جديدة في الادارة وتنظيم القوات المسلحة وغيرها من النواحي الحيوية في جهاز الحكم . فعمد الى ادخال تغييرات جذرية في نظام الجند السابق من أجل ضمان سيطرته الشخصية الكاملة على القوات



المسلحة . وكانت باكورة أعماله في هذا الاتجاه تأسيس جيش نظامي موحد مكون من قطعات مستقلة الواحدة عن الاخرى وتعمل كلها تحت امرته وقيادته . وقد روعي في تشكيله من حيث تعداده وتجهيزاته وتدريبه ان يصبح قادرا على سحق أية قوة اقليمية قد تشهر السلاح بوجه الحكومة المركزية . غير ان أهم ظاهرة تميز بها التنظيم الحديث هي ان الجندي أصبح له راتب ثابت معين من خزانة الدولة . وبهذه الخطوة الانقلابية أمكن الاستغناء عن الجيوش المحلية التي كانت تخضع لحكام الاقاليم وتعيش متطفلة على سكان القرى والارياف تمتص دماءهم وتشاركهم قوتهم وغلاتهم .

وقد بارك الاهالي هذه الخطوة الجريئة التي أنقذتهم من مفاسد نظام الجند البالي المبني على الارتزاق وسلب قوت الفلاح . وكذلك الجندي نفسه فقد بات يشعر لاول مرة بشيء من الكرامة والاعتداد بالنفس بعد أن ضمنت الحكومة موردا ثابتا له ولعياله .

اما الادارة المدنية في الاقاليم فكانت في الحقيقة مشكلة المشاكل ومصدر القلاقل وعدم الاستقرار . فمعالجتها كانت من الامور الملحة لضمان قدر كاف من الاستقرار والطمأنينة للمواطنين . فكان النظام الاداري السابق مبنيا على مبدئين كانا السبب المباشر لكل مساوىء الادارة وفسادها . الاول وهو انتقال الحكم وراثيا من الاب الى الابن . فكانت الحاكمية تنحصر في أسرة واحدة معينة جيلا بعد جيل فيقوى نفوذها على حساب الدولة وعلى بؤس الرعايا. والثاني ما يتعلق بتخصيص نسبة معينة من واردات الضرائب للموظف الاداري (الحاكم) نظير خدماته في الدولة .

فأوقف هايلا سلاسي العمل بهذا النظام واستحدث نظاما يخول وزير الداخلية صلاحية تعيين الحكام والموظفين الاداريين الآخرين وتخصيص رواتب شهرية لهم من خزانة الدولة عوضا عن الحصة التي كانوا يستقطعونها لانفسهم من الواردات مباشرة والتي غالبا ما كانت حصة الاسد . وليس ذلك فحسب بل استحدث وظائف جديدة اطلق عليها لقب « المعاون » او « السكرتير » لمعاونة الموظف الاداري ظاهريا . ولكن هي في الحقيقة ليصبح رقيبا عليه من قبل الامبراطور أو وزير الداخلية .

ومن الاصلاحات المهمة ذات المساس المباشر بحياة الفرد كان صدور تشريع سنة ١٩٤٢ يتعلق بتحسين نظام جباية الضرائب . فكان هذا التشريع ابرز الاصلاحات وابقاها اثرا لما كان يرافق نظام الجباية القديم من مظالم وتعسف بحقوق المواطنين وكرامتهم . فالنظام القديم كان اقرب الى السلب والنهب منه الى نظام للجباية . فقد كان الفلاح في



السابق يسدد لحكام الاقاليم كميات عينية من غلاته السنوية يقرر كميتها محصل الضرائب بطريقة اعتباطية وبشكل لا يسمح بالاعتراض . هذا علاوة على العمل الاجباري (السرة) الذي كان يفرض عليه وعلى افراد أسرته على مدار السنة . أما النظام الجديد فقد ألغى السخرة ـ نظريا على الاقل ـ واصبح الفلاح يدفع الضريبة مقابل ايصال يؤيد الدفع صادر من وزارة المالية . هذا لا يعني ان قد قضي على الفساد والرشوة وأصبحت أثيوبيا جنة عدن . الا انه مع ذلك فيعتبر خطوة في الاتجاه الصحيح .

الا انه لا يجوز المرور على هذه النواحي الاصلاحية مر الكرام . فمع ان الحكومة عززت موقفها باصلاح نظام الادارة الجديد ورسخ شبحها حتى في أبعد الاقاليم وأركان الدولة ، الا ان قبضة الامبراطور المباشرة على زمام الامور قد تضاعفت كذلك . وطغت المركزية في الدولة لدرجة اصبحت عائقا لسير الامور وتمشية مصالح المواطنين على الوجه المطلوب وذلك على الرغم من تصريحاته المتكررة بتخويل وزرائه صلاحيات أوسع لتمشية مصالح الناس دون تأخير أو تعقيد . ثم عاد وكرر نفس التصريحات والوعود بالاصلاحات وبالمزيد من الديمقراطيات بعد عودته من البرازيل على اثر الانقلاب العسكري العقيم سنة ١٩٦٠ الذي كاد أن يعصف بالعرش وصاحبه .

الا ان المطلعين على أحوال اثيوبيا عن كثب وعلى فظاعة نظامها الاقطاعي ليخشون الطفرة التي ينادي بها بعض المصلحين ، مخافة ان تجرها الطفرة الى مزالق الفوضوية الفوغائية وشريعة الغاب الافريقية ، والتي قد تدخلها في دوامة من الانقلابات والانقلابات المضادة . ويرون ـ كما ارى أنا أيضا ـ ان ما يناسب اثيوبيا حاليا هو مركزية مخففة مقبولة . والزمن هو كفيل بتحقيق المزيد من الديمقراطية والاستقلال للاخذ بيد الشعب نحو حياة افضل . فلا يمكن لاثيوبيا ان تفلت بعد اليوم من التيار الفكري المتحرر . فالعناصر الواعية وطبقة الموظفين المثقفة ثقافة عصرية أصبحت الآن اكثر صراحة وجراة عن ذي قبل في التعبير عن أفكارها الحرة . ولم يعد خافيا ان جذوة انقلاب ١٩٦٠ لم تنطف وان أفكارا جريئة حرة اخذت تنبعث باستمرار من اركان حرم الجامعة في العاصمة الاثيوبية .

وقد يضطر الامبراطور العجوز تحت ضغط المطالبة بالتجدد من الداخل ووطأة التيارات الفكرية المتحررة المنبعثة من الجمهوريات الثورية التي تطوق اثيوبيا من كل جانب حاليا الى الوفاء بوعوده السابقة ووضعها موضع التنفيذ قبل فوات الاوان . وأرجو ان لا يفوت القارىء الكريم بأن هذا البحث يختص بالفترة التي سبقت الاطاحة بهايلا سلاسي في الثاني عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ .



الفصل الثامن عشر

الغزو الايطالي

القسم الأول ـ الحملة العسكرية

دوافع تاريخية

كان اندحار الجيش الايطالي وهزيمته أمام عساكر منليك في معركة عدوه Adwa في الاول من آذار (مارس) ١٨٩٦ وصمة عار في جبين التاريخ الحربي الايطالي . وكانت اول حادثة من نوعها تنهزم فيها دولة أوروبية عظيمة على يد جيش افريقي غير مستكمل التدريب ومفتقر لمعدات الحرب الفتاكة . وبينما دون الاحباش هذه المعركة بأسطر من ذهب في تاريخهم الحربي وأحاطوها بهالة من التمجيد الى يومنا هذا ، ظل الايطاليون طوال السنين التي اعقبت هزيمة عدوه مطأطئي الرؤوس متحينين الفرص والظروف المناسبة ليثأروا لكرامتهم وسمعتهم الدولية التي هدرها الاحباش في معركة اعتبرت من أضخم المعارك في تاريخ القارة الافريقية .

لم تكن ايطاليا في توسعاتها الاستعمارية موفقة في الحصول على مستعمرات ذات خيرات وكنوز كتلك التي استولت عليها الدول الاخرى في افريقيا . فليبيا مثلا لم يكن فيها غير شريط ساحلي ضيق من الاراضي الزراعية والجبل الاخضر في ولاية برقة يمكن استغلالهما للاستيطان الزراعي . وما تبقى منها فصحراء مجدبة شحيحة الامطار لا تصلح الا للرعي (١) . وميزتها الوحيدة آنذاك هو قربها من ايطاليا . اما الصومال الايطالي فبلاد صحراوية قفراء شحيحة الخيرات قليلة المطر الا في جزئها الجنوبي . وأما أريتريا فليست أراضيها بأوفر من الصومال وليبيا خصبا أو بركة الا في المرتفعات . والاصقاع الثلاثة

---

١ ـ اصبحت ليبيا بلدا منتجا للنفط منذ أوائل الستينات فقط .



بمجموعها ليس فيها ولا الحد الادنى من الامكانيات الطبيعية لتضمن تحقيق التخفيف عن الانفجار السكاني في جنوب ايطاليا الذي أخذ يشكل خطرا اقتصاديا منذ اوائل الثلاثينات من هذا القرن . وكلما تطلعت الى هضبة الحبشة المجاورة من خلال مرتفعات اريتريا ، التي تعتبر من الناحية الطبيعية الجزء الشمالي المتمم لهذه الهضبة الخضراء الغنية ، كلما ازدادت قناعة بأن الحبشة هي الامل الوحيد الذي يوفر لها منفذا ومتنفسا للتخلص من الضائقة الاقتصادية التي تعانيها .

اذن فلا مناص من ضم اثيوبيا برمتها الى ممتلكاتها عبر البحار فيتحقق بذلك حلمها القديم من خلق الامبراطورية الرومانية في شرق افريقيا . وبضم اثيوبيا بأكملها تضمن ربط الصومال باريتريا دون حاجة للتشبث بالحصول على ممر أرضي ضيق لتحقيق هذا الهدف عن طريق تحديد مناطق نفوذ مع كل من بريطانيا وفرنسا كما كانت الافكار متجهة سابقا .

هذه هي الخلفية التاريخية للعلاقات الاثيوبية الايطالية منذ أواخر القرن التاسع عشر . فكانت ايطاليا تسعى لنيل مطامعها تارة عن طريق الضغط المباشر والمناوشات الحربية كما حدث في موقعة عدوه وغيرها، وطورا عن طريق الاتفاقيات التي كانت تتوخى من خلالها فرض الحماية الايطالية على الاحباش والحصول على الامتيازات المفضلة . وهي لم تنفك تراقب الوقت الملائم للانقضاض على هذه الفريسة الجاهزة التي لا حصر لخيراتها ومواردها .

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان ايطاليا لم تكن اول قطر راودته أحلامه ببسط نفوذه وسيطرته على هضبة اثيوبيا لاستثمار كنوزها الطبيعية . فأحداث أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حافلة بالشواهد على ما كانت تبيته لها دول عظيمة اخرى ، بما في ذلك روسيا القيصرية وبلجيكا ومصر . ومما لا شك فيه هو ان ايطاليا شرعت في اعداد خططها النهائية لغزو اثيوبيا منذ سنة ١٩٣٣ .

فأخذت تحشد قواتها في كل من الصومال الايطالي واريتريا كما عمدت على تأسيس مزيد من القنصليات فيها حتى في أبعد الاماكن عن الحضارة بحجة رعاية مصالح الايطاليين المشتغلين بالتجارة والصناعة . فأصبح لها قبل بدء عملية الغزو نحو ٤٠ قنصلية في طول البلاد وعرضها موزعة توزيعا مدروسا ضمنت من وراء ذلك احكام اتصالها بالنبلاء والرؤوس ومختلف العناصر المناوئة لحكم الامبراطور هايلا سلاسي . وفي الواقع لم تكن هذه القنصليات سوى مراكز لبث الدعاية الفاشستية وتوزيع المنشورات السرية للطعن بالامبراطور وفساد حكمه ، واثارة الفتن والقلاقل . ومما يؤيد ذلك وجود قنصليات في اماكن لم يكن فيها للرعايا الايطاليين اي اثر او نشاط .



ومما زاد في عزم موسوليني على غزو اثيوبيا هو خروج ايطاليا من الحرب العالمية الاولى صفر اليدين من مكاسب جديدة في افريقيا والشرق الاوسط . واعتبرت معاهدة فرساي التي رسمت صورة جديدة لخارطة العالم ، مخيبة لآمال الشعب الايطالي الذي ساهم مساهمة فعالة وقدم التضحيات بالمال والرجال للوقوف في صفوف الحلفاء . فلم تفلح جهودها في مؤتمر فرساي لكسب مكان لائق « تحت الشمس » كما كان يحلم رئيس وزرائها السنيور اورلاندو Orlando السياسي المعروف . وكان اورلاندو احد رجال الساعة الاربعة بعد وودرو ولسن رئيس الولايات المتحدة الاميركية ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا وكليمانصو (الثعلب العجوز) رئيس وزراء فرنسا . وظلت ايطاليا طوال سني ما بعد الحرب تشكو افلاسها من اقتسام المغانم الحربية ، اذ ذهبت حصة الاسد لحليفاتها بريطانيا وفرنسا .

حادثة ولوال Walwal على الحدود

أشرنا فيما سبق الى ان ايطاليا باتت تتحين الفرص لاختلاق الاسباب ، مهما كانت تافهة ، للتدخل في شؤون اثيوبيا ، حتى ولو أدى ذلك الى صدام مسلح . وكانت مشاكل الحدود من ابرز مصادر احتكاك المصالح بين الطرفين وبخاصة فان رقعة كبيرة من حدود اثيوبيا مع الصومال لم تكن واضحة المعالم بالاضافة الى كونها واقعة في مناطق صحراوية مهلكة لم تسمح للطرفين بحراستها بواسطة قوات نظامية ومخافر ثابتة على الحدود ، بسبب صعوبة الحياة فيها وشحة مياهها . فهذه البوادي المقفرة لا يمكن ان يقطنها احد سوى بعض القبائل البدوية الرحل التي تقصدها في فترات قصيرة محدودة خلال السنة او في بعض السنين التماسا للكلأ لماشيتها .

لم يكن الاحباش بغافلين عن تحركات الايطاليين وعما يبيتونه لهم من مخططات للنيل من استقلال بلادهم . فهم قوم يتميزون باليقظة والحذر الشديد في معاملاتهم مع كافة الاجانب وخاصة الاوروبيين ، بالمقارنة مع بقية شعوب القارة . وكانوا شاعرين باستعدادات ايطاليا العسكرية وما تضمره لهم من سوء ولكن لا حيلة للضعيف في مسايرة القوي . غير ان صبرهم قد نفد وآلامهم المكبوتة بلغت حدا لم يعد معه السكوت ممكنا على التحرشات والتحديات المستمرة من جانب الايطاليين . وبات الفرد الحبشي يستفزه أقل عمل أو حركة يعتبره عدوانيا ومخلا بكرامته وكيان بلاده . وليس أدل على مشاعره الحساسة في هذه الظروف وعدم قدرته على ضبط النفس من هياج سكان مدينة غوندار لحادث بسيط وقع لاحد الايطاليين مع نفر من



السكان في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤ . فتجمهر السكان امام القنصلية الايطالية واقتحموها عنوة فعبثوا فيها واشبعوا من فيها من الموظفين ضربا . وهنا ثارت ثائرة الحكومة الايطالية وطالبت حكومة اثيوبيا بالتعويضات والاقتصاص من المعتدين . فما كان من الامبراطور الا ان سارع بدفع التعويضات المطلوبة تفاديا لما قد يحدث من مضاعفات .

غير انه حدث مباشرة بعد هذه الفتنة ما هو أبعد اثرا في زعزعة الثقة والعلاقات بين البلدين من حادث قنصلية غوندار . فقد وقع حادث مؤسف لمفرزة عسكرية اثيوبية كانت تعمل مع جماعة من البريطانيين المعنيين في تثبيت بعض نقاط الحدود بين اثيوبيا والصومال البريطاني وذلك في أواخر سنة ١٩٣٤ . فبينما كان الفريق المكون من الاحباش والانكليز في طريقه الى قرية ولوال الاثيوبية الواقعة على مقربة من بعض الآبار واذا بها تباغت بوجود نقطة عسكرية ايطالية متحصنة داخل مبنى لم يكن له وجود في السابق . فطلب آمر الموقع الايطالي من الاحباش والانكليز الجلاء عن هذه البقعة في الحال باعتبارها أراض ايطالية . ولما لم يستجب الاحباش لهذا الطلب ولم يتراجعوا ، باصرارهم على عائدية ولوال الى اثيوبيا ، تصدى لهم الجنود الايطاليون وفتحوا النار عليهم . فرد الاحباش على ذلك بالمثل ، فوقعت نتيجة المصادمة عدة اصابات من الجانبين .

وكما فعلت في احوال مشابهة في السابق قدمت ايطاليا احتجاجا حاد اللهجة للسلطات الاثيوبية على ما وقع مطالبة بمعاقبة المسؤولين عن الحادث وبدفع تعويض عن الخسائر قدره (٢٠٠ ألف دولار اثيوبي) . ومقابل ذلك رفعت اثيوبيا في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ شكوى ضد ايطاليا الى عصبة الامم في جنيف ـ دون جدوى . الا ان العداء السافر بين البلدين أخذ يتجسم ويتصاعد في كافة تصرفات الايطاليين على الحدود . وبات المراقبون يخشون انفجار الموقف في أية لحظة .

شرارة من روما

الزمن هو خريف سنة ١٩٣٥ ـ بعد مرور ٣٩ سنة على هزيمة الايطاليين في معركة « عدوه » . وفي اوروبا كان الدوتشي (موسوليني) قد بلغ ذروة مجده السياسي وغطرسته الرومانية وصار لا يحلو له القاء خطاباته النارية الا على ظهر مدفع ، على أفراد حزبه ذوي القمصان السود في ساحة بياتسا فينيتسيا بروما . وكل ما في الجو السياسي والعسكري يشير الى ان امرا خطيرا وشيك الوقوع .

اما على الجانب الافريقي فكان الموسم موسم أعياد وبهجة وافراح راس السنة الحبشية التي تقع في الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)



ويعقبه في ٢٨ من نفس الشهر عيد الصليب . والمناسبتان ابهج وأعز وأقدس المناسبات الدينية والوطنية في تراث البلاد ويحتفل بهما سنويا بأحسن المظاهر في المدن والارياف وخاصة حول لكنائس والاديرة . وهذه الفترة تمثل انتهاء موسم الامطار فتغدو الهضبة بأجمل اشكالها وألوانها الطبيعية ، وتبدو للناظر وكأنها بساط سندسي زينته الاعشاب والازهار البرية .

في غمرة هذه الاعياد وما يصاحبها من مهرجانات شعبية ورسمية والشعب الاثيوبي الآمن يقضي فترة انشراح وانبساط ، اهتزت اسلاك التلغراف لتنقل البرقية التاريخية التي طيرها السنيور موسوليني دكتاتور ايطاليا الى الجنرال دي بونو De Bono في 'ريتريا يأمره بالتحرك لغزو اثيوبيا من جهة اريتريا في الشمال والصومال الايطالي في الجنوب الشرقي ، محددا يوم ٣ تشرين الاول (اكتوبر) لزحف قواته دونما حاجة لاعلان الحرب وذلك للاستفادة من عنصر المباغتة ، وقبل ان تتاح الفرصة للدول الكبرى بالتدخل لصالح اثيوبيا . ومن غريب المصادفات ان القائد الذي تحمل أعباء تنفيذ مسؤولية الغزو لم يبق في اثيوبيا طويلا ليرى النصر بل استدعي لمهمة أخرى في روما وعين الجنرال بدوليو Badoglio خلفا له .

وبحلول الموعد المحدد حلقت الطائرات الحربية الايطالية في سماء اثيوبيا ووزعت عشرات الآلاف من بيان القائد العام الموجه للشعب الاثيوبي يعلمه بقرار الغزو الذي يستهدف بالدرجة الاولى تخليصه من نير العبودية الذي طوق حريته وكرامته على مدى أجيال طويلة وخاصة في ظل نظام الحكم الحالي . كتبت المنشورات الموزعة في المناطق الشمالية باللغة الامهارية ، وبالعربية في المناطق الشرقية . وبنفس اليوم عبرت القوات الايطالية نهر المارب من جهة اريتريا واحتلت بعض المواقع في اقليم تيغره الاثيوبي . كما قام سلاح الجو بقصف بلدة « عدوه » قصفا رمزيا — مع انها لم تكن هدفا عسكريا — تخليدا لحلول ساعة الثأر والانتقام لمعركة سنة ١٨٩٦ . ومن جهة الجنوب الشرقي دخلت قوات الجنرال غرازياني Graziani صحراء الدناقل المحرقة من نقطة بالقرب من بركان موسى علي . وبهذه الضربة الخاطفة وضعت ايطاليا حدا لحالة (اللاحرب واللاسلم) بين البلدين .

وبعد مرور اربعة ايام على هذا الحدث المفاجيء — أي في ٧ تشرين الاول — كانت عصبة الامم في جنيف غارقة في خضم من المناقشات المملة التي انتهت باتخاذها قرارا أدينت ايطاليا بموجبه واعتبرت دولة معتدية . وتابعت هذه الندوة الدولية مناقشاتها ودراسة مختلف الاقتراحات والتوصيات الرامية لفرض العقوبات على « الدولة المعتدية » دون جدوى . اذ لم تتسم هذه المناقشات ولا الاجراءات بالجدية والاخلاص . اما ايطاليا



نفسها فقد أهملت قرار الادانة وضربت به عرض الحائط . بل مضى موسوليني يسخر بالذين ادانوه وخاطب العالم من فوق فوهة مدفع كانه البركان الثائر . وأصيبت عصبة الامم من جراء ذلك بنكسة سياسية عميقة الاثر لم تقم لها قائمة بعدها كمركز دولي لحل المشاكل المستعصية بين الامم .

حلول هزيلة

فيما كان النقاش محتدما في مقر العصبة في جنيف واصلت ايطاليا استنفار قواتها في كل من اريتريا والصومال بأسرع طاقتها . ليس ذلك فحسب بل عززتها بوحدات جديدة من الوطن الام أنفذتها عبر البحر الاحمر على ملأ الاشهاد . ولم تعبأ بميثاق العصبة ولا الاتفاقية الاثيوبية الايطالية المعقودة سنة ١٩٢٨ . أما بالنسبة للقضية ذاتها فلم تتوصل الدول الى موقف موحد حيال ضمان استعادة قطر عضو في عصبة الامم كرامته وأراضيه المغتصبة من عضو آخر . فكان الاتجاه العام ان تحل هذه القضية سلميا وفق ما نصت عليه الاتفاقية الايطالية الاثيوبية السالفة الذكر . الا أن فرنسا كانت تعارض في ذلك وترى ان تترك ايطاليا وشأنها . فانها ـ أي فرنسا ـ تعتبر ممارسة أي ضغط عليها بمثابة تحفيزها للارتماء بأحضان المانيا النازية التي أخذت تتململ عسكريا بشكل واضح . ففرنسا ترى عدم جدوى البحث في هذه الاتفاقية التي لم يعد لها أي معنى بالنسبة لايطاليا بعد ان داس جيشها الفاتح بنود الاتفاقية بعجلات مصفحاته ودباباته .

اما الانكليز فانهم وان كانوا قد تصدروا مجموعة الدول القائلة بالحل السلمي استنادا للاتفاقية الموضوعة البحث غير انهم في الواقع ومن طرف خفي كانوا ميالين للاخذ برأي فرنسا والوقوف بجانبها . وكان موقف الولايات المتحدة الاميركية معروفا يتصف بالانعزالية التقليدية بالنسبة لكافة القضايا الاوروبية آنذاك حسب مبدأ مونرو Monroe Doctrine . ومن الناحية الثانية كانت هناك جماعة من الدول تتشبث لاقناع اثيوبيا بقبول الحماية الايطالية أو تقسيم البلاد لصالح هذه الدولة .

أيقن الاحباش الآن بأن لا فائدة ترجى من عصبة الامم . ولذلك وقفوا من كل هذه الحلول موقف الرفض ايمانا منهم بعدالة قضيتهم واعتمادا منهم على ضمائر بعض الاعضاء في العصبة في ابداء المساعدة لهم خارج الندوة . هذا ولا ينكر ان الموقف الشجاع الذي وقفه الاحباش كان يعكس تصميم شعب كل اثيوبيا على المضي في القتال استنادا الى روح التفاني المتأججة في نفوس أبناء الشعب وبسالتهم التي حققت لهم



النصر في « عدوه » قبل ما يقرب من ٤٠ عاما . فالاحباش ما زالــوا ينظرون الى الايطاليين تلك النظرة الاستخفافية يوم مزقوا ارتال جيشهم الثلاثة شر ممزق .

مضت الايام وتلتها الاشهر وأخذ عامل الزمن مفعوله وصار الاهتمام بالقضية الاثيوبية يتضاءل فيما استمر زحف الجيوش الايطالية . وتوغل ذوو القمصان السود في كل مكان كالسيل الجارف . ولم تتأثر ايطاليــا بالعقوبة الاقتصادية المفروضة عليها لانها لم تطبق برغبة صادقة مــن جانب الدول العظمى ذات المصالح في المنطقة .

وفجأة انقلب ميزان القوى في أوروبا بظهور أحداث أذهلت العالم كله وباتت قضية اثيوبيا أمرا تافها بالنسبة لذلك . فقد استغلت المانيا النازية ضعف عصبة الامم وانشغالها في مناقشات الغزو الايطالي فاحتلت منطقة الراين عسكريا بشكل خاطف . وصدع العالم لهذه الضربة ولـم يعد يفكر باثيوبيا بعد شهر آذار (مارس) ١٩٣٦ وهو التاريخ الـذي زحفت به المانيا على الراين . ومن هنا بدأ الجو السياسي في أوروبا يزداد تأزما . وضرب المراقبون السياسيون أخماسا بأسداس حول من ستكون الضحية القادمة يا ترى . وبتحول الرأي العام العالمي نحو التوسع النازي داخل القارة الاوروبية تنفس موسوليني الصعــداء وطمست القضية الاثيوبية .

وفي داخل اثيوبيا ازداد هياج السكان وتعطشهم لقتال الايطاليين . فطيروا آلاف البرقيات للامبراطور يستحثونه على استنفار كافة قــوى الشعب لصد الجيوش المعتدية . حتى ان بعض الرؤوس وجهــوا اللوم والتقريع اليه لثقته الخاطئة بقدرة عصبة الامم لرد حقوق اثيوبيا وعدم اتفاقهم واياه بجدوى الاعتماد عليها . كما اتهموه بالتقصير للسمــــاح للايطاليين بزيادة قواتهم المسلحة على الحدود في السنوات الاخيرة .

عقوبات اقتصادية

كتب ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الاسبق في مذكراته : ان موسوليني أراد ان يثأر للهزيمة البشعة التي منيت بها ايطاليا امام الاحباش في معركة « عدوه » على أيدي عساكر شبــــه نظامية ــ تلك الهزيمة التي انتهت بالقضاء على الجيش الايطالي . ليس ذلك فحسب بل بقيام الاحباش بالتمثيل بمن سلم من الموت أفظع تمثيل (٢) . ثم يستطرد بالنقد اللاذع حسب اسلوبه الخاص المعروف فيقول : « ان حركـــــة موسوليني بزج ربع مليون جندي من زهرة شباب ايطاليا فــي مجازفة عسكرية في مجاهل اثيوبيا ضد شعب آمن لم تتقدم على احتلاله دولة من

2 — The Gathering storm, by Winston Ghurchill, page 166.



الدول الكبرى طيلة اربعة آلاف سنة من تاريخه متحديا بذلك العالم كله ، لحركة رعناء حقا » .

الا ان من المضحك الغريب ان يستمر تشرشل في توجيه اللوم لموسوليني والطعن به واتهامه بالخروج على المبادىء الاخلاقية والانسانية لدبلوماسية القرن العشرين وينعت الخطوة التي اقدم عليها بانها عمل بربري كان يرتكب في القرون المظلمة (٣) . ونسي تشرشل أو تناسى كيف ان بريطانيا العظمى بساستها الاخلاقيين والانسانيين وصحافتها والرأي العام فيها داست على هذه المبادىء الاخلاقية حين مهدت لاغتصاب فلسطين وسكتت عن تشريد شعب من أرض اجداده على النحو اللاانساني الذي عرف به تشرشل وزملاؤه الاخلاقيون من اجل سواد عيون عصابات مجرمة باعتراف الجيش البريطاني في فلسطين نفسه والجرائم التي ارتكبتها تلك العصابات التي ربما كان موسوليني يترفع عن الاتيان بمثلها .

يتناول تشرشل بعد ذلك موضوع العقوبات الاقتصادية بالتحليل فيقول انها جاءت مخيبة للامال . فكان يظن انها ستقصم ظهر ايطاليا وتثنيها عن عزمها وتفسد عليها مغامرتها فيقول ساخرا : « ان اللجنة التي أنيط بها اعداد الخطة للعقوبات الاقتصادية التي كان يجب فرضها على ايطاليا استهدفت فرض عقوبات مع تحاشي أي صدام مع ايطاليا » . فمثلا منعت عنها بعض المواد الحربية ولكن لم تمنع عنها النفط (البترول) . مع العلم انه لو تم ذلك لفشلت الحملة العسكرية من اساسها . ولكن اللجنة أبقت امدادات النفط تحاشيا لوقوع حرب مع ايطاليا (٤) . اما موقف الولايات المتحدة الاميركية ــ وهي اكبر مجهز للنفط في العالم آنذاك ولم تكن عضوا في عصبة الامم ــ فلم يكن واضحا بالنسبة للعقوبات . ومن جملة ما منعت اللجنة عن ايطاليا هو الالومينيوم في حين ان هذا هو المعدن الوحيد الذي تنتجه ايطاليا بشكل يفيض عن حاجتها (٥) . فهي اذن لا تستورد هذه المادة . فما معنى المنع اذن ؟ كما منع عنها نفاية الحديد أو قراضة الحديد (السكراب) والحديد الخام . ولكن ايطاليا في ذلك الوقت لم تكن صناعة التعدين فيها موجهة للاستفادة من هذه الخامات . ولذلك فهذا المنع لم يؤثر في مجهودها الحربي . ومن المواد التي كانت ايطاليا بأمس الحاجة اليها ــ وهي الفولاذ ــ فلم تدخل في قائمة الممنوعات (٦) .

---

٣ ــ المصدر نفسه ــ صحيفة ١٦٥ ــ ٦٦

٤ ــ المصدر نفسه ــ صحيفة ١٧٥

٥ ــ المصدر نفسه ــ صحيفة ١٧٦

٦ ــ المصدر نفسه ــ صحيفة ١٧٦



لقد بالغت الصحافة العالمية آنذاك بجسامة وصرامة العقوبات الاقتصادية كسلاح رادع ولكنها ضللت الرأي العام العالمي فأبقته بجهل تام عن عدم جدواها . وحتى الرأي العام البريطاني تمسك بها ووقف الى جانبها باعتبارها أمضى عقوبة في مثل هذه الحالات ، في حين ان قلة من ساسة اوروبا فقط كانوا مدركين عدم فعاليتها . فقال تشرشل ان هذه العقوبات لم تكن عقيمة فحسب وانما بعثت روح التحدي والاقدام في نفوس الايطاليين .

ولم يكتف تشرشل بالاستهزاء بقرارات لجنة العقوبات بل يعود فيوجه اللوم والتقصير للحكومة البريطانية نفسها لعدم استخدامها الاسطول البريطاني الذي كان يومئذ مرابطا بالاسكندرية . وكان بمقدور هذا الاسطول التصدي للحملة الايطالية ومنع بواخرها من عبور قناة السويس . ثم ينتقد الساسة البريطانيين لتذرعهم بحجة واهية في عدم استخدام هذا السلاح هي ان البوارج البريطانية أصبحت من الطراز القديم وقد لا تستطيع الصمود بوجه القطعات البحرية الايطالية الحديثة. علاوة على ذلك فقد تمسكت البحرية البريطانية بشائعات هي أقرب الى الاساطير منها الى الواقع ـ عن فرق الانتحار التابعة للسلاح الجوي الايطالي .

وخلاصة القول ان تشرشل كان يعتقد بأن بريطانيا لم تقف موقفا حازما من ايطاليا بل اكتفت بتزعمها حربا كلامية في عصبة الامم فطمست بذلك القضية الاثيوبية في بحر المناقشات التي انتهت بفضيحة ضعف هذه الندوة العالمية وعدم قدرتها على صد الاعتداء عن الضعفاء من أعضائها . ان كل ما أنجزته العصبة بهذا الصدد كان مجرد قرارات لم تتجاوز حدود أروقة قصر الامم . فانطبق عليها المثل القائل : تمخض الجبل فولد فأرا .

في جبهات القتال

اندفعت قوات الاحتلال الايطالية على طول الجبهة الشمالية مخترقة الحدود كالسيل الجارف دون مقاومة تذكر لانها أخذت الاحباش على غفلة منهم . فأوعز الامبراطور الى قواده بانتهاج خطة الانسحاب الى داخل الهضبة بغية اجتذاب العدو الى قلب البلاد واطالة خطوط مواصلاته عبر الاودية الوعرة وابعاده عن قواعد تموينه الرئيسية . وهذه خطة ستراتيجية مهمة بالنسبة لطوبوغرافية الحبشة . الا ان الايطاليين الذين خبروا وعورة جبال الحبشة وصعوبة مسالكها قبل هذا أعدوا العدة للتغلب على مشاكل الارض والطبيعة . اما بالنسبة للطبيعة فقد تقرر ان يبدأ الهجوم بعد انتهاء موسم الامطار الرئيسي (حزيران ـ ايلول أو يونيو الى سبتمبر) . وأما بالنسبة لوعورة الارض فقد استخدم



الجيش اوسع الخدمات والتجهيزات الهندسية ومعدات شق الطرق وتعبيدها وانشاء القناطر والجسور . ولذلك فلم تؤثر هذه الموانع الطبيعية ولا بعد خطوط المواصلات على تقدم الجيش الزاحف .

وعندما فوجئت الحكومة الاثيوبية بانباء الزحف الايطالي سارعت الى استنفار قواتها النظامية وغير النظامية في الولايات . وفور تجمعها في العاصمة استعدادا للتوجه الى خط النار استعرضها الامبراطور فاستغرق ذلك أربع ساعات ، ومنها أنفذت الى الجبهة . وفي طريقها الى الحرب حدثت مشاحنات ومشادات بين مختلف الوحدات والصنوف ، وبين الجيش النظامي وغير النظامي ، وقعت خلالها اصابات كثيرة فيما بينهم . وجوهر الخلاف كان يدور حول الامور المعاشية . فبينما كان الجندي النظامي يأكل ويشرب على حساب الدولة وله راتب معين فان الجندي غير النظامي كان عليه ان يحصل على قوته عن طريق الارتزاق من سكان القرى . ولا يخفى ما كان يصاحب ذلك من سلب ونهب ومظالم وعبث على مقياس واسع بممتلكات الاهالي .

اما من الجهة الشمالية فقد واصل الايطاليون تقدمهم السريع فاحتلوا بلدة « عدوه » بعد بضعة ايام ــ وكان هذا الموقع هدفا من أهدافهم الرئيسية لان احتلاله فيه معنى من غسل عار سابق . وفي ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ سقطت بأيديهم مدينة مكالي Makale عاصمة اقليم تيغره ، ثم تبعتها اكسوم العاصمة التاريخية المقدسة . وعلى اثر ذلك اجتمع رجال الكنيسة فيها فأعلنوا الطاعة للقائد الايطالي فيما واصلت قواته الزحف جنوبا نحو العاصمة اديس ابابا . وكانت السلطات هنا جادة في تدريب فرق المقاومة وفرق الفدائيين لمهاجمة خطوط المواصلات وعرقلة سير العدو .

تولى قيادة الحملة في الجبهة الجنوبية الشرقية جندي من أبرز جنود ايطاليا ، تردد اسمه فيما بعد كثيرا خلال الحرب العالمية الثانية في شمال افريقيا ــ ذلك هو الجنرال غرازياني Graziani الذي زحف على اثيوبيا من الصومال كما أسلفنا . وفي بادىء الامر دارت معارك على مقياس ضيق اثناء تقدم هذه القوات حيث اظهر الاحباش فيها بطولات مشهودة كادت ان توقف الزحف الايطالي في بعض القطاعات لولا تفوق سلاح الجو الايطالي وقصفه مواقع الاثيوبيين بلا هوادة . وهذا هو ما أنقذ الموقف . ومما ساعد الايطاليين ايضا سرعة مناورات القوات الآلية ، الامر الذي أضعف صفوف الاثيوبيين الامامية وأفسد على القيادة خططها التعبوية .

ولا يفوتنا ان نشير هنا الى انحياز بعض السلاطين المحليين ــ في المناطق الصحراوية ــ الى الجبهة الايطالية التي غررت بهم بالمال والوعود باطلاق الحريات لهم ومعاملتهم على قدم المساواة مع الاحباش الامهاريين . وانحياز هؤلاء السلاطين او غيرهم من الزعماء كان أمرا متوقعا للخلاص



من عبودية نظام الحكم الاستبدادي المبني على التفرقة الدينية والعنصرية. فالمرء في مثل هذه الظروف قد يندفع للتحالف حتى مع الشيطان للتخلص من البؤس الذي هو فيه .

وقد تجدر الاشارة كذلك الى ان بعض الانتصارات التي حققها الاحباش في هذه الجبهة كان مردها قيادة الجيش الحكيمة . فقد قاتل مع الاحباش في هذه الجبهة ثلاثة من الخبراء العسكريين الاجانب الذين تولوا قيادة بعض قطاعاته ، وهم طارق بك وهو سوداني حارب الايطاليين مع القوات الوطنية في طرابلس الغرب عندما احتلها هؤلاء الغزاة سنة ١٩١١ ، والمقدم فاروق وهو تركي الاصل والجنسية عمل ملحقا عسكريا في السفارة التركية في اليونان ، ووهاب باشا وهو كذلك تركي الجنسية كان قائدا لاحدى وحدات سلاح المدافع الرشاشة في جبهة غاليبولي سنة ١٩١٥ . فقد استخدم هؤلاء العسكريون الثلاثة مناورات حربية أذهلت الايطاليين وأوقفت تقدمهم ، الامر الذي أغضب رئاسة الاركان العامة في روما . فطلبت للجنرال غرازياني تصعيد العمليات الحربية واستخدام الغازات السامة اذا اقتضى الامر ذلك .

وازاء تفوق الايطاليين العسكري المتزايد في العدد والعدد ، يقابله تناقص الذخيرة الحربية لدى الاحباش ـ فمهما كان لدى الحبشة من كميات وفيرة من العتاد فانها لم تتوقع أن تصطدم بحرب شاملة على جبهتين مع احدى الدول العظمى ـ انحرفت كفة الميزان الحربي في صالح الايطاليين . ومع ذلك فلم يفقد القائد الاثيوبي امله بالنصر . فأصدر أوامره بالقيام بهجوم مركز بكل قواته . وكانت القوات مع شحة ذخيرتها الحربية عبارة عن مجرد كتل بشرية ضخمة تكاد تكون عزلاء . فهجومها كان اشبه بعملية انتحارية ان دلت على شيء فانما تدل على مبلغ تفاني الحبشي من أجل بلاده . فارتد الهجوم ازاء نار الاسلحة الحديثة الفتاكة وانقلب الى انسحاب سريع ما لبث أن تحول الى هزيمة محزنة .

ان ما زاد في عمق المأساة واضعاف معنوية الجيش الاثيوبي في جبهة القتال علاوة على نفاد الذخيرة الحربية تقريبا ، هو انسحاب اربعة من قواده لدى سماعهم نبأ مغادرة الامبراطور البلاد . ولما أصيبت الجبهة بهذه النكسة وتلاشت المقاومة الدفاعية تمكن الايطاليون من تطويق ما تبقى من القوات الوطنية واحتلال مدينتي جيغجيغا وهرار في اليومين السابع والثامن من شهر ايار (مايو) ١٩٣٦ . وباحتلال هذين الموقعين الهامين أسدل الستار على الجبهة الجنوبية الشرقية وباتت ايطاليا سيدة الموقف في ذلك القطاع .

جبهة وراء خط النار

اذا كان قد عرف عن الايطاليين انهم في غزوهم لاثيوبيا قد فتحوا جبهتين واضحتين للقتال ـ وهما جبهة اريتريا وجبهة الصومال ـ فلقد



اقاموا منذ امد بعيد قبل بدء الحركات الحربية جبهة ثالثة لم يكن سلاحها النار ، وقد عملت بكل صمت وتستر ، جندوا للخدمة فيها الرعايا الايطاليين المستوطنين هناك وكافة عملائهم والحادقين على الوضع القائم من الرؤوس والنبلاء الاحباش الذين جردهم هايلا سلاسي من نفوذهم وسلطانهم ، وكذلك من السكان المنبوذين بسبب معتقداتهم الدينية المحرومين من نعمة التمتع بالحقوق الاساسية للمواطن الحر . ساهمت هذه الجبهة مساهمة مثمرة لنجاح المجهود الحربي الايطالي خلف خطوط القتال وذلك عن طريق الدعاية وبث الرعب والاخبار المفزعة عن مصير الاحباش المشتركين بالقتال واثارة الفتن .

ومنذ اللحظة الاولى للحملة العسكرية انتهجت الادارة العسكرية ــ بناء على أوامر موسوليني ــ سياسة « فرق تسد » ، مستغلة حالة الاستياء العام عند المسلمين من سوء معاملة حكامهم لهم . فقدمتهم ومنحتهم الامتيازات وفتحت أمامهم مجال العمل الزراعي وتملك الاراضي الزراعية التي حرموا منها منذ عهد ثيودور ومن بعده يوحنا الرابع . ليس ذلك فحسب بل ادخلت بعضهم في مراكز حساسة من الحكومة وانخرط عدد منهم في الخدمة العسكرية . كما سمح لهم في تشييد الجوامع في أماكن غير منزوية على عكس ما كان يفرض عليهم في السابق . فاقيمت الجوامع الكبيرة ذات الطراز الجذاب في مدن عديدة مثل أديس أبابا وغوندوار وجيما وأسمرة ومصوع وديره داوه وغيرها ، ساهم الايطاليون ماديا في تشييد بعضها .

وفي جيما عاصمة اقليم كافا ، وهي المركز الاسلامي الذي يحتل المرتبة الثانية بعد هرار أسس الايطاليون معهدا لتدريس الفقه والشريعة الاسلامية . فلا غرو اذن أن يتعاون مسلمو اثيوبيا مع سلطات الاحتلال تمشيا مع المثل الشائع ــ عدو عدوي صديقي . بهذه الاساليب تمكن الايطاليون من اجتذاب فئة كبيرة من السكان ما كانت لتنحاز اليهم ــ الى المستعمر ــ لو كانت قوانين البلاد قد ضمنت لكل رعايا الدولة على السواء النصيب اللازم من العدالة الاجتماعية . ولكن أساليب الحكم البالية المبنية على التعصب الديني الاعمى في اثيوبيا هي التي ادت الى تصدع وحدة البلاد وهي التي مكنت الايطاليين من النجاح في فتح هذه الثغرة في صفوف المواطنين لصالحهم . اذن فهي وحدها التي تتحمل مسئوولية هذا التصدع المزري .

فالشعب الاثيوبي مازال يعيش في جو من التمييز العنصري منذ غرس بذوره الامبراطور يوحنا الرابع . يذكرنا ذلك بالظروف التي عاش فيها اليهود في اسبانيا في القرن السابع الميلادي حينما خيروا بين أمور ثلاثة : فاما اعتناق النصرانية دينا أو الموت أو مغادرة البلاد . وتظاهرت جماعة من اليهود بالنصرانية ثم بدأت تعمل في الخفاء عن طريق الجمعيات السرية وغيرها لتقويض المجتمع الاسباني المسيحي وهدم أركان الدولة



عن طريق التخريب والهدم التدريجي . فاتسعت حركة منظماتهم السرية وتصاعدت معها أعمال التخريب انتقاما للمظالم التي تعرضوا لها . وقديما قيل : الظلم اذا دام دمر .

موسوليني والاسلام

لقد نجح موسوليني في اجتذاب مسلمي الحبشة واريتريا الى جانبه الى حد ما . وطبيعي أن المسلمين انماتقربوا من الايطاليين لارتياحهم برفع القيود والعبودية عنهم ومساواتهم مع العنصر الامهاري الذي فرض زعامته على بقية شعوب الامبراطورية عن طريق القوة والتعسف وسامها الذل والهوان بلا رحمة . ان الذل لا يطاق مفروضا من قبل عدو غاصب. فكيف به يفرض على سواد الشعب بأكمله من قبل فئة حاكمة من الشعب نفسه . الا ان سياسة موسوليني لم تنطل على المسلمين في مشارق الارض ومغاربها . فلما اظهر الدوتشي تقربه من المسلمين بتنصيب نفسه « حامي الاسلام » استقبله العالم الاسلامي بالسخرية والاستهجان . فلم ينس المسلمون بصورة أخص ما ارتكبه الايطاليون من آثام في ليبيا على أثر احتلالهم طرابلس الغرب سنة ١٩١١ . وما عمدوا اليه من تقتيل وتشريد . فكان هدفهم متجها الى ابادة الشعب الليبي ، حتى اضطرت أكثر العناصر الوطنية للهجرة الى خارج البلاد أو الاحتماء بالصحراء والواحات النائية تاركين للمستوطن الايطالي أجود وأخصب الاراضي الزراعية الممتدة على طول الشريط الساحلي .

وبعد كل هذا المنكر يطل موسوليني على اتباعه من شرفة السراي الاحمر في طرابلس الغرب سنة ١٩٣٧ ليعلن في خطابه اليهم حمايته للاسلام . فعلقت على هذه المخادعة صحافة العالم الاسلامي وقابلتها بما تستحق من الغمز والتقريع. والفقرة التالية المقتبسة من خطابه لم يقصد من ورائها سوى تخدير عقول البسطاء والسذج من أصحاب الطرق الصوفية الذين كان يغدق عليهم المال بسخاء لكي يضرب بهم الامهاريين الاقباط اعداءه بالمذهب . وهذه هي الفقرة

« تود ايطاليا الفاشستية أن تؤكد للمسلمين عزمها على ضمان السلام والعدل والرخاء لهم . واحترام تعاليم الرسول . كما تعلن للملأ جهارا تعاطفها مع الاسلام والمسلمين في كافة أنحاء العالم » .

مذبحة الرهبان

لم تستثن الحملة العسكرية الكنيسة القبطية من آثامها ومظالمها وأعمالها البربرية . فكان يبدو وكأن جيوشها دخلت اثيوبيا متعطشة للانتقام والنيل من كرامة المذهب اليعقوبي . ولعل ذلك مرده الحقد القديم المتأصل بين كنيسة روما الكاثوليكية والكنيسة الحبشية . وواقع



الحال هو انه لا الاقباط ينسون فظائع الجيزويت الكاثوليك وكيف ان عشرات البعثات التبشيرية جاءت منذ القرن الرابع عشر بهدف تحويل الاحباش عن مذهب كنيستهم التقليدي ـ المذهب اليعقوبي ، ولا الكاثوليك ينسون ما أصاب أفراد بعثاتهم من اضطهاد وتقتيل وتشريد في فترات مختلفة في الماضي على أيدي أباطرة الحبشة .

لقد ناصبت الادارة العسكرية رجال الدين الاقباط العداء السافر منذ بدء الاحتلال الى أن جاءتها الاوامر فيما بعد للتخفيف من غلوائها مخافة اثارة مشاعر السكان والعالم المسيحي . فلقد اتهمت السلطات العسكرية رجال الدين بمناوأة الاحتلال الايطالي وممالأة العناصر الوطنية وقواد الجيش السابقين . ووجهت اللوم لبعضهم على اساس قيامهم بتحريض تلك العناصر على التمرد والعصيان بوجه الزحف الايطالي . ولذلك فعمدوا الى أيذاء البارزين منهم فقتلوا الاسقف أبونا بدروس ثم الحقوا به أبونا ميخائيل وكثيرين من القساوسة والشمامسة . كما عبثوا ببعض الاديرة والكنائس وأتلفوا كنوزها الثمينة ومسخوا معالم تراثها وأوقعوا بها خسائر مادية جسيمة . وفي سبيل أن يخفف الايطاليون من أساليب البطش التي نهجت عليها سياستهم فقد حاول المطران (المصري الاصل) التعاون معهم بكل الوسائل الممكنة ، مع أنه لم يرضخ لكافة مطالبهم ، ولم يوافق على تنفيذ مقترحاتهم بشأن بعض التعديلات التي كانوا قد قرروا ادخالها على أنظمة الكنيسة . ولما لم تأت سياسة اللين ثمرتها مع المحتلين اضطر أخيرا للتقاعد عن العمل احتجاجا والعودة الى مصر .

ذهب الايطاليون في طغيانهم ومظالمهم الى أبعد من ذلك فاختتموا وحشية أعمالهم بحادث رهيب مروع هز العالم المسيحي هزا لفظاعته ـ ذلك هو مذبحة دير ديبراليبانوس بحجة أنهم عثروا على أسلحة في هذا الدير . فلأجل معاقبة منتسبيه أزهقت أرواح كافة الرهبان فيه البالغ عددهم ٣٥٠ راهبا ثم حذفوا بجثثهم من على صخور الدير الى الوادي السحيق تحته . كان ذلك الحادث في بداية الحملة العسكرية . وربما قصد به الارهاب . ولوحظ أن الادارة العسكرية سلكت فيما بعد مسلكا لم يتسم بالتعسف أو الغدر كما حدث في الايام الاولى للاحتلال . ولعل هذا التغيير جاء بناء على كثرة الاحتجاجات التي انهالت على ايطاليا من مختلف أنحاء العالم . وقد كان لهذه الاعمال الوحشية رد فعل سيء حتى خارج العالم المسيحي .

استخدام الغاز السام

اشرنا فيما سبق الى ان الاحباش هبوا عن بكرة أبيهم لصد المعتدي، وثوقا منهم بقوة ايمانهم وبسالتهم وتفانيهم في الذود عن حياض بلادهم ـ هكذا عرف الاحباش عبر تاريخهم الطويل . وحقا فقد استطاعوا في



بعض المواقع من صد هجمات الايطاليين على الرغم من افتقارهم للمعدات الحربية العصرية والتدريب . فلما شعرت رئاسة الاركان العامة بتلكؤ سير العمليات الحربية وأنها لم تتقدم حسب الخطة المرسومة أصدرت اوامرها الصريحة باستخدام الغاز السام عند الحاجة. وعندما قام الراس ايمرو Ras Imru بحركته الالتفافية الباهرة في الجبهة الشمالية أمطروا جنوده بقنابل الغاز السام لأحباطها . ثم اكتشفوا أن تأثير هذه القنابل ، التي كانت على شكل علب تنفجر لدى ارتطامها بالارض ، محصورا بمساحات محدودة ، لجأوا الى طريقة أكثر كفاءة وتأثيرا وذلك برش غاز الخردل رشا مباشرا من الفضاء من أجنحة الطائرات . وبهذا الاسلوب صار الغاز السام يهبط الى الارض على هيئة غمامات كثيفة لم يفلت من شرها أحد . فاقترفوا بذلك أبشع جريمة حربية لا بحق القوات المسلحة على جبهة القتال فحسب بل بحق السكان الامنين العزل كذلك .

وما عتم الايطاليون ان استخدموا الغاز في كافة جهات القتال دونما تمييز . فمات من جراء ذلك الالوف من القرويين رجالا ونساء ، شيوخا واطفالا . وشوهت وجوههم واحرقت ابدانهم بأبشع شكل . كما هلكت قطعان البقر والاغنام بالآلاف ، بما فيه الحيوانات البرية . رغم كل ما حدث فلم تستجب ايطاليا لنداء الانسانية الذي جاء على لسان الصليب الاحمر الدولي في الميدان . فكتب بذلك الدكتور جون ميلي Dr. John Melly ممثل الصليب الاحمر في تقريره ما يلي : ــ

«ليست هذه المعركة بحرب ولا هي بمجزرة وانما هي تعذيب وآلام بالقنابل والغازات السامة لعشرات الألوف من الرجال والنساء والاطفال العزل . لقد قمنا بمعالجة مئات الاصابات بما في ذلك الاطفال الرضع . ولكن الايطاليين ما برحوا يستعملون الغاز باستمرار دون توقف . كل هذه الفظائع ترتكب والعالم يتطلع بغير اكتراث . »

مجزرة غرازياني

بعد ما استسلمت الجيوش الاثيوبية ووضعت الحرب اوزارها كوفىء قائد الجهة الجنوبية الجنرال غرازياني بترقيته الى رتبة مارشال وبتعيينه نائبا للملك خلفا للمارشال بدوليو في ليبيا . وبعد أن تم الانعام عليه بهذا المنصب الرفيع أراد غرازياتي اظهار التفاتة طيبة خيرة نحو الفقراء والمعدمين وذلك تمشيا مع سنة أباطرة الاحباش الذين اعتادوا اكرامهم بالتصدق عليهم ببعض المال أو الاطعمة في مناسبات خاصة . فحدد يوم لذلك لتوزيع بعض الهدايا والنقود . واجتمع خلق كبير أمام قصر غرازياني في أديس أبابا .

الا أن أحد الوطنيين أراد استغلال هذه الفرصة للفتك بنائب الملك . فأعد اثنين من رجاله الفدائيين وزودهما بالقنابل اليدوية لهذا الغرض



فاندسا بين الالوف المحتشدة امام القصر . ولما دنت اللحظة المناسبة اخترقا صفوف الجماهير حتى اذا ما صارا على مقربة من هدفهما قذفا بالقنابل أمام نائب الملك وحاشيته . فاصيب هو وعدد كبير من خاصته والجمهور المحتشد بجراح . فحصلت بلبلة بين الناس وذعروا للحادث . الا أن حرس القصر فتحوا النار على الجمهور من غير تمييز ، الامر الذي أدى الى سقوط مئات القتلى والجرحى .

وعلى أثر ذلك هب ذووا القمصان السود (الفاشست) متخذين من هذه الحادثة ذريعة للعبث بالعاصمة والمدن الاخرى . فاستباحوها ثلاثة أيام قاموا خلالها بكل عمل منكر من نهيب وتخريب واشعال الحرائق والتحرش باعراض الناس . وحتى كتدرائية القديس جورج في العاصمة لم تسلم من أذاهم . فحطموا زجاج نوافذها الجميلة واتلفوا زخارفها الثمينة والرسوم والتحف المعلقة على جدرانها .

ولكن بقدر ما امعن ذووا القمصان السود في الاساءة لهذا الشعب المغلوب على امره والتخريب الذي أحدثوه ، تضاعف الحقد في قلوب الاحباش على هؤلاء المعتدين وعم الاستياء كل طبقات الناس والتهبت مشاعرهم للانتقام واستيقظت روح التفاني والمقاومة بين صفوفهم بشكل اعنف من ذي قبل . وقاد حركة المقاومة هذه التي اتسع نطاق نشاطها واخذت شكل تنظيمات سريةعدد من الزعماء الوطنيين وقادة الراي وبعض المحاربين القدماء . فعمل قسم منها داخل أديس أبابا وأصدروا النشرات السرية للأهابة بالناس للقيام بوجه المحتل الغاصب ، فيما توارى القسم الآخر عن الانظار واخذوا يعملون في الارياف بحرية أكمل بعيدين عن أعين الرقباء والجواسيس .

وكلا الفئتين دفعتا ضريبة الدم بسخاء من أجل انقاذ الوطن ، اذ كانت دائرة المخابرات الايطالية لا ترحم من تلقي القبض عليه من هؤلاء الفدائيين . فكانت تتظاهر بابعادهم الى روما ولكن في الواقع لم يكن أحد ليسمع خبرا عن مصير من أبعد الى روما . وقد أشيع أن عددا منهم لقي حتفه قذفا من الطائرات كما فعلوا بالشهيد الليبي المرحوم عمر المختار طيب الله ثراه . وثمة وسيلة اخرى لجأت اليها المخابرات الايطالية هي اطلاق النار من البنادق والرشاشات بغير هدف في الميادين العامة كما حدث للاسقف بطرس Bishop Petros الذي اطلقت عليه النار من أحد ميادين اديس ابابا .

وليس أدل على مبلغ علو الهمة عند المواطنين وازدياد الشعور بتصعيد المقاومة بين أفراد الشعب من الحادثة التالية التي وقعت في نفس روما على يد مواطن اثيوبي . فقد جرى احتفال تذكاري فخم في سنة ١٩٣٧ بمناسبة مرور عام واحد على احتلال اثيوبيا ، حضره ملك ايطاليا فكتور عمانوئيل وموسوليني لتوزيع الاوسمة والهدايا على الضباط



الممتازين الذين قاموا بأعمال بطولية . وكانت بعض هـذه الهدايـا تحفـا تذكارية من جملة المغانم التي استولى عليها الجيش، من ضمنها مثلاسيف ثمين كلف بنقلها جميعا مواطن اثيوبي اسمه زيراي ديريس Zerai Deress . ولم يكن زيراي يعلم ماهية الهدايا التي كان قد كلف بنقلها الـى ايطاليا الا عندما اخرجت من اغلفتها وعرضت للتوزيع . فلما وقـع بصره على التمثال الذهبي لأسد يهوذا الذي كان منصوبا أمام محطة القطار في اديس ابابا ، والذي جلب ليوضع في روما نهض من مكانه وسط الاحتفال المهيب وركع للصلاة كأنه يهم بعمـل شيء خطيـر . فلمـا شعر البوليس بغرابة الحركة تقدم منه اثنان محاولين زحزحته من مكانه غيـر أن زيراي استأسد ولم يعد يتمالك نفسه وضبط أعصابه . وطار الشرر من عينيـه واصبح بحالة هياج عنيف ، فامتشق هذا الحسام الثمين وقتل به خمسة من الفاشيست ذوي القمصان السود قبل أن يسقطه رصـاص الشرطـة أرضا مضرجا بدمائه . فنقل الى المستشفى . ومات زيراي ميتة الابطال في سجنه باحدى الجزر الايطالية بعد سنوات من الحادث .

وتخليدا لبطولة زيراي فقد نصب له تمثال في اثيوبيا بعد موتـه . واليوم تحمل الباخرة الحربية « زيراي » وهي أولـى وحـدات الاسطول البحري الاثيوبي ، اسم هذا البطل الذي صفع الايطاليين بوجوههم فـي عقر دارهم .

الامبراطور في الجبهة

فرضت تقاليد الاحباش منذ القدم ان يكـون الامبراطور شخصـا محاربا تهابه الفرسان من النبلاء وغيرهم . وقضى العرف الحربي الموروث أن يتقدم هو بنفسه جيوشه في كل المعارك ويتولى قيادتها . هـذا جانب واحد من الاسباب التي دعت الامبراطور أن يتوجه الى الجبهة في الشمال. أما الجانب الثاني من الموضوع فهو المأساة التـي حلت بصفوف جيشـه والذعر الذي عم بلاده بسبب تقدم العدو على كل الجبهات الحربية .

وما انفكت ادارة المخابرات الايطالية تنشر الانباء المفزعه بين القبائل عن اندحار الجيوش الاثيوبية ومبلغ الخسائر التي تكبدتها بالانفس وذلك لتثبيط هممها ونشر الرعب بين صفوفها وتحويلهـا عـن فكـرة اللحاق بالجيوش النظامية . كما لم يفتها ان تركز الطعن بالامبراطور وتوصمـه بالجبن لأنه خرج على تقاليد اسلافه الاباطرة السابقين وايثاره البقـاء بين جدران قصره يتابع أخبار الخسائر الفادحة التي تلحق بجيوشه عن بعد .

ازاء هذا الموقف قرر أسد يهوذا في تشرين الثاني (نوفمبر) زيارة الجبهة للعمل عـلى رتـق الفتق ومحاولـة استمالـة قلـوب المنشقين والمترددين من الزعماء ورؤساء القبائل ومؤاساة الجرحى والمصابين بتأثير الغاز السام . وكان يحاول اجتذاب هؤلاء الزعمـاء بعين الوسيلة التـي



استخدمها الايطاليون لاسترضائهم ـ الذهب ـ وعنده الكثير منه. ومعظم الزعماء او قل كلهم لا يدفعهم للمغامرة في الحروب سوى امـل الحصول على المكاسب . فصار بعض هؤلاء يقبض الذهب مـن الجانبين المتحاربين بوقت واحد .

واغرب ما في هذا الامر هو ان عددا ممن كان الامبراطور قد وضـع ثقته فيهم ، وهم الذين مارسوا ضغطا شديدا عليـه بالثبات فـي هـذه الحرب المصيرية ، وأوعدوه بالتفاني بالغالي والنفيس فـي سبيل دفـع الخطر الذي يهدد سيادة البلاد ، هم الذين انفضوا عنه تدريجا ، الواحد بعد الآخر . حتى اذا ما وصل موكبه بالقرب من موقع المعركة على مسافة غير بعيدة من بحيرة اشفاني Ashangi وطلب الى البقية الباقية منهم تنفيذ المخططات التي اتفق عليها ، راحوا يماطلون بشتى الاعذار طيلة أحد عشر يوما حتى ضيعوا عليه فرصة المبـادأة . وتبين أخيرا أنهـم كانـوا يوصلون مخططات الامبراطور التعبوية الى القائد الايطالي تباعا . وهكذا انهارت المقاومة الاثيوبية انهيارا شاملا وتداعت الجبهات الواحـدة تلـو الاخرى .

ولما خلت الجبهات الحربية الوطنية من فرسانها انطلقت جحافل الجنرال بدوليو تزحف نحو العاصمة كـالسيل الجارف . عندئـذ تقرر مصير المعركة ، واصبح واضحا وضوح الشمس انه لم يعـد بعـد وجود للامبراطورية الاثيوبية العتيدة بعد ما دكـت القوات الايطالية حصونهـا دكا .

وقد عظم على الحكومة الاثيوبية ان ترى ملك الملوك يقع أسيرا بأيدي اعدائه التقليديين ، ولذلك عقد مجلس الوزراء جلسة طارئـة قرر فيهـا الطلب الى الامبراطور بمغادرة البلاد . وكان ذلك باغلبية ٢١ صوتا مقابل ثلاثة اصوات عارضوا في هربه من البلاد .

هروب الامبراطور

في الساعة الرابعة والدقيقة العشرين مـن صباح يـوم السبت ، الثاني من أيار (مايو) ١٩٣٦ استقل الامبراطـور هايلاسلاسي وعائلتـه وبعض حاشيته قطارا خاصا من محطة أديس ابابا متوجهـا الـى مينـاء جيبوتي في الصومال الفرنسي . وشحنت مع المركب الامبراطوري أربع سيارات خاصة وكمية كبيرة من المتاع الشخصي . وما ان شاع هذا النبأ في ضحى ذلك اليوم حتى ساد الوجوم والذهول كافة أنحـاء العاصمـة وبات القوم وكأن على رؤوسهم الطير ، وخاصة الشخصيات السياسية . فقد شق على الجميع ذلك المنظر الحزين حينما اقل القطار ملـك الملـوك وهو يهجر وطنه لاول مرة في التاريخ ليقبل اللجوء السياسي فـي بـلد أجنبي .



ولكي لا تبقى البلاد بغير زعامة، ولو من الناحية الشكلية على الاقل، ريثما تصل قوات بدوليو العاصمة فقد عين الراس ايمرو قريب الامبراطور واحد قواده نائبا للملك . وقبيل مغادرته عاصمة ملكه بعث الامبراطور اشارة الى السفارة البريطانية في أديس أبابا ينبئها أنه سيستقل احدى البواخر الحربية البريطانية في خليج عدن ، طالبا اليها ابلاغ الامبرالية هناك عن هذه الرغبة . ولما مر القطار الخاص بمدينة ديره داوه تسربت الى الجبهة انباء هروب الامبراطور فصعق القواد وسقط في أيديهم ، حتى ان أربعة منهم تركوا الجبهة هم وأتباعهم مسببين بذلك انهيار المقاومة وسقوط مدينة هرار يوم ٧ أيار (مايو) ١٩٣٦ .

أما في الشمال الغربي من البلاد ، فلما وصلت انباء سقوط غوندار وهي اكبر بلدة هناك عم اليأس صفوف المحاربين وتحول انسحابهم الى هزيمة باتجاه العاصمة التي سادها الفزع. وسرعان ما انقلب النظام الى فوضى رهيبة بعد مغادرة الامبراطور لهاووصول فلول الجيش المنكسر على هيئة جماعات متفرقة متخاذلة تجر بأذيال الفشل ولا تسل عن حالة الاجانب في ظروف عصيبة كهذه ـ بلد متخلف يصبح بلا حكومة ولا قانون ولا نظام بين عشية وضحاها . فقد لجأوا الى السفارات الاجنبية بأرواحهم طلبا للحماية . وكذلك فعل بعض المبارزين من الاهالي أنفسهم . أما السواد الاعظم من الناس فلجأوا الى جبال انتوتو المحيطة بالعاصمة هربا من الغدر والموت تاركين وراءهم بيوتهم ومتاجرهم عرضة للنهب والحرق على ايدي الرعاع . وعاشت أديس أبابا عدة ليال في حالة من الذعر والخوف ، ارتكبت خلالها أفظع الحوادث المؤسفة على أيدي قطاع الطرق والمجرمين والسفلة . فلبئس حال بلد تؤول الامور فيه لرجل الشارع .

ولم يمض زمن طويل على مغادرة بلاده حتى رأته أوروبا واقفا بجسمه النحيف الصغير يخطب في اجتماع عصبة الامم في ٢٨ حزيران (يونيو) منددا بفظاعة العدوان الايطالي مستصرخا الضمير العالمي لانقاذ الموقف وتخليص شعبه وبلاده من الاحتلال . لقد هز خطابه الاوساط السياسية ونقلت الصحافة العالمية أبرز عباراته . فمن جملة ما قال : ــ « ان ما قمنا به في بلادي كان بمثابة دفاع عن قضية الشعوب الضعيفة المهددة هي الاخرى بالغزو والاعتداء . » ولم ينس معاتبة الدول الصديقة من طرف خفي بعبارته : ــ « وماذا حل بالوعود التي قطعت لي ؟ » .

سقوط أديس أبابا

بعد ان بلغت الفوضى في أديس أبابا حدا لا يطاق نتيجة لزوال شبح الحكومة منها وامتلأت شوارعها ومنعطفاتها بجثث القتلى تنهشها الكلاب السائبة ، اخذت السفارة الفرنسية زمام المبادأة بيدها لانقاذ الموقف وأرواح الابرياء فاتصلت بالجنرال بدوليو تعلمه بحالة العاصمة وتستعجله



دخولها بعد ان اصبحت مفتوحة امامه . كما قامت السفارة البريطانية بدور مهم للمحافظة على ارواح الاجانب فامدت عددا من الممثليات الاجنبية بمفارز من حرسها الخاص المكون من جنود السيخ الاشداء .

وفي عشية اليوم الرابع من أيار (مايو) كانت طلائع المقدمة للجيش الايطالي قد بلغت مشارف أديس أبابا . وفي صبيحة اليوم التالي دخلها بدوليو بقواته فاتحا . فأعلن تشكيل الادارة العسكرية التي اخذت على عاتقها صيانة الامن الداخلي . وبعد هدوء الحال واستتباب الامن تبين انه حتى القصر الامبراطوري لم يسلم من السراق وأيدي العابثين . بل وحتى الاسود الحية التي كانت طليقة في حدائق القصر وهي رمز بسالة الاثيوبيين ، وجدت مقتولة . وما ان حل اليوم التاسع من هذا الشهر (أيار) حتى أعلن موسوليني « ان اثيوبيا وشعبها اصبحت الآن تحت سيادة ايطاليا . وقد اضيف لقب (امبراطور اثيوبيا) الى القاب الملك فكتور عمانوئيل الثالث والى عقبه من بعده . » كما رقي الجنرال بدوليو الى رتبة مارشال وعين حاكما عاما ونائبا للملك في اثيوبيا .

ومما جاء في بيان موسوليني ما يلي : — لقد اصبح السلام والطمأنينة الان امرين ملموسين لدى كافة السكان . وان الاجناس المختلفة التي تكونت منها امبراطورية اسد يهوذا قد اظهرت بجلاء تام انها تريد ان تنعم بحياة مستقرة هادئة وتعمل بظل العلم الايطالي . ولن تقوم بعد الان قائمة للزعماء والرؤوس والعسكريين المندحرين فليس هناك قوة على وجه البسيطة تستطيع ارجاع سطوتهم الى سابق عهدها . »

يذكرنا هذا البيان بالخطاب الذي القاه في ليبيا بعد مرور سنة تقريبا على هذا البيان عندما اعلن نفسه (حامي الاسلام) . فالشعب الاثيوبي لم يعر هذه التصريحات أي اهتمام بل مضى بعزم وتصميم يخطط للمقاومة السرية والعمل على تصعيدها ومساندة القائمين بهذه الحركة من الشباب المثقفين الجدد ، لا رغبة في اعادة حكم هايلا سلاسي وانما غسلا لعار الهزيمة .

زوال الفروسية كعنصر في القتال

تقابل الاثيوبيون مع قوات بدوليو وغرازاني المتفوقة عليهم في العدد والعدد والتدريب على الاسلحة الحديثة بعزائم صارمة وقلوب مفعمة بالايمان وروح التضحية . وحاربوهم محاربة الابطال وبالبسالة التي عرفوا بها عبر تاريخ طويل حافل بالانتصارات . الا انهم لم تتوفر لديهم الاستعدادات الحربية الحقيقية لمجابهة جيش عصري مدرب يمثل صفوة العساكر الايطالية التي جيء بها عبر البحار لتحتل بلادهم . فكان اعتماد الاحباش على عزائمهم الثابتة والبطولات الفردية وفروسية القرون الوسطى والقوة العددية . بهذا القدر الضئيل من عناصر الحرب الحديثة



قابل الاحباش الايطاليين ــ شأنهم في ذلك شأن المماليك في مصر في معركة الهرم ضد جيش نابليون سنة ١٧٩٨ (٧) . وكما استقبل الامبراطور ثيودور حملة الجنرال نابيير العسكرية سنة ١٨٦٨ بعساكره الحفاة المسلحين بالرماح والهراوات وكتائب الفرسان التي كان السيف سلاحها فقط وقلة من حاملي البنادق القديمة (٨) . لقد علمتنا هذه المعارك الثلاث درسا بليغا طوى صفحات البطولة الفردية التي تمثلت بفروسية الايام الغابرة جانبا ، وجعل منها اسطورة من أساطير التاريخ ازاء الاسلحة الحديثة الفتاكة .

ففي معركة الهرم بمصر التي لم تدم أكثر من بضع ساعات ، استعد الفرسان للنزال التقليدي بصفوفهم المتراصة يشد بعضهم بعضا . وأغاروا على الفرنسيين وهم أشبه بكتلة بشرية واحدة بخيولهم الاصيلة المطهمة مدججين بأثمن السيوف وأمضاها والحراب والخناجر مكبرين مهللين ، حتى اذا ما اقتربوا من مقدمة الجيش الفرنسي صارت نيران المدافع وطلقات البنادق تحصدهم حصدا فتساقط الفرسان المغاوير من على ظهور جيادهم وتراجع من سلم منهم بأقصى سرعة خيولهم . ثم تابعت جحافل الفرسان من الخط الثاني الكر على الفرنسيين بحماس منقطع النظير وكان نصيبهم كنصيب من سبقهم من الفرسان واستمر الكر والفر حتى امتلأت ارض المعركة بجثث خيرة الفرسان المماليك الذين شهدت لهم الايام والحروب التقليدية بالبطولة والرجولة .

فولى الباقون الادبار تطاردهم وحدات المقدمة في الجيش الفرنسي فشتتت شملهم وانتشروا في مختلف جهات صعيد مصر متنكرين هربا من المطاردة لهم حتى انتهى الامر ببعض رؤسائهم وساستهم وقادتهم في بلاد النوبة تاركين وراءهم كل ما شيدوا من تراث في وادي النيل على مدى حقبة طويلة من الزمن . فاندثر حكمهم ولم تعد للسيف صولته التقليدية بعد تلك المذبحة .

انطوت قرابة سبعون سنة على معركة الهرم واذا بالتاريخ يعيد نفسه فوق هضبة الحبشة بالقرب من مصادر النيل الازرق ــ في قلعة ماغدالا الحصينة ، والزمن هو عام ١٨٦٨ . كان ذلك كما أشرنا في الفصول السابقة في الحملة العسكرية البريطانية بقيادة الجنرال نابيير لتأديب الامبراطور ثيودور ، والتي عرفت في التاريخ فيما بعد ب (حملة نابيير) . انطلقت هذه الحملة بأضخم المدافع والاسلحة الحديثة التي طورتها الثورة الصناعية وهي تتقدم رويدا رويدا نحو الهدف . حتى اذا ما أصبحت على

---

7 — The Blue Nile, by Allan Moorehead — pages 80 — 84; 88-92

٨ ــ راجع الفصل ١٣ ــ حملة الجنرال نابيير .



مدى الرؤيا العادي من معقل ثيودور هاجمها الفرسان الاحباش منطلقين على ظهور خيولهم كالسهام الخاطفة شاهري السيوف المعقوفة والحراب يتبعهم ويحيط بهم المشاة الحفاة برماحهم وبعض البنادق البالية . وما هي الا لحظات حتى تناثرت جثث اولئك الابطال فوق الغبراء . وتقدمت الصفوف الاخرى من الفرسان فلقيت نفس المصير ، حتى غدت اشلاء موتاهم طعاما للطيور الكاسرة نهارا وللضباع ليلا . فلما أيقن ثيودور أن لا جدوى من مواصلة الحرب آثر هو الآخر الموت على الحياة الذليلة . فصوب فوهة مسدسه الى فمه وقضى نحبه كما قضى على اسطورة الفروسية ازاء تفوق السلاح الحربي الحديث .

ثم جاءت الحملة الايطالية التي نحن بصددها لتثبت للمرة الاخيرة عدم جدوى البطولة الفردية وفروسة « أيام زمان » في الوقت الحاضر . لقد عبر عن هذا المعنى بأوضح صورة المارشال بدوليو اذ كتب يقول : « كم من مرة تمكن الاحباش العزل من الوصول الى خطوطنا الدفاعية الامامية بشجاعتهم الفائقة وأقدامهم وعدم مبالاتهم بالموت . الا ان أسلحتهم لم تكن لتتجاوز الآلات البدائية كالسيوف المعقوفة والحراب التي كانوا يحاولون قطع اسلاكنا الشائكة بها للنفوذ الى داخل معسكراتنا . ولكن أسلحتنا النارية كانت تحصدهم حصدا خاصة المدافع الرشاشة . وظلت هجماتهم البطولية تتعاقب علينا على الرغم من علمهم بتفوقنا عليهم بكل شيء ، وعلى الرغم من خسائرهم الهائلة بالارواح . أما من الجبهة الجنوبية والجنوبية الشرقية حيث نفذت كل مؤنهم وذخيرتهم الحربية فكان الاحباش يهاجموننا بكتل بشرية ضخمة بالآلاف وليس بأيدي محاربيهم سوى حديد بارد . »

وهكذا بثلاث معارك فاصلة قضي على اسطورة الفروسية والسيف كسلاح حربي ، وكذلك قضي على عزلة الحبشة واسطورة هضبتها المنيعة التي أستحوذت على الافكار آلاف السنين .



القسم الثاني

اثيوبيا في ظل الاحتلال الايطالي

منجزاتهم في التنمية الاقتصادية

أخيرا ولد المولود المرتقب ـ امبرلاطورية رومانية في شرقي افريقية تضم الصومال الايطالي وأريتريا واثيوبيا . وتحقق الحلم الذي راود ساسة روما منذ أجيال . وأخيرا وطئت أقدام الايطاليين أرض الهضبة الخضراء . فبذلوا ما لا يقدر من أموال في سبيل تحقيق أحلامهم باقامة هذه الامبراطورية . ومن الناحية الواقعية ففي مدى أقل من ست سنوات بذل الايطاليون مبالغ خيالية للتنمية الاقتصادية ، فاقت حسب تقدير الخبراء ما صرفته الدول الغربية الاخرى على اية مستعمرة من مستعمراتها . فسرعان ما نفذوا أضخم المشاريع الهندسية من ابنية حديثة وجسور وطرق عامة معبدة أحسن تعبيد صالحة للمرور حتى في موسم الامطار الفزيرة . كما أسسوا العديد من المستوصفات والمستشفيات ومرافق الخدمات العامة مثل التلفون والتلغراف ودوائر البريد . ولم يضيعوا فرصة في المضي بتنفيذ مخططهم التوسعي الذي كان يستهدف توطين الملايين من الايطاليين الذين اكتظت بهم ارض الوطن الام في هذه الجنة الغنية الوافرة الخيرات على غرار ما فعل الفرنسيون في الجزائر .

وسرعان ما تغلغل الفرد الايطالي ـ من تاجر وصانع وزارع بين طبقات المجتمع الاثيوبي المتخلف ومعه مهاراته ومقدرته التكنولوجية وأساليب المدنية العصرية طبقا لبرنامج الاعمار الذي استهدف تطوير اثيوبيا والاستفادة من كافة امكانياتها وطاقاتها بحيث تصبح جزءا من ايطاليا ، ينعم فيه المواطن الايطالي جنبا الى جنب مع الاثيوبي . لذلك أنجز الاحتلال الايطالي في فترة قصيرة مشاريع كثيرة في عدد من المدن ونواحي الريف . فأوصل اليها الكهرباء وربطها ببعضها بأحدث طرق المواصلات واقام فيها الصناعات المختلفة بعد أن وفر لها الطاقة الكهربائية . ونتيجة



لتوفير مستلزمات الحياة العصرية في هذا البلد الجديد وفد للاستيطان اعداد هائلة من العمال الايطاليين الماهرين وارباب الحرف ، وذلك على نقيض ما يجده المرء في مستعمرات الدول الغربية الاخرى في افريقيا - بريطانيا مثلا - فهناك ينصب المستعمر نفسه سيدا على كل شيء في الحياة تاركا الاعمال الوضيعة للسكان ليمارسوها وللهنود الذين جاءوا في اعقابهم بغية الارتزاق .

بينما في اثيوبيا كما في الصومال واريتريا انتشر العمال والصناع الايطاليون في كل مكان . وسرعان ما تزاوجوا مع الاهلين حتى نشأ منهم جيل مضرب ومطعم بدم جديد يشاهده الزائر اليوم الى الحبشة واريتريا والصومال الايطالي نحاسي اللون جميل شكل الوجه يطلقون عليه اسم Cafe Late (أي قهوة بالحليب) للدلالة على مزج الاسود بالابيض .

وكذلك سرعان ما زاول الايطاليون كافة المهن الحرة . فصار منهم الجزار والحلاق والبقال والسمكري والحداد وصاحب المطعم وحتى الاسكافي . هذه مهن لم يمتهنها الانكليز او البلجيكيون المتغطرسون في كينيا او يوغندا او الكونغو .

ولقد أبقت الحضارة الايطالية في البلاد أثرا لا يمحى . فعلى الرغم من مغادرتهم البلاد بعد احتلال لم يدم طويلا فما زالت معالم التراث الايطالي ظاهرة في الحياة اليومية في اثيوبيا حتى الآن ومنها كثير من عاداتهم ونمط حياتهم . فبأمكان السائح اليوم مثلا أن يشرب في بارات ومقاهي اديس ابابا وخارجها في أقصى الريف انواع القهوة الايطالية مستحضرة على طريقتهم التي أدخلوها الى البلاد وكما اعتاد المرء ان يشربها في روما أو نابولي . وخلف الايطاليون وراءهم الذوق الانيق في الملبس واستعمال الاثاث المنزلي وطراز البناء والفن الزخرفي وغير ذلك .

ونتيجة لهذه الجهود المركزة التي بذلت في فترة قصيرة من الزمن فقد وضح التحسن في مظهر البلاد الخارجي وعمرانها يلمسه لأول وهلة من رآها قبل الاحتلال ثم رآها بعد انسحاب الايطاليين عنها . وكلمة هايلا سيلاسي لتشهد على ذلك حين أسر أحد خاصته بعد عودته من المنفى مع القوات البريطانية التي أعادت له عرشه . قال الامبراطور على سبيل المداعبة مع احد أفراد الحاشية ما معناه : « لو كنا قد علمنا مسبقا بهذا القدر من العمران الذي حصلت عليه البلاد لكنا أجلنا عودتنا فترة أطول ريثما يتم أصحابنا الايطاليون تنفيذ بقية برامجهم » .

الوضع الداخلي في فترة الاحتلال

لنترك الاعمال العمرانية جانبا ولنعد الى حالة السكان وعلاقتهم بسلطة الاحتلال . فان هذا الشعب الذي لم يرضخ لسيطرة أجنبية عبر تاريخه لم يستطع قبول حالة الذل التي فرضت عليه ولا أن يرى خيرات



بلاده ينعم بها الاجنبي كما يشاء . كما انــه لم ينس عشرات الالوف من الضحايا من أبناء جلدته سفكت دماؤها هدرا بنيران المدافع الرشاشة او غدرا بالغازات السامة . ويذكر الكثيرون بمرارة وألم مليكهم وهو يغادر العاصمة مرغما متوجها الى منفاه ، فيما يتربع غرازياني عــلى عرش ملك الملوك مغتصبا . فما ان مرت سنة واحدة فقط على احتلال البلاد حتــى أيقن الايطاليون أن سياسة العنف مع الاحباش لن تجديهم نفعا وان تدابير القمع والارهاب لم تزد الشعب الا صلابة وتمسكا بعدالة قضيتهم واصرارا في المضي في حركة المقاومة السرية التي انتشرت في كل ركن مــن أركان البلاد . فتقلصت نتيجة ذلك هيبة الحكم في أطراف القطر واقتصر نفوذ الحكومة فيالواقع علىالمدن الرئيسية وضواحيها وبعض انحاءالريفحيث تتواجد قطعات من جيش الاحتلال . أما السفر على الطرق العامة فأصبح محفوفا بالمخاطر حتى في وضح النهار في الاماكن النائية .

وأخيرا غيرت حكومة الاحتلال سياستها ازاء الاهالي مــن الشــدة والقسوة الى اللين والمهادنة ، وضاعفت مــن اعمالها العمرانيــة لتشجيع حركة الكسب بين العمال وشجعت الزراعة لتوفير الغــذاء الكافي . ففي ولاية غوجام استمر العصيان وأخذ شكلا أقض مضاجــع المحتلين الذين لم يتمكنوا من القاء القبض على زعماء الحركة . كما تزعــم رؤوس اخرون حركة التمرد والتحرش بمعسكرات الجيش في كــل مــن ولايتي بيغا مدير وتيغره . ولم تكن الحال أقل هدوءا في الولايا الاخرى .

اضطر الايطاليون الى العودة الى سياسة الشدة وتضييق الخنــاق على العناصر الوطنية واحرار البلاد وامعنوا في مطاردتهم . عندئذ التجأوا الى الهجرة الى كينيا في طلب الحماية . ومع ذلك فقــد لقي عــدد كبير منهم حتفه على أيدي ذوي القمصان السود قبل تمكنهم من الهرب. وظلت نيران المقاومة السرية مستعمرة يغذيها المواطنون بأموالهم ودمائهم . ولــم ينقطع الاتصال الوثيق بين رجال المقاومة السرية عــلى أرض الوطن وبين الاثيوبيين الاحرار اللاجئين في الخرطوم والقدس أو مع الامبراطور فــي منفاه .

أما المرأة الاثيوبية فقد لعبت دورا في حركة المقاومة لا يقل عن دور الرجل اذ هي لم تتخل عنه في مثل هذه الظروف الحرجة . وقــد برزت أسماء كثيرة من سيدات المجتمع الاثيوبي اللواتي أبلين بلاء حسنا في كافة نواحي النشاط التي كانت تستهدف دفع حركة المقاومة الــى الامــام . ومنهن شاركن الرجال حتى في القتال بالاضافــة الــى مساهمتهن بجمع المال والمؤن للصليب الاحمر . من هذهالنسوة كانتواحدة تدعى ويزيرو شواريغارد Woizero Shoaregard (٩) . فقــد رافقت هذه البطلــة

---

9 — Ethiopia, by Richard Greenfield — page 246.



المقاومة السرية منذ بدايتها ووهبت نفسها وكل ما تملك في الدنيا في سبيلها وسلمته للصليب الاحمر . ثم القى القبض عليها وسجنت لمدة سنتين في احدى الجزر من البحر الابيض المتوسط . وبعد انتهاء محكوميتها أعيدت الى اثيوبيا . لكنها ما ان وطأت قدماها ارض الوطن حتى عادت الى الكفاح بنفسي الهمة والنشاط . فالقى القبض عليها مجدداً — للمرة الثانية — وسجنت وعذبت كما عذب ولدها الذي قتل امام عينيها. وعوقبت بالجلد علنا . وكل ذلك لم يثنها عن عزمها في المضي في مؤازرة الحركة المقدسة . واخيرا استطاعت الهرب من السجن بعد أن استعادت صحتها . وبقيت تحارب في صفوف المواطنين على شكل عصابات حتى انتهاء الاحتلال . الا انها ماتت سنة ١٩٤٦ في ظروف غامضة . وعلى غرار ما ذكرنا تروي بطولات كثيرة اخرى لنساء اثيوبيات ، اكتفينا بعرض قصة رائدة واحدة منهن كمثال للبطولات النسائية .

ولعل أحسن ما يمكن أن توصف به الحالة الداخلية هي ان ننقل ما ورد في تقرير الجنرال بوناكورسي General Bonacorsi المفتش العام لقوات ذوي القمصان السود في المنطقة ، وقد كتبه قبيل اعلان ايطاليا الحرب على بريطانيا وفرنسا اذ قال : —

« ان الثورة في كافة ارجاء الامبراطورية الاثيوبية تستعر في الخفاء وستكون عاقبتها وخيمة وسيئة لنا بسبب ما يحتمل ان يجابهنا الاهالي به من اعمال عدائية في حالة دخولنا الحرب . فمنذ شهر نيسان (ابريل) ١٩٣٩ حتى اليوم لقد أصبح مألوفا لدينا ان نرى ضباطنا يقتلون باستمرار على ايدي اناس مجهولي الهوية . ولو قدر ودخلت وحدة عسكرية ، بريطانية كانت أم فرنسية ، من احدى نقاط حدودنا ، فلن تحتاج هذه الوحدة الى قوة السلاح ، اذ يكفيها أن تحمل علم بلادها فينضوي تحت تلك الراية ضدنا القسم الاعظم من الشعب الاثيوبي . »

الاثيوبيون في المنفى

لقد ترك اثيوبيا في فترة الاحتلال الالوف من الوطنيين ، استقر معظمهم في البلاد المجاورة مثل السودان وكينيا . وقصد آخرون بيت المقدس تبركا بمجاورة مقام السيد المسيح عليه السلام . وكانت اتصالاتهم خلال تلك الفترة متينة مع رفاقهم في الكفاح ، من ناحية ، ومع الامبراطور ذاته من ناحية اخرى . وهذا هو ما ابقي على جذوة الثورة الداخلية الخفية مستعرة في النفوس .

الا انه يجب أن لا يعزب عن بالنا ونحن في هذه المرحلة أن نشير الى ان بعض العناصر الوطنية لم تكن راغبة في عودة الحكم السابق — الحكم الملكي المطلق — الى البلاد ولو انها كانت على اتم وفاق مع الباقين في ضرورة التخلص من الاحتلال الايطالي . ففيما كان الامبراطور وجماعته يقارعون



الايطاليين في المحافل الدولية لكسب المزيد من المؤيدين والاعوان للتخلص من هذا العدو المحتل واستعادة عرش البلاد ، كان آخرون من الناحية الثانية يسعون لا لتقويض الحكم الايطالي فحسب وانما لقلب نظام الحكم في اثيوبيا الى جمهورية . (١٠)

فمنذ الايام التي سبقت الغزو الايطالي كانت هناك عناصر وطنية تثقفت بالثقافة الغربية غير راضية بنوع الحكم السائد في البلاد . وكانت تعتبر اسباب تخلفها ناجمة بصورة رئيسية عن قيام هذا الاسلوب في الحكم ـ دستور غير مطبق ، ومجلس نواب يعين تعيينا ووزراء بلا صلاحيات لممارسة واجباتهم ، وحكم مركزي مطلق بيد شخص واحد هو الامبراطور . غير ان احدا لم يجرؤ على المجاهرة بآرائه ومعتقداته خوفا من البطش والسجون الرهيبة . فكأن الاحتلال الايطالي جاء ليفتح امامهم مجالا للسعي لتحقيق امانيهم القومية ولو ان الاحتلال هذا كلفهم ثمنا غاليا ـ ضياع الوطن نفسه .

وفي اجتماع وطني كبير خارج اثيوبيا اقترح فيه تقديم طلب الى عصبة الامم في جنيف يحدد فيه نوع الحكم الذي يريده مقدموا الطلب ـ وهو الجمهورية بدل الملكية ـ ووقع عليه ٩٠٠مواطن من المواطنين البارزين في المنفى . ولما بلغت انباء ذلك الاجتماع مسامع الامبراطور قام في الحال بحركة التفافية مضادة لاحباط هذا المشروع . فكلف سكرتيره بالكتابة لبعضهم عن لسانه يثنيهم فيه عن هذا الاتجاه الجديد باعتباره اولا مغايرا لتقاليد بلادهم ، وثانيا سيكون سببا لاضعاف قضيتهم في الخارج امام الدول الكبرى . وبعين الوقت كلفه ان يؤكد لهم اذا كان هناك من يرغب في المطالبة بالعرش لنفسه فأنه ـ اي الامبرطور ـ مستعد للتنازل عنه ما دامت البلاد ستبقى على شكلها الملكي .

فحصل نتيجة هذا التدخل خلاف في ما بين الوطنيين وتصدعت صفوفهم فانقسموا بين مؤيدين ومخالفين لوجهة نظر الامبرطور . ووصل الخلاف حدا كاد ان يقضي على حركة المقاومة لولا ان هيأ الله رجلا مصلحا من بينهم ، فناشدهم باسم الوطن الابقاء على وحدة الصف ريثما يتم القضاء على العدو ، لافتا انظارهم الى العدو المتربص بهم الدوائر ، وانه هو الوحيد الذي سيفيد من مشاحناتهم . فهدأت الحال. ونشأت ظروف لم تكن في الحسبان ساعدت الامبرطور على نيل مراده .

ومن دواعي فخر اثيوبيا ان ممثلها في عصبة الامم كان رجلا من اشجع الرجال واحنكهم وادهاهم في قضايا السياسة الدولية . فظل يكافح على الصعيد الدولي منتهزا الفرص للطعن بالايطاليين عن طريق الدعاية والنشر ، كاشفا للملأ فظائع اعمالهم الاجرامية بحق شعب آمن

---

10 — Ethiopia, by Richard Greenfield — pages 246 — 48.



مسالم . ولكن عصبة الامم اصبحت في عداد الاموات بحلول صيف ١٩٣٩ .
ومع ذلك فقد تمكن ممثل الحبشة من دخول بلاده خلسة والاتصال بزعماء الحركة السرية والاطلاع على نشاطهم ومدى الآمال المعقودة على نجاحها .
وعند عودته الى جنيف قدم تقريرا مسهبا ضمنه مشاهداته ونتائج محادثاته مع زعماء المقاومة واستنتاجاته . ولحسن حظ البلاد فان هذه الوثيقة القيمة عن حالة البلاد الداخلية جاءت في الوقت المناسب . فقد اعلنت ايطاليا الحرب على بريطانيا واعتبر ذلك مكسبا بالغ الاهمية بالنسبة لقضية اثيوبيا . لأن بريطانيا وقفت الى جانبها طيلة ايام محنتها .

ومن هنا كانت البداية للتخطيط لغزو اثيوبيا بجيوش تشترك فيها العناصر الوطنية في المنفى ووحدات من الجيش البريطاني من السودان وكينيا ، وقطعات رمزية اخرى من بعض دول الحلفاء .

الفصل التاسع عشر

عرش يعيده الانكليز

التهيؤ لغزو اثيوبيا

لقد اثبتت الاحداث التي اعقبت اعلان ايطاليا الحرب على بريطانيا وفرنسا صدق تنبؤات الجنرال بوناكورسي المفتش العام لقوات ذوي القمصان السود حول مصير ممتلكات ايطاليا في شرق افريقيه وبعد نظره في تقدير عواقب سياسة التوسع في بلاد معادية . وكان بوناكورسي قد وضع النقاط على الحروف في تقريره (١) الموجه الى المسؤولين اذ اشار صراحة الى الاخطار التي تهدد قواتهم في حالة قيام حرب في المنطقة . واشار الى مخاوفه من الموقف المتفجر في داخل اثيوبيا بناء على تزايد شعور السكان المعادي لهم . فقد اخذت العناصر الوطنية تتحدى سلطات الاحتلال علنا . وصعدت مستوى اعمال العنف وضرب المعسكرات على اثر ما شاع عن عزم بريطانيا على مساعدة هايلا سلاسي لاستعادة عرشه واستقلال بلاده . وارتفعت معنويات الاثوبيين في الداخل واشتدت مؤازرتهم لحركة المقاومة السرية التي اوشكت ان تأخذ شكل ثورة مسلحة عارمة .

وازاء هذا التحول الخطير اضطر الايطاليون لمضاعفة يقظتهم واستعداداتهم لمواجهة الموقف المشحون بمشاعر الحماس والاندفاع للثورة . وباتت قطعاتهم العسكرية المتفرقة في الاجزاء النائية من البلاد مهددة بخطر التطويق والعزلة . وكانت قوات ايطاليا في هذه الفترة تقدر بحوالي ١٧٠ الف جندي تحت السلاح . وعندما نشب القتال بينها وبين قوات الانقاذ البريطانية وقوات الامبراطور من المتطوعين الاثيوبيين لم تتمكن من سوق اكثر من ستة اعشار مجموع قواتها الى جبهات القتال على حدود

---

١ ـ راجع نبذة من تقريره في الفصل الثامن عشر .



السودان وصوماليا ، لان مخاوفها من الداخل اضطرتها لاستبقاء عدد ضخم من القوات لمحافظة خطوط مواصلاتها والأمن الداخلي .

فتقارير الحرب البريطانية تشير الى ان ايطاليا ساقت الى جبهات القتال بعد بدء عمليات الغزو ٧٥ فوجا فقط مقابل ٥٦ فوجا بقيت خلف خطوط النار لضمان السيطرة على الوضع الداخلي . هذا مع العلم ان قوات الانقاذ التي اشتركت في الغزو ـ وكانت مكونة من وحدات بريطانية وفرنسية (فرنسا الحرة) وبلجيكية ونايجيرية وغانية (ساحل الذهب سابقا) ومن جنوب افريقية لم تتجاوز عشرين الف جندي . اما القوات الوطنية التي استنفرها الامبراطور فلم يمكن حصرها بالضبط لان اعدادها واحجامها كانت تتغير باستمرار الا انها كانت اقل من القوات المتحالفة .

فبعدما تم الاتفاق على الخطوط الرئيسية لعمليات الغزو تقرر ان يعود الأمبراطور هايلا سلاسي الى افريقيا للمشاركة في الاشراف على تنفيذ مخطط الغزو ووضع تفصيلات العمليات السوقية حسب الجبهات المقررة . وعلى كل حال فوجود الامبراطور قريبا من جبهات القتال سيسهل عملية الاتصال بالعناصر الوطنية خارج اثيوبيا وداخلها . هذا ولا يعزب عن البال ان بريطانيا في الوقت الذي ارتبطت فيه بالتزامات حربية معينة في سبيل انقاذ استقلال اثيوبيا كانت هي نفسها في تلك الظروف تمر بمرحلة حرب خطيرة امام الطغيان النازي الذي اجتاح اوروبا بتلك السرعة المذهلة . أما فرنسا (حكومة فيشي) فكانت هي الاخرى بحالة احتضار تئن تحت نير الاحتلال النازي .

هيلا سيلاسي يطير الى الخرطوم

كانت اول عملية من مخطط غزو أثيوبيا تحويل مقر الامبراطور من بلدة باث Bath في انكلترا الى الخرطوم باعتبارها أقرب موقع مناسب من الناحية العسكرية والسياسية لتنفيذ تفاصيل العمليات الحربية ـ وكانت السودان يومئذ ما زالت تحت الاحتلال البريطاني . وصل الامبراطور الى الخرطوم ولكن مضت ايام واسابيع ولم تبد في الافق دلائل تبشر بقرب المباشرة بعمل جدي . وطال الانتظار وكاد الامبراطور ان يصاب بخيبة امل لهذا الانتظار الممل دون وصول طلائع قوات الانقاذ . ومن الناحية الاخرى التي اقلقت الامبراطور فان الممثل السياسي البريطاني المقيم في الخرطوم لم يستقبل قضية اثيوبيا لا هو ولا رجاله ـ بالترحيب والحماس حسب ما كان الامبراطور يتوقع . فنشأ جو من الفتور في العلاقات بين الطرفين ، الامر الذي وضع الاثيوبيين في موقف حرج . فلا هم قادرون على الصبر مدة أطول ولا هم بوضع يستطيعون معه دفع عجلتهم الى الامام كما يشتهون : ومما زاد الطين بلة نشوب خلاف جديد



بين الامبراطور والانكليز حول شكل الادارة العسكرية التي ستحكم البلاد بموجبها بعد استرجاع اثيوبيا وطرد الايطاليين منها .

اخيرا انفرجت الازمة بوصول الميجر (الرائد) وينغيت Wingate للالتحاق بالحملة ، وبوشر باعداد الخطط اللازمة للشروع بالهجوم على اثيوبيا . وكان هايلا سلاسي شديد الرغبة في مصاحبة القوات عند عبورها من نقطة الحدود عند القلابات . وهذا هو الموقع الذي قتل فيه احد اسلافه ـ الامبراطور يوحنا الرابع ـ على ايدي الدراويش من اتباع المهدي . وكأن هايلا سلاسي اراد بهذا اشباع رغبة انتقامية كانت تغلي في اعماق نفسه طيلة هذه السنين وهي ان تطأ قدم امبراطور اثيوبي حي ارض القلابات السودانية على رأس قوة عسكرية تمر فوق ارض سودانية ـ ولكن شتان بين الموقفين .

تقرر ان يكون الهجوم على اثيوبيا باربعة ارتال ـ ثلاثة من السودان والرابع من كينيا باتجاه الصومال الايطالي . اما الارتال الثلاثة من السودان فكان الاول منها بأمرة اللواء بلات Platt ، والثاني بأمرة القائد الاثيوبي بيرو Birru ومكون كله من المتطوعين الوطنيين والثالث بقيادة الرائد ـ فيما بعد الجنرال ـ وينغيت Wingate . اما الرتل الرابع والذي توجه من كينيا فكان بقيادة الجنرال كنينغهام Cunningham

ساعة الصفر

انتهت الترتيبات اللازمة لعملية الغزو بسرية تامة . وكان الجنرال بلات قد قاد جنوده عبر بلدة كسلة على حدود السودان باتجاه مدينة كرن Keren ذات الموقع الستراتيجي الهام داخل اراضي ارتيريا ، وقد وقعت بجوارها معارك حامية . وبعد حصار دام ٥٣ يوما استسلمت . وباستسلامها فتح الطريق امام القوات الغازية الى مدينة اسمرة واقليم تيفرة . وبعد سقوط اسمرة اتجهت بعض المفارز شرقا لاحتلال ميناء مصوع على البحر الاحمر ، فتم لها ذلك . ثم اخذ الجنرال بلات بعد اعادة تنظيم قواته بالاتجاه جنوبا نحو العاصمة لملاقاة القوات الاخرى .

اما رتل القائد الاثيوبي بيرو فعبر الى بلدة متمة الاثيوبية من القلابات السودانية وهذه الناحية هي من اوعر المناطق في الهضبة الحبشية باتجاه مدينة غوندار التاريخية التي دام حصارها طويلا . واما الرتل الذي كان بقيادة وينغيت Wingate فقد عبر الحدود باتجاه وادي النيل الازرق قاصدا اقليم شوا والعاصمة . وكان هايلا سلاسي يسير في هذا الرتل الذي ضم كذلك عددا كبيرا من حاشيته والزعماء الوطنيين . وكان الامبراطور حيثما وصل جرت له الاحتفالات والمهرجانات الشعبية ترحيبا بقدومه . وصلى في الكنائس والاديرة على طول طريقه داخل بلاده ، وخاصة في دير ديبرا ليبانوس المشرف على حافة وادي



النيل الازرق . وفي هذا الدير ارتكب الايطاليون جريمتهم البربرية بازهاق ارواح كل رهبانه البالغ عددهم ٣٥٠ راهبا . ومما تجدر الاشارة اليه هو ان نائب الملك الايطالي الدوق اوستا Aosta لما شاهد تدهور الوضع الداخلي في اقليم غوجام على اثر تقدم قوات الامبراطور مع رتل وينغيت اراد استغلال العناصر المناوئة للامبراطور في امل احباط تقدم القوات فراح وعين الرأس هايلو تقلا هايمانوت
Ras Haillu Tekle Haymanot
حاكما عاما للاقليم .

ويجيء الراس هايمانوت في مقدمة رجال الحرب في القطر واحد النبلاء المتنفذين الذين لم يخضعوا خضوعا تاما للامبراطور قبل فترة الاحتلال الايطالي . ومعلوم عنه انه وريث مملكة غوجام السابقة . ولكن لما تفوقت قوات الانقاذ البريطانية على المقاومة الايطالية وبات سقوط ديبرا ماركوس عاصمة الاقليم على قاب قوسين او ادنى ، عندئذ بعث الراس هايمانوت سيارته الفخمة من نوع الفا ــ روميو الايطالية مع سائقه بكامل قيافته لقائد الرتل وينغيت ليركبها عند دخوله البلدة فاتحا . فرفضها هذا واعادها الى صاحبها .

وبينما كانت تسير العمليات الحربية فوق الهضبة في ذلك الطقس المعتدل اللطيف كانت قوات الجنرال كنينغهام تجتاز الصحارى المقفرة في شمالي شرق كينيا ثم باتجاه اراضي جنوبي الصومال المحرقة الخالية من المياه مما جعل الحملة الكبيرة تعاني مصاعب على غاية من الشدة وتقاسي متاعب المناخ عبر خطوط مواصلات طويلة جدا . فاحتلت ميناء قسمايو في اقصى الجنوب من الصومال ثم مقديشو حتى استولت على الصومال بأكمله فقطعت بذلك خط امدادات الايطاليين من البحر تماما . ومن مقديشو سارت الحملة باتجاه الشمال الغربي عبر صحراء اوغادين الى مدينة هرار التي احتلتها بعد مقاومة طفيفة . ومن ناحية جسامة العمليات الحربية ومشاكل مواصلاتها ومناوراتها وتموينها فقد كانت مهمة هذه الجبهة والجبهة الشمالية بقيادة الجنرال بلات اكثر الجبهات الاربع صعوبة وتعقيدا من النواحي السوقية . اذ لم تصادف الجبهتان الاخريان بقيادة القائد الحبشي بيروت والجنرال وينغيت نفس الصعوبات التي اصطدمت بها جبهة كنينغهام وبلات .

كنينغام يدخل أديس أبابا

توقف الجنرال كنينغام في هرار قليلا بعد سقوطها لاعطاء جنوده قسطا من الراحة والتمتع بمناخها الجميل بعد لفحة الصحاري ووحشة القفار التي اجتازوها وبنفس الوقت لاعادة تنظيم قواته راصلاح بعض التخريبات التي أحدثها الايطاليون في الطرق بعد انسحابهم . اما وحداته



الامامية فواصلت مطاردتها للعدو حتى دخلت مدينة ديره داوه . Dira Dawa (او حسبما يسميها العرب دير داوه) ، اهم مركز تموين ونقطة ستراتيجية على خط السكة الحديدية بين جيبوتي وأديس أبابا ، بعد مناوشات خفيفة مع مؤخرة الايطاليين التي تباطأت في الانسحاب من البلدة بقصد النهب والسلب . ثم واصل كينينغام زحفه باتجاه اديس أبابا فدخلها في اليوم السادس من نيسان (ابريل) ١٩٤١ وهو نفس اليوم الذي دخل فيه الامبراطور مدينة ديبرا ماركوس (ومعناها بالامهارية مرقس المقدس) عاصمة اقليم غوجام . وشهد من كان في هذه الحملة مع الامبراطور بجودة الطرق العامة التي انشأها الايطاليون ، والتي كانت من العوامل المساعدة في سرعة تحركات الجيش البريطاني . كما اعتبر العسكريون والمراقبون المرافقون للحملة مسيرة الجنرال كنينغام من داخل حدود كينيا وحتى أديس أبابا وما تخللها من عوائق الصحاري والمتاهات الواسعة بين كينيا والصومال تحت أشعة السمس المحرقة من أسرع المسيرات الهجومية في التاريخ الحربي في العالم .

وعند وصول طليعة جيش كنينغام الى أديس أبابا توجهت الى بلاط الامبراطور ، وهو قصر منليك الثاني القديم ، فانزلت علم سافويا Savoia (وهو ما يكنى به العلم الايطالي) ورفعت علم القائد العام البريطاني. وهناك أمام حشد عظيم من الناس القى بيان القائد العام الذي تضمن تمنياته الطيبة للشعب الاثيوبي مؤكدا لأهالي أديس أبابا أن دخوله بلادهم على رأس جيشه لم يكن بقصد الفتح وانما لتخليص اثيوبيا من شرور الاحتلال الفاشيستي . وبالوقت ذاته تلى على الناس بيان مشابه عن لسان الامبراطور هايلا سلاسي .

اتخذ كنينغهام من اديس ابابا مقرا فيما واصلت وحداته مطاردة فلول الجيش الايطالي المنسحب في اتجاهات مختلفة وتصفية بعض جيوب المقاومة التي أبدت تعنتا وأبت القاء سلاحها . وفي وقت مناسب بعد دخوله العاصمة أوفد كنينغام مندوبا عنه لمفاوضة هايلا سلاسي في ديبرا ماركوس حول كيفية تقسيم مسئولية الحكم خلال الفترة بين القضاء على الايطاليين عسكريا وبين اعادة تأسيس حكومة اثيوبية . وكان مندوب القائد العام قد اطلع سيده بعد عودته من ديبرا ماركوس بأن هايلا سلاسي يستعد للتوجه نحو عاصمة ملكه . فعارض القائد العام معارضة شديدة في ذلك لأسباب تتعلق بالسلامة العامة . الا ان الامبراطور قرر العودة غير مكترث بمعارضة كنينغام وتحفظاته . وعلم بعدئذ أن الضباط الانكليز في مقر قيادته هم الذين شجعوه على تثبيت مركزه مجددا في العاصمة . وكان هايلاسلاسي قد ارتاب من موقف كنينغام ومن نوايا بريطانيا حليفته على الرغم من مساعدتها له . فسار بحاشيته ــ دون جيشه ــ نحو اديس أبابا فدخلها في اليوم الخامس من شهر أيار (مايو)



١٩٤١ . وصادف ذلك اليوم مرور خمس سنوات بالضبط على تاريخ دخول المارشال بدوليو اديس ابابا فاتحا .

دخل هايلا سلاسي عاصمة ملكه كالفاتح الظافر بين حماس الاهالي وترحيبهم بمقدمه . وحيته الحامية البريطانية باطلاق ٢١ طلقة مدفع ، كما اصطف على جانبي الطريق نحو ١٥ ألف من قوات الحركة الوطنية . وفي مدخل قصر منليك الثاني استقبله الجنرال كنينغام . وكانت هناك خطابات تبودلت فيها عبارات الترحيب والابتهاج بخلاص البلاد من العدو المحتل والتمنيات الطيبة للشعب الاثيوبي .

ومما جاء في كلمة الامبراطور هايلا سلاسي عزمه على اطلاق الحريات العامة وادخال المبادىء الديمقراطية في المؤسسات الوطنية وتهيئة الجو المناسب لدفع عجلة البلاد الى الامام بما يليق ومقامها كدولة عصرية .

غير أنه مضت الايام وتعاقبت السنون وعدل الدستور سنة ١٩٥٥ واثيوبيا هي هي لم يتغير فيها شيء بينما المستعمرات الافريقية التي لم تر النور قبل أوائل الستينات تقدمتها بمراحل في مضمار الحريات السياسية والتطور الاجتماعي . وحتى ربيع سنة ١٩٦٩ عندما زار كاتب هذه السطور البلاد لآخر مرة كان الوزراء ما زالو لا يجرؤون على تنفيذ أي عمل ـ مهما كانت طبيعته ـ داخل وزاراتهم دون الرجوع لملك الملوك .

استتب الامر للجيوش البريطانية وحليفاتها واستقر الملك على عرشه الا ان بعض جيوب من الجيش الايطالي استمرت في مقاومتها ممتنعة عن القاء سلاحها . ولكن بعد تضييق الخناق عليها استسلم نائب الملك الايطالي الدوق اواستا Aosta يوم ١٨ أيار (مايو) حيث نقل الى كينيا ومات هناك في معسكر لاسرى الحرب . وآخر من ألقى السلاح من القوات الايطالية كانت تلك الحامية المتحصنة في قلاع مدينة غوندار . وكانت قد حاصرتها قوة وطنية قوامها عشرة آلاف مقاتل حتى أضطرتها على الاستسلام في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤١ . وباستسلام هذه الحامية قضي على امبراطورية موسوليني في شرق أفريقية . وخسرت ايطاليا آخر مستعمراتها في هذه المنطقة . وكانت حملة اثيوبيا قد كلفت ايطاليا خمسين الف جندي بين قتيل وجريح .

وبعد انتهاء الاحتلال الايطالي مضت اثيوبيا بالتزاماتها كحليفة لبريطانيا ثم للاتحاد السوفياتي عندما هوجمت روسيا من قبل هتلر . واشتركت في الحرب فعلا الى جانب بريطانيا في شمال افريقيا ضد قوات المحور (المانيا النازية وايطاليا) .

ابعاد الاحتلال الايطالي واضطرابات الاربعينات

على الرغم من خسائر اثيوبيا البشرية والمادية في حرب الاحتلال الايطالي ، ومما أصاب كرامتها الوطنية وسمعتها الدولية من هدر



وانتقاص ، فقد كانت من الناحية الثانية ، وعلى المدى البعيد ، بمثابة ناقوس الخطر الذي أيقظها من سباتها العميق والفتيلة التي اشعلت مصباح النهضة الفكرية وساعدت على نشر الوعي بين كافة طبقات الشعب. وهي التي غذت الروح لمساندة حركة المقاومة السرية للوجود الايطالي في اثيوبيا . ومن الامور الثابتة ان البلاد فقدت كثيرا من شبابها المثقف في هذه الحرب وخاصة في حركة المقاومة السرية . ويروي الاهالي بأن من سلم منهم في أعمال الكفاح المسلح لقي مصرعه في ذيول مجزرة الجنرال غرازياني على أيدي ذوي القمصان السود . هكذا كان الوضع الداخلي في البلاد عندما غادرها الايطاليون . اما في الخارج فكانت العناصر الوطنية في المنفى في ثورة نفسية متعطشة للاصلاح في الداخل الى جانب مساندتها الفعالة لحركة المقاومة السرية . وقد تأثرت هذه العناصر المثقفة بمبادىء الديمقراطية الحقة التي لمستها في الغرب طوال خمس سنوات . وكانت تعقد الاجتماعات والندوات فيما بينها فتتدارس مشاكل البلاد وأوجه اصلاحها ونظام الحكم فيها والشكل الذي يلائم المجتمع الاثيوبي. وكان بين الوطنيين في المنفى من نادي بالجمهورية كأول خطوة عملية نحو الاصلاح .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فهزت العالم القديم هزا بالتطورات التي أحدثتها . وعاد الشباب الافريقي المتعلم الى القارة السوداء بمبادىء ومعتقدات جديدة وآراء راديكالية انعكست آثارها على القارة التي كانت غارقة في النوم بما يمكن تسميتها ب « الثورة الافريقية » الثورة على التخلف الذي دام عصورا طويلة في ظل الحكم الاجنبي . وفي الوقت الذي كانت فيه العاصفة النازية تهدد كيان اوروبا بالصميم ، وفي الوقت الذي كانت فيه عشرات الدول الصغيرة مهددة بالزوال وباتت كريشة في مهب ريح عاتية ، وبعد ان ابتلع هتلر يوغوسلافيا واليونان بأقل من لمح البصر ، عاد هايلا سلاسي الى عرشه والى عاصمته الجبلية كالمنتصر بفضل الانكليز . وعادت الى البلاد مع الامبراطور كافة العناصر الوطنية التي كانت في المنفى . عادت وفي نفوسها امال وأحلام نحو مستقبل أفضل للبلاد . وكان هايلا سلاسي عالما وملما بكل ما كان يجري ، بين قادة الفكر والزعماء الوطنيين عندما كانوا في المنفى ، من حوار ومدارسات ومقررات بشأن المستقبل . فأعلن يوم دخوله عاصمة ملكه ـ ٥ أيار (مايو) ١٩٤١ـ بعد مرور خمس سنوات على دخول قطعات المرشال بدوليو لها ـ في الكلمة التي ألقاها على حشد من الناس عزمه على اطلاق الحريات العامة وادخال المبادىء الديمقراطية في المؤسسات الوطنية وتهيئة الجو المناسب لدفع عجلة البلاد الى الامام بما يليق ومقامها كدولة عصرية . وتبين فيما بعد ان هذه الوعود والعهود كانت بمثابة تهدئة للخواطر والنفوس .

انطوت أوائل الاربعينات وأواسطها وولت أواخرها ولم يبد



الامبراطور حراكا بما يشير الى عزمه عن أتخاذ اي أجـراء عملـي نحـو الاصلاح ، هذا مع العلم أن البلاد كانت في حالـة غليـان مخيف . امـا العناصر الوطنية وغيرها فقد عيل صبرها من الانتظار . واكثر مـا كـان يغضب العنـاصر الوطنية والمثقفـة موقف الكنيسة منهم . فقـد كانت تنعتهم وتصف مثاليـاتهم بـ « الشر » و « الاذى » . وكـان ردهـم عـلى ذلك : « ان الثـورة الافريقيـة عـلى الابواب » . وضربت الفوضى أطنابها فـي أطراف البـلاد بحيث زعزعت هيبة الحكومة التي لم تستطع مد سلطانها عـلى القطر بكاملـه . فبعـد انسحاب الايطاليين ودخول القوات البريطانية بقي قسم كبير من البلاد ، من الناحية الواقعية ، بدون حكومة . وحتى فترة السنين الاولـى مـن الخمسينات كانت من احلك الايام التي عرفتهـا اثيوبيـا فـي تاريخهـا الحديث . فكانت العصابات (شفتا Shifta) تغير على القرى الامنة باعداد قتالية كبيرة ، لـم يكن بمقدور السكان صدهـا ، فتنهب وتعبث وتقتل كما يحلو لها دون رادع في وضح النهار ، خاصة فـي اقليم تيغره الذي عاش هذه الفترة في شبه ثورة على الحكومة المركزية ولم يهدا ابدا ، ولدرجة قيل انه كانت هناك محاولات لاغتيال هايلا سلاسي وولي عهده .

ومن دلائل فقدان الامن ان السفر بالسيارات بين المدن بعد الساعة الرابعة بعد الظهر كان محظورا من قبل الشرطة . وان كاتب هذه السطور حتى في أوائل الستينات أراد السفر من أكسوم الى غوندار بعـد هـذا الوقت فمنعته الشرطة . وقد يكون من جملة أسباب الاضطراب في اقليم تيغره هو احتجاز السلطة لأحد الزعماء كرهينة على غرار مـا كان يفعـل الملوك لوقت قريب . وكان هذا ، حسبما هو معروف ممن قضـوا سنـي المنفى مع هايلا سلاسي ، وبعد العودة الى البلاد سنة ١٩٤١ رفع صوتـه مطالبا بالحريات والاصلاح الداخلي . وبتوسع نطاق العصيان ازداد وضع الحكومة حراجة ، مما اضطرها للطلب من حكومة عـدن أن تقصف الثوار بطائرات القوة الجوية البريطانية . ولم يهدأ الوضع في هذا الاقليم نسبيا حتى عززت الحكومة جيشها هناك بوحدات اضافية استنفرتها من اقاليم اخرى . ومع ذلك فقد تمكن الثوار من الاستيلاء على سرية مـن الفـوج الخامس وثلاث سيارات مدرعة بواسطة كمين نصبوه لها .

أما الاحوال في جنوب البلاد فلم تكن أكثر هدوءا مما كانت عليه في الشمال . ففي مناطق الحدود مع كينيا كانت الاضطرابات القبليـة عـلى اشدها ، ولم تقمع الا بتدخل الانكليز عسكريا ومساعدتهم للحكومـة فـي اعادة السيطرة على هذا الجزء من البلاد . ليس هذا فحسب ، بل قامت ثورات في أماكن متعددة اخرى ، أهمها تلك التي أضرم نيرانها زعماء اقليم غوجام ــ الخصم التقليدي لاقليم شوا ــ بقيادة بتوودبد نيغاش Betwoded Negash ، وهو سليل البيت المالك السابق في هذا الاقليم . وكـان



مصمما على اغتيال هايلا سلاسي . أما في الجهة الجنوبية الشرقية فقامت حركة خطيرة في هرار نادت بالاستقلال عن اثيوبيا سنة ١٩٤٨ . فقمعت ثم عادت الى الظهور سنة ١٩٥١ ولم تهفت جذوة نارها حتى اعدم عدد من قادتها .

وأما اقتصادياتها وتجارتها الخارجية فقد أصابها الركود وتفاقمت الامور في الاقاليم وارتفعت نسبة البطالة . فالبريطانيون ، كعادتهم ، لم يتبنوا سياسة اعمارية تنعش اقتصاد البلاد كما فعل قبلهم الايطاليون الذين جاءوا لغرض التوسع والاستيطان . وعلاوة على ذلك فبريطانيا نفسها كانت في تلك الظروف ـ ظروف الحرب العالمية الثانية ـ مثقلة بالتزاماتها الحربية ومشاكل اقتصادها المنهار وصعوبة توفير الغذاء لسكان الجزر البريطانية .

وقد كان لانحدار ايطاليا تأثير مباشر على اقتصاديات اريتريا لانه كان موجها توجيها ايطاليا ، فتضعضع لانحسار الدعم المالي الايطالي عنه ، وتوقفت الصناعات التي كان يديرها ويمولها الايطاليون . ففي السنين الاخيرة قبيل اندحارهم بذلوا أموالا طائلة في الاستثمارات الزراعية والصناعية وتشييد الابنية وفتح الطرق ومد خطوط السكك الحديدية . فانتعشت الحالة الاقتصادية وارتفع دخل الفرد الواحد ، ولم تكن هناك بطالة تذكر . ولما امسكت الضائقة المالية بخناق الشعب تحت الادارة العسكرية البريطانية وزادت بلبلة في أعقاب رجوع الحكم الوطني في اثيوبيا ، ارتفعت أصوات من فئات كثيرة من السكان ، وخاصة المسلمين منهم ، تطالب باستقلال اريتريا . ونالت هذه الحركة الدعم الكامل من ايطاليا لارتباط مصالح الايطاليين المستوطنين هناك بذلك ، وللآمال التي تعقدها في عودة نفوذها التجاري ـ على الاقل ـ على مستعمرتها السابقة .

أما الانكليز فأيدوا الاستقلال مثلما أيده الايطاليون لأسباب تتعلق بمصالحهم الخاصة بالسودان الذي كان ما يزال تحت احتلالهم . فقد وقفوا وراء فكرة اقامة حكومة تضم اقليمي اريتريا وتيغره المتجاورين لتحقيق التكامل الاقتصادي بينهما ، ولرغبتهم ـ وهذا هو البيت القصيد ـ في ضم بعض الاراضي الواقعة غربي اريتريا الى السودان .

الادارة العسكرية البريطانية

استمرت بريطانيا في حكم اثيوبيا ومستعمرتي الصومال الايطالي واريتريا حكما مباشرا بادارة عسكرية على الرغم من جلاء القوات الايطالية عنها وانتهاء احتلالها للبلاد بصورة نهائية . أما البريطانيون فلم يفكروا في ترك هذا الجزء من افريقيا في ظروف الحرب خشية حدوث فراغ سياسي فيها ، لأن الوضع الدولي المتأزم لم يكن يساعد على ذلك . وأما الحكومة الاثيوبية فلم يكن من مصلحتهاهي الاخرى زوال الادارة العسكرية



البريطانية نظراً لضعف ادارتها المحلية ووضعها المالي المتارجح وافتقارها للمشورة السياسية والمالية والادارية لأعادة الامور الى مجاريها الاعتيادية، ولو أن هايلا سلاسي كان قليل الثقة بحسن نوايا حلفائه الانكليز .

ولفرط شكه فيهم طالبهم سنة ١٩٤٤ باعادة النظر في الاتفاقية المعقودة بين البلدين سنة ١٩٤٢ رغبة منه في تعديلها لتأمين الحصول على مزيد من المكاسب . وفعلا أعيد النظر في تلك الاتفاقية ووقعت اتفاقية جديدة في اليوم الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ حددت فيها بعض الالتزامات ، منها قيام اثيوبيا بادارة الخط الحديدي بين جيبوتي واديس ابابا . ونصت الاتفاقية الجديدة على استمرار الادارة العسكرية في الحكم ، الا انه ارضاء لرغبة الحكومة الاثيوبية ــ أو الامبراطور بتعبير اصح ــ رفع العلم الاثيوبي بجانب العلم البريطاني فوق الدوائر الرسمية.

المساعدات المالية البريطانية

لقد تضمنت الاتفاقية لسنة ١٩٤٤ التي أشرنا اليها نوع ومبلغ الالتزامات المالية التي تعهدت بريطانية بتقديمها الى اثيوبيا وذلك على الرغم من الضائقة المالية التي كانت هي نفسها تعاني منها منذ سنة ١٩٤١ والظروف الحرجة التي كانت تجتازها خلال السنين الاولى من الحرب العالمية الثانية . وبريطانيا في ذلك العهد كانت تنظر الى علاقاتها مع اثيوبيا بمنظار مصالحها الاستعمارية في المنطقة . ولذلك توخت عند تنظيم هذه الاتفاقية التي صيغت مسودتها في لندن تبيان تلك المصالح بشكل واضح لا غموض فيه ، أو بتعبير أكثر دلالة ، لقد وضعت بشكل ملزم لأثيوبيا لدرجة أن الممثل البريطاني المقيم ، السير فيليب متشل عندما اطلع عليها رأى في بنودها من القيود والالتزامات الثقيلة ما جعله يحكم مقدما بأن الامبراطور سيرفضها رفضا قاطعا لا محالة ، وبخاصة المادة الاولى منها التي صيرت من كيان أثيوبيا واستقلالها مجرد حبر على ورق . وهذه مهزلة لا تنطلي على رجل بدهاء هايلا سلاسي وذكائه . فلن يفرط بحقوق بلاده على الرغم من حاجته القصوى للمعونة المالية والفنية. وكما تنبأ السير فيليب فقد أعادها الامبراطور بالاسلوب الاثيوبي الدبلوماسي البارع المنمق التعابير ، شارحا للسير فيليب أنه يؤثر التفاوض حول كل قضية على حده . وبهذا الاسلوب تخلص من الشرك الذي نصبه له الانكليز واثبت قدرته في الدبلوماسية الدولية وصلابته في التفاوض ، مستغلا حراجة موقف بريطانيا الدولي آنذاك .

أما المادة الاولى سالفة الذكر فمضمونها كما يلي : ــ « يوافق الامبراطور على الالتزام بمشورة حكومة صاحب الجلالة البريطانية في كافة القضايا الخاصة بالحكومة الاثيوبية » . وهذا بند ثقيل حقا ينسف



الكيان الوطني من جذوره ويزيل حتى شبح الاستقلال من الوجود ، على ضعفه في تلك الايام . وتم الاتفاق على أن يتسلم هايلا سلاسي (نيابة عن الحكومة) خلال سنة ١٩٤٢ مساعدات مالية ربع سنوية ، مجموع كل دفعة مليون ونصف المليون باون استرليني . ويتسلم في سنة ١٩٤٣ مليونا واحدا فقط . وكذلك نصت الاتفاقية على التزام بريطانيا بتقديم مساعدات مالية جزئية خلال عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ تحدد مبالغها حسب الظروف والاتفاق .

وثمة امور اخرى شملتها الاتفاقية ، منها تبديل بعض الالفاظ، مثل الاستعاضة عن « الضابط السياسي » ، وكان تابعا للادارة العسكرية ، بممثل عرف ب « الممثل الدبلوماسي البريطاني » . وقد وضع تحت تصرف هذا الممثل مليون باون يستخدمها للصرف على أوجه مختلفة في ميدان الخدمات العامة والتنمية مثل اعادة توطين من رحلوا عن الاراضي الزراعية نتيجة الاضطرابات والحروب . كما تعهدت الحكومة البريطانية ببذل مساعيها لاستعادة المنهوبات من تحف وآثار فنية استولى عليها الايطاليون من الكنائس والاديرة والقصور القديمة . ومما التزمت به أيضا تعيين بعثة عسكرية تساعد على تأسيس جيش اثيوبي والاشراف على تدريبه لتعزيز سلطة الحكومة المركزية والمساهمة ببعض نفقات هذا الجيش لعدد من السنين . هذا مع العلم أن بريطانيا لم تطالب اثيوبيا بنفقات حملة الانقاذ العسكرية التي نظمتها للاطاحة بالحكم الايطالي واعادة هايلا سلاسي الى عرشه . وفي كافة الاتفاقيات المعقودة بالغ الجانب الاثيوبي بالتزام الحذر والتشديد والتأكيد على ذكر استقلال البلاد وشرعية الحكم القائم كما يستدل من المقدمة التالية التي استهلت الاتفاقية الموضوعة البحث :ـ

> « حيث ان صاحب الجلالة الامبراطور هايلا سلاسي الاول الذي يحرص على الوفاء بتعهداته الدستورية بالا يفرط في حقوق شعبه واستقلال بلاده ، وشعورا منه باحتياجاتها وما تفتقر اليه ، فقد ابلغ حكومة المملكة المتحدة برغبته في الحصول على المشورة والمساعدات المالية في المهمة الشاقة المتعلقة بالتنمية العامة والاصلاحات الداخلية . وان حكومة المملكة المتحدة تشعر بدورها ان قد اصبحت اثيوبيا دولة حرة مستقلة وان صاحب الجلالة الامبراطور هايلا سلاسي الاول هو حاكمها الشرعي بعد ان اصبحت له السيطرة التامة على بلاده تتعهد بمد يد المساعدة لجلالته لاعادة تنظيم حكومته وتوفير ما يلزم لملافاة حاجات البلاد الملحة . »

وقعت هذه الاتفاقية في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ باحتفال مهيب في القصر الامبراطوري أعقب ذلك حفلة شاي للامراء وكبار الشخصيات .

المركزية والمحسوبية في بلاط الامبراطور

من الامور المألوفة في اديس ابابا ان يعج بلاط الامبراطور بعدد كبير من الناس وفي مقدمتهم الوزراء وشخصيات البلد ، متجمعين كل حسب قدره ومنزلته ــ في الصالونات الخاصة والابهاء وغرف الانتظار العادية والممرات ومداخل الابنية وخارج المداخل وخارج الأسوار . فحضور الشخصيات والقادة والمتنفذين يعتبر من دلائل الولاء والاخلاص للعرش . فهو ــ اي الامبراطور ــ وليس الحكومة كما هو معروف في البلاد الديمقراطية الاصيلة ــ محور الحياة في اثيوبيا والمحرك المسير لها . ان غياب الوزراء وكبار الموظفين عن دواوينهم وقضاءهم الساعات الطوال في صالات البلاط يتكرر كل يوم . فلطالما تجشمنا الصعاب بالاسفار من بلد لآخر وجئنا الى اديس ابابا حسب مواعيد محددة مع بعض الوزراء او غيرهم فلا نجد لهم اثرا في الموعد المحدد . فأين الوزير الذي قصدناه ــ في البلاط . واين مساعد الوزير (الذي قد يتمكن من اعطاء قرار بشان المهمة التي جئنا من اجلها) ــ كذلك في البلاط . والمدير العام ، في البلاط او في اجتماع . يتكرر هذا كل يوم حتى نظفر بالوزير او غيره لفترة قصيرة من الوقت . وما يتكرر كل يوم كذلك هو انتظار ارباب المصالح المساكين على ابواب الوزراء او مساعديهم او المدراء العامين . ولكن متى يعودون . فلا احد يعلم . هذا هو روتين الحياة والعمل في البلاط ودواوين حكومة القرن العشرين . فكل شيء محصور بيد الامبراطور . فهو السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية .

وطبيعي أن تتفشى المحسوبية والمنسوبية في مثل هذا الجو الذي يفوز فيه المقربون والمنافقون ، فيزداد حقد الحاقدين والمنازئين في اعماق النفوس . ولكن كلهم يترددون على البلاط حيث لا يعرف الصديق المخلص من العدو المراوغ بالنظر لما عرف عن الأحباش من المبالغة في المجاملة والأدب الجم . فتراهم ينحنون الواحد للآخر ويتعانقون ويتبادلون ارق عبارات المجاملة والتودد في حين ان في القلوب حقدا دفينا وشبهات ودسائس تخفيها الابتسامات العريضة . ومن الامور التي يتعلمها الانسان في اثيوبيا ــ امثالنا الذين كانوا يزورونها بحكم الواجب ــ هو الصبر الطويل ، سواء كان في مجال المواعيد والمقابلات ام في ناحية انجاز الاعمال المتفق عليها مسبقا .

دستور سنة ١٩٥٥

اشيع في حينه ان الامبراطور ارتأى اجراء بعض التعديلات في دستور سنة ١٩٣٠ تمشيا مع التطورات الديمقراطية الحديثة . فحسب الدستور القديم كان اعضاء مجلس الشيوخ والنواب يعينون تعيينا . فعدل الدستور سنة ١٩٥٥ واقتصر التعيين على اعضاء مجلس الشيوخ



فقط . واصبح بحسب التعديل الجديد الدخول لعضوية مجلس النواب مشروطا بخوض المعركة الانتخابية ـ التي لم يكن لها وجود سوى في الدستور . قد يتراءى للمرء لاول وهلة ان هذه بادرة طيبة من قبل الامبراطور على اساس انها خطوة في الاتجاه الديمقراطي الصحيح .

الا ان الحقيقة هي غير ذلك تماما . فان الذي اوحى بهذا التعديل هو المندوب الخاص للامم المتحدة في اريتريا الذي مارس ضغطا شديدا على حكومة الامبراطور لتحقيقه لمعالجة الحالة المتناقضة بين شطري الاتحاد الفدرالي (٢) حيث ينتخب اعضاء مجلس النواب في اريتريا انتخابا بينما في اثيوبيا يعينهم الامبراطور تعيينا . هذا دليل اخر على ان اريتريا هي اعرق من الحبشة في ممارسة الحياة البرلمانية الصحيحة . فقد نص دستور اريتريا منذ البداية (وهي التي كانت مستعمرة واثيوبيا مستقلة) على ان « ينتخب اعضاء البرلمان انتخابا » وليس كما هي الحال في اثيوبيا حيث يعين النواب كما يعين صفار الكتبة في دواوين الدولة . والمعروف عن تعديل الدستور سنة ١٩٥٥ ان مجلس النواب لم تكن له كلمة في الموضوع . فلم يساهم ولم يناقش التعديل بل أستدعى اعضاؤه وحضروا مرتدين افخر ازيائهم البلدية لحفلة التوقيع على هذا التعديل . وحتى بعد اجراء التعديل لم يجر أي شكل من الانتخابات النيابية في البلاد ، حتى ولا على نمط الاساليب التي نسمع ونقرأ عنها في البلاد التي يسيرها حزب واحد حاكم .

قد تكون البنود والمواد المعدلة في الدستور مطابقة من الناحية النظرية والقانونية او مشابهة لما هو موجود في دساتير اعرق برلمانات العالم ديمقراطية . ولكن السؤال المحرج للاثيوبي هو هل ان هذه التعديلات حقا اخذت طريقها الى التنفيذ ، وهل أنها من الناحية العملية غيرت شيئا من واقع حياة الفرد فيما يتعلق بالحرية الشخصية والمساواة امام القانون وتكافؤ ألفرص بين المواطنين . الواقع هو ان هذه التغييرات في الدستور قصد بها التمويه على الشعب والظهور امام العالم الخارجي بمظاهر الديمقراطية والتجدد . ولكن في الحقيقة ظلت اثيوبيا ابعد ما تكون عن هاتين الامنيتين ـ الديمقراطية والتجدد ، واستمر الطغيان فيها والكبت كظاهرتين ملازمتين لمجتمع اقدم البلاد الافريقية حضارة واستقلالا .

---

٢ ـ راجع الفصل العشرين عن الاتحاد الفدرالي بين اريتريا واثيوبيا .



كان لا بد لهذه الصورة الظاهرية لاثيوبيا مـــن تغيير ولكــن الذين يعرفون مبلغ تخلف المجتمع الحبشي حق المعرفة لا يقرون مبـدأ ومنطق اجراء هذا التغيير عن طريق الطفرة ـ وانا احدهم ـ لأن معظم ما يسمون بسكان اثيوبيا انما يعيشون على نمط الحياة في العصر الحجري . ولكنني مع ذلك اؤمن بلزوم اجراء تغيير صارم وعاجل ـ ولكن اكرر ـ ليس عن طريق الطفرة .

الفصل العشرون

ارتيريا واثيوبيا والصومال

استعمار مقنع

لقد شغلت مشاكل هذا المثلث الدولي ـ اريتريا واثيوبيا والصومال الايطالي ـ الاوساط العالمية زهاء ربع قرن من الزمن وذلك منذ ان غزت جيوش ايطاليا الفاشستية هضبة أثيوبيا سنة ١٩٣٥ حتى حصلت جمهورية الصومال على استقلالها عام ١٩٦٠ . ومرد ذلك كما لا يخفى هو تشابك مصالح سكان هذه المنطقة التي هي حقيقة اشبه بمتحف للشعوب، من ناحية ، وتضارب مصالح ومطامع الدول الكبرى والدول المجاورة من ناحية أخرى . فبعد جلاء الجيوش الايطالية عنها ودخول وحدات الانقاذ البريطانية سنة ١٩٤١ كان يؤمل ان تخف حدة التوتر في هذا المثلث . الا ان قضاياه ومشاكله الاساسية العميقة الجذور ـ عمق تاريخه ـ قد استعصت وتأزم حلها وبقيت بين اخذ ورد بين الدول الاربع الكبرى ـ الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي وبريطانيا وفرنسا ـ حتى توقفت امام درب مغلق فأحيلت في اخر المطاف الى الامم المتحدة لتنظر فيها الجمعية العامة وتصدر حكمها بشأنها .

وقد يكون من المفيد أن نعيد الى الاذهان بأن بريطانيا حكمت مستعمرتي اريتريا والصومال الايطالي حكما عسكريا مباشرا بعد استيلائها عليهما نتيجة العمليات الحربية لغزو اثيوبيا كما اسلفنا في الفصل الماضي .

فحصل الصومال على استقلاله ـ ولو ان ثلاثة اجزاء من اجزائه الخمسة ما زالت خارج جمهورية الصومال حسب مطالب الشعب الصومالي . واستعاد هايلا سلاسي عرشه واستقلال بلاده بأعجوبة وفي ظروف كانت تتداعى فيها حكومات وعروش هي اقوى واحق بالبقاء في المجتمع الدولي المتمدن مما كان يسمى بأمبراطورية اثيوبيا التي لم تكن



لتملك من مقومات الدولـــة وعناصرها الاساسية سوى الاسم والهيكل الخارجي . اما اريتريا فهي الركن الوحيد من اركان هـذا المثلث الـذي رافق قضيته النحس السياسي ، فاستبدلت استعمارا مكشوفا ظاهـرا باستعمار مقنع . فراحت ضحية المؤامـرات والدسائس وراء الكواليس والتكتلات الدولية والعصبية الدينية .

الصومال الايطالي

قد يكون من المفيد ان نتأمل هنا لحظة لنذكر بأيجاز شيئا عن آمال واماني الشعب الصومالي فيما يتعلـق بوطنـه الاكبر قبـل البحث فـي موضوع الصومال الايطالي . فالصوماليون يدعون بان جمهوريتهم الحالية تضم جزئين فقط من مجموع اجزاء الوطن الصومالي الخمسة . وهذان هما الصومال الايطالي ومحمية الصومال البريطانية السابقين . اما الاجزاء الثلاثة الاخرى فهي : ١ ـ مستعمـرة الصومال الفرنسي وقاعدتها ميناء جيبوتي و ٢ ـ منطقة صحراء اوغادن Ogaden التـي هـي الان تحت الاحتلال الاثيوبي و ٣ ـ القسم الشمالي الشرقي لجمهورية كينيا الحالية . ولا بد من الاشارة هنا الى ان سكان هـذه المناطق كلها هم صوماليون ولا يتكلمون فيما بينهم غير اللغـة الصومالية . وهذا هـو مـا يفسر الشكل الخماسي للنجمة الظاهرة فـي العلم الصومالي . فكل ركن مـن اركان النجمة يرمز الى جزء من اجزاء الوطن .

فمن جملة الحلول التي طرحت على بساط البحث لحل مشكلة هذه المستعمرة في بادىء الامر والبت فـي مصيرها كان اعادتها ثانية الـى ايطاليا . الا ان اثيوبيا عارضت هذا الاتجاه بشدة بسبب مصالحها فـي صحراء اوغادن ومخاوفها من ابتلاع ايطاليا لهـا ، كمـا وكان بينها وبين ايطاليا مشاكل حدود كثيرة فلم تشأ ان ترى ايطاليا طرفا ثانيا في هـذا النزاع بعد هذه المرحلـة . وكـان جومو كينياتا الزعيم الكينـي المعروف (رئيس جمهورية كينيا حاليا) قد استخدم نفوذه مـع بريطانيا لاقصى حدوده ـ وكان ذا حظوة مع الانكليز آنذاك ـ لمناصرة اثيوبيا في مطالبها ، وكان يخشى هو الاخر ضياع القسم الشمالي الشرقي مـن كينيا لصالح الصومال ، ومن اجل ذلك كانت الحرب الباردة قائمة بينـه وبين الزعماء الصوماليين فترة طويلة من الزمن .

اما الاتحاد السوفياتي فكانت سياسته فـي بادىء الامـر متجهة لتأييد عودة الصومال الايطالي الى ايطاليا . الا انه عاد وغير موقفه عندما هزم الحزب الشيوعي الايطالي في الانتخابات العامـة التـي جرت في نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٨ . ولما تعقدت الامور واستحال الوصول الى حل مقبول احيلت القضية الى الامم المتحدة التـي اقرت بدورها سنة



١٩٤٩ منح ايطاليا الوصاية على مستعمرتها السابقة لمـــدة عشر سنوات ولكن تحت اشراف لجنة خاصة من الامم المتحدة عـــلى ان تقوم ايطاليا خلال فترة الوصاية باعداد البلاد لكـــي تصبح قادرة عـلى ادارة نفسها بنفسها فتمنح الاستقلال التام .

مولـد جمهورية

وقبيل انتهاء فترة الوصاية أجريت الترتيبات المقتضية وبموافقة الحكومة البريطانية لدمج الصومال الايطالي ومحمية الصومال البريطانية ـ وعاصمتها هرغيزة Hargeisa ـ ليصبحا دولة واحدة اعلن استقلالها رسميا سنة ١٩٦٠. وعرفت منـذ ذلـك الحين ب « جمهورية الصومال » وعاصمتها مقديشو الواقعة على المحيط الهندي . ومـــن لحظة ولادتها ورثت هذه الجمهورية الفتية مشاكل الحدود مـع اثيوبيا ، تلك المشاكل التي لم تتوصل لحلها السلطات الايطالية على الرغم من حكمها الاستعماري الطويل ، كما ولم تستطع التغلب عليها الادارة العسكرية البريطانية التي حكمت هذه الاصقاع حكما مباشرا بما في ذلك اثيوبيا نفسها . فاصبحت قضايا الحدود هذه من الامور الشائكة التي ما برحت تعكر صفو العلاقات بين البلدين ، هذا بالاضافة الى المناوشات الحربية على الحدود بين حين وآخر . واستمرت هذه الاحوال على سوئها طيلة الستينات . كما وقـد شغلت الجمهورية الفتية في امور ثانوية كان من الافضل تفاديها وصرف الجهود لاعمار البلاد وتعميم التعليم والعمل عـلى رفع المستوى المعاشي للشعب ومعالجة الامور الحيوية الملحة الاخرى .

لا يخفى ان الصومال الايطالي ، وكذا الصومال البريطاني الواقع الى شماله هما من افقر البلاد الافريقية ان لم يكونا افقرها وذلك نظرا لشحة مواردهما الطبيعية . يكفي ان نعلم انـــه عندمـا تنسمت البـلاد شميم الاستقلال لم يكن فيها من الطرق المعبدة ما يزيد على ١٢٠ (مائة وعشرين) كيلو مترا . منها حوالي ٩٠ كيلو متـــرا بـين العاصمة مقديشو واقطاعية امتياز قصب السكر الايطالية في جوهر (وكانت تسمى فيـــلا بروتسي قبل الاستقلال على اسم صاحب الامتياز) و ٣٠ كيلو متـــرا بين العاصمة وقرية افغوي Afgoy الواقعة على نهر شيبيللي غربي العاصمة . ولمـــا اقترب ميعاد اعلان الاستقلال فطن اولو الامر الى مشكلة افتقار العاصمة للفنادق ، اذ لم يكن فيها سوى فندق واحد صغير يقـع قـرب السوق الرئيسية ولا يليق باستقبال المدعوين من الشخصيات الاجنبية . فتلافيا لهذا النقص البارز المحرج بوشر باقامة فندقين جديدين بصورة مستعجلة من المواد المضغوطة الجاهزة سموهما فندق جوبا وفندق شيبيللي تخليدا للنهرين اللذين يغذيان زراعة البلاد .

ومقديشو العاصمة لا تتوفر فيها مياه صالحة للشرب حتـى وقت



متاخر من سنة ١٩٦٩ عندما زارها كاتب هذه السطور لآخر مرة . على ان المياه المعدنية المعباة بالقناني المختومة على الطريقة الايطالية فكانت تباع في العاصمة وتأتيها من ينابيع في بلدة برافا Brava على المحيط الهندي . ولكن الفرد العادي لا يقوى على دفع اثمانها فيشرب من مياه الآبار غير المعقمة .

والبلاد الصومالية بوجه عام محدودة الخيرات والموارد الطبيعية . اما اهم صادراتها فهي الموز والحيوانات الحية والجلود والفحم . والفحم هذا لا يستخرج من مناجم طبيعية وانما يصنع بتقطيع اشجار الغابات وحرقها . فمثلهم في هذا كمثل من يقطع لحم جسمه ليأكل منه . وكانت الحكومة قد اصدرت تشريعا يمنع صنع الفحم بهذه الطريقة الا ان تطبيقه لم يكن صارما بالنظر للفقر المدقع الذي يعيشه معظم السكان . غير انه هناك بعض الامكانيات لتحسين المراعي في الشمال وصيانة غاباته البكر وتنمية الزراعة في حوض نهر جوبا عن طريق توسيع مشاريع الري لتنويع المحاصيل وزيادة مساحات زراعة القطن والمحاصيل الزيتية .

اريتريا واثيوبيا

ان الازمة التي رافقت محاولة البت في مستقبل اريتريا بعد جلاء الايطاليين عنها مرت بادوار معقدة جدا . فقد تناولت بحثها لجان وهيئات عديدة ، دولية وغير دولية متعاقبة . وكانت المناقشات حولها تحتدم وتصطدم بدروب مغلقة . وكم من مرة اجل النظر فيها لضجر الاعضاء من عدم التمكن للوصول الى حل يرضي جميع الاطراف المعنية . وكانت تحال القضية برمتها من لجنة الى اخرى فتنتهي اما بعقدة مستعصية او بتأجيل ثان للنظر فيها ، وهكذا ضاعت فرص حلها بين اللجان والجمعية العامة للامم المتحدة. وما ذلك الا بسبب تضارب مصالح الاطراف المتنازعة والمداخلات من خارج اطار الطرفين المعنيين . فهناك الاريتريون وهم المسلمون والمسيحيون ، والايطاليون المستوطنون ، واثيوبيا وبريطانيا وايطاليا والولايات المتحدة ــ فكل هذه الاطراف كانت تحاول خدمة مصالحها عند عرض القضية للبحث في مختلف اللجان .

فلولا مشاكل سكان اريتريا انفسهم التي كانت عقبة كأداء حقا لسهل عليها نيل استقلالها . فمقومات الدولة كانت متوفرة فيها ــ ولو ان بريطانيا كان لها رأي آخر في هذا الموضوع ــ اهمها نضوجها السياسي وبلوغ الادارة المدنية فيها درجة اتسمت بالكفاءة المقبولة . الا ان ضعف مواردها الطبيعية كان يعتبر من معوقات نموها وازدهارها كدولة مستقلة . ولكن ليبيا والصومال ودولا اخرى في افريقيا لم تكن عند نيلها الاستقلال اكثر اهلية من اريتريا من ناحية توفر مقومات الدولة فيها . فالمسلمون وهم الذين يشكلون الغالبية العظمى في الاراضي المنبسطة



والساحلية والاجزاء الغربية المتاخمة للسودان اصروا على المطالبة بالاستقلال التام . ومن الناحية الثانية فقد آثر المسيحيون الاقباط وهم الذين يكونون الاكثرية في المرتفعات الانضمام بصورة تامة الى اثيوبيا او الاتحاد معها اتحادا فدراليا . اما اسباب رفضهم الاستقلال وتفضيلهم الانضمام الى اثيوبيا فليس له تفسير سوى التعصب الديني المحض . وقد شجعت ذلك وغذته حكومة اثيوبيا والكنيسة بالمال والدعاية .

وفي خضم هذا الجو المشحون بالخلافات الدينية والحزازات العنصرية حدثت عدة حوادث مؤسفة راح ضحيتها عدد كبير من الناس ومن زعماء الطرفين . ومما زاد الطين بلة وقوع صدام خطير يوم ٢٨ آب (اغسطس) ١٩٤٦ في اسمرة عاصمة اريتريا بين جنود سودانيين تابعين للادارة العسكرية البريطانية وبين بعض السكان المسيحيين ادى الى حدوث اصابات بين الجانبين . وبمرور الايام تطور هذا الحادث الى اعمال انتقامية اودت بحياة عدد من الشخصيات السياسية البارزة . فقد قيل انه جرت سبع محاولات لاغتيال ولدياب ولدي ماريام Woldeab Wolde Mariam بسبب ميوله ــ وهو مسيحي ــ لحركة الانفصال عن اثيوبيا . اما عبد القادر كبيرة رئيس حزب الرابطة وعضو مجلس النواب فقد اردى قتيلا في احد شوارع اسمرة في شهر اذار (مارس) ١٩٤٩ . كما قتل فكتور لونغي victor Lunghi وهو من السكان المضربين وأحد دعاة الاستقلال ومن ابرز المناهضين لجبهة الانضمام الى اثيوبيا في سنة ١٩٥٠ . ولقد استمرت موجة الاغتيالات السياسية فترة من الزمن بتشجيع من الحزب الوحدوي على ما يبدو .

لقد كان واضحا لكل ذي بصيرة ان ربط اريتريا باثيوبيا المتخلفة هو اجحاف صارخ بحق شعبها . وقد تناولت ذلك الموضوع باسهاب الصحافة العالمية بأسرها في حينه، وكتبت حول المناقشات الدائرة بصدد حل مشكلة مستقبل اريتريا . حتى ان بعض المراقبين الاجانب اعتبروا ضم اريتريا الى اثيوبيا بأي شكل من الاشكال بمثابة تقهقر لها ورجوع الى الوراء نظرا لتفوقها على اثيوبيا ثقافيا وسياسيا واقتصاديا . وكان يكفي لاعضاء اللجان والهيئات الدولية الموفدة من قبل الامم المتحدة ان يعبروا خط الحدود ليزوروا اول اقليم اثيوبي مجاور لاريتريا وهو اقليم تيغرة لتحصل عندهم القناعة التامة بهذا التفوق . ولكن ممثلي اثيوبيا الذين رافقوا هذه الهيئات استخدموا شتى الاساليب والمراوغة الدبلوماسية لاخفاء نواحي التخلف في بلادهم . اما التنظيم الاداري في اريتريا فكان من اكفأ ما لمست انا شخصيا في افريقيا ويضاهي بذلك كفاءة السودان ونايجيريا المعروفتين بحسن تنظيم الادارة المحلية فيهما .



اريتريا في الامم المتحدة

اخيرا وحسما لهذه القضية التي غدت اعقد من ذنب الضب . وبعد ان سئمت معظم الدول مواصلة الاشتراك في بحثها ، اقرت الجمعية العامة للامم المتحدة بجلستها المنعقدة في اليوم الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٠ وبأغلبية ٤٦ صوتا ضد ١٠ اصوات منح اريتريا الحكم الذاتي في اطار اتحاد فدرالي مع اثيوبيا تحت التابع الاثيوبي الذي سيمثله في اريتريا ممثل عن الامبراطور . وبموجب هذا القرار اصبحت مسؤولية الدفاع والشؤون الخارجية وشؤون العملة والمالية والتجارة الخارجية والاتحادية والمواصلات الخارجية والاتحادية بما في ذلك الموانىء من اختصاص الحكومة الاتحادية .

اما حكومة اريتريا فقد منحها القرار سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية لممارسة شؤونها الداخلية . كما ونص على أن تقع ضمن اختصاصها كافة الامور التي لم يوكل البت فيهـا للحكومة الاتحادية . فيدخل في ذلك مثلا صلاحية تأسيس جهاز للشرطة لصيانة الامن الداخلي وفرض الضرائب لملافاة نفقات الموظفين والخدمات العامة مثل البلديات وغيرها . وتنظم صرفيات الحكومة حسب ميزانية تعدها السلطة التنفيذية وتصادق عليها السلطة التشريعية . ومن ضمن ما احتواه القرار هو ان يكون لكافة المواطنين في شطري الاتحاد ، اي في كل من اثيوبيا واريتريا جنسية واحدة ، وان يقام مجلس اتحادي تشترك فيه اثيوبيا واريتريا بعدد متساو من الممثلين .

ولما كان تنفيذ هذا القرار ـ اي قرار الامم المتحدة ـ يتطلب بعض الوقت لاعداد اريتريا للحكم الذاتي على الوجه الاكمل فقد حددت لذلك فترة من الزمن اطلق عليها القرار « فترة انتقال » تنتهي في ١٥ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٢ كأقصى حد ينبغي ان ينظم خلالها جهاز اداري ويؤسس مجلس للنواب عن طريق الانتخاب . فعينت الامم المتحدة السنيور ماتيينزو Matienzo البوليفي الجنسية مندوبا دائما عنها للاشراف على تنفيذ القرار ، وبعين الوقت لتولي مسؤولية اعداد دستور لاريتريا مبني على اسس الحكومات الديمقراطية البرلمانية يوافق عليه مجلس النواب في اريتريا ويصادق عليه امبراطور اثيوبيا .

واستعدادا للدخول في الحياة البرلمانية اسست ثلاثة احزاب سياسية هي : ١ ـ حزب الرابطة الذي تتكون غالبية اعضائه من المسلمين . وقيل في حينه ان الانكليز كانوا وراء هذا الحزب . ٢ ـ حزب برو ـ ايطاليا ، اي الحزب الموالي لايطاليا كما هو واضح من الاسم ، و ٣ ـ الحزب الوحدوي ، وهو اكبر الاحزاب الثلاثة وتناصره وتغذيه ماديا الحكومة الاثيوبية لان منهاجه السياسي يهدف لضم اريتريا الى اثيوبيا كليا . وكان الحزب الوحدوي Unionist اقوى الاحزاب ويليه



حزب الرابطة . وقد بلغ التطاحن بين هذين الحزبين حدا خطيرا . واما حزب الرابطة فكان ينشد الاستقلال التام لاريتريا ولا يرضى عنه بديلا . ويستند في ذلك الى المبادىء الاساسية للحزب كما جاءت في منهاجه . وهذه المبادىء تعتمد من حيث جوهرها على نقطتين اساسيتين مستمدتين من واقع تاريخ البلاد . الاولى هي ان اريتريا متفوقة على اثيوبيا سياسيا واقتصاديا وثقافيا. والثانية مخاوف مسلمي اريتريا من سياسة التعصب الديني والتمييز العنصري الذين حاربت اثيوبيا المسلمين بهما عبر التاريخ . ولذلك فقد خشي المسلمون سوء عاقبة الاتحاد مع اثيوبيا . وبصريح العبارة فالنقطة الاخيرة لا تنطوي على الثقة بالاثيوبيين .

واما الحزب الوحدوي فيدعم سياسة الانضمام الى اثيوبيا بحجة ان هذه البلاد ، اي اثيوبيا بحاجة الى موانىء اريتريا على البحر الاحمر . وان اريتريا هي بحاجة لمنشآت اثيوبيا الصناعية لاغراض التنمية الاقتصادية ، على اساس ان الاخيرة تمتلك فيضا من الموارد الطبيعية والامكانيات لتمويل مشاريع التنمية في اريتريا . ويذهب الحزب الى ان اثيوبيا لديها مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية لاستيعاب الفائض من سكان اريتريا الزراعيين . وبمعنى اخر ستصبح اريتريا جزءا مكملا لاثيوبيا من الناحية الاقتصادية .

بعد جهود حثيثة ودراسات واسعة واستشارات على الصعيدين المحلي والدولي توصل السنيور ماتيينزو مندوب الامم المتحدة الى اعداد مسودة دستور يلائم اريتريا فأقره مجلس النواب بعد ادخال تعديلات طفيفة عليه . وقد يكون من المفيد ان نشير هنا اشارة عابرة الى ابرز اركانه ومعالمه .

فالمجلس النيابي حسب هذا الدستور هو الذي ينتخب رئيس الحكومة . وهذا ـ اي رئيس الحكومة ـ هو الذي يعين وزراءه ، وهم مسؤولون امامه وكذلك بالنسبة لرؤساء الادارات . اما تعيين باقي الموظفين فيتم عن طريق مجلس للخدمة المدنية . ومن اهم ما جاء في الدستور هو النص الصريح باستقلال المحكمة العليا والمحاكم الاخرى عن السلطتين التشريعية والتنفيذية .

واريتريا لها علم خاص حسب الدستور ـ مستقل عن علم اثيوبيا ـ كما ولها لغتان رسميتان ، التيغرينية والعربية . وصادق مجلس النواب على هذا الدستور في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، وبعد مرور شهر على ذلك وافق عليه الامبراطور هايلا سلاسي فاصبح نافذ المفعول . واتماما للمراسيم الدستورية عين هايلا سلاسي بعد ذلك صهره لمنصب « ممثل الامبراطور » واتخذ من اسمرة عاصمة اريتريا مقرا له .

وبحلول يوم ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ وهو اليوم الذي تمت فيه عملية انتقال الحكم من الادارة العسكرية البريطانية الى حكومة اريتريا ،



انسحب السير دنكان كمينغ Sir Duncan Cumming اخــر رئيس للادارة البريطانية وغادر البلاد .

زواج فاشل بين اسمرة واديس ابابا

ولكن ما ان بدأ الحكم الوطني في اريتريـا يمارس واجباته حسب دستوره الجديد حتى تلبـدت سمـاء العلاقات بين ممثـل الامبراطـور والحكومة في اريتريا بسحب من التوتر وسوء التفاهم نتيجـة الاحتكاك والاخذ والرد في تفسير عائدية بعض السلطات والصلاحيات في الحكم . على ان ابرز حادث كان له الاثر العميق المباشر في توسيع هـوة الخلاف بين الطرفين هو قيام ممثل الامبراطور بالطواف في ارجاء اريتريا والقاء خطب سياسية حساسة اعتبرتهـا السلطات المسؤولـة عملا منافيـا للدستور ، بينما اعتبرتها حكومة اديس ابابا انهـا خطب ولقاءات لنقل تمنيات الامبراطور الطيبة لكافة طبقـات الشعب ، وادعت بان حكومة اريتريا مانعت في تجول ممثل الامبراطور في انحاء البـلاد لبث تحيات الامبراطور لشعبه .

بعد هذا الحادث اخـذت العلاقات بين اديس ابابـا واسمرة تزداد تدهورا وتعقيدا وراحت الحكومة الاتحادية تمارس ضغطا شديدا عـلى حرية الصحافة وفرضت مراقبة غير مألوفـة عليها . فاسكتت الاقلام الحرة واعقبت عملها هذا بحملـة اعتقالات استهدفت تجميـد نشاط العناصر الوطنية غير الموالية لحكومة اثيوبيا . فاعتقلت عمر قادر العضو السابق في المجلس الاتحادي والشيـخ ابراهيـم رئيس ادارة الاملاك الاميرية وغيرهم . ولا يفوتنا ان نذكـر بهـذه المناسبـة ان اثيوبيـا الامبراطورية لم يكن فيها اثر للصحافة والصحف ، وحتى يومنا هذا لـم تصدر في اديس ابابا جريدة حرة . وازاء هذه الاجراءات التعسفية غير الدستورية اضطر عدد غير قليل من الزعماء السياسيين مغادرة البلاد . اما ولدياب ماريام الذي اشرنا اليه سابقا وهو قبطي ، فقد لجأ الى مصر وظل فترة يذيع من محطة راديو القاهـرة منهاجه الموجـه ضد حكومة اديس ابابا .

لقد جاءت هذه الاجراءات المخيبة للآمال مـن جانب حكومة اديس ابابا تعبيرا صادقا لا غموض ولا التباس فيه عن سوء نوايـا الاحباش ازاء شركائهم في الاتحاد . وربما ان اديس ابابا تعمدت اتخاذ هذه الاجراءات القمعية ضد حرية الصحافة والحكم الوطنـي الديمقراطي الصحيح فـي اريتريا خشيـة تسرب هـذه الافكار الى الحبشة الفارقة في ظلمات الاقطاع والحكم الاستبدادي الفردي ـ وهذا برأيي هو السبب الرئيسي لهذه الاجراءات . فكأن هايلا سلاسي اراد بهذه الضربة المتوحشة المنافية لابسط مفاهيم العدالة الانسانية ان يفهم الاريتريين بصريح العبارة انـه



ضد هذا الاستقلال الذي لا يتفق والحكم المطلق الذي يريد ان يمارسه باستمرار .

وجاءت اجراءات الحكومة الاتحادية الاخيرة بمثابة صدمة ليس للسياسيين المناهضين لنظام حكم هايلا سلاسي فحسب بل وللحزب الوحدوي نفسه الذي رفع راية الانضمام الى اثيوبيا انضماما كاملا . فبعد هذه الحركة من جانب اديس ابابا لخنق حرية الكلام وحرية القلم وضربها دستور اريتريا بالصميم انسحب من هذا الحزب اهم اعضائه البارزين احتجاجا على ذلك . واغرب ما في الامر هو ان بعض المنسحبين من الحزب الوحدوي اخذوا ينادون بالانفصال عن الحكم الاتحادي مع اثيوبيا . فتصدع الحزب وتدهورت سمعته كأكبر حزب سياسي في ذلك الوقت في افريقيا . وثبت للملأ ان هذا الحزب كان يتغذى بأموال اثيوبية وان تأليفه كان اصلا لضرب فكرة استقلال اريتريا .

اسد يهوذا يفترس اريتريا

كان زعماء اريتريا ، من مسلمين ومسيحيين ، الذين لم يرضوا بغير الاستقلال التام بديلا ، ينظرون الى اثيوبيا بعين الريبة وعدم الثقة باقوال زعمائها منذ البداية . وكانوا شاعرين مسبقا بجوانب الضعف والخطر التي تكتنف حل قضيتهم على اساس الاتحاد الفدرالي مع هذا البلد المتخلف ــ اثيوبيا . فهم متقدمون عليها ثقافيا وصناعيا ولكنها اقوى منهم عسكريا . ولذلك كانوا يخشون بأسها وغدرها واطماعها التوسعية. وصدقت مخاوفهم وظلمتهم الامم المتحدة بهذا الزواج الفاشل . فأثيوبيا كانت تسعى دوما للحصول على منافذ بحرية من اجل السيطرة على ساحل البحر الاحمر الغربي . وهم كذلك منذ البداية لم يرتاحوا للسلطات الواسعة التي منحتها الامم المتحدة للحكومة الفدرالية في اديس ابابا على حساب الحرية التامة التي كانت اريتريا تتوقع ان تظفر بها كبلد مستقل . وهي التي احتلت ورزحت سبعين عاما تحت ذل الاستعمار والحكم الاجنبي بانتظار هذه الفرصة للاستقلال ــ ولكن يا لخيبة الآمال في الامم المتحدة .

اما عن غدر الاثيوبيين فالاريتريون ادرى به من غيرهم لانهم يتداولون دوما قولا شائعا في تيغرة مفاده ان الامبراطور منليك الثاني امبراطور اثيوبيا هو الذي باع اريتريا للايطاليين يوم كان يحبك الدسائس معهم للاطاحة بحكم الامبراطور يوحنا الرابع وكان هو انذاك ملك اقليم شوا .

لقد اثبتت الايام صحة تنبؤات زعماء اريتريا الداعين للاستقلال . فما ان مرت فترة قصيرة على صدور القرار بالاتحاد الفدرالي وانفردت اثيوبيا القوية الطامعة باريتريا الضعيفة حتى كشر اسد يهوذا عن انيابه



مظهرا نفسه على حقيقتها ومتنكرا لمبادىء الامم المتحـدة . فوجه ضربته الغادرة لشعب اريتريا الذي لم يتنسم بعد شميم الحرية ، ونسف دستور اريتريا وسلطاتها واحزابها السياسية وحكمهـا الذاتـي الذي لـم يكد الاريتريون يرضعون لبانه حتـى منعوا عنه . فافترس هـذه الفريسة الوادعة بين عشية وضحاها ضاربا بكل المبادىء الدولية الاخلاقية عرض الحائط . وبذلك قضى على نضال هذا الشعب مـن اجل حريته وآماله وامانيه . وكأن الباري عز وجل قدّر لهذا الشعب ان يخرج من استعمار فيه طعم المدنية ليدخل استعمارا كله ظلمات وغدر وتخلف .

فتبريرا لما اعتزمت اثيوبيا القيام به من اجراءات لمسح كيان اريتريا من جذوره بدأت حكومة اديس ابابا باذاعة اخبار مفادها ان عناصر هدامة تغذيها وتمولها دول اجنبية معينة تسعى للمس بكيـان اثيوبيـا ووحدة شعوبها عن طريق احداث القلاقل والشغب بين المواطنين . وفـي حوالي شهر شباط (فبراير) من سنة ١٩٥٨ قامت سلطات الامن الاثيوبية بأبعاد الملحق العسكري المصري عن البلاد كعنصر غير مرغوب فيه لنشاطه الثابت لأثارة المسلمين ضد الحكومة . ثم خطت خطوتها الثانية حين اذاعت فـي شهر كانون الاول (ديسمبر) من نفس السنة بعـد مقدمات سياسية منمقة تناسب الظروف بان مجلس النواب في اريتريا قرر باجماع الآراء الغاء علم اريتريا والاكتفاء بعلم الحكومة الاتحادية ـ اي العلم الاثيوبي .

عندئذ توقعت الاوساط السياسية المطلعة والمراقبون فـي اسمرة حدوث امر خطير آخر بعد هذه المقدمة . وفي خلال هذه الفترة استدعى رئيس حكومة اريتريا ورئيس المجلس النيابي ونائبه الى اديس ابابا فـي شهر آب (اغسطس) سنة ١٩٥٩ ـ للمداولة في شؤون لم يعلن عـن طبيعتها في حينه . ولكن علم بعدئذ أن هـذه الزيارة المفاجئة للعاصمة الاتحادية تمخضت عن قرار اذيع فـي شهـر ايلول (سبتمبر) ١٩٥٩ بالراديو ، قيل انه صدر عن مجلس نواب اريتريا بتطبيق قانون العقوبات الاثيوبي في محاكم اريتريا والغاء القوانين المرعية الاخرى هناك ـ وبمعنى اخر استبدال القوانين الشرعية بقانون الغاب .

بعد هذه المقدمات كلها لم يعد خافيا ان كيان اريتريا برمتـه اصبح الآن هو الهدف . فازداد الجو السياسي تأزما بين العاصمتين ـ الاقليمية والفدرالية . واصبح واضحا وضوح النهار أن اريتريا مقبلة على احداث في غاية الخطورة ـ احداث تهدد حريتها ووجودها كحكومة ذات كيـان معترف به . والصحيح هو ان اريتريا باتت علـى وشك ان تلفظ انفاسها الاخيرة . وهذا ما حصل فعلا وتوقعه المراقبون . ففي شهر ايار (مايو) ١٩٦٠ استخدم ممثل الامبراطور نفوذه وضغطه بكـل قـواه فاستحصل تحت مؤثرات التهديد والتزييف قرارا من مجلس النواب يقضي باستبدال اسم « حكومة اريتريا » باسم « ادارة اريتريا تحت ظـل هايلا سلاسي



الاول امبراطور أثيوبيا » .

واخيرا انفجرت القنبلة الموقوتة بعد ذلك بسنتين تقريبا . فأعلن رئيس « ادارة اريتريا » في ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٩٦٢ وسط غضب النواب واستيائهم الغاء الاتحاد الفدرالي ودمج اريتريا باثيوبيا دمجا كاملا كأحدى ولاياتها او اقاليمها . وهكذا اسدل الستار على نضال اريتريا وتضحياتها . ودفن قرار الامم المتحدة على ملأ الاشهاد ؛ واستبدلت من يومها اريتريا استعمارا باستعمار ادهى منه وامر .

وشردت اثيوبيا باساليبها الغادرة ومجازرها الرهيبة احرار اريتريا الوطنيين من ذوي النفوس الأبية امثال الزعماء عمر قادر والشيخ ابراهيم وولدياب ماريام . وقتلت بأبشع اسلوب لا انساني في احد شوارع اسمرة الزعيم عبد القادر كبيرة رئيس حزب الرابطة وعضو مجلس النواب . ودفعت الى المناصب الحكومية العالية بعض المذبذبين من عملائها . ومن ابرز هؤلاء اسفاها ميخائيل Asfaha Wolde Mikael الذي عينته لأكبر منصب في الحكومة وهو رئيس « ادارة اريتريا » . وهذا الشخص ظهرت له بعض التصاوير في مطار اسمرة وهو جاثم على قدمي هايلا سلاسي يقبلها عند عودته للبلاد بعد الانقلاب الفاشل سنة ١٩٦٠ (١) . من امثال هؤلاء الصعاليك يحلو للامبراطور ان يضع في ارفع المناصب .

1 — Ethioipa, by Richard Greenfield, page 432.



الفصل الحادي والعشرون

انقلاب عقيم

جذوره وأسبابه

استقبل العالم نبأ الانقلاب الذي وقع في أديس أبابا صبيحة يوم الثلاثاء المصادف ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٠ بدهشة بالغة ، وكانه استبعد حدوث أمر كهذا في بلد خيم عليه الجمود واستأثرت به السلطة . في الوقت ذاته فان حدثا خطيرا كان متوقعا من الجميع بسبب سوء الاحوال الداخلية الذي بلغ حدا لا يطاق . فكان لا بد لهذا الوضع من مخرج ومتنفس . ولم تعد تنطلي على الشعب بعد بيانات الحكومة حول رسم الخطط الانمائية لانعاش الاقتصاد تارة وتعديل الدستور لضمان الحريات السياسية تارة اخرى . كل هذا وظل الحكم الاقطاعي والاستبدادي يزداد اتساعا وعمقا في البلاد . أما الحريات التي ضرب على أوتارها تعديل الدستور سنة ١٩٥٥ فلم يكن لها أثر . وظلت هذه النعمة التي وهبها الله للانسان بعيدة عن متناول الفرد الحبشي .

واستقبل الناس في اثيوبيا الانقلاب بتحفظ تام بسبب شكوكهم بنجاحه نظرا لما عرف عن الفرد الحبشي من ولاء أعمى للملوك الذين يحكمون رعاياهم بتفويض سماوي ـ هكذا علمتهم الاساطير . والذين تشككوا في امكان نجاح الانقلاب كانوا على صواب لان المحاولة لم تدم اكثر من ثلاثة أيام . فقد بدأ يوم ١٣ كانون الاول وانتهى فاشلا يوم ١٥ منه . وكان عمر الانقلاب عمر البرق أو أقصر ، بحيث ولد ومات قبل أن تنتشر انباؤه في بعض الاماكن النائية من البلاد . وقضي الامر وعاد الامبراطور الى عرشه وكأن شيئا لم يحدث في هذه المملكة الجبلية .

ان المطلعين على أحوال اثيوبيا عن كثب يدركون تمام الادراك بأن هذا الانقلاب لم يكن وليد ساعته ، وانما كان نتيجة تفاعل عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية اينعت خلال العشرين سنة التي اعقبت عودة



الامبراطور من منفاه بحراب قوات الانقاذ البريطانية . كما أعقبت عودة احرار اثيوبيا الذين انتعشت آمالهم وتجددت أمانيهم في تبديد سحب التخلف والفقر من سماء البلاد وانتشالها من محنها المزمنة وازالة العقبات التي تعترض مسيرتها نحو حياة أفضل . ومما زاد في آمالهم التصريح المشجع الذي أدلى به ساعة استقباله في أديس أبابا لجماهير الشعب التي خرجت عن بكرة أبيها وجاءت لتحييه بسلامة العودة سنة ١٩٤١ .

أما بعض العوامل التي هيأت لقيام الانقلاب فيرجع تاريخها الى مدى العصور التي عاشتها شعوبها ، بأديانها المختلفة وأجناسها المتباعدة ولغاتها المتباينة وعاداتها المتضاربة . عاشت هذه الشعوب وما زالت تعيش في أشد حالات البؤس والشقاء — في اكواخ حقيرة تشاركها فيها البهائم فيما تتوسط بؤسها وشقاءها قصور حكامها وقلاعهم المنيعة الشامخة .

أما الاسباب المباشرة لهذا الانقلاب — الاسباب التي أوقدت الشرارة — فهي العاصفة الفكرية التي غشيت هضبة الحبشة العتيدة ودخلتها مع المواطنين الاحرار عقب انتهاء الاحتلال الايطالي . ولا ينكر أن هذه العاصفة تمثل جانبا من رياح التجدد والثورة على التخلف في القارة الافريقية بصورة عامة . أو كما أطلق عليها البعض « الثورة الافريقية » أو « ثورة العملاق الاسود » . فظلت هذه العاصفة تحوم بين المرتفعات والوهاد زهاء عشرين عاما تزيد من كهربة جوها المتأزم حتى انفجرت سنة ١٩٦٠ . فقد يئس قادة الفكر والمصلحون من مواعيد الامبراطور العرقوبية في تنفيذ الاصلاحات الداخلية التي برهنت الايام أنها مجرد تخدير للاعصاب وكسب للوقت ريثما يتم قبضته على الحكم بعد غياب طويل .

كان لاختلاط الاثيوبيين واتصالهم المباشر بشعوب وحضارات اخرى أثره العميق في نفوسهم وتوعيتهم الى التطورات العالمية المعاصرة في تحسين الحالة المعاشية للفرد في البلاد الاجنبية ، والتقدم الثقافي والصناعي والزراعي في البلاد النامية المشابهة لبلادهم . وحتى الوحدات العسكرية الاثيوبية التي ساهمت في حرب كوريا مع قوات حفظ السلام التابعة للامم المتحدة — ضباطا وجنودا — عادوا الى ديارهم بقلوب وعيون متفتحة ومتعطشة للتغيير والتجدد . حتى ان بعض الضباط فاتحوا قائدهم الجنرال مولوغيتا بوللي Mulugeta Bulli (١) وحسنوا له فكرة القيام بانقلاب عسكري بعد عودتهم الى الوطن وحرضوه على تزعم هذه الحركة اسوة بعبد الناصر في مصر . الا انه لم يستجب لطلبهم في ذلك الحين وقال لهم بالحرف الواحد : « ان وضع الكنيسة في مصر ليس كالذي في اثيوبيا » — ويقصد ان الكنيسة في اثيوبيا تقف وراء الامبراطور

---

1 — Ethiopia, by Richard Greenfield — pages 359 — 60



وتحميه بينما الدين في مصر لا يقيد تحركات السياسيين .

وكما اسلفنا فلا يمكن للباحث عن كافة الاسباب التي هيات الجو المناسب لهذا الانقلاب ان يغفل عن سبب مهم جدا هو تزايد عدد المثقفين المسلحين بسلاح العلم والمعرفة والادراك العميق الناضج في الفترة الواقعة بين حربين عالميتين وأثرهما في تغيير المفاهيم والقيم الانسانيه القديمة . وفي مقدمة المثقفين بين شباب اثيوبيا الذين عادوا الى الوطن حاملين اللب وما هو مفيد من حضارة الغرب دون القشور كان ذلك الشاب اللامع الذي يعتبر من أوائل المخططين لهذا الانقلاب ـ غيرمامي نواي Girmame Neway الذي أكمل دراسته العالية في الولايات المتحدة الامريكية . ولما عاد الى اثيوبيا تقلد عددا من المناصب ذات المسئولية الكبيرة . ولكن الامبراطور سرعان ما سحب دعمه له وتنكر لافكاره واتجاهاته الانسانية عندما علم أنه أخذ يوزع الاراضي الزراعية على الفلاحين في احدى الولايات التي عين حاكما (موظفا اداريا) لها . ولما تصدى له الاقطاعيون بهذه الولاية (المحافظة) وقاموا بوجهه واخذوا يفسدون له خططه الرامية الى الاصلاح ويعرقلون تنفيذ مشاريعه ، جاء الى أديس ابابا محتكما لدى الامبراطور وعارضا عليه مشاكله . الا ان هذا لم يلتزم جانبه ولم يمنحه السند والتشجيع للمضي قدما في مشاريعه الانشائية . فكان موقف الامبراطور هذا بمثابة خذلان له ـ اي لغيرمامي. ولكن غيرمامي تعلم من جملة ما تعلم من خلال العمل في هذا المحيط الفاسد ، الصبر والتحالف مع الايام .

المعروف عن اثيوبيا ان الرشوة منتشرة فيها بشكل فظيع . وفي هذا المجال تروى قصص طريفة عن غيرمامي نفسه ـ وكان كما ذكرنا حاكما في احدى الولايات التابعة لاقليم سيدامو في الجنوب . والقصة هي أنه لم تمض سنة على تولي غيرمامي منصبه في هذه الولاية حتى جمع مرؤوسيه ليعلن لهم انه قد أصبح بحوزته مبلغ ٣٠ الف دولار مع العلم ان الحكومة لم تخصص له هذا المبلغ . كما اعلن ان من بين مشاريعه سيكون انشاء مدرسة لا تزيد كلفة بنائها عن هذا المبلغ . ولما سئل عن مصدر هذا المال الضخم قال انه حصيلة الرشاوي التي كان يقدمها له ارباب المصالح .

وهناك قصة اطرف مما قدمنا عن مدى انتشار الرشاوي، هي ان امراة ارشت ذات مرة احد القضاة بجرة . فلما لم يصدر حكمه بصالح دعواها بل بصالح خصمها الذي تبين انه أهداه حمارا ، تذمرت الامراة وصارت تطعن بنزاهة القاضي . فلما سمع هذا بالامر استدعاها وقال لها : « يا امراة ، ما بالك تمعنين بالتشهير بي . فقد مر حمار من هنا وكسر جرتك » .



نقل غيرمامي نواي بعد خلافاته مع الاقطاعيين على نحو ما ذكرنا الى حاكمية صحراوية منعزلة على حدود الصومال ، هي جيغجيغا ـ وهذا النقل حسب أبسط المفاهيم هو بمثابة عقوبة لغيرمامي . ومن هذه البقعة الصحراوية الجرداء انطلقت اول شرارة من ذهنه معلنة عزمه على انتهاج سلوك ثوري ازاء تمادي الامبراطور في عدم فسح المجال امام المخلصين للسير بالبلاد قدما نحو رفع مستواها وانتشالها من تخلفها المزري .

وفي هذه المرحلة وجد من اخيه الجنرال منغيستو نواي Mengistu Neway قائد الحرس الامبراطوري خير معين له بعد أن آنس منه استجابة لافكاره وميوله . فتزعم الاخوان هذه الانتفاضة وما لبثا في قمة الحركة حتى تم الانقلاب ـ قاده غير مامي بسلاح العلم والادارة الحكيمة، وقاده منغيستو بسلاح الحرب . ولم يكن الذين قاموا بالحركة الانقلابية او ناصروها كلهم من الشبان ، بل كان بينهم من الكهول المجربين ومن ذوي الماضي المجيد .

فقد كان يعطف على هذه الحركة رجل من أبرز المحافظين وأحد أبناء عمومة الامبراطور ـ ذلك هو الراس (الامير) ايمرو Imru أحد كبار القادة والدبلوماسيين السابقين . الا انه كان يعارض في سياسة هايلا سلاسي الاستبدادية ونظام التصرف بالاقطاعيات الزراعية الكبيرة . وعرف عنه انه منذ سنين بعيدة تخلى عن كل ممتلكاته من الاراضي الزراعية ووهبها للفلاحين . ولم يبق عنده غير قطعة ارض شيد عليها مسكنه في أديس أبابا . وان اصدقاء الراس ايمرو كانوا من قبيل المزاح والملاطفة يلقبونه بـ (الرأس الاحمر) كناية عن انه ليس من الطبقة البورجوازية . وكان عامة الناس يرددون القول في مجالسهم انه لو عين الراس ايمرو رئيسا للوزراء لحل مشكلة الاراضي . وشاعت قصته بين الناس وعرفت « بأسطورة ايمرو . » وممن انضموا الى الحركة أيضا ـ واصبح من أبرز أركانها ـ الكولونيل ووركنه Worknek رئيس المخابرات.

وبمرور الايام اختمرت فكرة الانقلاب في الرؤوس حتى دنا شهر كانون الاول (ديسمبر) . وكان كل شيء هادئا . وقد اختير هذا الشهر موعدا لتنفيذ خطة الانقلاب نظرا لسفر الامبراطور بزيارات رسمية الى لايبيريا في غرب افريقيا والبرازيل . ومر الاسبوع الاول منه والاستعدادات داخل القصر والبلاط للسفر تجري على قدم وساق ، فيما تجري استعدادات اخرى من شكل ثان على قدم وساق أيضا ولكن ليس داخل البلاط والقصر .

كان رأي غيرمامي وبعض زملائه ان تطلق المدافع الرشاشة نيرانها على الوزراء عند توديعهم الامبراطور في المطار . الا ان أخاه قائد الحرس



عارض في ذلك على أساس فظاعة العمل ووحشيته واحتمال اصابة كثير من الناس الابرياء ، والاساءة الى سمعة القائمين بالانقلاب في الداخل وسمعة البلاد في الخارج . فقرر المجلس الثوري في آخر لحظة تأجيل تنفيذ الانقلاب الى ما بعد عودة الامبراطور من زياراته الرسمية . وقبل اقلاع الطائرة استدعى الامبراطور الجنرال منفيستو ـ قائد حرسه ـ والكولونيل ووركنه وسلم كلا منهما بعض النقود وقال لهما : « انني اترك البلاد أمانة بأيديكما » .

مر الاسبوع الثاني من الشهر وما زال كل شيء هادئا على ما كان يبدو . ولكن انباء تسربت عن احتمال وقوع انقلاب عسكري . فاستدعى وزير الدفاع كلا من منفيستو و ووركنه لاستطلاع جلية الامر ، الا انهما انكرا وجود حركة من هذا القبيل وطمأناه عن استقرار الوضع في كل مكان . وبلغت هذه الانباء مسامع الامبراطور وهو في مونروفيا عاصمة لايبيريا . وبعد استشارة حاشيته قرر مواصلة السفر الى البرازيل نظرا لوصول تأكيدات من المسئوولين في أديس أبابابعدم وجود ما يخشى منه . فازاء هذا الموقف ، بعد ان تسربت الانباء ، وخشية وقوع ما ليس بالحسبان ، فقد قرر المجلس الثوري أن لا مناص من تنفيذ الانقلاب فورا قبل افتضاح القضية وافلات الفرصة .

ساعة الصفر

وفي حوالي الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم الثلاثاء المصادف ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٠ انطلقت سيارة من مقر قيادة الحرس الامبراطوري لتجمع بعض الضباط المشتركين بحركة الانقلاب . وفي هذه الساعة وصل غيرمامي الى المقر بحجة حضوره حفلة عشاء أقيمت على شرفه لتولي منصبه الجديد في جيفجيفا . ومن هنا توجه الضباط وعلى راسهم الجنرال منفيستو الى قصر الامبراطور (قصر جنة الامراء) حيث قاموا بحملة اعتقالات شملت ولي العهد الامير اصفا وصن وبعض الوزراء وكبار شخصيات البلاط . كما اعتقلوا عددا آخر من الشخصيات خلال تلك الليلة وصباح اليوم التالي ـ الاربعاء . وفي الوقت ذاته ارسلت مفارز خاصة لاحتلال البنك المركزي ومحطة الاذاعة ووزارة المالية ومحطتي المواصلات اللاسلكية في العاصمة .

وشكل القائمون بالانقلاب شبه حكومة مؤقتة تعاون معهم فيهما الراس ايمرو . ووضعوا على رأسهم ولي العهد اصفا وصن الذي جعلوه يلقي بيانا على الشعب شرح فيه أسباب الانقلاب واهدافه (٢) .

---

٢ ـ الاسلام والحبشة عبر التاريخ ـ بقلم المهندس فتحي غيث ـ صحيفة ٣٠٩ .



لقد تمكنت قوات الحرس الامبراطوري ــ وهي الوحيدة التي قام الانقلاب على اكتافها ــ من السيطرة على العاصمة بصورة تامة دون اطلاق عيار ناري واحد أو سفك قطرة دم . الا ان خطأ وقع وهو تأخير قليل في السيطرة على بدالة التلفونات . ولذلك تمكنت بعض الجهات من اجراء اتصالات تلفونية بحرية تامة ، واكثرها كان بين زوجات المعتقلين وأقربائهن في مناصب الدولة الحساسة وفي الجيش نفسه . فشاع الخبر بين الناس منذ أول ليلة ، الامر الذي أقلق بال رجال الانقلاب وصاروا يخشون قيام حركة مضادة من جانب الموالين للامبراطور .

عندئذ سارع رجال الانقلاب باذاعة أول بيان لهم عن الحركة وأهدافها وذلك صبيحة يوم الاربعاء ــ ١٤ كانون الاول (ديسمبر) . ومما جاء في هذا البيان ما يلي :

« ان هذا البلد الذي رزح تحت العبودية والذل والجمود ٣٠٠٠ سنة قد آن له أن يلحق بالركب العالمي المتجدد ليعيش بحرية وسلام ويتخلص من طوق الاقطاعية الذي حرمه من خيرات أرضه ومواردها ولقمة العيش الكريمة . وان الحركة الانقلابية هذه قد تمت بقيادة ولي العهد الامير اصفا وصن الذي تسلم السلطة (وكان وقت اذاعة البيان معتقلا مع الآخرين) . وعين الراس ايمرو رئيسا للوزراء في الحكومة الجديدة التي تمثل الشعب » .

لقد استهدف الضباط من اشراك الراس ايمرو بهذه الحركة الخطيرة كرئيس للوزراء على ما يبدو للاستفادة من شعبيته الواسعة في كسب ثقة الاهالي والعناصر المناهضة للحكم السابق .

طلاب جامعة هايلا سلاسي الاول

ولاول مرة في تاريخ الجامعة اجترأ الطلاب والطالبات فانطلقوا من بوابة الجامعة بمسيرة طلابية وتذوقوا طعم الحرية الاكاديمية ، متجهين نحو قلب المدينة . كان ذلك صباح يوم الخميس الموافق ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ــ اليوم الثالث للانقلاب . وقد حملوا اللافتات التي أعلنوا فيها تأييدهم المطلق للانقلاب . وجاء في بعض اللافتات ما يلي :

في احدى اللافتات : « ان اثيوبيا التي وراءها ٣٠٠٠ عام من التاريخ الحضاري ما زالت تزحف وتمشي الهوينا بينما سبقتها دول افريقية حديثة العهد بالنظم الحكومية والاستقلال الاداري » .

وقالت لافتة ثانية : « كفى أن تبقى كل السلطة بيد شخص واحد » .

وفي لافتة ثالثة : « المساواة بين الناس والاخوة والحرية » .



حركة مضادة

استطاعت العناصر الموالية للامبراطور في الفتـرة القصيرة التي سبقت سيطرة قوات الانقلاب على الجهاز المركزي للتلفون ايصال الخبر للقوات العسكرية الاخرى ورئاسة الاركـــان ومقر السلاح الجوي فـــي القوات العسكرية الاخرى ورئاسة الاركان ومقر السلاح الجوي فـــي بشوفتو (ديبرا زيت) . فاجتمع كبار الضباط والقادة وبعض الوزراء الذين تمكنوا من الافلات من قبضة رجال الانقلاب وكذلك ابونا باسيليوس بطريارك الكنيسة الحبشية في مقر الفرقة الاولى . واسفرت مداولاتهم عن ضرورة اتخاذ الاجراءات الفورية لاحباط الحركة في مهدها . فاصدر رئيس الاركان العامة الجنرال مريد مانغاشا في الساعة العاشرة مـــن صباح يوم الاربعاء ــ اليوم الثاني للانقلاب ــ أوامره بالاستعداد للمعركة.

وفي الوقت ذاته أصدر البطريارك بيـــانا الى الشعب دعا فيه الجماهير للوقوف وراء ملك الملوك والبقاء على ولائها المعهود لملوكها منذ ٣٠٠٠ سنة وان لا تنصاع لحفنة من الضباط المارقين الـذين يحاولون الخروج على تقاليد البلاد . وكان لهذا البيان تأثير بعيد المدى فيﻧﻔوس السواد الاعظم من الشعب المعروف بحبه وطاعتـه للكنيسة . ثم أعقب البطريارك ذلك ببيان آخر أعلن فيه تبرؤ الكنيسة منالضباط والاشخاص الآخرين المسؤولين عن الانقلاب وحرمانهم من بركتها الى الابـد ، وذكر اسماءهم فردا فردا ، وغالبيتهم تقريبا من الحرس الامبراطوري الخاص.

وبعد هذين البيانين والاجراءات العسكرية المضادة تغير مجـرى الاحداث ، وحكم على الانقلاب بالفشل . ففي حلول ظهيرة يوم الاربعاء بات واضحا للعيان ان هذا الانقلاب لن يكتب له النجاح لانه جاء بشكل شبه مرتجل ولم يستكمل الدراسات والترتيبات المقتضية الاساسيـة لضمان تحقيقه . فمن غير شك ان حركة الانقلاب ارتكبت خطأين فظيعين هما اللذان حكما على مصيرها بالفشل . أولهما التأخر بدون مبرر فـي السيطرة على الجهاز المركزي للتلفون ، والثـــاني ضعف الاستعدادات اللازمة لتنفيذ أمر خطير كهذا وعدم الاخذ بنظر الاعتبـــار الحركـــة المضـــادة .

وليس المقصود بالحركة المضادة اعتبار الناحية العسكرية فقط ، وانما الناحية النفسية والروحية أيضا . فدراسة نفسية الشعب ومبلغ تعلقه بالكنيسة كان من الامور الحيوية التي كان على رجال الانقـلاب ادخالها في حسابات النجاح والفشل . ففي بيانين اثنين أصدرهمـــا البطريارك ، وأعلن في أحدهما تبرؤ الكنيسة ممن قامـــوا بالحركة ، استطاع أن يقلب ميزان القوى العسكرية والشعبية رأسا على عقب . ان مجرد اخراج شخص ما من الكنيسة ، وهذا معناه طبعا حرمانه من دخول الجنة تلقائيا ، يكفي لردع الالوف من الناس وخاصة سواد الشعب



عن معارضة أوامر الكنيسة وعن الوقوف بوجه رغباتها . فان عدم ادخال عنصر « الكنيسة الحبشية » في الحساب كان من اضعف الحلقات في سلسلة اجراءات الانقلاب .

وثمة نقطة ضعف اخرى كان لها علاقة قوية بالتمهيد لنجاح الانقلاب . فقد كان يتحتم استنفار اكبر عدد من الوحدات العسكرية والعناصر والقوى الاخرى خارج العاصمة وبقية الاقاليم التي تؤيد وتؤازر مثل هذه الحركة . فالمعروف ان ولاء بعض الاقاليم للامبراطور ـ سواء كانت ذات أغلبية مسلمة أم مسيحية ـ انما هو صوري فقط وقائم على الاكراه والخوف . فكان انقياد مثل هذه الاقاليم للحركة الجديدة ليس أمرا سهلا فحسب بل لكانت اشتركت هي الاخرى بكل قواها لضمان نجاح الانقلاب ، خاصة وانها تمقت سيطرة اقليم شوا وزعامته المفروضة بالقوة وأساليب الغدر عليها . ففي أقاليم تيغره وغوجام ـ وغالبيتها العظمى مسيحية ـ وكافا وهرار واريتريا نار متاججة تحت الرماد الظاهر ، ولا تكن أي احترام أو ولاء لنظام حكم هايلا سلاسي . ولطالما أعلنت هذه الاقاليم تمردها على الحكومة المركزية. فلو كانت قد اشتركت الى جانب قوة الانقلاب لما كتب للحركة المضادة النجاح ، بل وبالعكس لكانت اندلعت ثورة عامة شاملة في معظم أنحاء الامبراطورية .

وبينما كان غيرمامي و ووركنه (رئيس المخابرات) وآخرون عاكفين يوم الاربعاء ـ اليوم الثاني للانقلاب ـ على تنظيم الحكومةالجديدة كان الجنرال منغيستو وولي العهد والراس ايمرو يفاوضون قادة الحركة المضادة لتحاشي وقوع صدام قد يؤدي الى خسائر في الارواح . وحاول الراس ايمرو ـ وهو الشخصية المرموقة وصاحب الشعبية المعروف ـ مقابلة ابونا (البطريارك) الا ان الاخير رفض مقابلته معلنا انه ـ أي الراس ايمرو ـ كان قد فصل من الكنيسة الحبشية .

معركة اديس ابابا

لم تثمر جهود الطرفين المتخاصمين ـ زعماء الانقلاب واقطاب الحركة المضادة ـ في التوصل الى حل وسط فوقعت المعركة ـ وساحتها العاصمة اديس ابابا . وكان الوقت الساعة الثانية والدقيقة الاربعين من بعد ظهر يوم الخميس المصادف ١٥ كانون الاول (ديسمبر) حيثاشتبك الحرس الامبراطوري بمعركة ضارية مع قوات الحركة المضادة المثلة بوحدات الفرقة الاولى والمصفحات وبعض قوات الشرطة . اما المصفحات فجاءت من بلدة نازاريت Nazareth القريبة .

لقد سقط نتيجة المعركة عدد كبير من جنود القوات المسلحة والشرطة الى جانب مئات من الاهالي الابرياء . اما المراقبون الاجانبفقد ايدوا ان عدد الضحايا اكثر بكثير من الارقام الرسمية التي نشرتها



الحكومة فيما بعد . خاصة وان السلاح الجوي الذي اشترك في المعركة اوقع خسائر بالغة ليس بالارواح فحسب ـ مدنيين وعسكريين ـ وانما في الابنية والمساكن كذلك .

أما الارقام الرسمية التي نشرتها الحكومة فهي كما يلي :

	قتلى	جرحى	المجموع
١ ـ قوات الحرس الامبراطوري والشرطة	١٧٤	٣٠٠	٤٧٤
٢ ـ الحركة المضادة (قوات مسلحة وشرطة)	٢٩	٤٣	٧٢
٣ ـ الاهالي	١٢١	٤٤٢	٥٦٣
المجموع الكلي	٣٢٤	٧٨٥	١١٠٩

عودة هايلاسلاسي من البرازيل

كان هايلا سلاسي في البرازيل في زيارته الرسمية لها عندما ثبت وقوع الانقلاب في اثيوبيا عن طريق الانباء التي وصلت من سفارة اثيوبيا بلندن ، وكذلك عن طريق وزارة خارجية البرازيل . فاعتذر الامبراطور لمضيفيه لاضطراره لقطع الزيارة والعودة لبلاده . وقبل مغادرته عاصمة البرازيل استقبل السفراء والرجال الاجانب الذين جاءوا للسلام عليه وقفل راجعا الى افريقيا عن طريق مونروفيا عاصمة لايبيريا ، ثم الى فورت لامي عاصمة تشاد التي وصلها يوم الخميس ـ اليوم الثالث للانقلاب . ومن هذه المدينة اتصل بصهره في اسمره ـ وهو الحاكم العام في اقليم اريتريا ـ تلفونيا وعلم منه ان الانقلاب قد قضي عليه . وخشية ان يكون المتكلم غير صهره طلب منه تعريف نفسه بكلمة السر التي بينهما . وعندئذ اطمأن باله وزال قلقه .

غير انه قبل وصوله الى فورت لامي حصل عطب في طائرته الخاصة من نوع DC — 6 . واكتشفوا عند هبوطهم ان احد محركاتها الذي تعطل عن العمل لا يمكن اصلاحه هناك . فوقع ملاحو الطائرة في حيص بيص ولم يعلموا الامبراطور ان قد اصبحت ثلاثة محركات فقط من محركاتها الاربعة صالحة للعمل ولم يجازفوا بمواصلة السفر على وضع الطائرة الحالي ولو انها تستطيع السفر بثلاثة محركات . ولما سئم الامبراطور الانتظار اضطر قائد الطائرة مكاشفته بالامر . فصاح به قائلا :

« هل تخافون على حياتكم أم حياتي ؟ ما بالكم حيارى ، هيا بنا الى اسمره » . فأقلعت الطائرة بثلاثة محركات متجهة الى اسمرة عن طريق الخرطوم التي توقف بها قليلا لمقابلة الرئيس السوداني ابراهيم عبود .

وواصل سفره بعد ذلك الى اسمره التي بلغها يوم الجمعة المصادف ١٦ كانون الاول (ديسمبر) وحل ضيفا على صهره حتى اليوم الثاني .



وفي اسمره استقبل استقبال القائد المظفر من قبل مؤيديه واتباعه .

مرت الاحداث بسرعة فوصل الامبراطور الى بلاده عائدا من اقصى الدنيا قبل ان تبلغ انباء الانقلاب الكثير من جهاتها . فبعد استراحة ليلة كاملة في اسمرة أجرى خلالها اتصالات تلفونية مع العاصمة توجه اليها في اليوم التالي ـ يوم السبت المصادف ١٧ كانون الاول (ديسمبر) . وكان في استقباله في مطار اديس ابابا ولي العهد الامير اصفا وصن وابونا باسيليوس بطريارك الحبشة وغيرهم من الشخصيات . الا ان الامير (الراس) ايمرو لم يحضر الاستقبال .

وعلى اثر وصوله عاصمة ملكه أعلن انه سيحقق في الامر ويدرس الاسباب التي جاءت بالانقلاب . الا ان الايام والسنين المقبلة اثبتت انه استقصى اخبار الذين قاموا بالانقلاب ولم يشمل استقصاؤه الاسباب الخفية وراء الانقلاب .

محاكمات وانتحارات

عندما انجلى الموقف بين الطرفين المتحاربين في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس المصادف ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ـ وهذا يعني ان المعركة دامت أقل من ساعة ونصف الساعة ـ برجحان كفة القوات المسلحة في الحركة المضادة للانقلاب ، تفرق ضباط وجنود الحرس الى شراذم هربت الى القرى المجاورة للعاصمة وتوغلت في مسالك الجبال القريبة . وقد آثر بعضهم الانتحار على الوقوع أسيرا في ايدي خصومه . فالكولونيل ووركنه رئيس المخابرات مثلا فر بنفسه باتجاه جبال انتوتو Entoto القريبة من العاصمة . فتعقبته مفرزة من الشرطة بغية القبض عليه . فاصطدم معهم وقتل خمسة منهم قبل ان يستسلم للامر الواقع بناء على نفاد ذخيرة سلاحه . ولما أيقن ان لا مجال للافلات من هذه القوة التي حاصرته صاح فيهم : « هكذا علمني تيودوروس » ـ ويقصد الامبراطور ثيودور (٣) ، فصوب مسدسه الى فمه وضغط على الزناد فخر صريعا مضرجا بدمه وفارق الحياة . اما جثته فقد نقلت الى الامبراطور ليراها ، فأمر بتعليقها على مشنقة نصبت لها امام كتدرائية القديس جورج يوم ١٨ كانون الاول .

اما غيرمامي واخوه الجنرال منغيستو فانهما فرا مع جماعة آخرين باتجاه الجبال هائمين على وجوههم عدة ايام حتى يوم السبت من الاسبوع التالي ـ أي يوم ٢٤ من نفس الشهر ، حيث انتحر احد زملائهم خلال

---

٣ ـ يشير بهذه العبارة الى الطريقة التي انتحر بها الامبراطور ثيودور عندما أوشك ان يصبح في قبضة الجنرال نابيير .



المسيرة التائهة . ولما شاهد غيرمامي ذلك ، وكان اليأس والاضطراب النفسي قد استوليا على مشاعره ، قرر ان يقتل نفسه واخاه . فصوب بندقيته نحو اخيه ورماه . ثم صوبها على نفسه فمات في الحال . وكانت آخر كلمة فاه بها : « سواء أنجح الانقلاب أم لم ينجح فقد أرّخ البداية لمرحلة قادمة من التغيير والتطور » . غير ان الطلقة التي وقعت في اخيه منغيستو لم تصب منه مقتلا ، وان كانت قد أحدثت جرحا بليغا في وجهه افقده البصر في احدى عينيه . فقبض عليه وادخل المستشفى حيث شفي قبل تقديمه الى المحاكمة .

وامر الامبراطور بشنق جثة غيرمامي الهامدة كما فعل بجثة زميله ووركنه رئيس المخابرات . وذكرنا في مناسبة اخرى في فصول هذا الكتاب كيف ان أحد المتفرجين على الجثة وهي معلقة خاطبها بقوله : « لا بأس يا غيرمامي . فسيأتي يوم ننصب لك تمثالا من ذهب » .

وبعد ان تماثل الجنرال منغيستو الى الشفاء احيل الى المحاكمة امام مجلس عسكري هو واثنان من زملائه . فحكم عليه بالاعدام شنقا وعلى زميليه بالسجن ــ ١٠ سنوات لاحدهم و ١٥ سنة للثاني . ولكن ابرز ما في محاكمة منغيستو كان شخوصه امام المحكمة التي ظلت تردده الناس كقصة من الاساطير البطولية . وذلك لما أبداه من الاتزان ورباطة الجأش وقوة الشخصية والاعتداد بالنفس . ومما قاله في دفاعه عن نفسه ، منتقدا سياسة الحكومة في التفرقة بين ابناء الشعب الاثيوبي ما يلي : ــ

« ان تدريس التاريخ في مدارسنا اليوم ما هو الا عبارة عن سرد طويل ممل لقصص بطولات أسطورية لاباطرة الحبشة وملوكها الامهاريين وتمجيد أصولهم وأنسابهم . بينما بلادنا الحالية تتألف من اقاليم وأجناس بشرية متعددة، لكل منها تاريخها الخاص وأمجادها ودياناتها . الا انالتاريخ كما يدرس في مدارسنا يتعمد انكارها كليا ، كأقاليم مهمة مثل هرار وكافا واريتريا وغيرها . فالسياسة التعليمية عندنا تتطلب اعادة النظر لوضع الحقائق التاريخية عن كل شعوب الامبراطورية في نصابها . فاقليم كافا مثلا كان يتألف من ممالك صغيرة اسلامية تفخر بدورها بسلالاتها العريقة النسب وبملوكها وتراثها الخاص . فلا يذكرها تاريخنا ولا يتطرق اليها حتى ولا باشارة عابرة . فسياستنا التعليمية الحالية تفترض بداية تاريخ هذا الاقليم ــ اقليم كافا ــ منذ فتحه الامبراطور منليك الثاني واخضعه لحكمه بحد السيف في أواخر القرن التاسع عشر . فاذا كنا نحرص



حقا على وحدة البلاد وصونها من التصدع فيجب الا ننكر على الاقاليم الاخرى وشعوبها المختلفة تراثها ومساهمتها في تكوين ما نسميه اليوم ـ اثيوبيا » .

وعندما كان منغيستو مكبلا في سجنه بالحديد عرض عليه بعض المقربين منه خطة لاختطافه من السجن ، غير انه ابى ذلك . وآخر كلمات فاه بها قبيل اعدامه كانت : « انني سأنبىء الآخرين بأن البذرة التي زرعناها قد انبتت جذورها في الارض » .

ونفذ حكم الاعدام فيه يوم ٢٨ آذار (مارس) سنة ١٩٦١ . واسدل بذلك الستار على آخر مشهد من مشاهد بطولات انقلاب ١٩٦٠ الفاشل .



الفصل الثاني والعشرون

التعليم

تطور التعليم في افريقيا

عندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها لم يكن للتعليم في افريقيا اثر ملموس الا في اقطار معدودة . ففيما عدا مصر والسودان ويوغندا وكينيا وغانا ونايجيريا لم يكن هناك تعليم نظامي عام على مستوى معترف به . فغالبية البلاد التي اشرقت عليها شمس الاستقلال في اواسط الخمسينات وبداية الستينات كانت تعيش في ليل دامس من الجهالة والتأخر . وقلة من المدارس انتشرت هنا وهناك اسستها الارساليات التبشيرية . الا ان هذه لم يكن هدفها الرئيسي نشر التعليم وانما خدمة اهدافها الدينية الى جانب بعض الخدمات العامة مثل العناية الصحية والتعليم .

وان أهم حدث وقع في افريقيا في ميدان التربية والتعليم في سني ما بعد الحرب العالمية الثانية ، بنظري ، هو المؤتمر المنعقد في اديس ابابا خلال الفترة ١٥ ــ ٢٥ ايار (مايو) ١٩٦١ الذي دعت اليه واشرفت على أعماله المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة التابعة للامم المتحدة المعروفة اختصارا بـ « اليونسكو UNESCO » . وكان هدف المؤتمر الرئيسي مساعدة الدول الافريقية حديثة العهد بالاستقلال أو كانت على عتبته في التعرف على احتياجاتها الاساسية الملحة في ميادين التعليم العام والتعليم الفني والمهني والعالي ، وتثبيت أولوياتها وفق تخطيط سليم يهدف لرفع مستوى الشعب اجتماعيا واقتصاديا .

لقد ضم هذا المؤتمر ، عدا رؤساء الدول ، نخبة ممتازة من المربين والعلماء والخبراء وقادة الفكر والاداريين المعنيين بشؤون التربية والتعليم ليس في افريقيا فحسب بل في عدد من البلاد المتقدمة . وجاءت قرارات



المؤتمر على غاية في الاهمية (١) . فمهدت هذه القرارات السبيل امام البلاد التي ليس لها خبرات سابقة في هذا المضمار ان تسير على هدي وبصيرة متفادية الكثير من العثرات في التخطيط لاجهزتها التعليمية . فجاء التقرير الشامل الذي أصدره المؤتمر بمثابة نبراس للسياسة التعليمية لكل القارة (٢) .

اما الدراسات والارقام عن حالة التعليم في افريقيا، التي وضعتها اليونسكو على بساط البحث امام المشاركين في المؤتمر فكانت مذهلة ومريرة كشفت النقاب عن مدى التأخر وعمق الهوة التي تتخبط فيها بعض الاقطار . فعلى سبيل المثال ظهر أن ١٦ بالمائة فقط من الاولاد والبنات الذين هم في سن الدراسة الابتدائية والثانوية كانوا مسجلين في المدارس . وتختلف الحالة طبعا من قطر الى آخر . فبينما تصل هذه النسبة في بعض الاقطار الى ٦٠ بالمائة نجدها تهبط الى ٢ بالمائة فقط في غيرها . وفي أغلب الحالات تبين ان نسبة الاولاد والبنات غير المسجلين في اي نوع من أنواع الدراسة النظامية يزيد عن ٨٠ بالمائة من نسبة الاولاد والبنات الذين ينبغي ان يكونوا في المدارس .

ولكن على الرغم مما أصاب قادة الفكر في القارة السوداء من ذهول وخيبة أمل لدى اطلاعهم على الحقائق المؤلمة التي أظهرتها الدراسات التي قامت بها اليونسكو ، فانهم قابلوها بعزم وتصميم بالغين وراحوا يخططون بالتعاون معها للمستقبل عن تفهم عميق صادق وفق حاجات البلاد الملحة .

ومن أهم المقررات الانسانية التي توصل اليها المؤتمر ، السعي لتوفير التعليم الابتدائي على مقياس أوسع مما كان سنة ١٩٦١ . فقد ارتؤي أن تضع الحكومات الافريقية هذا الهدف نصب عينيها وتسعى باتخاذ ما يلزم من الخطوات التوسعية بحيث يصبح التعليم الابتدائي متيسرا لكافة السكان في مدى عشرين عاما اعتبارا من تاريخ انعقاد المؤتمر (اي سنة ١٩٦١) . اما بالنسبة الى اثيوبيا فأنا استبعد جدا امكان تحقيق هذا الهدف حتى ولا في غضون ثلاثين عاما . يوضح الجدول التالي حالة التعليم في اثيوبيا بالمقارنة مع عدد من الاقطار الافريقية الاخرى .

---

1 — Final Report — Conference of African states on the Development of Education — Addis Ababa, 15 — 25 May, 1961 (Unesco)

2 — Unesco — outline of a Plan for African Education Development, 1961.



جدول عن حالة التعليم العام في اثيوبيا (٣)
بالمقارنة مع اقطار افريقية اخرى

	اثيوبيا ١٩٥٩	غانا ١٩٥٩	يوغندا ١٩٥٩	كينيا ١٩٥٨	طنجنيقا ١٩٥٨
عدد الطلاب في المدارس الابتدائية	١٥٨،٠٠٥	٤٨٣،٤٢٥	٥٠١،٦٦٩	٦٥١،٧٥٨	٤٢٢،٨٣٢
عدد الطلاب في المدارس الثانوية	٨،١٤٤	١٧٨،٥٨١	٤١،٦٣٣	٢٠،٢٩١	١٥،٣١٥
النسبة المئوية لكافة الطلاب بالنسبة للسكان من عمر ٥ — ١٩ سنة	٢،٨	٤٨،٣	٢٧،٦	٣٧،٩	١٧،٦
النسبة المئوية لطلاب الابتدائيات بالنسبة للسكان من عمر ٥ — ١٤ سنة	٣،٨	٦٦،٧	٥٢،٢	٥٢،١	٢٤،١
النسبة المئوية لطلاب الثانويات بالنسبة للسكان من عمر ١٥ — ١٩ سنة	٠،٥	٢٩،٤	٤،٤	٣،٩	٢،١
عدد المعلمين	٥،٥٠٠	١٥،٥٤٦	١٩،٤٤٠	١٥،٢٢٩	٩،٧١١
مصروفات التعليم على اساس الفرد الواحد من السكان (بالدولار الامريكي) سنوياً	٠،٥٢	٤،٢٠	٢،٨٠	٢،٨٠	١،٨٧
نسبة الاميين بين الراشدين	٩٥ — ٩٩	٧٧ — ٨١	٧٠ — ٧٥	٨٠ — ٨٥	٩٠ — ٩٥
النسبة المئوية للصرف على الامور الادارية من ميزانية التعليم	٣٧	١٤،٤	٤،٤	٤،١	٦،٩

٣. احصائيات اليونسكو لسنة ١٩٦١ .





خبراء من الأمم المتحدة في جولة في مدرسة اميو الزراعية وقد بدا
مدير المدرسة في الوسط الخلفي

لمحة تاريخية عن التعليم في اثيوبيا

مدارس الكنيسة

لم يكن في اثيوبيا قبل مطلع القرن الحالي تعليم نظامي بالمعنى المعروف ، تضطلع الدولة بمسؤولياته . فكانت الكنيسة المنهل الوحيد للتعليم في البلاد . وكانت تضطلع بأعباء نمطين من التعليم ، الاول ديني بحت والثاني عام . اما التعليم الديني فكان يعطى في مدارس خاصة في بعض الكنائس والاديرة وهدفه اعداد الناشئة للخدمة في المسلك الديني . وكان الصبية يقصدونها بسن مبكرة . اما التدريس في هذه المدارس فهو بلغة الجعيز التي انحصر نطاق تعلمها الان في المدارس الدينية فقط . واما التعليم العام فلم يكن نظاميا حسب المفهوم الحالي وانما كان يوفر للطالب تعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب واصول الدين . ولغة التدريس في التعليم العام هي الامهارية .

أما أبناء النبلاء والطبقة الارستقراطية فلم يلتحقوا بمدارس الكنيسة مع سائر أبناء الشعب بل جرت العادة ان يتفق جماعة منهم فيكلفون أحد القساوسة للمجيء الى بيت أحد أبناء الموسرين فيعلمهم القراءة والكتابة والدين والحساب مقابل أجر يدفعونه له . ولم يكن هؤلاء القساوسة مدرسين مؤهلين للقيام بهذه المهمة وكانوا أقرب الى الاميين منهم الى المتعلمين . وكان لدى الكنيسة الحبشية عشرات الآلاف من هذه الطبقة من القساوسة لان عدد المدارس الخاصة بها في أوائل الستينات كان يقدر بعشرة آلاف مدرسة (٤) .

أما المسلمون فكانوا يدرسون أبناءهم مبادىء العلوم الدينية وقراءة القرآن في كتاتيب خاصة او في الجوامع والمساجد .

المدرسة الاولى

ظلت حالة التعليم على ما هي عليه من الجمود والتخلف حتى اعتلى الامبراطور منليك الثاني العرش . ففتح عهدا جديدا للتعليم ونشر المعرفة عن طريق السماح للارساليات التبشيرية بالعودة الى البلاد وقيامها بافتتاح المدارس الخاصة بها . وكانت هذه الخطوة ايذانا بالخروج من العزلة التقليدية والانفتاح نحو الغرب والمدنية العصرية . ولم تكتف بعض الارساليات بفتح المدارس فقط فأسست الى جانبها المستوصفات والمستشفيات . ان هذه المدارس وان كانت تخدم الاهداف الاساسية للارساليات الا انه لا ينكر انها أسهمت الى حد بعيد في نشر نور العلم والمعرفة في مجاهل اثيوبيا . فان مستوى مدرسيها أرفع من مستوى

---

4 — Ethiopia, by Press Departmont — Addis Ababa, 1958
page 20 .



القساوسة الاثيوبيين . اما المستشفيات فجاءت رحمة للسكان الذين كانت الاوبئة والامراض المتوطنة تفتك بهم فتكا ذريعا وتاخذ نصيبها منهم بعشرات الالوف سنويا .

ان اكبر الارساليات التي دخلت اثيوبيا جاءت من السويد والنرويج والولايات المتحدة الاميركية وانكلترة وايطاليا . الا ان اقدمها في البلاد هي الارسالية التي جاءت من روسيا القيصرية واسست مستشفى سنة ١٨٩٦ . والجدير بالذكر ان هذا المستشفى ما زال فعالا على الرغم من تبدل الاوضاع السياسية في روسيا ، ولو ان نشاطه لا يقارن بنشاط المستشفى الايطالي مثلا ـ Ras Desta Hospital ـ او المستشفى السويدي .

ولكن الكنيسة الحبشية لم تقابل هذا الاجراء من جانب منليك الثاني بالارتياح . فهي لم يرق لها عودة المبشرين الاجانب الى سالف نشاطهم ودسائسهم ضد المذهب اليعقوبي الارثوذكسي . فاشترطت على الامبراطور ان يحصر نشاط هذه الارساليات في العاصمة وهرار والجنوب . ان اسباب تعيين وتخصيص هذه الاماكن دون سواها لقيام الارساليات بنشاطها واضح وليس فيه أي لغز . ففي العاصمة سيكون اي نشاط اجنبي تحت مراقبة الكنيسة ولن تتمكن اية ارسالية من المساس بالمذهب الارثوذكسي في قلب العاصمة . اما هرار فهي منطقة اسلامية بصورة ساحقة ولعل الكنيسة الحبشية تتمنى المزيد من نشاطات التبشير للمسيحية هناك . واما الجنوب فجل سكانه من الوثنيين والمسلمين ، وسياسة الكنيسة نحو هذه المنطقة هي عين سياستها نحو هرار . وتابع منليك اهتمامه بنشر التعليم فأسس أول مدرسة حكومية سنة ١٩٠٨ . ولم تسلم هذه المدرسة من غضب الكنيسة ومعارضتها لها اذ اعتبرت ذلك تدخلا سافرا في مسؤولياتها في ميدان التعليم .

وذهبت الكنيسة الى أبعد من ذلك فصار رجالها يحرضون أولياء الطلبة على مقاطعة هذه المدرسة على اساس انها تنشر العلوم العصرية التي تتنافى ومبادىء الدين . ولكي يخفف منليك من حدة معارضة الكنيسة لجهوده ويقضي على شكوك رجال الدين ومخاوفهم من نشاط المدرسة الحكومية الوحيدة في البلاد استقدم للتدريس فيها معلمين من اقباط مصر ـ على دينهم ومذهبهم ـ فسكنت العاصفة . ولكنها لم تخمد بدليل ان الكنيسة ظلت تقف حجر عثرة في سبيل اية محاولة لافتتاح مدرسة اخرى طوال عشرين عاما . ولم تفتتح المدرسة الثانية من قبل الحكومة الا في سنة ١٩٢٨ على عهد وصاية الراس تفاري (الامبراطور هايلا سلاسي بعدئذ) . ثم أعقب ذلك تأسيس مدرسة ثانوية سنة ١٩٣٠ وأخرى للبنات سنة ١٩٣١ وعدد من المدارس



الابتدائية . وبحلول سنة ١٩٣٥ كان مجموع عدد الطلاب في المدارس الحكومية ٦٠٠ ــ ٧٠٠ طالب . ولا ينكر ان ما قام به منليك الثاني يعتبر بمثابة وضع الحجر الاساسي للنهضة التعليمية الحديثة في اثيوبيا .

ثم جاءت كارثة الاحتلال الايطالي للبلاد ١٩٣٥ ــ ١٩٤١ فنسفت صرح التعليم من أساسه وقوضت دعائمه وقضت على النهضة التعليمية الحديثة في مهدها . فقد اغلقت كافة المدارس ولقي الكثير من الطلاب والمدرسين والشباب المتعلمين في الخارج حتفهم اما في جبهات القتال او في صفوف الحركات السرية . وتقول المصادر الاثيوبية ان المحتلين قلبوا كافة المدارس الى ثكنات للجيش الايطالي . ولم تنتظم الدراسة من جديد الا بعد اندحار الايطاليين وتحرير البلاد عام ١٩٤١ .

وبحلول عام ١٩٤٣ اعيد افتتاح كافة المدارس التي أغلقت مع اضافة مدارس جديدة بناء على الاقبال الشديد على التعليم . وفي غضون خمس عشرة سنة شاهدت البلاد تقدما ملموسا في الحركة التعليمية حيث بلغ عدد المدارس الابتدائية ٤٣١ مدرسة و ١١ مدرسة ثانوية ومهنية ، والى جانبها أسس عدد من المعاهد . ومع ذلك فقد بدت جهود الدولة وكأنها قطرة في بحر بناء على الضغط المتصاعد من جانب أفواج من الاولاد والشباب لفتح مدارس جديدة . ولكن المعضلة التي كانت تواجهها الحكومة هي افتقارها للمعلم المدرب . وتلافيا لذلك اضطرت لافتتاح دورات قصيرة الامد لتدريب بعض خريجي المدارس الابتدائية فاستخدمت نحو ٢٠٠٠ منهم في سلك التعليم على الرغم من ضحالة ثقافتهم العامة .

نظام التعليم ومراحله

لقد حددت فترة الدراسة في التعليم العام باثنتي عشرة سنة مقسمة الى ثلاث مراحل متساوية ، هي الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، مدة كل مرحلة منها أربع سنوات . ويشترط لعبور المرحلتين المتوسطة والثانوية نجاح الطالب في الامتحان الشامل في نهاية كل منهما . اما لغة التدريس فهي الامهارية في السنتين الاولى والثانية من المرحلة الابتدائية . ثم يباشر بتدريس الانكليزية كلغة اعتبارا من السنة الثالثة وذلك لتأهيل الطالب واعداده لتلقي تعليمه كله في المرحلتين المتوسطة والثانوية باللغة الانكليزية التي هي في الحقيقة لغة التعليم في البلاد ــ وهي اللغة الرسمية الثانية في الامبراطورية .

ان المرحلة المتوسطة هي بمثابة امتداد للمرحلة الابتدائية من حيث محتوى مناهجها ، وطبيعتها العمومية . غير ان المرحلة الثانوية تشهد تغييرا جذريا في مناهج الدراسة . ففي هذه المرحلة يختار الطالب بين الدراسة الاكاديمية الصرفة والتعليم المهني ، مثل الزراعة والتجارة



والصناعة الذي هو على نفس مستوى التعليم الاكاديمي .

اما المدارس المهنية فقد أنشئت كلها بمال المساعدات الاجنبية ما عدا مدرسة الزراعة في آميو فقد أسستها الحكومة في أوائل الاربعينات . وكان كل مدرسيها من الالمان على العهد النازي أو الضباط الالمان الذين وقعوا في الاسر في روسيا وخافوا العودة الى المانيا في تلك الظروف . وهناك مدرسة زراعية ثانية أسسها الامريكيون في بلدة جيما على حساب ميزانية النقطة الرابعة الامريكية سنة ١٩٥٢ . وأسس الامريكيون مدرسة للتجارة في بلدة هرار وكانت كل هيئتهـــا التعليمية ، ما عدا المـــدير والكتبة ، من الامريكيين من هيئة السلام (٥) . اما الاتحاد السوفياتي فأسس مدرسة صناعية في بلدة بحردار الجميـــلة الواقعة على الطرف الجنوبي من بحيرة تانا . وتستهدف الدراسة فيها تخريج فنيين مدربين في الميكانيك والكهرباء .

لقد زرت كافة هذه المدارس مرات عديدة في الفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٩ واعجبت بمستواها العام من الناحيتين التعليمية والتـدريب العملي . أما مختبراتها وباقي وسائلها التعليمية فكانت وافية لضمان حصـــول الطالب على قدر كاف من المهارة العملية . الا ان المدرسة الزراعية فـــي آمبو فكانت تفتقر لكل شيء ولم توفر لها ميزانيتها الحكومية المال اللازم لشراء التجهيزات الفنية والآلات والادوات الحقلية للتـــدريب العملي والكتب والمراجع الفنية مثل اختها في جيما التي كان الامريكيون يصرفون عليها بكل سخاء . وقد تعرضت خلال حياتها لعدة نكسات وأغلقت اكثر من مرة بسبب نقص المدرسين والمال اللازم . ولذلك لم تستطع تأديـة رسالتها على الوجه الاكمل .

من المعاهد المهمة التي أدت خدمات جلى للبلاد هو معهد الموظفين الصحيين الذي أسس في مدينة غوندار في أوائل الستينات على نفقـة منهاج المساعدات الفنية الامريكي وبمؤازرة منظمة الصحة العالمية التابعة للامم المتحدة . وفي حوالي نفس الوقت تقريبا اسس منهاج التنميـــة (الصندوق الخاص) التابع للامم المتحدة مدرسة للموظفين الصحيـــين البيطريين في بلدة بشوفتو (ديبره زيت سابقا) بجوار محطة التجارب الزراعية التابعة لكلية الزراعة .

---

٥ ـ وهم شبان وشابات جامعيون امريكيون تبرعوا للخدمة برواتب رمزية ـ American Peace Corps



جدول بعدد الطـــلاب المسجلين بالمدارس
في اثيوبيا بالمقارنة مع اقطار افريقية اخرى (٦)

القطر	السنة	النفوس بالملايين	ابتـدائي	ثـانوي	فـــني	دور المعلمين	جامعي
اثيوبيا	١٩٦٠	٢٠	١٧٦,٥٢٢	٥,٦٢٤	١,٩٦٣	٩٤٣	٩٤١
غـانا	١٩٥٩	٧	٤٨٣,٤٢٥	١٧٠,٠٦٦	٤,٥٦٣	٤,٣٣٤	١,٠٥١
نايجيريا	١٩٥٩	٣٦	٢,٧٧٥,٩٣٨	١١١,٨٦٨	٧,٤٩٨	٢٦,٦١٧	١,٩٧٨
السودان	١٩٦١	١١	٣٣٤,٣٠٠	٦٦,٤٠٥	٢,٨٢١	٩٨٠	٣,٠٣٩
مصر (٧)	١٩٦١	٢٦	٢,٨٢٩,٩٠٤	٤٤٨,٣٦٠	١٢٦,٤٢٦	٢٨,٧٨٨	٩٢,٧٣٣

6. E C A of the United Nations, African Statistics — Vol. I, No. 2, gune 1961.

٧ ـ بالنسبة لعدد الطلاب الجامعيين اعتمدت على كتاب الاحصاء الرسمي الصـــادر في القاهرة ـ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .



مشاكل التعليم

ان أهم مشاكل التعليم في أثيوبيا ثلاث : هي المال والمعلم المدرب واللغة . اما المال فكان وما زال عاملا مقيدا للتوسع في التعليم من ناحية ما يحتاج اليه التوسع من ابنية حديثة صحية وتوفير وسائل التدريس والاجهزة والكتب المدرسية وغير ذلك . فان الميزانية المخصصة للتعليم العام ضئيلة جدا حتى بالمعايير الافريقية ــ نصف دولار للفرد الواحد سنويا مقابل ٤٢٫٢٠ دولار ما تصرفه غانه للفرد الواحد في السنة الواحدة . غير ان الخمسينات والستينات من هذا القرن شاهدت تحسنا باديا في أزمة التعليم الخانقة . فقد هبت لمساعدة اثيوبيا دول صديقة عديدة بالاضافة الى مساعدات الامم المتحدة . اما الولايات المتحدة الامريكية فقد اضطلعت بأعباء منهاج ضخم جدا للمساعدات في هذا الميدان منذ سنة ١٩٥٢ . ناهيك عن عشرات المدارس الخاصة بالارساليات التبشيرية التي تعتمد في مصروفاتها على الهبات والتبرعات التي ترد اليها من الخارج .

اما المعلم الكفؤ المدرب فتفتقر اليه البلاد بشكل خطير . وما زالت الحال كذلك حتى يومنا هذا ، ولو ان الازمة خفت نوعا ما بعد قيام الحكومة بتأسيس دور المعلمين سنة ١٩٥٣ . ففي تلك السنة وضع الحجر الاساسي لمدرستين لتخريج المعلمين للمدارس الابتدائية ، واحدة في العاصمة والثانية في هرار . ولكن هذا ليس سوى قطرة في بحر بالنسبة لاحتياجات اثيوبيا الهائلة . ومن أجل ذلك ، وامام الطلب المتزايد للمعلمين ، فقد استمر الاعتماد على المعلمين من خريجي الدورات التدريبية القصيرة الامد ، الامر الذي انزل كارثة بمستوى التعليم في البلاد . فان ضعف المعلم بهذا الشكل أدى الى انخفاض مستوى التعليم الذي بدوره انعكس على خريجي الابتدائيات . فدخلوا المتوسطة وهم ضعفاء ، وضحلى المعلومات الاساسية فرافقهم هذا الضعف حتى المرحلة الثانوية .

لقد شكا لي مرة مسجل جامعة هايلاسلاسي الاول وقال : « ان خريجي الثانويات لا تتوفر فيهم الشروط الدنيا للقبول » . « ونحن نضطر ازاء هبوط مستواهم العام ان نفتح لهم دورات صيفية لتقوية معلوماتهم وتأهيلهم للدخول للجامعة » . وقال ان الكليات كثيرا ما تذمرت من ضحالة معلومات خريج الثانوية .

والمشكلة الثالثة هي اللغة . وهذه في الحقيقة مشكلة اجتماعية بقدر ما هي مشكلة تعليمية . فاللغة الرسمية هي الامهارية ، ولكن الذين يفهمونها ويجيدونها ــ خارج موطنها في الهضبة الوسطى ــ قلة ومعظمهم من الموظفين . ان سكان اثيوبيا يتكلمون لغات ولهجات كثيرة ــ تربو على



ثلاثين . ولذلك فاول عقبة يصادفها الطفل وهو يدخـــل الصف الاول الابتدائي ، انه يجد نفسه امام لغة لم تسمعها اذناه من والديه ولم يألفها في المحيط الذي عاش فيه ، لغة لا يفهمها ويظل يعاني من ازمة نفسيـــة طوال سنتين متتاليتين في مطلع حياته الدراسية . حتى اذا ما انقضتا ودخل الصف الثالث دخلت معـــه ولازمته مشكلة جـــديدة هي اللغة الانكليزية . فعليه ان يتعلمها ويتقنها على يد معلم هو نفسه لا يجيدها ، لانها ستصبح لغة التدريس في كافة المراحل الدراسية القادمة ــ بما فيها المرحلة الجامعية طبعا .

فالتعليم في اثيوبيا يجابه صعوبات جمة بسبب اللغة . فالحكومة تفرض على السكان لغة الاقلية في البلاد ــ اللغة الامهارية ــ التي تظهر على مسرح التدريس سنتين فقط ثم تختفي لتحل محلهـــا لغة اجنبية ــ الانكليزية ــ التي لا يجيدها المعلمـــون أنفسهم . فكيف يمكن للمعلم والحالة هذه تلقين الطالب فحوى الدرس وايفاء الموضوع حقه من ناحية التفسير واجراء الحوار الواسع الحر في الصف والاجابة على الاسئلة ، وهو نفسه غير قادر على التعبير عما في نفسه . وموضوع اللغة يجرنا بطبيعة الحال الى موضوع الكتاب ــ الكتاب الصالح النابعة مواضيعه من المحيط وما يتألف منه ، من ارض وطبيعة ، ومنـــاخ وتراث ، وقصص وتاريخ ، وعادات واخلاق ، ونبت وزرع الى آخره . فكيف بالطالب الذي يعيش في هرار وهو يدرس بكتاب موضـــــوع للتدريس في اوكلاهوما ــ احدى ولايات امريكا . يقرأ الطالب الامثلة والشواهد في الكتاب الذي بين يديه ولكنه لا يفهمها ولا يستوعبها عقله لانها بعيدة كل البعد عـــن مداركـــه .

التعليم العالي

في مستهل عقد الستينات وقبيل ذلك بقليل كان في عدد مـــن المستعمرات الافريقية جامعات ومراكز ثابتة للابحاث العلمية تعمل بتنسيق وثيق مع التعليم العالي ، وذلك على نقيض الحال في اثيوبيا . وكـــان الطلبة الافريقيون سواء الناطقون بالانكليزية منهم أم الفرنسية منتشرين في جامعات اوروبا وأميركا يواصلون دراساتهم الجامعية وللتخصص في شتى الميادين العلمية والانسانية ، باستثنـــاء الاثيوبيين . فلما بزغت شمس الحرية فوق ربوع القارة السوداء ونالت المستعمرات استقلالها كان فيها العدد الكافي ، نسبيا ، من ذوي الكفاءات العلمية وقادة الفكر ممن عملوا وساهموا جنبا لجنب مع الخبراء والاساتذة الذين قدمـــوا للخدمة في البلاد على حساب المساعدات الثنائية او على حساب المنظمات المتخصصة للامم المتحدة . وتمكنوا في خلال فترة قصيرة من دفع عجلة التعليم العالي الى الامام دونما صعوبة او تلكؤ منتفعـــين من تجاربهم



وتجارب واخطاء المستعمرين بالامس في ميدان التعليم ـ مثل السودان وكينيا ويوغندا في الشرق ونايجيريا وغانا في الغرب .

اما الحالة في اثيوبيا فلم تكن كذلك . حتى انه لما وضع الحجر الاساسي لنظام التعليم العالي وأسست الكلية الجامعية University College ثم الكليات الاخرى في اديس ابابا وخارجها في أوائل الخمسينات لم يكن في البلاد شخص واحد يحمل شهادة جامعية . ولما تأسست كلية الزراعة في علماية ـ بالقرب من هرار ـ جاءت هيئة التدريس ومعها عميد الكلية والكتبة والسكرتاريون وموظفو المكتبة والمحاسبة من جامعة اوكلاهوما في الولايات المتحدة على بساط سحري وحطوا في ربوع الكلية . ثم تبعتهم التجهيزات والكتب وتصاميم الابنية والحقول تباعا . اما الاساتذة ورؤساء الاقسام الاثيوبيون الحاليون والعميد الجديد فكانوا كلهم طلابا في الصف الزراعي الاول سنة ١٩٥٢ . وعلى العموم فيمكن القول انه منذ بداية الخمسينات وحتى اواسط الستينات او في مدى خمس عشرة سنة ، كان الاعتماد الكلي في التعليم العالي على الاساتذة الاجانب .

ومن هنا نشأت مشكلة تربوية اجتماعية ما زالت الجامعة تتخبط فيها . فالتعليم ، وخاصة في الميادين الانسانية ، كان خلال هذه الفترة كلها غريبا ودخيلا على البلاد ولم ينبع من حاجات المحيط الملحة . بل جيء بمناهج أجنبية ، غرست غرسا في بيئة اثيوبية ولا صلة لها بالتراث الاثيوبي . وحتى الكتب التي تدرس في جامعة اوكلاهوما جيء بها لتدرس في هذا المحيط الناشيء . وما ينطبق على الامريكيين ينطبق على الالمان كذلك . فالاساتذة الالمان نقلوا المناهج الدراسية والمستويات الالمانية والحرية الاكاديمية Academic Freedom كما لو كان طلابهم من مقاطعة بافاريا في المانيا . فاتسم الطابع الدراسي الجامعي على مر الايام بطابع الفوضى التربوية . فكل كلية أسست درجت على السياسة التعليمية في البلد او القطر الذي قدم المساعدات وأوفد الاساتذة للتدريس فيها . والانكى من ذلك اختلاف نظام ومستويات القبول في مختلف الكليات والدرجات العلمية التي تمنح للمتخرجين .

ولم تختمر فكرة جمع كافة الكليات وربطها تحت ادارة واحدة الا في شباط (فبراير) ١٩٦١ حينما صدر مرسوم امبراطوري يقضي بضم كافة الكليات والمعاهد العالية تحت لواء جامعة واحدة أطلق عليها اسم جامعة هايلا سلاسي الاول وافتتحها الامبراطور باحتفال رسمي في كانون الاول (ديسمبر) من نفس السنة ، وتنازل لها عن أحد قصوره لتكون مقر الجامعة الاول .

وفي سنة ١٩٦٩ عندما غادرت اثيوبيا كانت الجامعة تضم الكليات التالية وفيها عدد لا بأس به من الاساتذة الوطنيين :



١ ــ كلية الزراعة ــ في علماية
١ ــ كلية الزراعة ــ في علماية
٢ ــ كلية الآداب
٣ ــ كلية الهندسة المعمارية
٤ ــ كلية الادارة المالية
٥ ــ كلية التربية
٦ ــ كلية الهندسة
٧ ــ كلية الطب
٨ ــ كلية الصحة العامة ــ في غوندار
٩ ــ كلية العلوم
١٠ ــ كلية الخدمة الاجتماعية
١١ ــ كلية اللاهوت
١٢ ــ كلية الحقوق

الا انها ــ أي الجامعة ــ حتى هذه السنة كانت تعتمد على مصادر اجنبية تصلها على شكل هبات وخدمات من الدول الصديقة والمؤسسات الخيرية والامم المتحدة والجامعات . وقد أعلمني نائب رئيس الجامعة في احدى زياراتي له سنة ١٩٦٧ ، أي بعد مرور حوالي ١٥ سنة على تأسيس الجامعة ، بأن ما لا يقل عن سبعين بالمائة من ميزانية الجامعة مصدره المساعدات المادية والخدمات من الخارج ــ معظمها من الولايات المتحدة الامريكية ، فالامريكيون يتحملون العبء الاكبر من المسؤوليات المالية والادارية لدرجة ان أحد نواب رئيس الجامعة هو امريكي يشرف على كافة الشؤون المالية فيها بحكم اتفاقية المساعدات الفنية الامريكية المعقودة مع الحكومة الاثيوبية . اما بما يتعلق بكلية الزراعة ومدرسة الزراعة في جيما فانهم ــ أي الامريكيين ــ فكانوا حتى سنة ١٩٦٩ يتحملون العبء المالي الكامل في ميزانية هاتين المؤسستين ، ليس من ناحية رواتب الاساتذة ونفقات الدراسة فحسب بل وحتى كلفة الاقسام الداخلية للطلاب .

وقد صعق الاثيوبيون عندما طلبت اليهم ادارة المساعدات الامريكية بالمبادرة بتحمل جزء من نفقات الكلية تمهيدا لانسحاب الشبح الامريكي منها تدريجيا خلال بضع سنوات .

الامريكي القبيح ــ The Ugly American

قبل كل شيء أود أن أنوه بأن « الامريكي القبيح » هو عنوان كتاب بالانكليزية أصدره امريكي أصيل وقف وأطلع بنفسه على الاسراف الفاحش والتبذير غير المعقول اللذين رافقا كافة العمليات التنفيذية لبرامج المساعدات الخارجية الامريكية في البلاد النامية على أيدي



الامريكيين انفسهم منذ تأسيسها ايام كانت تعرف ب « النقطة الرابعة » . اراد هذا الامريكي اطلاع دافع الضريبة المسكين في بلاده كيف ان موارده تبدد بلا وحمة وبغير شعور بالمسؤولية مقابل نتائج ضئيلة في البلاد التي خصصت لها المساعدات . واكثر ما كان يؤلمه ويحز في نفسه ادراكه عمليا وواقعيا ان ما كانت تقدمه بلاده من مساعدات وخدمات كان يقابل بالصدود والجحود على خلاف الشعور الذي كانت تظهره هذه البلاد نفسها لبرامج المساعدات الثنائية الاخرى او برامج مساعدات الامم المتحدة . فمن أسباب هذا الشعور نحو المساعدات الامريكية هو ترفع الامريكيين عمن يعطونهم المساعدات واقتران هذه المساعدات بشتى وسائل الدعاية الرخيصة التي يراد بها اظهار الامريكيين بمظهر المحسن المتصدق على شعوب محتاجة جائعة . هذا مع العلم ان نفقات الدعاية هذه تخصم من ميزانية المساعدات . وهذا على نقيض المعونات الثنائية التي تأتي من دول صديقة اخرى والتي لا تقترن بالدعاية والتهريج اللذين يصاحبان البرامج الامريكية عادة .

ولكي يبرهن مؤلف هذا الكتاب للشعب بأن سبب مقابلة شعوب البلاد النامية للبرامج الامريكية بشيء من عدم الترحيب انما سببه الامريكيون ، فقد ضمن كتابه قصصا واقعية وحقائق مثيرة عن أوجه الصرف التي كانت موضع انتقاد وسخرية كافة المراقبين وأهل البلاد . وناشد الشعب الامريكي محاسبة المسؤولين في ادارة المساعدات الخارجية عن اخفاقهم في غالبية مشاريعهم ، سواء كانت في ميادين التنمية الاقتصادية أو التعليمية او غيرها . وفي مقدمة دواعي نفور البلاد النامية من برامج المساعدات الامريكية انها كانت توضع وتخطط وتصمم في الولايات المتحدة دون استشارة البلاد التي يعنيها الامر . فتأتي التصاميم مطبوعة جاهزة لا يجرؤ أحد على تغييرها او الاعتراض عليها . وكانت تطبق دون مراعاة لاختلاف الظروف والفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين البيئة الامريكية والبيئة الافريقية .

فلنأخذ كلية الزراعة على سبيل المثال كنموذج حي للمشاريع الامريكية الضخمة التي كلفت الملايين من الدولارات . ان الناظر اليها ليخال انها نقلت من امريكا على بساط سحري واستقرت على ساحل بحيرة علماية في اثيوبيا . فلا شيء فيها يذكر المرء انه في اثيوبيا . لقد جيء بتصاميمها — ابنيتها الدراسية ومختبراتها وقاعاتها ومطاعمها وردهاتها ودور سكن الاساتذة — من جامعة اوكلاهوما التي أخذت على عاتقها مسؤولية تأسيسها ورعايتها عن طريق التعاقد مع ادارة المساعدات الامريكية الخارجية . اما تقسيم الكلية الى الفروع العلمية المختلفة ومناهجها والكتب الدراسية فهي كذلك نسخة طبق الاصل لكلية الزراعة في اوكلاهوما ، بل وحتى الاسم جاء مطابقا من غير زيادة او نقصان



للاسم الذي تحمله كلية الزراعة هناك (٨) « كلية الزراعة والفنون الميكانيكية » . ولكن ما من زائر (غير امريكي) دخل هذه الكلية لمشاهدتها الا وخرج بهذه العبارة مندهشا مستغربا : « اهذه الكلية في امريكا ام في اثيوبيا ؟ » . وما من مدقق ومتفحص لاحوالها وادارتها عن كثب الا وسال هذا السؤال : « هل يا ترى ستتمكن خزانة الجامعة في اديس ابابا من الاستمرار بهذا البذخ بعد انسحاب الشبح الامريكي من هذه البلاد ؟ » .

وفعلا أحس المسؤولون الاثيوبيون بالصدمة المذهلة سنة ١٩٦٩ عندما أعلنت ادارة المساعدات الامريكية للحكومة الاثيوبية عن عزمها على الانسحاب التدريجي من مسؤولياتها المالية في الكلية مناشدة اياها بضرورة اتخاذ ما يلزم للمساهمة بالنفقات بصورة تدريجية وتصاعدية حتى تأخذ على عاتقها كافة المسؤوليات المالية في مدى ٣ ــ ٤ سنوات. فوقع المسؤولون في حيص بيص وبان عليهم التلكؤ في سد الفراغ الامريكي . وحاولوا بشتى الطرق اقناع الامريكيين بالاستمرار بتحمل العبء المالي على نفس المستوى السابق ولكن دون جدوى . ولعل الاثيوبيين كانوا يظنون ان نعيم العم سام ستجري أنهاره تحت هذه الكلية الى الابد . وأخذت الكلية تشعر بالضيق المالي في تلك السنة وتعاني صعوبات جمة للحصول على المال من الجامعة التي هي ذاتها تتكون سبعون بالمائة من ميزانيتها من التبرعات والهبات والمساعدات الخارجية كما اسلفنا .

عندئذ فاتحتني عمادة الكلية وادارة الجامعة حول امكان الحصول على المعونة الفنية من صندوق التنمية التابع للامم المتحدة . وبالاشتراك مع عميد الكلية الدكتور ماكونين كبريت Dr. Makonnen Kebret والتشاور مع رؤساء الاقسام العلمية فيها قمت باعداد مشروع يهدف لسد الفراغ الامريكي لمدة خمس سنوات ريثما تتمكن الحكومة الاثيوبية من تحمل المسؤوليات المالية كلها بعد ذلك التاريخ . ولا اعلم ماذا حل به بعد تركي الخدمة مع المنظمة العالمية . وكانت الكلية بموجب هذا المشروع ستحصل على مساعدات فنية وخدمات عدد من الاساتذة الاجانب قدرت كلفتها بأكثر من مليون دولار امريكي . ولا بد لي من التلميح هنا بأن عميد الكلية والاساتذة ورجال الجامعة المسؤولين كانوا جميعهم من المتحمسين للحصول على المساعدات ، حتى الثنائية منها ، عن طريق الامم المتحدة.

والكلية منذ تأسيسها سنة ١٩٥٢ كانت تعمل بمعزل كلي تقريبا عن وزارة الزراعة . ولم تشجع أية محاولة لقيام اي نوع من التعاون بينهما بسبب اصرارها على أمور لا يمكن تطبيقها الا في امريكا او محيط مماثل. فمثلا طوال سنوات عديدة كانت الحرب الباردة مستعرة بين كلية الزراعة

---

8 — College of Agriculture and Mechanical Arts



ووزارة الزراعة حول تابعية محطات التجارب الزراعية وادارة الارشاد الزراعي . ففي اثيوبيا كما في كثير غيرها من البلاد ، فان الابحاث الزراعية والارشاد الزراعي تقع في نطاق اختصاص وزارة الزراعة . بينما تصر كلية الزراعة تحت ادارة « الامريكي القبيح » على تطبيق النظام الامريكي في اثيوبيا ، الذي يجعل الابحاث الزراعية والارشاد الزراعي من مسؤوليات كلية الزراعة علاوة على مسؤولية التدريس . فيحاول الامريكيون بهذه السياسة المفتقرة الى الواقعية ومراعاة ظروف التنظيم الحكومي المحلي ، فرض سيطرتهم باعتبارهم أصحاب الفضل في هذه المساعدات . الا ان وزارة الزراعة لم ترضخ وظل كل يعمل بمفرده على خلاف ما تقتضيه مصلحة البلاد . هذه الامثلة وغيرها هي من جملة العوامل التي تؤدي الى النفور من المساعدات الامريكية على الرغم من الحاجة اليها . وطيلة الفترة من ١٩٥٢ ـ ١٩٦٩ كان التنافر والتطاحن الطابع المميز للعلاقات بين الكلية ووزارة الزراعة .

ان نسبة عالية جدا من ميزانية المساعدات الامريكية يبتلعها فصل فيها يسمى « فصل الخدمات » . فهذا الفصل يختص بنفقات الهيئة التنفيذية المسؤولة عن تطبيق المشاريع والبرامج الامريكية موضعيا في البلاد التي خصصت لها المساعدات . فيدخل ضمن هذا الفصل الرواتب والمخصصات لممثل ادارة المساعدات (المدير) ومعاونيه ومستشاريه وموظفي الادارة والمحاسبة والسكرتيرات ونفقات نقل اثاث كل هؤلاء بافراد عائلاتهم وسياراتهم الخاصة وبدلات ايجار دور السكن والمكاتب وغيرها . فتبدو ادارة المساعدات في اي قطر من الاقطار وكأنها حكومة داخل حكومة . كما ويدخل ضمن هذا الفصل مخصصات كافية لايفاد بعض كبار موظفي الدولة لزيارة الولايات المتحدة باسم الاطلاع ورفع مستوى الكفاءة ، وكذلك ايفاد بعض الفنيين وصغار الموظفين للتدريب في المؤسسات الامريكية . وكما هو معلوم فأغلب هؤلاء عند عودتهم الى اوطانهم قلما تعينهم الحكومة في المجالات التي تم تدريبهم فيها . وعندما تذاع أرقام ميزانية المساعدات الخارجية الامريكية بعد موافقة الكونفرس عليها تتلقفها اجهزة الدعاية الامريكية حتى ليخيل للمستمع اليها وكأن البلاد المتخلفة ستصبح جنائن عدن بين عشية وضحاها بفضل هذه المساعدات . والناس لا يعلمون ان « فصل الخدمات » والجيش الجرار من المرتزقة الامريكيين انما لهم حصة الاسد من هذه الميزانية .

كنت ذات يوم بمهمة رسمية في الصومال . فزرت بحكم عملي مدير المساعدات الامريكية في العاصمة مقديشو . واول شيء جلب انتباهي عند دخولي مكتبه هو المراوح السقفية الست وهي تدوي بأقصى سرعتها . وخلال الجلسة كنت ربما أختلس النظر الى المراوح بصورة



عفوية . فهذا العدد حقا ليسترعي النظر . ولو كان مثل هـذا المكتب بالعراق ــ وهو البلد المعروف بشدة الحرارة ــ لما وضعوا فيه اكثر من مروحتين . ولكن قلت في نفسي ــ هذا امريكي يحب الظهور بزي غريب . وبعد ذلك بأيام سافرت الى هرغيزه Hargeisa في الشمال وكان قد جلس بجواري في الطائرة امريكي يعمل في مكتب المساعدات في مقديشو . فتعارفنا وتحادثنا عن الاسفار في افريقيا والسياسة والادب والفن حتى جرنا الحديث الى المساعدات الامريكية وعن مديرها في مقديشو . فسألني أن كنت قد تعرفت عليه . فقلت نعم وشرحت له كيف انني استغربت من نصب ست مراوح سقفية في مكتب تكفيه مروحتان . فعاد وسألني قائلا : « هل سمعت عن كتاب اسمه الامريكي القبيح ؟ » فقلت له قرأته وأظنه ينطبق كل الانطباق على المدير الامريكي في مقديشو . وكأني بجوابي هذا قد أثرت شجونه وأيقظت آلاما كامنة في أعماق نفسه .

فانبرى يقص عليّ قصة تتضاءل امامها قصة المراوح الست المنصوبة في سقف مكتب المدير . قال انه كان ذات أمسية منقبض النفس مكروبا لخفوت النور الكهربائي بصورة دائمة في الحي الذي يقطنه . فخرج الى الشارع ترويحا للنفس واذا به يشاهد منزل المدير عن بعد وقد توهج نورا وسط الظلام المحيط به كالنهار الساطع . ولشد استغرابه عندما علم في اليوم التالي ان مصلحة الكهرباء في مقديشو استجابة لطلب المدير فقد اوصلت داره بسلك يستمد الكهرباء من محطة التوليد مباشرة . وكلفة هذه العملية هي على حساب « فصل الخدمات » طبعا ــ او بكلمة اكثر واقعية على حساب المساعدات للصومال .

وثمة « امريكي قبيح » آخر كذلك تعرفت عليه في مقديشو بالصومال . كان هذا مسؤولا عن مركز للتدريب الزراعي في قرية بونكا Bonka في مقاطعة بايدوا Baidoa . الا انه جعل مقره في العاصمة بينما يواصل اشرافه على العمل في بونكا بواسطة المراسلة مع مساعديه المحليين وزيارته للمركز مرة في كل شهر لمدة ٣ ــ ٤ أيام ، ويسافر اليه بالطائرة التابعة لادارة المساعدات . وخلال مكوثه في بونكا ينزل في دار الاستراحة المخصصة له بكامل اثاثها وهي خالية طوال ايام الشهر عندما يكون في المقر العام في مقديشو . ان المسافة بين العاصمة وبونكا تستغرق ست ساعات ولا تسلك هذا الطريق غير سيارات لاندروفر لوعورته . والسفرة متعبة للغاية كنت أقوم بها عند زيارتي للصومال . دعاني هذا الامريكي للسفر معه بالطائرة ، ولكني لو قبلت الدعوة لكان معناه الانتظار مدة اسبوعين تقريبا حتى يحين موعد سفره الى هناك .

من عادة الامريكيين انهم يستوردون كل احتياجاتهم من بلادهم فلا تنتفع منهم الاسواق المحلية بشيء يذكر . ومعظم اطعمتهم ولحومهم



تأتيهم بشكل معلبات من امريكا . اذكر حادثة وقعت في سنة ١٩٥٩ بطرابلس الغرب بليبيا عندما كانت الولايات المتحدة ملتزمة بمنهاج ضخم جدا للمساعدات الفنية يشمل الزراعة والتعليم والصحة وغير ذلك . فكان هناك آلاف الامريكيين اذا ما أدخلنا في الحساب الضباط والجنود الموجودين في قاعدة «الملاحة» الجوية المعروفة باسم Wheelus Air Base وذات مرة أثار المزارعون في طرابلس ضجة لحمل الحكومة الليبية على وقف السماح للامريكيين باستيراد الخضراوات من خارج البلاد تشجيعا للفلاح المعدم ــ ولم يكن الذهب الاسود قد تدفق بعد من جوف الصحراء الليبية .

على اثر ذلك جرت اتصالات بين الجانبين الليبي والامريكي انتهت بتاليف لجنة لدراسة الموضوع . فاستيقظ الامل في نفوس المزارعين وزارت اللجنة المزارع والاسواق المحلية وتفحصت المنتجات . الا ان الاعضاء الامريكيين في اللجنة أصروا على عدم مطابقة المنتجات المحلية للذوق والمستوى الامريكي ورفضوا شراء الخضراوات من الاسواق المحلية على خلاف الانكليز الذين كانوا يتمونون محليا . واستمر الامريكيون باستيرادهم الخضراوات والفاكهة من ايطاليا وجزيرة مالطا . ولم تكن الحكومة الليبية آنذاك من القوة بدرجة تستطيع معها مناهضة الامريكيين وهم الذين كانوا يتحملون أعباء مالية كبيرة في مختلف المجالات في الدولة ــ في الزراعة والمدارس والجامعة الليبية والغابات والطرق وغيرها .

الا انه من أغرب الاستنتاجات التي ابتدعتها عبقرية « الامريكي القبيح » هي فرق المئات من الشبان والشابات الذين تطوعوا للخدمة تحت لواء المساعدات الخارجية ضمن برنامج عرف ببرنامج «هيئة السلام» Peace Corps . وهؤلاء الشباب هم حديثو التخرج من الجامعات الامريكية أغرتهم الدعاية البراقة للخدمة في الخارج ومشاهدة افريقيا ووحوشها وشعوبها على الطبيعة . وكتب أحدهم يصف شكل الاعلانات التي صدرت من ادارة هيئة السلام في صحف واشنطن ونيويورك وغيرها بدعوة المتطوعين للعمل في افريقيا وكأنها اعلانات لمشاهدة السرك او احد أفلام السينما . بهذا الاسلوب اجتذبوا المئات من الشباب برواتب رمزية لا تسد نفقاتهم . وبين الامريكيين مئات الالوف من الشباب التواقين لمشاهدة القارة السوداء ، مدفوعين بما سمعوه عن مغامرات الرحالة الاجانب فيها خلال المائتي سنة المنصرمة .

عمل نفر من هؤلاء في التدريس ولم ينجح منهم سوى اولئك الذين درسوا مادتي اللغة الانكليزية والرياضيات لانها مواضيع لا تحتاج الى كثير من التكييف والتطوير . اما الذين عملوا في ميدان العلوم الانسانية فضربوا رقما قياسيا في الفشل لان هؤلاء الشباب عديمي الخبرة



والتجربة لم يكلفوا انفسهم بتطوير المادة الدراسية لتلائم ظروف المجتمع الافريقي واحواله والبؤس الذي يعيش فيه السواد الاعظم من السكان . فالشباب الامريكي ، كما هو معلوم عنهم ، لا يعرفون شيئا في الدنيا اكثر من محيط الولاية التي يعيشون فيها . واشتغل بعضهم في العناية الصحية ونظافة المدن . ولكن من المهازل التي تعكس جهل الامريكيين بالمحيط الذي يعملون فيه ان صدرت الاوامر مرة لبعض الشبان والشابات بتعليم الناس كيف يكنسون الشوارع .

وقد جمعتني الصدف مرة وأنا في الصومال بعدد من هؤلاء الفتية ـ شبانا وشابات ـ في بيت مدير اعداد المعلمين . فوقفت على مبلغ استيائهم من المهمة التي أسندت اليهم من قبل المسؤول الامريكي . فقد طلب اليهم القيام بكنس شوارع هرغيزه ـ وما هي سوى قرية كبيرة معظم منازلها عبارة عن اكواخ مقببة . فلما ظهر الشباب الامريكي فجأة في هذه القرية يكنسون شوارعها التف حولهم الصغار العابرون والنسوة يسمعونهم ألوان الكلام الاستفزازي فتركوا العمل وقرروا العودة . اذ كان قسم من هؤلاء من انتهى من مرحلة الماجستير في دراسته . بهذه الاساليب وهذه المشاريع هدرت الاموال الجسيمة التي كان بامكانها ان تؤدي الى نتائج افضل لو انها استخدمت على الوجه الصحيح . ومن أراد الاستزادة بما عرف عن فوضى مشاريع المساعدات الامريكية في افريقية وغيرها من البلاد فما عليه الا ان يطالع كتاب «الامريكي القبيح» .



الفصل الثالث والعشرون

الاقتصاديات الاثيوبية

الموارد الطبيعية

ان موارد اثيوبيا الطبيعية لا مثيل لها ولكنها حاليا خزائن مطمورة تحت الارض . فتربة هضبتها من أخصب الاراضي فيالعالم ، لا يضاهيها في الخصوبة سوى منطقة الذرة الصفراء في الولايات المتحدة المعروفة بالغرب الاوسط او Corn Belt . وان مناخها المعتدل الممتاز وطاقتها البشرية وموقعها الجغرافي على ملتقى طرق التجارة العالمية بين اوروبا وجنوبي افريقيا وغيرها يضفي على اقتصادها الوطني متانة وامكانية تساعد كثيرا في دعم نهضتها الحديثة . والاقتصاد الاثيوبي يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التي فيها من الخيرات الكامنة غير المستغلة التي قلما تماثلها امكانيات بلد آخر في افريقيا ــ هذه الامكانيات المثلة بخصب التربة وغزارة الامطار واعتدال المناخ الذي يسمح بزراعة الارض على مدار السنة فتجود بغلتين او اكثر احيانا في بعض الاماكن.

ولو قدر للاحباش وتوصلوا لاستغلال هذه الطاقات والامكانيات غير المحدودة تقريبا بحكمة وتخطيط سليم لضمنوا لبلادهم مستقبلا تحسد عليه . وخاصة اذا ما وفقت الحكومة لاتمام مشاريعها فيالسيطرة على مياه الانهر واستثمار أراضيها على الوجه الاكمل . وتجدر الاشارة بهذه المناسبة الى ان اثيوبيا حتى في ظروفها الراهنة وبمستوى انتاجها المنخفض ــ تعتبر في السنين الاعتيادية من البلاد ذات الانتاج الفائض في المواد الغذائية (1) .

تبلغ مساحة اثيوبيا ١،١٨٤،٠٠٠ كيلومتر مربع بضمنها اقليم اريتريا البالغة مساحته ١٢٤،٣٢٠ كيلومترا مربعا . غير ان المساحة المستغلة في الزراعة لا تتجاوز ٨ بالمائة من المجموع . وما زالت هناك

1 — F. A. O. Africa Survey, 1962 — pages 22 — 23; 94.

امكانيات تكاد تكون خيالية يتطلب استثمارها المزيد من رؤوس الاموال والخبرة الزراعية الحديثة والايدي العاملة المدربة وذلك على نمط استثمار أراضي مشروع وونجي لانتاج السكر . ولكن هناك عامل يكاد يكون معوقا للنهضة الزراعية السريعة ، وهو انه على الرغم من عدد سكانها البالغ ٢٦ مليون نسمة ، فتعتبر نسبة السكان للمساحة ضئيلة ويتطلب النهوض بالزراعة على الوجه المطلوب استخدام الآلات الحديثة. فان معدل عدد السكان للكيلومتر المربع الواحد هو ١٩٫٩ فردا . وحتى في بعض المناطق الزراعية المأهولة بشكل كثيف فلا يربو المعدل على ٢٥ فردا للكيلومتر المربع الواحد .

ولغرض ايضاح الامكانيات الزراعية الهائلة في اثيوبيا أدون الجدول التالي لتصنيف الاراضي ومساحتها .

أصناف الاراضي في اثيوبيا (٢)

صنف الاراضي	المساحة بالكيلومتر المربع	النسبة المئوية للمساحة العمومية
الاراضي المنزرعة فعلا	٩٥٫٠٠٠	٨٫١
غابات البن الطبيعية	٥٫٠٠٠	٠٫٦
مراعي	٣٣٠٫٠٠٠	٢٨٫٠
غابات مغلقة (اميرية)	٤٠٫٠٠٠	٣٫٤
غابات مفتوحة (سافانا)	٣٤٫٠٠٠	٢٫٩
أراضي مكسوة بالاشجار الشوكية	٢٩٥٫٠٠٠	٢٥٫٠
صحارى	٣٧٠٫٠٠٠	٣١٫٠
أنهار وبحيرات	١١٫٠٠٠	١٫٠
المجموع	١٫١٨٠٫٠٠٠	١٠٠

ان القسم الاعظم من الاراضي الزراعية يقع في ذلك الجزء من الهضبة حيث معدل الارتفاع عن سطح البحر يبلغ حوالي ١٠٠٠ ، ـ ١٨٠٠ متر . وما فوق ذلك فيشتمل على المراعي الطبيعية حيث تفرش الارض بساطها السندسي الوافر العشب معظم ايام السنة مما يضمن للماشية للماشية رعيا سهلا مستديما . وتتباين الحاصلات الزراعية بحسب تباين مستوى الارض عن سطح البحر . ففي المناطق التي ترتفع حوالي ١٥٠٠ متر عنه تكثر زراعة محاصيل القطن والفول السوداني وقصب السكر وغيرها . واما في المناطق التي يقل ارتفاعها عن ذلك فتجود

2 — Agriculture in Ethiopia, FAO, 1961.



المحاصيل الاخرى كالذرة والدخن وبقية محاصيل المناطق الحارة . وعلى العموم فتنحصر الفلات الاستوائية في السهول والبقاع المحاذية لسفوح الجبال في المناطق الغربية حيث يدخل النيل الازرق في الاراضي السودانية ، وفي الاجزاء غير المنخفضة في صحراء الدناقل الواقعة شرقي البلاد بالقرب من البحر الاحمر .

اما ما تبقى من مساحات فتشتمل على الصحارى وشبه الصحارى الواقعة في أقصى الشرق واقصى الجنوب وفي الجبال الوعرة الجرداء شمالي الهضبة . وفي هذه المناطق ـ عدا الاقسام الجرداء فعلا ـ يكمن جل الثروة الحيوانية التي تنفرد فيها اثيوبيا بين البلاد الاخرى . فمن مميزات هذه الاصقاع الفسيحة قلة امطارها وكساؤها بالاشجار والادغال الشوكية الثمينة مثل أشجار الاكاسيا على انواعها وغيرها التي تنتج اللبان والمر والصمغ العربي . كما كانت تقتطع احطابها لصنع الفحم لتزويد الصناعة المحلية وقاطرات السكك الحديدية في أول عهدها .

ومن الامكانيات الهائلة التي سيكون لها اثر كبير على النهوض بتصنيع البلاد هي الطاقة المائية المتوفرة في الانهار الكثيرة واهمها النيل الازرق ـ او اباي الكبير كما يسميه الاحباش . وقد قدر الخبراء بأن هذا النهر يعتبر من اضخم مصادر الطاقة المائية في العالم . اذ يبلغ مستوى هبوطه نحو ١٦٥٠ مترا عبر الاخدود الذي يشقه في الهضبة الغربية فيدخل سهول السودان على ارتفاع ١٥٠ مترا فقط عن مستوى سطح البحر . بينما يبدأ منبعه من بحيرة تانا على ارتفاع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر .

ليس هذا فحسب . بل يعتبر الوادي الشقي العظيم The Rift valley الذي يشطر البلاد الى شطرين اذ يخترقها من جهة الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي من اكبر مصادر الطاقة الكهربائية . فالهضبة المرتفعة الواقعة على جانبي الشق محاطة بالاراضي الواطئة التي تنحدر اليها مئات السيول وعشرات روافد الانهار جارفة مياه الامطار الفزيرة بسرعة متناهية في بعض الانحاء . فالدولة تخطط للسيطرة على هذه المجاري المائية والتحكم بطاقتها لتوليد الكهرباء بأبخس الاثمان لتصنيع البلاد وكهربة الريف الاثيوبي .
وفي الوقت الحاضر تحصل البلاد على الطاقة الكهربائية من عدد من المشاريع المائية مثل خزان كوكا ـ Koka Dam في مشروع السكر في وونجي Wonji وغيره .



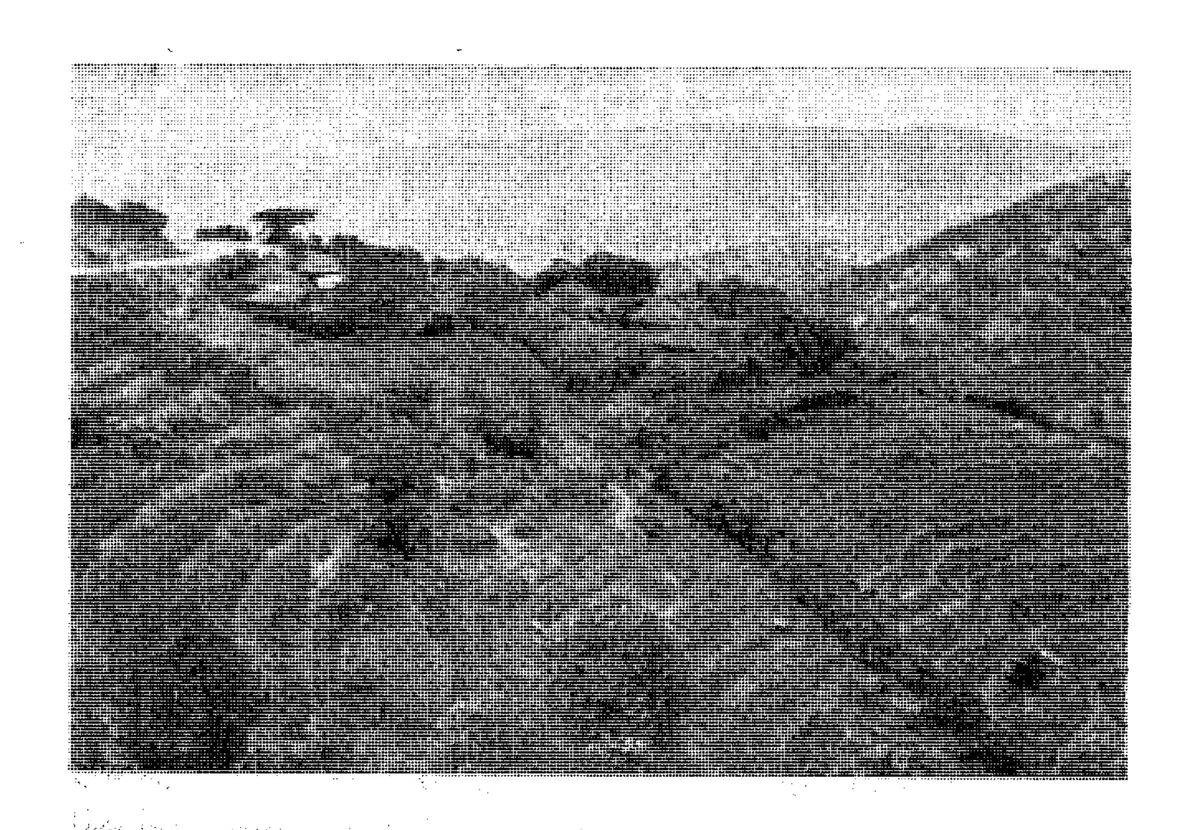
أ ـ الزراعـــة

نظرة عامة

عرف الاحباش المحراث كآلة زراعية متطـورة واستخدموه فـي زراعتهم قبل أي شعب آخر من شعوب افريقيا السوداء بفضل سكـان جنوب الجزيرة العربية الـــذين هاجروا الى أرض الحبشة منذ حوالي سنة ١٠٠٠ قبل ميلاد المسيح وأدخلوه معهم . ولم تكن الحبشة قبـل نزوح عرب الجنوب اليها تعرف غير الفأس آلة لقلب التربة ونبشها . والفأس ما زالت تستعمل في الاعمال الزراعية في افريقيا . وبدخــول المحراث توسعت المساحات الزراعية وتحسنت أساليب العناية بالارض فتضاعف الانتاج وبدأت الحياة الزراعية تأخذ شكلا مستقرا ثابتا جعل الفلاح يرتبط بالارض اكثر من ذي قبل . وأصبــح يتوسع في زراعة مختلف المحاصيل علاوة على ما ينتجه لحيواناته . فدخول المحراث الى هذه البلاد كان بمثابة انقلاب في مفهوم الانسان لطبيعــة التربة وتأثير انواع المحاريث على مختلف انواع التربة والعمليات المتعلقـــة بأنــواع المحاصيـــــل .

ذكرنا بأن الزراعــــة هي عماد الاقتصاد الاثيـــوبي ، اذ تمثل ٧٥ ــ ٨٠ بالمائة من الانتاج القومي . ونظرا لعدم وجــود اثر للصناعة بشكل يذكر ــ ما عدا التطورات الحديثة في بعض الصناعات الزراعية ــ فهذا الرقم يعكس بصورة تقريبية نسبة السكان الذين يعتمدون فـي معاشهم على هــــذا المورد . ولقد فرض اختــــلاف المناخ والتربة وطوبوغرافية البلاد ظروفا زراعية خاصة نظم السكان وكيفوا أساليب استثمارهم للارض حسب تلك الظروف . وبحسب هذه الاختلافــات انقسم المجتمع الزراعي الى قسمين وسلك مسلكـــــين اثنين . الاول ويشمل سكان الهضبة المرتبطين بالارض والعناية بها ارتباطا وثيقـــا ويأكلون من خيراتها عن طريق زراعة المحاصيل وتربية الحيوان بصورة مستقرة . وهؤلاء هم الامهاريون والتيغريون وقبائل اغــاو Agaw وسيدامو . والثاني ويشمل رعاة الماشية والابل الرحل الذين يجوبون السهول المحيطة بالهضبة وسفوح جبالها الواطئة مثــل قبائل البيجه وعفر وساهو وغالا والقبائل الصومالية والدناقل ، وهم دائما في ترحال





زراعة اشجار القات على مدرجـات في سفوح جبال هرار



عمال المطار في جيبوتي بانتظار دورهم لتفريغ شحنة القات
القادمـــة من ديره داوا



لا قرار لهم في محل واحد . ويتنقلون من موطن لآخر بحثا عن الكــلأ والمرعى . ولا يعنون بزراعة المحاصيل للاستفادة من غلاتها .

ولا يختص نمط الحياة الثاني ـ نمط رعاة الماشية والابل ـ بعنصر من العناصر المكونة للشعب الاثيوبي دون آخر . فقبائل غالا مثلا كانت قبل هجرتها الى المرتفعات في القرن السادس عشر ، تعيش عيشــــة بدوية صرفة لا تستقر بمكان او موطن معين . الا انها بعد غزوها للهضبة بموجاتها المتعاقبة الكاسحــــة واكتشافها كنوز الهضبة وامكانياتهـــا الزراعية واقتباسها مبادىء الفلاحة من الامهاريين عن طريـــق العمل معهم جنحت تدريجا نحو الزراعة المستقرة الثابتة ونبذت حياة التنقل والترحال . الا انه ما زال هناك الكثير من أفخاذ هذه القبيلة يعيشون نفس العيشة البدوية على نهج أسلافهم . وتشير التقديرات اليوم الى ان قبائل غالا تشغل أضعاف المساحات الزراعية التي يشغلها الامهاريون ـ سكان الهضبة الاصليون .

وبين نمط الحياة الزراعية المستقرة التي يمـــارسها الفلاح في الهضبة ونمط حياة البداوة الصرفة ، هنــــاك نمط ثالث يتوسطهما وتمارسه جماعات يمكن تسميتهم بالقبائل « شبه الرحل » . فأسلوب هذا الصنف في استغلال الارض يجمع بآن واحد بين فلاحــــة الارض لزراعة المحاصيل وبين رعي الماشية . فهم يزرعـــون قطعا صغيرة من الارض لانتاج قوتهم السنوي ويتركونها دونما عناية تذكر مرتحليـــن بماشيتهم الى حيث ينبت العشب ويكثر الكلأ فيما حولهم من المراعـي الطبيعية القريبة . ولكنهم لا يتوغلون في المراعي النائيـــة على خلاف البدو الرحل ، بسبب ارتباطهم بزراعتهم التي خلفوها وراءهم . فعندما يحين ميعاد نضجها يعودون بماشيتهم لجني ما زرعوا وهكذا دواليك .

اما البدوي المتنقل فلا زراعة ولا محاصيل تستلزم عودته في ميعاد معين الى موطن معين . وقد نعته بعضهم وهو يتجول بجماله هائما في بطون الصحارى والقفار بـ (طفيلي الابل) لشدة الارتباط بينه وبينها. والحقيقة هي ان هذا الانسان المكافح الصابر على الجوع والعطش ، غير عابىء بالشدائد والمهالك المحدقة بحياته ، ليعتبر الابل والماشية جزءا من كيانه أو بتعبير أكثر واقعية ، من أفراد أسرته ، يلازمها أينما اتجهت ويفترش بساط الارض حيثما استقرت . فكأنه والحالة هــذه يعيش من أجلهـــا .

اشرنا سابقا الى ان اثيوبيا تنتج بفضــــل خصب تربتها وتنوع واختلاف مناخها بين الاستوائي وشبه الاستوائي والمعتدل حاصـلات متعددة . الا ان المجال لا يسمح هنا ببحث زراعي مفصل عن كل مـــن الحاصلات . وأعتقد ان ما يفيد القارىء الكريم هو اعطاء نبذة بصورة خاصة عن بعض المزروعات التي تتميز بها اثيوبيا دون سواها . وهــذا



هو أقرب الى هدفنا . ولذلك سيقتصر بحثنا في الصفحات القادمة على أهم معالم الزراعة في مختلف نواحيها الانتاجية لاعطاء صورة كاملة عن اثيوبيا قدر المستطاع .

١ ـ محاصيل الحبوب

التيف ـ Téf (الاسم العلمي Eragrostis abyssinica

اعتاد الاحباش من سكان الهضبة منذ أقدم العصور على صنع خبزهم من نوع من الحبوب يعرف باسم « تيف » . ومنه اصناف عديدة في افريقيا . الا ان المفضل منها في اثيوبيا صنفان فقط ، الابيض وهو الافضل ، والبني أو الاحمر كما يسمى أحيانا . ان حبة هذا المحصول دقيقة للغاية ، فلا يزيد طول الواحدة منها على ملليمتر واحد ونصف المليمتر . وان الفرام الواحد من التيف يحتوي على ٢٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ حبة . اما ميعاد زراعته فالافضل هو ان تبذر التقاوي خلال شهري تموز (يوليو) وآب (اغسطس) . ويحين ميعاد حصاده بعد فترة مائة يوم الى اربعة شهور . اما أنسب ارتفاع عن مستوى سطح البحر لزراعته فهو من ١٧٠٠ متر الى ٢٨٠٠ . ولكن أحسن الاحوال الجوية الملائمة لانتاج أجود وأوفر محصول فتقع على ارتفاع ١٩٠٠ ـ ٢٠٠٠ متر .

يقدر انتاج التيف باكثر من نصف مجموع كافة محاصيل الحبوب الاخرى مثل الحنطة والشعير . وهذا يشير بجلاء الى كون هذا المنتوج المصدر الرئيسي للرغيف اليومي لغالبية سكان الهضبة . والتيف هو من الحبوب الغنية بالمواد الغذائية وهو أغنى من الحنطة بها . فحبة الحنطة مثلا تحتوي على ٦٠ ـ ٨٠ بالمئة من وزنها من الدقيق ، بينما حبة التيف تحتوي على ٩٩ بالمائة من وزنها دقيقا .

محاصيل الحبوب الاخرى

من الحبوب الرئيسية الاخرى الشائع زراعتها هي الحنطة (القمح) والشعير والدخن والذرة الصفراء . اما الحنطة فتستعمل لعمل الخبز في المدن الرئيسية في الوقت الحاضر . وتصنع من دقيقها المعكرونة . وهناك بعض معامل البسكويت التي تعتمد على دقيق الحنطة ايضا .

اما الذرة الصفراء والرز فقد ادخلهما البرتغاليون في القرن السادس عشر . ومن هنا عمت زراعة هذين المحصولين . وتصدر البلاد كميات لا بأس بها من الحبوب الفائضة عن حاجة الاستهلاك الى الخارج كما هو موضح في جدول الانتاج التالي :



حجم انتاج الحبوب عدا التيف بالاطنان (٣)

نوع المحصول	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠
الحنطة	٧٤٥،٠٠٠	٧٥٥،٠٠٠	٧٦٤،٠٠٠	٧٨٠،٠٠٠
الشعير	٨٣٩،٠٠٠	٨٥٣،٠٠٠	٨٦٠،٠٠٠	٨٩٥،٠٠٠
الذرةالصفراء	١،٤٢٣،٠٠٠	١،٤٩٩،٠٠٠	١،٥١٧،٠٠٠	١،٥٤٠،٠٠٠

٢ ـ المحاصيل الزيتية

يولي الاحباش زراعة المحاصيل الزيتية اهمية كبيرة منذ القدم . وربما كان للتقاليد الدينية اثر في هذا الاهتمام . فمعروف انهم لا يتناولون الطعام المطبوخ بالزيوت الحيوانية خلال ايام الصيام التي تحتل جزءا كبيرا من ايام السنة . وهذا ما يفسر اسباب اختيارهم الزيوت النباتية عوضا عما منعوا عنه .

لقد تضاعف انتاج الزيوت في السنوات الاخيرة واصبح يصدر الفائض منه واغلبيته للشرق الاوسط . ونظرا لنجاح زراعة هذه المحاصيل واحتلالها مكانة مهمة في الاسواق فقد عمدت الحكومة الى اخضاع الاتجار بها الى تشريعات خاصة وصارمة لضمان المحافظة على اصناف ودرجات تجارية محددة . فلا تجيز هذه التشريعات مثلا احتواء الحبوب الزيتية المعدة للتصدير على اكثر من ٣ بالمائة من وزنها من الشوائب . واما بالنسبة لبذور الخروع فلا يسمح لان تحتوي على اكثر من واحد بالمائة من المواد الغريبة .

واكثر ما يزرع من المحاصيل الزيتية هو الكتان والخروع والسمسم وعباد الشمس والعصفر والخردل وانواع اخرى على مقياس ضيق .

٣ ـ البقول

يمارس الاثيوبيون زراعة عدد من محاصيل البقول بنجاح ، مثل الحمص والفول (الباقلاء في العراق) والبزاليا والفاصوليا والعدس وغيرها . اما الحمص فيستعمل بكثرة في الطعام الشعبي المعروف باسم « وات » الذي يؤكل مع خبز الانجيرا .

اما الصادرات من هذه المحاصيل فلاتتوفر معلومات احصائية دقيقة عنها دائما . ولكن البلاد تصدر حوالي ٦٠٠٠ طن من الفاصوليا

---

٣ ـ الارقام من نشرات وزارتي الزراعة والتجارة .



الخضراء و ٢٧،٠٠٠ طن من الفول (الباقلاء) و ١٥،٠٠٠ طن من العدس سنويا .

٤ ـ محاصيل الالياف

القطن

تستهلك اثيوبيا مقادير كبيرة من الاقمشة والمنسوجات القطنية سنويا ، تستوردها من الهند وبريطانيا واليابان . وتحتل المرتبة الاولى في قائمة الاستيراد . وكان استيراد هذه البضاعة في أواخر الخمسينات يكلف ٤١ مليونا من الدولارات الاثيوبية (الدولار الاثيوبي يساوي ٤٠ سنتا اميركيا) تدفعها الحكومة من احتياطيها من العملة الصعبة . فان ما تنتجه البلاد من القطن بسبب عدم اكتمال المشاريع الزراعية لا يسد حاجة الاستهلاك المحلي . فقد كان الانتاج ٤٥٠٠ طن سنة ١٩٦٦ حسب تقدير بعثة بنك الاعمار الدولي .

وان مستوى الانتاج يعتبر متخلفا عن المعدل المقبول لان طريقة زراعته ما زالت بدائية . فالتقاوي تنثر نثرا بألواح ممزوجة مع حاصلات اخرى أحيانا . وغالبا ما يسمح لشجيرات القطن بالتعمير سنتين او اكثر فتتضاءل غلتها . وتلافيا لفقدان مبالغ طائلة من العملات الصعبة لاستيراد المنتجات القطنية ، باشرت الحكومة بتنفيذ بعض مشاريعها الرامية لزيادة الانتاج فأرست قواعد مشروع وادي نهر عواش الزراعي كما وسعت نطاق أعمال البحث العلمي والتجارب العملية في هذا الميدان عن طريق مشروع للابحاث ساهمت به منظمة الاغذية والزراعة الدولية .

فلقد ثبت بعد اختبارات عملية عديدة امكان الحصول على ٥٠٠ ـ ٨٠٠ كيلوغرام من القطن الخام من الهكتار (٤) الواحد . بينما زراعة القطن التقليدية لا تنتج اكثر من ٨٠ ـ ١٠٠ كيلوغرام في نفس المساحة . وأخذت مساحات زراعة القطن في السنوات الاخيرة بالتوسع . وفي أواخر الستينات قفز عدد محالج القطن الى ضعف ما كان عليه في الخمسينات . ويؤمل ان يزداد عدد هذه المحالج بازدياد رقعة المساحة المخصصة لهذا المحصول القيم .

---

٤ ـ الهكتار هو وحدة مساحة دولية تساوي عشرة الاف متر مربع ، اي اربعة دونمات عراقية .



السايل ـ Sisal (الاسم العلمي Agave sisalana)

تستخرج الياف هذا المحصول من اوراقه الطويلة لغرض صناعة الاكياس وأقمشة التغليف والخيوط والحبال . وأول ما ادخل السايل الى اريتريا من المكسيك عام ۱۹۰۲ وصار يجود فيها . ومنها دخل الى الحبشة حتى أصبح من المصادر الرئيسية لاستخراج الالياف . وتكاد لا تخلو منه مزرعة أو مستنبت اليوم . وقد انتشرت هنا وهناك على جوانب بعض الطرق الزراعية المكائن الخاصة المستخدمة لاستخلاص الالياف من أوراقه ، لدرجة انه غدا من معالم الريف المألوفة بعد اشجار الكافور (اليوكالبتوس) . وتسمى هذه العملية ب Decortication اي نزع القشور . اما في كينيا فيزرع السايسل لغايتين ، الاولى كسياج حول المزارع والبيوت ، والثانية للاغراض التجارية ـ أي للحصول على الالياف .

الدوم ـ او نخيل الدوم

الدوم ، أو نخيل الدوم كما يسمى أحيانا ، هي مصدر آخر من مصادر الالياف . وهي من الاشجار الضخمة التي تنمو في اثيوبيا واريتريا ومن ثمارها ينتج علف للحيوان بعد عزل النواة التي تصنع منها الازرار . ويأكل الاطفال ثمارها لوجود المادة السكرية فيها . وفي بعض الاماكن في اريتريا يزرع الموز تحت ظلال هذه الاشجار لوقايتها من لفحة الشمس .

وقد كونت هذه الاشجار في اريتريا على ضفاف الانهر بين بلدتي كرن Keren واغوردات Agordat غابات واسعة تقدر مساحتها ب ١٤٠٠٠ هكتار . وهناك نوعان من الدوم . الاول وهو هذا الذي نحن بصدده ، الصالح لاستخراج الالياف والمعروف علميا باسم Hyphaene nodularia . ان ثمرة هذا النوع كبيرة الحجم تتراوح من ٦ ـ ٧ سنتمترات طولا وعرضا تقريبا وقطر ورقته التي تشبه المروحة يناهز ١٠٠ سنتمتر . واما النوع الثاني فيتواجد في صحراء الدناقل وعلى طول الساحل تقريبا بين مصوع وعصب واسمه العلمي Hyphaene dankaliensis . واشجار هذا النوع اصغر حجما من النوع الاول ، وحيثما شاهدتها كانت ضعيفة بسبب عادة متأصلة عند قبائل الدناقل وهي استخراج العصارة الحلوة الطعم من قممها النامية . وتشرب العصارة اما آنيا بشكل طازج او بعد التخمير لتصبح مسكرا . ونفس طريقة استدرار العصارة متبعة في شمال افريقيا في نخيل التمور . ولكن استمرار عملية الاستدرار كثيرا ما تؤدي الى موت النخلة ، وقد شاهدت ذلك في ليبيا بصورة خاصة .



وقد تأسس في بلدة أغوردات بالقرب من الحدود السودانية معملان لاستخلاص الالياف من اشجار الدوم وكذلك لصناعة العلف الحيواني والازرار برأسمال ايطالي .

والدوم منتشر في صحارى مصر والسودان والجنوب العربي ايضا . وفي الحجاز يطلق على ثمرته اسم (تمر ابو جهل) .

الانسيت ـ الاسم العلمي (Ensete edule)

الانسيت أو كما يسمونه بالانكليزية False banana اي الموز الوهمي أو الكاذب هي كلمة أمهارية يطلقونها على نبات شبيه بالموز تماما ولكنه أضخم حجما وينتج ثمارا صغيرة الحجم يتراوح طولها من ٧ ـ ١٠ سنتمترات ذات بذور سوداء . ويبلغ ارتفاع شجرة الانسيت Ensat حوالي ٤ ـ ٧ امتار وطول أوراقها ٣ ـ ٤ امتار بصورة متوسطة . اما قطر ساق الشجرة بالقرب من الارض فقد يصل الى ٥٠ ـ ٦٠ سنتمترا .

في الحقيقة يزرع الانسيت بالدرجة الاولى كمصدر للغذاء . وأما الالياف الناتجة من سيقانه وقواعد اوراقه فهي محصول ثانوي ، لا تتجاوز كمية الالياف المستخلصة من الشجرة الواحدة نصف كيلوغرام وزنا . غير ان صناعة الالياف من هذا المصدر في اثيوبيا صناعة تقليدية منذ القدم ، وان كانت على قياس ضيق .

وقد عرف الانسيت في أثيوبيا شمالا وجنوبا وكتب عنه الرحالة الاسكتلندي جيمس بروس سنة ١٧٧٠ انه مصدر من مصادر الغذاء حول بحيرة تانا . ومعروف انه يتواجد في بعض المناطق بين يوغندا والكونغو (زائيري حاليا) وجبال كوردوفان بالسودان وكذلك في رواندة وغيرها . والحق يقال ان شجرة الانسيت شجرة مباركة بالنسبة للاحباش وخاصة في الجنوب في سيدامو ، فهي المصدر الوحيد المعول عليه للحصول على القوت اليومي كما ذكرنا في الفصل الثاني والعشرين (خبز من الموز الوهمي) . واذا كان سكان الهضبة الوسطى يحصلون على رغيف الخبز من حبوب التيف فالسكان في معظم انحاء سيدامو يحصلون عليه من النشأ المخزون في ساق هذه الشجرة .

سانسيفييرا ـ sanseviera

هذا هو نبات معمر ينتمي للعائلة الزنبقية ويعرف بالانكليزية باسم snake plant اي نبات الحية . ومن انواعه المشخصة علميا حوالي ٨٠ نوعا منتشرة في افريقيا وآسيا . وبسبب شحة المواد الخام لصناعة الالياف في الولايات المتحدة الامريكية ابان الحرب العالمية



الثانية فقد ادخلت اليها بعض انواع السانسيفييرا ــ الى ولاية فلوريدا للاختبار والتجارب لغرض تعميم زراعة الاصلح منها كمصدر من مصادر الالياف بصورة تجارية . وعم انتشارها كذلك في الكثير من البلاد الاستوائية وشبه الاستوائية في العالم .

أما في اثيوبيا فقد عرف هذا النبات منذ عهد بعيد . واما في اريتريا فيتواجد بكثرة تحت اشجار الدوم . ومن ابرز خصائصه سرعة نموه وتكاثره لدرجة انه سرعان ما يطغى على غيره من النباتات الصغيرة فيغطي وجه الارض التي ينتشر فيها . وان أسرع وأسهل طريقة لزراعة هذا المحصول هو بتقطيع شرائح من الاوراق الكاملة النضج المتينة بطول ١٢ ــ ١٥ سنتمترا للشريحة الواحدة . ثم تغرس هذه القطع الصغيرة في ارض المشتل على مسافة ١٠ سنتمترات بين الواحدة والاخرى وفي خطوط تبعد ٣٠ سنتمترا عن بعضها . وبعد ٦ ــ ٩ شهور ينتج عن كل قطعة او شريحة نحو ٢ ــ ٣ نبتات صغيرة يمكن نقلها وغرسها في الحقل المعد لتربيتها . وقد لوحظ خلال التجارب التي أجريت في فلوريدا انه يمكن للسانفييرا المحافظة على جودة الالياف وهي في الحقل سنوات عديدة . ويبلغ النبات دور النضج والانتاج بعد ثلاث سنوات اعتبارا من تاريخ غرس شرائح الاوراق في المشتل .

هناك مشكلة واحدة في الحصول على الالياف وانتزاعها من الاوراق بسبب عدم تناسق الالياف نفسها داخل الورقة . وقد أجريت عدة محاولات لتذليل هذه العقبة منذ بداية القرن الحالي ولكن دون جدوى. الا ان احد الايطاليين المستوطنين في اريتريا استطاع التغلب على هذه المشكلة المستعصية فاستنبط آلة مناسبة لاستخلاص الالياف دون ان يصيبها التلف . وبوشر باستخدامها بنجاح في اثيوبيا منذ ١٩٥٣ . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت اريتريا وحدها تنتج حوالي ٦٠٠ طن من الياف محصول السانسيفييرا سنويا .

معامل صناعة الالياف

وعلى اثر التوسع بزراعة محاصيل الالياف أقيم مصنعان لانتاج الاكياس والخيوط والحبال ، الاول في اديس ابابا والثاني في بلدة اكاكي بالقرب منها . فكان اعتمادها قبل سنة ١٩٥٢ على محصول الانسيت في صنع الالياف . الا انه بعد اندماج اريتريا بأثيوبيا تعاقدت احدى الشركتين وهي التي تعمل في اديس ابابا مع مزارعي ومنتجي السايسل والدوم والسانسيفييرا في اريتريا لشراء حاصلاتهم . ومنذ سنة ١٩٥٦ ، وبعد ادخال تحسينات جديدة في الصناعة بلغ انتاج مصنعها في البداية نحو مليوني (٢،٠٠٠،٠٠٠) كيلوغرام من مختلف انواع الالياف المصنعة . ويشمل هذا الانتاج نحو ١،٦٧٠،٠٠٠ كيس .



اما المصنع الثاني في اكاكي فقد بدأ انتاجه سنة ١٩٥٤ وكان حوالي ٥٠،٠٠٠ كيس وبعد ذلك أخذت الكمية تتضاعف .

وعلاوة على ذلك فينتج المصنعان نحو ٢٥٠،٠٠٠ متر من اقمشة التغليف واكثر من ١٥٠،٠٠٠ كيلوغرام من الحبال والخيوط سنويا . وأما الفضلات فتستخدم لصنع الحصر وما شابه .

٥ ـ قصب السكر

اصبح السكر من الحاصلات الرئيسية في البلاد منذ أمد ليس بالبعيد . ولم يكن معروفا قبل الخمسينات اكثر من كونه محصولا ثانويا يزرع على نطاق مستوى العائلة في بعض المناطق لمص عصارة القصب . ولم تقدم الحكومة آنذاك على التورط بزراعة القصب على مقياس تجاري لافتقار البلاد للمهارات الفنية والخبرة من الناحيتين الانتاجية والصناعية . واكثر من ذلك فقد كان يعوزها المال لتأسيس مصنع لتكرير السكر .

الا انه بعد الحرب العالمية الثانية تقدمت شركة هولندية اكتسبت خبرة طويلة في صناعة السكر في اندونيسيا ، بطلب الى الحكومة للحصول على امتياز لانتاج سكر القصب . فلم تتردد في منحها امتيازا لاستثمار مساحة من الارض تقدر بنحو ٥٠٠٠ هكتار في موقع يقال له ونجي Wonji حوالي ١٠٠ كيلومتر الى الجنوب الغربي من العاصمة. وكان امد الامتياز ٦٠ سنة اعتبارا من ١٩٥١ قابلا للتمدير ٣٠ سنة اخرى . ان الشركة هي Handels — Vereeniging Amsterdam ومختصرها HVA .

اختارت الشركة موقعا على نهر عواش انشأت فيه خزانا للمياه لتنظيم الري في أراضيها . وباشرت بنصب معمل ذي طاقة انتاجية بحوالي ٨٠٠٠ طن من السكر سنويا في بداية الامر . ولقد قدرت تكاليف تأسيس المشروع بحوالي ٢٨ مليون دولار اثيوبي (الدولار الامريكي يساوي دولارين ونصف اثيوبية) بضمنها تكاليف انشاء حوالي ٢٠٠٠ دار لايواء المهندسين والموظفين والعمال التابعين للشركة. وبعد فترة قصيرة زيدت الطاقة الانتاجية . واستمر الضغط لزيادة انتاج السكر مرة اخرى ، فحصل اتفاق جديد بين الحكومة والشركة على توسيع المشروع عن طريق تأسيس شركة مساهمة جديدة يساهم فيها الاحباش والهولنديون عرفت باسم Shoa sugar Factory

وكلف المشروع الجديد نحو ٢٥ مليون دولار اثيوبي وتم انجازه سنة ١٩٦١ .

اما الآن فقد اصبحت اثيوبيا بلدا مكتفيا ذاتيا بل وفيه فائض



للتصدير . وقد قفز الانتاج بشكل ملموس حتى بلغ ١٠٧،٠٠٠ طن في سنة ١٩٧٠ . ومن ذلك يمكن تقدير مبلغ العملات الصعبة التي وفرتها البلاد بتثبيت ركائز هذه الصناعة الوطنية .

جدول بتطور انتاج السكر ـ (الكمية بالاطنان) (٥)

٥٤/١٩٥٣	٥٦/١٩٥٥	٥٨/١٩٥٧	١٩٦٧	١٩٦٩	١٩٧٠
٢،٦٥٣	١٦،١٧٠	٣٢،٥٢٨	٨٤،٠٠٠	٧٣،٠٠٠	١٠٧،٠٠٠

٦ ـ التبغ

نشأت صناعة التبغ في هذه البلاد ابان الحرب العالمية الاولى ، اذ تأسس في اديس ابابا أول معمل لصنع السكاير سنة ١٩١٦ . واما زراعة هذا المحصول فترجع الى مئات السنين . ويرجح دخول زراعة تبغ السكاير الى مصوع في اريتريا بواسطة الاتراك عند احتلالهم لهذا الميناء في منتصف القرن السادس عشر . ويزرع كذلك صنف آخر من التبغ للتدخين بواسطة شيشة التدخين (النرغيلة او الارغيلة) وبعين الوقت لاستحضار النشوق (ويسمى البرنوطي بالعراق) وعلك التبغ (السويكة بالعراق) . اما هذا الصنف فالمظنون ان العرب ادخلوه وربما كان هو ما نسميه بالتبغ الهندي . وقد يكون مصدره الهند تجاريا . على كل فهو من الاصناف الرديئة .

لقد تمركزت زراعة التبغ عبر السنين في الجنوب في اقليم سيدامو . واهم منطقة تتعاطى زراعته هناك هي الاراضي المحيطة ببلدة شيشمانه على مقربة من بحيرة اواسا Awasa حيث تحتل زراعته مساحة تقدر بحوالي ٣٥٠ كيلومترا مربعا . وعدد المزارعين الذين يزاولون هذه المهنة يناهز ٥٠٠٠ مزارع او عائلة زراعية (٦) .

وعلى الرغم من توسع زراعة التبغ في البلاد ونمو صناعة السكاير فما زالت الحاجة تدعو لاستيراد حوالي ٢٠ بالمائة من السكاير المستهلكة سنويا . واكثر استيرادات البلاد من هذه المادة تأتي من تركيا واليونان . وكما هي الحال في معظم بلاد العالم فان تعاطي زراعة هذا المحصول تخضع لترخيص من هيئة انحصار التبغ الحكومية المؤسسة

---

٥ ـ الارقام من نشرات وزارة التجارة والصناعة واللجنة الاقتصادية التابعة للامم المتحدة .

6 — Agriculture in Ethiopia, FAO Bulletin, 1961 — page 269.



سنة ١٩٤٢ . فهي التي تحتكر شراء وبيع التبغ وتصنيفه وتسويقه واستيراده وتصديره .

٧ ـ المحاصيل المنبهة ـ البن والقات والشاي

البن ـ الاسم العلمي Coffea arabica

البن أو القهوة ـ ويسميها الاحباش « بونا » تتصدر اليوم قائمة الصادرات في الاقتصاد الاثيوبي . وكانت الاولية للجلود بالامس . وكان يظن حتى فترة متأخرة بأن الموطن الاصلي للبن هو اليمن . الا ان الدراسات المركزة والمسح العلمي الحديث التي أجريت في مجاهل اثيوبيا بددت هذا الظن وأثبتت ان اثيوبيا وليس غيرها هو الموطن الاصلي للبن . فبعد الحرب العالمية الثانية قامت منظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة ومؤسسات علمية اخرى باجراء دراسات واختبارات موضعية مطولة في كافة مناطق انتشار البن حتى في ما يسمى بالغابات المطرية واحراج البن في هضبة اثيوبيا . واستنتاجا من تلك البحوث والدراسات استبعدت كليا فكرة كون اليمن الموطن الاصلي للبن (٧) . وقبل هذا ـ في العشرينات من هذا القرن ـ كان العالم الروسي المشهور فافيلوف Vavilov قد جاء بنظريته المعروفة ـ بعد أسفاره الطويلة لكثير من بلاد العالم القديم بحثا عن اصل المحاصيل الزراعية ـ حول كون الحبشة الوطن الاصلي للبن وعدد آخر من المحاصيل الزراعية التي لا يتسع المجال للافاضة بها هنا .

اما سبب تسميتها علميا بالقهوة العربية ـ كما يستدل من اسمها العلمي ـ منذ فترة خلت فيرجع الى ان أول عينة من هذا النبات ارسلت الى اوروبا للتشخيص جاءت من اليمن ، ولهذا لازمها هذا الاسم الى اليوم . وتشير معظم التخمينات الآن الى ان العرب ادخلوا بذرة البن لاول مرة من اقليم هرار الشرقي ـ وهو اقرب منطقة للبحر الاحمر يكثر فيها البن ـ في حوالي القرن الثالث عشر الميلادي . اما دخول البن الى سيلان وجاوا والعالم الجديد فكان في حلول القرن السابع عشر عن طريق التجار الهولنديين . وكلمة القهوة او Coffee المستعملة في كافة اللغات فتعكس اسم اكبر الاقاليم الحبشية المشهورة بانتاج القهوة وهو اقليم كافا Kafa .

تنتشر شجرة البن في اثيوبيا انتشارا طبيعيا واسعا ، في الغابات المطرية في الجنوب والجنوب الغربي وفي الهضبة الشرقية في هرار وجزء من اقليم شوا . كما تتواجد نامية بشكل بري حتى في الجزر

---

7 — F. A. O. Coffee Survey Bulletin, 1964 — 65.



الواقعة وسط بحيرة تانا في الشمال الغربي من البلاد . ان اجـــود اصناف البن تنتج في المرتفعات التي تتراوح بين ١٦٠٠ ـ ٢٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر ، حيث المناخ المعتدل على مدار السنة وحيث تتراوح درجة الحرارة بين ١٧ ـ ٢٠ درجة مئوية . فمن المعلـــوم ان المناطق التي تهبط فيها درجـــــة الحرارة الى حد الانجماد لا تصـلح لزراعة البن .

وبالنظر لملاءمة مناخ الحبشة لتكاثر شجرة البن وتوفر الامطار الغزيرة فوق هضبتها فقد اخذ الاحباش ، حكومة وشعبا ، يولون زراعة هـذا المحصول الثمين عناية فائقة . وقد شكلت هيئة حكومية ذات صلاحيات واسعة انيط بها تشجيع زراعة البن وتنظيم تجارته الداخلية من حيث تحديد مواصفات ثابتة لتنقيته من الشوائب وتصنيفه حسب مقـاييس معينة من الجودة مما يلائم متطلبات الاسواق التجارية العالمية قبل الاذن بتصديره الى الخارج .

لقد قفز الانتاج في السنوات الاخيرة الى حد جعل من اثيوبيـا القطر الثالث في افريقيا في هذا المضمار بعد يوغندا وساحل العاج . وقد يبدو غريبا ان تحتل اثيوبيا المرتبة الثالثة في القارة وهي مصـدر البن . والسبب واضح والفضل في تفوق يوغندا وساحل العاج عليها يعود للاوروبيين المستعمرين الذين عنوا بتوسيع زراعة هذا المحصول. وقد وصلت صادرات البن من اثيوبيا ٧٠،٨٦٠ طن في سنـــة ١٩٧٠ جلبت للبلاد عملة صعبة بلغت ٧٢،٥٠٧،٠٠٠ دولار امريكي ، بينمـــا اقصى ما بلغه الانتاج قبل عشرين عاما كان ٣٦،٢١٩ طنا . وبهذه القفزة اصبحت الصادرات من البن تشكل ٥٥ ـ ٦٠ بالمائة من مجموع صادرات البلاد . وما زال هناك طلب متزايد عـــلى البن الحبشي ، شأنه بذلك شأن البن اليماني ، لخصائصه الفريدة . فهو يستعمل للمزج بنسب قليلة باصناف اخرى من البن فيزيد من جـــودة تلك الاصناف فـي الصنـــاعة .

جدول يمثل صادرات البن للسنوات ١٩٦٨ ـ ٧٠ وقيمتها (٨)

السنة	الكمية بالطن المتري	القيمة بالدولار الامريكي
١٩٦٨	٨٠،٩٥٠	٦١،٧٠٠،٠٠٠
١٩٦٩	٨٨،٥٣٠	٧٠،٧٠٠،٠٠٠
١٩٧٠	٧٠،٨٦٠	٧٢،٥٠٧،٠٠٠

وتمثل هذه الارقام تحسنا ملموسا في تجارة اثيوبيا الخارجيـة

8 — UN Economic Commission for Africa annual Reports, 1968 — 70.



بالمقارنة مع مجموع الصادرات العالمية من البن . فقد قفزت نسبتها من ١،٤ بالمائة سنة ١٩٥١ الى ٢،١ بالمائة سنة ١٩٦١ أي في مدى عشر سنوات . واستمرت في التحسن حتى بلغت ٣،١ بالمائة سنة ١٩٦٥ . وما زال حجم الصادرات بازدياد مضطرد (★) .

لقد عاش الاحباش عصوراً متباعدة مع شجرة البن منذ كانت نباتا بريا في الغابات المطرية في مجاهل البلاد . وهم الذين أولوها عنايتهم وغرسوها غرسا وسبروا أسرارها وألفوا منافعها بعد أن أخرجوها الى عالم الزراعة . وبدأوا يكتشفون منافعها تدريجا عن طريق الصدفة والتجربة حتى غدوا يشربونها ويأكلونها بشتى الاساليب وكل جزء منها تقريبا ما عدا الساق والجذور . وعلى مر الايام نشأ نوع من الارتباط المتين الوثيق بين الحبشي وهذه الشجرة المباركة ــ ارتباط قد لا يختلف بشيء عن تعلق سكان جنوب العراق بالنخلة او البدوي ببعيره في الصحراء .

لقد اتخذ الاحباش من البن مأكلا مثلما اتخذوا منه مشربا . فهم يأكلون لبابة الثمرة مقشرة وغير مقشرة ، ويأكلونها مسحوقة مشبعة بالزبدة على شكل فطائر احيانا . وأحيانا يؤكل الحب الاخضر محمصا مع الزبدة والملح ، ولهم بذلك مهارة خاصة . ومن الالوان الاخرى التي يتذوقون بها هي طهي الاوراق الطرية مع الثمار قبل انتزاع قشرتها . وقد يستعيضون أحيانا بقشور حبة البن عن الخضروات الحقلية ، تطبخ مع اللحم أو بدونه كوجبة طعام لذيذة .

القات ــ Khat (الاسم العلمي Catha edulis)

عرف عن أهل الجنوب العربي وسكان الهضبة الشرقية في الحبشة والصومال وبعض أجزاء كينيا الشرقية انهم يتناولون عن طريق المضغ والتخزين في الفم اوراق شجرة تحتوي على مادة مخدرة ذات تأثير خاص على حواسهم . هذه هي شجرة القات التي عنى سكان هذه الاصقاع بتكثيرها منذ أمد بعيد غير معروف على وجه التحديد .

اما عن الموطن الاصلي لهذه الشجرة وكيفية انتشارها في هذه البقاع فيرجح العالم الروسي فافيلوف أن تكون الحبشة هي المنشأ الاول لها . وان زراعتها ــ حسب نظريته ــ دخلت الى اليمن منها ، وأغلب الاحتمال من منطقة اقليم هرار التي ما زالت تعنى بتربيتها على مقياس واسع . وكما ذكرنا في موضوع البن فالعالم فافيلوف نشر ابحاثا اصيلة في العشرينات من هذا القرن حول مناطق انتشار نباتات المحاصيل في العالم ومواطنها الاصلية .

★ — Marketing of Ethiopian Coffee, F. A. O. Bulletin No. 2716.



ولا يقتصر تواجد هذه الشجرة الآن على الحبشة واليمن وانما انتشرت على طول الساحل الافريقي الشرقي حتى اقصى الجنوب ، ولكنها هناك غير مستثمرة كنبات له اهمية اقتصادية . اما انتشارها في اقليم هرار الجبلي فآخذ بالتوسع نتيجة زيادة الطلب على القات في المناطق المجاورة . وقد شاهدت المزارعين يعنون بتربيتها على مدرجات على سفوح الجبال الممتدة على طول الطريق ما بين هرار وديره داوه على ارتفاع ١٤٠٠ ــ ١٩٠٠ متر عن سطح البحر . اما متوسط ارتفاع الشجرة فيبلغ ٤ ــ ٦ امتار .

الظاهر ان المادة المخدرة في هذا النبات تتمركز في الفروع الطرية والاوراق الحديثة النمو . ولذلك لا تقتطف سوى هذه الاجزاء من الشجرة لغرض التسويق ، وهذا هو ما يفضل المستهلك المدمن ، فتعقد باقات صغيرة تغلف بالاعشاب والحشائش او الاكياس ثم تندى بالماء لتحافظ على طراوتها . وتشحن الى الاسواق في الصباح الباكر او آخر الليل تلافيا لجفافها وذبولها . فاذا ذبلت صد عنها المستهلك .

للقات تأثير غريب على الحواس والاعصاب . فهو كالحشيشة يأنس المدمن عليه انتعاشا وشعورا بالمرح بصورة وقتية حتى يجود في تناوله وينشد المزيد منه ساعات طويلة . وعندئذ يدب الخدر في اطراف جسمه ومفاصله كما يفعل الافيون . وبعد ذلك يحس الانسان بارتخاء كلي في جسمه وخمول عام في الحركة والتفكير . ومن خواصه ايضا انه يفقد الشهية للطعام ويسبب عطشا حادا . والحالة الاخيرة ــ اي العطش ــ ربما تفسر ما يدعو الى الاكثار من أباريق الماء حول موائد القات في مجالس المدمنين عليه . فللقات مجالس خاصة يجتمع فيها الاصدقاء والخلان عادة في ساعات معينة بعد الظهيرة او في المساء . لقد وصف هذه المجالس في اليمن بصورة مفصلة وبشكل رائع جذاب الكاتب والفيلسوف اللبناني المرحوم امين الريحاني (★★) في الفصل الخاص باليمن من كتابه « ملوك العرب ــ الجزء الاول » .

لقد أظهر التحليل الكيميائي ان خصائص القات التي اشرنا اليها تنتج عن وجود ثلاثة أنواع من القلويات ــ هي الكاثين Cathine والكاثنين Cathinine والكاثدين Cathidine . وهذه مجتمعة تؤثر اما على العضلات او على الدماغ والعمود الفقري ومراكز الحس الخارجية .

اما طريقة استعمال القات الاعتيادية فهي بتناول الاوراق والاغصان الطرية عن طريق الفم . فيأخذ المرء اكبر كمية (لقمة) يمكن لفمه

(★★) ملوك العرب ، بقلم امين الريحاني ــ الجزء الاول (الطبعة الثالثة) ، صحيفة ١٠٢ ــ ١٠٣ .

استيعابها ثم يشرع بمضغها وابتلاع عصارتها . وكلما نقص حجم اللقمة في فمه زاده قاتا حتى يمتلىء الفم وينتفخ وكأنه قد تورم . وبين حين وآخر يلفظ فضلات الاوراق في وعاء خاص وضع امام كل من الجالسين. وتعاد العملية باستمرار وتسمى طريقة حشو الفم على هـذا النحو بـ « التخزينة » ، وهكذا دواليك ما دام المجلس عامرا بالمدمنين . وقال شاعرهم في وصف القات ما يلي :

زمردا يقطف الاصحـاب أم قاتا   يصفو به العيش احيانا واوقاتا
يا عاذلي عن حصول القات مت كمدا   لا نترك القات احياء وأمواتا

اما في الحبشة فيقتصر تعاطي القات على المسلمين (رجـالا ونساء) دون الاقباط . وتنتشر هذه العادة بين الصوماليين في جيبوتي وقبائل عفر وقسم من سكان كينيا . وفي عدن شاهدت بعض اربـاب المتاجر والحوانيت يتناولونه حتى خلال اوقات العمل ، اذ جلب نظري انتفاخ الفم عند بعضهم من اثر « التخزينة » .

غير ان للقات استعمالات اخرى عدا ما شرحنا فيما سبق . ففي بعض انحاء جنوبي افريقيـا تقوم بعض القبائل بتنقيع أوراقـه بالماء الساخن لتشربه بديلا عن الشاي . ومن هنا جـاءت تسميته قديما بـ « شاي الحبشة » . ويأكل بعض الاحباش أوراق القات ممزوجة مع العسل . كما ان بعض الاعراب كانوا يجففون اوراقه لاستعمالها فـي التدخين . ولعل ذلك كان قبل شيوع مادة التبغ .

لا بد الآن من كلمة عن اقتصاديات هذا المحصول بعد النظرة العابرة التي القيناها عن زراعته وكيفية تعاطيه ومجالسه .

لقد كانت طرق المواصلات فيما مضى وما يصاحب سفر القوافل من مخاطر وعقبات من معوقات زراعة القات في محلات نائية عن مراكز استهلاكه خاصة من ناحية تعرض هذه البضاعـة للتلف بتأثير حرارة الشمس . ولذلك كانت زراعة القات والاتجار به مقتصرة عـلى المناطق القريبة من المدن . غير ان اتساع نطاق الطيران التجاري مؤخرا ذلـل هذه العقبة وقضى على هذا الحاجز عن طريق شحن القات بالطائرة من مسافات بعيدة جدا عن مراكز الاستهلاك . ليس ذلك فحسب ، بل كان هذا الفتح التجاري اشارة تشجيع للتوسع بزراعته ايضا . وأول طائرة حملت هذا المحصول من الحبشة الى عدن كان في سنة ١٩٤٢ . ويقال ان شحنتها نفدت في الحال ، الامر الذي مهد الطريق للمتاجرة بالقات الحبشي بصورة منتظمة على الرغم من تكاليف الشحن بهذه الواسطة . ومن هنا كانت البداية لدخول عنوان جديد في قائمة الصادرات الحبشية ـ أو بكلمة اخرى التوسع بالاتجار بهذه المادة السامة . واليوم وبعـد مرور اكثر من ثلاثين عاما على رحلة أول طائرة حملت القات الى عدن ، تقلع طائرة من شركة الخطوط الجوية الاثيوبية في الساعة السابعة مـن



صباح كل يوم بشحنتها التقليدية من القات قاصدة جيبوتي وعدن ، وتشير سجلات الكمارك الاثيوبية الى ان صادراتها من هذه المادة سنة ١٩٥٥ – ٥٦ بلغت ١،٤٨٥،٨٢١ كيلوغراما بقيمة ٦،٤٢٢،٢٥٤ دولارا اثيوبيا ، منها ١،١٥٠،٢٣٠ كيلوغراما الى عدن والباقي الى جيبوتي . ثم قفزت صادراتها سنة ١٩٧٠ الى ٦،٧٠٠،٠٠٠ كيلوغرام.

اصبح للقات في عدن سوق دائمة مزدهرة في الخمسينات والستينات . فقد أقبل التجار والكسبة والعمال على اقتناء هذه السلعة السامة بشراهة متناهية بسبب الرفاه الاقتصادي الذي كان ينعم به هذا الميناء الحر آنذاك . ولكن من الناحية الاجتماعية فقد كان ازدهار هذه التجارة بمثابة وباء أصاب المجتمع العدني وما جاوره . فان ابتلاء غالبية العمال والكسبة بعادة تناول القات جعلتهم يبخلون على عيالهم في المأكل والملبس في سبيل توفير النقود لشراء القات . عندئذ منعت حكومة عدن آنذاك (السلطات البريطانية) استيراده ثم تبعتها السلطات الفرنسية في جيبوتي باجراء مماثل . ولكن السلطات سرعان ما اكتشفت بأن هذا المنع قد شجع التهريب ، الامر الذي رفع سعر القات في السوق السوداء وحرم الحكومة من جباية رسوم الاستيراد ، فعادت حكومة عدن واطلقت استيراده مجددا . وتبعتها جيبوتي كذلك .

ان زيادة استهلاك القات في عدن وضواحيها لم يكن حافزا لازدهار زراعة هذا المحصول في أثيوبيا فحسب ، بل أوجدت هذه الحركة صناعة جديدة في المدن وشغلت الايدي العاملة فيها ، وخاصة النساء . فبعد نقل المحصول عصرا من المزارع الى بلدة ديره داوه الحبشية ، يشرع مئات من النساء والبنات الصغيرات في مراكز تجميع القات بعملية فرز وتصنيف الاغصان والاوراق حسب جودتها ، ثم تعبئتها في اكياس صغيرة مصنوعة من خيوط الجوت . وتستمر هذه العملية حتى الفجر أحيانا . وفي الصباح الباكر ينقلها العمال الى الشاحنات بغية ايصالها الى مطار ديره داوه لتنقلها أول طائرة اثيوبية متجهة شرقا. وفي جيبوتي يستقبل الطائرة عمال التفريغ بأغاني وأهازيج خاصة بوصول مادة القات والترحيب بها ، بينما المسافر في هذه الرحلة يتلظى بحرارة جيبوتي التي تعتبر جهنم الارض ريثما يتم تفريغ حصة هذه المدينة من مشحونات الطائرة .

الشاي

من المحاصيل المنبهة الاخرى التي ثبت نجاح زراعتها في اثيوبيا هو الشاي ، الا انه حاليا لا يعتبر من المحاصيل الاقتصادية على نطاق يذكر . ولعل الحكومة لم تتخذ سياسة محددة واضحة بصدد تشجيع



زراعته بالنظر لانصرافها بكل طاقاتها لتنمية وتوسيع زراعة البن وتثبيت اسواق تجارته في العالم ، معتمدة بذلك على خبرتها الطويلة في هذا الميدان والسمعة الطيبة التي يتمتع بها البن الحبشي . ومن الناحية الثانية فان أقطار افريقيا الشرقية مثل يوغندا وكينيا وتانزانيا قد سبقتها في هذا المضمار واستحوذت على اسواقه .

ولكن اثيوبيا ، بالنظر لصلاح مناخها لهذا المحصول الثمين ، ماضية في تشجيع زراعته عن طريق ادخال راس المال الاجنبي على غرار سياستها مع الشركة الهولندية لانتاج السكر في وونجي . وفعلا تقدمت عدة شركات بعروضها في أواسط الستينات بطلبات الى الحكومة للحصول على امتيازات لزراعة الشاي . اما في الوقت الحاضر فتوجد عدة مزارع تعنى به على نطاق ضيق ، واكثرها منتشرة حوالي بلدة جيما قاعدة اقليم كافا . وهناك مزرعة واسعة اخرى في غوري في الجهة الغربية من البلاد .

٨ ـ التوابل والطيوب والادوية

اقترن اسم الحبشة منذ القدم بتجارة الطيوب والتوابل والبخور وغيرها من المواد التي تنتج من بعض الاشجار والاعشاب العطرية والحشائش . ولهذا فلا بد من كلمة عابرة حول هذه المواد التي ، على قلتها ، كانت وما زالت تلقى سوقا رائجة في الشرق والغرب على السواء . اما القسم الاعظم منها فيستهلك محليا وخاصة التوابل والحشائش العطرية .

ان بعض هذه النباتات ما زال يتكاثر بالطبيعة دونما رعاية ، في الغابات والوديان والسهول ، بينما دخل بعضها عالم الفلاحة عن طريق الانسان فصار يزرع في مساحات صغيرة حول البيوت او في مزارع خاصة كمحصول اضافي ثانوي .

اللبان والبخور ـ Incense

دخل اللبان في صناعة البخور منذ عهود سحيقة . وكان قدماء المصريين يستعملونه في معابدهم ويستخدمونه في تحنيط موتاهم . والبخور مادة معروفة في كافة انحاء العالم الآن .
والنسوة يستعملن اللبان لتطييب اجسامهن . والى يومنا هذا يستخدمه المسلمون في الصومال واثيوبيا لمعالجة الجروح في عملية الختان . اما شجر اللبان فينتشر في المناطق شبه الصحراوية في شرقي اثيوبيا وكذلك الصومال . وكلا القطرين ينتج هذا المحصول بوفرة ، الا ان الصومال يعتبر اكبر مصدر له ، اذ ان ٦٠ بالمائة من اللبان الذي



يدخل في التجارة العالمية منشاه الصومال . وهناك نوعان من الاشجار التي تنتج هذا المحصول هما ـ بحسب اسمائهما العلمية :

Boswellia freneana و Boswellis .

واللبان هو عصارة يحصل عليها بواسطة كشط لحاء الشجرة ثم شق الجذع بآلة خاصة حتى تسيل وتتجمد تدريجا وتتصلب وعندئذ تجمع . وتتكرر هذه العملية مرة كل ١٥ يوما خلال موسم جمع اللبان الذي يستمر ستة شهور عادة من أوائل الصيف حتى منتصف الشتاء . ثم يعقب جمع المحصول عملية فرزه وتصنيفه حسب جودته . وعصارة اللبان هي مادة راتنجية لا تذوب بالماء الساخن كصمغ الاشجار العادي.

ان الارقام الصحيحة عن مقدار ما يصدر من هذه المادة غير متوفرة ، ولكن التقديرات تشير الى ان الصادرات تتراوح بين ٧٥٠ ـ ١٠٠٠ طن في السنة .

المر أو المر المكاوي ـ Myrrh

المر أو علك المر او العلك المكاوي هو مادة صمغية تنتجها شجره تنمو في شرقي اثيوبيا وكذلك في الجنوب العربي ، تعرف علميا ب Commiphera myrrha . لقد دخل هذا الصمغ في كثير من الصناعات وخاصة صناعة الادوية في اوروبا . اما على الصعيد المحلي فيستعمل لمعالجة الكسور وكدواء للمعدة . ويدخل في صناعة الحبر ايضا . ويقال انه اذا أحرق داخل المنازل فله تأثير طارد للحشرات والثعابين .

الحشائش والاعشاب العطرية

تنمو في اثيوبيا بصورة طبيعية انواع كثيرة من الحشائش العطرية ذات الرائحة الزكية ومنها ما يستعمل لطرد الحشرات المنزلية . وتنتشر بوفرة وعلى مساحات واسعة في غربي اقليم شوا والاجزاء الغربية من اريتريا المحاددة للسودان .

ونظرا لكثرتها في غربي اريتريا فقد أقدمت على استثمار هذا المورد الطبيعي شركة اجنبية بموجب امتياز خاص وأسست لها مصنعا في بلدة تيسني Tessenei ، المجاورة للحدود السودانية ، لانتاج الطيوب وبعض الزيوت ذات الاهمية الطبية . غير ان الحشائش العطرية في هذه البلاد ما زالت تنتظر المزيد من الدراسات للكشف عن خصائص الكثير منها التي لم يتناولها البحث العلمي بعد .



الصمغ العربي Gum Arabic

ينتج الصمغ العربي هنا في اثيوبيا بوفرة وان كان السودان يعتبر اكبر مصدر لهذه المادة في العالم . فان ٨٠ بالمائة من تجارته العالمية منشأها السودان . ونظرا لاهمية هذه المادة من الناحيتين الطبية والصناعية فقد كان الطلب عليها متزايدا منذ القدم . ويجد الصمغ العربي الاثيوبي المنشأ طريقه عادة الى الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا .

ومع ان هناك عدة انواع من اشجار الاكاسيا Acacia تنتج الصمغ العربي بغزارة ، الا ان النوع الذي ينتج اكبر كمية منه واجود نوعية هو المعروف بالاسم العلمي Acacia abyssinica اما في السودان فان افخر اصناف هذه المادة فينتجها النوع المعروف علميا باسم Acacia senegal .

ان الصمغ عند نضوحه من شقوق الاشجار يكون اول الامر لزجا يميل لونه الى الصفرة او البياض . ثم يتصلب بعد تعرضه للهواء . وقد يصبح لونه مائلا للحمرة قليلا عند تجمده وذلك بسبب تأثره بمادة دباغية موجودة بنسبة بسيطة بقشرة الشجرة . والصمغ العربي قابل للذوبان بالماء .

الكوزو ـ Koso

أشرنا عند البحث عن عادة اكل اللحوم النيئة واصابة الاحباش بالدودة الشريطية نتيجة لذلك ، الى انهم يعالجونها باستعمال دواء الكوزو . والكوزو هو اشجار معروفة علميا باسم Hagenia abyssinica اما طريقة تحضير هذا العلاج فهي أولا تجفيف الاوراق تجفيفا تاما ثم سحنها وخزنها للاستعمال عند الحاجة . وطريقة ذلك هي اذابة مقدار معين من هذا المسحوق بالماء وشربه . واذا تجرع المصاب هذا العلاج فعليه ان يستريح استراحة تامة نظرا لمفعول الدواء القوي لانه ينهك الجسم ويضعفه لفترة ٢٤ ساعة على الاقل .

الزنجبيل ـ أو الجنجر Ginger

ينمو الزنجبيل (ويعرف بالعراق باسم عرق حار) بوفرة في المناطق الواقعة في الجنوب الغربي من بلدة جيما قاعدة اقليم كافا الشهيرة بانتاج البن ، وكذلك في المناطق المتاخمة لحدود السودان . ويستعمله الاهالي بكثرة ممزوجا مع الكاري عادة في الاكلة الشعبية المسماة « وات Wot » .



البهارات

الاحباش هم اكثر الشعوب التي تستعمل البهارات في الطعام . وهناك عشرات الانواع من النباتات التي يستفيدون منها بطريقة او اخرى ضمن وجباتهم الرئيسية لجعلها غنية بالنكهة الحادة .

الا ان اهم عناصر البهارات عندهم هو الفلفل الاحمر الذي يغلب على الظن ان البرتغاليين هم الذين ادخلوه الى هذه البلاد . وهنـــاك أنواع عدة من الفلفل الاحمر التي تدخل في مستحضرات البهـــارات . غير ان الاحباش يفضلون نوعين خاصين منها ، هما ـ حسب اسمائهما العلميـــة ـ Capsicum frutscens و Capsicum annuum ولعلهم في تناولهم مقادير كبيرة من البهارات وخاصة الفلفل الاحمـر أصبحوا في غنى عن البحث عن مصادر اخرى للحصول على حاجتهم من فيتامين C . فالفلفل الاحمر غني فيها .

٩ ـ عطر الزباد (المسك) ـ Civet

من موارد اثيوبيا النادرة الوجود في العالم هو الزبـــاد أو المسك الذي يدخل كعنصر مهم في صناعة العطور . ان هذه المادة تفرزها غدد خاصة تقع بالقرب من الاعضاء التناسليـــة للحيوان المعروف باســم قط الزباد Civet cat . الا ان هذا الحيوان ليس بالقط كما يوحي اسمه خطأ ولكنه شبيه به . ويتميز الزباد بلونه الاصفر الصافي بحالته الطبيعية الطرية ساعة استخراجه من الغدد . ولكنه سرعان ما يتغيـر الى اللون البني بعد أيام قليلة . اما رائحته بحالته الطبيعية فهي نتنـة جدا لكونه مركبا من مواد شحمية وزيوت متبخرة . الا انه بعد مزجـه وتخفيفه بمحاليل مختلفة تتحسن أرومتـــه وتكتسب رائحة المســـك المعروفة . ومن خواص الزباد ايضا انه يستعمل كمادة مثبتة في انتاج اصناف ممتازة من العطور . اما من حيث ملمس الزباد وتكوينه قبـل التصنيع فهو أقرب شبها بالزبد أو العسل .

يتواجد هذا الحيوان في مناطق متعددة في اثيوبيا وكذلك فـي أواسط آسيا بالاضافة الى نوع من الايل هناك ـ أي في أواسط آسيا ـ كذلك ينتج الزباد . اما قط الزباد الاثيوبي فيتراوح طول جسمه بيـن قدمين وثلاثة اقدام ولونه بني مائل الى الرمادي مع بقـــع وخطوط سوداء تغطي جسمه حتى ذيله . والزباد الذي ينتجه الذكر يفضل على ما تنتجه الانثى نظرا لجودته ووفرة كميته . ولذلك فيرجح الصيادون اقتناءه واطلاق سراح الاناث على الطبيعة في مواقع صيدها . وبعـــد الانتهاء من عملية الصيد توضع الذكور من الحيوان في اقفاص خاصـة وتغذى بطعام خاص مكون من دقيق الذرة وحبوب البن واللحم .



ويستخرج الزباد من الحيوان عند أسره مرة كل عشرة أيام بواسطة آلة شبيهة بالملعقة يغرف بها الزباد من داخل الكيس الذي يختزن فيه قبل ان يقذفه الحيوان تلقائيا الى خارج الجسم . وتتراوح الكمية المستخرجة بهذه الطريقة بين ١٠ ــ ١٥ غراما كل مرة .

تعتبر اثيوبيا من اكبر البلاد المصدرة لمادة الزباد ، اذ تبلغ صادراتها منها حوالي ٤٠ ــ ٦٠ الف اونس سنويا (الاونس هو حوالي ٢٩ غراما) . وتختلف المقادير المصدرة باختلاف المواسم وعدد الحيوانات المصطادة . والزباد يباع بمعيار الاونس منذ القديم بصورة تقليدية فرضتها الاسواق الخارجية . اما عن اسعار هذه المادة فلم استطع العثور الا على ارقام قديمة تشير الى انه كان قبل حوالي ١٥ عاما يساوي ١٢٠ جنيها انكليزيا للكيلوغرام الواحد .

١٠ ــ العسل كغذاء ودواء ومسكر

يشير عنوان هذه الفقرة الى تعدد حالات الاستفادة من العسل. وفي الحقيقة فان سكان الارياف في اثيوبيا يعنون عناية فائقة بتربية النحل . وهذا هو ما يفسر وفرة هذا المحصول عندهم والتي تدر عليهم مكسبا ثانويا لا بأس به . فاذا ما مر الانسان بين القرى والمزارع تجلت له هذه الحقيقة على الطبيعة . فتجتذب انتباهه كثرة السلال الاسطوانية الشكل متدلاة من على أغصان الشجر هنا وهناك . هذه هي خلايا النحل المصنوعة من عيدان الخيزران (البامبو) ومغلفة بمزيج من اوراق الانسيت المقطعة والتبن . اما طول الخلية الواحدة فحوالي المتر الواحد بصورة متوسطة ، وقطرها ٣٥ سنتمترا . وتستطيع العائلة الواحدة في الريف ان تعنى بخمس الى عشر خلايا من النحل عادة تعلقها على الاشجار القريبة من المنزل . ان اكثر الاقاليم اهتماما بتربية النحل هو اقليم واليغا Wollega والمناطق الجنوبية الغربية .

الا ان النحلة معرضة ، في اثيوبيا كما في سائر أنحاء العالم ، للاذى والفتك . فأعداؤها الطبيعية كثيرة ، أبرزها في اثيوبيا الطيور والنمل والحيوانات الاخرى . اما بالنسبة للطيور فسرعة طيران النحلة الاثيوبية هو سلاحها المضاد الذي يجنبها المهالك فتسلم من فتك هذه الآفة لدرجة ما . وهذه مزية في النحل المحلي غير متوفرة في انواع النحل الاوروبية . اما للتخلص من اذى النمل فيفرشون كمية من الرماد على الارض حول الشجرة المعلقة عليها الخلايا مباشرة فيتراجع النمل. واما لمنع فتك الحيوانات بها فصاحب الخلايا يقيم سياجا من الأغصان الشائكة حول جذوع الاشجار فتسلم الخلايا من شرها ــ والحاجة ام الاختراع .



تكاد تنفرد اثيوبيا عن غيرها من اقطار العالم بصنع نوع من النبيذ مصدره عسل النحل المخمر يدعى باللغة الامهارية « تيج Tej » . ربما يسمع الزائر الى اثيوبيا بهذه الكلمة وهذا النبيذ لاول مرة من المضيفة اذا كان مسافرا على الخطوط الجوية الاثيوبية ، فيرسم اول علامة استفهام عن هذه البلاد ـ نبيذ من العسل ؟ نعم وقد مارس الاحباش هذه الصناعة منذ اقدم عهودهم . ولا يأكلون اللحم النيء الا ومعه نبيذ التيج . وهذا دليل من ادلة وفرة العسل عندهم ، فكل الفائض مما يأكلون من العسل يحولونه الى نبيذ . ومن المنتجات الثانوية المرتبطة بصناعة العسل هو الشمع . فتصدر البلاد من هذه المادة حوالي ٤٠٠ ـ ٥٠٠ طن سنويا بقيمة اكثر من مليون دولار اثيوبي .

وتكاد تنفرد الحبشة ايضا بانتاج نوع آخر من العسل مصدره نحلة غير نحلة العسل المعروفة . فمن مزايا هذه النحلة انها لا تلدغ كنحلة العسل الاخرى . وانها تبني خلاياها في حفر صغيرة تحت سطح الارض ، تدخل اليها من فتحات شبيهة بالثقوب .

اما العسل الذي ينتج من هذا المصدر فيستعمل كدواء لمعالجة أمراض الجهاز التنفسي . ويستدل من تقارير غرفة التجارة في اديس ابابا ان البلاد تصدر من هذا العسل كمية تقدر بطنين اثنين سنويا يعنى بجمعها بطريقة خاصة بعض سكان الارياف الذين مارسوا هذه المهنة ـ او الهواية ـ سنين طويلة .



ب ــ الثروة الحيوانية

نظرة عامة

يعتبر الاحباش تربية الحيوان منذ زمن بعيد عنصرا أساسيا مكملا للزراعة التقليدية في انتاج المحاصيل الحقلية وغيرها . واما في المناطق التي تسودها العنعنات القبلية ، فالدوافع الاجتماعية والمعنوية الملازمة لتربية الحيوان لها أهمية بقدر ما للمكاسب المادية من مغريات لممارسة هذه المهنة . فامتلاك وحيازة اكبر عدد من قطعان البقر أو الاغنام اصبح في بيئة كهذه ــ اي المناطق القبلية ــ وكأنه عنوان الوجاهة بنظر افراد المجتمع . ولا تنفرد اثيوبيا وحدها في هذه الظاهرة . فانها تكاد تكون طابع كافة المجتمعات القبلية في كل مكان :

وبمرور الايام أصبحت الثروة الحيوانية بما فيها تربية الحيوان والصناعات الاخرى المنبثقة عنها من الموارد الرئيسية في الاقتصاد الاثيوبي . وقبل الاقدام على التوسع في زراعة البن وتجارته كانت تحتل الصدارة في المدخولات القومية . وما زالت الامكانيات في هذا الميدان واسعة ، وفوق حدود التصور ، لدرجة انها تستطيع استعادة مركزها والتفوق على المجالات الزراعية الاخرى بسبب ملائمة المناخ ووفرة المراعي الطبيعية .

ففي المرتفعات الوسطى حيث كمية الامطار تتراوح بين ٨٠٠ ــ ١٥٠٠ ملليمتر تغلب الحشائش الطويلة والاعشاب البقولية وما ينمو بجوار الغابات وتحتها من مختلف النباتات الموسمية .

ثم هناك الاراضي المكشوفة الواسعة الغنية بغطاء من الاشجار المتفرقة التي تشمل المنحدرات الجبلية المطلة على حدود السودان وكذلك المنحدرات الشرقية حيث تربو كمية الامطار السنوية على ١٧٠٠ ملليمتر . وهنا تنمو الحشائش البرية والاعشاب بكثافة مذهلة والى ارتفاع يقرب من ثمانية اقدام تقريبا بحيث تشكل حاجزا يصعب اختراقه ، الامر الذي يدفع بالاهالي أحيانا لحرق مساحات كبيرة منه لفتح المجال أمام البهائم للحركة والتنقل .

واخيرا نأتي على ذكر صنف آخر من مناطق الرعي المتسم بالطبيعة



الصحراوية وشبه الصحراوية . وتشمل الجزء الجنوبي الشرقي من البلاد وصحراء الدناقل الممتدة بحذاء البحر الاحمر والاجزاء الشرقية من اقليمي واللو Wollo وتيغره Tigre . فالامطار هنا شحيحة نسبيا تتراوح بين ٢٠٠ — ٣٠٠ ملليمتر . ولذلك فالارض هنا قفراء مجدبة تتخللها بقع متفرقة من المساحات ذات النبت الواطىء والشجيرات . وظروف الحياة هنا قاسية لا تحتمل . فلا يقوى على العيش في متاهاتها المهلكة غير البدو الرحل الذين يقطنون فيها فترات قصيرة في بعض مواسم السنة متنقلين بماشيتهم وأنعامهم من موقع لآخر بحثا وراء الكلا وموارد الماء .

ونظرة عابرة الى الجدول التالي الذي يبين تخمينا عدد الحيوانات حسب انواعها ، تكفي لاعطاء صورة واضحة عن جسامة هذه الثروة . وليس من الصعب مضاعفة هذا المورد الفني بتحسين وسائل التغذية ومكافحة الاوبئة وتسهيل عملية النقل من مراكز الانتاج ورفع مستوى صناعة اللحوم وتعليبها وشحنها وتحسين صناعة دباغة الجلود وغيرها من الامور التي يستلزمها تطوير هذا المجهود الاقتصادي بصورة عامة .

جدول تخميني بعدد الماشيـــة وغيرها

النوع	١٩٦٦/٦٧	١٩٦٧/٦٨	١٩٦٨/٦٩	١٩٦٩/٧٠
الابقار	٢٥ر٧٨٣ر٠٠٠	٢٥ر٩٦٠ر٠٠٠	٢٦ر١٠٨ر٠٠٠	٢٦ر٢٣١ر٠٠٠
الاغنام	١٢ر١٥١ر٠٠٠	١٢ر٣٣٠ر٠٠٠	١٢ر٥٠٩ر٠٠٠	١٢ر٦٧٩ر٠٠٠
الماعز	١١ر٠٩٦ر٠٠٠	١١ر١٥٢ر٠٠٠	١١ر٢٠٧ر٠٠٠	١١ر٢٦٢ر٠٠٠
الخنازير	١٢ر٦٠٠	١٣ر٠٠٠	١٤ر٥٠٠	١٥ر٠٠٠
الخيول	١ر٣٦١ر٠٠٠	١ر٣٧١ر٠٠٠	١ر٣٩٣ر٠٠٠	١ر٤٠٤ر٠٠٠
البغال	١ر٣٦٠ر٠٠٠	١ر٣٧٥ر٠٠٠	١ر٤٠٠ر٠٠٠	١ر٤١٢ر٠٠٠
الحمير	٣ر٧٩٠ر٠٠٠	٣ر٨٠٦ر٠٠٠	٣ر٨٣٧ر٠٠٠	٣ر٨٥٣ر٠٠٠
الجمال	٩٦٤ر٠٠٠	٩٦٩ر٠٠٠	٩٨١ر٠٠٠	٩٨٦ر٠٠٠
الدواجن	٤٤ر٥٠٠ر٠٠٠	٤٥ر٤٠٠ر٠٠٠	٤٧ر٢٠٠ر٠٠٠	٤٨ر١٠٠ر٠٠٠

في اثيوبيا اصناف عديدة ومختلفة من الابقار والاغنام والدواجن وغيرها . الا ان البحث في هذا تفصيـــلا يبعدنا عن اهداف هـــذا الكتاب . ولذلك فسوف نأتي على ذكر اهم الاصناف بايجاز تام .

الابقار

تستفيد اثيوبيا في الوقت الحاضر فائدة مزدوجـــة من الابقار



ـ أولا منتجاتها من الالبان واللحوم والجلود ، وثانيا ما توفره من طاقة لخدمة الارض في الحراثة والنقل وغيرها . وكانت الجلود مثلا حتى سنة ١٩٥٥ وحدها تحتل المرتبة الثانية في الصادرات بعد البن . ولكن منذ ذلك التاريخ قفزت ارقام صادرات اللحوم والحيوانات الحية ، ففتحت المجال نحو استثمارات أوسع في ميدان تربية الحيوان . وفي الزراعة التقليدية ما زال الاعتماد الاول في خدمة الارض على الطاقة الحيوانية لاسباب عديدة ، منها افتقار البلاد الى المال والايدي الفنية المدربة لشراء وصيانة الآلات الحديثة والعناية بها . فلا يبدو ، تحت الظروف الراهنة ، ان الزراعة ستتمكن من التخلي عن هذا المصدر المهم الممثل في العدد الهائل من ثيران الحراثة ، بالاضافة الى كونه قليل الكلفة . والاستعاضة عن الثيران بالجرارات ليس بالامر الهين كما يتراءى لاول وهلة . فالمساحة التي هي تحت الحراثة حاليا تناهز عشرة ملايين من الهكتارات ، تحتاج الى ما لا يقل عن ٢٥٠،٠٠٠ جرار بلوازمها المختلفة الباهظة التكاليف . في حين ان هناك حوالي خمسة ملايين من الثيران تقوم بعمليات الحراثة وغيرها ، موفرة للدولة عملتها الصعبة في الوقت الحاضر .

وبالنظر لعدم الاهتمام الكافي بالمحافظة على الصفات الوراثية الثابتة لمختلف سلالات البقر فقد اصبح من الصعب تحديد الميزات والصفات التي تعرف بها كل سلالة بصورة مستقلة . الا انه بالاستطاعة القول بأن هناك أربع مجموعات يمكن انطباق بعض الصفات المعينة العامة عليها وهي :

١ ــ ابقار الزيبو Zebu وهي صغيرة الحجم تمتاز بنتوء في صدرها (حدبة صدرية) . وهذا هو الصنف المنتشر في المرتفعات والهضبة الوسطى .

٢ ــ الابقار المعروفة باسم فيوغارا Fugara المنتشرة في منطقة غوندار وحول بحيرة تانا . ويتميز هذا الصنف بطول جسده واللغد البارز المتدلي تحت الرقبة ولغد آخر متدل من السرة .

٣ ــ الزيبو المنتشر في بورانة وهرار المتميز بقصر قرونه وحدبته الصدرية .

٤ ــ البقر الطويل القوائم ذو الحدبة الصدرية . ويمكن تمييز هذا الصنف بكل سهولة لقرونه الطويلة القائمة على شكل قيثارة .

أما صناعة الالبان فعلى الرغم من توفر كميات كبيرة من الحليب فما زالت في المهد ، نظرا لصعوبة نقل الحليب بحالة سليمة من مسافات بعيدة في الوقت الحاضر . غير ان صناعة تعليب اللحوم في الآونة الاخيرة قطعت أشواطا بعيدة في الانتاج والتصدير كما أسلفنا سابقا .



الاغنام والماعز

في اثيوبيا اربع سلالات متوطنة من الاغنام تتميز عن بعضهـــا بأشكالها والوانها الخارجية . يضاف الى ذلك صنف جديد ادخـــله الايطاليون من أوستراليا هو صنف المارينو . ولحم الغنم هو اللحـم المفضل للاستهلاك عند الطبقتين المتوسطـــة والفقيرة بسبب ارتفاع اسعار لحوم البقر . فما يرد الى المجازر للذبح حسب أقرب التخمينات هو حوالي مليون ونصف المليون الى مليونين من البقر يقابله ٨ ملاييـن راس من الغنم والماعز سنويا .

اما بالنسبة للماعز ــ فبعكس الاغنام ــ لا يوجد منه سوى صنف واحد ، وهذا يعيش في أقصى الشمال في المرتفعات الوعرة الجــرداء وكذلك في المناطق القاحـــلة . والماعز في اثيوبيا قصير الشعر أملس الجسم ، يجنى للحمه بصورة عامة .

فيما يلي أصناف الاغنام الاربعة :

١ ــ الاغنام الطويلة القوائم المنتشرة في الهضبة الوسطى والشمالية من البلاد . ويشمل هذا الصنف ذوات الالية السمينة وذوات الاليـة الرفيعة على السواء .

٢ ــ الاغنام الطويلة القوائم ذوات العرف واللغد المتدلي .

٣ ــ الاغنام ذوات الصوف الطويل السوداء اللون المعروفة باسـم (مونز Muns) المنتشرة شمالي اديس ابابا . وهذا هو الصنف الوحيد الذي تسمح فروته بالجز بصورة منتظمة .

٤ ــ الاغنام الصومالية المعروفة المتميزة بالراس الاسود والجسم الابيض . وهذه الاغنام منتشرة في منطقة واسعة تشمل صحراء الدناقل وهرار وصحراء اوغادين والصومال وبعض اجزاء كينيا . ومن خصائص الاغنام الصومالية انها تقاوم شحة الماء وتستطيع البقاء بدونه قرابـــة ثلاثة شهور عند توفر الغذاء الاخضر الطري لها(×) . اما في المواسم المجدبة الحارة فلا تصبر على العطش اكثر من ٣ ــ ٤ أيام .

الخيول والابل

اذا كانت اثيوبيا غنية بماشيتها فانها ليست كذلك بخيـــولها . فليس فيها الخيول الاصيلة للركوب من الاصناف المعروفة . فالخيـول هنا صغيرة الحجم تكاد تكون بحجم ما يدعى بخيـــول (سيسي) أو Pony . وهذا هو الصنف الوحيد الذي يستخدم للركوب والتنقـل وجر المركبات على السواء . وفي اديس ابابا مركبات صغيرة يجرهـا

(×) صوماليا : بقلم عبد المنعم عبد الحليم ــ صحيفة ٧٧ .



حصان واحد شبيهة لحد ما بمركبات السباق عند الرومانيين تستخدم للاجرة مثل سيارات التاكسي . انها معدة لركوب شخص واحد وليس للسائق مقعد خاص فيها وانما يجلس على حافة المركبة وساقاه متدليتان تسبحان في الفضاء .

اما الابل فموطنها الفيافي القاحلة وبخاصة صحراء الدناقل والقسم الجنوبي الشرقي حيث المرعى الشحيح الذي لا يصلح لاصناف الماشية الاخرى . ويحتفظ الدناقلة بالابل للاستفادة من لحمها ولبنها ولنقل الامتعة والاثقال .

الخنازير

ان الغالبية العظمى من السكان الاقباط لا يأكلون لحم الخنزير . وبهذا تتقارب عادات الاقباط من عادات المسلمين . لذلك فليس لتربية الخنازير شأن يذكر في الاقتصاد الزراعي . وانما يعنى بتربيتها على مقياس ضئيل لسد حاجة المستهلك الاجنبي في البلاد . وحسب أقرب التقديرات التي بين أيدينا فان عدد الخنازير الداجنة لا يتجاوز ١٥ الف رأس . وكان عددها لا يزيد عن ٦٠٠ رأس سنة ١٩٥٨ .

ويغلب على الظن ان الجالية اليونانية هي التي أدخلت صنفا معينا من الخنزير وصار يتكاثر محليا بعدئذ . ولندرة وجوده فان لحمه يسوم أسعارا عالية في اثيوبيا .

نظرة عامة الى المستقبل

من الامور المسلم بها ان الثروة الحيوانية تعتبر ركيزة من أهم ركائز الاقتصاد الوطني . وان تطوير تربية الحيوان ورفع مستواها أصبح موضع اهتمام الاهلين والحكومة على السواء . الا ان تشجيع الاستثمار في هذا المجال ما زال بحاجة الى دعم حكومي اكثر من ناحية مضاعفة الجهود في البحث العلمي المتواصل ومكافحة الاوبئة وتأسيس محطات جديدة لتكثير الاصناف المحسنة من الماشية علاوة على المحطة الرئيسية في (ديبره زيت) وكذلك رفع مستوى التعليم والتدريب في تربية الحيوان .

ومما يشكو منه المشتغلون بهذه المهنة ضآلة فرص التسليف ، ولذلك يقتضي فسح المجال أمام المنتجين للاقتراض من المؤسسات الحكومية بنسبة أرباح معتدلة . وهناك مجال واسع امام اثيوبيا لكي تصبح من دول العالم الرئيسية في انتاج وتصدير اللحوم نظرا للاعداد الهائلة التي لديها من الحيوانات . وثمة أمور أساسية اخرى تنتظر التحسين هي طرق المواصلات والاعتناء بمراكز تجمع الحيوانات لغرض التصدير او جلبها للمجازر .



ج ـ الثروة السمكية

الاسماك البحرية

لاثيوبيا في الوقت الحاضر ساحل على البحر الاحمر يمتد الى حوالي الف كيلومتر . ولكن هذا الساحل غير متساو في ثروته السمكية المكتنزة . فالاجزاء الجنوبية منه أغنى من الاجزاء الشمالية . ولذلك فالانتاج ضئيل نسبيا ـ يقدر بعشرين الى ثلاثين ألف طن من الاسماك سنويا . ومن المعلوم ان انتاج الساحل الاثيوبي يعادل ثلثي الى ثلاثةارباع الانتاج الكلي لكافة الاقطار الواقعة على شطري البحر الاحمر .

هناك أسباب عديدة لقلة الانتاج أهمها سببان : ـ الاول هو نقص الدراسات العلمية والافتقار للكفاءات الفنية . فما زالت بعض المعلومات الاساسية المهمة غير متوفرة للعاملين بهذه المهنة . فمثلا لا توجد معلومات كافية عن التغييرات الموسمية في كمية الاغذية المتوفرة في المياه السطحية . كما ان المعلومات عن حجم وكميات العوالق (الحيوانات والنباتات الدقيقة الطافية ـ Planktom) معدومة تقريبا . واما الدراسات الوافية المفيدة عن الاعماق فليست متيسرة مطلقا . واما السبب الثاني فيرجع الى الطرق البدائية المستعملة في صيد الاسماك . ثم ان هناك نقص بارز في توفر الايدي العاملة المدربة سواء كان في عمليات الصيد البحري او في العمليات التي تعقب الصيد اي خلال تجفيف حصيلة الصيد وكبسها واعدادها للتصدير .

فبالنظر لجهل القائمين باعداد الاسماك للتسويق فان كميات كبيرة منها تعرض للتلف اثناء تجفيفها تحت الشمس على السواحل الرملية . فالطيور والحشرات تستأثر بالنصيب الاوفر خلال عملية التجفيف المكشوفة ، بالاضافة الى ما يعلق بالاسماك من أتربة وأوساخ ضارة . والتعفن الذي يطرأ على المنتوج وهو بهذه الكيفية التي شرحناها يقلل كثيرا من وزنه وجودته . ولذلك فالقسم الاعظم منه ان لم يكن كله ، لا يباع الا في الاسواق الخارجية الرخيصة مثل الهند وسيلان (سيرينايكا) .



وبناء على غزارة الاسماك في منطقة ميناء عصب فقد بوشر مؤخرا بمشروع يستهدف مساعدة الصيادين حاليا عن طريق التسليف لتمكينهم من استبدال زوارقهم القديمة بزوارق حديثة بعضها من ذوات المحركات. فأصبح في عصب وحدها سنة ١٩٦٩ - وهي آخر زيارة لي لهذا الميناء - حوالي ٨٠ زورقا تسير بمحركات و ٨٠ سفينة شراعية (سمبوك) و ٢٠٠ زورق صغير من نوع المشحوف ، كما يسمى بجنوب العراق . وقد بلغ انتاج عصب وحدها في تلك السنة ٣٢٢٣ طنا من الاسماك بضمنه الساردين والكوسج (سمك القرش) . واغلب الساردين المجفف والكوسج (وهذا يجفف بعد التقطيع) يصدر الى سيلان .

وقد تجدر الاشارة الى ان ميناء مخا على ساحل اليمن يقع مقابل ميناء عصب ، وكان الصيادون اليمانيون يأتون من هناك ليصطادوا داخل المياه الاقليمية الاثيوبية . الا انهم منعوا مؤخرا لحصر هذه الثروة بالاثيوبيين .

اما الاصداف والقشريات بصورة عامة فلم يعد الصيادون يعيرونها اهتماما كبيرا لسببين : أولهما يرجع الى جودة الاصداف الناتجة من المحيط الهندي ، فلا مجال لاصداف البحر الاحمر على مزاحمتها في الاسواق العالمية . وثانيهما انتشار صناعة الازراء من المواد البلاستيكية الرخيصة ، الامر الذي أدى الى تقلص صناعة الازرار من القشريات البحرية . وفعلا فان ٦ - ٧ من مصانع الازرار توقفت عن العمل واغلقت ابوابها .

اسماك المياه العذبة

في اثيوبيا انهار كثيرة وبحيرات عديدة تقدر مساحتها الكلية بنحو ١١،٠٠٠ كيلومتر مربع . وهذا الحجم المائي يمثل موطنا خصبا لتنمية مورد من الموارد المهمة في انتاج الاسماك واضافة مصدر غني من مصادر البروتين الحيواني في غذاء الشعب . الا ان الاهالي في هذه البلاد الجبلية لا يتذوقون أكل لحوم الاسماك في الغالب ، الا من جاور منهم البحيرات والانهار الكبيرة وألفوا اصطيادها . فان الكثير من انتاج البحيرات يشحن الى المدن ولا يباع في اسواقها الا بأبخس الاثمان .

والمعلوم ان بحيرة تانا الواسعة وبعض بحيرات الوادي الشقي الواقعة في الجنوب والنيل الازرق ونهر عواش تمثل امكانيات لا تنضب فيما لو اقيمت حولها مشاريع لمصائد الاسماك بصورة مدروسة وثابتة .

وعلى سبيل المعلومات نذكر انه بينما تتبع ادارة مصائد الاسماك في البحر الاحمر قيادة البحرية الاثيوبية فان ما يتعلق بصيد الاسماك في المياه العذبة هو من اختصاص وزارة الزراعة .

ويمثل الجدول التالي الصادرات من المنتجات الحيوانية والسمكية خلال الاعوام ١٩٦٧ - ١٩٦٩ .



جدول بصادرات المنتجات الحيوانية والسمكية

النوع	١٩٦٧ الوزن بالطن	١٩٦٧ القيمة بالدولار الاثيوبي	١٩٦٨ الوزن بالطن	١٩٦٨ القيمة بالدولار الاثيوبي	١٩٦٩ الوزن بالطن	١٩٦٩ القيمة بالدولار الاثيوبي
حيوانات حية	٣،٠٩٧	٣،٢٨٠،٠٠٠	٣،٠٠٨	٢،٧١٦،٠٠٠	٣،٥٧٧	٣،٣٦١،٠٠٠
لحوم طرية ومجمدة	١،٦٧٣	١،٩٢٦،٠٠٠	٢،١٨١	٢،٤٠١،٠٠٠	١،٢٥٦	١،٢٧٤،٠٠٠
لحوم مصنعة	٣،٢٣٧	٤،٠٠٧،٠٠٠	٢،٤٥٥	٢،٩٩٤،٠٠٠	٢،٢٦٣	٣،٠٧١،٠٠٠
اسماك طرية ومكبوسة	٢،٧٧٩	٨٧١،٠٠٠	١،٣٤٣	٤١٧،٠٠٠	٢،١٤٩	٦٨٠،٠٠٠
اسماك معلبة	٧٣٣	٢٢٦،٠٠٠	١٠٤	٢٤،٠٠٠		
جلود (ابقار واغنام وماعز)	١٠،٩٥٧	٢٩،٨٣٦،٠٠٠	٨،٨٣٧	٢٤،٩١٦،٠٠٠	٢١،٢٤٨	٢٩،١٥٩،٠٠٠

د ـ الغابات

نظرة عامة عبر التاريخ

تشير دراسات التربة والمناخ والبيئة الى ان اثيوبيا كان فيها يوما ما ما يقرب من ٤٥،٠٠٠،٠٠٠ ـ ٥٠،٠٠٠،٠٠٠ هكتار من الاراضي المكسوة بالغابات ، أو ما يوازي حوالي ٤٢ ـ ٤٨ بالمائة من مساحتها العمومية . من هذه المساحة الهائلة لم يبق في الوقت الحاضر سوى حوالي ١٥ بالمائة او ٧،٥٠٠،٠٠٠ هكتار يمكن اعتبارها غابات . واما الباقي ـ اي ٨٥ بالمائة من الغابات الاصلية ـ فقد اندثر واختفى ـ وحتى هذه النسبة المتبقية الضئيلة فقد بدأت معاول الهدم والتقطيع تنفذ اليها بحيث يمكن القول بأن ما لا يزيد عن ٦،٣٤٠،٠٠٠ هكتار فقط يمكن اعتبارها غابات غير مستثمرة أي غابات بكر . وتوضيحا لهذه الصورة نورد الجدول التالي :

جدول بانواع ومساحات الغابات الطبيعية
غير المستثمرة حاليا (٩)

النوع	المساحة بالهكتار
١ ـ غابات مطرية من ذوات الورق العريض في الجنوب الغربي	٢،٥٠٠،٠٠٠
٢ ـ غابات بودوكاريوس Podocarpus المطرية في الغرب والحافة الغربية في المرتفعات الشرقية	١،٢٢٠،٠٠٠
٣ ـ غابات العرعر ـ Junipers ـ في الهضبة الوسطى	٤٠،٠٠٠
٤ ـ غابات مفتوحة في الاراضي الواطئة	٢،٦٠٠،٠٠٠

ان اثيوبيا لا تنفرد وحدها في هذه الظاهرة المخيفة ـ ظاهرة

---

9 — Agriculture in Ethiopia; F. A. O. Bulletin — 1961, page 396.

تناقص الغابات بشكل يدعو الى الذهول . ففي آسيا وأفريقيا امثلة كثيرة تشير الى نفس الحالة . فالانسان عبر الاجيال لعب دور البطل في مأساة القضاء على الغابات وتحويلها الى خراب . وليس ادل على سبق انتشارها وازدهار الارض بها من وجود بقاياها بشكل اشجار منفردة او على هيئة مجموعات صغيرة محدودة باقية الى اليوم حول المزارات والاديرة القديمة ، راسخة الاصول ، باسقة الفروع ، تحكي قسوة الانسان وكيف انه أطلق يد الاهمال ومعول التخريب فيها فصيرها أرضا لا تصلح الا للرعي . ولم تسلم من معول التخريب ايضا غير اشجار الكوزو Hagenia abyssinica التي يستخرج من اوراقها علاج للدودة الشريطية التي تصيب الانسان .

كانت غابات العرعر فيما مضى تغطي مساحات شاسعة حول اديس ابابا . ولكن عمليات التقطيع فيها بلغت حدا كان الناس سنة ١٨٩٠ على وشك ان يهجروا البلدة لولا حرص الامبراطور منليك وبمساعدة مهندس فرنسي عن طريق السفارة الفرنسية على استيراد كميات ضخمة من بذور شجر الكافور — يوكالبتوس — من اوستراليا. ولدى وصول البذور زرعت في مئات المستنبتات لتعميم زراعة هذه الاشجار ذات النمو السريع في المناطق التي جردت عن غطائها الشجري. وقد لا يكون من قبيل الخيال او المبالغة القول بأنه في خلال ثمانين سنة فقط من الزراعة المتواصلة لشجر الكافور وتكثيره قد اصبح الطابع المميز للريف في أواسط الهضبة وخاصة حول العاصمة . فحراجه طفت على كل شيء بعد ان ثبت بالتجربة امكان الاستفادة منه للزينة وللمنفعة .

مناطق الغابات الطبيعية

ان الغابات المطرية الكثيفة — او بكلمة اخرى الغابات الاستوائية — فمحصور انتشارها في الجنوب الغربي من البلاد وذلك بسبب برودة المناخ وقلة الامطار نسبيا في الهضبة الوسطى بالمقارنة مع الجنوب والجنوب الغربي .

ومن الطبيعي ان تكون لمناطق الغابات المختلفة الاخرى ميزات حسب طوبوغرافية الارض . فالسهول الرملية والاراضي المغطاة ببقايا الحمم البركانية التي تتكون منها صحراء الدناقل شحيحة الامطار لا يتعدى معدلها عشرة ملليمترات سنويا . وبالنظر للجفاف الذي يصيبها فهي قاحلة مجدبة غير صالحة للغابات ويتراوح ارتفاع أراضي هذه المنطقة بين مستوى سطح البحر وحوالي ١٠٠٠ متر فوقه . يلي هذا المستوى منطقة يصل ارتفاعها الى ١٦٠٠ متر فوق سطح البحر . وفي هذه المنطقة يتراوح معدل درجات الحرارة بين ٢٠ — ٢٨ درجة مئوية مع



رطوبة نسبية ٣٠ ـ ٦٠ بالمائة . اما معدل كميات المطر فيها فيتراوح بين ٢٠٠ ـ ٨٠٠ ملليمتر سنويا . وفي الغابات التي تنمو في هذه المنطقة تطغى الاشجار الشوكية وخاصة الاكاسيا والادغال على غيرها . وهناك بعض الحراج التي تعلو اشجارها وادغالها الى ارتفاع ٣ ـ ٥ امتار وتلتحم ببعضها لدرجة يتعذر اختراقها . وكثير من هذه المساحات الكثيفة بعد تقطيعها اصبحت ارض مرعى . ولذلك فليس لهذه المنطقة في الحقيقة أهمية اقتصادية من ناحية الثروة الحرجية عدا كونها أصبحت صالحة للرعي والاحتطاب جزئيا . ويدخل ضمن هذه المنطقة بداية اتصال وادي نهر عواش بحافة صحراء الدناقل وسهول اوغادين الواسعة وكذلك الاراضي الواطئة في اقليمي عروسي وسيدامو وجزء من المنحدرات الغربية باتجاه السودان .

غير ان اوسع مناطق الغابات كافة هي تلك المرتفعات الواقعة بين مستوى ١٦٠٠ ـ ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر . فهنا يميل المناخ نحو البرودة ويتلطف بشكل محسوس بحيث ينحصر معدل درجات الحرارة بين ١ ـ ٢٠ درجة مئوية على مدار السنة ، مع رطوبة نسبية تبلغ ٥٠ ـ ٦٠ بالمائة . اما امطارها فتصل الى ٧٠٠ ـ ١٤٠٠ ملليمتر سنويا. ومن الناحية الاقتصادية فهذه المنطقة والتي تليها في الارتفاع فيها من الغابات ما يسدي عليها الاهمية التي تستحقها . وأهم اشجارها هي بودوكاروس Podocarpus واكاسيا من نوع Acacia umbelliferous كما تنمو هنا بصورة ناجحة عدة انواع من الاشجار المستوردة من بيئات مشابهة مثل الكافور والسرو والاكاسيا والصنوبر .

واخيرا فهناك حزام الغابات الواقع على ارتفاع يزيد عن ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر . ففي داخل هذه المنطقة يتراوح معدل درجات الحرارة بين ١٠ ـ ١٦ درجة مئوية ـ اي مناخ بارد تماما ، تصحبه رطوبة نسبية لا تتجاوز ٦٠ ـ ٦٥ بالمائة ، بينما يسقط المطر بمعدل ١٠٠٠ ـ ١٧٠٠ ملليمتر سنويا واحيانا يتجاوز ٢٠٠٠ ملليمتر . وكما المحنا فيما سبق فتكثر هنا اشجار العرعر Juniperus procera التي تمتد منطقة تواجدها الى ارتفاع ٣٥٠٠ متر عن سطح البحر . كما ويكثر هنا الزيتون البري ـ Olea chrysophylla .

وعلى ارتفاع ٣٩٠٠ متر فوق سطح البحر تنتشر اشجار الكوزو التي اشرنا اليها سابقا والتي لها فائدة كعلاج للدودة الشريطية في الانسان .

وفي ختام هذا البحث لا بد من الاشارة الى خطورة الوضع الناجم عن استمرار التدهور في اقتصاديات الغابات . فما لم تتخذ الحكومة الاثيوبية تدابير أشد صرامة للمحافظة على البقية الباقية من هذه الثروة الطبيعية فان اثيوبيا ستفقد غاباتها بصورة كلية في مدى ٥٠ ـ ٦٠ عاما



حسب تقدير الخبراء (١٠) اذ يبدو وكان هناك تسابقا عكسيا بين حملة معاول التقطيع والتخريب الماضين نحو اهدافهم بسرعة متناهية وبين اجراءات الحكومة الناقصة الضعيفة في محاولة صيانة الغابات وحمايتها. فما من شك في ان تطبيق سياسة حكيمة لادارة الغابات واستثمارها بشكل اقتصادي على المدى البعيد يتطلب تعاونا وثيقا بين الدولة والفرد. ومما لا شك فيه ايضا هو ان تثقيف الفرد العادي لاهمية الغابات في حياة الامم هو العلاج الاساسي الناجح في النهاية ، ولكن على شرط ان تنقذ الدولة هذا الفرد الذي عاش على الاحتطاب أجيالا طويلة ، من الفاقة والحرمان اللذين دفعاه الى اتخاذ الغابات مصدرا للعيش ، وتوفر له مجالات اخرى تستهدف اعمار الارض وضمان معيشته معا .

10 — Agriculture in Ethiopia, F. A. O. Bulletin — 1961; pages 411 — 19.



٥ ــ الثروة المعدنية

التنقيب عن المعادن

عرف عن الحبشة منذ أقدم الازمنة ان باطن ارضها مملوء بالكنوز وفي مقدمتها الذهب . وفي فترة العشرين سنة المنصرمة وجهت الحكومة عناية خاصة لاجراء مسح شامل بغية التعرف على أمكانيات البلاد من هذه الناحية وتحديدها . وتصدر البلاد الملح منذ فترة طويلة وقد تصبح مصدرة للبوتاس والكبريت ايضا . وتشير تقارير المسح الاخيرة الى اكتشاف البلاتين او الذهب الابيض ، والحديد والمنغنيز والنحاس والرصاص . غير ان المرحلة التي تمت لحد الآن لم تصل لنتيجة يمكن معها الجزم بامكان استثمار كل هذه المعادن او بعضها بشكل تجاري .

الا ان أحدث التنقيبات في المناطق الشرقية من اريتريا قد اماطت اللثام عن وجود كميات تجارية من الالومنيوم والفوسفات في صحراء الدناقل بحذاء البحر الاحمر . فقررت الحكومة على اثر ذلك انشاء ميناء جديد (هو الميناء الثالث) بالقرب من مصادر هذه الثروة الجديدة في موقع يقال له « تيو Thio » وذلك لتسهيل عملية نقل المعادن بحرا مباشرة . واشارت المعلومات الى ان شركات امريكية سبق وقدمت عروضا الى الحكومة الاثيوبية لاحتكار معادن هذه المنطقة .

الذهب

اشتهرت الحبشة واريتريا بوجود الذهب فيها منذ القدم . ومارس سكان هذين البلدين عمليات استخراجه وفرزه من المواد الفرينية عن طريق غسلها . فكان قدماء المصريين يستوردون الذهب الحبشي لاغراض الزينة وغيرها .

ان أهم مواطنه التي عرفت من قديم الايام هو اقليم غوجام في الشمال الغربي ووواليفا في الغرب . وفي هذا الاقليم الاخير اشتهرت بلدة ليكمتي Lekemti بذهبها خلال القرن الحالي . وقد تصبح هذه البقعة في المستقبل محط آمال جسام ، لان نتائج المسح الاخير اشارت



الى احتمال ظهور المزيد من عروق الذهب في صخور الصوان او الكوارتس المدفونة تحت سطحها . والى جانب ذلك توجد مصادر اخرى في اقليم ايلو بابور في الجنوب الغربي .

كانت كميات الذهب المستخرجة في اثيوبيا لوقت قريب مجهولة تقريبا وموضع تكهنات وتقديرات متباينة وذلك بسبب النظام الاوتوقراطي السائد آنذاك واستبداد حكام الاقاليم النائية ، الامر الذي انعدمت معه السيطرة المركزية على الانتاج كما يرام . ومما زاد في البلبلة ما هو معروف عن عائدية ثلث الذهب المستخرج الى ملك الملوك ـ الامبراطور بصورة تقليدية . ولذلك فأطلق بعض الكتاب والسياح العنان لاقلامهم لتتخيل وتبتكر الارقام عن مقادير الانتاج كما تشاء وتشتهي .

فكتب جون غنثر (١١) مثلا ، بأن اثيوبيا تنتج مليونا واحدا من الاونسات من الذهب سنويا ، وراح على اساس ذلك يقدر دخل هايلا سلاسي . ان الكمية التي ذكرها هذا الكاتب ـ اذا اعتبرنا الاونس يساوي ٢٩ غراما تقريبا ـ تعني بالحساب المتري حوالي ٢٩،٠٠٠ كيلوغرام . في حين ان انتاج اثيوبيا ، استنادا لاوثق المصادر (١٢) سنة ١٩٧٠ لم يتجاوز ١،٢٢٣ كيلوغراما في سنة ١٩٦٩ او بتعبير آخر ٣٥،٤٦٧ اونسا . وهناك فرق عظيم بين هذا الرقم والمليون . وامثال جون غنثر كثيرون من السياح الامريكيين الذين يطوفون حول العالم في فترة اسابيع لا تتجاوز أصابع اليد ، ولما يعودون الى أوطانهم يكتبون المؤلفات الضخمة محشوة بالكثير من المعلومات المستقاة من السواق أو الادلاء الذين يرافقونهم في رحلاتهم الخاطفة .

ومن الناحية الثانية فان انتاج اثيوبيا من الذهب لا يقاس بما تنتجه غانا (ساحل الذهب قبل الاستقلال) مثلا ، التي تأتي في المرتبة الثانية في الانتاج بعد جنوب افريقيا . وللمقارنة ولتبيان الفرق الشاسع بين البلدين نورد الجدول التالي عن الانتاج خلال السنين ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ وهي أحدث احصائية وقفت عليها صادرة عن الهيئة الاقتصادية الافريقية التابعة للامم المتحدة ـ اديس ابابا سنة ١٩٧٠ .

11 — Inside Africa, by John Gunther, 1955 — page 265.
12 — UN Economic Commission for Africa Report, 1970.



جدول انتاج الذهب في اثيوبيا وغانا

القطر	١٩٦٧ الوزن بالكيلوغرام	١٩٦٨ الوزن بالكيلوغرام	١٩٦٩ الوزن بالكيلوغرام
اثيوبيا	٧٠٠	١،١٠٠	١،٢٢٣
غـانا	٢٣،٧٠٠	٢٣،٠٠٠	٢٢،٠٠٠

فلو ترجمنا هذه الارقام بحساب النسبة المئوية لوضح ان اثيوبيا لا تنتج من الذهب اكثر من حوالي ٥ بالمائة مما تنتج جمهورية غـانا . اذن فالشائعات عن امكانيات اثيوبيا في هذا المجال مبالغ فيها . وقـد يكون ان معينها اخذ ينضب في بعض مصادر التبر بعـد استنزاف متواصل دام عشرات القرون .



التجـــارة

نظرة عامة

كان لهذه البلاد في سالف ايامها تجارة مزدهرة مع الجنوب العربي والحجاز ومصر والهند واوروبا . فكانت القوافل تنقـــل بضائعها عبر مسلكين رئيسيين الى اوروبا : اولهما شمالا عن طريق مصر ، وثانيهما شرقا عن طريق الحجاز ومنها شمالا الـــى البحر الابيض المتوسط . واشتملت صادراتها آنذاك على التوابل والعاج والذهب والبخور وريش النعام وعطر الزباد والشمع وغيرها . ثم جـــاء فجر القرن الحالي فوجدت الحبشة متنفسا لها بعد مد الخط الحديدي بين جيبوتي فـــي خليج عدن واديس ابابا . واعتبر اقتحام الخط الحديدي ـ وكان عنوان المدنية الحديثة آنذاك ـ لمجاهل اثيوبيا فتحا موفقا للاحباش بعد عزلتهم الطويلة عن العالم .

وكان التبادل التجاري في الداخل يجري عن طريق المقايضـــة . وكثيرا ما كان الملح على شكل مكعبات ، خاصة في المنـــاطق الشرقية حيث يستخرج من البحيرات المالحة ، الوسيلة الوحيدة الدارجة فـــي المقايضة . وفي بداية القرن التاسع عشر دخـــل الريال النمساوي أو كما هو معروف في التعـــامل « ريال ماريا تيريزا » ـ امبراطورة النمسا ـ كنقد مفضل في معاملات البيع والشراء الى جانب عدد مـــن العملات الاجنبية الاخرى . ولكن سرعان ما اكتســـح ريال ماريا تيريزا ـ وهو فضي ـ بقية العملات وشاع استعماله الى وقت قريب ليس في اثيوبيا فحسب بل في اغلب انحاء شرقي افريقيا وعدن واليمن الشمالي وغيرهـــا .

غير ان طموح الامبراطور منليك الثاني دفعـــه الى المبادرة بسك عملة وطنية تحل محل العملات الاخرى المتداولة بين الناس . وفـــي سنة ١٨٩٧ أصدرت الحكومة اول عملة مستقلة بها عرفت بـ « ريـــال منليك » وقد سكت في باريس . الا انها اعتبارا من ١٩٠٣ باشرت بسك النقود في اديس ابابا . ولكن مع ذلك فقد ظل ريال ماريا تيريزا فـــي التداول ـ وكعملة مفضلة ـ حتى صدور الدولار الاثيوبي سنة ١٩٤٥ . عندئذ توقف التعامل رسميا بريال ماريا تيريزا .



١ ــ التجارة الخارجية

تبنت اثيوبيا في التجارة الخارجية سياسة الباب المفتوح بعد الحرب العالمية الثانية رغبة منها في تطوير زراعتها وتنشيط تجارتها بالسلع الزراعية وغيرها والعمل على تصنيع البلاد تدريجا . وعلى اثر ذلك نشطت البيوتات التجارية الاجنبية فوسعت من تعاملها مع التجار الاحباش عن طريق فتح وكالات لها في أديس أبابا والمدن الرئيسية الاخرى . وبدأت السلع الزراعية تشق طريقها الى الاسواق الاجنبية وهي تشمل بصورة رئيسية البن والجلود والقطن والحبوب والمحاصيل الزيتية والمنتجات الحيوانية والحيوانات الحية وجلود الحيوانات المتوحشة والسمن الحيواني واللحوم والمصارين والبيض والفواكه والقات والعسل والشمع وعطر الزباد (المسك) والاسماك والاصداف والنبيذ والتوابل .

وانحصرت استيراداتها في السيارات والمكائن والمواد المعدنية والاقمشة المحسنة واطارات السيارات والمنسوجات الحريرية والمنتجات النفطية والادوية والكحول والاصباغ والمواد الزجاجية والصابون والورق والمطبوعات . وبمرور الايام انخفضت الاستيرادات من المنسوجات ذات النوعية الواطئة بسبب قيام صناعات محلية سدت الاحتياجات لهذه الاصناف من السلع . وتزدهر حاليا صناعة المواد الغذائية وتعليب اللحوم والغزل والنسيج والسمنت والمطاط (في اريتريا) وصناعة السكاير وانتاج السكر على مقياس واسع .

مشاريع انمائية

لعل أبرز وأضخم المشاريع الاقتصادية التي قامت في البلاد بعد الحرب العالمية الثانية برأسمال أجنبي هو مشروع انتاج السكر من القصب في وونجي ــ ذلك المشروع الذي تطرقنا اليه باسهاب في البحث عن قصب السكر . ان الارباح التي تجنيها البلاد من هذا المشروع يجب أن لا ينظر اليها من الناحية المادية فقط ــ الانتاج الذي بلغ ١٠٧٠٠٠ طن من السكر سنة ١٩٧٠ ، او ما وفرته هذه الكمية من عملة صعبة . فهناك فائدة غير ملموسة كالمادة ــ فائدة ذات اثر بعيد في حياة الامم التي تتطلع للسير في ركاب مدنية العصر الحاضر . فالفائدة الاساسية هي فائدة انسانية بقدر ما هي مادية . فالمهارات والخبرة التي اكتسبها الاثيوبيون ، فنيون على مستوى عال وعمال مدربون ، مهارات زراعية وصناعية ، هي من الامور التي لا يمكن تثمينها بالارقام . فتوفر الايدي العاملة المدربة الوطنية في المستقبل لهو بحد ذاته مكسب ورأسمال وطني مهم على المدى البعيد .



وفي الستينات نشطت بصورة خاصة صناعة وتجارة اللحوم وتعليبها وتصديرها للخارج . وشاهدت البلاد عشرات المشاريع يقوم بعضها برأسمال وطني أو مشترك . ولكن أضخم مشاريع اللحوم هي تلك التي قامت برأسمال اسرائيلي .

فقد أسست شركة إسرائيلية مصنعين لتجميع العجول وذبحها وتبريد اللحوم وتعليبها وشحنها للخارج ـ معظمه يتجه الى اسرائيل . الاول أقيم في أسمره ويعتمد على الحيوانات التي تتجمع من الاقاليم التالية :ـ تيفره وبيغمدير ووالو وغوجام . والثاني في جيبوتي بالصومال الفرنسي ويشتري الحيوانات من هرار وسيدامو وبورانا وعروسي . وتشحن الحيوانات بالقطار من مركز تجميعها الرئيسي في ديره داوه . ويوجه النشاط التجاري الاسرائيلي اهتمامه لاستثمارات أوسع في مناطق اخرى من البلاد . وأهم هذه المناطق ـ عدا سواحل البحر الاحمر ـ في الوقت الحاضر هي بحيرة تانا وما جاورها من المراكز الفنية في الانتاج . وليس من الغريب ان يهتم الاسرائيليون بمنطقة بحيرة تانا . فقد سبقهم في الاهتمام بها الايطاليون عند احتلالهم للحبشة . وقد يتوخى الاسرائيليون من وراء ذلك بسط نفوذهم على البحيرة والسيطرة على مياه النيل الازرق فيهددون شريان الحياة بالنسبة لمصر والسودان .

اما حجم التبادل التجاري فقد تضاعف بشكل ملموس خلال ربع القرن الاخير . وعلى الرغم من رجحان كفة الواردات على الصادرات فان العملة الاثيوبية متينة ومستقرة . ولم تصب البلاد بضيق أو زنق مالي نتيجة المدفوعات للخارج لانها تدفع مما تصدر ، لا عن طريق القروض ، وتستفيد البلاد من الاستشارات والمساعدات الاجنبية بدون مقابل . وفي الوزارات ودواوين الدولة الاخرى يعمل المئات من المستشارين والاجرائيين ، ينتمون الى جنسيات مختلفة ، أقدمهم وأكثرهم تغلغلا في تشكيلات الدولة هم الاسكندنافيون ويليهم الامريكيون واليوغوسلافيون والسويسريون والاسرائيليون والالمان الغربيون .

دخل الفرد الاثيوبي

اما الدخل السنوي للفرد الاثيوبي فما زال منخفضا حتى بالمقارنة مع مستوى الدخل الافريقي حسب ما يتضح من الجدول التالي (١٣) :

هذه الارقام تعكس تحسنا في الدخل السنوي للفرد الواحد ولكن هذا التحسن بطيء جدا لا يتفق مع الامكانيات الهائلة في البلاد . وهي تعكس بجلاء على ان الفرد الاثيوبي ما زال يعيش بمستوى لا يتفق

13 — United Nations Annual Reports — 1964 — 72.

جدول يبين نفوس اثيوبيا والدخل السنوي للفرد الواحد[١٣]

السنة	النفوس	الدخل بالدولار الامريكي	مقارنة مع الدخل الفردي في الاقطار الافريقية الاخرى
١٩٦٤	٢٢،٢٠٠،٠٠٠	٥٠	من مجموع ٤٣ قطراً افريقيا ٢ فقط اقل من اثيوبيا و ٤ بمستواها
١٩٦٩	٢٣،٦٦٧،٠٠٠	٦٠	» » ٥٥ » » ٣ فقط اقل » » و ٤ »
١٩٧٢	٢٤،٦٢٥،٠٠٠	٨٠	» » ٥٤ » » ٤ فقط اقل » » و ٢ »

---

13. United Nations Annual Reports — 1964 — 72



وكرامة الانسان في العصر الحاضر .

٢ ـ المواصلات

الطرق العامة

لم يكن في اثيوبيا شبكة لطرق المواصلات بالمعنى العصري قبل احتلال الايطاليين لها عام ١٩٣٥ . ونظرا لوسعة البلاد ووعورة طبيعتها ـ جبالها ووهادها ـ ففي الغالب تفصل الامطار الغزيرة اقاليمها عن بعضها ، وكثيرا ما تنعزل مناطق بأكملها خلال موسم الامطار الرئيسي ، وقد تدوم هذه الحالة أسابيع وأحيانا اكثر . ولكن عندما غزا الايطاليون هذه البلاد سارعوا في تذليل عقبة الطرق واقاموا شبكة من احدث طرق المواصلات بين المدن الرئيسية التي اصبح بعضها صالحا للمرور على مدار السنة . ومن هنا كانت البداية لشبكة الطرق الموجودة حاليا . وتفخر اثيوبيا اليوم بوجود شبكة يقدر طولها بـ ٦٠٠٠ كيلومتر من الطرق التي ليست كلها معبدة تعبيدا كاملا الا انها تسمح بالمرور في معظم أوقات السنة .

اما الطرق في اريتريا فأقدم من طرق الحبشة واجود بسبب الوجود الايطالي وقدم مصالحهم التي استلزمت الاهتمام بصيانة الطرق . فاسمره ، وهي عاصمة الاقليم ، ترتبط بكافة مدنه ومراكزه الرئيسية الحيوية بطرق معبدة تعبيدا لا بأس به .

ولما كانت سياسة الحكومة تتجه شيئا فشيئا نحو الاعتماد على موانئها على البحر الاحمر وتقليل الاعتماد على جيبوتي فقد تم توصيل الطرق بين هذه الموانىء والعاصمة وبعض البلدان الاخرى .

السكك الحديدية

لا توجد في البلاد شبكة تذكر من خطوط السكك الحديدية ما خلا خطين اثنين . الاول منهما يربط اديس ابابا بميناء جيبوتي في الصومال الفرنسي وطوله ٧٨٤ كيلومترا . والثاني يقع في اريتريا ويربط ميناء مصوع ببلدة اغوردات بالقرب من الحدود السودانية مارا بأسمره وكرن. وتنظر الحكومة بربط هذا الخط بسكك حديد السودان التي تصل الى « كسله » الواقعة على الحدود . واذا ما تم ذلك فسيصبح بالامكان السفر من مصوع على البحر الاحمر أو اسمره فوق المرتفعات الى الخرطوم في السودان . ولكن هذا ينطوي على قطع مسافات طويلة جدا .

وقد المحنا بصورة عابرة في الفصول السابقة عن خط جيبوتي ـ



اديس ابابا والعقبات والمآزق التي مرت بها ادارة الشركة عند الشروع بمد الخط . فقد أعطي الامتياز للشركة الفرنسية سنة ١٨٩٤ ، الا ان الخط لم يصل اديس ابابا قبل سنة ١٩١٧ ، وتقــــول بعض المصادر سنة ١٩١٨ .

ان المقر الاداري لهذا المشروع هو في جيبوتي ، غير ان المعـامل وورش التصليح ففي مدينة دير داوه الاثيوبية . وهذه البلدة مدينــة لخط السكة الحديدية في نموها وازدهارها التجاري . وتقع على هذا الخط ٣٠ محطة ، الا ان أهمها خمسة هي جيبـــوتي وآيكا Aicha وديره داوه وعواش واديس ابابا .

ومنذ انشاء ميناء عصب الحديث بدأت مدخولات السكةالحديدية تتأثر تأثيرا سلبيا . ومعلوم ان أرباح الشركة صاحبة الامتياز لم تكـن مغرية أساسا ، الامر الذي اضطر ادارة الشركة لتخفيض رسومها على المنتجات الزراعية كمحاولة منها لمزاحمة النقل بالشاحنات التي تتجـه الى ميناء عصب . ومما لا شك فيه ان التوسع الجديد في هذا الميناء حسب خطة التنمية ، وانشاء الميناء الثالث في ثيو الذي هو على وشك الظهور الى حيز الوجود ، سيكون لهما تأثير أعمق على اقتصاديات خط السكة الحديدية الذي ظل طوال نصف قرن المنفذ الوحيد لامبراطورية هايلا سلاسي .

ولكن مع ذلك فلا يبدو ان ميناء جيبوتي العتيد ومشروع السكة الحديدية سيفقدان أهميتهما في المستقبل المنظور . ذلك لان اثيوبيـا الآن على أبواب نهضة اقتصادية وان تجارتها الخارجية آخذة بالنمـو وان ميناء جيبوتي هو أقرب من غيره بالنسبة لبعض المناطق الواقعـــة جنوبي العاصمة . ومهما يكن من أمر فان ميناء عصب نفسه قد يحتاج الى سنوات عديدة من أعمال التوسع والتعمير لاستكمال قابليــاته كميناء تجاري .

٣ ـ الموانيء

ان هضبة الحبشة منذ أن احتضنت مملكة اكسوم الجبلية فــي تاريخها السحيق بسكانها التيغريين والامهاريين ، كانت في شبه عزلـة عن العالم الخارجي ، وتحيط بها صحارى وأقوام لا تمت اليهم بصـلة وليس بينها وبينهم روابط عنصرية أو دينية . ولم يكن لها منفذ بحري الا عن طريق هذه الاقوام المسيطرة عــــلى السواحل . فكانت قوافلها التجارية تمر عبر مينائي زيلع وبربره في خليج عـــدن (في الصومال حاليا) كما كانت تمر بعض قوافلها من ميناء أدوليس الـــذي أسسه الاغريق ـ في خليج زولا جنوبي مصوع . فكلما فترت العلاقات بينها



وبين هذه الشعوب الساحلية او انهمكت معهم في حروب أو مخاصمات، قطع عنها الاتصال الخارجي وعزلت عن العالم . وكانت أحيانا تتغلب على هذه الشعوب حربيا فتسيطر على سواحل البحر فترة من الزمن .

الا ان اثيوبيا لم تصبح دولة بحرية بمعنى الكلمة الا في السنين الاخيرة بعد ان ضمت اليها اريتريا في بداية الخمسينات في هذا القرن وسيطرت على سواحلها . ولها من الموانيء حاليا مصوع في الشمال وعصب في الجنوب .

ميناء مصوع

مصوع هي من اشهر الموانيء على الساحل الغربي للبحر الاحمر واعرقها . له تاريخ حافل بالاحداث الجسام قديما وحديثا . فلقد نشأ وازدهر على أنقاض ميناء أدوليس Adulis المنقرض . اما البلدة فجميلة العمران ، ونفوسها حوالي ٢٠،٠٠٠ نسمة مكونين من مزيج من اريتريين وأحباش وعرب ويونانيين وايطاليين وأجناس عديدة اخرى . ومصوع هي ثاني مدينة في اريتريا بعد اسمره تضم عددا من الجوامع والكنائس ومحلات الراحة . وتعتبر منتجعا هادئا لسكان اسمره وغيرهم من الاجانب على الرغم من كونها من أشد البلاد حرارة صيفا . فيقصدها الاجانب للاستمتاع بشواطئها الرملية الصالحة للسباحة . وفيها فنادق ومطاعم سياحية عديدة .

وموقع الميناء طبيعي يوفر للسفن حماية من العواصف . وهو مجهز لاستقبال سفن الشحن والركاب الكبيرة وتقديم خدمات متنوعة لها . ومن اهم ميزات الميناء انه مكون من عدة جزر مرتبطة ببعضها بممرات أرضية وأمام الميناء ارخبيل مكون من ١٢٠ جزيرة مختلفة الاحجام تسمى جزر « دهلق » او « دهلك » يعيش اهلها على صيد الاسماك . والى الغرب من مصوع ــ على بعد ١١٥ كيلومترا ــ تقع مدينة اسمره شامخة فوق الهضبة على ارتفاع ٢١٠٠ متر من مستوى سطح البحر . وفي مدى ساعتين من الزمن بالسيارة يستطيع المرء الانتقال من الجحيم الى النعيم حيث لا يحتاج في اسمره الى مكيفات الهواء التي بدونها لا يطاق السكن في مصوع بالنسبة للاوروبي .

ويحصل سكان مصوع على معاشهم من أحد مصادر ثلاثة هي : العمل في الميناء بشتى المجالات أو صيد الاسماك أو احواض استخراج الملح من مياه البحر بطريقة التجفيف الاعتيادية بواسطة حرارة الشمس. وقد أنشيء مؤخرا معمل للسمنت .

وعلا نجم مصوع وزادت اهميتها في السنين الاخيرة بعد ان اصبحت القاعدة الرئيسية لاسطول الاثيوبي وأسست فيها كلية « البحرية » .



ومن الجدير بالملاحظة هو استئثار بعض الدول الاسكندنافية بالنشاطات العسكرية في هذه البلاد . فبينما يدرب المدرسون السويديون الشباب الاثيوبي في سلاح الطيران وكلية الطيران العسكريـــة في بشوفتـــو (ديبره زيت) يقوم مدرسون نرويجيون منتدبون من الاسطول الملكي النرويجي بتدريب ضباط البحرية للاسطول الاثيوبي في مصوع .

وقد عرف ميناء مصوع منذ عهد بطليموس ، الجغرافي الاغريقي الذائع الصيت . واكتشفه البحارة البرتغاليون سنة ١٥٢٠ ، اذ حطوا رحالهم فيه عدة سنوات أثناء مغامراتهم لفتح طريق الهند . ثم نزلت فيه بعد عشرين عاما ، أي في سنة ١٥٤١ ، قوة برتغالية مؤلفـــة من ٤٠٠ فارس جاءت لنجدة المسيحية في وجه الزحف الاسلامي بزعامة الامام احمد بن ابراهيم الاشول . وبعد ذلك دخله الاتراك العثمانيون محتلين سنة ١٥٥٧ . وظل في قبضتهم اكثر من ٣٠٠ سنة حتى استولى عليـــه الايطاليون سنة ١٨٨٥ فاستعمروه ، ومنه نفذوا الى داخل اريتريـــا محتليـــن .

ومن مصوع ايضا نفذ العديد من اشهر الرحالة والمغامرين الى مجاهل الحبشة أمثال جيمس بروس الاسكتلندي والمبشرين البرتغاليين وغيـــرهم .

ادوليس

لم يعد بعد ميناء باسم ادوليس بالوقت الحـــاضر . وانما نذكره بصورة عابرة من الناحية التاريخية فقط . فقد عرف ادوليس كميناء تجاري قبل ميلاد المسيح وبعده . ولما انقرض قام على أنقاضه ميـــناء مصوع الحالي . ومع الاسف فان عددا من الكتاب يشيرون اليه بصورة مبهمة وكأنه ما زال قائما . وكانت تجارة الحبشة على عهد امبراطورية اكسوم تمر من هذا الميناء .

وقد كشفت التنقيبات الآثارية مؤخرا في موقع هذا الميناء المندثر عن آثار ذات اهمية قصوى ترجع الى ما قبل المسيح . ويؤيد المطلعون ان الكتابات والنقوش التي عثر عليها في بقايا المعابد والكنائس في انقاض المدينة القديمة قد تكشف النقاب عن حقائق مهمة عن تاريخ هذه المنطقة وشعوبها الاولين .

وموقع أدوليس هو في خليج زولا ، حوالي ٣٠ كيلومترا جنوبي مصـــوع .

زولا ـ

زولا هي قرية صغيرة مهملة فيها مرسى للسفن المحلية ، وتقـــع على الساحل الغربي لخليج زولا جنوبي ميناء مصوع وتبعـــد حوالي



٤٥ كيلومترا عنه . ولم تستخدم زولا كميناء الا مرة واحدة عبر التاريخ الحديث . فقد انزلت فيها قوات الجنرال نابيير Napier الذي قاد الحملة العسكرية البريطانية « لتأديب الامبراطور ثيودور » عام ١٨٦٨ . وهذه الحملة هي التي خلدت اسم زولا في التاريخ الحربي.

ومع الاسف لاحظنا ان بعض الكتاب العرب التبس عليهم هذا الاسم وموقعه . فلم يفرقوا بينه وبين « زيلع » الذي هو ميناء صغير في خليج عدن ويتبع جمهورية الصومال . وربما نشأ الالتباس نتيجة تشابه الاسمين عند كتابتهما بالحروف اللاتينية .

وتعرف زولا في الوقت الحاضر بالنظر لقربها من سد انشىء مؤخرا للتحكم بمياه السيول المنحدرة من الهضبة وخزنها لاغراض الري وسمي الخزان الذي تتجمع فيه المياه بـ « خزان زولا Zula Dam » .

ميناء عصب

كانت عصب قرية ساحلية مجهولة ، كذلك فيها مرسى للسفن المحلية – مثل زولا – وتقع وسط أرض صخرية بركانية مجدبة لا نبت فيها ولا زرع . لكنها مثل مصوع في الشمال ، دخلت التاريخ لارتباط اسمها بالاستعمار الايطالي . ففي سنة ١٨٦٩ – وهي السنة التي افتتح فيها قناة السويس – كان قد نزل ساحلها قس ايطالي يدعى الاب سابيتو Sapeto واشترى هذا « الميناء » نيابة عن شركة روباتينو Rubatinno للملاحة والشحن الايطالية من زعيم المنطقة السلطان ابراهيم . وكانت هذه الصفقة بمثابة توطيد أقدام الاستعمار الايطالي في القسم الجنوبي من اريتريا . وأطلق على هذا السلطان فيما بعد لقب « بائع عصب » . وقصره الى الشمال من المدينة لا يزال قائما الى اليوم وقد تهدمت بعض أجزائه خلال الحرب العالمية الثانية .

والقادم الى عصب من ديره داوه بالطائرة لا يرى حولها سوى الصخور البركانية الجرداء القاتمة اللون الموحشة ، تتخللها بعض الكثبان الرملية التي ينبت فيها شجر الدوم . والى الجنوب منها يرى الانسان البحيرات المالحة التي ينتهي فيها نهر عواش ، الهابط اليها من ارتفاع ٧٠٠٠ قدم من قلب الهضبة الوسطى .

ان بلدة عصب هي حاضرة دنقاليا أو بلاد الدناقل . وغدت مؤخرا موضع اهتمام الحكومة لان هذا الميناء أقرب الى العاصمة والى قلب البلاد من ميناء مصوع . هذا أمر غير مختلف عليه ، ولكن قد يكون وراء هذا الاهتمام سبب ستراتيجي يوحي به . فربما تخشى اثيوبيا ان تفقد يوما ما سيطرتها على مصوع في حالة نجاح شعب اريتريا في استعادة سيادته على بلاده ، اما نتيجة تبدل في التيارات السياسية



العالمية ، أو نتيجة حدوث تطورات داخلية مفاجئة ، وهذا ما هو متوقع بعد وفاة هايلا سلاسي على كل حال (١٣) .

ويقع ميناء عصب في الطرف الاسفل من البحر الاحمر مقابل ميناء مخا اليماني . ومن عصب يستطيع المرء مشاهدة جبال اليمن وساحلها في الايام الصافية . ويمتاز هذا الساحل بامكانياته من ناحية الثروة السمكية .

وتجري أعمال التوسع في الميناء على قدم وساق ، وقد زيد عدد ارصفته في السنين الاخيرة . الا ان من أهم معالم الميناء حاليا هو مصفاة النفط التي أنشئت بمساعدة الاتحاد السوفياتي . وكان لهذا المشروع اثره في بعث الحياة الاقتصادية في هذه البقعة النائية المنعزلة. وقد عمل ابان انشاء المصفاة نحو ٥٠٠ روسي بين مهندسين وفنيين وعمال ماهرين . ولكن خلال زيارتي لعصب سنة ١٩٦٩ كان قد رحل عنها معظم الروس نظرا لانجازهم المشروع ، ولم يبق الا القليل منهم – حوالي ١٢٠ – لتشغيل المصفاة وصيانتها ، وهذا بالاضافة الى عدد آخر من الفنيين المنتمين الى جنسيات اخرى . ومنذ ذلك الحين بوشر بنقل البنزين ومشتقات النفط من عصب الى وسط البلاد بالشاحنات. وبالبواخر الى جيبوتي ومنها بالسكة الحديدية الى المناطق الواقعة على هذا الخط وكذلك اديس ابابا . كما وينقل بالبواخر الى ميناء مصوع ومنها بالقطار الى أسمره والمدن الاخرى .

ومن ناحية الحركة التجارية فقد أخذت الحياة تدب بالميناء من اوجه عديدة . فلأول مرة صدر من هذا الميناء محصول القطن المنتج في منطقة تنداهو Tendaho التي تروى من مشروع نهر عواش . كما نشطت حركة تصدير الاسماك وجراد البحر والكوسج وثعابين الماء والساردين. ويصدر من هذا الميناء الى اليابان حوالي ١٤٠٠٠٠ طن من الملح المستخرج من الممالح القريبة من الميناء سنويا .

اما نفوس عصب فكانت في سنة ١٩٦٩ حوالي ١٦٠٠٠٠ نسمة . وفيها جالية ايطالية كبيرة تعمل في الميناء وفي الفنادق والمطاعم ومحطات البنزين . وتتكون البلدة نفسها من شطرين منفصلين عن بعضهما . الاول ويدعى « عصب الصغيرة » وهو الشطر الذي يقطنه العرب والدناقلة ، وهو عبارة عن حي مكون من بيوت مبنية من الطوب (اللبن)ومطلية بالبياض من الخارج ، الا ان أزقتها ، على ضيقها ، مستقيمة ونظيفة المظهر . وأما الشطر الثاني من البلدة ويسمى «عصب». فهو عبارة عن الحي الذي يسكنه الاجانب ، ويمتاز بتنسيقه الجميل

١٣ – كتب هذا الفصل قبل الانقلاب العسكري الذي وقع في اثيوبيا في شباط ١٩٧٤ واطاح بعرش هايلا سلاسي .



وطراز عمارته الحديث والحدائق الواسعة الانيقة التي تحيط بالبيوت. والميناء والمصفاة يقعان في هذا الشطر كذلك .

وفي البلدة كنيستان ، الاولى للبعثة التبشيرية الايطالية ، والثانية للاقباط . ومن أبرز معالم عصب الصغيرة المسجد الصغير البسيط المظهر الذي يقع بطرف منها .

وتعتزم الحكومة ، كما أشرنا في البحث عن المعادن ، انشاء ميناء ثالث بين مصوع وعصب ، وذلك في بلدة « ثيو ــ Thio » بعد ان اكتشف الالومنيوم وترسبات الفوسفات على مقياس تجاري .

٤ ــ الطيران التجاري

في سنة ١٩٤٥ صدر مرسوم امبراطوري يقضي بتأسيس أول مصلحة للطيران التجاري عرفت باسم « شركة الخطوط الجوية الاثيوبية » . وعقد اتفاق بين الحكومة وشركة الطيران عبر العالم الامريكية Twa تعهدت بموجبه هذه الشركة برعاية المولود الجديد وتوجيهه ليخدم نفسه بنفسه بعد أن يقوى ساعده . واستمرت الخطوط الجوية الاثيوبية تعمل باشراف هذه الشركة العملاقة في عالم الطيران حتى صار فيها عدد كبير من الطيارين الاثيوبيين المتازين . وأول طائرة اثيوبية حلقت في سماء البلاد كانت من ذوات المحركين من نوع DC — 3 في سنة ١٩٤٦ . وما زال الى اليوم هذا الصنف من الطائرات يستخدم في الطيران المحلي وللمسافات القصيرة .

لقد ثبت في اثيوبيا كما في غيرها ان الطيران التجاري يستطيع في البلاد الجبلية الوعرة المترامية الاطراف أن يسدي خدمات جلى سواء لنقل المسافرين أو لنقل البضائع . والطيران الاثيوبي حقق هذا الفرض في مدى ٢٥ عاما ، أضحت البلاد خلال هذه الفترة مرتبطة بشبكة واسعة من المواصلات الجوية . حتى ان بعض الاماكن والقرى أو المراكز السياحية او الآثارية لم يكن فيها مطارات بالمعنى الصحيح وانما ساحات للهبوط بعضها معبد وبعضها عبارة عن ارض صلبة . ومن أغرب ما كنت أصادف أحيانا في أسفاري الداخلية في اثيوبيا الخراف والعجول مربوطة ربطا وثيقا على مقربة من مقاعد المسافرين . ففي حالة وجود قلة من الركاب في الرحلات الداخلية بين بلد وآخر كانت الشركة تسمح بنقل بعض البضائع ــ والحيوانات من ضمنها ــ لكي تستفيد من مساحة الطائرة الداخلية الفارغة . وكانت توفر هذه المساحة عن طريق قلع العدد المناسب من كراسي المسافرين الخالية بصورة مؤقتة .

ولما ترعرعت الخطوط الجوية الاثيوبية واكتسبت الخبرة الكافية في الطيران الداخلي اتجهت نحو الخارج . وأول رحلة لها كانت الى القاهرة . ثم وسعت نطاق عملها فشمل الخرطوم وعدن وتعز . وفي



هذه الاثناء كانت الشركة قد ضمت الى اسطولها التجاري في هذه الرحلات الطويلة طائرات من ذوات المحركات الاربعة من نوع DC — 6B وبعد ذلك بوينغ ٧٢٠ و ٧٠٧ . وصارت الخطوط الاثيوبية تصل الى اثينا ومدريد وفرانكفورت . وهي أول شركة للطيران اسست رحلات عبر القارة السوداء الى نايجيريا وغانا على الساحل الاطلنطي دون توقف . وكان المسافر من شرقي افريقيا الى غربها في اوائل الستينات يضطر لتجشم صعاب السفر الى أوروبا ، ومن هناك يستخدم احدى الشركات العاملة بين اوروبا وأفريقيا الغربية .

٥ ـ السياحة

ان الذي يجعل من شرقي افريقيا ـ وخاصة اقطارها الثلاث كينيا ويوغندا وتانزانيا ـ منطقة سياحية يؤمها السياح بالآلاف سنويا من مختلف انحاء العالم هو حيواناتها الوحشية وطيورها الغريبة وشلالاتها وبحيراتها وكذلك شعوبها البدائية . وما زالت هناك مناطق بكر لكثير من الرواد والمغامرين على الرغم مما كتب واكتشف من عجائب هذه القارة خلال القرنين الماضيين .

اما اثيوبيا فلا تفتقر للحيوانات الوحشية والثعابين الضخمة والطيور والبحيرات والشلالات وغيرها من عجائب الطبيعة . الا انها تتمتع بميزة سياحية نادرة تجتذب السائحين اليها بكثرة بالاضافة الى كل ما ذكرنا ـ تلك الميزة هي حضارتها وتراثها الثمين ، مما يجعلها تنفرد عن بقية شعوب القارة السوداء . ففي هذه البلاد تاريخ يرجع الى ثلاثة آلاف سنة تحكي قصصه للسائحين مسلات اكسوم ـ العاصمة المقدسة ـ وكنائس لاليبيلا البديعة الصنع المنحوتة كتلة واحدة من الصخور الصماء ، وقصور غوندار وقلاعها ، والاديرة المطلة على العالم من قمم المرتفعات الشامخة والتي يرجع تاريخ بعضها الى ١٥٠٠ سنة خلت ، هذه الصفحات التاريخية اللامعة تزيد من رصيد اثيوبيا كبلد سياحي جذاب .

اما الاثيوبيون انفسهم فقد برعوا حقا في تطوير صناعة السياحة لخدمة أهواء وميول السائحين بحيث أصبحت موردا متزايدا من الموارد الوطنية الثابتة ينتفع من ورائها عشرات الآلاف من السكان . وحتى القساوسة الذين يعملون كأدلاء في بعض الكنائس ، والرهبان في بعض الاديرة ، ينالون قسطهم من كرم السياح باسم التبرعات لصناديق الكنيسة . وقد تأسست في اثيوبيا مصلحة للسياحة منذ فترة بعيدة ، وتعمل بكل نشاط لاجتذاب السائحين وتوفير كل وسائل الراحة والتسلية لهم في المراكز السياحية والمواقع الآثارية . وقد اصبح فيها عدد لا بأس به من الفنادق الممتازة . وقد مضت تلك الايام التي كان



السائح فيها يلتجىء الى الاكواخ الحقيرة .

واعتمد الاثيوبيون كثيرا على السويسريين في تنظيم السياحة وادارة الفنادق في كل مكان تقريبا . وربما يفسر ذلك مستوى الادارة الراقية في هذه الفنادق وحسن تنظيمها حتى في الاماكن النائية . فقد شاهدت أحد مدراء الفنادق السويسريين وقد أمضى في عمله هذا في احدى المدن الصغيرة سنوات عديدة . اما أجور الفنادق السياحية في اثيوبيا فزهيدة بالنسبة لما يدفعه السائح في مثيلات هذه الفنادق في الاقطار الاخرى في افريقيا الشرقية . وعلى العموم فالاثيوبي ما زال قنوعا بالنسبة لغيره من الافارقة السود سواء في شرق هذه القارة ام غربها . والمسلمون عندهم يحتكرون الخدمة في الفنادق تقريبا ويجيدون اداء عملهم وربما تعلموا ذلك من مدربيهم السويسريين . وقد يكون من أسباب نجاح السياحة في هذه البلاد دماثة أخلاق الاثيوبي وآدابه الرفيعة في التعامل مع الاجنبي .

ويجد السائح في أسواق اديس ابابا وأسمره وغيرهما من البلاد انواع السلع التذكارية التي ينشدها معروضة للبيع ـ من الحراب والسيوف المعقوفة القديمة الى ريال ماريا تيريزا ، ومن أنياب الخنزير البري وسن الفيل (العاج) الى جلود ثعابين البايثون العملاقة . الا ان شيئا واحدا يمكن له ان يشتريه ، غير انه محظور عليه اخراجه من البلاد ، هذا هو جلد نوع من القردة يتواجد في مناطق معينة ـ وقد شاهدته في غابات باكو Bako حوالي ٢٠٠ كيلومتر غربي اديس ابابا . انه يختلف عن القردة الآخرين في نظام حياته ، اذ هو لا ينزل من على الاشجار الا عندما يريد شرب الماء . ويختلف عنها بطول شعره وكونه ابيض الجسم والارجل واسود الظهر . فهو غريب حقا . ولكنني لا أعتقد ان سائحا واحدا غادر اثيوبيا ولم يتمكن من اخراج هذا الجلد بطريقة من الطرق .

التخطيط من اجل التنمية

شعرت اثيوبيا منذ بداية الخمسينات بحاجة ماسة للاستفادة من الخبرة والاستشارة الفنية الاجنبية للتطوير والتنمية ، خاصة في ميدان الزراعة ، اكثر من حاجتها الى المستشارين السياسيين الذين اغرق الانكليز بهم البلاد خلال فترة حكمهم لاثيوبيا حكما عسكريا (١٤) .

١٤ ـ رمال العرب بقلم ولفريد تيسيغر وتعريب نجدت هاجر وابراهيم عبد الستار ـ صحيفة ٣٧ .



ونتيجة الجهود المتواصلة والمساعي الحثيثة للامبراطور والحكومة ــ ونظرا لمصالح الدول العظمى في المنطقة ــ فقد انهالت المساعدات الفينة وغيرها من الدول الصديقة ، واكثرها سخاء وأوفرها ما جاءها من الولايات المتحدة الامريكية ، ومن المنظمات المتخصصة التابعة للامم المتحدة . ومنذ الخمسينات وخلال الستينات وضعت عدة خطط للتنمية ــ رباعية وخماسية ــ كانت ترصد لها مبالغ ضخمة من قبل الحكومات الواهبة ، الا ان النتائج لم تكن مشجعة ان لم نقل جلها فاشلة . اما أسباب ذلك فليس بالعسير معرفتها وتشخيصها ، وهي بطبيعتها متداخلة سنحاول تبيانها بايجاز فيما يلي .

ان خطط التنمية لا بد لها من معلومات احصائية وافية دقيقة ، أي ارقام مستقاة من مصادر تقدر المسؤولية . وهنا يصطدم التخطيط والمخططون بالعقبة الاولى ، أو فلنقل بالسبب الاول . فافتقار البلاد الى أرقام احصائية يعتمد عليها في المسح العام لمعرفة ما هو متوفر في البلاد من طاقات وامكانيات ــ بشرية ومادية ــ والبت في حجم ونوعية الحاجات الملحة ، يضع المخططين في موقف حرج بالنسبة لتشخيص الاولويات . وهذا المأزق أدى لان تصبح اكثر الخطط في الحقيقة اقرب الى التمنيات منها الى مشاريع مدروسة دراسة مستفيضة معقولة ، مبنية على تقدير وتقييم علمي لتجنب الوقوع في أخطاء فاحشة . ومن تجاربي في العمل مع مختلف المستويات في المسؤولية ، في اثيوبيا أو غيرها من الاقطار الافريقية ، أستطيع الجزم بأن نسبة كبيرة من الارقام التي كانت تقرر شكل الخطط الانمائية انما كانت خيالية ومرتجلة ومعرضة للتصحيح الكيفي في كافة المراحل التي تمر بها ، ولذلك فلا يصح الركون اليها . وقد أثبتت تجارب السنين المنصرمة ان الارقام الاحصائية في البلاد النامية لا تعني كثيرا ويجب معاملتها وقبولها بمنتهى التحفظ . ولا ينطبق هذا على اثيوبيا وحدها ، فلها شركاء كثيرون في افريقيا والشرق الاوسط .

وهذا السبب يجرنا بطبيعته الى سبب آخر مرتبط به ، هو عدم وجود جهاز مركزي للاحصاء تحت اشراف متخصصين بجمع المعلومات والحقائق وتدقيقها وتحليلها قبل نشرها (١٥) . والجهاز وحده لا يستطيع اداء واجبه على الوجه الاكمل دون تجاوب وتعاون من كافة الجهات المعنية ــ حكومية كانت أم شعبية .

ومن اسباب فشل خطط التنمية هو الافتقار للاداريين على المستويات العليا وللمنفذين على المستويات الدنيا . وفي كثير من الحالات

---

15 — Development of Agricultural Statistics — F. A. O. Report No. 3024.



كان الافتقار لهذا الصنف من العاملين ـ اي المنفذين على المستويات الدنيا ـ وهم الفنيون والعمال الماهرون المدربون ، السبب المباشر في احباط بعض المشاريع العمرانية ، خاصة بعد مغادرة الفنيين الاجانب الذين اشرفوا على ادارتها وتنفيذها في ابان تأسيسها . وانخفاض المستوى الفني عند العمال والمشرفين الفنيين لم يكن يتناسب مع عظم المسؤولية الملقاة على عواتقهم . وكثير منهم أو غالبيتهم لم يكن ليقدر المسؤولية .

الا ان اكثر المثقفين في البلاد يرون ان اهم اسباب فشل خطط التنمية هو الشلل الذي اصاب المجتمع الاثيوبي منذ القديم ، وذلك نتيجة تحكم عاملين اساسيين فيه أديا الى تخلفه . الاول هو سيطرة ملك الملوك على كافة نواحي الحياة ، والثاني سيطرة الكنيسة الحبشية.

فسيطرة ملك الملوك وتدخله المباشر في كافة شؤون الدولة وحصر السلطة في يده قد ادت الى فساد الحكم واستفحال داء المحسوبية وضياع عنصر الكفاءة وتدهور جهاز الدولة . وأما الكنيسة فقد صيرت من نفسها حكومة داخل حكومة وانصرفت بكليتها لادارة أملاكها واراضيها الزراعية الواسعة بأساليب استبدادية قاسية جعلت ممن يفلح ويزرع في ممتلكاتها عبدا مقيدا مدى الحياة . تدير اقطاعياتها حسب نظمها الخاصة وتجبي الرسوم على طريقتها متخطية قوانين الدولة ونظمها وكما أوضحنا فهي حتما أكبر الاقطاعيين في كل الامبراطورية .



الفصل الرابع والعشرون

عبر اعماق اثيوبيا

١ ـ هرار : الفردوس المنسية

لم يكن جون غنثر (١) مخطئا أو مبالغا عندما كتب صراحة : « ان الرأي القائل بأن أثيوبيا مسيحية يحتاج الى اعادة نظر » . كتب ذلك استنادا الى غالبية التقديرات التي لا تعتبر الاقباط اكثر من نصف السكان ، يقيم معظمهم في الهضبة الوسطى والشمالية . يقابل ذلك ولاية هرار ومدينة هرار في المرتفعات الشرقية التي تعتبر اكبر معقل اسلامي في الامبراطورية . وكان قد شيدها التجار العرب في القرن السابع الميلادي ولمع نجمها بعد ذلك كمركز اشعاع ديني وكحاضرة لعدد من الممالك والامارات الاسلامية المتعاقبة . ثم جاء الاتراك العثمانيون واكملوا عمارتها في القرن السادس عشر .

ان هرار ليست حبشية أصلا ولم تخضع لاحد عبر تاريخها الطويل ، حتى أغارت عليها جيوش الامبراطور منليك الثاني بقيادة ابن عمه الراس ماكونين (والد هايلا سلاسي) فاحتلها واخضعها لحكمه بحد السيف سنة ١٨٩٥ . ومنذ ذلك الحين ثبت الامهاريون سلطانهم فيها . فعندما زارها الرحالة الانكليزي ريتشارد بيرتون سنة ١٨٥٥ كتب عنها « انها تقع بين ميناء زيلع والحبشة » وكان يحكمها آنذاك السلطان احمد ابن السلطان ابو بكر (٢) .

شيدت المدينة في موقع حصين على رابية تشرف على الوديان السحيقة التي تحيط بها من ثلاث جهات . ويحتضنها في الوقت الحاضر سور يرجع تاريخ بنائه الى عهد الامير نور ، أي الى حوالي ٥٠٠ سنة تقريبا . وتتخلل السور خمس بوابات كانت فيما مضى تفتح وقت الفجر

---

1 — Inside Africa, by John Gunther — page 249.
2 — First Foot Steps in East Africa, by Sir Richard F. Burton.



وتغلق عند غروب الشمس . فاذا ما وصلت قافلة تجارية بعد المغرب باتت ليلتها خارج السور . وعند الصباح تدفع الضريبة على بضاعتها وتدخل المدينة . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى أوائل هذا القرن حين ألغيت الضريبة على عهد الامير عبد الله ، كما وزيد عدد البوابات الى سبع .

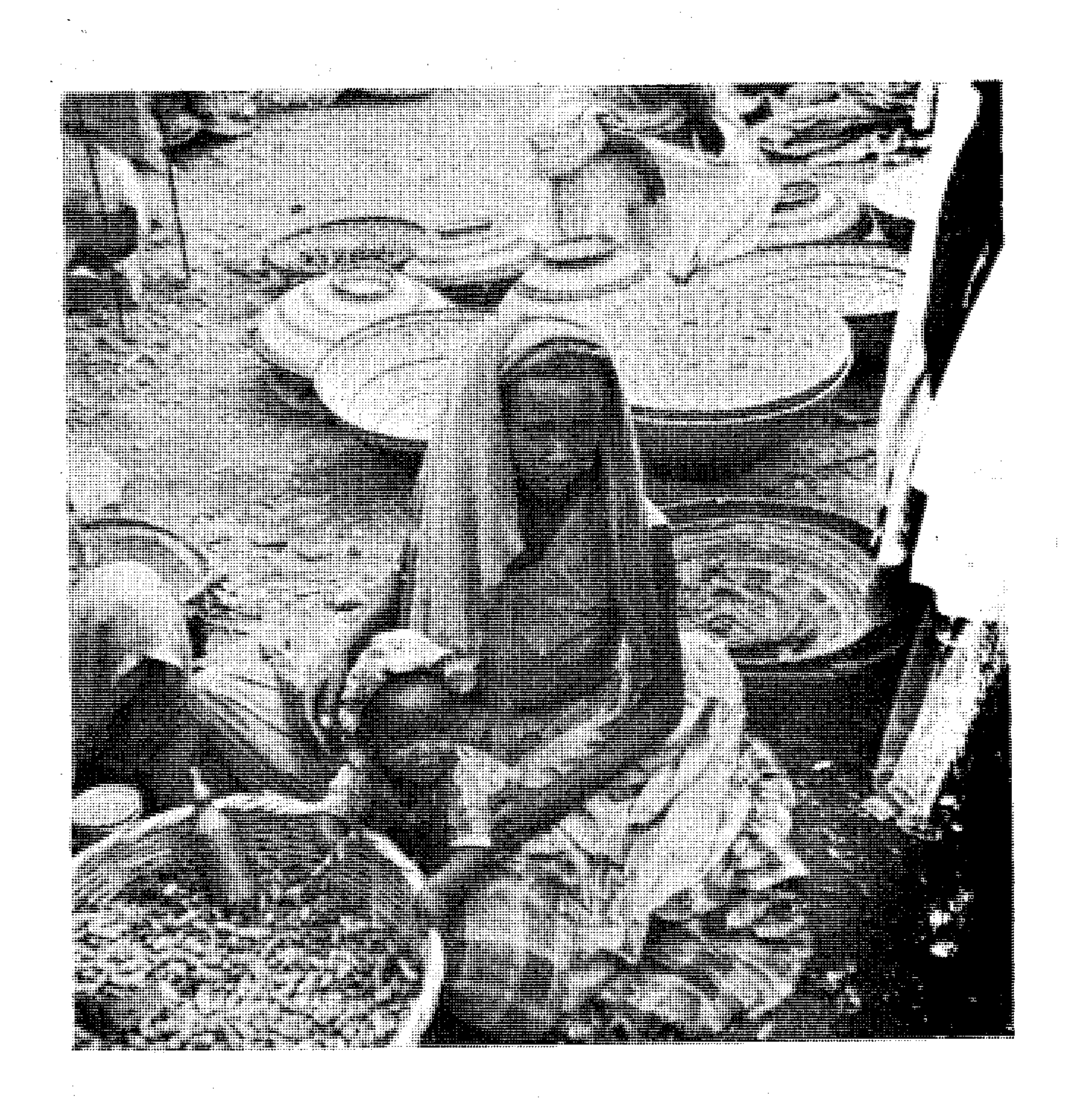
غير ان سور المدينة تقادم عهده فأخذ يتصدع مع الايام ، ولو ان الآيات القرآنية وبعض الكلمات التركية ما زالت بارزة في الاجزاء الباقية منه خاصة على طرفي المدخل الرئيسي . ويذكر ان بعض التهديم جرى على أيدي الايطاليين ابان احتلالهم للبلاد لتسهيل مرور وسائط النقل الثقيلة وربط المدينة بالابنية والمساكن التي شيدوها خارج السور . وتقوم في الوقت الحاضر بنايتان كبيرتان خارج البوابة الرئيسية – احداهما شيدها الايطاليون وتستعمل حاليا دارا للحكومة ، والثانية ؛ وهي أقدم ، يرجع تاريها للعهد التركي وهي مقر البلدية الآن . ولا بد من الاشارة هنا الى ان مقر الكلية العسكرية الاثيوبية هو في هذهالمدينة النائية . وربما اختير لها هذا الموقع بالذات على سبيل تذكير سكان هرار بزوال مجدهم العسكري وقيام التراث الامهاري مكانه . فاقامة الكلية العسكرية هنا انما هو بمثابة رمز لانتصارات منليك في هذه الاصقاع التي كثيرا ما كانت مصدر قلق للاحباش الامهاريين .

وللمدينة طابعها الخاص الذي يميزها عن بلدان الحبشة الاصيلة. فعمارتها اكثر شبها بعمارة بلدان البحر الاحمر والجنوب العربي . اما لغة أهلها – اللغة الهرارية – فهي من اللهجات السامية وليس لها حروف ، وهي كالصومالية لا تكتب . ومن معالم المدينة الرئيسية قوم يقال لهم « هداره » وربما كان اصل الكلمة « حضاره » اي من المتحضرين. ويذهب البعض الى انهم من أصل تركي . فانهم لا يتزوجون من القبائل المجاورة ولا يزوجون بناتهم للغير . ونساؤهم يرتدين السراويل . وبالنسبة لموقع المدينة التجاري فقد أصبحت متعددة اللغات واللهجات، فتسمع فيها الصومالية والغالية والعربية والتيغرينية والامهارية بالاضافة الى اللغة الهرارية . أما كتبهم فأكثرها عربية ، وكانت قرارات المحكمة الشرعية الى وقت قريب تصدر باللغة العربية . وتجدر الاشارة بهذه المناسبة الى ان اللغة العربية في اقليم اريتريا هي احدى اللغات الرسمية الثلاث بعد الامهارية والتيغرينية .

داخل أسوار هرار

تقع المدينة على ارتفاع ٢١٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر . ولذلك فمناخها جميل معتدل على مدار السنة . تحيط بها البساتين والمزارع فتوفر لها انواع الفاكهة والحاصلات الزراعية . واول





بائعات من قبائل غالا داخل اسواق هرار

ما يشاهد القادم اليه ا سورها الناصع البياض ، لان الهراريين يطلونه ويطلون بيوتهم بالبياض دائما . وتؤدي البوابة الرئيسية في السور الى شارع البلدة الرئيسي . وهذا ينتهي بميدان في وسط المدينة . ومنه تتفرع الازقة والدروب الضيقة التي لا يتسع بعضها لمرور اكثر من شخصين في آن واحد . وقد حولت مؤخرا واجهات كافة بيوت السكن على الشارع الرئيسي الى دكاكين وخمارات عامرة بالحركة ليلا ونهارا. وان بعضها يكاد يلتصق بالجوامع الاربعة الكبيرة التي تتوسط البلدة تقريبا . ووقت الآذان تختلط أصوات المؤذنين الداعين للعبادة بأصوات السكارى وعربدتهم المتصاعدة من الحانات المجاورة . والكنيسة الكبيرة كذلك أصبحت تتوسط محلات تعاطي الخمور بشكل تستهجنه الاخلاق القويمة . ان تزاحم البارات على نحو ما شرحنا شيء مؤلم حقا ، اعاد الى ذاكرتي ما كان عليه المفهوم الاخلاقي في المجتمع الامريكي قبل اربعين سنة . فقد منعت قوانين ولاية كاليفورنيا قيام أي محل لتعاطي بيع الخمور ضمن مسافة نصف ميل من مدرسة او محل للعبادة . ولذلك فلم يسمح بتواجد امثال البارات وغيرها ضمن هذه المسافة من جامعة كاليفورنيا في بركلي .

ومن معالم البلدة الرئيسية ضريح الامير نور بسياجه العالي وقبته والشجرة الفارعة الوارفة الظل التي يتجمع تحت فيئها الاولاد والنسوة أيام الزيارة . وبداخل القبة يسكن القيم على الضريح (ويسمونه المريد) . يزوره الناس دائما لقراءة الفاتحة وتقدم النسوة النذور ويطلبن مرادهن منه . ولا يبعد عن الضريح كثيرا مسجد الجمعة المعروف بمئذنتيه غير المتساويتين في الارتفاع وهو اكبر الجوامع في هرار . ويقع بيت الامير عبد الله على مقربة من هذا المسجد . وهو البيت الذي اقام فيه بقية حياته بعد ان خسر مملكته ، ويسكنه اليوم أحفاده . وقد سمي الشارع الذي يقع عليه البيت بشارع الامير .

مدارس خاصة

ان المسلمين في اثيوبيا بصورة عامة لا يجدون ترحيبا في القبول في المدارس الحكومية ، الامر الذي اضطرهم ، في هرار مثلا ، لجمع التبرعات من الاهالي لبناء مدرستين تجمعان البنين والبنات بتعليم مختلط ، وقد شيدت المدرستان في شارع الامير . وهذا دليل على اهتمام الهراريين الزائد بالتعليم . ويقال ان الموسرين فيهم تبرعوا بسخاء بالغ . اما الذين لم يسعدهم الحال فتبرعوا بسواعدهم اثناء الانشاء . وكانت المدرستان في منتصف الستينات تضمان حوالي ٨٠٠ طالب وطالبة . وهناك بالاضافة الى هاتين المدرستين عدد من الكتاتيب التي تدرس مبادىء اللغة العربية والدين وحفظ القرآن والحساب .



وقد بلغ من احترام الاهلين للمعلم في هرار انهم يسمونه « الكبير » ، حتى ويحكى ان الطالب اذا قابل معلما ماشيا في الشارع قصده لتقبيل يده . واعتاد المعلم بدوره مد يده من تحت حاشية ردائه تحاشيا لتقبيلها مباشرة من قبل الطالب .

من الامور التي تجلب انتباه المنصت للهراريين وهم يتكلمون فيما بينهم ، كثرة الالفاظ العربية فيها او ما يقاربها نظرا لاصولها السامية كما يتبين للقارىء مما ياتي على سبيل المثال :

الكلمة العربية	مايقابلها بالهرارية	الكلمة العربية	مايقابلها بالهرارية
ماء	ـ مي	بدون (بلا)	بلاى
سماء	سامى	صباح	صبحى
لباس	لباسا	بعد الظهر	صلاة بآخر (اى بعد الصلاة
الاسنان	سن (للمفرد والجمع)	القهوة	بن (وبالامهارية بونا)
انا	آن	قريب (ا وقريبى)	اهلى
ربع	روب	الحرف (للكتابة)	حرفى
ابن الحكيم	ابنا حكيم	قلم	قلم
ضعيف	دعيف	بارد	براد
تلميذ	تلميذ	معلم	كبير
مدرسه	مدرسه	الكل	جامع (اى جميع)
خمسين	خمسين	علاج	دوا
الى ان (حتى)	الى	سابقاً	اول

اسواقها وتجارتها

كانت هرار في عصرها الذهبي مركزا حيويا للتجارة وهمزة الوصل بين ريفها الزراعي الغني بالحاصلات والاصقاع الخارجية . الا ان اهميتها تضاءلت منذ بداية القرن الحالي بعد أن أفل مجدها بسبب ازدهار مراكز تجارية جديدة ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي على خط سكة حديد جيبوتي ـ اديس ابابا مثل بلدة ديره داوه . اما قبل ان ينشىء الفرنسيون هذا الخط وميناء جيبوتي فكانت زيلع (على خليج عدن في جمهورية الصومال حاليا) ميناءها الاول الذي كان يستقبل القوافل التجارية القادمة من هرار عبر الصحراء والمتاهات المحرقة . وكانت قوافلها تسلك أحيانا طريق مقديشو على المحيط الهندي . والبن الهراري الذي كان يصدر للخارج منذ القدم فمشهور بجودته بالنسبة لمحصول الاقاليم الاخرى ويعتبر أجودها .

اما أسواقها فكانت مصنفة ـ وما زالت لدرجة ما حتى الآن ـ

حسب البضائع التي تتعاطاها ــ مثل العسل والحبوب والقات والفول السوداني والزيتون والخيول وغيرها . وكانت كل بوابة من بوابات السور تؤدي الى جهة معينة في السوق ، الامر الذي يسهل من عملية البيع والشراء . هذا بالاضافة الى الباعة الصوماليين الذين يتجولون بالازقة بجمالهم لبيع الاحطاب والحليب والدهن . وان اكثر هذه الاسواق واقعة على الشوارع الستة المتفرعة من الميدان الرئيسي . ومن اغرب ما سمع عن أسماء الشوارع هو الشارع المسمى بسوق « ضوضاء المكائن » . ففي هذا السوق تركزت صناعة الخياطة والخياطين بماكناتهم. والضوضاء التي تحدث طوال النهار من جراء اشتغال المكائن جعلت من هذ االشارع أو السوق اسما على مسمى . غير ان السوق العمومية لا تقل جلبة وازدحاما عن سوق ضوضاء المكائن . فهو من أشد الاماكن ازدحاما لو قيس بحساب عدد الناس نسبة للمساحة . وفيه احتل الاولاد والنسوة القسم الاوسط من السوق عارضين للبيع أكواما من الملح وورق القهوة والخضراوات والفلفل والاعشاب الطبية على انواعها وأواني الطعام الخشبية المصنوعة من خشب الزيتون البري . وهم سريعو الوثوب بوجه من يدنو منهم ، خاصة الاجانب ، فيصرخون بوجوههم بعبارة « اشتر مني ، اشتر مني » ويكررونها بالانكليزية Buy from me . يسمع المرء خلال تجواله في السوق كل اللغات المحلية تقريبا . ويبدو ان معظم أهل المدينة ينطقون بلغتين او ثلاث لغات محلية على الاقل .

اعياد المسلمين

يحتفل المسلمون بأربعة أعياد دينية في كل سنة هي : عيد الفطر وعيد الاضحى والمولد النبوي الشريف ورأس السنة الهجرية ويسمونها عاشوراء . وقد اعتادوا على قضاء تلك الليلة ــ أي ليلة رأس السنة الهجرية بالصلاة وتلاوة القرآن الكريم . في مثل هذه الليلة تكون ابواب اكثر المزارات مفتوحة يقصدها الزوار من مختلف الاعمار ومن كلا الجنسين للتبرك ووفاء النذور ، حتى ان بعضهم يسهر في ساحاتها حتى الفجر . وتقرأ المنقبة النبوية في بعض الجوامع وفي بعضها يحيون الذكر على الطرق الصوفية . ومما جلب نظري في شرقي افريقيا بصورة عامة وفي الصومال وهرار بصورة خاصة انتشار الطريقة القادرية . ولن أنسى أمسية في قرية يونتي في جنوب الصومال اذ اخذ يتحدث الي احد اتباع هذه الطريقة لما علم انني بغدادي . وفي سياق الحديث ادعى ان الشيخ عبد القادر الكيلاني المدفون في بغداد صعد الى السماء مع السيد المسيح عليه السلام . واحتدم الجدل بعدئذ لان هذا الصوفي لم يرض أن يقتنع بفارق الزمن بين الاثنين .



وفي ليلة العاشر من شهر محرم يصنعون الهريسة كما هي العادة في المشرق العربي . ويسرفون في الكميات التي يصنعونها حتى انهم يطعمون الفائض منها للضباع التي اعتادت التردد على المزارات لكثرة ما يخلفه الزوار وراءهم من أطعمة وعظام . ومن خرافات الهراريين المعروفة انهم يتشاءمون اذا لم تقدم الضباع على أكل الهريسة في سنة من السنين ، فيعتبرون تلك السنة سنة نحس وشؤم عليهم . وجرت العادة بين الناس في مثل هذه المناسبات ان يكرم الزوار « المريد » أو القيم على المزار ، فيحملون اليه القات والبخور والسكر وغير ذلك .

مجالس القات عند الهراريين

تزرع هرار القات وتصدر كميات غزيرة منه على نحو ما شرحنا في فصل المنتجات الزراعية . وقد يكون من الطريف ان نتطرق الى عادات الهراريين فيه . لقد كان للقات سوق خاصة فيما مضى . الا انها تقلصت نوعا ما بالنظر للاسعار الخيالية التي صارت تباع بها هذهالسلعة في عدن وغيرها ، فأصبح يصدر معظمه بالطائرات . ولتأمين حاجة السوق المحلية صارت النساء الهراريات اللائي كن يتعاطين بيعه في السوق يخرجن بأنفسهن الى البساتين المحيطة بالبلدة لجلبه فيالصباح الباكر . فيعدن بسلالهن محملات بالقات الطازج الريان لمن اعتاد تناوله في الصباح . ولهن عودة اخرى للبساتين ظهرا لجلب كميات جيدة منه للزبائن الذين أدمنوا على تعاطيه وقت الظهيرة . عندئذ يحرصن على لف هذه الوجبة لفا متقنا بأوراق الموز للمحافظة علىطراوته . وكثيرا ما يستقبل الرجال بائعات القات على ابواب السور او مشارف البلدة لانتقاء أجود ما لديهن . وقد يغتنم بعضهم هذه الفرصة لمداعبة أو مغازلة الفتيات بعيدا عن عيون الرقباء .

للقات مجالس خاصة ذات أصول وتقاليد كما هي الحال في اليمن ، متأصلة فيهم منذ عرفوا زراعة هذا النبات . وتقام مجالسه عادة بعيد الظهيرة . فقبل مجيء الرجال الى المنزل تكون ربة البيت قد اعدت ما يقتضي لذلك ونظفت غرفة الاستقبال وصفت الوسائد حول جدرانها ليتكئوا عليها . ومن المراسيم الاساسية في مجالس القات احضار اباريق الماء ـ وهنا في هرار يتخذون من اليقطين المجوف أوعية للماء ـ فتضع يقطينة أمام كل مقعد .

وتقتضي التقاليد المرعية افتتاح المجلس بتلاوة سورة الفاتحة . ثم يلي ذلك اشتراك جميع الحاضرين في ترديد بعض العبارات المألوفة عندهم في مدح القات وفوائده وامتداح الذين زرعوه والذين احضروه والدعاء لهم جميعا بالخير . فمن جملة ما يرددون ما يلي ، وهو قليل من كثير ، وقد اختصرته توخيا لعدم الخروج عن الموضوع . ففيما



يخص القات عندهم أدعية ومدائح عديدة :

« رحم الله من زرع القات » .

« ورحم الله من عنى به ونسأله تعالى أن يدخله الجنة »

« وعوفيت اليد التي اقتطفته »

« وعوفي من جلب لنا القات » ، الى آخره .

بعد تلاوة هذه الافتتاحية يشرع الحاضرون في التهام باقات القات التي صفت أمامهم ويمضغونها بالطريقة المألوفة . وتستمر هذه العملية ـ مضغ القات وتخزينه وبصق بقاياه وشرب الماء ـ حتى الساعة الخامسة بعد الظهر . فيختتم المجلس بتناول القهوة ثم اداء صلاة المغرب فالانصراف . ويروي السير ريتشارد بيرتون (٣) مشاهداته في مجلس للقات عقد في بيت وزير فيقول : « ان الخادم كان ينتخب أدق الاوراق الطرية ويقدمها للوزير بينما جلس خادم آخر يدق الاوراق في مهراس (الهاون) ويقدمها للحاضرين على شكل كرات صغيرة يلتهمونها التهاما وتسمى (المدقوق) » . ويصف طعم ونكهة القات الهراري فيقول انه أجود من القات اليماني .

قبور الائمة

يحترم الهراريون الرجال الصالحين من أهل الدين ويجلونهم لدرجة التقديس ويسمونهم شيوخا . وبعد موتهم يشيدون على قبورهم القباب فتتحول الى مزارات . وبمرور الايام وتعاقب السنين تستبدل كلمة « الشيوخ بكلمة « الائمة » . يقال ان في اقليم هرار وحده مئات من هؤلاء الائمة ، من بينهم امرأتان . غير ان انشاء القباب على الاضرحة لا يقتصر على مشايخ الدين دون سواهم . ففي هرار جرت التقاليد على تشييدها لاحد ثلاثة : رجل تقي صالح أتى بالمعجزات ، أو شخص استشهد دفاعا عن الوطن وأبلى بلاء حسنا ، أو ملك صالح . وقد تصبح قبور هؤلاء مزارات يؤمها المسلمون من كل مكان في ذلك المحيط .

هناك روايات لا تحصى ولا تعد ، وجلها من قبيل الاساطير ، منسوبة لبعض هؤلاء المشايخ لاظهار كراماتهم وما أتوا به من خوارق الاعمال ـ أو معجزات كما يسمونها . فمن الاساطير الشائعة ، على سبيل المثال ، ما تتناقله ألسن العامة عن رجل تقي يدعى الشيخ هاشم ، له مزار معروف في هرار . تقول الرواية ان هذا الشيخ نشأ صبيا برعاية أمه واخوته الكبار بعد وفاة والده . الا انه لما ترعرع وقوي ساعده انصرف بصورة كلية للعبادة وقراءة القرآن ولم يعمل شيئا لدنياه ،

---

٣ ـ المصدر نفسه .

الامر الذي اغاظ اخوته الذين لقبوه بالعاطل . وذات يوم هددوا بعدم الاستمرار في العمل في مزرعتهم ما لم يشاطرهم هذا العاطل العمل والاتعاب من أجل لقمة العيش . فانصاع الشيخ للامر وتوغل فيالجبال القريبة للاحتطاب وجمع ما يمكن جمعه من أخشاب وأحطاب لبيعها في اسواق المدينة . وفي آخر النهار عاد الى البيت فأخبر أمه واخوته بما جمع وطلب اليهم الخروج الى الشارع لانزال حزمة الاحطاب من على ظهر الفيل . فلما خرجوا ذهلوا وصعقوا لما شاهدوا . فقد حمل الفيل حزمة كبيرة من الاحطاب مربوطة بحيتين بدل الحبال احداهما طويلة من نوع ثعابين البايثون شدت الواحدة بالاخرى لاطالة الوثاق . اما أمه فاحتمت به من شدة الرعب الذي تملكها . فتقدم هو من الفيل ، وبعد ان انزل الحزمة من على ظهره ، خاطب الحيوانات أن ارجعوا الىارضكم ، فانصاع الفيل والحيتان للامر وانصرفوا . وأمثال هذه الخزعبلات مدونة في تواريخ كافة الملل على اختلاف دياناتها ومعتقداتها ، والزمن وحده كفيل باندثارها .

ضباع هرار

تكثر هذه الوحوش في منطقة هرار بشكل يسترعي النظر . وقد اعتادت على ارتياد أطراف المدينة بعيد الغروب بحثا عن الغذاء في فضلات المزابل والمجازر ، وعن البهائم التائهة . ونظرا لكثرة السياح الذين يفدون على مدينة هرار لمشاهدة معالمها التاريخية ، فقد تفتقت ذهنية أحدهم عن استنباط وسيلة للتسلية تجتذب زوار المدينة فيحصل من ورائها على شيء من المكافأة النقدية منهم . فيدعوهم لمشاهدة « وليمة اطعام الضباع على الطبيعة » وفي الغسق يوقد نارا خارج السور ايذانا ببدء « الوليمة » . وعندما يكون قد تجمع حوله العدد المناسب من السياح يشرع بتمثيليته فيمسك باحدى يديه عظما او قطعة لحم ويمدها في الفضاء . فتتقاطر الضباع الجائعة باتجاه موقع النار حتى يتقدم أشجعها من صاحب الدعوة ليأخذ نصيبه منه . عندئذ تتقدم بقية الضباع فرادا لتلتقف حصتها وتعود . وخلف صاحب الوليمة يكون السياح قد تكتلوا لتسجيل أحداث هذا المشهد عن طريق عدسات التصوير . وتعاد هذه التمثيلية كل ليلة تقريبا .

ومن قصص الضباع ايضا انه اذا تخلف حمار احدهم أو تاه خارج السور بعد الغروب فلا مجال له للافلات من أنيابها فيكون فريستها تلك الليلة . وقد ينجو في حالة واحدة فقط ، وهي انه اذا لم يحرك اذنيه فزعا . اما اذا حركها فتكون هذه خاتمة حياته . ففي الحالة الاولى قد تتوهم الضباع وتتصور أذني الحمار قرني بقرة — وهي تخشى قرون البقر فتنصرف عنه .



٢ ـ سكة حديد جيبوتي ـ اديس ابابا

من دخل اثيوبيا عن طريق جيبوتي واستقل القطار مخترقا الصحراء الملتهبة الخالية من النبت والحياة تبادر الى ذهنه ـ اذا لم يكن قد قرأ مسبقا شيئا عن جغرافية المنطقة ـ بأن كل ما قيل وكتب عن اعتدال مناخ هذه البلاد وجمال طبيعتها انما هو هراء . وأن كل ما رواه الرحالة الاجانب عن ذلك ما هو سوى وهم او خداع . فقد ينسى المسافر ان القطار خلال المرحلة الاولى من مسيرته ـ وهذه المرحلة المملة هي زهاء ١٠٠ كيلومتر ـ انما هو يجتاز الصومال الفرنسي باتجاه الغرب حتى يصل الى الحدود في داؤوني Daounie . وهنا يعانق العلم الفرنسي علم الامبراطورية العتيدة على نفس المبنى الذي تتم فيه معاملات وشكليات الكمارك وتأشيرات السفر . اما الاراضي التي يمر بها بين جيبوتي ونقطة الحدود فهي مواطن قبائل عيسى الصومالية وغالا والدناقل .

هذا هو الصومال الفرنسي الذي احتوى معظم سكانه تقريبا في ميناء جيبوتي وما حوله في خليج تاجوره . أما ما سواه فهو قفر لا تطاق الحياة فيه . وفيما تشق القاطرة طريقها عبر هذه المفاوز المترامية الاطراف تتجول اذهان المسافرين في سر هذا السكون الشامل المخيم على هذا الكون . أو لعلهم يتساءلون في أعماق نفوسهم عن شعور أول انسان قطع هذه المسافة بعد انجاز الخط الحديدي مقتحما هذا العالم المجهول الذي يبدو وكأن لا حدود له ولا نهاية ، وعما كانت تخفيه له الاقدار بعد أن تلكأ العمل في الخط سنوات طويلة بسبب النهب والسلب وانعدام الامن . ومثله في ذلك الزمان كمثل من يصعد اليوم مركبة فضائية مدفوعة بصاروخ ساترن سابحا في فضاء الابدية وهو غير ضامن العودة الى هذا الكوكب ثانية . ويجول المرء بطرفه يمنة ويسرة من خلال زجاج النافذة الملون فلا يرى سوى مجموعات صغيرة متفرقة من الابل ورعاتها تائهة في بحر من الرمال والصخور الملتهبة هنا وهناك .

ويتقدم القطار بسيره ، وتنطوي الاميال تباعا والصحراء لا تتبدل ولا تريد ان تغير من وجهها شيئا ، اللهم ما خلا ظهور الصخور البركانية القاتمة الالوان قبيل انتهاء المرحلة الاولى ـ أي قبل الوصول الى نقطة الحدود ـ وكأن يدا رصفتها على وجه الغبراء بعناية فائقة في بعض المساحات ، تمتص الحرارة من الشمس فتعيدها الى ما حولها في الفضاء كأنها اللهب المتوهج . عندئذ ، وبعد اجتياز هذه المفازة ، يشكر المسافر ربه ويشكر المهندسين والعمال الفرنسيين انه في عربة قطار مكيفة الهواء وليس على ظهور الابل كما فعل أسلافه من الرحالة . لقد قطعت صحارى وقفارا كثيرة في آسيا وافريقيا واميركا . ولكنني



.لم اشعر بالوحشة والكآبة بقدر ما نال مني الشعور بالوحشة والملل اثناء عبور الصومال الفرنسي ، بالطائرة والقطار على حد سواء .

على عتبة المرتفعات

بعد مغادرة محطة داؤوني يبدأ القطار بالصعود التدريجي مع استمرار الطابع الصحراوي في المحيط ، ولو ان غطاء الارض يبدأ باكتساب مظهر جديد بتبدل ألوان الصخور . أما الشقوق الارضية الضيقة والفجوات التي نحرت في الاجزاء السطحية رسوما متباينة فتبدأ بالاتساع لتتحول الى ما يشبه الوديان السطحية ذات التفرعات المتعددة وهي التي تكونها سيول الامطار . وما هي الا سويعات بعد اجتياز نقطة الحدود حتى تنفتح امام الناظر بداية القسم الشرقي للهضبة . فتظهر أولا التلول المخروطية الشكل التي تتسم بها طوبوغرافية المناطق الجبلية الجرداء في اثيوبيا وبصورة خاصة الهضبة الشمالية .

وخلف هذه التلول تبدو للعيان وراء الافق البعيد ، ومن خلال وهج الشمس الساطع ، الهضبة الشرقية وكأنها جدار متين البنيان يعانق السماء بشموخه . عندئذ يطمئن المرء الى انه حقا في طريقه الى تلك الجنينة المعلقة . ثم تأتي المحطة الرئيسية الثانية وهي مدينة ديره داوه ـ أهم محطة على الطريق كله . وهي تتوسط المسافة بين جيبوتي واديس ابابا تقريبا ، اذ يستغرق السفر اليها حوالي عشر ساعات من كلا الاتجاهين ـ أي من جيبوتي أو من اديس ابابا . وهنا يشعر المسافر باختلاف المناخ ، لان هذه المحطة ترتفع حوالي ١٢٠٠ متر عن مستوى سطح البحر . ويبدو وجه الارض وكأنه لبس حلة قشيبة من الاعشاب والاشجار .

ديره داوه

هنا في ديره داوه توقفت أعمال مد السكة الحديدية عددا من السنين بعد أن وصلت اليها سنة ١٩٠٢ لاسباب سياسية ـ دولية وداخلية ـ ادت الى تغيير اتجاه الخط . فبدلا من مروره بمدينة هرار المهمة الواقعة على مسافة ٥٥ كيلومترا الى الجنوب استمر امتداد الخط غربا . فتركت هرار بمعزل عن هذا الشريان الحيوي للمواصلات . وديره داوه تقع على منتهى سفوح سلسلة جبال علماية من الناحية الجنوبية ، وتنفتح على صحراء الدناقل من جهتها الشمالية . ولذلك يميل مناخها الى الحرارة نهارا ويعتدل ليلا .

وتتكون ديره داوه من شطرين يفصل بينهما مجرى للسيول . وقد تطور الشطر الذي تقع فيه محطة القطار فأصبح حيا عصريا حيث



المتاجر الكبيرة ومنازل موظفي القطار التي هي عبارة عن فيلات غارقة بحدائقها الفسيحة وخضرة أشجارها الاستوائية الزاهية . وقد توسع هذا الحي العصري كثيرا بسبب ازدهار التجارة وحركة العمران والاشغال في مصانع السكة الحديدية وورشة التصليح التي هي اكبر مركز للاعمال الهندسية على هذا الخط . وقد أصبحت البلدة من أجمل المدن الاثيوبية وأحسنها تنسيقا ونظافة . تزين شوارعها العريضة المستقيمة أشجار البونسيانا الباسقة فتلتقي قممها لتحجب أشعة الشمس عن المارة بظلالها الوارفة . وللامبراطور قصر منيف قائم على رابية وسط هذا الحي يشرف على المدينة كلها ، وعمارته على طراز عمارة البحر الاحمر في شرفاته الفسيحة ذات الاعمدة الخشبية . ويقابل هذا الحي عبر المجرى المائي البلدة القديمة بأزقتها الضيقة ودكاكينها الصغيرة ومحلات بيع الحبوب والمقاهي الشعبية . ومعظم سكان هذا الحي مزيج من الاحباش والعدنيين والهنود وأهل جيبوتي مع قلة من الايطاليين .

ان مركز ديره داوه الواقع على مفترق الطرق يزيد من اهميتها يوما بعد يوم كمحطة للنقل البري والجوي . فالمسافر الى عصب أو جيبوتي بالطائرة لا بد ان يتوقف في مطارها الصغير المريح . وكذا الذاهب الى هرار فلا بد ان يغادر الطائرة أو القطار فيها ليواصل سفره جنوبا بالسيارة (٤) . ومما زاد في انتعاش الحياة الاقتصادية فيها – عدا تجارة تصدير القات الى عدن – مصنع النسيج القطني الذي أوكل تأسيسه الى شركة يابانية وانشاء الفندق السياحي الانيق (٥) الذي شجع وجوده الحركة السياحية الى هذا الجزء من البلاد . اما المقاهي الافرنجية والبارات التي هي على الطراز الايطالي فمنتشرة في كل زاوية من زوايا المدينة – وبادارة النساء – وتضفي عليها طابعا ايطاليا واضحا مثل مدينة اسمره في اريتريا . فلا يشعر المرء في هذا المحيط انه في الحبشة .

فلنترك ديره داوه الآن ولنواصل السفر باتجاه اديس ابابا . فمن هنا يستمر القطار بالصعود محاذيا سلسلة جبال تشرتشر Tchertcher ويعبر نهر عواش بواسطة جسره المعلق الشهير متوقفا خلال سيره نحو العاصمة بعدد من المحطات الصغيرة حيث يهرع الصبية والنساء من

---

٤ – في منتصف الطريق الى هرار تسير السيارة وساحل بحيرة جبلية ساحرة المنظر على ارتفاع حوالي ٧٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، هي بحيرة علماية التي تمتد أبنية ومزرعة كلية الزراعة على ساحلها الشرقي .

٥ – في اثيوبيا شركة شبه حكومية تمتلك عددا من الفنادق في العاصمة وخارجها وكلها معروفة باسم (راس اوتيل Ras Hotel) وهذا الفندق في ديره داوه منجملتها .



القرى المجاورة لبيع المأكولات والفواكه على أنواعها الاستوائية وشبه الاستوائية مثل البرتقال والليمون والموز والبابايا وقصب السكر . وكلما توغل القطار في الصعود كلما جادت الطبيعة على الارض بغطاء أكثف من أشجار الغابات المفتوحة المكونة من انواع من شجر الاكاسيا والصبير (التين الشوكي) حتى يشعر المرء انه أصبح في عالم غير عالم الصومال الفرنسي .

استراحة عواش

وما ان يدخل القطار سهل عواش المشهور بزراعة القطن حتى تختفي الاشجار ثانية وتنبسط الارض امام الناظر ، ويكون القطار قد وصل الى المحطة الرئيسية الثانية بعد ديره داوه وهي محطة عواش التي يتوقف فيها ٣٠ دقيقة بالضبط ليفسح المجال للركاب بالاستراحة أو تناول الطعام في استراحة المحطة وقد كتب عليها Buffet et Hotel d'Aouache . والاستراحة هي عبارة عن مطعم وفندق واقعة في دوحة وسط المحطة . ولكن الاستراحة غلبت شهرتها على شهرة المحطة لسببين : الاول هو تهافت جميع الركاب تقريبا على هذه الاستراحة الجميلة بعد سفر طويل بالقطار . والثاني هو الخدمة الممتازة السريعة التي يلقاها من يقصد مطعمها لتناول الغداء. فبمجرد دخوله المطعم يشعر وكأنه دخل في سباق موقوت مع الغلام المشرف على مائدة الطعام .

فعلى الرغم من ان وجبة الغداء تتكون من ثلاثة الوان من الطعام عدا القهوة والفاكهة فقد قدر لتمثيلية الاكل ان تنتهي في مدى ٢٥ دقيقة فقط . يجلس المرء الى المائدة وقبل ان يتاح له المجال للتطلع الى ما حوله يقدم له الصحن الاول . وما ان ينتهي من هذا حتى يرفع الصحن الفارغ ليقدم محله اللون الثاني . وفي هذه اللحظات المعدودات يكون حوالي ١٠ ــ ١٥ من خدم المطعم قد وقفوا خلف ضيوفهم بمنتهى اليقظة والاستعداد للانقضاض على الصحون الفارغة واستبدالها ببقية طعام الوجبة كالصقور التي تنقض على فريستها . وهكذا دواليك حتى تنزل الستارة بعد انتهاء التمثيلية في ميعادها فيصفر القطار ايذانا بالحركة . ولله در المشرفين على ادارة الاستراحة . فقد مرت ثلاثون دقيقة كشريط سينمائي تمثل فيه سباق في سرعة الاكل والخدمة على أتم وجه .

موطن الامهارا

تبدا مرحلة الصعود الحقيقية نحو الهضبة ــ موطن الامهارا الحصين ــ بعد مغادرة القطار محطة عواش . فهنا تنتهي تقريبا حدود مواطن قبائل



غالا وتتلاشى معالمهم تدريجا . ومظهر الفرد من ابناء هذه القبائل مظهر خاص مميز . فهو فارع الطول نحيف البنية كث شعر الرأس رث الثياب ويتميز بالرمح الذي لا يفارق يده ، فهو سلاحه ضد الوحوش الكاسرة. وقد يراه الانسان وقد نفش شعره على هيئة كرة كبيرة او شمسية وانبت فيه ريشة او عودا او مشطا لفرض الزينة .

ومن هنا ايضا ينفتح المسرح عن مشهد جديد يتغير فيه شكل الطبيعة ومظهر الانسان . ويبرز لاول مرة شبح الفرد الامهاري في موطنه وعلى حقيقته بلباسه التقليدي المكون من سروال واسع فوق الركبتين ضيق تحتها كثير الشبه بسروال الخيالة ، وثوب قصير فوقه شملة قطنية بيضاء هي عبارة عن كساء فضفاض يغطي المنكبين ويتدلى حتى الركبتين . ونظرا لكبر حجمها فقد يستعمل أحد طرفيها لوقاية الراس من الحر والبرد . فهي ثلاثة امتار طولا ومتران عرضا ، تشبه نوعا ما الشملة المسماة توغا Toga التي كان يرتديها الرومان والاغريق. والشملة هي اللباس التقليدي المميز لكافة الامهاريين ، رجالا ونساء على السواء وحتى رجال الدين . والشملات الفالية الثمن تغزل وتنسج باليد مضافا اليها حواش مطرزة وذات ألوان جذابة لا يلبسها الا كبار القوم والاغنياء وأهل المراتب العليا من رجال الدين . ولا يخرج الامهاري من بيته عادة الا والبرنيطة فوق رأسه . اما أهل الارياف فيمشون حفاة والبرانيط على رؤوسهم .

ومن المميزات الاصيلة للمواطن الامهاري هي البيوت الخشبية المصنوعة هياكلها من سيقان وأغصان شجر الكافور (اليوكالبتوس) المسقفة بالصفائح المعدنية اللماعة والتي تشاهد بكثرة ولاول مرة تقريبا عند وصول القطار الى بلدة نازاريت . وليس في هذه البلدة الصغيرة ما يستحق الذكر سوى قربها من بعض الحمامات المعدنية التي تعمل الحكومة على جعلها منطقة سياحية .

بعد ذلك بفترة قصيرة وقبل الوصول الى العاصمة من جهتها الجنوبية بحوالي ٥٠ كيلومترا يتوقف القطار في بشوفتو (٧) التي لم يكن لها شأن يذكر قبل سنوات قليلة خلت ما عدا وجود قصر ريفي للامبراطور فيها يشرف على بحيرة بركانية جميلة . اما الآن فقد ازدهرت وتطورت بسرعة ملموسة على اثر انشاء فندق سياحي على البحيرة مباشرة فصار يقصدها الاهالي في نهاية الاسبوع . واما الاجانب فيمارسون فيها رياضة التزلج على الماء . ومما أدى الى انتعاشها ايضا قيام محطة للتجارب الزراعية فيها وكذلك اختيارها مقرا للقوة الجوية الاثيوبية . وأخيرا أسست الامم المتحدة فيها مركزا لتدريب الموظفين

---

٧ ـ كانت تعرف سابقا باسم ديبره زيت اي الزيت المقدس .



الصحيين البيطريين . وتزدحم بشوفتو اليوم مثـــل سائر مدن أثيوبيا بحانات الخمور وزوايا الترفيه .

نحن الآن على أبواب العاصمة . وما هي الا ساعة او نحو ذلك حتى يصل القطار محطته الاخيرة ـ اديس ابابا . وكلما اقترب المرء من العاصمة كلما اتسعت مساحات غابات ومستنبتات شجر الكافور المنتشرة في كل مكان ـ في أطراف المزارع وعلى سفوح الجبال وفي بطـــون الوديان . واخيرا يسجل القطار ٧٨٤ كيلومترا ، وهي مجموع المسافة بين جيبوتي ـ على مستوى سطح البحر ـ وهذه المحطة الاخيرة التي ترتفع اكثر من ٢٤٠٠ متر عنه . وأول شيء يقابل الانسان وهو يغادر المحطة ، تمثـال اسد يهوذا المنتصب على قاعدته على هذا المرتفـــع الشامخ في وسط الميدان الرئيسي ـ ميدان تشرشل ـ ووجهه نحو قصر « جنة الامراء » حيث يقيم الامبراطور .

٣ ـ اديس ابابا أو الوردة الجديدة

الوردة الجديدة هو معنى اديس ابابا باللغـة الامهارية . وهي حقا أحدث عواصم اثيوبيا . فقد سبقتها عدة عواصم عبر تاريخ البلاد الطويل. ذلك لان العاصمة كانت تنتقل من اقليم لآخر بحسب قوة الملوك ومـدى سلطانهم . فمن استطاع منهم القضاء على منافسيه عسكريا ودانت لـه العباد أعلن نفسه « ملكا للملوك » وتصبح العاصمة الجديدة حيثيقيم هو. اما الامبراطور ثيودور مثلا فلم يتخذ له عاصمة ثابتة بالمعنى المفهـوم . فكان معسكر جيشه هو عاصمته المتنقلة بسبب كثرة حروبه الداخليـة مع خصومه من الملوك والرؤساء ، ولو انه أقام فترة قصيرة في غوندار في صدر عهده . فمن العواصم المشهورة في تاريخ اثيوبيا هي : اكسوم Axum او العاصمة المقدسة كما يلقبونها (٨) ولاليبيلا Lalibella وغوندار Gondar وانكوبار Ankobar وديبرا برهان Debra Berhan

أما اديس ابابا فقد أسسها الامبراطور منليك الثاني سنـة ١٨٧٨ اي قبل أقل من مائة عام . اذ جاء بعساكره وخيم في سفوح جبال انتوتو Entoto شمالي موقع العاصمة الحالي ، وابتنى دارا للحكـومة اول الامر وثكنات لجيشه ثم منح اقطاعيات صغيرة لضباطه وجنوده فكانت هذه بمثابة النواة للعاصمة الحالية . وكان في ضواحيها وقتئذ موقـع

---

٨ ـ لقبت هذه المدينة بالعاصمة المقدسة لان ملك الملوك كان يتوج بكنيستها الشهيرة . وان الامبراطور هايلا سلاسي كان اول واحد لم يتوج فيها بل جرت مراسيم تنصيبه امبراطورا في كندرائية القديس جورج في اديس ابابا . وسميت المقدسة كـذلك لان الديانة المسيحية انبثقت منها .

تمثال اسد يهوذا في ميدان تشرتشل في اديس ابابا

اشتهر بينابيعه المعدنية الحارة ، فأصبحت هذه الآن بالعمارة الجديدة بعد زحف البلدة باتجاهها . وقد طورت هذه الينابيع مؤخرا الى حمامات عصرية للعلاج الطبيعي . ان موقع العاصمة الحالي جميـــل ومحاط بالخضرة من كل الجهات . ويتفتق وجه الارض حولها عن عشرات الانواع من النباتات الاستوائية والاعشاب الزاهية بعيد موسم الامطار . امـا شوارعها فغير مستوية بسبب طبيعتها الجبلية ، فهي تقع على ارتفاع ٢٤٠٠ ــ ٢٥٠٠ متر عن سطح البحر ولكنها غير منسقة بعين الوقت . وترعى الابقار والاغنام في أحدث شوارعها فتبدو وكأنها قرية كبيرة .

ان اكثر أحيائها السكنية مكونة مما يشبه الاكواخ الخشبية وقد شيدت بينها هنا وهناك بعض العمارات الحـــديثة التي تقوم بانشائها الحكومة أو الشركات التجـــارية . وتزدحم شوارعها بوسائـــل النقل الحديثة والقديمة التي لا تخضع لقواعد المرور ، وخاصة عربات التاكسي ذات الحصان الواحد . من أشهر وأطول شوارع العاصمة هو شـــارع تشرشل الذي يوصل الشطر الحديث منها بالمدينة القديمـــة المرتفعة . ومن أبرز عماراتها ، وخاصة التاريخية منها ، كاتيدرائية القديس جورج وبلاط منليك الثاني الذي يشرف عـــلى الاحياء الحـــديثة . اما قصر « فردوس الامراء » فيخيل للناظر اليه من بوابته الرئيسية كأنه امـــام قصر بكنغهام في لندن . وعلى مقربة منه شيدت في الستينات « قـــاعة افريقيا Africa Hall » وهي المقر الدائم للهيئة الاقتصادية التابعـــة للامم المتحدة . وهذه الهيئة تختص بمعالجة كافة الشؤون الاقتصادية الافريقية . وتحسن الاشارة الى ان السكرتارية العامة لمنظمـــة الوحدة الافريقية تشغل جناحا في هذا المبنى أيضا .

ومن مبانيها البارزة مبنى البرلمان الذي شيد في أوائل العشرينات . ويهزأ منه الافارقة كلما تبجح الاثيوبيون به على انه أقدم برلمان فـــي افريقيا . والواقع هو ان اثيوبيا ابعد مما يتصو رالمرء عـــن الديمقراطية البرلمانية . وليس فيها جريدة سياسية حرة غير خاضعة لقلم الرقيب . وفي اديس ابابا يلتقي تراث الحبشة القديم بحاضرها الجديد المكتسب . ففي سوقها الرئيسي الذي يعتبر اكبر اسواق افريقيا السوداء يشاهد المرء أندر وأغرب السلع معروضة للبيع . فالمعروضات تشمل جـــلود الحيوانات المفترسة والقرود والثعابين والعاج والسيوف المعقوفـــة والسكاكين القديمة والرماح والاواني الفضية ومختلف النقود القديمة مثل ريال ماريا تيريزا والكتاب المقدس مخطوطا باليد على أغشية رقيقة ومغلفا بالجلد أو الخشب ، وبصورة عامة كل ما يحلو للسائح ان يشتري .

واديس ابابا لم تعد تلك القلعة المنعزلة فوق هضبتها الشامخة كما كانت في أوائل هذا القرن . فقد اضحت اليوم على مفترق الطرق العالمية . توصل الشرق الاوسط وافريقيا الشرقيـــة بساحل افريقيا



الغربي . وتوصل أوروبا بافريقيا السوداء . وأصبح لها شأن بالــــغ الاهمية في السياسة الدولية على الصعيد الافريقي بعد ان اصبحت المقر الدائم لمنظمة الوحدة الافريقية ، ناهيك عن جهـــاز الهيئة الاقتصادية التابعة للامم المتحدة ، الذي يضم مئـات الخبراء والمتخصصين بشتى فروع العلم والمعرفة من مختلف الملل والجنسيات . وبالنظر لامكانياتهـا العصرية كعاصمة فقد تحولت منذ أوائل الستينات الى بلد مضيف لكثير من المؤتمرات والندوات الدولية الهامة . فيلتقي على منبرها قادة الفكر والسياسة والعلماء والعسكريون . ولا يخفى ما لهذا النشاط الدولـي من اثر معنوي في ايقاظ الفكر الاثيوبي ، وما لمرور هذه التيارات الفكرية والمبادىء الانسانية من آثار ايجابية في تطوير البـــلاد ورفع مستواها العلمي والثقافي على المدى البعيد .

عندما زرت اثيوبيا لاول مرة سنة ١٩٦٢ نصحني زميـــلي ممثل منظمة الاغذية والزراعة الدولية المقيم في اديس ابابا بأن لا أغادر الفندق بعد الساعة الثامنة ليلا مشيا على الاقدام لتحاشي الاعتداء أو السلب اللذين يتعرض لهما الاجانب . وأعلمني ان أحد زملائه رجم بالحجـارة أمام الفندق ونزف الدم من رأسه . هذه حقيقة واقعة لا مبالغـة فيها وسببها الفقر المدقع الذي يعيش تحت وطأته السكان . وان من اكثر ما يزعج الاجنبي في العاصمة هم صباغو الاحـــذية المتجولون الذين يلازمونه وهو يمشي في الشارع ويحيطون به لدرجة المضايقة والازعاج. و « الوردة الجديدة » مليئة بالمتسولين والشحاذين صغارا وكبـارا ، وهم يحقدون على الاجانب في العاصمة . أذكر مرة في أواخر الستينات انني كنت خارجا من الفندق في اديس ابابا ، فرافقني في سيري شاب في مقتبل العمر ، فطلب أن أعطيه بعض النقود . ولما امتنعت عن ذلك خاطبني بلهجة الغضب وبلغة انكليزية فصيحة : « أنت أجنبي وهـذه بلادي أنت تعيش فيها » . وتركني وقد أكمل كلامه باللغة الامهاريـــة وبنفس لهجة الغضب ، فقد يكون انه كان يشتمني بلغته .

وفي العاصمة جاليات أجنبية عديدة . فبالاضافة الى الاوروبيين العاملين بالتجارة والصناعة والتصدير فهناك عدد كبير ايضا من عرب اليمن والهنود والسوريين والارمن . اما الارمن فقد وفد قسم منهم الى هذه البلاد منذ الحرب العالمية الاولى وهم الآن في غاية اليسر يعيشون في فيلات أنيقة في أحسن احياء المدينة . وبعضهم وفد اليها من لبنان مؤخرا ويتكلمون لهجة بيروتية أصيلة .

٤ ـ بحيرات الوادي الشقي

لقد شبه بعضهم هضبة اثيوبيا بمستودع ضخم يختزن المــاء فيغذي مصر والسودان ومنطقة شرقي افريقيـــا وخاصة الصومال .



هكذا اشتهرت هذه البلاد بثروتها المائية التي لا تنحصر بأنهارها العديدة بل بالكثير من البحيرات المنتشرة في كل مكان ومن جملتها البحيرات الواقعة في الوادي الشقي The Rift Valley (٩) . والمعروف ان المساحة السطحية لانهارها وبحيراتها تبلغ حوالي ١١ ألفا من الكيلومترات المربعة . ولقد تجمعت معظم بحيرات هذا الوادي جنوبي العاصمة على شكل سلسلة ممتدة حتى الحدود الكينية . والمشهورة من هذه البحيرات ثمانية أوسعها بحيرة ابايا التي تبلغ مساحتها ١٢٥٠ كيلومترا مربعا . وتمثل جميعها موردا سمكيا لا بأس به . الا انه بالاضافة الى ذلك فقد أصبحت هذه البقعة مركزا لاجتذاب السياح في السنين الاخيرة . وتتفاوت أعماق هذه البحيرات تبعا لطوبوغرافية الارض وحجم السيول التي تغذيها .

وفي الطريق جنوبا الى البحيرات يمر الانسان بتشكيلة بديعة من البحيرات البركانية الصغيرة مثل بحيرة بشوفتو التي مر ذكرها . والى الجنوب من بلدة نازاريت تنبسط الارض قليلا وتنفتح الطبيعة عن نتوءات سطحية غريبة متباينة فوق وجه الارض متناثرة على غير انتظام . تلك هي مستوطنات حشرة الارضه (١٠) التي تعيش تحت سطح الارض تعلوها أكوام ترابية قد يصل ارتفاعها الى أربعة امتار أحيانا على هيئة قباب مخروطية . ومن هنا تبدو معالم الوادي الشقي واضحة ترتفع جوانبه كالجدار الهائل ، وفي الافق تلوح معالم الغابات الاستوائية المطرية .

ان أول بحيرة تستقبل الزائر هي بحيرة زواي Zwai القريبة من بلدة وغابات شيشمانة التي تشتهر بزراعة التبغ ، كما وفيها احدى اكبر الارساليات التبشيرية الامريكية . وكلما توغل المرء باتجاه سلسلة البحيرات كلما ابتعد عما يذكره بالتراث الحبشي الاصيل ودخل المنطقة الاستوائية بضخامة أشجارها وأرومة أعشابها وطابعها العام . وكلما انبسطت الارض كلما تضاعفت أعداد أشجار الاكاسيا التي تتدلى من أغصانها العشرات من اعشاش الطيور كأن يد انسان علقتها عليها .

وعلى مسافة ليست بالبعيدة من بحيرة زواي تقع ثلاث بحيرات متجاورة هي لاغانا Lagana واباياتا Abayata وشالا Shalla وهذه البقعة تعتبر ملجأ وفردوسا للطيور المائية تتكاثر فيه بعشرات

---

٩ ـ الوادي الشقي هو الوادي الكبير الذي يخترق البلاد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ويشطر هضبتها الى شطرين .

١٠ ـ حشرة الارضه هي الـ Termites بالانكليزية . ويسميها بعضهم النمل الابيض white ants خطأ مقتبسين ذلك من التسمية المغلوطة .



الالوف في بعض السنين . وكل واحدة من هذه البحيرات تعكس للناظر لونا ورونقا خاصين تبعا لعمق مياهها وطبيعة النبات المتواجد في قعرها وعلى جوانبها . اما بحيرة ابايا فبالنظر لموقعها وكبر حجمها فتعتبر موطنا ملائما لتكاثر وتناسل عدد من انواع الطيور مثل الدواس Flamingo والبجع او جمل الماء Pelikan وضرب من انواع اللقالق الافريقية . اما الدواس فنظرا لكثافة تجمعاته فانه يشكل شريطا وردي اللون للناظر كلما دنا من البحيرة . الا ان الطير يتنكر لاي قادم يقترب من الساحل فيدفعه خوفه للابتعاد عن مصدر الخطر فيطير رفا واحدا نحو وسط البحيرة فيأمن شر الانسان . ولذلك فأحسن وسيلة لمراقبة هذه الطيور هي بواسطة استعمال الناظور .

والى الجنوب من ذلك أنشأ جماعة من الالمان فندقا سياحيا على غاية من الذوق والابداع في اجتذاب السياح على بحيرة اواسا Awasa . ان مظهر هذا الفندق الخارجي لا يوحي بما يشير اسمه اليه Oasis Hotel أي فندق الواحة . فهو في قلب المياه والغابات الاستوائية الفينة بخضرتها . وعلاوة على ذلك فقد بني على هيئة مجموعة من الاكواخ الافريقية المستديرة المقببة . غير ان في داخلها يجد المرء كل ما يتمنى من وسائل الراحة العصرية . اما غرفة الطعام فيه وصالة الاستقبال فقد جعل منهما اصحاب الفندق متحفا للتاريخ الطبيعي زينت جدرانه بنماذج من كافة الطيور والحيوانات المتواجدة في هذه المنطقة بشكل محنط .

هنا يشعر الانسان انه حقا في بيئة غير حبشية ـ انه في افريقيا الاستوائية أو قريب منها . فالسكان يختلفون كل الاختلاف عن احباش الهضبة الاصليين ـ من حيث الهيئة الطبيعية والملبس والمأكل . فالكساء المصنوع من جلد الحيوانات شائع هنا ، ولباسهم يكاد لا يغطي نصف اجسادهم . اما النساء فغالبيتهن لا يسترن صدورهن وانهن يتزين بالقلائد والاساور البرونزية . وقلما يشاهد الزائر رجلا أو صبيا الا والرمح أو العصا الطويلة بيده يستعين بها في رعي الماشية ويدافع بها عن نفسه من الوحوش الضارية . وتراه يبدو دائما حاسر الرأس حافي القدمين يلاحقك بنظراته الفاحصة اينما سرت على ساحل البحيرة .

وتهتم الحكومة في الوقت الحاضر بانعاش هذه المنطقة اقتصاديا، فادخلت فيها زراعة محصول السايسل لصناعة الالياف واسست مزرعة كبيرة عن طريق برنامج للمساعدات الفنية اليوغوسلافي الذي يركز اهتمامه في دعم الجمعيات التعاونية .

اما البحيرات الاخرى فهي ابايا Abaya ، اكبر الجميع مساحة كما اشرنا ، وتليها شامو Shamo ثم ستيفاني التي يقع الجزء الاسفل



الدناقلة يتعاملون بألواح الملح بطريقة المقايضة



منها في كينيا . أما بحيرة رودولف Rudolf التي هي في كينيا فيقع جزء صغير من طرفها الشمالي في اثيوبيا . ويمكن القول بأن النشاط السياحي ينتهي بحدود بحيرة اواسا . اما الاسفار والتجوال في ما وراء ذلك فمن نصيب المغامرين من السياح وعشاق الغابات والادغال الاستوائية المغلقة ، ولو ان أعدادا كبيرة من عشاق تجمعات الطيور يقصدون بحيرة ابايا باعتبارها ملجأ لطيور الدواسي . وتجدر الاشارة الى ان هذه البحيرة لا تقل جاذبية عن بحيرة ناكورا Nakura في كينيا ، احدى اكبر مواطن الدواس في افريقيا .

٥ ـ صحراء ومنخفض الدناقل

في القسم الشرقي من اثيوبيا بقعة صحراوية من أغرب بقاع الارض طبيعة ومظهرا . اضافة الى ذلك فهي من أشد بلاد الدنيا حرارة وجفافا. وهي موحشة شحيحة الامطار قاسية وذات « سمعة سيئة » . وبالنظر لما كان يحدق بالمسافرين الغرباء وقوافل التجار من مهالك واخطار محققة ، فقد نعتها بعضهم ب « مصيدة البشر » . فكم عابر سبيل وسائح هلك في مجاهلها على مر الزمان ، سواء كان من التعب والجوع والعطش أو لقي حتفه على أيدي أولئك الدناقل ذوي الثياب القصيرة والقامات المشوقة والشعر المجعد الملطخ بالزبدة . وفي هذه الصحراء بالذات أبيدت قوات الضابط السويسري مونتسينغر Muntzinger (١١) حاكم مصوع وبعثة بيانكي في أواخر القرن التاسع عشر . هذه هي صحراء الدناقل او صحراء عفر نسبة الى القبائل التي تستوطنها . كما وتعرف أحيانا بمثلث عفر لانها تبدأ من السهل المتاخم لجبال الحبشة وتنفتح نحو البحر الاحمر بشكل مثلث او مروحة محصورة بين الوادي الشقي والبحر الاحمر وخليج عدن . ويقع ضمن هذا المثلث ايضا ذلك الجزء من الصومال الفرنسي الذي تقطنه قبائل عيسى الصومالية بالاضافة الى قبائل عفر والدناقل . وتسير سكة حديد جيبوتي ـ اديس ابابا بمحاذاة طرفها الجنوبي .

أما قلب هذه الصحراء فبقي مجهولا للعالم الخارجي حتى سنة ١٩٢٨ حين اقتحمه الرحالة الايطالي (نسبت) مع رفيقين له من الجنوب الى الشمال (١٢) . وهو اول أوروبي عاد من هذه المغامرة حيا . الا ان

---

١١ ـ راجع الفصل السادس عن الحملة المصرية بقيادة هذا الضابط السويسري والتي ابيدت في صحراء الدناقل عام ١٨٧٥ .

١٢ ـ رمال العرب بقلم ولفريد تيسيغر ـ تعريب نجدة هاجر وابراهيم عبد الستار ـ صحيفة ٢٣ ـ ٢٤ .



ثلاثة من خدمه اغتيلوا على أيدي القبائل . وبعد ذلك بحوالي سنتين ـ اي في سنة ١٩٣٠ ـ وطد العزم ولفريد تيسيفر ، وهو شاب انكليزي في حوالي العشرين من العمر ، على اقتحام صحراء الدناقل لمتابعة مجرى نهر عواش . ولقراره هذا قصة طريفة . يقول هذا الرحالة الشاب انه ولد في اديس ابابا سنة ١٩١٠ في أحد أكواخ الطين التي كانت مقرا للسفارة البريطانية آنذاك . وقضى طفولته هناك ، اذ كان ابوه سفيرا لبريطانيا لدى بلاط الحبشة . وعندما بلغ العاشرة من العمر سافر الى بلاده لاكمال الدراسة . ثم عاد الى اديس ابابا وهو في حوالي العشرين من العمر بدعوة من هايلا سلاسي لحضور احتفالات تنصيبه امبراطورا على الحبشة سنة ١٩٣٠ .

وفي هذا الوقت بالذات التقى بالكابتن (نقيب) تشيزمان احد اركان هيئة السفارة البريطانية ـ وتشيزمان يعتبر اكبر حجة في احوال نهر النيل الازرق نظرا لمغامراته فيه . وسأله عما اذا كان قد بقي جزء من اثيوبيا لم يكتشف بعد . فأشار تشيزمان الى ان مصير نهر عواش ما زال غامضا . عندئذ عقد تيسيغر العزم على ركوب هذا المركب الخشن لاجل معرفة الموقع الذي ينتهي فيه هذا النهر الكبير . وليس هذا الامر الجريء بأول مغامرة أقدم عليها تيسيغر . فقد سبقت له مغامرات في الربع الخالي في الجزيرة العربية وغيرها . ولذلك فبالنسبة لحياة الصحارى والقفار ومتاعبها فهذا الشاب يعتبر بحق ابن بجدتها والخبير بأحوالها . ولذلك فالمعلومات التي بين ايدينا اليوم عن هذا النهر يرجع الفضل فيها الى اقدامه وشجاعته . ولم يكن تيسيغر اول اوروبي يكشف النقاب عن مصير نهر عواش فحسب بل هو أول أوروبي استطاع اختراق سلطنة « عوسه » الواقعة في مجاهل هذه الصحراء (x) .

يصف تيسيغر هذه السلطنة فيقول عنها انها واقعة في سهل خصب يبلغ عرضه حوالي ٥٠ كيلومترا ، وهو محاط من كل جهاته تقريبا بجبال جرداء صخورها حادة قاتمة ، تنبعث منها موجات الهواء الحار فتلفح وجه الانسان كلهب النار . وتغطي نصف مساحة السهل الشمالية أحراج من الاشجار الصحراوية تتخللها بعض المراعي . والى الجنوب من السهل يمتد مستنقع كبير يحاذيه عدد من البراكين . كما تحادد السهل من ناحيته الشرقية بحيرة « ادوبادا » التي يقرب طولها من ٢٠ كيلومترا .

اما نهر عواش الذي يخترق سهل اكاكي في الهضبة فانه يهبط نحو ٧٠٠٠ قدم ليروي مزارع القطن في تنداهو Tendaho والاراضي

(x) **رمال العرب بقلم ولفريد تيسيغر ـ تعريب نجدة هاجر وابراهيم عبد الستار ـ صحيفة ٢٥ ـ ٢٩ .**



المجاورة لها ، ويدخل بعد ذلك صحراء الدناقـــل ماراً وسط الاحراج الواقعة شمالي سهل عوسه ، وملتفا حول براكين « الجيرا » ثم يعود فيدخل صحراء الدناقل ، وهناك ينتهي ببحيرة « آبي Abbe » المالحة ، وتعرف محليا باسم « ابهيباد » ، وهي عبارة عن حوض كبير من الماءالمز الذي تنمو على وجهه الحشائش الحمراء كبقع من الدم . وتجدر الاشارة الى ان حوالي ربع مساحة البحيرة من جهتها الشرقية يقع ضمن حدود الصومال الفرنسي . ويقول تيسيفر انه مدين لسلطان عوسه « محمـد يايو » للسماح له باختراق سلطنته لمتابعة مصير نهر عواش . ومـــن المحقق ايضا انه لولا موافقة هذا السلطان لما استطاع المكتشف الايطالي (نسبت) من اكمال رحلته عبر هذه الاراضي العدائية .

اما قبائل الدناقل فهي تتكون من فخذين رئيسيين : الـ «ساعماره» والـ «اداعماره» ، الا ان ساعماره هم أقوى وأشد بأسا وأوسع نفوذا في الصحراء من الفخذ الثاني ، كما ان الخصام دائم فيما بينهم ، وحروبهم لا تتوقف . وهذه الحالة المضطربة أفقدت هذا الجزء من البلاد معنـى الاستقرار والطمأنينة والهدوء . كما قوضت تحدياتهم للسلطة صرحالامن والسلام ، الامر الذي دفع بالحكومة الاثيوبية لاحتجـــاز بعض رؤساء القبائل كرهائن في معتقلات اديس ابابا لخروجهم عن الطـــاعة ومنعا لحوادث السلب والنهب . وقد دأبت الحكومة على عدم تشجيعالمغامرين من ارتياد هذه المنطقة تفاديا لوقوع حوادث مؤسفة . وتقطن قبـــائل ساعماره في « بهدو » و « عوسه » ولا يمكن لاحد اجتياز أراضيهم بغير رضا سلطانهم بصورة مسبقة .

يعتبر الجيولوجيون صحراء الدناقـــل جزءا من البحر الاحمر ؛ وتشير دراساتهم الى انها كانت فيما مضى مغمـــورة بمياهه (١٣) . وقد ارتفعت عنه نتيجة هزات بركانية عنيفة حـــدثت تحت قعره ، وما زالت غير خامدة تماماً . ثم انحسرت المياه عن وجهها على مر الايام بفعل التبخر فبرزت طوبوغرافيتها كما تشاهد اليوم وهي تعكس طبيعة قعر البحر الاحمر على اليابسة . كما تشير هذه الدراسات الى ان هذه الصحراء حديثة التكوين ــ لا يزيد عمرها على بضعة عشرات الآلاف من السنين . وهي كثيرة الشقوق والتجاويف ، غنية بترسبات الاملاح . ومن ابرز الظواهر الطبيعية على سطحهــا المنخفض المعروف بمنخفض الدناقل الذي يفور حوالي ٤٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر . وقد وجدت بعثة جيولوجية مؤخرا طبقات من المحار في هذه الصحراء على ارتفاع ٢٥٠ قدما فـــوق مستوى سطح البحر قدرت عمرها بحوالي ٦٠٠٠ سنة .

---

13 — National Geographic Magazine, January 1973, page 25.



ونظرا لاستمرار حدوث الهزات الارضية في جوف هذه البقعة وعدم خفوت العنف البركاني فيها ، فليس من المستبعد ، حسب اعتقاد الجيولوجيين ، ان يغور هذا المثلث الصحراوي ثانية تحت مياه البحر الاحمر بتأثير انفجارات بركانية جديدة . ولقد تمكنت هذه البعثة الجغرافية من زيارة منخفض الدناقل بواسطة طيارات هليكوبتر فظهر لها بجلاء وجود تصدعات حديثة وشقوق عميقة البعد نتيجة أحداث بركانية داخلية مستمرة ، بالاضافة الى عثورها على عدد من ينابيع المياه الساخنة .

ومن النتائج المذهلة التي أظهرها استقراء كميات الطين وقطع الصخور التي حملها المثقاب في اعمال التنقيب في قعر البحر الاحمر وجود ثروة هائلة من النحاس والزنك والذهب والرصاص والفضة على عمق ميل واحد في جيب من الارض قدرت مساحته بنحو ٥٠ ميلا مربعا وضمن طبقة سمكها حوالي ٣٠ قدما . وبحسب تقدير الخبراء فان هذه الثروة المطمورة تثمن بحوالي ٢٥٠٠ مليون دولار (١٤) . وقد أتاح استعمال المثقاب في عمليات التنقيب تحت مياه البحار وفي جوف اليابسة المجال للعلماء بتحديد الثروات المعدنية المكتنزة في بطن الارض على وجه الدقة ، بينما كانت تقديراتهم سابقا تعتمد بصورة كلية على الحدس والتخمين التقريبي . فلا يستبعد عقب هذه المكتشفات العثور على امثال هذه المعادن في اعماق صحراء الدناقل والمنخفض في المستقبل .

وقد سبق والمحنا في البحث عن الثروة المعدنية في فصل سابق الى اكتشاف الالومنيوم وترسبات الفوسفات بكميات تجارية الى الشمال من منخفض الدناقل . ومعلوم ان البدو الرحل من قبائل عفر وعيسى وغيرهم يترددون على المنخفض وما جاوره من الاراضي المحلية منذ أقدم العهود بفؤوسهم التقليدية لاقتلاع ألواح من الملح من سطحه بطريقتهم الخاصة لبيعها ــ وعلى الاكثر بطريقة المقايضة ــ في الاسواق المجاورة . ولهؤلاء البدو مهارة فائقة بتكسير هذه الالواح الملحية الى قطع صغيرة اثناء عملية البيع بواسطة ضربها بخفة تامة بحافة اليد دون تفتيتها .

---

14 — National Geographic Magazine, January 1973, page 24.

الفصل الخامس والعشرون

حياة الاثيوبيين

لمحة من تراثهم

في بلاد قديمة قدم الدهر ، مترامية الاطراف ، متعددة الاجناس واللغات ، يفصل فيما بينها اختـــلاف البيئة وطبيعة الارض والمناخ والعادات والاديان ، يصعب الكلام عن الفرد بشكل عام مطلق . فحياته ومأكله ومشربه لا يمكن حصرها أو وصفها بعبارات عامة وفي اطار واحد ينطبق على كافة السكان . فالفلاح المستقر في أرضه فـوق الهضبة المعتدلة الهواء هو غير البدوي الدنقالي شبه العاري الذي يجوب الفيافي المحرقة بحثا عن المرعى لماشيته . والاقوام البدائيون من أهل البحيرات الجنوبية الذين لا يفقهون من الحياة غير ما يصطـادون من فرس النهر من أجل لحمه لا يقارنون بالمزارع الماهر الذي يعنى بشجرة البن وتربيتها. ونظرة الرهبان والنساك في صومعاتهم الجبلية الى الحياة الدنيا والآخرة هي غير نظرة الزنجي الوثني الغارق في سحر شياطينه وسط الغابات الاستوائية الرطبة .

وثمة فروقات اخرى تطبع ألوانها على لوحـة التراث الاثيوبي ، وتجيء هذه ضمن عامل الاختلاف في الاديان والمعتقـدات . فالفرائض الدينية والعادات والتقاليد الناجمة عنها باعدت من جـوانب وفجوات العزلة التي سبق وفرضتها طبيعة الارض قبل مجيء الاديـان . فدين جاء بشريعة وفلسفة أخلاقية محددة ، فحرم مأكـلا او مشربا ، وآخر جاء بنظرته المختلفة فأباحه . المسيحية تفرض الصيام على الاقبـاط بشكل والاسلام أمر أتباعه بمراعاته على نحو آخر . الاســلام يحدد الصيام بشهر قمري كامل ، وعند الاقباط يتخذ شكلا آخر . فالقبطي يمتنع في صيامه عن اكل اللحوم والمنتجات الحيوانيـة كالزبد والبيض والحليب خلال فترة يعادل مجموعها نصف ايام السنـة تقريبا . وهو



يلتزم بالصيام كل يوم اربعاء وجمعة على مدار السنة . واضافة الى ذلك يصوم مدة ٥٠ يوما متواصلة قبل عيد الفصح مباشرة ، وكذلك ١٥ يوما في شهر آب (اغسطس) بمناسبة تجلي العذراء . وهناك فئة كبيرة من السكان لا تلتزم لا بهذا الدين ولا بذاك ، وما زالت على وثنيتها .

الاقباط يشربون الخمرة دون رادع ، والاسلام يحرمه على اتباعه . والمسلم في هرار وغيرها من الاصقاع الشرقية مدمن على تعاطي القات ، بينما الكنيسة القبطية تستهجنه وتنهي أتباعها عنه . وتذهب الى ابعد من ذلك فتستقبح التدخين وشرب القهوة وتعتبرهما من العادات الاسلامية . ومن النوادر الطريفة التي تروى بهذا الصدد ان صحفيا اجنبيا اراد دخول احدى الكنائس لزيارة ضريح قديس فيها ، فعارض ني ذلك رجال الدين بدعوى ان هذا الصحفي يمارس عادات اسلامية غير محمودة ــ وهي انه يدخن ويشرب القهوة . المسلمون لا يأكلون اللحوم المذبوحة على أيدي الاقباط ، وكذا الاقباط يمتنعون عن اكل اللحوم المذبوحة على الطريقة الاسلامية . واذا شرب مسلم ماء في اناء فلا يمسه أو يشرب منه قبطي حتى يطهره القس بتلاوة بعض الادعية عليه . وفي الفقرات التالية انتخبت بعض جوانب الحياة الاثيوبية التي تعكس شيئا من تراثهم الاصيل .

٢ ــ الزواج

في اثيوبيا ، كما قلنا ، اديان وطوائف متعددة ، وتنتشر الوثنية في بعض المناطق وخاصة الجنوبية والغربية منها بنسبة عالية . ولكل فئة تقاليدها الموروثة في مراسيم وشكليات الزواج . لذلك فالبحث في هذا الموضوع تفصيلا قد يطول بشكل يخرجنا عن أهداف هذا الكتاب . ولكن يمكن القول في مستهل هذا البحث بأن الفتاة عند كافة الطوائف والملل تجبر على الزواج من قبل والديها أو اخوتها بسن مبكرة ــ في حدود ١٢ ــ ١٣ سنة ، وفي بعض الحالات في سن ١١ ــ ١٢ سنة .

اما عند المسلمين فتقتضي التقاليد بأن يتم عقد الزواج امام القاضي أو من يمثله ، ويجري حسب المراسيم الدينية المألوفة ، وهي بسيطة في شكلياتها . اما عند قبائل غالا فيحرصون كثيرا على معرفة النسب . اذ يتعين على طالب الزواج اثبات نسبه للجد الثامن ارضاء لوالد الفتاة التي يطلب الزواج منها . وقد اقبل الغاليون على اعتناق الاسلام بكثرة خلال الخمسين سنة المنصرمة . وربما كانت شرعية تعدد الزوجات في الدين الاسلامي من العوامل المهمة التي دفعت بهذهالقبائل الى اعتناق الاسلام ، لان ذلك ــ اي شرعية تعدد الزوجات ــ لم يتعارض



وعاداتهم وتقاليدهم الوثنية المتأصلة في مجتمعهم البدوي .

واما عند المسيحيين الاقباط فالمجتمع الاثيوبي يقر ثلاث حالات من الزواج هي : الاولى ــ حصول الاتفاق والتراضي بين رجل وامرأة على أن يندمجا في حياة زوجية دون أي عقد مكتوب ودون اجراء أي شكل من مراسيم الزواج المعروفة . فيستأجر الرجل مسكنا تنتقل اليه العروس فيعيشا سوية كزوج وزوجة . واذا ما حصل بينهما ما يدعو الى افتراقهما ، ينفصلان عن بعضهما بنفس السهولة التي جمعت بينهما وينتهي كل شيء .

والحالة الثانية هي ما يسمى بالزواج المدني الذي يثبت بموجب عقد مكتوب بين الزوج والزوجة يقره الطرفان أمام عمدة البلدة أو القاضي . وقد تتم هذه المراسيم بحضور نفر من أصدقاء الطرفين كشهود . ويفيد كل من الزوج أو الزوجة من هذا العقد المكتوب من ناحيتين . الاولى تثبيت الزواج بشكل رسمي لا يمكن النكول عنه . والناحية الثانية وضع اشارة صريحة في العقد عن كيفية اقتسام ممتلكاتهما من اثاث وغير ذلك ــ حتى الاطفال ــ بينهما في حالة وقوع الطلاق . وتجدر الاشارة الى ان الزواج المدني هو اكثر شيوعا من غيره لسهولة فسخه .

قد تمضي فترة طويلة على رجل وامرأة قضيا حياتهما سوية بموجب الزواج المدني قبل ان تحصل لديهما القناعة بالتحول الى زواج عن طريق الكنيسة ــ وهذه هي الحالة الثالثة من حالات الزواج . الا ان العادة جرت على ان يذهبا أولا الى القس الذي اعتادا الاعتراف أمامه لاستشارته في الامر . وفي أغلب الحالات يقف هذا موقفا سلبيا في بادىء الامر ، ناصحا لهما بالتروي والتبصر قبل الاقدام على مثل هذه الخطوة وذلك بالنظر لما يصاحب هذا النوع من الزواج ــ أي الزواج عن طريق الكنيسة ــ من صعوبة الانفصال . فهو يصبح كالطوق في عنقيهما يستحيل فكه . ثم يسألهما فيما اذا كانا قد توصلا الى هذا القرار نتيجة تفكير عميق صادق ينم عن رغبتيهما في زواج دائم . وفي بعض الاحيان يطلب اليهما الصبر والتفكير مليا لفترة اخرى حتى ولو طال بهما التأمل لمدة سنة كاملة . مما لا شك فيه ان الزواج الشرعي الذي تباركه الكنيسة تتجلى فيه معاني الترفع الاخلاقي والقيم الاجتماعية المهذبة ، وهو دليل ساطع على ما يكنه كل من الزوج والزوجة من ثقة واحترام لهذا الارتباط الروحي المقدس ، وعلى اعتزامهما تكوين حياة عائلية ثابتة . ومن مميزات الزواج عن طريق الكنيسة انه يعطي المرأة حق اعلان الطلاق فيما لو عوملت معاملة سيئة من قبل الرجل ، الامر الذي يعكس المكانة العالية التي تحتلها المرأة الاثيوبية في المجتمع .

الا ان في اثيوبيا ، كما هي الحال في كل البلاد المتأخرة ، نشأت



مع تقاليد الزواج عادات ومفاهيم أصبحت جزءا من التراث ، اكثرها غير مقبولة أخلاقيا وبعضها أقرب الى الهمجية . الا ان المجتمع المتطور أخذ ينبذها تدريجا ولو ان جذورها ما زالت متأصلة وراسخة في الارياف وبين القبائل . من هذه التقاليد ان الفتاة يجب ان تقاوم عريسها ليلة الزفاف مقاومة عنيفة بواسطة أظفارها . ومقابل ذلك نشأت تقاليد أسخف منها . فمثلا هناك عادات ، وخاصة عند قبائل غوراج Gurage ، تقضي بأن تداهم بعض النسوة الفتاة قبل زفافها بحوالي ٥ ـ ٦ اسابيع ليقلمن أظفارها تقليما جائرا متوحشا لدرجة انهن قد يقطعن مع الاظفار شيئا من الجلد واللحم . وهذا يشمل اظفار القدمين فينتج عن ذلك نزف الاصابع وتورمها ، الامر الذي قد يضطر اهل الفتاة بأن يؤكلوها بأيديهم لعدم قدرتها على استعمال أصابعها المتورمة، سواء للاكل أو للقيام بأي نوع من الخدمة في البيت . كل هذا جاء كاجراء مضاد لاستعمال الفتاة سلاحها ـ الاظفار .

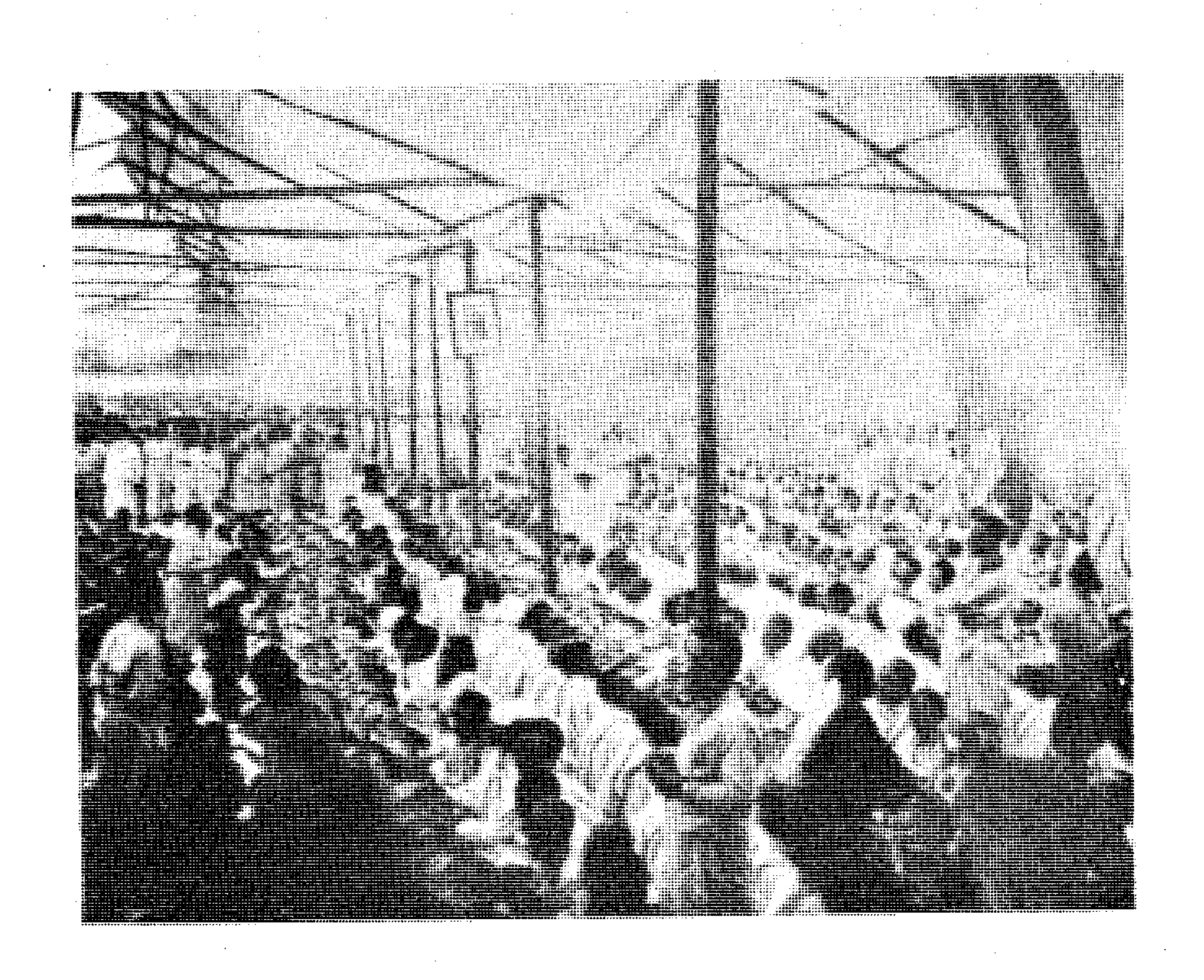
ومن الامور البعيدة عن كل مفهوم للاداب والحشمة هو قيام احد أصدقاء العريس بمساعدته لاخضاع الفتاة ليلة الزفاف ان كان هذا ـ اي العريس ـ ضعيف البنية تجاه عروسه . هذه تقاليد كما قلنا موروثة من أدوار الهمجية وانها لا بد أن تكون في طريقها الى الزوال كلما تقدم المجتمع . وثمة اجراء آخر يلجأون اليه مبالغة في اضعاف الفتاة ليلة زفافها ، وهو تجريعها كمية من دواء الكوسو المنهك للقوى ، الذي يستعمله الاحباش للتخلص من الاصابة بالدودة الشريطية ، وذلك لكي يصيبها الوهن والانحلال . فمن خصائص هذا العلاج انه يسبب ضعفا عاما ونحولا شديدا في الجسم لمدة يوم كامل على الاقل . وكل ذلك يتم لضمان سيطرة الزوج جسمانيا ان كان من ذوي الاجسام الهزيلة .

واذا رزق الله العروسين بمولود ذكر فيختن خلال الاسبوع الاول من ولادته . ويظهر ان الاقباط اقتبسوا في تقاليدهم الدينية عادة ممارسة الختان من اليهود . وفي بعض القبائل ما زال الختان غير مقتصر على الذكور . ان مناسبة الختان هي من المناسبات والافراح التي ينتظرها أهل المولود والمقربون منهم وأهل القرية لاجل أن يأكلوا اللحوم النيئة ويشربوا نبيذ العسل ـ التيج . فيؤتى عادة بعجل أو بثور ان كان أهل الولد من الموسرين . فيذبحونه على مشهد من المدعوين ليلتفوا حوله وينهالوا عليه بالسكاكين تقطيعا وأكلا .

٣ ـ أكل اللحوم النيئة

من العادات الموروثة المتأصلة في مجتمع الاحباش الاصليين الامهاريين والتيغريين ـ أكل اللحوم النيئة ، وخاصة لحوم البقر ، دون طهي اطلاقا . فتقديم اللحم النيء للضيف هو تعبير عن المبالغة في





الوليمة السنوية الكبرى بمناسبة عيد رأس السنة التي تقدم فيها اللحوم النيئة



اكرامه . اما اذا ذبحت بقرة او ثور فيدعى للمشاركة في اكلها الجيران والاصدقاء دونما حاجة لعناء الطبخ والنفخ . واذا كانت الوليمة في القرى فقد يجتمع المدعوون حولها في المكان الذي ذبحت فيه . والمعروف انه في ولائم اللحوم النيئة لا يقدم صنف آخر من الطعام . فيظل المدعوون يصارعون كتل اللحم الكبيرة بالسكاكين والاكف حتى لا يتبقى على السماط شيء غير العظام المسلوخة .

قيل لي وأنا في اثيوبيا بأن الاحباش كانوا لوقت قريب يدعون الاجانب لولائم أكل اللحوم النيئة . ولكن بعد توالي ظهور الانتقادات القاسية والنكات اللاذعة في الصحف الاجنبية حول هذه العادة التي تعكس حالة الانسان الاول ، صاروا يحجمون عن دعوة الاجانب في مثل هذه المناسبات تخلصا من ملاحظاتهم غير البريئة . وشاءت الصدف ان اكون ذات يوم مع زميل في مطعم خارج العاصمة حيث جرت على مشهد منا وقائع وليمة قوامها اللحم النيء على مقياس صغير ضم حوالي ٨ ـ ١٠ أشخاص حول المائدة . فجلس المدعوون وأخذوا يحتسون نبيذ التيج من اباريق دل كبر حجمها على كرم صاحب الضيافة . ثم جيء بأطباق كبيرة مليئة بكتل اللحوم الطازجة المترجرجة بشحمها ودمها وعظامها وحولها صفت السكاكين . فاستقبلها الرجال بشهية وشراهة . فمنهم من استعان بالسكين للحصول على مبتغاه ، ومنهم من آثر الاعتماد على الاكف والانياب . ولم يكن على المائدة سوى اللحم وأباريق النبيذ ، يؤتى بها ملأى فلا تستقر على هذه الحال طويلا حتى تفرغ بسخاء ليجود الساقي بغيرها وهكذا دواليك .

كتب الاجانب الشيء الكثير عن ولائم اكل اللحوم النيئة (١) وخاصة الولائم الكبيرة التي تقام عادة بمناسبة اعياد رأس السنة القبطية وعيد الصليب برعاية الامبراطور . فيحكى ان الذين يحضرون هذه الولائم يصل عددهم الى ما لا يقل عن ١٥،٠٠٠ ـ ١٨،٠٠٠ رجل .

ومعلوم ان عادة أكل اللحوم النيئة هي السبب المباشر لاصابة الاحباش بالدودة الشريطية التي تنتقل من البقر الى الانسان . وللقضاء على هذه الدودة يستعملون علاجا نباتيا اسمه كوزو ، ورد ذكره في البحث عن النباتات الطبية في الفصل الخاص بالزراعة .

٤ ـ الاحباش والخمرة

يكثر الفرد الحبشي العادي من المسكر بشكل يسترعي النظر . وفي الواقع ان هذه الظاهرة لا تختص بالاحباش دون سواهم من شعوب

---

1 — The Real Abyssinans, by C. F. Rey — pages 63 — 65.



افريقيا السوداء . فالفترة الطويلة التي قضيتها بين ظهرانيهم مكنتني من دراسة احوالهم وميولهم عن كثب ، والتعرف على العادات المستفحلة فيهم . فمن الامور التي تجلب انتباه الزائر لهـــذه البلاد لاول وهلة انتشار البارات والخمارات أينما ولى وجهه في اديس ابابا سواء كان في قلب المدينة أو في أحياء السكن والاسواق . ومما يلفت النظر بشكـل خاص هو ان معظم هذه الحانات تدار من قبل النساء . وتقوم بالخدمة فيها النساء ايضا . ويلاحظ انهن يتواجدن في هذه الاماكن احيانا بشكل اكثر مما يلزم للخـدمة . والبارات منتشرة كـــذلك حتى في الارياف واقصى البلدان النائية .

واذكر ان الصدف جمعتني ذات يوم ببعض السيـــاح في بـلدة بحردار الواقعة في الطرف الجنوبي من بحيرة تانا ، بينهم صحفيـــة كندية . وكانت هذه تروي لزملائها قصة تجـــاربها في البلدة عشية اليوم السابق . فقالت انها قصدت أحد البارات لتناول المرطبات . الا انها ما لبثت أن غادرته على عجل للارتياب الـــذي خالج نفسها بسبب نظرات الحاضرين والحاضرات اليها . وقالت ان ما أفزعها بصورة خاصة هو مشاهدتها سريرا في احدى زوايا ذلك المكان . ولم تكن لتدرك مـــن قبل ان ذلك هو من الامور المألوفة في اكثر البارات في اثيوبيا .

يصنع الاحباش انواعا عديدة من الخمور محليا ، أشهرها النبيذ المصنوع من العسل المخمر . وتكاد الحبشة تنفرد في صناعة هذا النوع من النبيذ الذي يسمونه « تيج ــ Tej » . فالعسل متـــوفر عندهم بكميات غزيرة ، يأكلون منه ما يأكلون ويصنعون من الفائض هذا النبيذ الذي يكثرون تناوله مع اللحوم النيئة .

ومن المشروبات الكحولية الاخرى التي يصنعونها محليا نوع مـــن البيرة تدعى « تاللا Talla » ، تستخرج من الذرة البيضاء Sorghum وهي مشروب خفيف نسبة الكحول فيه ضئيلة . كما ويصنع هذا النوع من البيرة من الدخن المحلي Millet . ومن الدخن كذلك يصنع نوع من المسكر نسبة الكحول فيه عالية ويطلقون عليه اسم « عرقي » . وربما كان هذا شبيها بالعرق المعروف في الشرق الاوسط .

والدنقاليون فيصحرائهم بجوار البحر الاحمر يستخرجون مسكرا من العصارة التي يستدرونها من أشجار الدوم أو نخيل الدوم . وطريقة ذلك هي احداث فتحة او ثقب في القمة النامية للشجرة ، وعندما تسيل العصارة من هذا الموضع يجمعونها في وعاء صغير على شكـــل قمع يصنعونه من خوص السعف . وتشرب العصارة المتجمعة بهذه الطريقة اما طازجا كشراب منعش او مسكرا بعد تخميرها . واذا ما مر الانسان في احدى واحات الدوم فانه يرى الاقماع ملتصقة في قمم بعضالاشجار تستدر ماء الحياة الذي ينمي الشجرة . ان تكرار عمليـــة الاستدرار



لعصارة القمة النامية كثيرا ما يؤدي الى توقف نمو الشجرة وموتها التدريجي .

وعملية سحب العصارة بهذه الطريقة امر شائع في نخيل التمور في شمال افريقيا . وقد لاحظت في ليبيا ان النخلة التي يبالغ في استنزاف عصارتها تضعف ويصفر حجم سعفها فتموت .

٥ ــ الانجيره والوات

هذه هي اشهر اكلة شعبية عرفها الاحباش منذ اعمق العصور وهي عبارة عن خبز ومرق . فالانجيره هو اسم لرغيف الخبز المصنوع من نوع من الحبوب يسمى « تيف ــ Tef » ويؤكل مثرودا بنوع من المرق يسمى « وات ــ Wot » . وهذا هو الصحن الشعبي الرئيسي في الهضبة الوسطى . ومن خصائص التيف انه يحتوي على نسبة عالية من البروتين . ويصنع الرغيف على هيئة قرص كبير يتراوح قطره بين ٤٠ ــ ٥٠ سنتمترا . أما سمكه فيقل عن نصف سنتمتر . أما عجينته فتترك لمدة ٢٤ ــ ٤٨ ساعة لكي يكتمل تخميرها وتكتسب طعما ميالا للحموضة . ثم يخبز على صفيحة معدنية ، وكان فيما مضى يخبز على طبق من فخار ، ويغطى القرص بصفيحة ثانية للتعجيل بنضجه الذي يحتاج عادة لبضع دقائق ، ثم يرفع من فوق النار . والاجنبي المعتاد على اكل الخبز المصنوع من القمح لا يستسيغ مذاق الانجيره لاول مرة بسبب الحموضة التي فيه .

اما الـ « وات » فهو المرق الذي يثرد فيه خبز الانجيره . وهو حاد الطعم والمذاق لانه مركب بصورة أساسية من الفلفل والتوابل . كما انه يحتوي على البصل والحمص ، وأحيانا اللحم . وهذا الصحن الشعبي الغني بكمية الفلفل يوفر للاثيوبي كفايته من فيتامين C الموجودة في الفلفل . وتؤكل الانجيره والوات بواسطة تهشيم كسرة من الانجيره وغمسها بمرق الوات حتى تبتل وتنقع ، فترفع مع كمية مناسبة من محتويات المرق وتلتهم . ولا تستعمل الشوكة والسكين في هذه الاكلة .

اما لون رغيف الخبز عند نضجه فأسمر قاتم وهو رقيق اسفنجي الملمس .

٦ ــ خبز من الموز الوهمي ــ (انسيت Ensete)

تطرقنا في البحث عن المحاصيل الزراعية الى شجر الموز الوهمي او الموز الكاذب ، او كما يسمى بالانكليزية False banana كمصدر من مصادر الالياف . ونعود الآن لنبحث عن هذا النبات كمصدر غذائي مهم يعتمد عليه صنع الرغيف اليومي للملايين من السكان



القاطنين في الجنوب ـ في سيدامو وما جاورها . ولم تعد ثمة حاجة هنا لتكرار وصف شجرة الـ « انسيت » فقد ذكرنا ما فيه الكفاية في وصفها . ونحن الآن بصدد معرفة كيفية الاستفادة منها كمصدر للقوت اليومي . وباختصار فيمكن القول بأن شجرة الانسيت بالنسبة للجنوب هي تماما كالقمح والذرة والتيف بالنسبة للاجزاء الاخرى من البلاد . فالمواد النشوية المتجمعة في القسم الاسفل من ساق الشجرة هي التي تصنع رغيف الخبز لاهل الجنوب . ولهذا السبب يعنى الجنوبيون عناية زائدة بزراعة هذه الاشجار باعتبارها المحصول الرئيسي الثابت المعول عليه . اما أهل الشمال والوسط فيزرعونها للزينة لجمال خضرتها وحجم أوراقها الخارق الذي يوهم الانسان بأنه الموز العملاق .

ولهذا السبب يرى المسافر في المناطق الجنوبية اشجار الانسيت أينما ذهب ، في المزارع او حول البيوت . وهذا النبات يتواجد كذلك في جبال كوردفان بالسودان ناميا بصورة برية . كما يشاهد على الطبيعة في روانده وبعض الاصقاع الواقعة بين الكونغو (زيري حاليا) ويوغندا. وخير بيئة تصلح لزراعته كمحصول غذائي هي المناطق الواقعة على ارتفاع ١٦٠٠ ـ ٣١٠٠ متر فوق سطح البحر . وهنا يصل قطر ساق الشجرة الى ٦٠ ـ ٧٠ سنتمترا في الجزء الاسفل منه ، وهو الجزء الغني بالمواد النشوية . والمادة الخام عند اول استخلاصها من الساق تشبه البطاطا النيئة (الطازج) في صلابتها ومذاقها نوعا ما .

تمر المواد النشوية المستخلصة من الساق بعدة عمليات قبل ان تصبح صالحة لصنع الخبز . فبعد تجفيف النشأ تحت أشعةالشمس وسحقه بواسطة الضرب وسحنه تنبش له حفرة أرضية فيوضع فيها ويغطى بالتراب لكي يختمر بداخلها . أما مدة التخمير داخل هذهالحفرة فتتوقف على طبيعة ذوق المستهلك . فقد تكون بضعة اسابيع او بضعة اشهر او حتى سنة كاملة . وبانتهاء فترة التخمير تكبس المواد النشوية كبسا جيدا لفرز السائل الحامض عنها ، فتصبح عندئذ عجينة صالحة لعمل الخبز . فيصنع على شكل أقراص كما يصنع الخبز من حبوب التيف .

والاسرة الواحدة المتوسطة العدد تحتفظ عادة بحوالي ٣٠٠ ـ ٥٠٠ شجرة من اشجار الانسيت حول البيت او المزرعة لتأمين كفايتها من الخبز خلال السنة . وتستعمل منها لمعيشتها ما يقرب من ثلث هذا العدد في كل سنة ، أو حوالي ١٠٠ ـ ١٥٠ شجرة اذا كانت الاسرة مكونة من ٦ ـ ٧ اشخاص . وهذا يعني ان الشخص الواحد يستهلك في السنة الواحدة ما تنتجه ١٥ ـ ٢٠ شجرة من المواد النشوية . وتجدر الاشارة الى ان الشجرة تحتاج الى حوالي ٣ ـ ٩ سنوات لتصل مرحلة النضج والانتاج حسب ارتفاع الارض عن مستوى سطح البحر . فكلما



زاد الارتفاع كلما زاد عدد السنين اللازمة لبلوغ مرحلة النضج .

٧ ـ الاعياد القبطية (٢)

يحتفل الاقباط سنويا بثلاثة اعياد كبرى هي :

أولا ـ عيد رأس السنة القبطية الذي يحل في ١١ ايلول (سبتمبر) .

ثانيا ـ عيد الصليب المعروف باللغة الامهارية باسم ماسكال Maskal الذي يحل في ٢١ ايلول (سبتمبر) . وهذا هو عيد شعبي وديني بآن واحد يمتد حتى آخر هذا الشهر تقريبا ، تقام خلاله الافراح وينتشر الاحباش على وجه الارض في طلب النزهة والمرح فيعم الابتهاج والانشراح كافة أوساط الشعب . وتتخلل أيام عيد الصليب مهرجانات واحتفالات لتخليد مناسبات ثلاث تعتبر من أقدس وأحب المناسبات التراثية لنفوسهم .

ففي المناسبة الاولى ، وهو يوم ٢١ ايلول ، يحتفل بما يسمى « رقصة الكهنة » . وهذه في الحقيقة ليست رقصة بالمعنى المعروف وانما هي أشبه بتظاهرة او موكب كنائسي يضم القساوسة وغيرهم من رجال الدين في كل دير او كنيسة كبيرة ، يسيرون امامها وحولها ويدبكون على الارض بما يشبه الرقص على ضربات طبولهم الفضية المخنوقة . وخلال ذلك يرددون ما يناسب ذلك اليوم من الادعية الدينية ومآثر القديسين . والى جانب ذلك يكون قد وقف بعض من هيئة الكنيسة بحللهم المزركشة وجلابيبهم ذات الالوان الخلابة يتوسطهم حملة الصلبان والمخطوطات الدينية الثمينة والشعارات الاخرى . اما الناس فيخرجون الى الاديرة الشهيرة بعشرات الآلاف للتبرك واداء واجب الزيارة للقديسين ، نساء ورجالا من كل الاعمار فرحين مستبشرين .

ثم تأتي المناسبة الثانية التي تحل في يوم ٢٧ ايلول (سبتمبر) وهي « رقصة الصليب » أو « عيد الشعلة » . فيخرج الشعب بأكمله في هذا اليوم زاحفا نحو الارياف حيث الاديرة ذات التاريخ العريق ـ وما اكثرها في اثيوبيا . وأبرز ما في هذا اليوم هو تظاهرات الفرسان بمواكبهم الجذابة وهم يستعرضون قابلياتهم في ركوب الخيل ومهاراتهم في الفروسية امام الناس . وفي المساء تستعد كل قرية او مجموعة من البيوت الريفية لاحضار أكداس من الاحطاب والاخشاب يجعلون منها ما يشبه الهرم يوقد تلك الليلة . ومن هنا جاءت التسمية « عيد الشعلة » . فتبدو سفوح الجبال مضاءة متلألئة بأنوارها كأنها الشهب

---

٢ ـ ورد البحث عن أعياد المسلمين في الفصل الرابع والعشرين (هرار ـ الفردوس المنسية) .



في ذلك الفضاء الصافي .

واما المناسبة الثالثة ـ وهي التي تختتم سلسلة الافراح بعيد الصليب ـ فتصادف في ٢٨ ايلول وهي عبارة عن وليمة غداء كبيرة تقدم فيها لحوم البقر النيئة ويدعى اليها ما يقرب من ١٥،٠٠٠ ـ ١٨،٠٠٠ شخص . وتكون الوليمة عادة تحت رعاية الامبراطور نفسه . وتسمى هذه المناسبة « غيبور Gebur » . وبالنظر لجسامة عدد المدعوين فيقدم الناس الى الطعام بجماعات متعاقبة حسب مراكزهم الاجتماعية.

ثالثا ـ أما العيد الكبير الثالث فهو عيد الفصح الذي يسبقه صيام ٥٠ يوما بكاملها .

ناهيك عن عشرات الاعياد الصغيرة التي تتمثل بأيام زيارات أضرحة القديسين في الكنائس والاديرة المنتشرة في كافة أرجاء الامبراطورية . الى هذه كلها يشد الاهلون الرحال مستصحبين معهم زادهم ومتاعهم لقضاء أيام هناك للعبادة والتبرك والتنزه .

٨ ـ التقويم القبطي

تبدأ السنة القبطية في يوم ١١ ايلول (سبتمبر) من كل عام بدلا من ١ كانون الثاني (يناير) كما هي الحال في التقويم المسيحي الغريغوري Gregorian Calendar (نسبة الى البابا غريغوريوس) . وبالاضافة الى هذا الفارق فالتقويم القبطي يتأخر عن التقويم الغريغوري (وهو التقويم المستعمل عالميا اليوم) بحوالي ٧ سنوات و ٨ شهور . فمثلا السنة ١٩٧٥ تقابلها السنة ١٩٦٧ في التقويم القبطي تقريبا . لقد نشأ هذا الاختلاف نتيجة اجتهادات عديدة في احتساب الفترة ما بين بدء الخليقة البشرية وميلاد المسيح . ثم أعقبت ذلك تعديلات اخرى أجرتها المؤتمرات المسكونية وخالفتها الكنيسة القبطية ، فأدى ذلك الى بقاء راس السنة القبطية في يوم ١١ ايلول (سبتمبر) بدلا من ٢٩ آب (اغسطس) كما جاء بحساب بعض الكنائس الشرقية الاخرى .

وتاريخ الخليقة التقليدي عندهم هو ٥٥٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح . او بعبارة اخرى فان ميلاد المسيح بالنسبة ليوم الخليقة يصادف سنة ٥٥٠١ . ان الدخول في تفاصيل هذه الفروقات تتطلب دراسة مطولة خاصة . ولذلك سنكتفي بهذه الفكرة العامة عن الفرق بين التقويمين القبطي والغريغوري .

اما اشهر السنة الاثني عشر فكلها عندهم متساوية أي ٣٠ يوما لكل شهر ، أو ٣٦٠ يوما للمجموع . وتبقى هناك فترة زمنية مكونة من خمسة ايام وفي السنة الكبيسة من ستة ، يعرفونها بالشهر الثالث عشر . ومن هنا نشأت فكرة الدعاية السياحية لاثيوبيا التي تعلن عن مناخ



أثيوبيا المعتدل وسطوع الشمس فيها مدة ١٣ شهراً في السنة .

وأما بالنسبة للتوقيت اليومي فالساعة ١٢ عندهم هي وقت غروب الشمس بغض النظر عن اختلاف مواسم السنة ــ كما هي الحال في التوقيت العربي القديم . ومنتصف النهار هو الساعة السادسة بدلا من الساعة ١٢ حسب التوقيت الغربي .

اما الاسبوع القبطي فيتكون من سبعة ايام كما هو في التقاويم الاخرى . ويظهر اثر اللغات السامية في اسماء بعض ايام الاسبوع . فمثلا يوم الاربعاء عندهم يسمى « ربوع ــ Rebu » والخميس « هموس ــ Hamus » والاحد « احود ــ Ihud » .

٩ ــ آداب وألقاب

عرف الاحباش بمراعاتهم واحترامهم المتناهي للتقاليد والعادات والشرائع التي قدسوها طويلا . وبلادهم من أعرق البلاد محافظة على القديم وربما أكثرها تمسكا به واعتزازا بأمجاده . وقد يكون لطبيعتهم الانعزالية فوق الهضبة الحصينة علاقة في رسوخ التقاليد الاصيلة في نفوسهم دون تغيير جيلا بعد جيل . فمثلهم في العزلة والانفرادية وعدم الميل لمعاشرة الآخرين كمثل السويسريين بالنسبة للشعوب الاوروبية الاخرى التي هي اكثر انفتاحا نحو الغير . فالحروب والثورات والتطورات الاجتماعية والنظم الاقتصادية التي عصفت بالكثير من العادات والتقاليد والحواجز الطبقية في اوروبا لم يكن لها اثر في هذه القلعة المنسية ، ولم تنفذ تياراتها الفكرية الى معاقلها الموصدة .

ونشأت مع تقاليدها مفاهيمها وقواعدها الخاصة باداب المجاملة واحترام الغير والعلاقات بين الناس ، ولكل قبيلة وبيئة عنعناتها الخاصة بها . ويمكن القول بصورة عامة ان الحبشي العادي كثير التأدب في سلوكه الاجتماعي على الرغم من بدائيته غير المصقولة . فمثلا اذا ما اراد أحدهم الاستفسار عن أي شيء من شخص آخر رفع له قبعته واحنى رأسه قبل أن يبتدره بالسؤال . واذا خاطب صغير كبيرا احنى له رأسه أولا . وعادة رفع القبعة عن الرأس عندهم من اشارات الاحترام كما كانت عند الاوروبيين حتى اوائل هذا القرن . واذا ما مر رجل من امام كنيسة رفع قبعته عن راسه اجلالا لمكانتها ثم أدار ظهره عنها قليلا مبالغة في الاحترام . اما اذا كان خيالا فيترجل ويظل سائرا على قدميه حتى يتجاوز حدودها . وليس من الآداب عند الحبشي الاصيل مخاطبة احد باسمه المجرد . فانه لا بد ان يسبق اسم المخاطب بكلمة آتو Ato التي تعني « سيد » بالامهارية او « مستر » بالانكليزية .

والمعروف عن الامهاريين الاقحاح بصورة خاصة تمسكهم باداب



المجاملة وتربية اولادهم تربية قويمة . فاذا ما دخل ضيف منزل أحدهم استقبله ابن صاحب المنزل بانحناءة عميقة ثم ارتمى بنفسه على الارض لتقبيل قدميه ان كان من ذوي القربى ، وركبتيه ان كان من الاصدقاء والمعارف . وهناك مثل شائع في اثيوبيا عن خصـال وميزات بعض الشعوب والقبائل مفاده ــ ان الاخلاق والآداب عند الامهاريين ، اما مهارة الصنعة فعند العرب ، واما الحسب والنسب فعند الهراريين .

والفرد الاثيوبي يعتز بالالقاب ويعطي كل ذي حق حقه في مراتب المجتمع . ومع ان الالقاب في اوروبا أخذت بالتلاشي تدريجيا نتيجة تقلص ظل الارستقراطية والنظام الطبقي ، ولم يعد الانسان يسمع بالالقاب مثل الامير والدوق والكونت والبارون الا في أفلام السينما ، فان في اثيوبيا ما زالت هناك ألقاب رسمية متداولة في الاوساط الشعبية بقدر ما هي مرعية على الصعيد الرسمي في الدولة ــ على الاقل حتى الانقلاب الاخير . والمعروف ان كافة الالقاب والمراتب تمنح من قبل الامبراطور .

واذا بدأنا السلم من أسفله فأول مرتبة أو لقب هو « بلمبراس Balambaras » ومفهومها اللغوي « قائد قلعة أو آمر حامية » وليس من الضروري ان يكون حامل هذا اللقب من العسكريين . ويليه في التدرج لقب « كيفنازماتش Kegnazmach » ثم يليه لقب أرفع منه هو « فتوراري Fitwrary » وهو بمثابة لقب فارس عند الانكليز أو Knight . اما من يحمل لقب « دجازماتش Dejazmach فكأنه حمل لقب الكونتية ــ Count عند الاوروبيين .

ثم تأتي مراتب وألقاب أرفع مما مر . فيمنح الامبراطور احيانا بعض الوزراء وحكام الاقاليم البارزين لقب « راس ــ Ras » وهذا انعام رفيع يقابل لقب « دوق » أو أمير عند الاوروبيين . وفي بعض الحالات الخاصة قد يمنح من هم موضع ثقته من كبار الشخصيات في البلاط او الحكومة لقب « بتوديد Betwoded » ومعناه بالامهارية « المحبوب او الامين » . وكان رئيس مجلس الشيوخ السابق يحمل هذا اللقب ؛ وكذلك رئيس الوزراء . وهذه الكلمة الامهارية تعكس أصلها السامي المشتق من المودة أو الود . اما الامراء من البيت المالك فيحملون لقب « لول ــ Leul » . وأخيرا نأتي على لقب لا يعلوه لقب غير الامبراطور ــ ذلك هو لقب « نيغوس ــ Negus » او « ملك » . ومنها جاءت كلمة « النجاشي » بالعربية . كان يحمل هذا اللقب في السابق ملوك الاقاليم والمقاطعات . وآخر مرة منح فيها لقب « ملك » كان سنة ١٩٢٨ . وقد منحته الامبراطورة زاوديتو لهايلا سلاسي عندما كان وصيا على العرش وقد فرضه عليها فرضا اثر الانقلاب العسكري الذي قام به .

أما ألقاب الامبراطور التي تبدأ بعبارة « ملك الملوك » وظهور الاسد



في شعار الدولة فيغلب على الظن أنها مقتبسة من الفرس الذين يلقبون اباطرتهم بملك الملوك (شاهنشاه) . وللدلالة على انحدار البيت المالك من السلالة السليمانية ـ نسبة للملك سليمان وملكة سبأ (حسب الاسطورة الحبشية) ـ يضيفون له لقبا ثانيا هو « أسد قبيلة يهوذا القاهر » . واما لاضفاء الشرعية على الحكم المطلق المستمد من القدرة العلية فقد جاء لقبه الاخير « المنتخب من الاله » فاللقب الرسمي الكامل الذي كان يحمله هايلا سلاسي هو : « ملك الملوك وأسد قبيلة يهوذا القاهر ، المنتخب من الاله ، الامبراطور هايلا سلاسي الاول » .

١٠ ـ البروتوكول في البلاط الاثيوبي

عرف البلاط الاثيوبي منذ فترة طويلة بالتقيد بأصعب المراسيم المعقدة وأكثرها جمودا بل وعنفا . فكان العرف يحتم على رجال البلاط فيما مضى بالزحف على ركبهم عند المثول بين يدي ملك الملوك . ويزحفون الى الوراء لدى مغادرتهم حضرته لكي تبقى وجوههم نحوه . وأي اهمال او تقصير في تطبيق أي من المراسيم داخل البلاط يعرض صاحبه لعقوبة قطع الشفتين . ومن الشكليات المرعية عندهم المبالغة في الانحناء أثناء اللقاء والسلام تعبيرا عن الاحترام الزائد . الا انه يفترض في الانحناء أمام الامبراطور ان يقوس الجسم بحيث يكاد الوجه ان يلامس الارض . ومهما كانت رياضة الانحناء المقوس شاقة فانها أسهل من رياضة الزحف على الركب التي تحمل معها كل معاني الذل والمهانة والوضاعة . واذا كان الوزراء وكبار رجال الدولة يتقوسون على هذا النمط ، اذن فلا غرابة اذا ما أخذ رجل الشارع وضع الانبطاح التام على أرصفة الطرقات لدى مرور الامبراطور بسيارته الرولز رويز.

الا ان هذا العنف والتكلف أخذ يخف في عهد الامبراطور هايلا سلاسي نوعا ما . ولم يعد رجال البلاط يزحفون على الركب .

وبعد انفتاح اثيوبيا نحو العالم المتمدن اخذت تهذب من مراسيمها وتقاليدها الرسمية وتحذف كل الشكليات التي كانت مدعاة لسخرية الاوروبيين بهم . وصارت تقتبس الكثير من الشكليات المتبعة في بلاطات أوروبا لتطعم التراث الاثيوبي بها . وبصورة خاصة جعلت من بلاط السويد نموذجا حذت حذوه في البروتوكول ، مع ان المعروف عن السويد هو ان مراسيم البلاط فيها معقدة ومتكلفة اكثر مما هو معروف في أي بلاط آخر في أوروبا . ويا لها من مفارقات عجيبة ـ بروتوكول يؤتى به من أعرق بلاد الدنيا مدنية وحرية ومن اكثرها رخاء وازدهارا ليطبق في اكثر بلاد الدنيا فاقة وجهلا وتخلفا . يطبق في بلاد ما زال الدائن الى يومنا هذا يكبل المدين بسلسلة حديدية يجره بها اينما حل



أو ارتحل كي لا يفلت منه ، ويسخره بالقيام بشتى أنواع الخدمات مجانا حتى يتم وفاء الدين .

تتم مقابلة الامبراطور عادة باللباس الرسمي للاثيوبيين والاجانب على السواء . ويظهر هو في أغلب الاحيان بالبزة العسكرية الخاكي والاوسمة . والحديث عن المراسيم يجرنا الى الحديث عن بعض الطرائف التي تعكس روح التمرد ضدها واستهجانها حتى عند اكبر الشخصيات التي اعتادت عليها . فيحكى ان ابن احد وزراء الخارجية كان ذات أمسية مدعوا الى وليمة عشاء في قصر جنة الامراء ـ وهو القصر الذي يقيم فيه الامبراطور . فحضر في الوقت المحدد ، غير ان رجال التشريفات منعوه من الدخول لعدم ارتداء لباس العشاء الرسمي . فتملكه الغضب وعاد من حيث أتى ـ عاد الى منزله فغير ملابسه وقفل راجعا الى القصر الامبراطوري . وعندئذ استقبل بالترحاب المألوف . فاتجه نحو مائدة الطعام مباشرة وأخذ يلطخ ثيابه بالمأكولات ، فكان ذلك مثار دهشة المدعوين واستغرابهم ، كما روع الخاصة الامبراطورية . وكان هو يتمتم عبارات فهم منها قوله « ان ثيابه هي التي دعيت لوليمة العشاء وليس شخصه » .

وحضرت ذات مرة الى اديس ابابا ضمن بعثة للامم المتحدة بمهمة خاصة بناء على طلب من وزير الزراعة . وقبيل اختتام اعمالنا امر الامبراطور بمقابلة البعثة وتحدد يوم ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٦٦ لذلك . وكانت البعثة تتكون من خمسة خبراء يمثلون جنسيات ثلاث ـ عراقية وكندية وبريطانية . وكان قد سمح لنا بصورة خاصة بمقابلة جلالته باللباس العادي الغامق نظرا لعدم توفر الالبسة الرسمية معنا والبعثة كانت بحالة سفر وتجوال . ادخلنا رئيس التشريفات ومعنا وزير الزراعة الى حضرته ، فركع الاثنان عند مدخل بهو الاستقبال ولما اصبحنا على مقربة من الامبراطور ، ركعا ثانية كما يركع المرء اثناء الصلاة . اما نحن فطلب الينا ان ننحني امامه انحناءة اعتيادية دونما تكلف . وهكذا فعلنا . وتقارن انحناءات رجال التشريفات في اديس ابابا بالتكلف المماثل في مراسيم البلاط الايراني . وربما اقتبست من الايرانيين في غابر الازمان .

استقبلنا الامبراطور واقفا وصافحنا واحدا واحدا . وبعد ان عرفنا وزير الزراعة بأسمائنا بدأ جلالته بالكلام شاكرا مجهود البعثة والمساعدات التي تسديها الامم المتحدة . فترجمت الكلمة من قبل احد المترجمين وكانت المقابلة قد تمت وقوفا .

وانتهز رئيس البعثة هذه الفرصة للرد على جلالته بعبارات المجاملة . الا انه استطرد فأشار الى سبق اشتراكه هو وزميل آخر



معنا (وكلاهما بريطانيان) في حملة الانقاذ البريطانية التي حررت اثيوبيا من الاحتلال الايطالي خلال الحرب العالمية الثانية . وكان هايلا سلاسي نفسه في تلك الحملة العسكرية . غير ان الامبراطور لم يبد تجاوبا او تحسسا لهذا التلميح . ولعله استهجنه في قرارة نفسه معتبرا ذلك من قبيل تذكيره بمنة الانكليز عليه وانهم هم الذين أعادوا عرشه اليه .

غادرنا البلاط ولم نشعر بثقل المراسيم التي سمعنا وقرانا عنها الشيء الكثير . ولكن من حسن الصدف اننا شاهدنا أسدين اقترن اسم هايلا سلاسي بهما منذ اعتلائه العرش . وكانا طليقين في حدائق القصر ولم تفصل بيننا وبين مربض أحدهما اكثر من ٢٥ مترا تقريبا .



الفصل السادس والعشرون

بوادر انقلاب جديد

عصيان الفرقة الثانية

اهتزت اديس ابابا صبيحة السادس والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٧٤ وصعق حكامها مذ أعلنت الفرقة الثانية ـ وهي أقوى فرق الجيش الاثيوبي ـ عصيانها في مقر قيادتها في اسمره . كما أعلنت انها احتلت مقر الحكومة ومبنى الاذاعة والمطار الدولي ومرافق الدولة الحيوية الاخرى . ان هذا الحدث لم يكن غير متوقع بالنسبة لكثير من المطلعين على أحوال اثيوبيا الداخلية خلال السنوات العشر المنصرمة . اما الامبراطور فقد ذهل وكاد يفقد صوابه لعظم الصدمة . واعتبر ما حدث طعنة من الخلف ـ من الجيش الذي وضع كل ثقته فيه وجعله أقوى القوات الضاربة في شرقي افريقيا عددا وعدة وتدريبا ، واختصه بمهمة في اقليمين يعتبران اكثر الاقاليم احتمالا للانفجار ضد نظام الحكم القائم ـ وهما اقليم تيغره واريتريا . اما اقليم اريتريا فهو يناضل من أجل استقلاله منذ انسحاب الايطاليين عنه سنة ١٩٤١ . وفيه حركة مقاومة مسلحة عنيفة منذ أوائل الستينات ، تتزعمها وتوجهها « جبهة تحرير اريتريا » . واما اقليم تيغره فبينه وبين اقليم شوا الذي ينتمي اليه الامبراطور عداء تاريخي تقليدي . فالتيغريون يعتبرون انفسهم وارثي مجد مملكة اكسوم العتيدة ويشعرون بأرستقراطيتهم وتفوقهم الحضاري على اقليم شوا ، على نحو ما يشعر سكان فلورنسا بشمال ايطاليا بشيء من التعالي والترفع على أهل الجنوب . لقد حدد ضباط الفرقة الثانية مطالبهم بادىء ذي بدء في تحسين الاحوال المعاشية للضباط والجنود ـ وتبعتها مطالب اخرى .

وحاول هايلا سلاسي الاتصال بمقر قيادة الفرقة الثانية للمطالبا بالتأثير على الضباط لوثوقه بولاء هذه الفرقة له ، الا انه لم يوفق ، ام



حاول الاتصال بالحاكم العام ـ وهو صهره ـ فلم يفلح كذلك بسبب سيطرة الجيش على كافة مرافق الدولة هناك . وبقي الوضع الداخلي غامضا في ساعات الصباح الاولى حتى تفجرت في ضحى ذلك اليوم نفسه القنبلة الثانية ، اذ أعلنت الفرقة الرابعة المرابطة في العاصمة تأييدها لحركة الضباط في اسمره وتضامنها معها . فسيطرت هذه الفرقة بدورها على مرافق الدولة الحيوية في اديس ابابا بما في ذلك المطار الدولي الذي سرعان ما أغلق بوجه الطائرات القادمة والمسافرة . عندها خيم جو مشحون بالاضطراب والقلق ، واستحوذ الرعب على الاهالي والاجانب وانقطعت اخبار اثيوبيا عن العالم الخارجي ما عدا بعض الانباء المشوشة المتضاربة . وازداد الوضع الداخلي في آخر هذا اليوم تأزما فأصبح ينذر بالخطر عندما انقسم الجيش بين مؤيدين للامبراطور ومناهضين له . غير انه يمكن الجزم تقريبا ودون مبالغة بأن الاغلبية من صغار الضباط لم يكونوا بجانب معسكر الامبراطور . اما على الصعيد الشعبي ففي خلال سويعات من انتشار نبأ عصيان الفرقة الثانية ودعم الفرقة الرابعة لها ، ازدحمت شوارع العاصمة والمدن الرئيسية الاخرى بالمتظاهرين . فاضطرب حبل الأمن وأغلقت المتاجر أبوابها وتوقفت حركة المرور تقريبا . عندها لم يكن بد من انزال قوات من الشرطة والجيش الى الشارع لتفريق المتظاهرين باستعمال الغاز المسيل للدموع .

ومن سوء حظ الحكومة ان يجيء عصيان الجيش مباشرة في أعقاب اضراب مدمر أقام الحكومة وأقعدها وشل الحركة التعليمية وتسبب في اغلاق كافة مدارس القطر . ذلك هو الاضراب العام الذي أعلنه المعلمون في الثالث والعشرين من شباط ، أي قبل حركة العصيان بثلاثة ايام . فجاء العصيان والحكومة لما تزل تعاني من تلك الصدمة ولم تفق بعد من ضربة المعلمين القاضية . لقد قام المعلمون بهذا الاضراب تعبيرا عن سخطهم لعدم استجابة الحكومة لمطالبهم المتكررة بشأن تطوير المناهج التي لم تعد تتماشى مع مستويات التعليم المعترف بها دوليا . وكان اضراب المعلمين الجريء تحديا سافرا لشخص الامبراطور باعتباره رائد الحركة التعليمية منذ توليه الحكم . وظلوا على اصرارهم في عدم العودة الى المدارس ما لم تسو قضيتهم . فأيدهم بذلك تلامذتهم وطلاب الجامعة ، الامر الذي أدى الى شل الحركة التعليمية بصورة كاملة .

وتطورت الاحداث بسرعة عجيبة وانهالت الاحتجاجات والانتقادات الجريئة على الحكومة والامبراطور معا ـ من الجيش نفسه ومن المتظاهرين في الشارع . وارتفعت اصوات مطالبة بتنحية الوزارةالقائمة واحالة الوزراء الى المحاكمة . وصمت الامبراطور ، ذلك الشيخ المتجبر ، في حيرة وذهول امام هذا الخطب . ولم يكن يحلم ان زمنه سيمتد



به ليراه وقد احاطت به المخاطر وأعيته الحيل بوجـــه عوادي الدهر التي لا تدخل عادة في حساب الجبابرة امثاله .

نعم وهو الان يواجهها وقــد توالت عليـه الضربـات مـن كـل حدب وصوب . فلم يعد الامر مجرد صدفة ان يثور الجيش او ينتفض المعلمون ومربو الجيل او يدوي صوت المواطن مطالبا بحياة افضل وحرية وكرامة انسانية وانتخابات حرة . لقد ضاق الشعب ذرعا من حياة كلها حرمان ـ حرمان في الاحوال المعاشية وحرية التعبير وفرص التعليـم والنشاط الحزبي في الحياة السياسية والضمان الاجتماعي . في البلاد دستور ولكنه حبر على ورق منذ سنة ١٩٣٠ . والمركزية تقيد وتعرقل الاجراءات الحكومية السليمة ، والكنيسة تمتلك ثلث الاراضي القـابلة للزراعة ، والنواب والشيوخ يعينون تعيينا ـ كل هذا هو حصيلة تراث يمتد الى اكثر من ثلاثة آلاف سنة تفاخر اثيوبيا به الاقطار الافريقيـة الاخرى .

انحنى اليوم أسد قبيلة يهوذا القاهر امام العاصفة وطأطأ رأسـه لاول مرة في حياته السياسية . فأقال الوزارة وجاء بوزارة جديـدة على رأسها وزير المواصلات في الوزارة السابقة ـ اندالكاشو ماكونيـن Endel Kachew Makonnen البالغ من العمر ٤٦ عاما . والمعروف عن رئيس الوزراء المنحى ـ اكليلو هابتي ولد Akilu Habte Wold انه كان قد خدم الامبراطور ثلاثة عشر عاما متربعا على كرسي الرئاسـة بصورة متصلة . وفي اليوم التالي توجه وفد وزاري مهم للمفاوضة مع الضباط في اسمره . فأملى الضباط شروطهم ومطالبهم على الامبراطور عن طريق ممثليه . فعاد الوفد الى العاصمة واجتمع على اثر ذلك مجلس الوزراء برئاسة الامبراطور وأقر على الفور أمورا كثيرة ، عدا ما يتعلق بتحسين الامور المعاشية للقوات المسلحة . وفي مقدمة القرارات التـي اتخذت في هذه الجلسة ـ وكلها بضغط من الجيش ـ ما يلي : ١ ـ فرض الاقامة الجبرية على الوزراء السابقين وعـــددهم يقرب من تسعة عشر وزيرا وبعض الشخصيات البارزة . وتقرر ان يقدموا الى المحاكمة عن الفساد وتدهور الاحوال الذي حل بالبلاد نتيجـــة التسيب وضياع المسؤولية وسوء تصرف الحكام. ٢ ـ عـــزل رئيس اركان الجيش. ٣ ـ تعيين وزير للدفاع من بين جنرالات الجيش. ٤ ـ تعيين قائد عام جديد للجيش. ٥ ـ اجراء تبديلات واسعة النطاق في هيئة الاركـان العامة والقيادات في الجيش والشرطة .

ولم يعد خافيا بعد هذه الاجراءات كلها ، ان احلام الضبـــاط لا تنحصر في حدود المطالبة بتحسين الاحوال المعاشية . وان كافـة القرائن والدلائل تشير الى ان الامبراطور قد أصبح في كفة القدر ، وان



عليه ان يقرر فورا الخطوة الثانية للخروج من المأزق بأقل ثمن قبل اتساع نطاقه . هذا وفي غمرة الاحداث المتلاحقة ضربت الفوضى اطنابها في كافة ارجاء القطر والعاصمة . وتملك الخوف والرعب طبقات السكان وباتوا يخشون العواقب . وعندئذ وجه رئيس الوزراء الجديد نداء الى الشعب ناشده فيه بالخلود الى السكينة واعطاء الوزارة الجديدة الفرصة الكافية لمعالجة الموقف بهدوء واستجابة مطالب الشعب . كما وعد باصلاحات اقتصادية واجتماعية جذرية تستهدف خير ورفاهية كافة طبقات المجتمع الانيوبي . على اثر ذلك ساد البلاد نوع من الهدوء النسبي ففتحت بعض المتاجر والحوانيت لمزاولة أعمالها تحت حراسة الشرطة والجيش . وشمل الهدوء أسمره فأذاع الراديو في اليوم الثاني من آذار (مارس) نبأ فتح المطار الدولي واستئناف الرحلات الجوية الى الخارج .

ثورة على الابواب

بعد فترة قصيرة من الهدوء وعودة الحياة الى ما يشبه مجراها الاعتيادي هبت عاصفة جديدة أعادت الرعب والهلع الى القلوب ، وذلك عندما أعلن الاتحاد العام لنقابات العمال الاضراب الشامل في السابع من آذار (مارس) . واتحاد العمال يضم في عضويته قرابة مائة الف عامل . فكان هذا الهدوء الذي لم يدم سوى أيام معدودة من النوع الذي يسبق العاصفة عادة . فشلت الحركة الاقتصادية من جديد وتعطلت الخدمات الاساسية في كافة المدن وتوقف كل شيء بعد أن غصت شوارع العاصمة بجموع المتظاهرين . وعندما اضرب سواق سيارات الاجرة عن العمل اضطرت الحكومة لتسيير باصات النقل بواسطة سواق من الجيش . بعد ذلك انضم عمال ومستخدمو البلديات الى الاضراب فتراكمت القمامة في الشوارع الرئيسية وأحياء السكن وهددت الصحة العامة .

وعزلت اديس ابابا مجددا عن العالم الخارجي عندما اضرب عمال المطار وموظفو برج المراقبة عن العمل . وحذت اسمره حذو العاصمة فتم بذلك انعزال اثيوبيا عن العالم . فان اضراب العمال الشامل هدد اقتصاديات البلاد بالصميم وتسبب في شحة المواد الغذائية والسلع الضرورية الامر الذي دفع بالسلطات العسكرية الى اعتقال عدد غير قليل من زعماء العمال ومن ذوي الميول المتطرفة . غير ان هذا الاجراء لم يزد النار الا ضراما . فتفاقم الامر وهدد العمال بتصعيد الاضراب ما لم يتوقف الجيش عن مضايقة قادة حركتهم والافراج عنهم . عندئذ اقترحت الحكومة عليهم انتداب ممثلين عنهم للتفاوض بشأن مطالبهم .



ودخلت الحكومة في مفاوضات مطولة مع ممثليهم . الا ان الوضع الداخلي ازداد حراجة بسبب فقدان الحكومة سيطرتها على الموقف الذي بات ينذر بالانفجار بعدما نزل الطلاب الى الشارع مجددين استنكارهم وسخطهم على الحكومة ومعلنين تضامنهم مع العمال .

وفي منتصف اليوم العاشر من آذار (مارس) بعد مرور اربعة ايام على الاضراب العام للعمال صدرت موافقة الحكومة على استجابة كافة طلباتهم التي كانت قد جاءت في ١٦ مادة . الا ان البيت القصيد في مجموع هذه المطالب تركز حول اصلاحات تتعلق بالضمان الاجتماعي ووضع حد ادنى للاجور ومجانية التعليم . وعقب الانتهاء من المفاوضات صرح نقيب اتحاد العمال بما معناه (ان الاتفاقية مع الحكومة تعتبر ثورية بالنسبة لبلد غير متطور) . على اثر ذلك عاد العمال الى اعمالهم وأعيد فتح مطار اديس ابابا بوجه الطائرات القادمة والمسافرة وعادت الحياة الى حالة اعتيادية نوعا ما . وبما ان عمال المطار وموظفي برج المراقبة لم يستجيبوا لنداء انهاء الاضراب فقد اضطرت الحكومة الى تسيير الاعمال في المطارات كلها بواسطة الموظفين الاداريين .

اما الطلاب فقد واصلوا نشاطهم المعادي للحكومة وذلك بتنظيم مسيرات في الشوارع وتجمعات خلال الايام التي تلت انتهاء اضراب العمال وخاصة يوم ١٤ آذار عندما اعلن عمال التبغ ومصنع السكر الكبير والسمنت اضرابهم . ومما يلفت النظر انه حتى القساوسة انتهزوا هذه الفرصة للحصول على بعض المكاسب . فقد هدد حوالي مائتي الف منهم بالاضراب ما لم ينظر في رواتبهم . الا ان البطريارك تدارك الامر بسرعة وبحزم واوعدهم بالزيادة فتراجعوا في الحال . ومن ناحية اخرى خرجت مظاهرة فريدة ضمت حوالي ثلاثة آلاف امرأة اكثرهن ممن يتسكعن في الشوارع ، حملن شعارات مختلفة يطالبن بتحسين مستوى مكافأتهن . واستمر الوضع غير المستقر المترجرج على هذا النحو بين مد وجزر بحيث لم يعد من المستطاع التكهن بما يحمله اليوم الثاني من المفاجآت وغرائب الاحداث . فكلما رتقت الحكومة فتقا بسيطا ظهر فتق آخر اوسع وأمر منه لم يكن بالحسبان . وقد وقعت اضطرابات جديدة في أنحاء مختلفة من البلاد . من ذلك ان السلاح الجوي حاول التمرد في مقره في ديبره زيت (اي الزيت المقدس) الا ان قوات المظليين الموالية للامبراطور تصدت له فورا وطوقت مقره واحبطت حركته . وفي الشمال أفادت أنباء أسمره بأن وحدات الجيش والشرطة هناك اعتقلت من نعتتهم بالعناصر المخربة التي تريد بالبلاد سوءا . كما ان الوزارة الجديدة فصلت عن الخدمة عددا كبيرا من ضباط الشرطة في اسمره وسلمت المنطقة للقوات الموالية للامبراطور . ولم تزل هناك شكوك قوية تخيم على مستقبل البلاد اذ لم يعرف بالضبط ما هي



الخطوة الثانية للقوات المسلحة . والمعروف ان الجيش المرابط في هرار كان هو الآخر قد اعلن عصيانه تضامنا مع حركة الفرقة الثانية .

ان القول المعروف بأن (الثورة تأكل اطفالها) قد انطبق انطباقا كليا هنا . فقد جاء نبأ من اسمره يفيد بأن الضباط قد اعفوا قائد الفرقة الثانية من منصبه . كما فصلت الحكومة ٢٠٠ ضابط بضغط من الجيش ، وكذلك عزل محافظ البنك المركزي وامين العاصمة . وليس ذلك فحسب بل طالب الى الحكومة تنحية الحاكم العام في اريتريا او نقله الى اقليم آخر . وكشفت بعض الاحداث النقاب عن وجود بوادر صراع خفي ومتصاعد داخل صفوف القوات المسلحة من اجل السيطرة على الحكم وراء الستار . ولم يعد بمقدور المرء معرفة او التكهن بمن يحكم البلاد حقيقة في هذه الاونة الحرجة ـ أهو الامبراطور أم الجيش أم الوزارة . الا ان الشيء الوحيد الذي لا يمكن ان يختلف فيه اثنان هو انه لا الامبراطور ولا الجيش ولا الوزارة أصبح بمقدور اي منهم السيطرة على الوضع المتدهور المنهار الذي زال معه شبح الحكومة في كل مكان .

في غمرة هذه الاحداث المرعبة الدامية والبلاد تمر بأحلك أزمة شهدها تاريخها المعاصر واذا بالفلاحين يطلقون قنبلة جديدة استهدفت حرق الحرث والنسل في الريف الاثيوبي . فقد اشعلوا الفتيل لما كاد ينقلب الى ثورة حمراء وذلك باقدامهم على قتل بعض ملاك الاراضي الزراعية بعد ان استولوا عليها وأضرموا النار بالحاصلات ومساكن اصحابها . حدث ذلك في اليوم الثامن والعشرين من آذار (مارس) في موقع لا يبعد كثيرا عن العاصمة وفي بعض مناطق الجنوب . غير ان الحدث لم يتسع نطاقه بناء على تدخل السلطة وتطويق الحركة .

وبالقرب من ميناء مصوع على البحر الاحمر احتجز الثوار الاريتريون خمسة مهندسين امريكيين وكنديين يعملون في التنقيب عن النفط كانت طائرتهم من طراز هليكوبتر قد أصابها عطب فاضطرت للهبوط هناك . بقي هؤلاء محتجزين فترة غير قليلة كان الثوار خلالها يعلنون عن حسن المعاملة التي يلقاها الرهائن على ايديهم . وفي الفترة نفسها وقعت حوادث فردية كاختطاف بعض الممرضات واشخاص ابرياء لا علاقة لهم في النزاع الدائر بين السلطة والشعب . وبعد حوالي ثلاثة شهور أفرج عن ممرضة مختطفة .

شرارة من موسكو

وعلى الرغم من حالة الهياج العام فمما يلفت نظر الباحث في تفاصيل الاحداث التي مر ذكرها هو ان أحدا لم يرفع صوتا واحدا او يطلق اشارة تلميح ، ولو بشكل عابر ، ينطوي على المساس بالذات



الامبراطورية ، وعلى الرغم من توجيه اللوم للامبراطور وحكومته . وقد يكون الحادث الوحيد الذي استهدف التعرض لعرش اثيوبيا بصورة مباشرة وصريحة هي الشرارة التي أطلقها الطلاب الاثيوبيون الذين يدرسون في جامعات موسكو . ففي اليوم التاسع من آذار قام حوالي مائة طالب اثيوبي باحتلال السفارة الاثيوبية هناك لعدة ساعات بصورة سلمية . وفي خلال هذه الفترة طيروا برقية معنونة الى الامبراطور هايلا سلاسي شخصيا يطالبونه فيها بالتنازل عن العرش وباعلان اثيوبيا جمهورية شعبية ديمقراطية . كما اشاروا على الحكومة الجديدة بالاستقالة فورا .

وفي الحقيقة ان هذه لم تكن أول شرارة توجه لعرش اثيوبيا . فقد كان بين الوطنيين الاثيوبيين الذين عادوا الى البلاد من المنفى سنة ١٩٤١ من رفع صوته وردد نغمة الجمهورية والمطالبة باسدال الستار على نظام الملكية المطلقة وتنفيذ الاصلاحات الداخلية . الا ان هؤلاء الوطنيين الرواد لم تسمع أصواتهم بعد ذلك التاريخ ولم يعد الشعب يعرف عن أحدهم شيئا .

التعليم والمتعلمون

لا ينكر ان هايلا سلاسي كان أول من وضع أسس النهضةالتعليمية الحديثة في اثيوبيا وكان رائدها . فقد رعاها وحرص على تنميتها منذ توليه الحكم في أوائل القرن الحالي . وحارب الكنيسة وأساليبها الرجعية في التعليم الضيق الآفاق المبني على الاساطير . اذ يقوم بالتدريس في مدارسها رجال دين هم أقرب الى الاميين منهم الى المتعلمين . فنشر التعليم العام في المدارس العمومية التابعة للحكومة كان شيئا من منجزاته . وهو الذي أسس الجامعة وارسى دعائم التعليم العالي في مختلف ميادينه ووجه جل اهتمامه وعنايته للنهوض بهما — أي التعليم العام والتعليم الجامعي .

لقد ثار على ضحالة ما توفره مدارس الكنيسة القبطية من مواد التعليم التي لم تعد تتجاوب والمسيرة الحضارية بسبب انكماشها داخل اطار ديني بحت ، مما ادى الىاعاقة تهذيبه وتطويره . فأراد الاستعاضة عنه بالتعليم العام الحر الذي تضطلع بمسؤولياته الدولة لكي يصبح بعيدا عن المؤثرات الدينية وبعين الوقت يتماشى مع الاتجاهاتالتربوية الحديثة التي تستهدف تنمية المواهب وصقل عقول النشء الجديد . الا انه سرعان ما انقلب على رجال التعليم وصار يعارض في ادخال التحسينات على مناهج الدراسة لتوسيع آفاق المخطط التربوي العام وتوجيهه لخدمة حاجة الفرد والمجتمع ، وذلك تحت ستار منع تسرب الافكار والمبادىء الضارة . وظلت المناهج التعليمية بعيدة عن متناول



يد الاصلاح والتحسين حتى طغت عليها بمرور الايام حالة مؤلمة من الجمود والتخلف . فهو ، على سبيل المثال ، لا يستسيغ ولا يروق له تدريس تاريخ اثيوبيا في المدارس العامة الا اذا سلطت اضواء كافية على مناهج هذه المادة لتعكس فضل الاسراة السليمانية في تكوين التراث الاثيوبي (١) .

والبيت القصيد في اضفاء هالة من التقديس والتعظيم على الاسرة السليمانية طبعا هو للتركيز على حق الملك المقدس في الحكم على اساس ان سليمان الحكيم كان نبيا وملكا ، اذن فعقبه الذين ينحصر الملك فيهم شرعا هم ايضا يحكمون بتفويض الهي . هكذا تقول الاسطورة التي يتناقلها الناس ويقرون صحتها عن ايمان راسخ لا يتزعزع . غير ان الطبقة المتعلمة لا تعتبر ذلك سوى اسطورة لا تقرها الدراسات الحديثة . وبنظرهم فلا يصح ان تستوعب هذه القصة الوهمية جل تاريخ اثيوبيا على مدى ثلاثة آلاف سنة .

واستمر مرجل الاستياء والتذمر بين المعلمين والمتعلمين في غليانه فيما استمر الامبراطور في اصراره على عدم اعارة ناصحيه ومنتقديه من المربين اذنا صاغية . فكانت ثورة المعلمين عليه في الاضراب العام الذي أعلنوه تعبيرا عن استيائهم من عقم المناهج الدراسية .

يتطلع الطلاب الجامعيون في اديس ابابا الى ما حولهم من الجامعات في افريقيا السوداء والالم يحز نفوسهم لما يتمتع به الطلاب هناك من ديمقراطية وحرية في التعبير والاجتماعات العامة بالمقارنة مع المضايقات التي يعانون منها هم واساتذتهم على السواء . فالمكتبة في جامعة هايلا سلاسي الاول مثلا تفتقر الى كثير من الكتب الثقافية العامة وبعض المراجع بسبب معارضة الامبراطور وهيئة رقابته في ادخال هذه الكتب الى البلاد ، اما لان مؤلفيها تناولوا سياسته أو بعض أعماله بالنقد او لانه يعتقد بأن مطالعة مثل هذه الكتب تضر بهم ، في حين ان جامعة ماكيريري في يوغنده مثلا والجامعات الخمس في نايجيريا وجامعة غانا كلها تفخر بمستوى جامعي يرفعها الى مصاف أمهات الجامعات المعترف بها . وهكذا نشأت بوادر الصراع الخفي بين القديم المتمثل بعقلية الامبراطور وحاشيته والحديث المتمثل بالطلاب . فمشكلة الجامعة والطلاب والمعلمين اصبحت عقدة مستعصية يكمن حلها ضمن السياسة التي يؤمل ان تتوصل اليها الحكومة الجديدة والمعنيين بشؤون التعليم لكي يوضع كل شيء في نصابه .

---

١ ـ راجع كلمة الجنرال منفيستو نواي امام المحكمة العسكرية في الفصل الحادي والعشرين .



لجنة دستورية

وأخيرا ، وتحت ضغط الجيش والشعب الاثيوبي بمختلف طبقاته ، اذعن الامبراطور فأعلن عن عزمه على تعديل الدستور وكلف رئيس الوزراء الجديد بتأليف هيئة برلمانية لهذا الغرض على ان تنجز مهمتها في ظرف ستة شهور . ولما عادت الاضطرابات الطلابية والعمالية الى حدتها وعنفها عاد وصرح بأنه سيمنح حريات سياسية أوسع وانه سوف لا يعارض بعد الآن في قيام أحزاب سياسية في البلاد وفق ما تقره الهيئة البرلمانية المؤلفة لغرض تعديل الدستور . وفي تصريحه الجديد أكد على ان النظام الملكي سيبقى كما كان عبر الاجيال عاملا موحدا للشعب الاثيوبي . وقال انه يرى بأن أفضل نظام يناسب البلاد هو نظام الحزب الواحد .

اما الوزارة الجديدة برئاسة اندلكاتشو ماكونين فعكفت خلال شهر آذار (مارس) كله – والبلاد تسبح في خضم رهيب من الاضطرابات والقلاقل – على معالجة الامور الملحة واستعراض الاجراءات الممكن اتخاذها بصورة فردية لتحقيق قدر من الاصلاحات تطمينا لرغبات الشعب . كما انها توصلت ، بعد مفاوضات مكثفة مع اتحاد نقابات العمال ، الى اتفاق مقبول ، وأخيرا أصدرت بيانها التاريخي في اليوم الثامن من نيسان (ابريل) الذي جاء في ١٤ صحيفة .

تضمن البيان الخطوط العريضة للسياسة الاصلاحية التي تكفلت حكومة ماكونين بتنفيذها . وفيما يلي ابرز معالمه :

١ – « ان الملكية في اثيوبيا ستصبح دستورية بمعنى الكلمة » . ليت شعري هل هذا يعني حقا ان الاثيوبيين سينعمون بعد الآن بالحياة الديمقراطية الحرة ؟ ان ما يدعو لاثارة هذا السؤال هو ان الدستور المعدل سنة ١٩٥٥ كذلك عرف الملكية بأنها دستورية . واذا بها في الواقع اوتوقراطية من الطراز الاول .

٢ – « ان رئيس الوزراء سيكون مسؤولا امام البرلمان » . ان هذا التعديل لخطوة بالاتجاه الدستوري الصحيح . فقد كان رئيس الحكومة حتى صدور هذا البيان مسؤولا امام الامبراطور فقط . فلم يكن باستطاعة البرلمان والحالة هذه اسقاط الحكومة عن طريق حجب الثقة عنها كما هو مألوف في الانظمة البرلمانية التقليدية .

٣ – « ان الحكومة ستتمكن من تقديم المقترحات النهائية لتعديل الدستور بعد مرور ستة اسابيع تقريبا » ، أي بعد ان تنهي الهيئة البرلمانية المكلفة بتعديل الدستور مهمتها .

٤ – « ان الهيئة البرلمانية المنوه عنها في الفقرة السابقة تدرس الآن سلطات الامبراطور وتعيد النظر في الصلاحيات التي يتمتع بها بموجب دستور ١٩٥٥ » .



٥ ــ ان من جملة الاصلاحات التي توليها الحكومة أهمية بالغة وتعتزم وضعها موضع التنفيذ الفوري هي :

أولا ــ اقرار تشريع ملائم للاصلاح الزراعي .

ثانيا ــ توزيع الاراضي الفائضة لمن لا يمتلكون الاراضي من الزراع.

ثالثا ــ توزيع مساحات شاسعة من الاراضي التي تمتلكها الدولة.

٦ ــ جاء في البيان ان الدولة تعطي موضوع المجاعة التي حدثت نتيجة الجفاف الذي اجتاح القارة الافريقية أولوية خاصة وهي قائمة باتخاذ ما يلزم لاسعاف المنكوبين بسبب هذه الكارثة .

ان بنود هذه الوثيقة التاريخية لو اتيح لاية حكومة تنفيذها لقفزت بالبلاد الى مستوى المثالية في غضون سنوات معدودة ، سواء أكان ما يتعلق منها بالناحية السياسية او الاقتصادية التي استهدفت معالجة مشكلة استغلال الارض والنظام الزراعي عامة . ولكن ما يخشاه المرء هو هل ان الحكومة المدنية او العسكريين الذين يضغطون عليها سيحترمونها ويلتزمون بتطبيقها حقا أم انها ستندثر ويطويها النسيان فتظل اثيوبيا هي هي . ويا ترى هل ان هذا الشعب الغاضب الذي يعيش ساعات الفوضى والاضطراب سيمهل الحكومة ويفسح لها المجال الكافي للعمل بهدوء وروية على تحقيق هذه الاهداف . ومن المعلوم ان الحكومة قبل صدور هذا البيان قد تعرضت لمناقشات حادة كادت ان تتجاوز لغة الكلام داخل البرلمان بصدد المجاعة ، وطلب اليها تبيان حجم وماهية المساعدة التي تعتزم تقديمها للمصابين بالكارثة .

لا بأس يا غيرمامي

عند عودة هايلا سلاسي من البرازيل بعيد الانقلاب العسكري الفاشل سنة ١٩٦٠ طلب احضار جثة غيرمامي احد أقطاب الانقلاب وذلك لمشاهدتها . وكان غيرمامي قد أطلق الرصاص على نفسه كي لا يقع في قبضة البوليس الذي تعقبه وحاصره في جبال انتوتو المحيطة بالعاصمة . ان هذا الطلب الغريب من الامبراطور لرؤية جثة رجل ميت يعكس مبلغ الفزع الذي كان يكمن في نفسه من هذا الرجل . ويبدو ان الامبراطور لم يكن قد اقتنع بحقيقة مصرع ونهاية غيرمامي فأراد دفع الشك باليقين ، ومن أجل ذلك طلب احضار الجثة ليراها بأم عينيه . فجيء بها بعد غسلها وتنظيفها لكي يسهل عليه تشخيصها ــ فهو يعرف غيرمامي عن كثب حق المعرفة ــ وطرحت على درجات قصر اليوبيل . فنزل الدرجات الرخامية اللماعة تحف به خاصته ومرافقوه ووقف امامها برهة متأملا ، ممعنا النظر فيها حتى شفى غليله بالاطمئنان لزوال هذا الشبح الرهيب من سبيل حياته . فقال لجلاديه وهو يهم بالدخول الى القصر ان يعلقوا الجثة على مشنقة تنصب امام كتدرائية القديس جورج



لمدة يوم كامل . قال ذلك وكأن لسان حاله يردد قول معاوية بن ابي سفيان: « من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى » . ونسي المثل الاثيوبي الذي يقول : « الحصان الميت لا يطعن » .

وتجمع حول المشنقة خلق كثير . ومر من أمام الجثة الهامدة السابحة في الفضاء عابر سبيل حز في نفسه رؤية هذا المشهد الرهيب المؤلم لآدمي فارق الحياة منذ أيام ولكن الجلادين أبوا الا ان يعذبوه وهو في عالم آخر . فهزته مشاعره ودنا من الجثة المعلقة وخاطبها بصوت مسموع :

« لا بأس يا غيرمامي . سيأتي يوم ننصب لك تمثالا من ذهب » .

ان ما يجري في اثيوبيا اليوم يشير بوضوح الى فشل هايلا سلاسي في القضاء على الوعي المتزايد بين الناس . كما يشير الى ان الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٧٤ كانت عبارة عن فترة تجمعت فيها العاصفة وتهيأت عناصرها لتدشين عهد جديد . فاذا كان هايلا سلاسي قد استطاع ان ينصب مشنقة واحدة امام كتدرائية القديس جورج قبل أربعة عشر عاما فليس باستطاعته اليوم تعليق الشعب الاثيوبي بكامله على المشانق .

تهديد له مغزاه

في خضم هذه الاحداث المستعرة وهياج مختلف طبقات الشعب وكلها تطالب بتحسين الاحوال ـ من معاشية وسياسية وتعليمية وغيرها ـ ارتفعت على حين غرة صيحة مدوية بعد كبت دام اربعة قرون ونيف . انطلقت هذه الصيحة من السكان المسلمين الذين هددوا بالاضراب العام احتجاجا على استمرار التمييز الديني الذي فرضه عليهم الحكام الامهاريون . وطالبوا بوضع حد لسياسة الباب المقفل ضدهم في المدارس العامة والكليات الجامعية ووظائف الدولة ، او بكلمة اخرى فقد ناشدوا الدولة بمراعاة حقوق المواطنة . وفي ٢٠ نيسان (ابريل) نظموا مظاهرة كبرى سار فيها نحو مائة الف مسلم واشترك معهم عدد ضخم من طلاب الجامعة والعمال تأييدا لمطالبهم . فبدأت المسيرة من الجامع الكبير في الحي الاسلامي ، وبعد ان طافت شوارع العاصمة الرئيسية انتهت بالقصر الامبراطوري .

والمعروف عن المسلمين في اثيوبيا انهم يشكلون نصف السكان على الاقل ، غير انهم يرزحون تحت طغيان تعصب ديني لا يرحم ،



أرسى قواعده وغذاه يوحنا الرابع في القرن التاسع عشر . ثم جاء عهد منليك الثاني فزاد في الطين بلة باستيلائه على الممالك الاسلامية المجاورة بحد السيف ، ولم تكن فيما سبق تابعة لاثيوبيا . الا ان المسلمين لقوا ، ولكن ليس في كل مكان ، في عهد هايلا سلاسي تخفيفا من القيود التي كانت مفروضة على نمط حياتهم وحريتهم الفردية . فضمنت الدولة حرية العبادة لهم ولم تعارض ببناء المساجد . الا انها كانت من الناحية الثانية تشجع ازدهار المشيخات الدينية وترعى مراكز الطرق الصوفية التي لا تمت للدين الحنيف بصلة .

الفصل السابع والعشرون

اثيوبيا في قبضة الجيش

اسطورة ٣٠٠٠ عام تقترب من نهايتها

مضت اكثر من اربعة شهور على تمرد الجيش في ٢٦ شباط (فبراير) والعسكريون لم يفصحوا عن موقفهم الحقيقي بالنسبة لشكل الحكم الذي يخططون له او مستقبل النظام القائم . الا ان العلاقات بينهم وبين وزارة ماكونين سارت سيرة تحفظ ويقظة ، ولو ان تدخلهم في القضايا العامة مكنهم من وضع اصابعهم على كافة الاوتار الحساسة بحكم الواقع من وراء الستار . غير انه بحلول الاسبوع الاول من تموز (يوليو) عاد العسكريون الى استعراض عضلاتهم وذلك باصدار بيان مفاجىء مكون من ١٣ مادة حددوا فيه الخطوط العريضة لسياستهم . فاستهلوه بعبارة مجاملة للامبراطور اشارت الى « أن الجيش مقيم على ولائه للامبراطور » . لكنه من الناحية الثانية نوه عن عدم الثقة بالوزارة القائمة ، كما وألمح عن عدم الاطمئنان لجدية الاجراءات التي اتخذتها او سوف تتخذها مستقبلا لاجتثاث الفساد المتفشي في جهاز الدولة وضمان تنفيذ سياسة اصلاحية شاملة .

وفي مقدمة ما جاء في البيان المطالبة بانهاء عطلة البرلمان ودعوته لجلسة طارئة لاستصدار بعض التشريعات الكفيلة بالسير بالبلاد قدما نحو الاصلاح الذي طالب به الشعب . ومما جاء فيه بصورة خاصة المطالبة بتعديل الدستور ومحاكمة المفسدين من رجال الحكم الذين وجهت للبعض منهم اتهامات خطيرة . وكذلك طالب البيان بوضع حد للالتزامات الدينية والقبلية . ولعل البيت القصيد في كل ما جاء هو المطالبة الملحة بتعديل المواد الدستورية الخاصة بسلطات الامبراطور بشكل يضمن انهاء ما يقرب من ستين عاما من الحكم المطلق الذي مارسه هايلا سلاسي الاول .

لم يبق هذا البيان أي مجال للشك فيما يعتزم الضباط القيام بـه في الايام القادمة . فقد وضع الناطق باسمهم النقاط على الحروف في تصريح أدلى به بعد نشر البيان فقال : « اذا كانت الوزارة لديها السلطة فالجيش لديه القوة » . ففي هذه الفقرة ما يكفي للاشارة بأن الضباط قرروا الخروج من ثكناتهم الى مسرح الاحداث بشكل سافر . ويكفـي انهم خلال شهري تموز وآب (يوليو واغسطس) قاموا باعتقال عشرات الوزراء والساسة وكبار ملاك الاراضي واودعوهم في معتقلات خاصة. هذا ومن طرائف الامور انهم قاموا بتحويل نادي الغولف في اديس ابابا الى معتقل بعد اجراء التعديلات والتوسيعات عليه لاستيعاب اكبر عدد ممكن من الضيوف .

وبعين الوقت وجهت القوات المسلحة انذارا لبعض السياسيين وكبار الاقطاعيين الهاربين او المختفين عن الانظار داخل البلاد تدعوهم فيه لتسليم أنفسهم خلال فترة معينة . وبخـلاف ذلك فسيعتبرون « أعداء اثيوبيا » وعندئذ تصادر ممتلكاتهم وثرواتهم . ولم يغفل الضباط عن اعتقال بعض أقرب المقربين لهايلا سلاسي . ففي السابع من تموز (يوليو) اعتقل الحرس الامبراطوري المارشـال الامير اسرات كاسا Asrat Kassa رئيس مجلس التاج ، وهو من الامراء المنحدرين مـن السلالة السليمانية ، الامر الذي زاد من قلق هايلا سلاسي وبات يخشى عاقبة هذا الانقلاب الهادىء المقسط . ولعل قلبه صار يحدثه ان دوره هو قادم لا محالة . فالضباط الذين يكررون له الولاء التام في كـل مناسبة قد يقلبون له ظهر المجن في أية لحظة .

لقد بلغت الاحوال في الدولة مرحلة أصبح معها الامر واضحا ان هايلا سلاسي ، ذلك الثعلب العجوز ، قد استسلم للجيش وانتهى امره كامبراطور وحاكم مطلق في هضبته العتيدة . واذا كان قد لاح في المراحل الاولى من الانقلاب ان هناك بعض الامل وشيئا من الرجاء في بقاء حكمه خلال الايام المعدودة المتبقية من حياته ــ وقـد بلغ الثانية والثمانين ــ بعطف من بعض كبار الجنرالات ، فان معارضة الشبان من العسكريين ، تساندهم غالبية المثقفين وكافة العمال ، قد بددت هذا الامل وسـدت منافذ الرجاء لتحقيقه ، كما اثبتت الاحداث فيما بعد . ولم يعد خافيا ان اسطورة « ملكة سبأ » سوف لا يكتب لها ان تحتل مركز الصـدارة في تاريخ هذه البلاد بعد اليوم .

هذا لا يمكن ان يستمر

ان ظروف الحكم التي اتسمت مؤخرا بكثرة الاعتقالات والتغييرات في مناصب الدولة الحساسة وتدخل القوات المسلحة بكل صغيـرة وكبيرة ، فضلا عن الفوضى التي ضربت اطنابها في كافة ارجاء البلاد ،



تركت اثيوبيا بغير زعامة سياسية مسؤولة على الرغم من وجود وزارة ووزراء . وازاء هذا الوضع الآخذ بالتدهور والمستقبل المجهول فقد عيل صبر رئيس الوزراء (ماكونين) وضاق ذرعا من موقف العسكريين المبهم . فبينما هم يرفضون الاشتراك بمسؤولية الحكم بصورة رسميه تراهم وقد قيدوا نشاط الحكومة وفعالياتها من وراء الستار ، متخطين بذلك كافة أجهزة الدولة المختصة واداراتها . فينصبون في الوظائف ذات المسؤولية الحساسة من يشاؤون ويعزلون من يشاؤون .

في خضم هذه الاحوال المضطربة أوفد رئيس الوزراء مبعوثا خاصا عنه الى قيادة الجيش (لجنة التنسيق للقوات المسلحة) ــ هو زاودي غيبره سلاسي Zaudi Gebre Selassie وزير الخارجية ليفهمهم نيابة عن الحكومة بأن « هذا الوضع لا يمكن ان يستمر » . وليبلغهم رسالة رئيس الوزراء الشفهية التي تقول : « أنا لا أخشى ان يعتبرني الضباط عدوهم ولكني لا أقبل لنفسي أن اموت وأنا عدو الشعب » . وتمضي رسالة رئيس الوزراء الى القول : « فاما ان يتركوا الوزارة تعمل بهدوء حسب سياستها التي أعلنتها ويعطوها الفرصة المناسبة لتنفيذها وحل مشاكل الامة ، واما ان يتسلم الضباط انفسهم مقاليد الحكم ويديروا شؤون البلاد على مسؤوليتهم » . ان هذا الموقف لجريء حقا من رئيس الوزراء في ظروف أصبح فيها الحكم للسيف . وهذا كلام كان يجب توجيهه للامبراطور في عنفوان طغيانه .

عاد مبعوث رئيس الحكومة بعد اجتماعه بالضباط بخفي حنين ، اذ لم يكتف هؤلاء انهم لم يعبأوا بتحديد موقفهم كما طلب رئيس الحكومة، بل توجه وفد منهم ضم خمسين ضابطا الى قصر الامبراطور . هناك ، وبعد تجديد آيات الولاء له كرروا مطالبهم السابقة حول التعجيل بتطهير البلاد من عناصرها الفاسدة المتمثلة بالنبلاء والاقطاعيين . وفي حوالي منتصف تموز (يوليو) ــ أي بعيد مقابلة الضباط للامبراطور ، تجددت حملة الاعتقالات بناء على ضغط من الجيش طبعا ــ فشملت عددا كبيرا من المسؤولين في الوزارات والمؤسسات الاخرى وحتى وزير الدفاع القائم ونفرا من مستشاري الامبراطور . فلما انتهت هذه الحملة الجديدة صرح ناطق باسم الجيش : « ان العسكريين لن يعودوا الى ثكناتهم قبل تطهير البلاد من ماضيها » .

دخلت حركة الانقلاب شهرها الخامس ولم تلمس البلاد شيئا من الاصلاحات الموعودة سوى انباء الاعتقالات وبعض الاجراءات الفورية المرتجلة . وعاش الاهالي طيلة هذه الاشهر على اعصابهم بين الرعب والشائعات المفزعة والحذر من المجهول ، وما اكثر حالات استغلال الخصومات الفردية للايقاع بالابرياء . ومن أجل ذلك فضل كثير من الناس ان يقبعوا في مساكنهم ليتجنبوا الاشرار . وكانت شوارع



أديس أبابا قد أقفرت من المارة معظم أوقات النهار ما عدا الاطفال ورجال الشرطة . وان غياب شبح الحكومة عن الانظار فترة طويلة من شأنه تشجيع الرجوع الى النزعة القبلية وبعث روح العداء والمنازعات الدينية والاقليمية . وهذا ما يخشى منه في بلد كأثيوبيا له تاريخ حافل بعنعناته التي قد تجد جوانب الشر فيها متنفسا مثاليا للظهور . كما ان استمرار ضياع المسؤولية فترة طويلة كالتي نحن بصددها ، يخلق الظروف الخصبة المؤاتية لرجل الشارع والسياسة الفوغائية للسيطرة على عناصر الشعب الطيبة الوادعة . فتندفع هذه غير مخيرة باتجاهات شتى وقد أطلقت العنان لعواطفها لا لعقولها للتحكم بتصرفاتها .

ان بعض طبقات الشعب التي غمرتها موجة من الفرح وهللت وباركت قيام الجيش بوجه « الحكم الفاسد » اصيبت بخيبة امل وخيم عليها اليأس وفترت اندفاعاتها الحماسية لطول الفترة التي انقضت في انتظار الفرج ـ والفرج تمثل في التصريحات والبيانات فقط دون أن يلمس في واقع الحياة اليومية . فيبدو انه لا الجيش استطاع اسعاف المناطق المنكوبة بالمجاعة التي هدرت كرامة الانسان ، ولا الوزارة تمكنت من اعادة الثقة والطمأنينة لنفوس الكسبة والتجار وضمان عودة الحركة الاقتصادية الى نشاطها الاعتيادي . فتفاقمت الاحوال وخيم الكساد على حركة البيع والشراء واختفت البضائع والسلع الاستهلاكية . وتضرر ارباب الاعمال اليومية ومتوسطو الحال والعمال . فأصيب اقتصاد البلاد من جراء ذلك بشبه شلل تام . وعلى سبيل المثال فان الاضرار الجسيمة التي أصابت تجارة وتعليب اللحوم وتصديرها وكذلك المنتجات الزراعية لم يكن بالمستطاع تقديرها تحت الظروف السائدة . أما البن ، وهو عماد صادرات البلاد ، فقد انخفض معدل تصديره بشكل مذهل بسبب الركود في حركة الموانىء على البحر الاحمر وتوقف المواصلات بين مراكز الانتاج ومحطات التجميع والتصنيع .

وفي أعقاب المجابهة التي نشأت مؤخرا بين رئيس الوزراء والقوات المسلحة عاد الوضع الى التأزم . فأبدى خلاله رئيس الوزراء شجاعة وتصميما على وضع الحد الفاصل بين مسؤولياته كرئيس للحكومة وبين اي تدخل من خارج الوزارة ووقف مواقف صلبة ازاء تحديات الجيش ولكن بمرونة سياسية حذرة ورحابة صدر . الا ان العسكريين شاءوا تصعيد الخلاف في وجهات نظر الطرفين محرجين بذلك موقف الحكومة حتى انه لم يبق في القوس منزع . فقدم السيد ماكونين استقالته من رئاسة الوزراء في اليوم الثالث والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٧٤ . وعلى اثر ذلك صدرت اوامر القوات المسلحة باعتقاله بتهمة محاولة الايقاع بين صفوف الضباط ومساعدة بعض المعتقلين من اعضاء الوزارة



المقالة في شباط (فبراير) الماضي . وفي هذه المناسبة اعلن الجيش ان كافة المعتقلين سيحقق معهم للوقوف على مدى اثرائهم على حساب الامة . وصادف ان احتفل هايلا سلاسي بعيد ميلاده الثاني والثمانين خلال هذه الايام ، فوجه خطابا الى الامة من على شرفة قصره ناشد فيه المدنيين والعسكريين على العمل لضمان الاستقرار والسلام في البلاد .

لعب الجيش دوره الحاسم بعد اعتقال ماكونين فرشح ميخائيل ايمرو Michael Imru لرئاسة الوزراء . وصدر المرسوم الامبراطوري بتعيينه لهذا المنصب دونما معارضة من جانب الامبراطور على الرغم من ان ميخائيل ايمرو هذا هو ابن الراس ايمرو Ras Imru الذي سبق له ان تعاون مع الضباط الذين قادوا الانقلاب الفاشل سنة ١٩٦٠ ورشحوه لرئاسة الوزارة آنذاك . وتجدر الاشارة الى ان الراس ايمرو هو من ابناء عمومة هايلا سلاسي ، وان ابنه ، أي رئيس الوزراء الجديد ، يبلغ من العمر ٤٤ سنة ، وكان في سويسرا عندما كلفه الضباط بقبول هذا المنصب .

كان هدف العسكريين من ترشيح ميخائيل ايمرو لرئاسة الحكومة واضحا لا غبار عليه . فقد كانوا يبحثون عن رجل مدني يضعون كل ثقتهم فيه من أجل تنفيذ مخططاتهم الاصلاحية وخاصة ما يتعلق بتقليم أظافر هايلا سلاسي ، فلم يجدوا افضل منه . وان أقوى مؤهلات رئيس الوزراء الجديد كونه ابن ذلك الرجل الذي اسهم بالاطاحة بنظام الحكم القائم سنة ١٩٦٠ . وبعد ان ضمنوا تعاون رئيس الوزراء معهم اتجهوا بكل قواهم ودونما ضياع أي وقت لتهديم قلاع القوة التي كان هايلا سلاسي يحتمي بها ـ وأول هذه القلاع الحرس الامبراطوري الخاص البالغ تعداده أربعة آلاف جندي . وكانت باكورة اعمال العسكريين في عهد رئيس الوزراء الجديد هو اعتقال قائد لواء الحرس الجنرال تاسيفا ليما Taseffa Lema . ولما تم لهم ذلك اتجهوا نحو قلعة اخرى كانت منذ أقدم العهود مصدر النفوذ التقليدي والاسناد الديني للامبراطور ـ وهي الكنيسة . فهي التي غرست حب « الملك » في قلوب الناس والتفاني من اجله باعتباره حاميها من المعتدين عليها ، حتى نشأ الاعتقاد الراسخ نتيجة هذا الحب والولاء ، انه « اذا غاب الملك فقد العدل » .

ولاجل تقليص نفوذ الكنيسة عمد العسكريون الى اجراء تعديل في الدستور يستهدف الفصل بين الدولة والكنيسة . ولا ريب فان هذا الفصل من شأنه ان يضعف منزلة الامبراطور والكنيسة معا ، وكانهم ضربوا عصفورين بحجر واحد . اما بطريارك الكنيسة القبطية الحبشية ـ ابونا تيووفلوس Tewoflos فلم يتردد في معارضة هذه المحاولة وانتقادها بشدة ولدرجة اعتبرها بعض المطلعين تورطا ومجابهة



مجهولة العواقب مع القوات العسكرية قد تنتهي باعتقاله . ولكنه لم يعتقل لانه لم يرفع صوته بعد ذلك اليوم . والقوات المسلحة بدورها ربما تكون قد غضت النظر عن معارضة البطريارك العابرة لانها تجنبت التورط بمجابهة مع الشعب وهي لم تثبت اقدامها في الحكم بعد .

الاسد يودع القفص

شيئا فشيئا بدىء بتقويض برج الامبراطور العاجي المنصوب فوق اكتاف الملايين الجياع من اتباعه وانتزع عنه حتى لقب « حامي الكنيسة » وهو رمز العزة النصرانية في هذه المملكة الجبلية . وشيئا فشيئا أحكمت القوات المسلحة قبضتها على مقاليد الامور بوثبات قصيرة متلاحقة حيرت عقول المراقبين الاجانب الذين وصفوها في الصحف العالمية ب « انقلابات نهاية الاسبوع » و « الانقلابات المقسطة » . ففي الفترة الواقعة ما بين السادس عشر والتاسع عشر من شهر آب (اغسطس) ١٩٧٤ نفذت سلسلة من الاجراءات المدبرة الموقوتة وسط تدابير عسكرية اريد بها استعراض العضلات ، حرمت هايلا سلاسي كافة سلطاته نهائيا وجردته عن آخر سيف من سيوفه . لقد احتلت الدبابات والمصفحات وناقلات الجنود اماكن ستراتيجية في العاصمة فيما اعلن الناطق باسم « لجنة التنسيق » للقوات المسلحة من راديو اديس ابابا انها قد أوقفت اعمال مجلس التاج ومحكمة العدل الامبراطورية العليا والغت المجلس الاستشاري العسكري الخاص بالامبراطور . واختتم هذا النبأ بقوله : « ان القوات المسلحة ستسحق اية حركة مضادة تحاول عرقلة المضي في تطبيق منهاج الاصلاح الشامل . وانها تعرف كيف ستجعل الامبراطور والملتفين حوله يدفعون دين الشعب الذي بذمتهم عن هبات الاراضي والمبالغ الجسيمة التي اغدقت عليهم بغير حساب من خالص مال الامة » . وفي مقدمة من اتهم باغتصاب اموال الشعب هو الامير اسرات كاسا الذي اقترن اسمه بالاستهتار بأموال الدولة ، منها فضيحة واحدة سببت لها خسارة قدرت بـ ٤٠ الف دولار .

هذه هي المؤسسات الثلاث التي كان الامبراطور يمارس سلطاته المطلقة من خلالها . ان الغاء مجلس التاج هو بمثابة عزل الامبراطور عن كل ما له مساس بتسيير شؤون الدولة . ولا يبقى له سوى بعض المراسيم مثل قبول اوراق اعتماد السفراء وغيرها من الامور الشكلية . اما الغاء محكمة العدل العليا فمعناه ضرب التراث الاثيوبي بالصميم . لان التقاليد سارت منذ القدم على اعتبار الامبراطور « القاضي الاعلى » الذي يصدر الكلمة النهائية وله القول الفصل في حسم ما يتعلق بقضايا الصالح العام . واما الغاء المجلس الاستشاري العسكري فقد استهدف



ابعاد الامبراطور عن اي تدخل في قضايا الجيش . وكان هذا المجلس بمثابة هيئة اركان خاصة . وبتعطيل هذه الاجهزة الثلاثة عن العمل تم للقوات المسلحة السيطرة الكاملة على مقاليد الحكم .

اما رئيس الوزراء ميخائيل ايمرو ، وهو الذي جاء الى الحكم بترشيح من الجيش ، فقد احرج هو الآخر كما احرج ماكونين من قبله. ولم يعد بمقدوره الاستمرار بتحمل اعباء المسؤولية وسط هذه الرجات العنيفة والتغييرات في اجهزة الدولة التي يفاجأ بها هو ووزراؤه كأي مواطن عادي . فقدم استقالته عدة مرات الا انه كان يلتمس للعدول عنها ، او انه ربما كان يتراجع عنها تحت شيء من التهديد .

والآن يستطيع المراقبون للاحداث ان يجزموا بأن القوات المسلحة انتهت من مرحلة واحدة من مراحل انقلابها الابيض وهي مرحلة تقويض سلطان هايلا سلاسي وتجريده من مصادر النفوذ والامرة ، بل وتعريته الى حد المواطن العادي وجعله اعزل لا حراك به . هكذا اسدل الستار عن المرحلة الاولى . اما للاعلان عن دخولها المرحلة الثانية ـ وهي مرحلة الحساب العسير ـ فقد اصدرت في السادس والعشرين من آب (اغسطس) بيانا عن تأميم قصر الامبراطور المسمى قصر اليوبيل Jubilee Palace والقصور الاخرى في ولايات (محافظات) القطر وكافة الاراضي الزراعية التي تمتلكها العائلة المالكة ، وكذلك شركة باصات اديس ابابا التي تعود ملكيتها بصورة كلية تقريبا للعائلة المالكة كما وضعت اليد في وقت سابق على ما يدعى بـ (مؤسسة هايلا سلاسي) وهي عبارة عن اعمال تجارية ومزارع وفنادق سياحية . اما قصر اليوبيل فقد استبدل اسمه بـ (قصر الشعب) لان البيان ذكر بأنه انشىء بسواعد افراد الشعب وعرق جبينهم . ومما يذكر ان قصر الشعب هذا قد بني سنة ١٩٥٥ تخليدا لمرور ٢٥ سنة على تتويج هايلا سلاسي امبراطورا على اثيوبيا .

وقد تجدر الاشارة هنا الى ان من قصور هايلا سلاسي الرائعة هو ذلك الذي اهداه للجامعة التي تحمل اسمه في اديس ابابا ويقع وسط جنائن فسيحة وافرة الظل كأنها غابة . وقد احتوت نظرا لسعتها عددا آخر من المباني الحديثة التي استدعى انشاءها توسع الجامعة . وقد لا يكون من المبالغة اذا قلت ان بعض القصور التي اممت تكاد تحاكي برونقها وجمال هندستها قصور ملوك المقاطعات والامراء في اوروبا في العهود السالفة . وفي خلال اسفاري المتكررة في اثيوبيا اتيح لي المجال ان ارى القصور في كل من اسمره وميناء مصوع وديره داوه ويبره زيت وهرار ، وهي كذلك يحكي مظهرها وما فيها عن حياة الترف والنعومة والبذخ التي عاشتها هذه الصروح على مر الايام . وخارج القصور ما زال الرعيان يلازمون قطعانهم حفاة الاقدام شبه عراة يعيشون ..



سنة الى الوراء ، وما اكثر امثال هذه المفارقات في بلاد الاحباش .

ان هذه الهجمات المجزأة التي تعرض لها هايلا سلاسي خلال الاسابيع المنصرمة لا يمكن تفسيرها بشيء سوى تصميم الضباط على مضايقته وتشديد الخناق عليه لاجل الاستسلام والتنازل عن العرش وعن ثروته الطائلة تلقائيا . غير ان هذا المتغطرس الجبار الذي عاش أحداثا مماثلة عبر نصف قرن من الزمن وقابلها بشجاعة ومكر ودهاء ، ونجا من عدة انقلابات استهدفت الاطاحة به فلا يبدو انه يعتزم التخلي عن العرش الا مكرها . ومن يعلم ما تخفيه له الاقدار وقد اصبح بينه وبينها قيد شعرة . والايام القليلة القادمة هي التي ستكشف ما عند جهينة من الاخبار . وان غدا لناظره لقريب .

الازمة تتصاعد

في الوقت الذي كان فيه العسكريون منهمكين بتجريد هايلا سلاسي من سلطاته والاستيلاء على قصوره وممتلكاته ، كان الشعب يتخبط وسط أزمة اقتصادية خانقة . فقد شلت حركة الاستيراد والتصدير وتكدست البضائع في الموانىء وتعطلت المتاجر . وكنتيجة حتمية لهذه الحال ارتفعت أسعار الحاجيات الاستهلاكية والمواد الغذائية كما ارتفع عدد العاطلين عن العمل . اما تأميم القصور ووضع اليد على ممتلكات الامبراطور فلم يؤثر في تحسين الاحوال المعاشية لسواد الشعب ولم يخفف من الازمة المالية الآخذة بخناقه على الرغم من مرور ستة اشهر على اعلان الانقلاب . سأل احد الصحفيين الاجانب عاملا ريفيا عن رأيه في هايلا سلاسي ، فكان جوابه انه لا يهمه لا هايلا سلاسي ولا غيره ، طالما ان اجره اليومي لا يتجاوز ٧٥ سنتا اثيوبيا (٣٠ سنتا امريكيا) لقاء عمل ١٢ ساعة كاملة .

اما المؤسسات والدوائر الحكومية بما فيها الوزارات فاصبحت بحالة ركود كأن من فيها من العاملين اموات . هكذا كانت حالة مؤسسات الدولة كما رواها الدبلوماسيون الاجانب في تقاريرهم وكذلك الممثلون الافريقيون في منظمة الوحدة الافريقية في مقرها اديس ابابا . وروى احد ممثلي الشركات العالمية الكبرى انه زار اديس ابابا لاجل التفاوض حول امور ملحة بين شركته والحكومة الاثيوبية ولكنه قضى اياما طويلة وساعات انتظار مملة في سبيل الحصول على موعد لمقابلة المسؤولين دون جدوى . كان هذا في أواخر شهر آب (اغسطس) . وبدا القصر الملكي (قصر الشعب) للناظرين وكأنه مهجور لا حركة فيه ولا حياة ، خاصة بعد ان فرضت الاقامة الجبرية على هايلا سلاسي ضمن خمسة كيلومترات من قصره . ولكنه لم يظهر للعيان مطلقا وقد توافد عليه أفراد أسرته جميعهم ليعيشوا معه تحت سقف واحد .



ومن ناحية اخرى فقد اخذ العسكريون يلمسون حراجة الموقف ازاء تصاعد الضغط عليهم من قبل القوى الشعبية ـ العمال والطلاب والمعلمين ـ لاعادة الطابع المدني الى الحكم . فقد بدأ يتردد على الالسن علانية ودونما أي خوف انه مضى وقت طويل ـ ستة اشهر ـ على استلام الجيش السلطة ولم يلح في الافق ما يشير الى الاتجاه الذي تسير نحوه سفينة البلاد . فحالة الادارة المركزية في العاصمة والاقاليم تزداد ارتباكا وتفككا . وهيبة الحكم المدني تتلاشى شيئا فشيئا . وعلى حين غرة تسربت انباء من اديس ابابا يوم ٢٦ آب (اغسطس) عن وصول شحنات من الاسلحة الثقيلة من الولايات المتحدة الامريكية وذلك لتعزيز موقف اثيوبيا ازاء ما زعم من وصول اسلحة روسية الى الصومال . ولكن المعروف ان العلاقات بين اثيوبيا والصومال تتجه نحو التحسن والحالة على الحدود هادئة منذ فترة ليست بالقصيرة . فيبدو ان ليس هناك ما يبرر هذا الاستفزاز في حين ان البلاد بحاجة الى الغذاء اكثر من حاجتها الى السلاح .

ان تصعيد عملية التسلح من قبل اي من الجانبين قد يؤدي الى اثارة الخلافات مجددا . ولا يخفى ان الصومال ما انفكت تطالب باقليم اوغادين Ogaden الممتد على طول الحدود الجنوبية الشرقية الذي يتكون كل سكانه ، وهم قبائل رحل ، من الصوماليين . وكان هذا الاقليم ، منذ حصل الصومال على استقلاله ، مسرحا للاشتباكات المسلحة بين قوات الطرفين . فيبدو ان النظام العسكري الجديد في اثيوبيا هو الآن في غنى عن التورط باشتباكات خارجية في الوقت الذي تواجه فيه قوات الحكومة ثورة مسلحة في اريتريا منذ اكثر من أثني عشر عاما اضافة الى ما تعانيه من مشاكل داخلية مستعصية نشأ بعضها عن المحاولة الانقلابية لتغيير نظام اجتماعي عمره عمر الزمن ـ ٣٠٠٠ سنة . واذا ما استمرت حالة عدم الاستقرار واستفحلت الضائقة الاقتصادية فقد يهدد الوضع بنشوب اضطرابات تكتسح كافة الاقاليم ، وقد تتطور الامور باتجاه اعادة النظر في البنية الجغرافية التي تتكون منها اثيوبيا الحديثة . وهذا ما سيعرض البلاد لمشاكل اكثر خطورة وذات طابع مزمن قد تهدد وتزعزع كيانها بالصميم .

اريتريا تفرض نفسها

اما على الصعيد السياسي الداخلي فقد هبت عاصفة اخرى من اقليم ارتريا الثائر . اذ قدم نواب هذا الاقليم البالغ عددهم ٢٣ نائبا استقالتهم من البرلمان الاثيوبي احتجاجا على سوء معاملة الاريتريين على يد السلطات العسكرية . وجاء في كتاب الاستقالة بأن الجيش قد ارتكب مذبحة مروعة في تموز (يوليو) ١٩٧٤ ، راح ضحيتها النساء



والاطفال والشيوخ . وأصبح السكان مهددين لا يأمنون على ارواحهم وأعراضهم من الفتك اللاانساني الذي تقوم به القوات المسلحةوالهجمات البربرية التي تشنها على القرى الآمنة .

ومما زاد في سخط النواب واستيائهم هو ان العفو العام الذي صدر بحق المعتقلين السياسيين في العهد الجديد لم يشمل الاريتريين منهم . وراجت اشاعات مؤداها ان هناك آلاف الاريتريين داخل سجون اثيوبيا ظلوا يعانون مرارة الحبس والتعذيب في ظل الحكم العسكري الجديد . وكان لهذه الاستقالة الجماعية اثرها البعيد في الاوساط العسكرية . فأوفدت وزير الدفاع الى ذلك الاقليم للتحقق في المظالم التي نوه عنها النواب باستقالتهم واجراء تقييم نزيه للوضع هناك . وعند عودته الى اديس ابابا قدم تقريرا أيد فيه وجود حاجة ملحة لاصلاحات اجتماعية وادارية حفاظا على وحدة البلاد . ولما طلب بعض النواب من وزير الداخلية ايضاحات اكثر عن الموقف وعما جاء في تقرير وزير الدفاع اعترف بأن هناك ٢٠٠ من المعتقلين السياسيين الاريتريين ما زالوا رهن الاعتقال لان الحكومة لم تشأ ان ترضخ لمطالب الزعماء الاويتريين وتهديداتهم . فمن المهازل حقا ان يسمى العفو شاملا ولا يشمل الجميع عند تطبيقه .

ان خطورة الوضع في هذا الاقليم ـ بالنسبة الى اثيوبيا ـ تكمن في ان الظروف أصبحت الآن بصالح شعب اريتريا بعد الاحداث الاخيرة التي قلبت الامور والمفاهيم رأسا على عقب . فان اجزاء اثيوبيا الاقليمية التي تتراءى للعالم الخارجي كوحدة سياسية هي فيالواقع غير متجانسة وقد اصبحت معرضة للتفكك والانفصام اكثر من أي وقت مضى . وما لم يتدارك العسكريون الامر بحكمة وبعد نظر بحيث يضمنون لشعب اريتريا حقوقه المشروعة ، فقد ينجم عن ذلك انفصال هذا الاقليم عاجلا ام آجلا . ومعلوم ان الجمعية العامة للامم المتحدة كانت قد صوتت سنة ١٩٥٠ على ضم اريتريا الى اثيوبيا باتحاد فيدرالي واضح المعالم كوحدة تتمتع بالحكم الذاتي . الا ان اثيوبيا ابتلعت هذا الاقليم على مرأى من الامم المتحدة وضمته اليها كولاية من ولاياتها تتبع وزير الداخلية الاثيوبي مباشرة وذلك سنة ١٩٦٢ .

أيام هايلا سلاسي أصبحت معدودة

أصبح واضحا الآن وبشكل لا يقبل التردد ان ايام هايلا سلاسي تقترب من نهايتها . فان الايام الاخيرة من شهر آب (اغسطس) قد رسمت علامات استفهام كبيرة حول مصيره ومصير الامبراطورية العتيدة . والرجل الذي نحن بصدده هو ذلك الذي حارب الاستعمار





هيلا سلاسي في ايام محنته قبيل خلعه بأسابيع

الايطالي وجلب لبلاده الانتصارات السياسية والعسكرية وكان أول زعيم افريقي تشهده اوروبا يرتقي منصة الخطابة في عصبة الامم منددا بالاستعمار والسيطرة على الشعوب الضعيفة . الا ان هايلا سلاسي شغف بالسياسة الخارجية ومباهرها وتألق نجمه في ميادينها ، فأهمل اثيوبيا وشعبها ولم يعمل بمشورة الزعماء الوطنيين الذين شاركوه المحن ايام منفاه ، واسهموا في تحقيق الانتصارات العسكرية ضد الايطاليين . وفي آخر المطاف شردهم شر تشريد .

وعلى مدى نصف قرن بكامله لم يعمل هايلا سلاسي لتقليص الهوة بين الثراء الفاحش الذي ينعم به قلة من المترفين ، والفقر المدقع الذي يتلظى في جحيمه بقية شعب اثيوبيا . وقد أشرنا الى ذلك في البحث عن الدخل الفردي السنوي في افريقيا . والآن يقف وحده لمقارعة الاحداث بلا نصير ولا مجير . حتى الكنيسة الحبشية ، على غير المتوقع ، طعنته من الخلف وهي التي رفعته الى مراتب القديسين بالامس . فأعلن البطريارك تيووفلوس تأييده المطاق لحركة الضباط . وبهذه الاشارة تكون الكنيسة قد تخلت عن مساندتها للملكية بعد عصور متباعدة من التعايش والتعاضد ، أو بكلمة اخرى منذ دخلت النصرانية هضبة الحبشة قبل خمسة عشر قرنا . لكنه اذا كان لا بد لنا من وضع النقاط على الحروف خدمة للتاريخ فيجب ان ندون هنا انه اذا كان هايلا سلاسي قد تجنى على البلاد بعدم توجيه عنايته الجدية للتخفيف من آلام الفقر والعمل لمحو شبحه وذلك عن طريق القضاء على الاقطاع ، فالكنيسة نفسها كانت وما زالت طرفا مع هايلا سلاسي وشريكته بالمسؤولية لانها تعتبر اكبر الاقطاعيين بامتلاكها ثلث الاراضي الزراعية تقريبا ، وكذلك تعتبر « حكومة داخل حكومة » بحسب تعبير بعض الكتاب والمراقبين الغربيين .

لقد أصبح هايلا سلاسي الآن هدف الثورة الاول . وقد أخذت السهام تصوب نحو القفص الذي يربض فيه لاول مرة . وانطلق أول السهام على اثر عثور القوات المسلحة على فضائح وتلاعبات تتعلق بأعفاءات للتهرب من دفع الضرائب . فعلى اثر تأميم القصور الملكية اكتشف الضباط في بعض الملفات والسجلات الخاصة قوائم بأسماء بعض المتنفذين المقربين من الامبراطور الذين استثناهم من دفع الضرائب المستحقة عليهم للحكومة . وتهمة اخرى الصقت به هي انه هرب ثروته وأمواله للخارج لاستثمارها هناك . وقد رفض طلبا الجيش بسحب أمواله من الخارج بحجة انه وزع كل ثروته على أولاده وأحفاده وجعلها وقفا عليهم .

وقد يكون في مقدمة العوامل التي حدت بالضباط لاتخاذ موقف صارم حيال الامبراطور هو فظاعة المجاعة التي حلت باقليم واللو Wollo



اذ راح ضحيتها مائة الف من المواطنين . فقد ظهرت في صبيحة احد الايام ملصقات كثيرة على الجدران في شوارع العاصمة ظهر الامبراطور في زاوية منها وهو يطعم كلابه العديدة وفي زاوية اخرى صور الموتى متناثرة جثثهم على الارض . وكانت الحكومة قد أوفدت لجنة الى اقليم واللو للتحقيق في مدى الخسارة البشرية والمادية . فعادت وقدمت تقريرها في ٢٧ آب (اغسطس) وجهت فيه التقصير الى الامبراطور نفسه ورئيس وزرائه المقال في أواخر شباط (فبراير) الماضي . وأشار تقرير اللجنة الى انها عثرت على رسالة من مامو سيوم Mamu Seyoum حاكم اقليم واللو منذ سنة ١٩٧٠ موجهة الى الامبراطور ــ أي قبل بلوغ الكارثة ذروتها بمراحل (بثلاث سنوات) ــ طلب فيها من الحكومة اتخاذ ما يلزم من التدابير لاسعاف ذلك الاقليم وانقاذ حياة الالوف من المواطنين من خطر المجاعة التي خيمت عليهم وأخذت تفتك بهم فعلا . وتبين ان حاكم الاقليم كان يلح على رئيس الوزراء المشار اليه ــ اكليلو هابتي ولد ــ وعلى ولي العهد اصفا واصن (الذي كان يعتبر الحاكم الحقيقي للاقليم) ويشحذ هممهم لتلافي اسباب الكارثة ، غير انه لم يلق أذنا صاغية على ما يبدو ، حتى حل الدمار الشامل وخيم شبح الموت على الملايين من البشر .

اشتدت مشاعر العداء ضد الامبراطور على اثر شيوع هذه الاخبار عن المجاعة وهول الاوضاع في الاقليم المنكوب . وارتفعت النداءات من بعض القوى الشعبية مطالبة احالة الامبراطور الى المحاكمة . وفي هذه الفترة بالذات نشر مقال في احدى الصحف طالب كاتبه فيه بتخلي الامبراطور عن العرش . بينما نظمت فئات أخرى تمثلت باتحاد العمال والطلبة والمعلمين مظاهرات صاخبة اخترقت شوارع العاصمة على الرغم من الحظر المفروض على ذلك من قبل سلطات الجيش ، منادية بوجوب تخلي الامبراطور عن العرش .

ولتفادي افلات زمام الامور من أيديهم واضطراب حبل الامن في انحاء البلاد الاخرى فقد منعت القوات المسلحة من جديد كافة التجمعات والمظاهرات منعا باتا . عندئذ احتمى الطلاب بحرم الجامعة . واقتصر نشاطهم وتجمعاتهم داخله ــ الجامعيون وطلاب الثانويات . الا أن مفارز من رجال الامن كانت تطوق مباني الجامعة ، ووضعت حراسة مشددة على بوابتها الرئيسية لمنع الطلاب من الخروج بمظاهرة اخرى . اما المعلمون فلم يفتر نشاطهم وتقدموا الى لجنة التنسيق في القوات المسلحة بتقرير ضمنوه عددا من المشاريع الاصلاحية التي طالبوا بتنفيذها لدفع عجلة التقدم الى الامام . ولكن أبرز فقرة وردت في تقريرهم هي المطالبة بالغاء الملكية في البلاد وخلع الامبراطور تمهيدا لاعداد اثيوبيا نحو الحكم الديمقراطي السليم .



اطل شهر ايلول (سبتمبر) على البلاد فوجدها وقد أصبحت في قبضة الجيش بصورة كلية . واما الحكومة المدنية المسؤولة فلم يبق لها في واقع الحال سوى الاسم . وليس أدل على ذلك من اقدام الضباط على فرض تعديل وزاري في حكومة الشاب ميخائيل ايمرو ، كان القصد من ورائه اسناد بعض الوزارات الحساسة لاناس يدينون بالولاء للحكم العسكري القائم . ثم تلى ذلك تغييرات في جهاز الدولة ليقفز من خلالها من أريد لهم تولي بعض المراكز المرموقة . ومباشرة بعد التعديل الوزاري القي القبض على أحد الوزراء وأحد كبار القضاة . وقبل هذا سبق للقوات المسلحة أن اعتقلت زويدو غيبره هيوت Zwedo Gebre Hiwot رئيس مجلس الشيوخ السابق والراس (أمير) اسرات كاسا Ras Asart Kassa رئيس مجلس التاج الاسبق الذي كان يعد يوما ما ثاني أقوى شخصية في اثيوبيا بعد الامبراطور .

اعتقال الاميرة تيناغنى وورك

فاجأت محطة راديو اديس ابابا صبيحة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ مستمعيها باذاعة نبأ لم يخطر على بال أحد ــ ذلك هو اعتقال الاميرة تيناغنى وورك ، الابنة الوحيدة للامبراطور ، من بيتها القريب من وسط العاصمة . تم ذلك في الصباح الباكر من ذلك اليوم اذ اقتادها الجنود الى معتقل مجهول خارج المدينة . ولما خرجت الاميرة من قصرها قابلها بعض الذين احتشدوا في الطريق بهتافات معادية للعائلة المالكة ولشخص والدها الامبراطور .

لقد جاءت هذه المفاجأة بمثابة مقدمة لحدث أخطر ، وشيك الوقوع . اذ لم يسبق لامرأة بمنزلتها أن اعتقلت أو سجنت الا للجرائم العادية . وقد تكون اشارة لابيها عن مجيء دوره لا محالة . ولقد اثر اعتقال الاميره في نفس هايلا سلاسي كثيرا وحزن عليها حزنا عميقا لان الصدمة جابهته خلال أحلك مرحلة من المراحل المثيرة التي مرت به في الايام الاخيرة . ومما ضاعف اثرها انها جاءت في غمرة الاحتفالات الدينيـة بمناسبة رأس السنة القبطية . وبالنظر لهذه الظروف فانه لم يحضر احتفالات هذا العيد المقدس التي اعتاد المشاركة فيها منذ عشرات السنين .



الفصل الثامن والعشرون

خلع الامبراطور هايلا سلاسي عن العرش

اطول انقلاب عسكري

واخيرا سقط هايلا سلاسي بعد انقطاع الخيط الرفيع الذي كان معلقا به خلال الايام القليلة الماضية . ففي صبيحة يوم الخميس المصادف ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ ، أي بعد اعتقال ابنته بيوم واحد ، أصدرت القوات المسلحة المهيمنة على الحكم في البلاد قرارها التاريخي القاضي بخلع الامبراطور هايلا سلاسي الاول ـ ملك الملوك وأسد يهوذا القاهر ـ عن عرش اثيوبيا وتنصيب ابنـــه ولي العهـــد الامير اصفا واصن Asfa Wosen ملكا دستوريا مجردا عن السلطات المدنية والعسكرية . وبخلعه طويت آخر مرحلة من مراحل الانقلاب العسكري المقسط الذي دام ١٩٨ يوما ـ ستة اشهر كاملة ونصف (٢/٢٦ ـ ١٩٧٤/٩/١٢) . وأعلن ان البلاد ستحكم حكما عسكريا ريثما تجري انتخـــابات جديدة تمهيدا لمجيء حكومة مدنية . وزوال هايلا سلاسي يؤرخ زوال أقـدم وآخر معقل من معاقل التخلف في القارة السوداء .

قبض هايلا سلاسي على الحكم في بلاده بيد من حديد مدة ٥٧ سنة منها ١٣ سنة (١٩١٧ ـ ١٩٣٠) كوصي على العرش اثناء حكم الامبراطورة زاوديتو Zauditu و ٤٤ سنة بعد تنصيبـــه خلفا لها بعـــد وفاتها (١٩٣٠/١١/٢ ـ ١٩٧٤/٩/١٢) . وظل الامبراطور المخلوع لعشرات السنين أبرز زعيم ورجل دولة افريقي عرفه العالم . وكان حكمه حكما صارما شديدا امتدت هيمنته حتى شملت كل بقعة وقرية في بلاده على اتساع أرجائها ووعورة طبيعتها . وما من أمر تم تنفيذه ، على استطالة هذه الحقبة الزمنية البعيدة المدى ، الا برضاه وموافقته الشخصية .

انه السليل الخامس والعشرون بعـــد المائتين لملكة سبأ والملك



سليمان – هكذا تقول الاسطورة الاثيوبية التقليدية . ارتقى العرش وسط انقسامات سياسية ودينية حادة وفي أعقاب المؤامرة التي أطاحت ب « الامبراطور المسلم » ليج اياسو وتنصيب الامبراطورة العجوز المريضة ليظفر هو بالوصاية على العرش . فتمكن بشجاعته وقوة شخصيته من التغلب على خصومه والقضاء عليهم الواحد بعد الآخر ، وخاصة القواد العسكريين القدامى ذوو النفوذ في الاطراف النائية من البلاد حتى استتب له الامر ودانت للوائه الاقاليم كلها قبيل الغزو الايطالي للحبشة سنة ١٩٣٥ .

وبانتهاء أمر أسد يهوذا ودخوله القفص واسدال الستار على طغيان دام قرابة ستين عاما ينتهي كذلك أمر نحو ٣٠٠ معتقل من كبار الاقطاعيين وذوي الامتيازات الخاصة ، وهم يواجهون نفس المصير . فبعد مرور ثلاثة أسابيع على تنحية الامبراطور عن العرش ، أي في اليوم الخامس من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ نشرت الحكومة العسكرية قائمة بأسماء ١٦٠ شخصا ، معظمهم رهن الاعتقال ، بضمنهم هايلا سلاسي وغيره من أفراد أسرته ووزراء وشخصيات بارزة من الطبقة الارستقراطية ، متهمين بالتهرب من دفع الضرائب للحكومة . وأفادت النشرة بأن مقدار هذه الضرائب بلغ ٤٥ مليون دولار اثيوبي (١٨ مليون دولار اميركي) عن الخمسة والعشرين سنة الماضية . ومن الجدير بالذكر ان الحكومة حددت للمتهمين موعدا أقصاه الخامس والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ لدفع المبلغ المذكور الى خزانة الدولة . وبخلاف ذلك فستتخذ الاجراءات القانونية المناسبة . ان هذا الانذار القصير الامد لا يبقي أي شك في ان السلطات ترمي من وراء ذلك الضغط عليهم لسحب أموالهم المودعة في بنوك أجنبية خارج البلاد .

الا ان التاريخ الحديث سيكتب فصولا طويلة عن هايلا سلاسي لانه احد صانعيه . ومهما قيل عنه – ذنوبه وعيوبه – وكلها ستدون عليه ، غير ان التاريخ سوف لا يغفل تسجيل ما له ايضا . فعهد هايلا سلاسي هو الذي ألغى الرق والاتجار بالرقيق في اثيوبيا – مهد الرق والرقيق. وفي عهده وضع الحجر الاساسي للتعليم العام والتعليم الجامعي – على الرغم مما فيهما من شوائب . وفي عهده اتسعت الخدمات الصحية ، واسست المستشفيات وكلية للطب . وتوسعت شبكة المواصلات والطرق. وهايلا سلاسي كان أول زعيم افريقي أدخل بلاده في عصبة الامم . وكانت اثيوبيا من بين الدول الاولى التي ساهمت في تأسيس هيئة الامم المتحدة سنة ١٩٤٥ . وايمانا منه بلزوم اضفاء مظاهر القوة والحزم على قرارات هذه المنظمة الدولية ، فقد ساهم بقوات من جيشه لدعم القوات الدولية في حربي كوريا والكونغو ليوبولدفيل (زائيري حاليا) .



وبلباقة دبلوماسية فائقة تمكن من خلق الجو المناسب للتعايش مع الانظمة الاشتراكية الثورية التي تطوق بلاده . ولا ينكر دوره الفعال في تكوين منظمة الوحدة الافريقية التي كان أحد أقطابها . وليس ذلك فحسب بل استطاع أن يجعل مقرها في عاصمة ملكه .

وسيذكر له التاريخ كذلك انه زرع بذور سقوطه بيده . وما من شك أيضا في ان حاشيته أساءت اليه ولكنه هو الذي دفع الثمن ، فخرج من التاريخ بسيارة فولكسواغن – كما كتبت احدى المجلات اللبنانية .

كيف عزل هايلا سلاسي

أفاق سكان اديس ابابا صباح الثاني عشر من ايلول (سبتمبر) على هدير الدبابات والمصفحات وهي تخترق شوارع العاصمة لتحتل اماكن ستراتيجية في الطرق المؤدية الى قصر الشعب (قصر اليوبيل سابقا) . وفي الوقت المحدد توجه وفد عسكري يمثل مختلف صنوف الجيش الى القصر . وهناك ، باحتفال رسمي حضره الامبراطور ، قرىء عليه قرار لجنة التنسيق المثلة للقوات المسلحة القاضي بتنحيته عن العرش وبتنصيب ابنه ولي العهد الامير اصفا واصن ملكا – وليس « ملك الملوك » . وقالت اذاعة اديس ابابا أنه بعد ان قرىء عليه قرار خلعه عن العرش ، أشار بالموافقة على ذلك .

لقد جاء في القرار بأن القوات المسلحة اتهمته باساءة حكم البلاد وارتكاب أخطاء جسيمة اضافة الى انه أصبح طاعنا في السن . وترددت خلال هذه الفترة اشاعات مفادها ان الضباط مارسوا ضغطا شديدا خلال الـ ٤٨ ساعة التي سبقت قرار خلعه ، وذلك لحمله على سحب ثروته من الخارج ، ولكن الاسد العجوز أبى الرضوخ . ولعل ذلك كان مساومة منهم لابقائه معلقا بذلك الخيط الرفيع .

وفيما كانت مراسيم الخلع جارية داخل قصر الشعب كانت قوات الامن تجوب الشوارع حفظا للنظام ، وقد منع قيام المظاهرات ذلك النهار منعا باتا . وكان هذا أول يوم تعيش فيه اثيوبيا بغير ملك .

وعقب الانتهاء من المراسيم ذكر شهود عيان انهم رأوا الامبراطور المخلوع يحيط به الجنود وقد اقتيد الى سيارة من نوع فولكسواغن صغيرة حيث طلب اليه الجلوس في المقعد الخلفي واتجهت به الى مقر الفرقة الرابعة . وفي الايام التي تلت ذلك راجت مختلف الاشاعات عن المكان الذي اعتقل فيه . فقد قيل في مقر القوة الجوية قرب ديبره زيت جنوبي العاصمة ، وقيل أيضا خارج العاصمة بمحل مجهول . وآخر ما سمع عن الموضوع انه احتجز في بيت مبني من اللبن مكون من ثلاث غرف كان قائد الفرقة الرابعة يقطن فيه يوما ما . وذكر كذلك ان السيارة



التي أقلته الى معسكر الاعتقال في مقر هذه الفرقة قد أمرت ان تخترق بعض الثكنات التي كان يحتجز فيها بعض المعتقلين وذلك لكي يثقوا بأن قد قضي الامر وان سيدهم بالامس جـــاء ليشاركهم الاعتقال عـلى قدم المساواة .

« اثيوبيا أولا »

تحت هذا الشعار ونحو هذا الهدف أكبت لجنة التنسيق فـــي القوات المسلحة على العمل خــــلال الشهور المنصرمة لرسم سياسة الاصلاح الشامل . كما انها اتخذته شعارا للحكومة في عهدها الجديد ، وأبلغته لكافة سفاراتها في الخارج بغية نشره في الصحافـــة العالمية . فشتان بين هذا الشعار وبين الحواجز المصطنعة التي كانت تفصل بين الاقاليم والاديان والطبقات والاجناس .

كان شعار اثيوبيا التقليدي ، غير المكتوب ، الى ما قبل شبـــاط (فبراير) ١٩٧٤ يكاد يكون « اثيوبيا للامهاريين » وهم قوم هايلا سلاسي من اقليم شوا بالدرجة الاولى . فانحصرت بهم السلطة والامرة منـــذ أيام منليك الثاني في أواخر القرن التاسع عشر . وخصصت لهم مناصب الدولة الحساسة وحاكميات الاقاليم . كما ملكوا أوســــع الاراضي وأوفرها خصبا وجنوا من ورائها الملايين من الدولارات عبر التسعين سنة الماضية . وكادت تصبح الكلمتـــان « اثيوبيا » و « امهارا » مترادفتين في عرف السلطة والقانون .

الا ان الانتقال من الشعار القديم ، وهو الشعار الاكثر رسوخا في أدمغة الناس وفي واقع الحال ، الى شعار مغاير له تماما ــ « اثيوبيـــا أولا » ــ يقلب الامور رأسا على عقب بالمعنى الواضح الصريح . ولكن هذا يحمل من نحتوا هذه العبارة تبعات ومسؤوليات جسام . فليس مـــن الهين اخراج اثيوبيا ــ واثيوبيا ليست اديس ابابا واسمره وديره داو ومصوع فقط ــ من ظلمات القرون الوسطى ، بفقرها وجهلها وتخلفهـــا الحضاري الى مدنية القرن العشرين بين عشية وضحاها . فالحماس والاحلام شيء وواقع الحال شيء آخر . ان العبء الذي تعهد الضباط وضعه على كواهلهم لا يمكن تحقيقه الا بالحزم والعزم والتخطيط السليم والاستقرار . وفوق كل هذا فتنفيذ « الاصلاح الشامل » على الوجـــه الاكمل يستدعي توفر جهاز للدولة يتصف بالكفاءة الادارية على المستويات العليا والخبرات الفنية والتكنولوجية على المستويات الاخرى . على كل حال فالشعار « اثيوبيا أولا » هدف شريف جذاب يستهوي الجماهير . وعساه ان يدفع الجيل الصاعد للاهتداء به والتفاني من أجل بلوغه .



العهد الجديد يكشف عن سياسته

على اثر انتهاء المراسيم بخلع الامبراطور هايلا سلاسي وأعلان قيام حكومة عسكرية ، أستدعى الجنرال أمان عندوم الذي رأس الحكومة العسكرية سفراء الدول الاجنبية طالبا اليهم ابلاغ حكوماتهم بتغيير نظام الحكم في البلاد . وشرح لهم الخطوط العريضة للسياسة الخارجية والداخلية التي ستسير عليها حكومة ايوبيا الجديدة والتي حددها كما يلي :

١ ـ اتباع سياسة عدم الانحياز في العلاقات الخارجية .

٢ ـ الالتزام بميثاق الامم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية واحترام جميع تعهدات اثيوبيا الدولية على اساس المساواة والاحترام المتبادل .

٣ ـ بذل كافة الجهود الممكنة لمساعدة الشعوب التي لا تزال ترزح تحت نير الاستعمار للحصول على الاستقلال .

٤ ـ المحافظة على علاقات وثيقة وودية مع جميع الدول الافريقية .

واما على الصعيد الاقليمي فقد استدعى الجنرال عندوم سفراء الدو ل المجاورة ، وهي الصومال وكينيا والسودان ، فأبلغهم بأن اثيوبيا ترغب أن ترى استمرار العلاقات الطيبة والابقاء على حسن الجوار مع كل من جاراتها .

وبالنسبة للسياسة الداخلية فقد اعلنت السلطات العسكرية تفاصيل ذلك بالبيان الذي أشرنا اليه في الفصل السابق . وان أهم ما ورد فيه هو تعطيل الدستور وحل البرلمان وتشريع دستور جديد يعكس الفلسفة الاجتماعية والاقتصادية التي تستهدفها الثورة .

الجنرال امان ميخائيل عندوم

هذا هو وجه اثيوبيا الجديد ونجاشيها غير المتوج . ولد امان في اريتريا ـ الاقليم الثائر ـ سنة ١٩٢٤ ، وحصل على تعليمه في المراحل الاولى في المدارس التبشيرية الامريكية للكنيسة اللوثرية في السودان. وهو لذلك ليس قبطيا بسبب تأثره بالمذهب اللوثري منذ صباه . ثم أتم دراسته العالية بالجامعة في اديس ابابا . وفي شبابه اشترك في حرب التحرير ضد الايطاليين برتبة ملازم بعد ان دخل الاكاديمية العسكرية ، ثم واصل دراسته العسكرية وتدريبه في انكلترا . ولذلك فهو يعتبر من الضباط المتازين . ولما قررت اثيوبيا ارسال قوات رمزية للاشتراك مع قوات الامم المتحدة في حرب كوريا ساهم فيها برتبة كولونيل (عقيد) . وبعد انتهاء هذه الحرب عاد مع القوات الاثيوبية الى بلاده سنة ١٩٦٠ فأنيطت به قيادة الفرقة الثالثة المرابطة على حدود الصومال تقديرا لخدماته . الا ان الجنرال امان عندوم نحي عن منصبه الاخير سنة ١٩٦٤



لاختلافه مع رئاسة الاركان العامة حول الحرب مع الصومال . فألحق بسفارة اثيوبيا في واشنطن كملحق عسكري .

ومرت الايام واذا بالملحق العسكري والقائد السابق الملهم يعين عضوا في مجلس الشيوخ . ان هذا الاجراء ليس بالامر الغريب بالنسبة للمطلعين على أحوال السياسة الخفية في البلاط الاثيوبي . فحينما يصبح القادة العسكريون أو حكام الاقاليم أو غيرهم من ذوي المناصب الرفيعة الحساسة غير مرغوب فيهم اما بسبب ارتياب الامبراطور في ولائهم له أو ازدياد نفوذهم أو تصاعد رصيدهم الشعبي ، تصدر الاوامر بشكل غير متوقع ودونما مقدمات بتعيينهم سفراء أو أعضاء في مجلس الشيوخ لكي يصبحوا بعيدين عن مراكز النفوذ في السياسة الداخلية . هذا هو نمط دوران جهاز الدولة في اثيوبيا . وقد عرف عن الجنرال عندوم انه جندي شجاع باسل ، اتصف بحسن السيرة والسمعة بين اقرانه الضباط . ومن خلال خدماته العامة الطويلة وعمق اطلاعه على مشاكل البلاد العامة فقد سبر غور الجندية والسياسة معا . ولذلك فلم يكن انتخابه لرئاسة الحكومة العسكرية المؤقتة مفاجأة لاحد .

واليوم يقترن اسم الجنرال عندوم بزعزعة أقدم أسرة ملكية في التاريخ . ومما روي عنه انه لطالما ، وفي مناسبات عديدة بعيد محاولة الانقلاب العسكري الاول سنة ١٩٦٠ ، أبدى النصح الخالص للامبراطور بالتخفيف من مركزية الحكم وفتح باب اثيوبيا للتجدد الاصيل وعدم محاربة الحرية الفكرية وللخروج بالبلاد من غياهب العصور الحجرية ونفض غبار الماضي السحيق عنها . الا انه كان — اي الجنرال عندوم — كمن ينفخ في رماد ، ولم يلق أذنا صاغية من الامبراطور الذي ظل على غطرسته ، غير متعظ بأحداث الاربع عشرة سنة المنصرمة . وظن انه سيظل قادرا على سحق خصومه والمنادين بالتجدد واحباط مؤامراتهم .

لمع اسم الجنرال عندوم لاول مرة عندما فرضت لجنة التنسيق للقوات المسلحة السياسي ليج ميخائيل ايمرو على الامبراطور كمرشح لرئاسة الوزارة خلفا للرئيس السابق ماكونين . عندها قدمت معه اسم الجنرال عندوم ليشغل وزارة الدفاع ، وكان ذلك في ٤ تموز (يوليو) ١٩٧٤ . وبعد خلع الامبراطور في ١٢ ايلول نصب من قبل القوات المسلحة رئيسا للحكومة العسكرية الجديدة (المؤقتة) وأسندت وزارة الاعلام للرئيس السابق ميخائيل ايمرو . هذا وقد احتفظ الجنرال عندوم بعين الوقت بوزارة الدفاع التي شغلها سابقا وكذلك برئاسة الاركان العامة بالاضافة الى رئاسة لجنة التنسيق التي تضم ممثلين عن كافة صفوف القوات المسلحة .

اما السؤال الذي يطرح نفسه الآن — وبعد ان اخذ هذا «النجاشي» الجديد على عاتقه عددا من المسؤوليات التي ليس بمقدور بشر تحملها



حتى في ظروف اعتيادية ـ هو هل الجنرال عندوم حقا الرجل رقمواحد وراء كل هذه الاحداث الجبارة التي بدأت في شباط (فبراير) وانتهت بالفصل الاخير من هذه السلسلة التي قضت على آخر أسد من أسـود يهوذا ، أم انه مجرد « محمد نجيب » آخر توجهه مجموعة من الضباط من ذوي الرتب الصغيرة والمتوسطة بزعامة « عبد الناصر » آخر يعمل من وراء الستار بانتظار الظرف الملائم للكشف عن شخصيته ؟ هذا ما ستجيب عنه الايام . وثمة علامة استفهام ترتسم حول الاسباب الخفية وراء استطالة فترة الانقلاب وامتداد وقائعه على مدى ١٩٨ يوما ، الامر الذي استنزف طاقة بشرية هائلة ، من اول يوم عصيان الفرقة الثانيـة في اسمره حتى تاريخ توجيه الضربة الختامية باقصـــاء الامبراطور عن العرش .

العسكريون في مركز المسؤولية

ظهرت في الآونة الاخيرة دلائل كثيرة تشير الى وجود انقسامات خطيرة داخل المجلس العسكري الحاكم سببه تواجد فئات من الضباط متنافسة ومتطاحنة فيما بينها بسبب اختلاف نزعاتها وأسلوب كل منها لمعالجة قضايا الساعة ونظام الحكم في المستقبل . وكان موضوع مـن سيحكم البلاد من المواضيع الشائكة التي احتدم حولها الجدال ووصل من اجلها الصراع حد الانقسامات التي أنذرت بانفجار الموقف . فالمتطرفون ومعظمهم من صغار الضباط كانوا وراء اقامة حكم عسكري بحت ريثما ينجلي الموقف . بينما ذهب آخرون الى تشكيل حكومة تضم العسكريين والمدنيين . وفريق ثالث كان يحبذ تشكيل حكومة مدنية وفق رغبـات الشعب وتفاديا لاي صدام معه في المستقبل ، يقبض العسكريون على زمام الامور فيها من وراء الستار كما فعلوا مع حكومة ميخائيل ايمرو . وبين الضباط من كان يخشى عدم نجاح حركتهم فينفذ هايلا سلاسي من خلال ثغرة انقساماتهم فيباغتهم بحركة التفافية تقضي على ما بذلوه من جهود وتضحيات فيعود الى الميدان منتصرا كما انتصر عام ١٩٦٠ ونصب المشانق لقادة الحركة .

ازال الضباط ملك ملوك اثيوبيا عن مسرح الاحداث بصورة نهائية. ولاول مرة في التاريخ تحكم هذه البلاد بدون ملك . ولكن يتساءل المرء ، هل ان بزوال هذا الشبح زالت عن اثيـــوبيا متاعبها ومشاكلها الممتدة عمقا الى ما وراء التاريخ المعاصر ؟ وهل من يستطيع ان يجزم بأن ما حدث قد ضمن للبلاد وشعبها العيش الرغيـــد الناعم والاستقرار والهدوء والحرية ؟ يبدو ان الدرب لبلوغ الهدف طويل . وكثيرا ما تقع انقلابات سياسية هنا وهناك ، ومعها أحيانا نظمها الاقتصادية ـ من اليمين الى اليسار ـ فلا يحدث ذلك رجة مخيفة او انهيارا في مجتمعها ، بالنظر



لمتانة ورسوخ دعائمها الاقتصادية ونضوج مجتمعها . انما ما يخشى منه هو عواقب هذه الرجات والهزات الاجتماعية في الشعوب البدائية غير المتطورة . وما يحدث في اثيوبيا اليوم يحتاج الى زعامة ناضجة ومنزهة عن الاطماع لايصال سفينة البلاد الى شاطىء السلامة . فالشعب الاثيوبي شعب بدائي بمعنى الكلمة ، وهو غير متماسك العرى ــ والنقطة الاخيرة هي من نقاط ضعفه الخطيرة . وقد يكون من السابق لاوانه الجزم في شكل الايام التي تنتظر هذا الشعب .

ولد العهد الجديد وأمامه جبل شامخ من المشاكل والمتاعب الموروثة وأمامه التزامات دولية تتطلب الدرس واعادة النظر . لقد أعلن العسكريون انهم يلتزمون بسياسة عدم الانحياز في السياسة الخارجية . فكيف سيوفقون بين هذا الاتجاه ورعاية المصالح الامريكية في البحر الاحمر والقواعد العسكرية في اريتريا . ثم تأتي على نفس المرتبة من الاهمية والخطورة علاقات اثيوبيا باسرائيل ، على الرغم من قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . وغير خاف ان اسرائيل ملتزمة بمنهاج واسع النطاق لتدريب الجيش الاثيوبي وخاصة وحدات الصاعقة (الكوماندوز) ، ولا يقل عن ذلك أهمية التزامها في المجال التعليمي والمسح الجيولوجي وتدريب المدرسين الاثيوبيين . وفوق هذا وذاك تجيء المصالح الاقتصادية حيث لاسرائيل مشاريع تجارية ضخمة في تجارة وتعليب اللحوم وتصديرها ، خاصة في اقليم اريتريا .

وازاء هذه الظروف الموروثة من عهد هايلا سلاسي يواجه قادة اثيوبيا اليوم موقفا حرجا بالنسبة لعلاقات بلادهم مع الدول العربية بصورة عامة ، والصومال ومصر والسودان بصورة خاصة ، اذ أعلن الحكام العسكريون عن رغبتهم في اقامة علاقات ودية مع هذه البلاد . ولو عدنا بالذاكرة الى الوراء قليلا لوجدنا ان تسهيلات كبيرة كانت قد قدمت لاسرائيل من منشآت اثيوبيا على البحر الاحمر ، خلال حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ . فما هو الموقف الجديد الآن يا ترى ؟

من سيفوز بحصة الاسد ؟

كان اعلان الجنرال عندوم عن عزم القوات المسلحة على حكم البلاد حكما عسكريا ــ ولو مؤقتا ــ مثار ضجة كبرى بين صفوف العمال والطلبة والمعلمين وسائر فئات الشعب ، وسببا لاثارة الشكوك في نفوس الناس . وبات الوضع ينذر باحتمال حدوث مجابهة بينهم وبين الجيش . فالاثيوبيون يمقتون الحكم العسكري . وقال لي أحدهم مرة : « ان وطأة السوط الذي بيد المدنيين لاخف من وطأة السيف بيد العسكريين » . وهم يخشون ان يكون ليل الوعود بالعودة الى الحكم



المدني طويلا لا صبح بعده . والشواهد على ذلك كثيرة ، في القارة نفسها وخارجها . فأمامهم نايجيريا مثلا ، وهي اكثر دول افريقيا السوداء نضوجا وخبرة في أمور الادارة المدنية منذ عهد الاحتلال البريطاني ، واطولها باعا في ميدان العلوم والثقافة العامة . فقد أخضعت للحكم العسكري منذ سنة ١٩٦٦ بأمل عودة الحكم المدني لها بحلول سنة ١٩٧٦ . ولكن ها هو الجنرال يعقوب غوين زعيم نايجيريا القوي يصرح في أواخر ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ بالغاء خطط العودة للحكم المدني في الموعد الذي أعلن عنه – أي في سنة ١٩٧٦ .

تقول الفئات المنظمة القوية التي نزلت الى الشارع – وهي نقابة المعلمين التي تضم في عضويتها ١٨ ألف معلم ، واتحاد نقابات العمال التي يجتمع تحت لوائها ١٠٠ ألف عامل ، واتحاد الطلبة الجامعيين الواسع النفوذ ، انها هي ، قبل غيرها (وتقصد بها القوات المسلحة) التي اقضت مضاجع رجال ووزراء هايلا سلاسي وقوضت أركان امبراطوريته . وتضيف بأن مساندتها الفعالة للتحرك العسكري كان قد ضمن له التأييد الشعبي الواسع ، مما عجل بانهيار النظام الملكي . فالاضراب العام الذي قام به المعلمون ، وشاركهم فيه العمال والطلبة ، والذي سقط فيه أربعون قتيلا ، كان في الواقع بمثابة الشرارة الاولى للتطورات الاخيرة . فلا غرو ان تقف هذه الفئات موقف الند للند مع العسكريين ، مطالبة اياهم بفسح المجال لعودة البلاد الى الحكم المدني ، وكأن لسان حالها يقول : « ان الشعب لا يريد استبدال دكتاتورية هايلاسلاسي بدكتاتورية الضباط » .

غير ان الضباط مضوا في تنفيذ مخططهم فشكلوا حكومة عسكرية غير هيابين باحتجاجات الطلاب والعمال . فخرج هؤلاء الى الشارع بمظاهرات صاخبة عنيفة ، اعتقل الجيش على اثرها ثلاثة من زعماء العمال ، مما أدى الى هياج نقاباتهم التي هددت بتصعيد الاضراب وطالبت بالافراج عن قادة حركتهم . وطغى التوتر على العلاقات بين العمال ورجال الحكم ، فيما كان المعلمون يواصلون اجتماعاتهم لرسم خطط العمل للمستقبل ازاء تصلب القوات المسلحة التي هددت بدورها باتخاذ اجراءات صارمة بحق المخالفين لقرار حظر تنظيم المظاهرات . وبات الامر ينذر بخطر الانفجار بسبب اصرار كل من الجانبين على موقفه السلبي .

ومما زاد في الطين بلة ظهور مقال في الصحيفة التي يصدرها الطلاب دعا العسكريين الى التخلي عن الحكم وتسليم مقاليد الامور الى حكومة مدنية انتقالية تشرف على الانتخابات الجديدة . واشترط المقال اشراك عناصر تمثل نقابات العمال والفئات الفنية والمهنية ونقابة المعلمين في هذه الحكومة الانتقالية . ومن طريف ما جاء في هذا المقال



ملاحظة ـ قد تكون موجهة للعسكريين ـ تقول : « ان اثيوبيا لا تحتاج الى الزعماء بل الى الديمقراطية » . وردا على هذا المقال هاجمت الصحيفة الرسمية التي تصدرها وزارة الاعلام ، الطلاب والعمال واتهمتهم بممالأة الامبراطور المخلوع وبالعمل لحساب الامبريالية والرجعية . واستمر التراشق بين الجانبين على هذا النحو .

وثمة مخاوف وشكوك نشأت بين الطلاب الجامعيين عن الاسباب الخفية وراء اعتزام حكومة الضباط على اغلاق الجامعة لمدة سنة كاملة بحجة الاستفادة من العناصر الجامعية ـ أي الطلاب ـ للنهوض بأعباء مشروع عاجل يستهدف محو الامية في القرى والارياف . ففسر الطلاب هذا القرار ، وانتخاب هذا الظرف بالذات لتنفيذ مشروع لا يستدعي هذا الاجراء الفوري ، على انه خطة مدبرة لابعادهم عن العاصمة وعن مجرى الاحداث فيها . وبعين الوقت لاضعاف الجبهة الوطنية التي اوشك موقفها من العسكريين ان يتخذ طابع المناوأة والتحدي . اما عن مشروع محو الامية فقد سبق للطلاب أن رحبوا به وتحمسوا لتنفيذه قبل غيرهم . كما سبق لهم ان ساهموا بخدمات وطنية مماثلة في عهد الملكية . فقد فرضت أنظمة الجامعة آنذاك على كل طالب ـ عادة بعد السنة الثالثة ـ قضاء سنة كاملة في اداء خدمات اجتماعية خارج الجامعة . الا ان اعتزام العسكريين على اغلاق الجامعة بكامل كلياتها واقسامها وشل حركتها سنة كاملة ، فهذا مغاير لرسالتها في خدمة المجتمع والمعرفة .

وتجنبا لتعميق هوة الخلاف بين الجيش والقوى الوطنية المنادية بانسحاب القوات المسلحة الى ثكناتها ارتأت القيادة العسكرية ان من الاصلح فتح المجال لاجراء حوار مع قادة العمال والطلبة حول مطالبهم . وتم ذلك فعلا ، وجلس الجانبان على طاولة المفاوضات . وأعلن الجانب العسكري على اثر ذلك انه وافق على تشكيل حكومة مدنية . لكنه يبدو ان الجانب العسكري عاد واقنع العمال والطلاب بخطورة وضع البلاد وحراجة الموقف السياسي والاقتصادي الذي تمر به ، مما يستدعي هيمنة سلطة عسكرية لادارة شؤون الدولة ولو بصورة مؤقتة . ومهما يكن من امر فالتوصل الى اتفاق في هذه الظروف جنب البلاد احتمال وقوع مصادمات دموية في الشارع لا يقدر أحد عواقبها . ولا ننس ان اية مجابهة للجيش مع الشعب لم تكن بصالحه اذ لم يكن قد ثبت أقدامه في الحكم بعد . وقد يكون ان قادة العمال بدورهم ايضا أدركوا بأن ليس من مصلحتهم التورط في مصادمات عنيفة مع القوات المسلحة



التي قد تضطر الى استعمال القوة ومختلف اساليب القمـــع لتأمين سيطرتها على الحكم في هذه الظروف .

وعلى هذا النحو تمت المهادنة أو الاتفاق المؤقت ، واسدل الستار على المجابهة العلنية . وصــار للجنرال أمان عندوم ـ نجاشي الحبشة الجديد ـ ما أراد ، وهو حكم البلاد حكما عسكريا مطلقا كسلفه ، مـع فارق واحد ، فقد حكم السلف « بتفويض من الاله » ، فيما حكم الخلف اليوم بتفويض من السيف .



المراجـع العربية

الاسلام والحبشة عبر التاريخ ـ بقلم المهندس فتحي غيث

بلوغ الارب لمعرفة احوال العرب للسيد محمود شكري الآلوسي ـ الجزء الاول والثاني

تاريخ العرب المطول ـ بقلم الدكتور فيليب حتي وزملاؤه ـ الجزء الاول

تاريخ مصر الاسلامية ـ بقلم الدكتور جمال الدين الشيال

الحاكم بأمر الله ـ بقلم عبد الله عنان

الحبشة ـ بقلم الدكتور راشد البراوي

الحركة الصليبية ـ بقلم الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

رمال العرب ـ بقلم ولفريد ثيسيغر ـ تعريب نجـدة هاجر وابراهيم عبد الستار

السودان عبر القرون ـ بقلم الدكتور مكي شبيكة

صوماليا ـ بقلم السيد عبد المنعم عبد الحليم

طائفة الدروز ـ بقلم الدكتور محمد كامل حسين

العصر المماليكي ـ بقلم الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

قناة السويس ـ بقلم الدكتور محمد عبد الرحمن برج

مروج الذهب ـ للمسعودي ، الجزء الثاني

مصر والسودان ـ بقلم الدكتور محمد فؤاد شكري

ورقات عن الحضارة العربية بافريقيا التونسية ـ بقلم حسن حسني عبد الوهاب

اليمن عبر التاريخ ـ بقلم السيد احمد حسين شرف الدين .



pment of Education in Africa, Addis Ababa, May 1961 - Unesco Report.

First Footsteps in East Africa, by Sir Richard Francis Burton.

Foreign Trade Statistics of Africa, UN Bulletin, ECA, Addis Ababa 1960 — 71.

The Gathering Storm (Sanctions Against Italy), by Winston S. Churchill.

Grass, Yearbook of Agriculture, 1948, USDA, Washington.

A History of Islam in West Arica, by J. Spencer Trimingham.

Hutchinson's New 20 th Century Encyclopedia, 1968.

In the Country of the Blue Nile, by C. F. Rey.

Inside Africa, by John Gunther.

Islam in Ethiopia, by J. Spencer Trimingham.

Islam Today, edited by A. J. Arberry and Rom Landaw.

National Geographic Magazene, January 1973.

Outline of a Plan for African Educational Development, Conference of African States 15-25 May, 1961, UNESCO Report.

The Real Abyssinians, by C. F. Rey.

Seminar on Agricultural Education, Kampala, Uganda. F. A. O. Report, 1963.

State of Food and Agriculture, F. A. O. Reports 1955-71. Report, 1963.

Storea D'Ethiopia, by Conti Rossini.

Travels to Discover the Source of the Nile, by James Bruce.

Wax and Gold, by Donald N. Levine.

The White Nile, by Allan Moorehead.



المراجع الاجنبية

The Abyssinians, by David Buxton, 1970.
African Discovery, by Margery Perhan and J. Simmons.
African Statistics, Economic Commission for Africa, Vol. I, No. 2, June 1961.
African Survey, F. A. O. Report 1962.
A Survey of Economic Conditions in Africa, UN Reports 1967 — 71.
Agricultural Education in Africa, F. A. O. Report 1965.
Agricultural Education in Ethipia, by Mumtaz Arif (Co-Auther), 1967.
Agricuture in Ethipia, F. A. O. Report, 1961- by H. P. Huffnagel.
The Blue Nile, by Allan Moorehead.
Directory of Institutions in 40 African Countries, F. A. O. Report 1969.
East African Medical Journal, 22-23, 1945.
Encyclopedia Britannica.
Eritrea, A Colony in Transition, by G. K. N. Trevaskis, 1961.
Ethiopia, by Richard Greenfield.
Ethiopia, by Ethiopian Press Department — Addis Ababa 1958.
Ethiopia Today, by Ernest Luther 1964.
Ethiopian Government Customs Report for Exports, 1948.
The Ethiopians Speak, by Wolf Leslav — I Harari.
The Ethiopians Speak, by Wolf Leslav — II Chaha.
The Ethiopians Speak, by Wolf Leslav — III Sodo.
Facts About Eritrea, by Aradom Tedla, 1964.
F. A. O. Coffee Mission To Ethiopia, 1964 — 65.
Final Report, Conference of African States on the Develo-



محتويات الكتاب

الفصل الثالث والعشرون ٣٤٢

الاقتصاديات الاثيوبية

الموارد الطبيعية

آ ـ الزراعة ـ نظرة عامة

١ ـ محاصيل الحبوب ، محاصيل الحبوب الاخرى ـ ٢ ـ المحاصيل الزيتية ـ ٣ البقول ـ ٤ ـ محاصيل الالياف ، القطن ، السايسل ، الدوم ، الانسيت ، سانسيفييرا ، معامل صناعة الالياف ـ ٥ ـ قصب السكر ـ ٦ ـ التبغ ـ ٧ ـ المحاصيل المنبهة : البن والقات والشاي ـ ٨ ـ التوابل والطيوب والادوية : اللبان والبخور ، المر او المر المكاوي ، الحشائش والاعشاب الطبية ، الصمغ العربي ، الكوزو ، الزنجبيل ، البهارات ـ ٩ ـ عطر الزباد ـ ١٠ ـ العسل كغذاء ودواء ومسكر .

ب ـ الثروة الحيوانية ـ نظرة عامة ـ الابقار ، الاغنام والماعز ، الخيول والابل ، الخنازير ، نظرة عامة الى المستقبل .

ج ـ الثروة السمكية ـ الاسماك البحرية ـ اسماك المياه العذبة .

د ـ الغابات ـ نظرة عامة عبر التاريخ ـ مناطق الغابات الطبيعية .

هـ ـ الثروة المعدنية ـ التنقيب عن المعادن ـ الذهب .

التجارة

١ ـ نظرة عامة : التجارة الخارجية ، مشاريع انمائية ، دخل الفرد الاثيوبي .

٢ ـ المواصلات : الطرق العامة ، السكك الحديدية .

٣ ـ الموانىء ـ ميناء مصوع ، أدوليس ، زولا ، ميناء عصب .

٤ ـ الطيران التجاري .

٥ ـ السياحة .

التخطيط من اجل المستقبل .

الفصل الرابع والعشرون ٣٩٨

عبر اعماق اثيوبيا

١ ـ هرار ـ الفردوس المنسية ، داخل أسوار هرار ، مدارس خاصة ، أسواقها وتجارتها ، أعياد المسلمين ، مجالس القات عند الهراريين ، قبور الائمة ، ضباع هرار .

٢ ـ سكة حديد جيبوتي ـ اديس ابابا ، على عتبة المرتفعات ، ديره داوه ، استراحة عواش ، موطن الامهارا .

٣ ـ اديس ابابا أو الوردة الجديدة .

٤ ـ بحيرات الوادي الشقي .

٥ ـ صحراء ومنخفض الدناقل .





